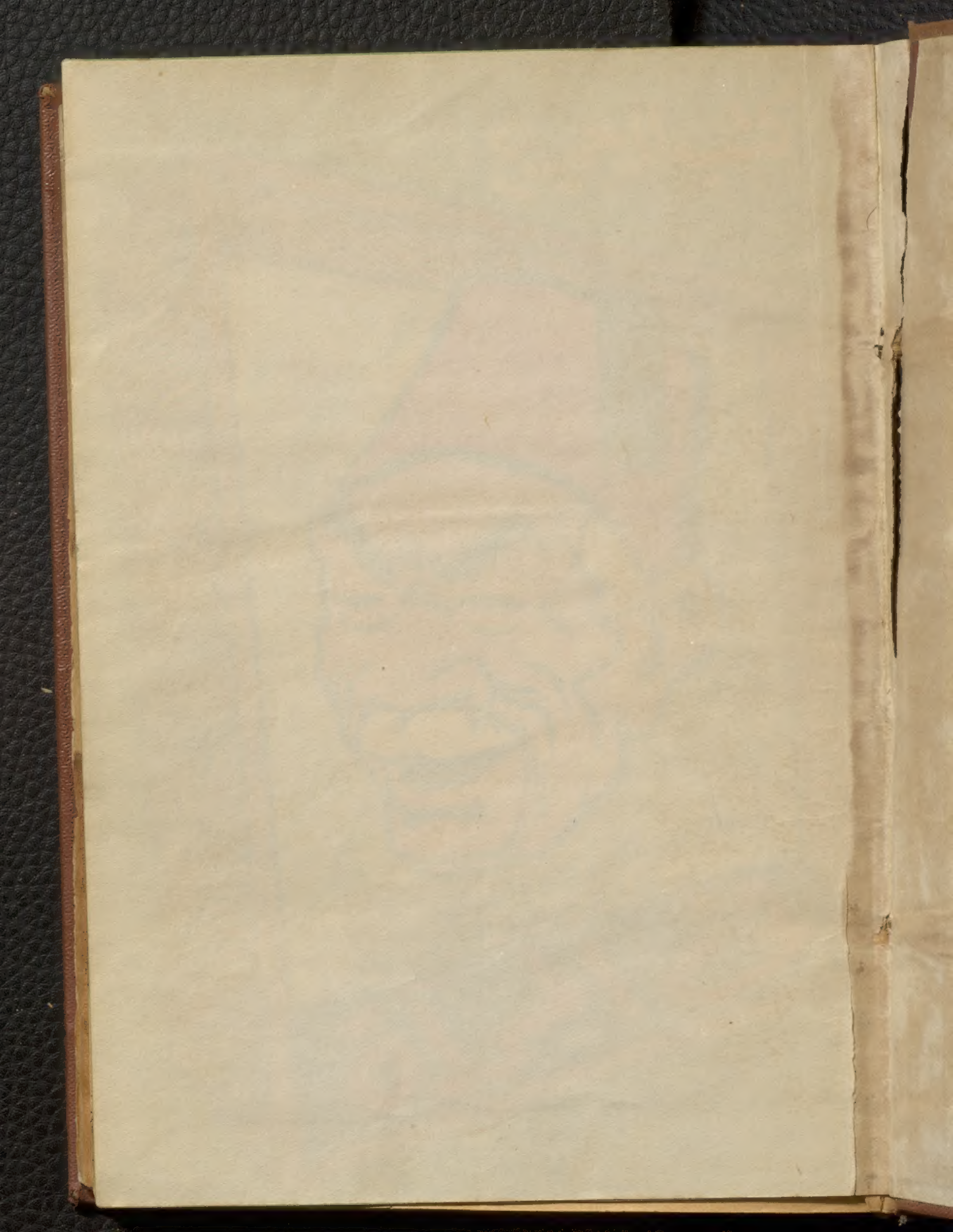







كتب للجميع
ودعاك حُسّدُك الرئيس وأمسكوا
ودعاك خالقك الرئيس الأكبرا
في المرآة
الشيخ عبد العزيز البشري
بريشة سانتي
٥



كتب للجميع

في المرآة

مختار المرايا التى نشرت فى السياسة الاسبوعية

لفقيد الادب

الشيخ عبد العزيز البشرى



٢٢ شارع توفيق بالقاهرة

طبع بمطابع جريدة ((المصرى))

الإهداء

الى هؤلاء السادة الذى بعثت القول فيهم ، انما استوحيت فى هذه «المرايا» خلالكم واستلهمت نزعات أنفسكم ، فانتم أحق الناس بأن تهدى اليهم . فمن اصاب نفسه فى « مرآته » فاعجبته صورته فليوجه الحمد لله تعالى الذى سواه على هذا ، فليس لى من الامر غير النقل والاحتذاء . والسلام عليكم ورحمة الله

المخلص
محرر المرآة

تقديم

سألنى صديق لى كريم المنزلة عندى ان أتخير له صورا من تلك « المرايا » التى أرسلتها فى « السياسة الاسبوعية » ليطبعها ويسويها للناس كتابا . وتعذرت عليه دهرا لاننى انما أعانيها على أنها بنت ساعتها وحديث يومها لا على انها مما يثبت، فى الزمان، لتردد الانظار ، واعتياد الافكار ، وما برح يعترينى بالحاحه الكريم ويملك على مذاهب الحجج فى مطاولته حتى لم أجد لى مفيضا من التسليم . فجمعت منها طائفة وضممت اليها ماكتب فى هذا الباب شاعر مصر الكبير حافظ بك ابراهيم فى حضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل ، وماكتب أديب آخر فى حضرة صاحب الفضيلة شيخ الجامع الازهر ، وجعلت أعود على تلك «المرايا» بأوان التهذيب فأرم مارث بالطبع ، واستدرك ماعسى أن تكون قد فوتت العجلة من فنون المعانى ، وأعالج ما أضعفت السرعة من القول وأوهت من نسج الكلام . وأضفت الى هذه المجموعة طائفة اخرى من رسائل شتى كان قد جرى بها القلم ، على أنها كلها مما يدخل فى معنى تلك « المرايا » ويتصل بجنسها . ثم لقد اعتمدت من ألفاظ هذا الكتاب كل مايحتاج الى الضبط فضبطته بالشكل ، وكل مايحتاج الى المراجعة ففسرته ، تدريبا للناشئين على المنطق الصحيح . وأمدنى بأصدق العون فى هذا كله وفى تصحيح طبع الكتاب الاديبان اللغويان الاستاذ احمد زكى العدوى والاستاذ محمد صادق عنبر ، وصلهما الله عن الادب بخير الجزاء .

وصدرت كل «مرآة» بصورة صاحبها (الكاريكاتوريه) من رسم الفنان الاشهر الاستاذ (سنتيز) . اما صورة الغلاف

فقد تفضل بوضعها الاستاذالفنان المبدع مصطفى بك مختار محرم ، مد الله فى عمر أناملهمارحمة بالفن الجميل .

ولست أتحدث عن مطبعة دار الكتب فان كل آثارها تحدثك وحدها عما أوفى على الغاية من الدقة والجمال والاحسان . ولا يفوتنى فى هذاالمقام أن أنوه بما لحضرة محمد نديم افندى ملاحظ المطبعة من همة وخبرة يزينهما حسن الخلال .

وقد راعيت فى ترتيب هذه « المرايا » تواريخ نشرها فى « السياسة الاسبوعية » فلاتأخذنى ، بعدهذا ، بتقديمزيور باشا فى « رجال السياسة » على سعد باشا زغلول ، ولا بتقديم الدكتور محجوب ثابتفى «الطب» على على بكابراهيم ، ولابتقديم الاستاذ فكرى اباظه فى « الوطنية » على حافظ بك رمضان !

* * *

والغاية التى تذهب اليها «المرآة» هى تحليل «شخصية» من تجلوه من الناس ، والتسلل الى مداخل طبعه ، ومعالجة ماتدسى من خلاله ، ونفض هذاعلى القارىء فى صورة فكهة مستملحة . وهذا النوع من البيان انما تروينا عن كتاب الغرب وما فتئنا نقلدهم فيه تقليدا ، على أن بعض كتاب العرب من أمثال الامام الجاحظ قد سبقوا الى شىء من هذا التصوير البيانى ، الا انهم لم يعدوا فيه تسقط هنات المرء والصولة عليها بألوان التندر والتطريف . أما التوسل بمظاهر خلال المرء الى مداخل نفسه ومنازع طبعه ، واجراء هذا على اسلوب علمى وثيق «Psyc Hologigue» فذلك مالم أقع عليه فى منادراتهم ووجوه تطرفهم .

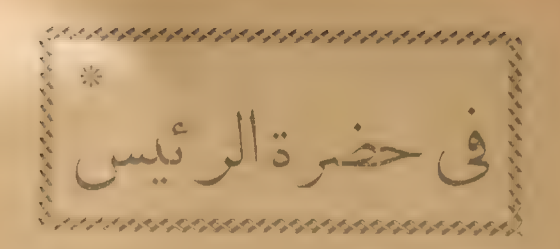
ولا يذهب عنك أن شأن الكاتب فى هذا الباب كشأن المصور (الكاريكاتورى) فهو انمايعمد الى الموضع الناتىء فى خلال المرء فيزيد فى وصفه ويبالغ فى تصويره بما يتهيأ له من فنون النكات . وانت خبير بأن مرد النكتة الى خلل فى القياس

المنطقى باهدار احدى مقدماته او بتزييفها او بوصلها ؛ بحكم التورية ونحوها ؛ بما لا يتصل به فى حكم المنطق المستقيم ؛ فتخرج النتيجة على غير ما يؤدى اليه العقل لو استقامت مقدمات القياس ، وهذا الذى يبعث العجب ، ويثير الضحك والطرب . فالنكتة بهذا ضرب من أحلى ضروب البديع . ولا يعزب عنك كذلك أن « النكتة » اذا لم تكن محكمة التلفيق متقنة التزييف بحيث يحتاج فى ادراكها الى فطنة ودقة فهم خرجت باردة مليخة لا طعم لها فى مساغ الكلام .

ولعلك آخذى باننى اسف أحيانا الى العامية الشائعة فاوردها فى درج الكلام . وعذرى فى ذلك ما تعرف من أننا نكتب بلغة ونتناول اسبابنا الدائرة بلغة أخرى ؛ وهيهات لك أن تجلى على القارىء صورة كامنة من حديث قوم فى مناقلاتهم ومنادراتهم وما تطارحوا من فنون النكات الا بأن تورده كما نطقوا به ؛ وبخاصة اذا كان يجرى فى التعبيرات التى تشيع على ألسن الناس وتذهب عندهم مذهب الامثال . فاذا حاولت أن تؤدى هذا بفصيح اللغة فسد الغرض واختل نظم الكلام . وللامام الجاحظ فى هذا المعنى قول جليل . فراجعه ان شئت فى كتابه « البخلاء » .

* * *

وبعد فالرأى ألا تتناول الاقلام بمثل هذا النوع من الحديث الا امرا يقوم على شأن عام ؛ على ألا نرد حقا ولا تضيف اليه ما ليس له . وعلى ألا تندس الى مكارهه ولا تظهر من مستور هناته ما لا يتصل بالشأن العام ، فاذا هى اعترته بعد هذا بألوان التندر كان حقيقا بها الا تصرف وجه القول الى الرغبة فى تهاونه والتهزىء به والكيد له . وهذا ما تحريته فيما عالجت من هذه (المرايا) فان يكن قد ند القول بعض الحين فاننى امرؤ ينبو على القلم ، وتزل بى القدم ، وانى استغفر الله واسأله العافية.



فى حضرة الرئيس *

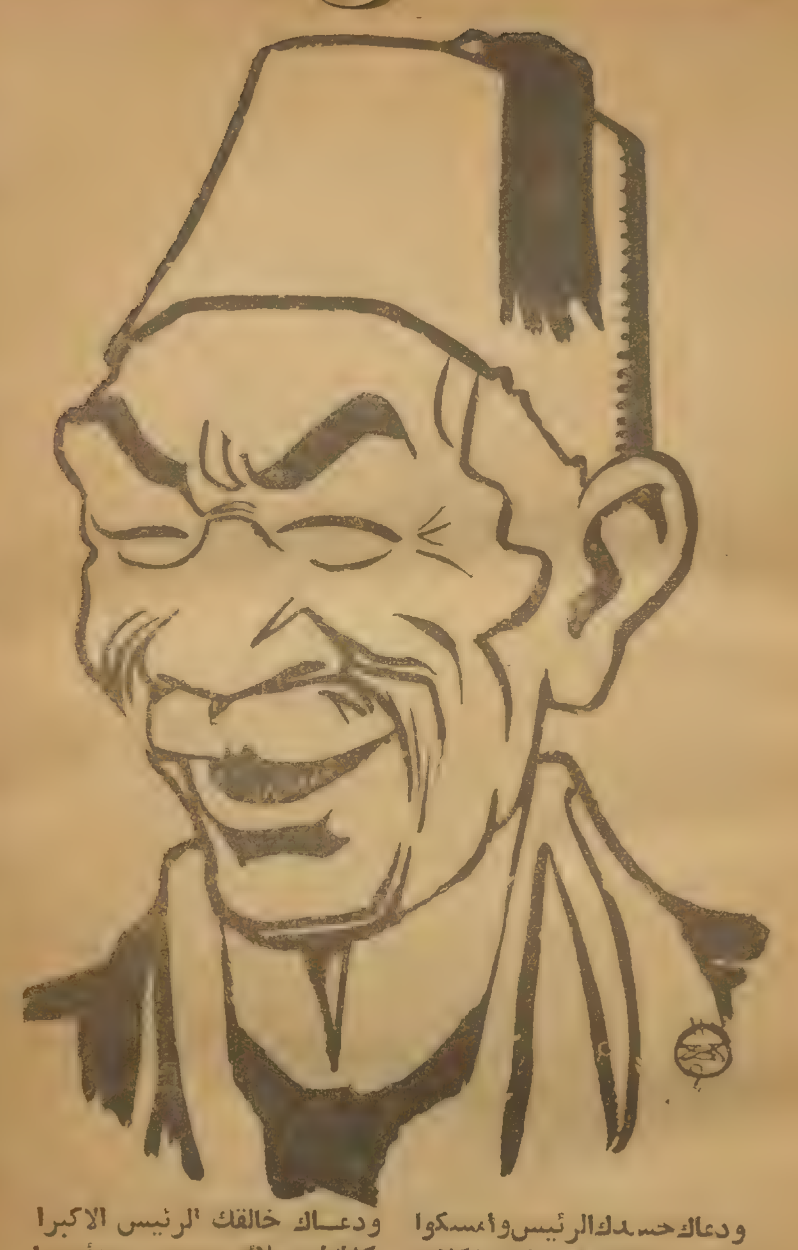
ملء السمع ، ملء القلب ، ملء البصر . لو حاول بكل جهده الا يكون رجلا عظيما ما استطاع ، هيهات لامرىء ان يمنع عن نفسه ما شاء لها الله ! وقد سوى الله له هذه العظمة من يوم مدرجه . فكان طالبا عظيما ، وكان مدرها عظيما . وكان قاضيا عظيما ، ثم تناهت اليه زعامة امة فهو فيها ملء السهل والجبل

بحسبك ان تراه لتعرف انه سعد ولو لم يومىء اليك احد بانه سعد : وكيف يختلط عليك امره وهذه يد القدرة قد دلت عليه بدلائل تنبئك بانه ، وان كان من الناس ، الا انه اعظم الناس

بسطة فى العلم والجسم ، بسطة فى العقل والحلم . وعزم تتزايل الجبال دون ان يتزلزل . ويقين تتحول الارض عن مدارها ولا يتحول ، ومنطق يصول فى الجلى حتى لتحسبها الجحافل قد تداكت بسيوفها وعواليها ، ويلطف فى السمر حتى لتتمثل اسراب الكواعب وسوست حليها وتضوعت منها غواليها

وما ان رايت ولا سمعت برجل فسح الله تعالى له فى البيان وامكنه من نواصى الحجة كما فسح لسعد ومكن لسعد . ولقد تتقدم لمباراته فى الامر تظن انك قد بلغت منه الغاية ووقعت على الصميم وتمنعت منه بالحصن القوى ، فما هو الا ان يرسل عليك الحجة حتى ترى انه ملك الراى عليك من جميع اقطارك ،

(*) نشرت بجريدة الاهرام الصادرة فى ١٧ اكتوبر سنة ١٩٢٦ عقب زيارة محرر المرآة لدولة الرئيس الجليل سعد باشا زغلول بمسجد وصيف



ودعاك حسدك الرئيس وأمسكوا ودعــاك خالقك الرئيس الاكبرا
خلفت صفاتك فى العيون كلامه كالخط يملأ مســمعى من أبصرا

وانك سرعان ما وقعت اسيرا فى يديه تتقلب فيهماتقلبا ، وهيهات لك الخلاص الا بان تنزل فى امرك على الاذعان والتسليم !

وان انس لا انس ليلة مضت من عشر سنين حاور فيها مستشارا كان فى محكمة الاستئناف، معروفا بشدة الجدل ، فى مسالة فقهية . وكلما انحط الرجل فيها على راى ازعجه سعد فطار الى غيره ، حتى اذا ظن انه تمكن فى افحوصه (١) ثار عليه بالحجة فوثب الى سواه ، ومازال به صدرا من الليل ينشره ويطويه ، وينقله من راى الى راى ، ويحوله من قول الى قول ، حتى داخ الرجل ووهن ، ولم يبق فيه فضل لحوار ولا جدل !

ولا ادرى اكان ذاك من سعد مجرد تهد للرأى وتعقب لموطن الصواب ، ام انه انما كان يتلعب بالرجل تلعبا لينزله على معرفة قدره ، ففى نفس ذلك المستشار غرور وفى انفه ورم ! ام هى المخيلة (٢) تبعثها فى النفس شدة التمكن من النفس ، وانه ليلذ لها احيانا الا تمتعك بذلك الواقع الذى اطمأنت به والحق الذى استرحت اليه ، فما هو الا ان تصول بالحجة عليك حتى ترى انك انما كنت تقبض على الهواء ، وان صرحك الذى اقمته تفرق عنك تفرق الهباء ، فتتولى منخذلا عن يقينك وقد ضربك الشك : اكنت مخدوعا عن الواقع ؟ . ام ان هذا الواقع دون قوة سعد فهو يصرفه بحجته كيف يشاء ؟ .. لا ادرى يومها ماذا كانت اربة الجبار . والله اعلم ! .

وسعد قد علت به السن وشاب راسه . على انه . بسط الله فى عمره . ما زال يمرح من فطنته القويه فى افنى الفنون وامرع الشباب . ولو كتب لك ان تظفر ساعة بمجلس هذا الذى دوت الدنيا كلها بمجده لنعمت بما لا يلحقه الوصف من عذوبة طبع فى عذوبة مجلس . وحديث كانه قطع الروض رف (٣)

(١) الافحوص : مجثم القطاة وهو الموضع الذى تفحص التراب عنه لتبيض فيه

(٢) المخيله : الكبر

(٣) اهتز من نضارته

آسه ونسرينه ، وتضوع ورده وياسمينه. وبديهة كانه يقرأ منها في كتاب ، وكأنها تستوحي الغيب فليس بينها وبين الغيب حجاب. ونادرة تشيع فيك الطرب، وتهزك من اعجاب ومن عجب ، اذ هو فيما يرسل من القول ، في جده ومزاحه ، لا يعدو ما ينبغي له من تحشم ووقار

وانه ليقبل عليك بكل لطفه حتى يفرخ روعك ، ويفسح لك في جوانب القول لتقول ، وانه ليباريك في منزعك ، ويدارجك في حديثك الى ان يرسلك على سجيتك ويسترسل معك ، حتى اذا اطمأننت اليه وظننت انك في مساجلة رجل مثلك ، خانته عبقريته ، فوثب به ذهنه الى مالا يتعلق به ذهنك ، فاذا انت قد طرت كل مطير ، واذا الطبيعة تأبى برغمك ورغمه الا أن تشعرك أنك في حضرة سعد زغلول !

يالله من هذا الرجل ! وانه ليعرض في الامر فيقول فيه مقالا، وانك لتقدر له بادىء الرأى غاية ماتعاهد الناس من حجة ، واقصى ماتعارفوا من دليل ، فاذا هو قد وقع في تدليله على مالم تقع عليه فنون الناس ، وارتفع الى مالم تتعلق به أذهانهم ، ففتح في المنطق فتحا جديدا وأتى بما يبهر ويروع ، وكيف لسعد الا يرتفع على مذهب حجة الناس ، وقد رفعه الله على الناس ؟ .

وسعد وافر الشعور بعظمته ، مزدحم الشعور بأنه انما يتحدث على آمال أمة ، فهو مهما بارى المجلس في فنون أحاديثه ، ومهما تدلى به السمر الى تلك الاسباب الدائرة بين الناس ، يرفه بذاك عن نفسه وعن صحبه ، يطفر الفينة بعد الفينة الى حديث الوطن ، فيشك فيه معنى جليلا ، ثم يعود فيصيب ماشاء الله من حديث القوم . أعلمت أن سعدا لايصلح الا للوطن ، وأن الوطن لايصلح الا بسعد ؟ .

اريد ان أكتب عن سعد ، ومن الغرور ان اظن بقلمي الوفاء بوصف سعد مهما تفرج له في جوانب البيان ، فان البيان انما يجرى في غايته الى ماتعاهده الناس من الطبيعة ومن الناس ! أما تلك

النفحات الالهية التي يرسلها الله تعالى في العصور الطوال غبا (١) بعد نبي ليقيل أهل الأرض الزلة ، ويهديهم من الضلالة – فذاك ما يعجز عنه اللفظ ويقصر من دونه البيان .

وبعد فاذا أردت أن تصف الناس سعدا فلن تستطيع أن تصفه بأبرع من لفظة سعد ، فقد جمعت من وجوه المعاني ما لا يبلغه الكلام . وإن قدرته العقول وتعلقت به الأفهام .

---

(١) غبا بعد وقت .

زيوربات ...!

اما شكله الخارجي واوضاعه الهندسية ورسم قطاعاته ومسافاته الافقية فذلك كله يحتاج في وصفه وضبط مساحاته الى فن دقيق وهندسة بارعة . والواقع أن زيور باشا رجل — اذا صح هذا التعبير — يمتاز عن سائر الناس في كل شيء ؛ ولست أعني بامتيازه في شكله المهول طوله ولا عرضه ولا بعد مداه ؛ فان في الناس من هم أبدن منه وأبعد طولا وأوفر لحما ؛ الا أن كل منهم هيكلا واحدا ؛ اما صاحبنا فاذا اطلعت عليه ادركت لاول وهلة أنه مؤلف من عدة مخلوقات لاندرى كيف تصنف ولا كيف تعلق بعضها ببعض ، وانك لترى بينها الثابت وبينها المختلج ، ومنها مايدور حول نفسه ، ومنها مايدور حول غيره ، وفيها المتيبس المتحجر ، وفيها المسترخي المترهل . وعلى كل حال فقد خرجت هضبة عالية مالت من شعافها الى الامام شعبة طويلة ، اطل من فوقها على الوادي راس فيه عينان زائغتان ، طلة من يرتقب السقوط الى قرارة ذلك المهوى السحيق !

وانك لتجد ناسا يصفون زيور بالدهاء وسعة الحيلة ، بينما ترى آخرين ينعتونه بالبساطة ، وقد يتدلون به الى حد الغفلة ، كما تجد خلقا يتحدثون بارتفاع خلقه وتنزهه عن النقائص ، اذ غيرهم ينحطون به الى مالا تجاوره مكرمة ولا يسكن اليه خلق محمود !

كذلك زيور عند الناس مجموعة متباينة متناقضة متشاكسة :

فهو عندهم كريم وبخيل ، وهو شجاع ورعديد ، وهو ذكي وغبي ، وهو طيب وخبيث ، وهو داهية وغر ، وهو عالم وجاهل ، وهو

عف وشهوان ، وهو وطنى حريص على مصالح البلاد ، وهو مستهتر بحقوق وطنه يجود منها بالطارف والتلاد !!

كل أولئك زيور ، وكل هذا قد بضيفه الناس الى زيور ، فلا تكاد تسعهم مجالسهم بما يأخذهم فيه من الدهشة والاستغراب . واذا كان هذا مما لا يمكن فى الطبيعة أن يستقيم لرجل واحد فقد غلط الناس اذ حسبوا زيور رجلا واحدا ، والواقع أنه عدة رجال . وعلى الصحيح هو عدة مخلوقات لا تدرى كما حدثك ، كيف اتصلت ولا كيف تعلق بعضها ببعض ! فاذا أدهشك التباين فى اخلاقه . وراعك هذا التناقض فى طباعه ، فذلك لان هذا الجرم العظيم الذى تحسبه شيئا واحدا مؤلف فى الحقيقة من عدة مناطق لكل منها شكله وطبعه وتصوره وحظه من التربية والتهذيب . فمنها العاقل ومنها الجاهل ، ومنها الحكيم ومنها الغر ، ومنها الكريم ومنها البخيل ، ومنها المصرى ، ومنها الجرنسى . ومنها الفرنسى . ومنها الانجليزى . ومنها المالطى : الخ : كل منها يجرى فى مذهبه ويتصرف فى الدائرة الخاصة به ، فلا عجب اذا صدر عن تلك المجموعة الزيورية كل ماترى من ضروب هذه المتناقضات !

والظاهر أن زيور باشا برغم حرصه على كل هذه المتملكات الواسعة ، عاجز تمام العجز عن ادارتها وتوليها بالمراقبة والاشراف وما دامت الادارة المركزية فيه قد فشلت كل هذا الفشل فأحرى به أن يبادر فيعلن اعطاء كل منها الحكم الذاتى على أن تعمل مستقلة بنفسها على التدرج فى سبيل الرقى والكمال ، وحسب عقله فى هذا النظام الجديد ، أن يتوافر على ادارة رجليه وحدهما ، ولعله يستطيع أن يسيرهما فى طريق الامن والسلام !

* * *

وانى اورد عليك طائفة يسيرة تدلك على مافى هذه المجموعة الغريبة من ضروب المناقضات التى تجزم منها بان ذلك الخلق ليس شيئا واحدا . وانما هو فى الحقيقة عدة أشياء .

فزيور باشا معروف بالقناعة والعفف عن الابتذال فى احراز



لانقاذ مايمكن انقاذه ! . . .

الاموال . ولكنهم فى الوقت نفسه يقولون ان جمع نفقات الولائم التى اقامها فى مصر وفى أوربا فدتناولها من « المصاريف السرية » بينما هو يقبض من خزانة الدولة الف جنيه لهذا الغرض فى كل عام!

ومما يحسن ذكره فى هذا الموضوع ماتحدثوا به من أنه لما زار أوربا فى الصيف الماضى طاف بجميع المفوضيات المصرية هناك فسأل كل مافيها من « المصاريف السرية » حتى اذا علم أنه قد أتى على كل مافى مفوضية باريس من هذه الاموال ولم يدع بها فرنسا ولا بارة ارسل تلغرافا الى مفوضية لندن لتسعفه بكل ماعندها من النقود!

ولقد تعلم احيانا عن زيور باشا حرصه على مصالح الدولة . على أنك اذا عاتبته على اسراف الحكومة فى عهده وابتذالها لاموال الدولة بهذا الاسلوب الفادح أجاب من فوره : « إن مصر غنية » l'Egypte est riche

ولقد تعرف فى زيور باشا طيبة فى القلب وسلامة فى الخلق ثم لقد يظهر لك فيه من المكر وترى له من أنواع الدس مايعيا بمثله أخبث الشياطين . ولقد ذكروا أنه كلما التقى بسعدى أنب قومه على اتفاقهم مع « ألد اعدائهم » الاحرار الدستوريين ، واذا أصاب حرا دستوريا قال له : كيف يصح أن تتحدوا مع أولئك « المجانين المخربين » !

ولقد كان شديد الشكوى من نشأت باشا وبسطة يده فى كل مصالح الحكومة ، فاذا قيل له : وكيف لاتكفه عن هذا وانت رئيس الحكومة ؟ بسط كفيه ورفع رأسه الى السماء وأجاب : وهل يستطيع أحد أن يعمل شيئا فلما أقيل نشأت باشا من السراى جعل زيور يقبل على كل من لقيه يتمدح بأنه هو الذى أخرجه وفى البلاد شرا عظيما !

وقد يعرف عنه بعض الناس قلة الخير ومع ذلك فان له صاحبا ورفيقا من رفقاء الصبا هو (س بك غ) وله ولد يطلب العلم فى باريس فعينه فى مفوضية باريس فى وظيفة غير موجودة !

وفى هذا الصدد قد بين بعض المرسلين الافريقيين فى مصر وقد استهبظ الربح فوسط فى الامر صديقه زيور باشا الذى قصد الى روما فى تجواله بأوربا فى العام الماضى ، ومع مايعرف عن دولته من أنه خريج مدارس الجزويت وأنه أخذ عنهم الدهاء والمكر وبعد غور النفس ، فقد طلب مقابلة قداسة البابا نفسه وخاطبه فى الامر وسأله التخفيف من دين صاحبه ، والبابا أحاله على وزير خارجيته الكاردينال جسبارى وبعد أن سمع هذا من رئيس وزراء مصر كل ما أراد أن يقول هز كتفيه وقال له :

« Chi recevato paga » أى أعلى من اخذ أن يدفع ، وكان على زيور باشا أن يعرف ذلك !

تلك بعض آثار هؤلاء الذين يدعونهم زيور باشا ، فاذا تمثلوا شخصا وبدوا للعيون رجلا واحدا فذلك مصداق قول ابى نواس .

ليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم فى واحد

وان أهل مصر ليأخذون زيور باشا كله بما لا يحصى من الجرائم على القضية الوطنية وانهم ليعدون عليه سفهه فى اموال الدولة واستهتاره بمصالحها ، وانهم ليحسبون عليه ايثاره الاهل والاقربين والاصحاب والمحبين وذوى أرحامهم بمناصب الدولة ومنافعها ، وقد يكون لمجلس النواب مع هؤلاء الرجل شأن اذا أقبل يومُ الحساب !

وان ظلما أن يؤخذ البرىء بجريرة الآثم ، وان عسفا ان يعاقب المظلوم بما أجرم الظالم . فقد يكون الذى اقترف كل هذه الآثام هو كوع زيور باشا الايسر . أو القسم الاسفل من (لغده) أو المنقطة الوسطى من فخذه اليمنى أو غيرها من تلك الكائنات التى تجمعت فى هيكله العظيم ، فما شأن تلك المخلوقات كلها تجر الى مواطن الاتهام ، وتعاقب بما ارتكب بعضها من الجرائر والآثام ؟!

ان الحق والعدل ليقضيان أن يؤلف مجلس النواب . ان شاء الله لجنة تقوم بعمل التحقيق فى جسم صاحب الدولة ، فتسأل أعضاءه عضوا عضوا ، وتحقق مع اشلائه شلوا شلوا ، حتى يفرق منها بين المحسن والمسيء . ولا يخلط فى العقوبة بين المجرم والبرىء .

ولعل العضو الوحيد المقطوع ببراءته من كل ما ارتكب من الآثام

هو مخ زيور باشا ، فما أحسبه شارك ولا دخل ، فى شيء من كل ماحصل !

***

وبعد فاذا كان هناك وصف جامع وخلة مشتركة لهذه الخلائق التى تجمعت لجسم زيور باشا حتى انتظمت فيه شعبا واحدا فذلك أنه قسيس جزويتى فى جلد رئيس وزارة مصرى ، فقد تربى زيور باشا فى مدارس الجزويت كما قلت لك ، وتخرج عليهم وتخلق بأخلاقهم . فاذا رأيت فى طبعه سهولة وفى نفسه بساطة فذلك لبعد غوره حتى ليخفى عليك مافى نفسه من مكر ودهاء !

وفيه صفة أخرى جامعة أيضاهى شدة احترامه « للبرنيطة » وعمله على ارضائها بكل الوسائل فما عرف أن زيور رد فى حياته طلبا « لبرنيطة » مهما كان حاملها فى الناس ، حتى لقد زعموا أن بعض كبار علمائنا الاعلام ، مصابيح الدجى وعمد الاسلام ، بعدما اعياه الكد والجهد وشدة الطلب والسعى وطول الوقوف بالابواب والتردد بين مختلف الاحزاب - فى سبيل وظيفة خالية عزم أخيرا على لبس القبعة لعله يحظى فى هذه الايام (١) بمعونة زيور على افتاء الديار أو مشيخة الاسلام ومولانا الشيخ المذكور بوجه خاص ، لا يعدم الف فتوى من الشريعة ، تحل له هذه الذريعة .

---

(١) نشرت هذه المرآة وزيور باشا فى رياسة الوزارة .

عدلى يكن باشا

اسمر اللون فى شحوب ، الا ان مايخالط سمرته من صعرة حلو مستعذب . يمتاز بقليل من الطول وكثير من العرض ، فهو بعيد ما بين الكتفين حتى لتعرفه موليا كما تعرفه مقبلا .

مستوى معارف الوجه ، حديد البصر ، اذا قدر لك ان يحدق فيك شعرت ان نظره لايستقر على سطحك ، بل انه ليتغلغل فى أطوائك ويصل من نفسك الى كل ماتضن به على الابتذال ، وادع ساكن ، تتجلجل الدنيا من حوله وهو ثابت ثبات الهرم الاكبر . ولقد تجلس اليه تحدثه فى شئون الدنيا فتطالعه باجل احداثها فلا يتقبض ولايختلج (١) ، الا انه يستلقى على كرسيه ثم يدس يسراه فى جيبه ويدير بيمناه رزمة من المفاتيح ، وتحسب ان ذهنه ليس عندك اذ هو عندك كله لايفوته من حديثك قليل ولا كثير .

وكانت لجنة الدستور ، وزاره بمحضرى رجل من اعضائها ، فسأله : ماذا صنعتم اليوم ؟ فقال له : كنا نتناقش فى موضوع (كذا) . فاستوى عدلى على كرسيه ولبث ساعة يتدفق بالحديث فى ذلك الموضوع ويورد كل مذاهب علماء الدستور فيه ، يعلل كل رأى ويوجه كل مذهب فى بلاغة وفصاحة قول ودقة تعبير ، وخرجنا وصاحبى يضرب كفا بكف ، ويزعم لى انه لو حلف بكل مؤثمة من الايمان ان عدلى كان حاضر لجنتهم ماحنث ولا اثم !

---

(١) يضطرب .

شديد القصد فى حديثه . فاذا اذن الله وتكلم فهو حلو الحديث رخيم الصوت . بارع المطلع رائع المقطع . يصيب المحز ويقع من نفوره على اللباب . تشعر انه خلص الى الغاية واصاب صميم النزاع ، دون ان يعلق بقوله شيء من وضر الجدل وما لا تدعو اليه حاجة الكلام .

لعل عدلى قد جاوز الستين ، واحلف بدورى ان مصر لو كانت عاشت عيشا طبعيا خاليا مــن الاحداث والعظــائم ماكان له فى الدنيا اثر ، ولاجرى له عــــلى لسان جمهرة المصريين ذكر ولا خبر ، فقد نجم عدلى باشا فى مناصب الحكومة كما نجم غيره من الناس موظفا صغيرا فى وزارة الداخلية ، وما برح يتقــلب فى فنون الاعمال العامة حتى اصبح وكيل مديرية فمديرا فمحافظا للعاصمة فمديرا لديوان الاوقاف فمتقاعدا فى داره فوكيلا للجمعية التشريعية فوزيرا للمعــارف . لايمتاز فى شيء من ذلك الابالنبل والكبر على الصغائر والترفع عن سفساف الامور . وكل ما كان له فيما عالجه من الاعمال من صحة الرأى وصدق التدبير وحســن التنظيم . فما كان ليذكر له شيء منها الا بالسن من شارفوه ومن عملوا معه . اما عظمة عدلى واما شهرته الخالدة على الزمان ، فهو مدين بهمــا للجلى وللاحــداث العظام ، فلولا جسيمات الامور لكان عدلى رجلا مدرجا فى عداد سائر الرجال .

ولقد كان وزيرا للمعــــارف فى وزارة رشدى باشا فى ســـنة ١٩١٨ وتهادنت الدول المحتربة الهدنة العامة ، وشمرت لعقــد الصلح ، وتوقـــع المتطيرون ان تكون مصر من حصة انجلترا فى سلب تركيا المقهــورة ، فنهض رشدى ومعه صاحبه عدلى وناجيا الانجليز بانهما يريدان ان يشخصا الى انجلترا ليراجعاها فى حقوق مصر التى ضحت بما ضحت من الرجال والاموال فى نصرة قضية الحلفاء ، وتثاقل الانجليز عنهما وتعللوا باشتغال ساستهم عـن لقائهما بالاستعداد لمؤتمر الصلح ، وخاف رشدى وعدلى ان تفلتهما الفرصة ، وكرها الصبر عــــلى الهضيمـــة ، فنفخا فى الحركـــة الوطنية من روحهمـــا القوى ، وراحا يؤازران الـــوفد المصرى



لامعنى بـكل شيء ولا كل عجيب فى عينه بعجيب

ويشدان عضده من جهة ، ويشرعان الاضراب للموظفين ، ويستحمسان الجمهرة من جهة اخرى ؛ حتى كان من امر النهضة المصرية فى سنة ١٩١٩ ما كان . وتلك اولى عزائم عدلى التى يحصيها له الجمهور .

وهبط ملنر مصر والوفد قائم فى باريس ، ودارت اللجنة هاهنا وهاهنا لعل احدا يعاطيها او يقاولها ، فاستمسك الناس كلهم عنها ولم يواتها منهم احد ، فعاذت فى النهاية بالثلاثة الاعلام رشدى وعدلى وثروت ، فصارحوها بانها ان ارادت الجد ، فلا تفاوض فى شأن مصر غير الوفد ، فلتمض الى باريس فهناك الحديث ، اما فى مصر فلن تجد مهما طال بها المقام ، ثلاث قطط تحدثها فى شأن البلاد ! !

وانكفأت لجنة ملنر الى لندن واستشرفت حقا لمفاوضة الوفد ، اذ الوفد لايتحول الى لندن دون ان يستبين موضع خطوه ، ويريد ، وبين يديه رجاء امة ، ان يعرف فيم مذهبه واين يقع حديثه . وكيف تكون غايه امره . فدارت الانظار كل مدار ، فلم تقع لهذا المهم الاعلى عدلى ، فدعاه الوفد فلبى الدعاء وشخص الى باريس فلندن ، فمهد الطريق ووطأ اكناف السياسة هناك ، وكن خير معوان للوفد على اداء مهمه الخطير .

والف الوزاره فى صدر سنة ١٩٢١ وشخص الى لندن فى وفد رسمى وفاوض كرزن وادلى اليه بحقوق مصر وامانيها كلها ، وابى ان ينزل على ما اراد الانجليز ان ينزلوا مصر عليه ، فقطع المفاوضة وعاد من فوره مرفوع الراس موفور الكرامة ، وما كادت تستقر قدمه حتى استقال من منصب الوزاره استقالته الكريمة النبيلة .

واليوم وقد تحرجت الامور ، وتصدت القوة بكل ما عندها لتنال مصر فلا يلتفت زعيمها الاكبر الا الى صديقه عدلى . وكذلك كان شأن عدلى دائما تلتفت مصر اليه كلما نزلت بها الاحداث الجسام .

وبعد فلقد تحسب عدلى رجلا عظاميا تلقى المجد عن آبائه العظام الفاتحين . والواقع ان عدلى يكن رجل عصامى بأجمع معانى الكلمة. وقد لا يعدله فى عصاميه هذه رجل آخر فى البلاد .

فانت تعرف انه ابن نعمة نسئى الحسب . وتقلبت اعطافه فى الرف . واغناه الله عن طلب العلم وكدح الذهن ومطاولة حوادث الدهر ، ولداته (١) كثير، واكثرهم — وبخاصة فى الزمن الذى نجم فيه عدلى — لا يقع هواه الا على مهارشه الديكه ، ونطاح الكباش والملاعبه بالحمام ،ومعاشره المبطلين . والافتنان فى وجوه اللذات ، والغباء الكامل عن كل مايعنى البلاد، فهل صدقتنى ان عدلى رجل عصامى حقا ، اذ خرج عن هذه البيئة ، فكون نفسه كل هذا التكوين ، وعارك من الحوادث ما عارك حتى اصبح من اعظم الذخائر التى تعتد للجلى فى البلاد ، وحسبه ما وصفه به صحفى من اكبر الصحفيين فى اوروبا : انك حين تلقى عدلى باشا فكانك فى حضرة اعظم الوزراء فى « دوننج استريت(٢) « أو فى كيدروسيه » (٣)

وان من يعرفون عدلى ليعدون له عيوبا ، ويحصون عليه اثاما وذنوبا . وسبحان من تفرد بالكمال .

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها
كفى المرء نبلا ان تعد معايبه

فهم يحسبون على طباعه انه ما برح « ابن ذوات » فهو قليل الاتصال بالناس ، شديد التحفظ بنفسه عنهم ، لا يزورهم ولا يستزيرهم ولا يستريح الى مجالستهم . ومهما توافى له انسان وتعلق بحبه : فهو لا يطالعه بالهناء اذا دخلت عليه نعمة ، ولا بالمواساة اذا مسه الضر ، ولا يعوده اذا مرض ولا يتبع جنازته اذا مات! واذا طلبه صاحبه لحاجة عامة او خاصة حيز ونسئ سعيه . فذا ارادها فى البيت قالوا له فى « الكلوب »

(١) لداته : اترابه الذين ولدوا معه وربوا .
(٢) مثوى الوزاره الانجليزيه
(٣) مثوى الوزارة الفرنسية

واذا وثب الى « الكلوب » فالوا فى البيت. ويحلفون على أن اقتحام قلعة للالمان وقت الحرب العظمى ايسر من زيارته فى بيته !

ولو قد كتب لى ان اصبح هيئة سياسية واحتجت فى شأن البلاد الى سعى عدلى بشا لوكلت به (عصبة) من اولاد البلد الى الفود والنفوذ فسلموه فى صباح كل يوم ، وارادوه على المشى ساعين فى الاحياء الوطنية ، واكرهوه على ان يفشى السلام ، ويومىء بالتحية لكل من لقيه ، حتى اذا جهد به ردوه فأجلسوه فى القهوة وفتحوا الابواب بين يديه وكلما دخل عليه زائر بعنوا وجبه بالهشاشة . وبديه بالتحية . ولسانه بنحو : « اهلا وسهلا ومرحبا . زارنا النبى — شرفتنا انستنا » الخ ثم صفق بيديه فدعا بالقهوة وعرض على الزائر « نرجيله » فاذا ردها قدم له سيجاره فسيجارة فثالثة . فان كان الضيف موظفا سأله عن عمله ودرجته ومرتبه ؛ واظهر له التوجع على تأخره وتقدم اقرانه ؛ وان كان زارعا اقبل عليه فسأله عن القطن وما عسى ان يكون قد اعتراه من الآفات . والمناوبات وشح المياه ومناطق الارز واطفاء الشراقى وسعر كيلة البرسيم اليوم ! .. واذا حضر وقت الغداء — وهنا الكلام — وهم الضيف بالانصراف امسك بطرف ثوبه وعزم عليه ليتغدين معه . وحلف جاهدا انه لا يجد فى ذلك كلفه ولا يتجشم فى سبيله مشقة . وانا بعد ذلك ضامن لدولة الباشا أن الضيف منصرف غير لابث ، معتلا بالمرض وضعف البنية ، أو بالضيف ينتظره فى داره ، أو غير ذلك من وجوه التعليل ؛ ولا يحمل الباشا من هذه « الكركبة » كلها الا حسن الذكر وسيرورة الاخبار ، بما له من رائع الآثار ، فاذا ذكرت الشجاعة قالوا انه عنتر عبس ، واذا ذكر الحلم حلفوا أنه الاحنف بن قيس . واذا عرض حديث المكارم ، أقسموا انه أجود من حاتم ، فاذا كان الكلام فى الفصحاء والمقاول زعموا أنه أخطب من سحبان وائل

فاما اذا ظل سابحا فى السماء، فما أقل حظ اهل الغبراء ، من عدلى باشا فى الزعماء

سعد زغلول باشا

رزقه الله بسطه في الرزق والجاه فهو ملء العيون ملء الصدور . بلغ في دنياه مادون التحية (١) ، وأدرك ما وراء الأمنية . اذا غشى مجلسا وفيه قوم جلوس رأى القوم أنفسهم وقوفا ولم يريدوا ، وتنحوا عن الصدر ولم يقصدوا . وخاطبوه بألقابه ولم يتعمدوا . ورأى سعد نفسه رئيسا ولم يتطلع . فما جلس سعد مجلسا فأقيم عنه غيره . وكذلك كان يقول الاحنف عن نفسه . فسعد طالب العلم الخامل الذى لايعرفه غيرشجرائه وسعد الزعيم النابه الذى تعرفه الاعاظم والعظائم سواء .

اذا وقف سعد يخطب الناس وثبت الالفاظ من مكامنها ، وأسفرت المعاني عن وجوهها ، وتغايرت في السبق الى ذهنه ولسانه ، فلو أن كاتبا كتب ما يرتجله ذلك الخطيب لوقعت منه على اسلوب سرى رائع ينقطع دونه تنميق الاقلام . فاذا جلس سعد الى الانشاء وقعت منه على أسلوب لا يغبط عليه كاتبه ، فلو أن حالفا حلف أن سعدا الخطيب هو غير سعد الكاتب لبرت يمينه .

يطلع سعد على الناس وهم يرتقبون طلعته ارتقاب المدلج (٢) الحائر طلوع القمر ، فيدانيهم وهو يكاد يتهدم ضعفا ، على وجهه تجاعيد من أثر السنين . فلا يكادون يتلقونه بالتهليل والتصفيق حتى ترى ذلك الشيخ وقد طوى ماضيه القهقرى فالتقى بشبابه وكانما وثب من الشيخوخة الى الصبا ، واذا

---

(١) الخلود (٢) السائر بالليل .

ولم يحتشم ذلك المفتون فى جلسه : فقد جعل يصفر بفمه ويلاعب الجو بسلسلة ذهبية كانت فى يده ، ولما قضى شهوته من العبث بحضرة ذلك الشيخ الجليل التفت اليه وقال : يقولون انك خشن الملمس قريب الغضب . ولا ارى فيك الا حليما ، فأجابه سعد وعلى فمه ابتسامة الكاظم لغيظه : وكأنك ماجشمت نفسك السفر وجئت لى الا لتستثير غضبى ! قم فلست هناك .

وزاره فى بدء الحركة الوطنية احد المتطرفين ، فتجادل فى امر من الامور وحمى الجدال . فأغلظ المتطرف القول ، فقال له سعد : اتجبهنى بمثل هذا وانت فى بيتى ! قال : لم اكن فى بيتك ! قال : ففى بيت من اذن ؟ قال : فى بيت الامة . فسرى عن سعد وقال له : صدقت انه بيت الامة ! ومن ذلك الحين اصبح بيت سعد بيت الامة .

وان صدرا يتسع لما يضيق من بعضه صدر الدهر لخليق أن يسمى حامله حليما .

وهو كثير الذهاب بنفسه ، ولم يجئه ذلك من ناحية الزهو كما يزعمون ، ولكن جاءه من ناحية التمكن من النفس .

جلس اليه احد اقرانه وكانت بينهما وحشة لشىء قد بلغه عنه ، فقال له سعد وهو يحاوره : اعلم ياهذا أننى معجب بنفسى وكيف لا أعجب بنفسى وأنا لا ارى من يعمل غيرى .

يسره أن يؤكل طعامه وان تغشى داره ، ولكن قلما يسره أن يخالف رأيه ، اللهم الا اذا لمح بعين بصيرته أن من وراء تلك المخالفة اجماعا .

يجلس سعد الى مناظره وفى يد مناظره الحجة قائمة : فلا يزال به يستلها من يده شعرة شعرة حتى تصير الحجة فى يد سعد فيقيمها على مناظره .

يسوءه النقد الا اذا كان نزيها . وانى لهذا البلد بالنقد النزيه ! ان سعدا يكلف الناقدين شططا : انسى ان نصيبه من ذلك نصيب كل نابغة مشهور ، وكل عظيم مذكور . وقد جاء فى الامثال : اذا قيل عنك انك نابغة فودع الراحة .

نشأ سعد وفى ثوبه عظيم : كان فى المحاماة رأس المحامين ، وكان فى القضاء رأس القضاة : وكان فى الوزارة رأس الوزارة ، ولم يكن فى كل أولئك بالرئيس الرسمى . اللهم الا فى وزارته الاخيرة .

فسعد عظيم وهو ابن عشرين : وفوق العظيم وهو ابن السبعين . ولقد قال أديب من صفوة أدباء مصر : عظماء الرجال أمثال الجبال . لاتنقص الكهوف مالهامن العظمة والجلال .

حافظ ابراهيم

عبد الخالق ثروت باشا

لطيف الحجم ، دقيق الجسم ، لولا بدونة دخلت عليه فى السنين الاخيرة ، طلق الوجه ، عذب الروح ، فكه الحديث .. ولو أنه قدر لك أن تصحبه عشرين عاما دون أن يقيض لك اسمه ماعرفت قط أنك فى صحبة هذا الذى لايبلغه العجب .

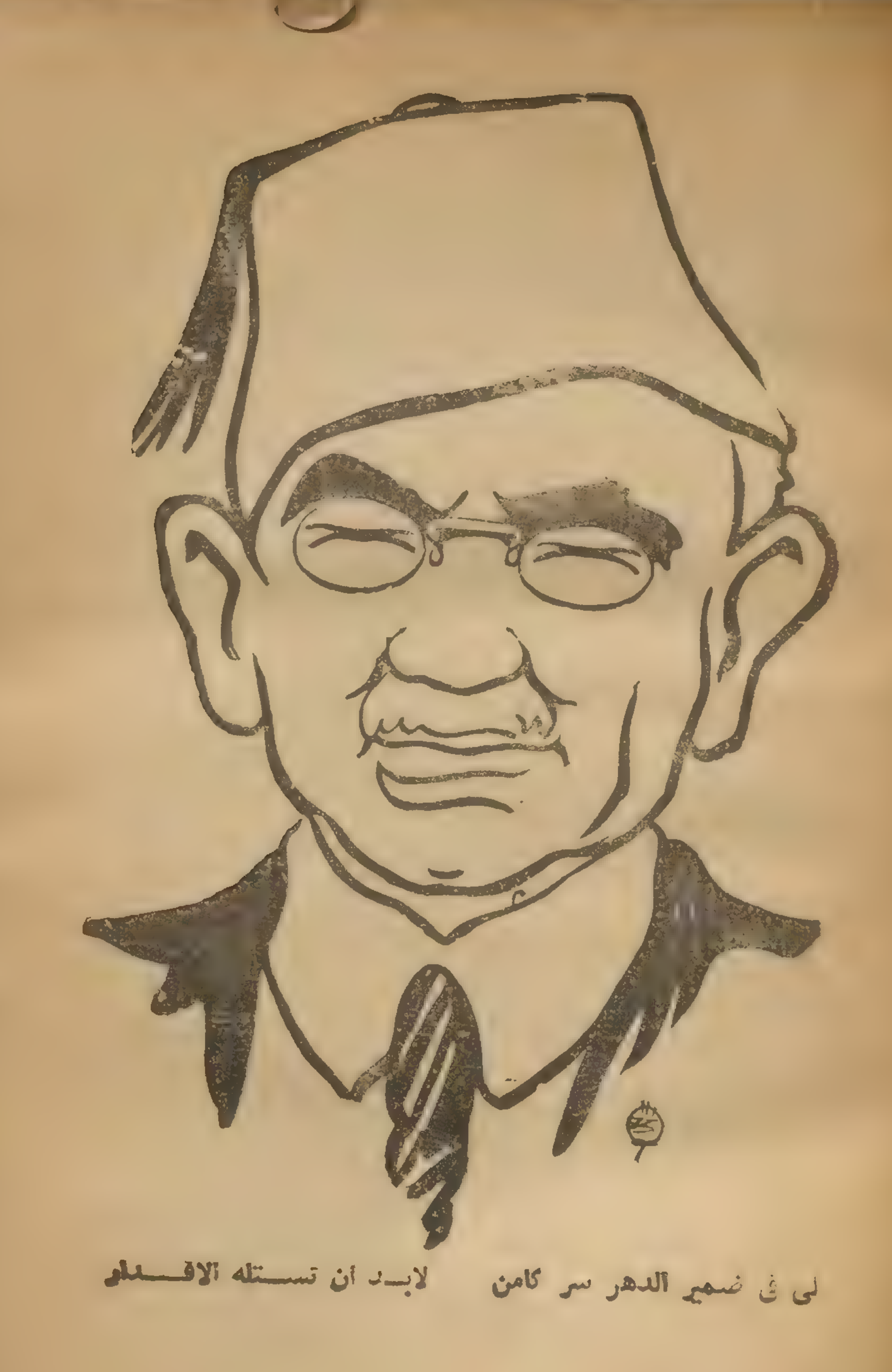
ويترك فى الدنيا دويا كأنما   تداول سمع المرء انمله العشر

فلقد تحضر مجلسه فيقبل عليك يحدثك فلا يرتفع بك الى نفسه ، وانما يتدلى بكل حديثه الى نفسك ، فتراه يدارجك فى قولك ، ويكلمك من جنس كلامك ، ويباريك على قدر فهمك حتى تنصرف عنه وقد هيألك وهمك أنه مثلك ، هذا اذا لطف الله بعقلك فلم يهيىء لك أنه دونك !

وانه اذ يتحدث اليك لتختلج معارف وجهه حتى ليتمثل لك فى شخص تلميذ فى السنة الرابعة الابتدائية ! وان حدقتيه لتضطربان فى حركة أفقية ، على أنك لو تفطنت لادركت أنها ليست حركة الحائر المتردد ، بل انها لحركة المتعرف المتقرى الذى يريد أن يستل منك ذات نفسك . وانه ليجسها من جميع أقطارها ليبلوها أيها أهون عليه .

ولقد يخيل اليك لطف ثروت ، وتبسطه فى حديثه معك انك مستطيع أن تدسه فى جيبك ، اذ هو قد دسك من أول المجلس تحت نابه ! فاحذره أطلق مايكون وجها ، وانعم حديثا .

لعل ثروت باشا أبعد المصريين نفسا وأعمقهم ضميرا ، وقد حدثنى من طالت به صحبته أنه من شباب سنه قد جعل



لى فى ضمير الدهر سر كامن   لابــد أن تستــله الاقــدام

يمرن نفسه على اخفاء نياته ويأخذ معارف وجهه بالا تنم على مافى قرارة نفسه . وانك لتحدثه فى الجلى ويحدثك فيها وهو متطلق الوجه ضاحك السن حتى ليكاد يملأ عليك المجلس انسا ومراحا ، والله وحده يشهد مافى جوف هذا الهيكل من ثوائر تهد أعصى الرجال ، وتدك أشمخ الاجبال ، حتى لقد دعاه بعض اصدقائه : وهو مابرح فى مطلع مناصبه (بطرس المسلمين) !

ولقد بالغوا فى صمت ابى الهول وقدروا أن من خلف هذا الوجوم الطويل سرا طويلا . أما ثروت فانه أحذر من أبى الهول وأحرص على دخينة نفسه . فان وجهه الضاحك منك لالك ليقنعك بأن هذا الخلق لايحقن من السر كثيرا ولا قليلا .

ولو ان انسانا حدثك بأن لسان ثروت لم يسقط من ثلاثين سنة بكلمة واحدة لايريد هو ان يطلقها بكل معناها وما تنصرف اليه من وجوه المغازى لما كان فى قوله مزيدا ولا غالبا .

ولقد تعوزه موهبة الخطابة والتفجر بالقول ؛ على انه اذا ارتجلت عليه ضرورة خطاب الجمهرة أرسل الكلام ، فى ادق المواقف وأحرجها . بليغا سلسا نيرا يروعك برشاقته فى التحرف عن كل مالا يؤذن به للسياسى وان فسح فيه للخطيب .

وهو بعد رجل حسن الملقى كريم المقبل وافر الادب !

جم التواضع والدنيا بسؤدده تكاد تهتز من أطرافها صلفا

وانه ليقبل عليك بكل ماعنده من الرقة واظهار المودة وشدة المواتاة حتى لتجدنه قد أصبح قطعة من قلبك ؛ ولتحسبن انك أصبحت أيضا قطعة من قلبه ، ولعلك لست منه فى شىء ابدا !

وسبحان من قسم الحظوظ فلو ان لى امنية فى خلق الله لتمنيت عليه تعالى أن يمزج عدلى بثروت على نحو ماتمتزج بعض النقابات والبنوك ، حتى اذا اتحدا وتمت « لخبطتهما » أحدهما بصاحبه شق هذه العجينة الى شخصين وسوى منها رجلين ، اذا لخرجا أحسن الرجال ، ولتحقق كل ماعقد بهما من الآمال ، اللهم آمين ! . . .

* * *

وقد بدت مخايل النجابة على عبد الخالق ثروت طفلا حتى اذا استوى لسن التعليم سلك فى المدرسة التوفيقية فكان يملك (الاولية) غالبا على سائر لداته التلاميذ ، وأحرز « البكالوريا » فى سنة ١٨٨٨ ، وخرج فى أوائل من أحرزوها العامه . وقد حدثنى من رآه تلميذا فى مدرسة الحقوق يزور مع والده المرحوم اسمعيل باشا عبد الخالق عالما من أجل علماء عصره . فاذا هذا الفتى يجادله فى أمور من امور الدين مجادلة الاكفاء . ويحاوره فى تعاليل أحكامه محاورة النظراء ، حتى انبعث لسان الشيخ العظيم بتسبيح من خلق هذا الغلام

وبعد اذ تخرج فى مدرسة الحقوق نابغة رائعا اتصل بلجنة المراقبة القضائية وعين سكرتيرا للمستشار القضائى فكان كل التشريع المصرى قرابة ثلاثين سنة من وضع عبد الخالق أو باشتراكه فليس عجبا ان يدعى عبد الخالق ثروت فى هذا البلد أبا القانون .

وكان مستشارا فى الاستئناف وكان مديرا لاسيوط ، وكان نائبا عموميا . ثم كان وزيرا للحقانية فى وزارة رشدى من صدر سنة ١٩١٤ الى صدر سنة ١٩١٩ ثم استقال مع صحبه الذين استقالوا متابعة للثورة وحفاظا لنهضة الوطن . فكان فى كل المناصب التى وليها لا يعمل الا بالقانون ولا يؤثر الا حكم القانون مهما احتلفت عليه لوان الاعتبارات فقد اتصل القانون بعصبه وجرى فى نفسه مجرى دمه ، ولعل ما أخذ به ثروت باشا بعد اذ اضطلع بأثقل عبء سياسى من تردده فى بعض مواطن الاقدام ، انما كان الوزر فيه كله على حرصه على القانون وتحريه الا يتحرف عنه فى كل مذاهبه ، فان للسياسة أحيانا سبيلا غير سبيل القانون وعلى كل حال فاذا عدت السياسة هذا على ثروت فسيعتدها له النبل ومعالى الخلال .

وكان ثروت وزيرا للداخلية فى وزارة عدلى باشا (سنة ١٩٢١) وقائما مقام رئيس الوزراء فى أثناء غيابه فى مفاوضة اللورد كرزن ، فلما قطع عدلى باشا هذه المفاوضات عاد الى مصر فقدم

يمرن نفسه على اخفاء نياته ويأخذ معارف وجهه بألا تنم على مافى قرارة نفسه ، وانك لتحدثه فى الجلى ويحدثك فيها وهو متطلق الوجه ضاحك السن حتى ليكاد يملأ عليك المجلس أنسا ومراحا ، والله وحده يشهد مافى جوف هذا الهيكل من ثوائر تهد أعصى الرجال ، وتدك أشمخ الاجبال ، حتى لقد دعاه بعض أصدقائه . وهو مابرح فى مطلع مناصبه (بطرس المسلمين) !

ولقد بالغوا فى صمت أبى الهول وقدروا أن من خلف هذا الوجوم الطويل سرا طويلا . أما ثروت فانه أحذر من أبى الهول وأحرص على دخيلة نفسه . فان وجهه الضاحك منك لالك ليقنعك بأن هذا الخلق لايحقن من السر كثيرا ولا قليلا .

ولو أن انسانا حدثك بأن لسان ثروت لم يسقط من ثلاثين سنة بكلمة واحدة لايريد هو أن يطلقها بكل معناها وما تنصرف اليه من وجوه المغازى لما كان فى قوله متزيدا ولا غاليا .

ولقد تعوزه موهبة الخطابة والتفجر بالقول ، على أنه اذا ارتجلت عليه طارئة خطاب الجمهرة أرسل الكلام ، فى أدق المواقف وأحرجها . بليغا سلسا نيرا يروعك برشاقته فى التحرف عن كل مالا يؤذن به للسياسى وان فسح فيه للخطيب .

وهو بعد رجل حسن الملقى كريم المقال وافر الادب !

جم التواضع والدنيا بسؤدده تكاد تهتز من أطرافها صلفا

وانه ليقبل عليك بكل ماعنده من الرقة واظهار المودة وشدة المواتاة حتى لتجدنه قد أصبح قطعة من قلبك ، ولتحسبن انك أصبحت أيضا قطعة من قلبه ، ولعلك لست منه فى شىء أبدا !

وسبحان من قسم الحظوظ فلو أن لى أمنية فى خلق الله لتمنيت عليه تعالى أن يمزج عدلى بثروت على نحو ماتمتزج بعض النقابات والبنوك ، حتى اذا اتحدا وتمت « لخبطتهما » أحدهما بصاحبه شق هذه العجينة الى شخصين وسوى منها رجلين ، اذا لخرجا أحسن الرجال ، ولتحقق كل ماعقد بهما من الآمال ، اللهم آمين ! . . .

* * *

وقد بدت مخايل النجابة على عبد الخالق ثروت طفلا حتى اذا استوى لسن التعليم سلك فى المدرسة التوفيقية فكان يملك (الاولية) غالبا على سائر لداته التلاميذ ، وأحرز « البكالوريا » فى سنة ١٨٨٨ ، وخرج فى أوائل من أحرزوها العامه . وقد حدثنى من رآه تلميذا فى مدرسة الحقوق يزور مع والده المرحوم اسماعيل باشا عبد الخالق عالما من أجل علماء عصره . فاذا هذا الفتى يجادله فى أمور من أمور الدين مجادلة الاكفاء ، ويحاوره فى تعاليل أحكامه محاورة النظراء ، حتى انبعث لسان الشيخ العظيم يسبح من خلق هذا الغلام

وبعد اذ تخرج فى مدرسة الحقوق نابغة رائعا اتصل بلجنة المراقبة القضائية وعين سكرتير المستشار القضائى فكان كل التشريع المصرى قرابة ثلاثين سنة من وضع عبد الخالق أو باشتراكه فليس عجيبا ان يدعى عبد الخالق ثروت فى هذا البلد أبا القانون .

وكان مستشارا فى الاستئناف وكان مديرا لاسيوط . وكان نائبا عموميا . ثم كان وزير الحقانية فى وزارة رشدى من صدر سنة ١٩١٤ الى صدر سنة ١٩١٩ ثم استقال مع صحبه الذين استقالوا متابعة للثورة وحفاظا لنهضة الوطن . فكان فى كل المناصب التى وليها لا يعمل الا بالقانون ولا يؤثر الاحكم القانون مهما اختلفت عليه الوان الاعتبارات فقد اتصل القانون بعصبه وجرى فى نفسه مجرى دمه ، ولعل ما أخذ به ثروت باشا بعد اذ اضطلع بأثقل عبء سياسى من تردده فى بعض مواطن الاقدام ، انما كان الوزر فيه كله على حرصه على القانون وتحريه ألا يتحرف عنه فى كل مذاهبه ، فان للسياسة أحيانا سبيلا غير سبيل القانون وعلى كل حال فاذا عدت السياسة هذا على ثروت فسيعتدها له النبل ومعالى الخلال .

وكان ثروت وزيرا للداخلية فى وزارة عدلى باشا (سنة ١٩٢١) وقائما مقام رئيس الوزراء فى أثناء غيابه فى مفاوضة اللورد كرزن ، فلما قطع عدلى باشا هذه المفاوضات عاد الى مصر فقدم

استقالة الوزارة . واستوحش مابين مصر وانجلترا ، وسكت المنطق من حيث تكلم الحديد والنار ، وانطلقت القوة تفعل فى هذا البلد ماتشاء ، وفتنت الاحلام فى مصر وانجلترا معا ، وعميت على الناس مذاهب الرأى هنا وهناك . ولابد من حل ، فلكل مائلة قرار ، فأبى داهية الرجال ان يكون هذا الحل على حساب الضعيف ! ...

لا ادرى ولعل أحدا غير الله لا يدرى كيف كان ابو الهول يقلب الرأى ، وما كانت تجن خلجات وجهه من فنون الحيل ، حتى اذا استوى له الرأى كله تجمع فضرب تلك الضربة الهائلة التى صدعت قيود مصر واطلقتها فى الدول دولة مستقلة ذات سيادة وسلطان ، وسرعان ما آذنت انجلترا الدول بانتهاء حمايتها على مصر ، وسرعان ما آذنها جلالة الملك باستقلال البلاد . وشرع ثروت باشا يسن للدولة دستورا قويا لان مصر الفتاة تأنف العيش الا فى كنف برلمان . وهذا البرلمان يعمل وسيعمل ان شاء الله حتى تحيا مصر اعلى الحياة .

على انه مابرح بيننا وبين انجلترا مسائل جليلة ، وان رجالا فيها ليتربصون الفرص ليتحيفوا من حقوقنا ، فما احوجنا فى امرنا معها الى عزم الابطال . وما كان الله ليخيب رجاء مصر وفيها سعد ، وفيها عدلى ، وفيها ثروت ، وفيها من يحف بهم من رجالات عظام .

فلتحى مصر ولتبلغ كل امانيها فى ظل ائتلافها النبيل .

ابراهيم الهلباوي بك

ماصـــدق اولئك النفر من العلماء حين زعموا ان هنـــالك تشابها بين النفس والجســم ، وتشاكلا بين الروح والهيكل الذى يحتويه ، والا كان الهلباوى هذا من احلى الناس وجها وابهاهم طلعة ...... فانه ولا مرية من الطف خلق الله نفســا واخفهم روحا ...

شيخ يتزاحف على السبعين ان لم يكن قد اقتحمها فعلا . لم توجه الطبيعة اية عناية فى تكوينه الى شــكله ودله ، فـاذا انت جلست اليه مع هذا خلبــك بلطفه ، وشعرت بانه تسرب فى كل نواحى قلبك حتى اصبح قطعة من نفسك . وانه ليذكرك بخفة روحه التى تكاد تطير ، اثنـــاء حديثه ، باطراف جسمه — قول ابى تمام :

ماذا تقولين فى شيخ فتى ابدا وقد يكون شــباب غير فتيان

وانا اذا تحدثت عن الهلباوى اشعر ويشعر الناس معى برغم انفى وانف غيرى ، أننا فى رجل غير عادى . او بعبارة اخرى فى رجل عبقرى .

ولعله لم يفترق الناس فى هوى امرىء — اذا استثنينا اسماعيل باشــــا صدقى — افتراقهم فى الهلباوى : فقد عاش مدى عمره يحبه ناس اشد الحب ، ويبغضه ناس اشد البغض ، الا ان هؤلاء وهؤلاء لايســـعهم جميعـــا الا التسليم بانه رجل عبقرى ، بل لعله لم يجتمع له فى القلوب كل هذا الحب وكل هذا البغض الا لانه رجل عبقرى !

طويل القامة ، عظيم الهامة ، بائن الطول ، مفتول العضـــل ،



ثورة فى هيكل رجل !

شديد المنة (١) قوى البنية . رأيته يخطب الناس عصر يوم قدم فى صباحه من اعلى الصعيد ؛ والهلباوى اذا خطب خطب بكله : بلسانه ، وبعقله ، وبنخاعه ، وبعصبه ، وبرأسه ، وبيديه ، وبرجليه ايضا ! وله صياح يقد اصفق الحناجر . ثم تدلى عن المنبر بعد اربع ساعات كاملات فى كل هذا البلاء وهو اشد وأفتى من اكرمن سمعوه ان لم يكن افتى ممن سمعوه جميعا . وما شاء الله كان ! ...

شديد العقل ، حاضر البديهة ، قوى الذاكرة ، ملتهب الذكاء ، على اننى لا ادرى اتفى كل هذه بحاجات لسانه ام لا !! ..

محام اى محام ، وخطيب اى خطيب ! لقد يقف فى الجمهرة والناس اكثرهم على غير رايه فيما يجول فيه ، فما يزال يدور على مواطن احساسهم يجسها من ههنا ومن ههنا فى رشاقة وخفة قول ، ولطف شاهد ، وبراعة نكتة ، حتى اذا آنس من الآذان تطامنا من جماح واسترخاء بعد عصيان ، هجم منها بكله على النفوس فظل يهزها هزا ، ويرجها رجا . فما الفحل اذا هدر ، ولا الليث اذا زار ، ولا البحر اذا زخر ، باشد صولة على الاسماع من الهلباوى يتدفق فى الكلام ، فما يروعك من هذه الجماهير الواجمة الا ان تراها ، برغمها ، قد ارسلت حناجرها بالهتاف وبعثت اكفها بالتصفيق !

والهلباوى خطيبا يشترى هوى سامعيه بأى ثمن : فهو يجد ويهزل ، ويثب ويحجل ، ويضحك ويبكى ، ويعلو ويسف ، ويثقل ويخف ، ويكثف ويشف ، وينظم الدرر ، ثم يرمى بالشرر . وبينا تراه فى وداعة العصفور ، اذا به فى شراسة النمور . كذلك يتشكل هذا الشيخ فى خطبه ويتلون لكل مواقع الكلام !

واذا كان الهلباوى خطيبا عظيما فهو ممثل اعظم !

* * *

نجم الهلباوى من اسرة فى العربية كريمة العرق الا انها

---

(١) المنة : القوة .

رقيقة الحال ؛ فلما يفع قذفت به الى الازهر فعكف على مدارسة علومه ، وقد عرف بين لداته، من صدر أيام الطلب ، بالفطنة وحدة الذهن والاكباب على تحصيل الدرس . وعلوم الازهر ، كما تعرف، تقوم على الجدل والمكثرة بالوان التدليل ، وكان الهلباوى فوق « ازهريته » تيك عنيدا فى رايه ملحا حتى على اشياخه فى حواره ، جريئا على مخاصمتهم فى كثير مما تسقط عليه افهامهم فى مذاهب الكلام .

وهبط المرحوم السيد جمال الدين الافغانى مصر فاتصل به الهلباوى كما اتصل به كثير من أهل المواهب والذكاء ، وكان يعلمهم مسائل من الحكمة ويلقنهم فصولا من فلسفة اليونان كما نقلها العرب منهم . وقد مد السيد الافغانى اذهان طلبته الى كثير مما يحيط بهم ففجر عقولهم ، وجرأ قلوبهم ، ودرب السنتهم على المنطق والمغالبة بفنون الجدل ، وعودهم الجهر بالراى دون الخوف من احد . وفى ثنايا هذا كله كان يبعث فى نفوسهم دعوة سياسية جريئة .

وخرج الهلباوى بعد هذا الى ميدان العمل فاتصل اتصالا اوفى بالبيئات التى تفهمت حياة الغرب وتروت علومه الحديثة واخذت احلامها بمنطقه الطريف . وهكذا اصبح الهلباوى خليطا من كل ما تقلب فيه من اطوار الحياة !

وما اجتمعت هذه الاسباب كلها فى نفس الا اضطرمت وثارت فلا تعود تستريح الى قرار . فلاعجب اذا كان الهلباوى ثورة دائمة فى هيكل رجل ، والبركان دائم الفوران ، فهو ينفجر من حين الى حين وان احتقن الى حين

ولقد يكون ما يظنه كثير من الناس ترددا فى الهلباوى اثرا من آثار هذه الثورة النفسية ، فان الثورة لا تعرف نظاما ولا تستوى فى شبوبها لطريق .

ولعل موقفه يوم دنشواى كان مظهرا من مظاهر هذه الثورة

على انها هذه المرة كانت ادنى الى تحدى الجمهور منها الى ما اعتاد من تحدى السلطاء من إهل الحكم وفى كل حال فقد كانت منه كبيرة، ولعلها كانت سقطة الرجل العظيم

على ان احدا لم يجرؤ على ان يحيل تردد الهلباوى ، الذى قالوا على طلب منفعة شخصية من منصب او جاه او مال .

* * *

وقد صحب القضاء المصرى الحديث ودارجه من او نشأته الى اليوم ، فلم تكد تقع قضية ذات شأن فى البلاد الا دعى لها الهلباوى فافتن وابدع وله فى هذا الباب جولات معدودة له على وجه الزمان . فلاعجب اذا عد صحيفة من أحفل صحف القضاء المصرى واظهرها حواشى ومتونا .

وقضى هذا الزمن الطويل محاميا واضحا أمينا مجدا فى عمله حريصا على اداء واجبه ، لم تحص عليه كرة واحدة مما يخمش وجه المحاماة .

ثم هو فى علاقاته الشخصية شديد التوافى لاصدقائه حريص على مودتهم ، لايقصر فى اداء اى واجب لاى كان منهم . ولا احسب الهلباوى قد عادى أحدا أو عاداه من الناس أحد الا فى شأن عام .

وانى كلما جاش فى نفسى الحقد على الهلباوى بك هرولت الى مجلس النواب فشفيت صدرى برؤيته ، بعد كل ذلك ! ، وقد امتثل حقا لحكم النظام ، فهو يرفع اصبعه بطلب الاذن كلما اراد القعود أو القيام ، وكلما راد السكوت أو الكلام ، وكلما طلع أو نزل ، وكلما عطس أوسعل ، وكلما تحرف أوتخطى ، وكلما تثاءب او تمطى ، وكلما دلك اكارعه ، أو فتل أصابعه . ولا بد من الخضوع والطاعة . لكل من ينتظم فى سلك الجماعة والا ساء النظام ، واضطرب حبل الاحكام !

وكذلك أخمدت الحياة النيابية هذه الثورة الشيخة الفتية .

وانى اذا لم اصفه فى موقفه الجديد بانه أصبح « كالوحش يستدنيه للقنص المحل » ، فانى أقول له : « ولا بد دون الشهد من ابر النحل » ! ! !

الدكتور محجوب ثابت

لاشك فى ان الدكتور محجوب ثابت يعد ، بحق ، فى ميراثنا القومى ، ولو - لا أذن الله - جرى عليه القدر لكان لابد للامة من (دكتور محجوب ثابت) بأى طريقة من الطرق . نعم هو فى ميراثنا القومى لايقل عن آثار سقارة ، وجامع السلطان حسن ، ومقابر الخلفاء . ولقد أصبح على الزمان جزءا من تقاليدنا الاهلية كحفلة المحمل ، ووفاء النيل ، وركبة الرؤية ، وشم النسيم ! . ولما فكر المرحوم محمود بك رشاد فى جعل العلم المصرى محلى بصور بعض الاثار القديمة ، فرعونية واسلامية لم ير المصور بدا من ان يرسم بجانب الهرم وابى الهول وجامع برقوق وحضرة سيدى أبى السعود صورة الدكتور محجوب ثابت .

والدكتور فى المصريين كانجلترا فى الامم ، كل منهما يرى عليه للاخرين تبعات لاتنقضى على وجه الايام ! فاذا كان الكلام فى النيل وما عسى أن يجتازه عن مصر خزان مكوار تولى « الدكتور » الكلام وملكه على جمهرة المهندسين ! واذا كانت الثورة تصدر الدكتور لجنة الوفد المركزية ، وكلما انتشرت فى البلد مظاهرة كان ناظورتها (١) الدكتور ، وكلما ساروا « بضحية حرية » كان الدكتور أول المشيعين ، فاذا كان اجتماع فى الازهر كان الدكتور فارسه المعلم وعذيقه المرجب . فاذا تعانق الهلال والصليب ، استأثر الدكتور من عناق الاب سرجيوس

(١) الناظورة : سيد القوم المنظور اليه منهم .



ليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم فى واحد

بأكبر نصيب . فاذا وجد دهماء المصريين على الارمن وهم بعضهم بايقاع الأذى بهم طاف الدكتور بعربته (ومكسوينيه) على دورهم فتقلهم وعيالهم ومتاعهم وأثاث بيوتهم الى مأمنهم . فاذا غضب الاروام من أن بعض الرعاع اصابوا منهم على وهم انهم ارمن، شخص الدكتور فى الركب الحافل الى دار قنصلهم فخطب جمعهم باسم مصر ومادهم حبال المودة ، وعقد معهم ، باسم الامة والحكومة أيضا ، فنون المعاهدات . واذا كان جمع الاموال للوفد أغلق الدكتور عيادته « بالضبة » وهاجر الى قنا فلبث الاشهر الطوال ، يجمع ماتحتاج اليه القضية من جليل الاموال . فاذا كانت مشاكل العمال ابى الدكتور الا ان يتفرد بها من دون الناس جميعا ، فانتفض نقيبا لعمال العنابر ، ولفافى السجاير ، وسواقى الاتومبيلات ، وشيالى المحطات ، وندل (١) الفنادق والقهوات ، وجميع طائفة المعمار ، وأصحاب الحوانيت من كل بدال وبقال وجزار ، وعمال المطابع ، وكناسى الشوارع ، وصناع الخيم ، ومساحى (الجزم) ، ولو فكرت طوائف الجرذان والسنانير ، وجماعات الجعلان والصراصير ، فى أن تتخذ لها نقابات لتمثل الدكتور ثابت فيها خطيبا ، ثم استوى لها بفضل الله نقيبا !

وفى الحق أن الدكتور يرى نفسه مسئولا عن كل مافى البلد من هابط وصاعد ، وقائم وقاعد ، وغاد ورائح ، وسانح وبارح ، ودارج على متن الغبراء ، وسابح فى جوف الماء ، وطائر فى جو السماء . فاذا كانت هنالك منطقه خارجة عن اختصاص الدكتور محجوب فهى عيادته فقط ! ذلك بانه ليس برجل اثرة ، بل هو رجل ايثار ، يعنى من أمر قومه بكل دقيق وجليل ، أما خاصة شأنه فلا يعنيه منها كثير ولا قليل

ولا أحسب رجلا فى مصر ولا فى انجلترا مشغولا بالسودان شغل الدكتور ثابت (٢) ، فحديث السودان يجرى منه

---

(١) الندل : الخدم .

(٢) وكان هذا قبل أن ينتخب عضوا فى مجلس النواب .

مجرى النفس ، ولو هيىء له ، أو لو هيىء لك انت ، على الاصح ، أن تستمع له لحدثك فى شأن السودان ثلاثين عاما متصلة لا ينقطع ولا يتحبس ، ولا يتلجلج ولا يتلعثم ، ولا يمل ولا يكل ، ولا يبطىء ولا يزل .

وللدكتور فى مشكلة السودان نظرية طريفة جدا ، فانه يرى ان كل العقدة فيها انما هى فى اقناع المصريين وحدهم بقبوله وادخاله بلا قيد ولا شرط فى ملكهم الخالص ، فهو كلما رأى رجلا او امرأة او صبيا او وليدا أقبل عليه « يقنعه » فى قوة وحماسة بقبول السودان ، وتدفق ماشاء الله أن يتدفق بألوان الحجج لحق مصر فى السودان وحاجة مصر الى السودان ، وما انفقت مصر على فتوح السودان ، ومن أبلى من أبناء مصر فى حروب السودان . ولو أن رجلا مسح السودان شبرا شبرا ، وذرعه فترا فترا ، ما كان اعلم به من الدكتور ثابت ، على انه لم يره ولم يزره طول حياته مرة واحدة . وقال له بعضهم يوما : لقد جعلت السودان شغلك يادكتور حتى اصبحت رمزه فى هذه البلاد ، فهلا زرته وتفقدت أهله ؟ ففتل عثنونه وقال : لا حاجة بنا الى هذا فقد عرفناه وخبرناه ... ولا ادرى أكان هذا من الدكتور ورعا أم كسلا !

ويظهر ان الدكتور ظن بعد لأى أن المصريين غير مقتنعين بضرورة « اخذ » السودان فشخص الى سوريا ليقنع اهلها بضرورة « اخذ » المصريين للسودان ! فقد بلغنى أن ذلك كان حديث الدكتور هناك فى مسائه وصباحه ، وغدوه ورواحه ، وموضوع مفاكهاته واسماره ، فى مقامه وتسياره .

ورأى الدكتور فى « اخذ » السودان أبدع من رأى ذلك الفلاح المكارى اذ قال لاخوانه يوما ، كيف لا تهنئوننى ؟ فقالوا : بماذا ؟ فقال : باننى سأتزوج بنت السلطان ، فقالوا له : وهل قضى الامر ؟ قال : بل نصفه ، فاننى وابى قد رضينا ولم يبق الا هى وابوها ! ... اما الدكتور - أعزه الله - فانه لا يرى بين المصريين وبين اخذ السودان كاملا بلا قيد ولا شرط ، ومن

فوقه ملحقاته وملحقات ملحقاته الا أن يرضـوا هم ! ... وقد قلت له يوما : ألا جعلت بعض همك اقناع الانجليز أيضا بترك السودان لاصحابه المصريين ؟ فأجابنى بكل قوة وثقة : لا ! مايقولوش حاجة !!!

حقا أن هـذا الرجـل أمة وحده ، وانه لعبقرى لايدلى الى منطق الناس وأسباب تصورهم ؛ فان له قياسه وتقديره ، وله منطقه وتفكيره ، وله أسلوبه وتدبيره . وأظهر صفاته فى هـذا الباب أنه لايحفـل بما يسمونه الواقع كثيرا ولا قليلا . فحسبه أن يشتهى الامر فيقدره واقعا . أمكن ذلك الامـر أو استحال . ومثله من تخيل ثم خال . ولقد كان فى سنة ١٩٢١ يسعى جاهدا فى أن ينضم عضوا فى الوفد المصرى ، وقد وسوس له شيطان من الانس بأن عدلى باشا فكر فى تعيينـه مستشارا فى الوفد الرسمى لولا أن انتهى اليـه أن سـعد باشا سيلحقه بالوفد المصرى ، فكان جوابه على الفور : مافيش مانع ياسيدى ! وهكذا طمع الدكتور فى أن يكون عضـوا ، معـا ، فى الوفدين المتقاتلين سنة ١٩٢١ !

وأذن الله ودخل الدكتور فى الوفد المصرى طبعة ثالثة اورابعة بعد ما عصفت القوة بجلة رجاله سنة ١٩٢٢ ، ثم بدا له ، لأمر ما ، أن « ينسلخ » فكانت تخرج النداءات والمنشورات ممهـورة بتوقيعات رجال الوفـد وليس اسم الدكتور فيها ، اذ الدكتور مصمم على انه ما برح عضوا فى الوفد يلتمس « لعضـويته » المعاذير بانه ربما دعى للتوقيـع فغاب ، أو ارسل اليه فلم يبلغه الكتاب ، على حد قول الشاعر :

نحن قوم اذا دعينا اجبنا	واذا نتس يدعنا التط...
ونقـل علنا دعينا فغبنا	واتانا فلم يجدنا الرسول ؟

وظل الدكتور برغم طـول المدى وذيوع الاخبار «بتسلخه» مصمما على انه مازال عضوا فى الوفد . وقد جادلـه بمحضرى فى ذلك قوم ، فكانت كل حجته ان محمد افندى (كذا) قابله يوما

فحياه وقال له : « يعنى ماحدش بيشوفك يادكتور ؟! » ومحمد افندى هذا يزور السيد حسين القصبى أحيانا ، فلا بد ان يكون سمع هذا من الوفد ، فكيف تزعمون بعدها اننى لم أبق عضوا فى الوفد ؟

هـــذا كلام له خـــبىء معناه ليست لنا عقـــول !

ومن أظرف نوادره انه فى غيبة الرئيس الجليل حدثت بينه وبين بعض رجال الوفدجفوة، فانقطع عن زيارة بيت الامة ، فقيل له : ان السيدة انيسة الرشـــيدى نازلة بدارك ، وهى تستقل كل يوم مركبتك الى بيت الامـــة ، والناس كلهم يعرفون «مكسوينى» وانهم ليرونه هناك فلا يشكون فى انك الزائر ! فقال : لقد نبهنا على الاوســـطى « على » اذا نزلت السيدة ان يقف على الرصيف الثانى احتجاجا !

وكانوا يرشحون لمناصـــب المفوضين والقناصل لتمثيل مصر فى البـــلاد الاجنبية ، فتقـــدم الدكتور ، فقيل له : ولكنـــك حذقت الطب ، اما التمثيـــل السياسى فشىء آخـــر فقال : ومن أخبر به منا يا ولدى ! لقد عجناه وخبزناه ، فقـــد كنا فى (جنيف) وكان يجلس معنـــا أحيانا على بعض قهواتها سكرتير قنصل انجلترا وتناول الشـــاى معنا مرارا !...

والدكتـــور محجوب ثابت عريض الالواح بعيد مدى العظام لولا ان فى جسمه رهولة ، أميل الى الطول ، فاذا مشى خلتـــه أحدب وما به حدبة ، ولكنـــه انحناء الظهر من ثقل التبعات لا من ثقل الســـنين ، عريض الجبهة الا ان اسفل وجهه اعرض من اعـــلاه . يرسل ســـبلته وعثنونه وشعر عارضيه فى هيئة لطيفـــة مقبولة ، وله عينـــان رقيقتان ترتســـم فى بياض كل منهما دائرة تحيط بدائرة حتى تنتهى الى انسانها ، وهما دائمتا الحركة والاختلاج . وهو بعد طيب القلب ، مكفوف الاذى ، عذب الروح ، حلـــو الحديث ، ضحوك السن ، يتحرى فى قوله

غريب اللغة ، ويلمس الساهد من مأثور شعر العرب . وقد يجيء به احيانا مكسورا غير متزن . اما قافاته فحدث عنها ولا حرج . جزت بداره مرة فرأيت بنتين صغيرتين تلاعبان، فقالت احداهما للاخرى : هذا بيت الدكتور ، فسألتها : ومن الدكتور ؟ فقالت لها : الا تعرفين دكتور الذى يقول يا بنت هاتى القبره ! ، الابرة !

وفيه ذكاء حاد يديه القراءة والنظر فى الكتب وكأنه يحفظ بظهر الغيب كل ما يقرأ . نعرف هذا من علمه الواسع الذى يكاد يستغرق كل ما فى الدنيا وكل اسبابها . الا ان علمه . مع الاسف يحشد بعضه ببعض . حتى ليخيل اليك ان رأسه « كتبخانة مدشوتة » . ولو قد ملكت امره . وكانت لى بسطة فى المال والسلطان لدعوت بمستشرق المانى فنى لينظم هذه المكتبة العظيمة فيضم كل شكل الى شكله ، ويجمع كل جنس الى جنسه . ويرد كل معنى الى بابه ، ويصف كل فن فى «دولابه»

ومن أخص صفات الدكتور ثابت انه لا يكاد يشعر بمرور الزمن . واذا كان من آية يوشع ان الشمس رجعت له مرة ، فان من اية دكتورنا عند نفسه ان الشمس تثبت له موضعها على طول الزمان . فانت اذا دعوته ليتناول الغداء معك اقبل عليك الساعة ٥ بعد الظهر جذلان غير ورح ولا اعتذار . ولقد دعاه صديق لى وله لنتناول الافطار فى رمضان ولبثنا ننتظره برهة فلما أيسنا منه افطرنا . وفى نحو الساعة الحادية عشرة أقبل الدكتور مسرعا للفطور . وما كان أشد دهشته « يقينا » اذ علم اننا افطرنا من اربع ساعات فانطلق يزمجر و « يزوم » ، ويعتب ويلوم !

ومما يذكر للدكتور فى هذا الباب أنه ما أدرك قط القطار الذى يعتزم السفر فيه ، حتى تقرر عند جميع أصدقائه أنه اذا آذنهم بالسفر الى بور سعيد فى قطار الساعة السابعة صباحا شخصوا الى المحطة لتوديعه فى قطار الساعة ١١ ، واذا آذنهم

بالسفر الى الاسكندرية فى قطار المفتخر كانوا فى وداعه بقطار الساعة ٧ مساء .

وسافر مرة الى الاسكندرية لوداع الآنسة سنتيا موير الصحفية الامريكية ، وأخذ تذكرة للذهاب والاياب على أن يعود من يومه ؛ فلبث هنالك قرابة شهرين ونصف شهر .

ولو قد ذهبنا نعدد لطائف الدكتور محجوب وبدائعه ، لما اتسع للحديث مثل هذا المقال . وانه ليجمل بنا فى موضع الانصاف أن نقرر أن الرجل شريف النفس ، عفيف الجيب ، جمع للنهضة المصرية من مديريتي جرجا وقنا قرابة خمسة عشر ألف جنيه ، أبلغها كلها محلها ، لم يقتطع منها درهما واحدا حتى ولا لاجرة القطار وسائر نفقات السفر وهى غير قليلة ، فضلا عما احتسب عند الله من خراب الاجزخانة ودمار العيادة وفرار الزباين وسرقة شبابيك الدار .

وهو لا يتعمل للدرهم ولا يجرى وراءه ؟ أما اذا سقط الدرهم الى جيبه فلا الى رجعى ، فمثله فى ذلك مثل المصيدة لا تجرى وراء الفار ، فاذا سقط اليها الفار فهيهات ليس له منها فرار . وله فى هذا الباب أحاديث مذكورة وأفاكيه منشورة .

وبعد فالدكتور محجوب ثابت أمة وحده بما اجتمع له من الصفات وما احتشد لديه من فنون المعلومات ، وما تكدس عليه من ألوان التبعات . وهو اذا اعتبر لنفسه حق التحدث على كل شى والدخول فى كل دقيق وجليل من شئون البلاد ، فقد وجب بازاء هذا أن يكون لكل مصرى فيه نصيب . وانى لاقترح على الحكومة أن تصدر قرارا بنزع ملكيته واضافته الى المنافع العامة ، ولعلها بعد العمر الطويل تجعله من نصيب دار الآثار ، حتى يظل رمزا لتلك العبقرية الفريدة على طول الاعصار ؟

الدكتور محجوب أيضاً [1]

وان الحديث ليحلو دائما في الدكتور محجوب راسبا في الانتخاب . وعضوا في مجلس النواب ، كما يحلو فيه ملحا في حب السودان ، ومشغولا عنه بالكلام في السمك والخيار . وان لأوفر هذا الحديث على عتاب سعادة صاحب « الكشكول » على قسوته هذه الايام على الدكتور واطالته القول فيه بعض الاحيان . والاستاذ فوزي يدا بين صاحبنا بقسط كبير من نجاحه في الانتخاب ، فلقد طالما أيده بشديد القول في جريدته القوية ، كما آزره بشخصه في الاسكندرية اذ حزبه الامر وأعوزه النصير .

والاستاذ انما ينقم من الدكتور أنه حين استوى على كرسي في مجلس النواب تكرش لسانه في شدقه وتقبض ، فلم يعد يهتف بالسودان ولا بصحفات السودان ولا بشيء مما كان يمني به ناخبيه ، ويصدع به رؤوس المختلفين الى (صولت) وقهوة الشيشه ، ونقابة العمال ، ومطعم (الكوازع) وحوانيت محطة الرمل ، والمترددين على عيادته من كل رمد العين ومضروب بالفالج ، ومقروح الكبد . ومن خرج به جرب او برص ؛ وشاك مرض القلب وخفقانه . أو وجع الضرس وضربانه ؛ ومصدورة تدارك بالعلة رفيرها . وماخض علا صياحها وزحيرها . وحين اظفره ناخبوه بمقام النيابة نسي وعوده المعالجة بالسمن والعسل ، وخفر عهوده لاهل مينا البصل ؛ وترك حديث السودان في مجلس النواب ؛ واقبل على حديث (الكنافة) والكباب ، وترديد

---

[1] مقتبس مما نشر بجريدة السياسة اليومية في احدى (ليالى رمضان) بمناسبة حملة الكشكول على الدكتور محجوب

ذكر الفطائر المحشوة، والقطائف المحشوة؛ والدجاج والسكابيج والدراج والطهابيج؛ واللحمان المحمرة؛ والطواجن المعمرة، وكل ما يعالج بالسمن او بالزيت؛ وما يصنع في السوق وما يطهى في البيت !!!!

وما خفر الدكتور بالذمه ،ولا خاس بعهده للامة ، فانما كل هم الدكتور كان من امر السودان أن «يقنع المصريين بضرورة أخذه ، وقد سعى الرجل في هذا ودعا ولبث في دعوته تيك سنين طوالا لا يكل ولا يمل ؛ ولا ينقطع ولا يحتبس ، ولا يتتعتع ولا يعثر ، ولا يسكن ولا يفتر . حتى اذا آتت دعوته اكلها «واقتنع» المصريون كلهم « تقريبا » بأن السودان ضروري لهم وبأنهم لا غنى لهم عن ماء النيل ، شمر ذيله وطار الى سوريا يظل دهرا يفشي فيها دعوته ، حتى اذا آمن السوريون كذلك بأن السودان ضروري للمصريين عاد فامسك عن القول في السودان وملحقات السودان وما له يقول فيه بعد ان بلغ الرساله وأدى الامانه ؟ ولو كنت لعمري مكانه لطلبت الى الامة احالتي على المعاش واثبت في بطاقة زيارتي

الدكتور محجوب ثابت

مطالب بالسودان سابقا

وعضو مجلس النواب حالا

وحسب الرجل خدمة للاوطان أن «أقنع» المصريين بحاجتهم الى النيل وحاجتهم الى السودان او «الوطنية» كما تعلم فنون ،ولله في خلقه شئون !

الدكتور على بك ابراهيم

رقيق الجسم ، أدنى الى ان يكون هزيلا ، أسمر اللون ، مستطيل الوجه ، غليظ الشفتين في غير قبح ، واضح الثنايا . لعينيه بريق وفيهما جمال . متفخم اللفظ ، تائه بين الدهاء والبطء وزايه بين الزاى والظاء . وادع النفس ، عادى السعى ، خفيف الروح ، ظريف المجلس ، لا يجد العنف الى عواطفه سبيلا ، يقصد فى طربه ، كما يقصد فى غضبه

فيه حد الفتى وحلم المزكى وحجى الكهل وارتياح الغلام

ولعل هذا الهدوء العجيب من أبلغ العناصر فى نجاحه فى عمله المرعب الدقيق ، وشأنه كشأن جميع النوابغ فى الدنيا : ليس لهم من مظاهرهم ما يدل على اخطارهم ، الا أنك لا تستطيع الا تلحظ أن لهذا الرجل أصابع ليست من جنس أصابع سائر الناس ، فانها تسترعيك بطولها وسراحتها وانسجام خلقها ، على انه اذا تحدث رأيته يستعين دائما بسبابته ووسطاه فما تزالان كالمقص فى انفراج والتئام الى ان يفرغ من حديثه ، حتى انك لتعرفه من أصابعه كما تعرفه من وجهه ، ولو قدر لمصور أن يرسم أصابعه وحدها لدلت عليه الى غاية الزمان .

لقد تسنم غارب المجد ، وبلغ من الشهرة ما تتقطع دونه علائق الآمال ، وهو مع هذا لا يحفل قط بما كان ولا بما سيكون ولا بما سوف يكون . ولا احسبه يطمع فى أكثر من أن يعيش فى غمر الناس كسائر الناس



فيه شفاء للناس

ياله من رجل ! لقد تكون فى مجلسه معه غيرك ، ولقد تكون معه وحدك وأنت مفيض اسبابه ومطلع سره ، فتعرض ذكرى فلان الجراح فيقول لك : «بالك فلان ده ، ويومىء لك بأصبعيه سالفتى الذكر ده والله جراح ماله مثيل ! ده شيء من فوق التصور ! لو كان للجدع ده بخت ماكانش حد زيه في الدنيا !» يقول هذا في رضا وصدق نفس وراحة أعصاب !٠٠ والواقع اننى لا أدرى أكان هذا كله قد جاءه من طبيعة صفاها الله من كل ما يتداخل ارباب الفنون ، ام انه تمكن من نفسه واستوثق من انه لن يتعلق احد بغباره مهما افتن لاخوانه الجراحين فى الوان الشهادات !

ثم هو شديد العطف على اخوانه الاطباء عامة ، عظيم العون لجماعتهم ، رطب اللسان فيهم .

ومن اظرف نوادره ان رجلا من كبار الاغنياء قدم اليه يشكو علة لا تتصل بالجراحة ، فقال له : يا عم لا شأن لى بمرضك فاذهب الى الدكتور فلان أو الدكتور فلان او الدكتور فلان ، فهم الذين يحسنون «تشخيص» علتك ويقدرون على علاجك . فقال الرجل : بل انما قصدت اليك انت ولست ارضى احدا يداوينى غيرك ، وجئت معى بكذا وكذا من الاموال فخذ منى ، على ان تعالجنى ، ماتشاء ! فقال له الدكتور: وأنت اذا أعطيتنى ماتشاء فلن اداوى علتك لانها ليست من عملى ولا تتصل بفنى انما انا رجل جراح فألح الرجل وتضرع ، فلما أعياه أمره قال له اسمع يا عم : لو تلف «كالون» بيتك هل تجىء له بنجار أم بكوالينى ، فقال : بل بالكوالينى ، فقال له: مرضك هذا انا لا اعرف فيه ، قال الرجل : فماذا تصنع اذا ؟ قال له : انا افتح لك كرشك ، اكسر رجلك ، اقطع رقبتك ! . وهذا الذى اعرفه . فانصرف الرجل مقتنعا راضيا !

ولست احاول ان اصف لك قدر الدكتور على ابراهيم ولا نبوغ مبضعه . فحسبه ان سلم الناس اجماعهم له بانه مفخرة من مفاخر

هذه البلاد . ولقد قلت لاحد الاطباء يوما : صف لى براعة الدكتور على ابراهيم . فقال لى : اعرف انك تحب الغناء وتهوى الموسيقى . ولو كان لك عرق فى فن الجراحة وقدر لك ان تشهد « عملياته » لوجدت لانامله من الطرب ما لاتجده لانامل « العقاد » وهى منطلقة فى اوتار قانونه الحان الطروب

على ان نبوغه لم ينته الى حذق الطب والمهارة البارعة فى فن الجراحة . بل نرى له فى كثير من « العمليات » ابتكارات من ذلك النبوغ الذى يؤثر ويدرس ويحدث فى نظريات الفن احداثا .

وانهم ليروون عنه جهداعظيما فى متابعة الحركة الطبية فى العالم ، فهو كثير القراءة والنظر فيما يخرج فى هذا الباب من المجلات والكتب والرسائل ؛ حتى اذا وقعت له نظرية حديثة فاستوت لذهنه أقدم على تطبيقها بنفسه ؛ فكان نجاحه دائما كعزمه قويا جليلا .

* * *

وبعد فان جهلا ان يظن امرؤ ان للعبقريات فى العالم اسبابا معينة معروفة . فما كان هؤلاء العبقريون اصح من غيرهم ابدانا ، ولا اكثر قراءة . ولا اعكف من سواهم على الدرس والتجريب وتقليب النظر ؛ ولا اطلب ممن عداهم لتلك الاسباب المفروضة للبراعة والتبريز ، فلقد كان البحترى شاعرا فى سن العشرين كما كان شاعرا فى سن السبعين ، وكان ابن المقفع كاتبا وهو ابن الثمانى عشرة كما كان كاتبا حين قبض وهو فى الثامنة والعشرين ، وكان رفاييل مصورا رائعا يوم جالت يده بالنقش كما كان مصورا فى غاية عمره ؛ وكذلك كان على ابراهيم جراحا اول منجمه كما هو جراح اليوم ؛ انما هى مواهب من الله تعالى يتخير لها من يشاء من عباده لم يتكشف العلم عن كنهها ولا سببها الى اليوم

وانك لتجد الطبيب يصيب دائما فى تشخيص العلة الا قليلا ، وانك لتجد الاخر يخطىء دائما فى تشخيصها الا قليلا ، ووسائلهما فى الفن واحدة ، وحظهما من العقل والعلم وسائر الاسباب متكافئة !

ذلك ان هنالك حسا دقيقا غير تلك الاحساس المعروفة يكاد
ينفطن له من آثره الله به الى مطوى الغيب . فيقع الشىء فى
نفسه يحسبه الهاما لانه لا يعرف له علة ولا يحيط منه بسبب ،
ومن هؤلاء الذين اصطنعهم الله لهذه الموهبة الدكتور على بك
ابراهيم .

[illegible] سنة ١٩٠٢ [illegible] الوفدت
[illegible] باسيوط . [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] لا ان [illegible] ابراهيم [illegible] الآراء
جميعا . [illegible] سنة ١٩٠٢ بالبلاد
[illegible] . حتى [illegible] . بلاء
عظيما .

* * *

وسبحان من يقرن قضاءه باللطف . فانه فى الوقت الذى بث
فيه هذا الترام فى شوارع البلد زرقه يدك الرءوس . ويحصد
النفوس . واطلقت الاف الاوتوموبيلات . واللوريات .
والموتوسيكلات . تقدد المتون . وتبعج البطون . وتأبى « السفلة »
على سائقيها أن يرسلوها على خلق الله قبل أن يحشوا امعاءهم
بالكوكايين . والهاروبين . وغيرهما من البلاء المبين ، حتى « يغيبوا »
عن مشاهدة ماتنسف سياراتهم من الهام ، وما تفرى من الاجسام ،
وما ترسل على الناس من الموت الزؤام أ ولا تنس . جعل الله
لك فى كل خطوة الف سلامة ، تلك السيارات العاصفة ، مالها
[illegible] يتخذها أبناء الذوات ومن انحدرت
اليهم النعمة . وهى تنطلق انطلاق السهام ، فى أجساد الأنام ، كأن
مهمتها فى هذا البلد صنع أرامل وتخريج ايتام ـ سبحان الذى
حين يبتلى البلد بكل هذا يرسل فيه الدكتور على ابراهيم ، يجمع

من أعضاء الناس ماتفرق ،ويرم من أحشائهم ماتخرق ، ويضم من أشلائهم ماتمزق ،حتى أوشك أن يقطع على عزريل ، رزقه من فنه الوبيل !.

ولقد رأيت صديقا لى من أهل الاخطار لايرى الدكتور على ابراهيم يجوز فى طريق أو يغشى ناديا الا صف قدميه ووقف (زنهار) ورفع يده بالسلام العسكرى ،فقلت له فى هذا ، فقال :«علشان يئخد باله منى يوم أحمل اليه »فقلت له : يالك من رجل مبالغ ، فكان جوابه : على كيفك لك نرموا ى يترد عليه !

* * *

وجل من تعالى على النقص وتنزه عن العيب ، فان جراح الشرق كله لايملك مستشفى يليق بجلالة محله ولا بآلاف « المجاريح » الذين يطلبون مستشفاه من كل مكان : فقد سلطت عليه شهوة اقتناء « السجاجيد » وألوان الطرف واحراز ما أبدعت يد كل فنان . وافتن فيه كل صنع حسان ، ومن كل ماورثت فيه العصور ونمش عليه لون الزمان . من دمى وتماثيل ، وتصاوير وتهاويل ، ونمارق ووسائد ، ومعاضد وقلائد ، وخشب منجورة ، وأحجار محفورة ، ومزاليج أبواب ، وسروج دواب ، وشرفات دور ، و « شواهد » قبور ، ونشاب مصبرة ، وجرار مكسرة الخ : ولو نفض عنه بعض مايحرزه من ذاك لابتنى مستشفى يليق حقا بشيخ الجراحين ! على أننا نترك الكلمة فى هذا للمجلس الحسبى ! ! !

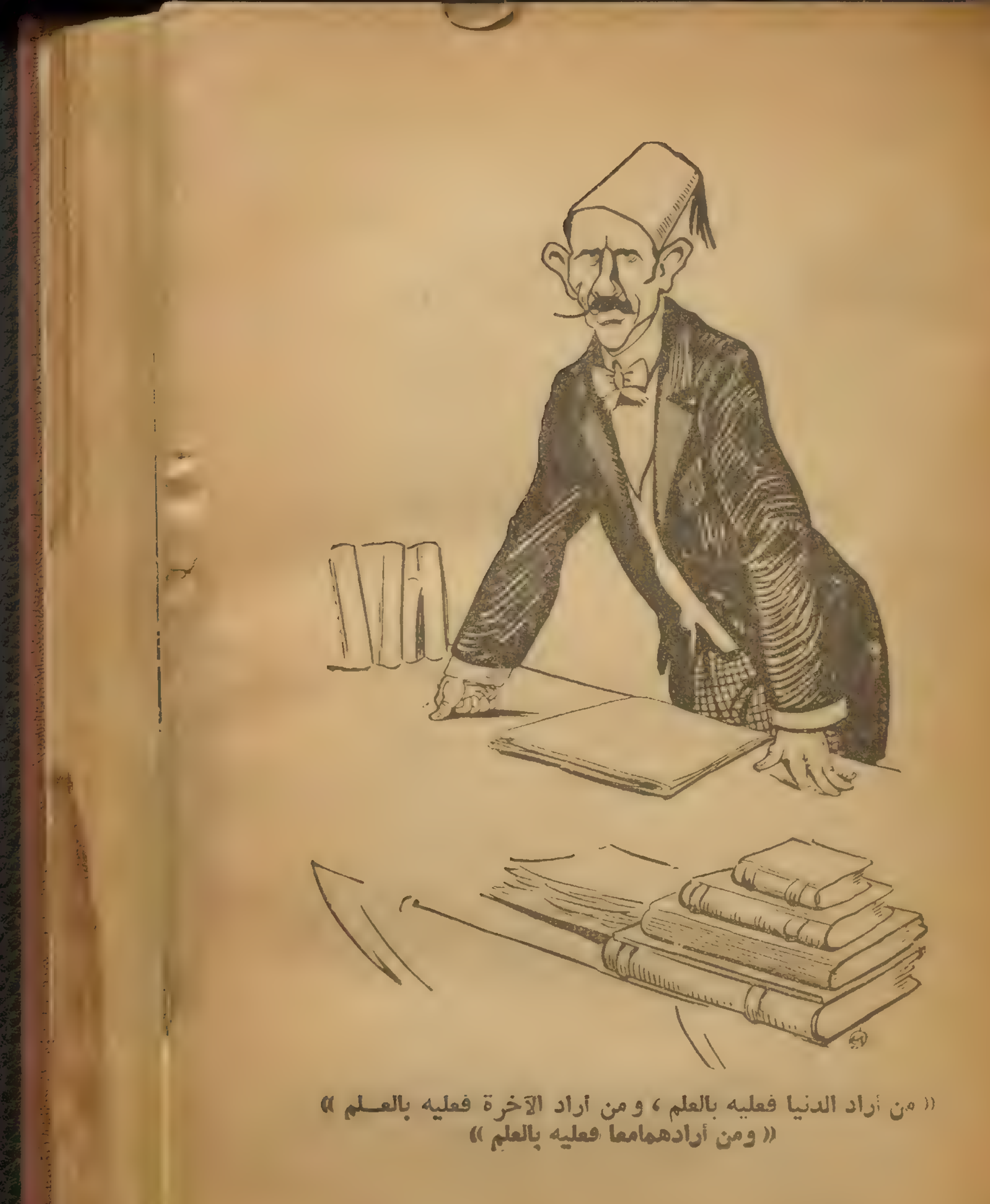
وبعد فان حقا على اهل مصر جميعا ، ومياسيرهم بنوع خاص ، أن يسجدوا لله تعالى سجدة الشكر كلما أطلت شمس الصباح عليهم اغتباطا بأن على ابراهيم غير ولوع بجمع المال ، فلو كانت لغيره تلك الاصابع التى تسرق الكحل من العين ، لآثر أن يكون « نشالا » اذا والله نسل الالاف ولاحرز أكثر مما تجدى « الجراحه » أضعاف الاضعاف ، ولما بقى فى جيب على كيس ، ولاهنى الناس بكريم ولا نفيس ، ولكن قدر الله فكان ، وسبحان من « يعطى الحلق لى بلا ودان » !!

احمد لطفى السيد بك

لاادرى ، أعلمه أوفر من عقله،أم عقله أوفر من علمه ؟ الا أنه أوفى بهما كليهما على الغاية . وهو عالم واسع العلم ، وعاقل وانق العقل ، وذكى منسعر الذكاء . له عينان حديدنان كأنما تمدهما أشعة (اكس) فلايكاد يقوم بينهما وبين ماتريدان حجاب ، وانه ليحاول أن يستر عنك ادراك هذا منه بمنظاره الاسود ، كما حاولت الطبيعة أن تكتمه على الناس بما ضيقت فى محجريهما تضييقا !

واحمد لطفى السيد قد بان خطره من يوم نجم ، فكان طالبا فى مدرسة الحقوق لاتعنيه مدارسة القانون المدنى ، ولا يحتفل لقانون تحقيق الجنايات ، ولا يهمه أين تقع (نمرته) من سلك التلاميذ فى امتحان غاية العام قدر ماتعنيه مدارسة المنطق والفلسفة وعلوم الاجتماع ، على أنه كان مجليا فى الاولى كما كان مجليا فى الثانية . وبهذا خرج لطفى على غير مايخرج سائر التلاميذ ، خرج وله عرق فى الحكمة والمنطق وسائر علوم النظر لايتسق فى العادة لاخوانه « الحقوقيين » .

درج مدرج نظرائه فى الحياة العملية حتى كان نائبا أو رئيس نيابة . على أن خطبه فى ذلك لم يكن جليلا . فقد انصرف همه ، الا أقله ، الى تحصيل العلم والادب ، وأخذ العقل بالتدبير وصدق النظر ، وأخذ اللسان والقلم بفصاحة القول وقوة البيان بالحديث والخطابة ، وبالترجمة والتأليف ، وتارة بالكتابة فى الصحف فى ألوان الموضوعات .



« من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم »
« ومن أرادهما معا فعليه بالعلم »

ثم كان حـزب الامة وكانت « الجريدة » وتهاوت الانظار على من يقوم بها كفاء لمهمها الجسام ، فوقعت كلها عند لطفى السيد ، وتولى الجريدة فكان كاتبا لايبارى كما كان صحفيا لايضارع . وبانت له موهبة جديدة أحوج مايكون اليها امرؤ يتـولى تلك « الجـريدة » فى ذلك العصر ، وهى شدة الطبـع والصبر على الخصومة وطول الكفاح . وناهيك بمن يصمد للقتال اذ شيخ الكتاب على يوسف يتولاه عن يمينه ، واذ فتى الوطنية مصطفى كامل ينقض عليه أحيانا من شماله ، واذ أمامـه ، ولا أسـمى ، من لايسق فى الكيد غبـاره ، ولا تصطلى فى الجلى ناره ، ومهمـا زعموا أن وراء حزب الامة كانت قوة تعضده وتشد متنه ، فما كان من شأن هذه القوة أن تقرب الى هوى الناس جريدة ، وكانت فى الوقت نفسه تتحدث على أمانى البلاد وتطلب أن يسودها حـكم الدستور ، وان طلبته دستورا « متواضـعا » كمـا كان يهتف أستاذنا الجليل — ومع هذا فقد تهيأ لمقـدرة لطفى أن تستدرج الخاصة وأشباه الخاصة فى عامة البلاد ، واضحت دار « الجريدة » منتدى اهل العلم والادب والرأى الصحيح ينتجعونها من كل مكان

لم يكن لطفى فى سنيه تيـك صحفيا فحسب ، بل كان أستاذا يشرع فى العلم والفلسفة وفنون الاجتماع ، وكان له طلاب من الشباب أهل المواهب والذكاء ، فما راقك اليوم من علم فلان ، وما أعجبك من عقل فلان ، وماراعك من ادب فلان ، فأولئك ، فى الحق ، أكثرهم من صـنعة لطفى السيد فى تلك الايام .

وهو رجل له ، أو كانت له ، شخصية قوية : له نظره ، وله تدلله ، وله أسلوبه الكتابى ، بل وله ايماءته وحديثه . وان كثيرا ممن كانوا يطوفون به ليقلدونه فى كل ذلك . فمن أعيا عليه تفهـم علمه وأدبه راح يقلده فى شكله ودله ، ويحاكيه فى لهجته ومخرج حروفه .

ومن ظريف مايروى فى هـذا البـاب أن فتى من ابناء الحكام أصحاب لطفى كان يعجب به هو الاخر طوعا لاعجـاب الناس ، فكان جهد حيلته فى بلوغ بعض شأو لطفى أن ينسل الى حلاقه

فيسأله أن يسوى له رأسه كما يفعل بشعر الاستاذ سواء بسواء،
ثم يغدو على الناس بعد ذلك يقبض صوته ويرسله . ويلويه
ويعدله . ويفككه ويلحمه . ويرققه ويفخمه . ويثنى عطفه من زهو
واستكبار . ويهز كتفيه [illegible] . ثم يعود
الى نفسه فيراها قد [illegible] الى غير جد ولا
غناء ! ... ... [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
ضخام الرجال . ومثل هذا عندنا لو لاحظت الناس كثير !

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] ١٩١٩ [illegible]
فى سبيل الثورة . [illegible]
قويا ، وكان اداته فى [illegible]
مع الوفد الى أوربا ولبث [illegible] . [illegible] ان يلبث
ثم عاد مع من عاد [illegible] الامر . وتظهر بوادر الشقاق فيبدو له
ان [illegible] عقبه الى ان
[illegible] فى داره فى رفق فيعمل . فيبقى حلس (٢) بيته سلما كله
حتى يطلب لما هو [illegible] به واكرم [illegible] دار الكتب المصرية ينظر
فى شأنها بعض اليوم . وينظر فى شأن العلم سائره . وكان من حظ
[illegible] العزلة » هذه . او من حظ العلم منه . ان اتم ترجمة
كتاب الاخلاق لارسطاليس (الى نيقوماخوس) وما كان الابداع فى
ترجمة هذا الكتاب بأبلغ من الابداع فى الاقدام على اخراجه فى مثل
تلك الايام ! !

---

(١) يغذ السير : يسرع .
(٢) يمكث فيه لا يبرحه .

ولقد فاتنى ان اقول لك ان هذا الرجل الذى ضحى بالمنصب فى سبيل الثوره : قد عاد فضحى بالثورة فى سبيل المنصب فصبح كما يقول اصحاب الميسر : كيت ؛ لا له ولا عليه . والى هنا ينتهى عندى تاريخ ذلك الرجل العظيم !

وعساك تتحدانى بأنه أصبح الاستاذ الاعظم الرسمى فى كل البلاد من يوم اصبح « مدير الجامعة » فاجيبك بانى «ماعنديش خبر » بشىء من هذا كله ، وكيف تريدنى على ان اصدق أن الاستاذ لطفى السيد كله اصبح مدير الجامعة المصرية فى حين لم اسمع بأنه افاض على الطلاب درسا او القى محاضرة فى العلم واحدة؟ فان كنت تريد « بمدير الجامعة » ذلك الموظف الذى ينكسر همه على طلب كسى الحجاب والسعاة ، و « تسوية » اجور البوابين والجنائنية و « العرض » لوزارة المعارف عمن يلزم ترقيتهم من جماعة الكتاب ، فليس ذلك بالرجل الذى يعنينا فى مثل هذا المقال

والحق ان لطفى استاذى وانه ليسوءنى ان يختم حياته فى هذه « الجامعة » من حيث يجب ان تبتدىء الحياة القوية لعظماء الرجال ! .

والواقع ان الداء « الاجنبى » قد تغشى تلك الجامعة فى حين لم نر لذلك « الحكيم » قولا ولا عملا ! ولو كان هذا المقام مقام تفصيل فى مثل هذا الباب لباديت استاذى العظيم بكثير ! .

* * *

ولطفى بك يجمع الى عذوبة الروح عذوبة الحديث . وهو اديب تام يحفظ صدرا عظيما من متخير شعر العرب ومأثور اقوالهم ، الى فقه فى متن اللغة ورعاية لدقائقها ، وبخاصة اذا كتب او حضر او خطب . وله فى ابواب البيان والترسل اسلوب خاص به . حاول كثير من الكتاب ان يتكلفوه فانقطعوا دونه . وهو شديد الحرص على ان يريك انه لا يعبأ بتجويد العبارة ولا يتحرى اللفظ الرشيق اذ هو فى الواقع يجهد فى هذا ، رغم عنايته بالمعانى والنكثر من ايراد مصطلح العلماء ، ويتعمل له الى ما دون التعسف

وهده الصفة فى لطفى السيدانما تتصل باخلاقه جملة ، فهو رجل قد اخذ نفسه من كل انطارها بالوان التكلف : يتكلف فى مراح الشباب ثقل الشيوخ . ويتكلف فى مجلس اللهو هيئة الجد .. ويتكلف عدم الاكترث لاعظم مايكرثه من الامر ؛ بل انه ليتكلف الكلام « بالجاف » اذ هو قد نجم فى بيئة لم يعد يرتبطها باهل الريف سبب !

نعم لقد اخذ نفسه بهذا التكلف كله حتى اصبح له طبعا وسجية . واكبر ظنى انه لو شاء يوما ان يرسل نفسه على سجيتها لتكلف فى هذا كثيرا

ولطفى بك اول من رفع راية « الديموقراطية » فى مصر فى هذا العهد الحديث ، وهو الذى نفخهافى روح الشباب واجرى كلمتها على السنتهم ، وعصارة الحزب الديموقراطى من تلاميذ لطفى ولاجدال ، وانك لتراه مع هذا ارستقراطى الفكر ، شديد الاثره للرأى ! ولقد تخالفه الى غير وجهه فيأبى الا أن يغلبك ، ولقد يغلبك بمحض الجدل يتحرف فيه تحرفا ، وهو رجل يملك حجته ويعرف كيف يصول بها عليك فى الحوار . فاذا كنت أنت الاخر جدلا متمكنا من حجتك وأحس منك السطوة برأيه رأيت فى وجهه تغيرا وآنست من نفسه عنك انقباضا

ولادرى أكان هذا من أثر تمكنه من نفسه وشدة ايمانه بحقه وكراهته أن تنزل من الرأى على باطل ؟ أم أن للمسأله وجها اخر ؟ !

* * *

واذا كنت لم أقع من لطفى على أجل فضائله ، فلعلى قد تهديت الى اجل مكارهة ان كان ماهتفت به يعد فى المكاره ، وانى لارجو بهذا أن أصيب رضاه كاملا . ولقد دخل رجل من الناس على بعض الحكماء فاقبل عليه يمدحه ويعدد محامده ، فقال له الحكيم : ما هذا أولى لك ؟ وان اكبارك لما ترى فى من فضل لدليل على انك لاترانى كفئا له ، فلو قد دللتنى على هناتى ! فتلك التى ليست تخفى على

اسال الله تعالى أن يعيننا على خدمة اساتيذنا واحبابنا ، فنحن فى حقوقهم من هده الناحية جد مقصرين ! !

اسمعيل سرى باشا

طويل القامة كبير الهامة ، عريض « الوجهة » ناتىء الجبهة ضخم الانف ، مرسل اللحيه والحاجبين ، له عينان متحيرتان، دائمتا الحركة والدوران ، نفضت الطبيعة على هيكله كل جلال الشيوخ ، ويأبى هو الا أن ينفض على لسانه كل خفه الشباب . فاذا أنت رأيته كدت تعلق نفسك من روعة واكبار : جلالة علم فى جلاله منصب فى جلاله مشيب . حتى اذا سمعته يخوض فى بعض من لا يحبهم ويستريح اليهم لم تكد تملك نفسك من الاستنكار أو ما هو أشد من الاستنكار !

وسرى باشا مهندس بارع ، كفء ، فى بابه ، لكل عظيمة ، وهو شيخ المهندسين المصريين وامامهم غير مدافع . وان له فوق هذا لشهرة عالمية ، فقد دفعه خطره وسعة علمه وصحه تقديره وقوة ماضيه الى أن يسلك بحق فى زمرة كبار المهندسين فى العالم

وسرى باشا ولد فى عائلة رقيقه الحال فى قريه (ريدة) من أعمال مركز المنيا ، ونزح والده الى قصبة ذلك الاقليم لا يتكىء الا على بدنه فيما يكون ازرد على شمله ، فاستخدم فى ديوان المديرية فى عمل لا يتسق لذكائه ولا لقوة استعداده ، فتطلعت نفسه الى ما هو أولى به وأجدى ، ولم يلهه عمله المضنى عن أن يتعلم القراءة والكتابة ، وما زال دائبا حتى أحسنهما وحتى عين كاتبا فى مديرية الفيوم ولامر ما نفى عمدة المنيا الى السودان فعين بدله محفوظ افندى ، وأدخل ولده « اسماعيل » فى مدرسة المنيا مع حسن فتحى الذى صار بعد مفتشا للرى ، وظهرت مخايل النجابة على ولده هذا اسماعيل ، وبرع أقرانه ،



لا أبالى أزاء نفع الاقارب والاصهار ، اجف النيل أم ذوت الثمار !

وما برح له السبق عليهم حتى اصطفى فيمن اصطفتهم الحكومة للارسالية ، فمضى الى فرنسا واتصل بكليه « سنترال » حيث درس الهندسة وخرج منها بأعلى شهاداتها

وعاد اسماعيل سرى ، فاتصل بخدمة الحكومة مهندسا صغيرا ، وتدرج بكفايته فى مناصب وزارة الاشغال حتى اصبح مفتشا لعموم المشروعات ؛ ومن ذلك اليوم رنت الآفاق باسم اسماعيل بك سرى فى المهندسين العظام .

وفى الحق أن ما منع به كبد الصعيد (مديرية المنيا وطرفا اسيوط وبنى سويف) من رى صيفى فاقبال زرع فسعة ثروة . انما كان من صنعة اسماعيل سرى ، مهما عدوا على تلك «المشروعات» من العيوب .

وفى الحق ايضا انه — بعد أن طويت من صحيفة وزارة الاشغال اسماء المهندسين المصريين حين أودى الردى بعلى باشا مبارك واسماعيل باشا محمد وبهجت باشا واشباههم من النواظير الاوالى — كان اسماعيل سرى أول من بعث على الالسن اسماء المصريين مع ديبوى ووليم جارستن واكفائهما من المهندسين الانجليز .

ولو قد ترك اسماعيل باشا سرى فى عمله الفنى البحت لاجدى بعلمه على البلاد كثيرا ، ولكن الرزية كلها فى المناصب ، وقاتل الله المناصب ، فقد قلد الوزارة والوزارة سياسة أكثر مما هى فن . والرجل لا يحذق السياسة ولا يفهم منها الا القدر الذى يعصم عليه منصبه ويستديم له أبهة الوزارة وما اليها من الراتب والجدوى على الاولاد والاقارب

ويبالغ صاحبنا فى الاخلاص لهذا المعنى ويفرط فى الحرص عليه الى حد أن يسخر ، اذا دعت الضرورة ، كل ما أوتى من علم وفن لخدمة السياسة ولو أودى فى هذا السبيل ، بكل وادى النيل حتى ظفر فى عهد اللورد كتشنر — ان عد هذا من الظفر — بتلغراف تأييد من حكومة انجلترا يضمن له السلامة « والنفنفة » فى المنصب والجاه على طول الزمان !

وانى لاعرف طائفة من المصريين كانوا ، ولعلهم مازالوا ، يراءون اهل السلطة من الانجليز ويتجملون لهم ويظاهرونهم بالمودة والعطف استخراجا للمنافع . اذ قلوبهم لاتنطوى من ذاك على كثير . أما اسماعيل سرى باشا فهو لايمارى القوم فى هذا ولا يرائيهم فانه مخلص الحب لهم صادق الصبابة فيهم . يواليهم بالهوى فى سره كما يشيع لهم فى جهره . لا ينحرج فى ذلك ولا يتأثم . والاخلاص ، لو علمت ، فنون !

ومن أظهر صفات هذا الرجل أنه وصول لرحمه . دائب جاهد فى غير من ولا سأم على كل مايعود بالخير على ولده و صهاره وسائر عشيرته . ولو مد له فى الحكم وبسطة له فى السلطان ، لرفت جميع موظفى الحكومة . وجمع الى كل فتى من هله ٤٥٧ وظيفة فى آن واحد . حتى يستطيع ان يحصر وظائف الدولة عليهم فلا يولى واحدة منها خارج عنهم . وان له فى دسهم فى الوظائف والقفز بهم الى عليا المناصب لاحاديث تجمع وتنشر ، وأفاكيه تروى وتؤثر ؛ وحسبك أن تردد النظر فى دواوين الحكومة وسائر مصالحها لتقع فى كل واد على أثر من ثعلبة . ولقد بدا يوما لبعض الحسدة أن يجمع مايجبيه « آل سرى » من أموال الدولة ، فخرج له منها مايقوم بنفقات مصلحة كاملة (وعين الحسود ، فيها عود) حصنت آل سرى برب الفلق ، من شر ماخلق ، ومن شر غاسق اذا وقب ، ومن شر النفاثات فى العقد ، ومن شر حاسد اذا حسد .

ومن طريف مايروى له ، وكل مايروى له فى هذا الباب طريف ، أن وزيرا كان من زملائه له قريب فى وزارة الاشغال فسأله أن يرقيه الى بعض مناصبها الخالية لانه « قد استحق الترقية » فتثاقل عنه سرى باشا وتعذر عليه ، وتوسط فى الامر بعض اخوانهما من الوزراء ، فقال لهم معالى « وزير الاشغال » : ولماذا ارقى له قريبه وعنده قريبى « فلان » لايرقيه ! فقيل له : ولكنه لم يحن بعد أوان ترقيته قال : اذن نتربص بقريبه حتى يجىء الدور على قريبى . وتعلم أيدك الله ، أن صاحب الحاجة أرعن ، فبادر

الوزير الآخر بترقية قريب سرى باشا بالاستثناء فى سبيل ترقية قريبه وهو بحكم الدور !!

وجاءه مرة أحد زملائه الوزراء من هذا الباب فسأله أن يرقى أحد صنائعه درجة على أن يرقى هو أحد أقرباء الباشا فى ديوانه درجة: فدار بذهنه « الرياضى » الكبير فى « الحسبة » فرآها « تفرق » ٢٤٠ قرشا فى كل شهر فتوقف أو يوفاها « على داير القرش » وتعاصى الامر ، وتعذر الحل . وأخيرا وبعد طول محادثات ومفاوضات توسط أحد الوزراء أيضا فى الامر على أن يزيد قريب سرى باشا فى وزارته هو مائتى قرش علاوة على ما بلغه طمعه ويدخل فى جهده ، وذلك كله تفاديا من وقوع أزمة وزارية « Crise Ministérielle » وبعد لأى رضى سرى باشا بهذا الحل محتسبا عند الله ٤٠ قرشا فى كل شهر : كانت — لو أن فى البلاد عدلا وانصافا — تعود على بعض الولد أو الاصهار أو الاقرباء ، بشىء ولو قليل ، من اليسر والسعة والرخاء !! وكانت تضحية من نفس سرى باشا عنده استحق بها أن يقام له تمثال يخلد به « المثل الاعلى » للتضحية والايثار على طول الايام والليالى!»

عبد الحميد سعيد بك

عبقرى حقا كما تعنى اللغة بهذا اللفظ ، فهو طويل بائن الطول ، عريض وافر العرض ، وافى العنق ، بعيد ما بين المنكبين شديد المنة مفتول العضل . اذا تمثل لك حسبته بقية من هياكل سليمان ! ضخم الرأس والوجه ، تدور من حوله لحية كأنها احدى الاجام ، بسقت حول بعض الاكام . لم يقع عليها منجل انسانى بالتقليم والتشذيب ، ولم يتعهدها مقصه بالتسوية والتهذيب ، ولو قد رفعت النظر الى أعلى وجهه ثم ترخيت به الى أسفل ذقنه ، لرأيت ثم مثلثا متساوى الساقين ! أما روحه الذى بين جنبيه ، واما عزمه الصائل فى نفسه ، فأشبه بسكان هياكل سليمان ، منهما بغرائز بنى الانسان ، فهو مارد النفس والقوة ، مارد العزم والفتوة !

نشأ منشأ بنى الاعيان يدليهم أهلوهم الى المدارس ليحرزوا الشهادات ثم يخرجوا الى خدمة الحكومة ، وتلك الغاية عند جمهرة أعياننا تشد اليها الرحال وتتناهى عندها مرسلات الامال . على أن التلميذ عبد الحميد سعيد لم تكد تتفتح نفسه لفهم ما فى الدنيا حتى كان له فى أسباب الحياة غير ذلك الرأى ، لم ير الزاد كله فى أن يرسم خريطة ايطاليا . وأن يجيد الجبر التكعيبى ، وأن يستظهر من «الكتاب الرابع» بابى الاشتغال والتنازع ليخرج فى النهاية «فى العشرة الاول» ، بل أدرك من شباب سنه أن له وطنا ، وأن هذا الوطن يتحكم فى شأنه غير أهله ، وأن واجبه ، مادامت بلاده محتلة مضيعة الحق ، أن يكون جنديا لمصر قبل أن يكون طالب علم فى مصر . وعلى ذلك اتصل هذا الفتى بدعاة الوطنية ، وصرف أعظم قسط من الوقت المقسوم لمراجعة الدرس الى حديث الوطن . واذا

كان عبد الحميد سعيد قد أحرز الشهادة الثانوية وأحرز بعدها اجازة الحقوق (ليسانس) فقد اختلس الدرس والمذاكرة لهما من وقت «الوطنية» اختلاسا !

ويهاجر صاحبنا الى باريس يدعو لمصر ، ويرفع للعالم حجتها ، ويجاهد فى سبيلها بما يملك من المال واللسان والقلم ، ويتخذ هنالك بيتا يصبح مثابة لدعاة مصر خاصة ودعاة امم الشرق المظلومة عامة ، يجتمعون فيه الفينة بعد الفينة ليأتمروا فى شأنهم ويستفصحوا للدعوة مناهجهم .

وتنهد(١) دول البلقان كافة لحرب الدولة العلية ، وتجرد عليها كل مهلكة من آلات القتال ، كما تحرك عليها كل ماتغلى به صدور القوم من التعصب الدينى ، فيركب عبد الحميد الى البلقان جناح النعامة ، واذا هو جندى فى لباس العسكر وسلاحهم ، واذا هو يأبى الا ان يقاتل دائما فى الصف الاول ، حتى يقع ذات ليلة فى احدى الوقائع جريحا يترسب (٢) فى دمه اذ قد انحسر عنه قومه واقبلت خيل البلغار ، فمازال يتخلج من دونها ويتحرف عنها يتستر بالظلام ويتوارى فى جذوع الدوح لايبالى ماينزف من دمه المهراق حتى يبلغ على هذه الحال خطوط الترك ، ولولا هذا العون من الله ماوقعت عين على وكيل مجلس نواب ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ !!

وتدور بعد أولئك الايام رحى الحرب العظمى فينخرط عبد الحميد فى جندها يتحول من ميدان الى ميدان . كلما اهابت به دواعى الجلاد والطعان ، حتى اذا تهادنت الامم المحتربة . وظهر الحلف الانجليزى . وتكسرت دول الحلف الالمانى ، وانطلقت يد انجلترا فى ملك الله تفعل ماتشاء ، هام صاحبنا فى فضاء الارض يبلغ بالكسرة ، ويروى بالصبابة ، وهو سليل بيت نشأ فى الترف

---

(١) نهد لعدوه واليه (من بابى منع ونصر) برز اليه وصعد له
(٢) يتضرج فى دمه كأنه يرسب فيه لكثرته .



من أطاق التماس شيء غلابا   واغتصابا لم يلتمسه سؤالا

وتقلب فى النعمة ، لايعنيه من امره الا ان يدعو حيث كان لمصر، ويهتف ، انى وقع به القضاء ، باستقلال مصر .

وما أنس لاأنس منظره يوم ٢١ نوفمبر وقد جردت دولة زيور باشا كل ماعندها من جيوش وخيول مهرية . ورماح سمهرية، وقسى خطية . وكل عازفة مهمهمة . وكل عاصفة مدمدمة . لتحول بين نواب الامة وبين اجتماعهم . ويخرج عبد الحميد سعيد متسلحا بعصاه التى تزن ٧٣ كيلو . وقد تهيأ للحرب والطعان فى سبيل اقتحام الصفوف الى البرلمان . فكان منظره يومئذ « كلنك » سواء بسواء !

وهو اليوم عضو فى مجلس النواب . اذا تحيفت السن من بعض فتوته ، وطامن حكم الايام شيئا من جماحه ، فترك حديث مصوع وهرر ، فمازالت له قوة على الوثب الى بلاد الاحباش ، للبحث عن نهر الجاش (١) دعك من أمر سنار . ومن خزان مكوار !

* * *

وبعد . فقاتل الله العلم . وقاتل الله الاختراع الحديث . فلولا ماأخرجا للناس من بنادق ومدافع . وآلات ساحقة . وغازات خانقة . وطيارات تحلق فى السماء تمطر الجيوش الوان البلاء ، ومدرعات وطرادات ، ونسافات وغواصات ، ترمى بكل فاتك وبيل ، من قذيفة وطربيل ، لكان لعبد الحميد سعيد اليوم شأن لايقل عن شأن الزناتى خليفة ، وابى زيد الهلالى سلامة ، والبردويل بن راشد ، وآصف شراب الدماء ، واكفائهم من ابطال الحرب والطعان ، الذين سارت بشهرتهم الركبان ، وسجل « التاريخ » بطولتهم على وجه الزمان ! .. ولكن من سوء حظ عبد الحميد بك سعيد أنه يعيش فى القرن العشرين ، ولا ادرى أكان بهذا قد ظلم التاريخ . أم قد ظلمه التاريخ ؟! . .

---

(١) كان عبد الحميد سعيد بك قدم استجوابا فى مجلس النواب لوزير الخارجية يتعلق باتفاق بعض الدول على نهر (الجاش) .

فكرى أباظة !

منكور الوجه ، اخيف العينين فى ضيق محاجر ، مقرون الحاجبين ، كأنما شق عن فمه بعد أن استوى خلقه ، متوافر اللحم فى غير بدونة بينة ، ولو قد اتفق مع قصره . للشحم الغسان لتمت عليه نعمة الله كلها ! ولو رأيته فى اخوته لحسبته بعض تلك النباتات التى تخرج وحدها فلم يتعهدها منجل البستانى بالتسوية والتشذيب !

وفكرى ، على هذا ! على هذا كله ! ! . يكاد من خفة الروح يطير ، ولعل مما يساعده على هذا (الطيران . شكله ؛ البالونى) الخفيف ! حلو النفس ، حلو الحديث ، حاضر البديهة ، رائع (النكتة) ، لو هيء لك أن تجلس اليه عشرين سنة ما أحسست ضجرا ولا سأما ، يسرك حتى فى غضبه وحتى فى خصامه ! وان هذه الطرف البديعة التى يطالع الجمهور بها فى الصحف لقطع من نفسه الفنانة اللعوب يرسلها على القرطاس ارسالا فى غير كلفة ولا مطاولة ولا عناء ، ولعلها بهذا وحده تشيع فى الانفس كل ما تجد لها من أريحية ولذة وطرب .

وهو ذكى متعلم تام الاستعداد على انه صرف كثيرا من هذا الى تمرين تلك الموهبة العظيمة فيه حتى ادركت كل هذا الادراك ، وحتى استأثر بهذا الفن البديع من البيان ان لم يكن قد خلقه فى بلاد العربية خلقا !

واخشى الا يعجب هذا الكلام الاساتذة : علام سلامة ، ومصطفى

صادق الرافعى ، ومهدى خليل ،وصادق عنبر ، واضرابهم من أصحاب اللغة . ولا أقول لهمإن لغتكم لاتتسع لهذا الضرب من (النكتة) وأسباب التظرف ، ولكنى اقول لهم : اذا ابيتم الا يتندر الناس الا بالفصيح الصحيح فعليكم أولا بتحفيظ الامة كلها المعلقات السبع . والملحمات السبع ، والمذهبات السبع والمنقبات السبع الخ ، الى استظهار الكامل للمبرد ، والامالى للقالى ، وصحاح الجوهرى ، ومخصص ابن سيده ، والاساس للزمخشرى الخ الخ ! ... وانا زعيم لكم بان الناس لن يعودوا يسمعون فى اعراس اولاد البلد ، خلل الغناء فى (قافية اسماء السوارع) مثلا اللى على جتنك ! ... اشمعنى ! الضرب لحمر ! ... بل سيسمعون بدلها ان شاء الله : هذا البادى على جثمانك ؟ ... ما باله ! ... من اثر المشق بالسياط ! ...

وعلى ذلك فقد حق على هؤلاء وأمثالهم أن يطلقوا للناس حرية القول والكتابة فى طرفهم وسائر حاجاتهم حتى يتهيأ للامة ان تستحيل كلها (شنافطة) و (حماميز فتوح الله) ، باذن الله ! ! !

نعم لقد (تخصص) الاستاذ فكرى اباظة فى هذا النوع من البديع وبرع فيه أيما براعة، وهذا اسمه يرن به باعة الصحف صباح كل يوم وظهره ومساءه ، ولو اجتمع لامرىء فى بلاد الغرب هذا (الفن) الى هذه الشهرة لخرج فى أصحاب الملايين ، ولكننا ما زلنا فى طريق تقدير الفنون ، على اننا كنا نتهزأ بها وبأهلها من عهد قريب !

واذا كان الفن اجدى عليه شيئا فقد اجدى عليه حقا عضوية مجلس النواب ، وذلك الحظ العظيم . وعلى ذكر البرلمان اهمس فى اذن صديقى الاستاذ فكرى بكلمة صادق مخلص : اعلم يا عزيزى ، وفقك الله ، ان وسائل النجاح فى شىء لا تصلح دائما وسائل للنجاح فى شىء آخر ، فاذا كان كل ما اعده

الاستاذ فكرى للبرلمان هو نفس ما يعده للصحف بلا زيادة ولا نقصان فارجوه الا يتكىء كثيرا على عيشه الجديد ! وليعلم « ان له ناخبين يتردد عليهم » . وليس معنى هذا ان فكرى قصر فى اداء واجبه النيابى ، او انه لم يكن له فى الامر كفاية ، ولكنا انما نطمع فى ان يكون للبلد منه فى البرلمان ، مثل ما لها منه فى عالم البيان .

على انه مما يعزينا فى هذا الباب انه ما برح يتهجى (البرلمانية) فى مجلس النواب ، ودت باب يحتاج الى ممارسة وطول اختبار وتمرين . نسأل الله أن يمد فى عمرى وعمره حتى اراه فى (سنة رابعة) شيوخ ، خطيب (برلمانى) لبقا ، لكن لا كالشيخين المحترمين : عزيز ميرهم ، ولويس فانوس !

ولقد نسيت ان اذكر لك أن فكرى باظة يشتغل بالمحاماة ايضا ، وانه محام من الطراز الجيد ، وأن له مكتبا فى مدينة الزقازيق يطلبه الناس ، وفيهم الجباه (١) والسروات ، لتولى مهمهم والدفاع فى قضاياهم ، وأنه مجد فى مهنته ، ان صح أن هذه مهنته . لبق حسن التصرف مبسوط العلم بمداخل القانون . ومن هنا تعلم أن النبوغ فى فن لا يستهلك دائما سائر مواهب المرء الاخرى ، ولا أدرى أيكون من الخير أن يوزع الاستاذ فكرى قواه على أمرين معا أو على ثلاثة ، اذا حسبنا (البرلمان) شغلة ثالثة ؟ أم أن الخير كله فى أن ينجرد لتربية تلك الموهبة الجليلة التى لم يشاركه فيها كثير ، على حين يشاركه ويبرعه فى غيرها كثير ؟؟!!

والاستاذ فكرى خرج من عائلة كبيرة جدا كل أفرادها متعلم ، وكلهم كسائر المتعلمين له فى السياسة رأى ، ولكنى لا احصى فى هذه الالاف (ماشاء الله) حزبا وطنيا الا فكرى . ولعل هذه من احدى طرفه كذلك !

---

(١) المراد به وجهاء القوم



قبل مايلعب ! . . .

على أن الاخلق به الا يكون حزبا وطنيا من الطراز الجديد « Moderne » بل ان يكون وطنيا قديميا محجوبيا لايقنع بالسودان من منبعه الى مصبه ومعه الملحقات وملحقات الملحقات ، فان فى الشرق القريب والبعيد بلادا ضافية الاطراف ، واسعة الاكناف ، أولى بمصر أن تتولاها وصاية وانتدابا مادام الانجليز ، على رأى الدكتور ثابت ، ولعل الفرنسيين أيضا « مايقولوش حاجة » !!!

ذلك هو الاخلق بطريف الخيال ، وليسعد التمنى أن لم تسعد الحال .

منى ان تكن حقا تكن اعذب المنى والا فقد عشنا بها زمنا رغدا

طلعت حرب بك

لاأحسبك تستطيع أن تتصور « بنك مصر » دون أن تتصور معه طلعت حرب . ولا أحسبك تستطيع ان تتصور اسم طلعت حرب دون أن يتمثل لذهنك فى الحال « بنك مصر »

وكذلك شاء القدر أن يقرن اسم هذا الرجل بأجل الاعمال .

ولو أن رجلا حدثك من عشر سنين بأن سيكون فى مصر « بنك » يقوم على أموال مصرية ، وتقوم عليه أيد مصرية . لرددت حديثه من فورك الى التزيد فى التمنى والمبالغة فى التخييل ! . ذلك أننا ، ولا أكتمك أشد ما الح علينا من العلل ، انما كنا نتكىء فى كل مهمنا على محض التمنى وعقد الآمال بما عسى أن يصنع الغير لنا ! أما أن نضطلع بعبئنا ونعالج شأننا بأيدينا ، فذلك مالم تكن تطيقه أذهاننا ! ولقد طالت علينا هذه الحال حتى دبت الينا الظنون بأننا لانصلح لمعالجة عمل قومى ، لا من عجز عن العمل ، ولكن من توهم العجز عن العمل ، حتى توهنت نفوسنا ، وانبرت عزائمنا وانخذلت هممنا ، وشاع فينا ضعف الثقة ، والثقة وحدها مسك كل ماترى من عظيمات الامور . واذا كنا قد عالجنا كثيرا من المشروعات القومية ففشلنا فيها كلها ، فذلك لاننا انما كنا نقدر هذا الفشل بحكم ماملك علينا انفسنا من ضعف الثقة . وذلك شأننا كان فى كل ماتطلع اليه من مطالب الحياة !

وأذن الله تعالى لنا بالعافية واحسسنا ، بعد يأس ، دبيبها فى انفسنا فى سنة ١٩١٩ ، وهببنا أمة تطلب ماتطلب الامم ، ونهيىء كفيها لننهض بما تنهض به فى سبيل مجدها الامم



الوطنيــة الصحيحة تعمل كثيرا ولا تعلن عن نفســها
« قاسم أمين »

ولست اليوم بسبيل ماقام به أبطال النهضة الوطنية جملة ، ولكننى انما أطوف بالحديث اليوم حول قطعة منه وهى النهضة المالية ، وحول بطل من أولئك الابطال وهو طلعت حرب .
وهيهات أن أصف قدر هذا الرجل الفاتح بأبلغ ولا أصدق من أنه أقام لمصر «بنكا» عظيما يقوم على أموال كلها مصرية ، وتقوم عليه أيد كلها مصرية ، وماشاء الله كان ! .

واذا كان طلعت قد أقدم على هذا كله بعد اذ تخاذل الناس وأصبحنا ولا نظن نفس بنفس خيرا ، فقدر أنت مبلغ ماتسلح به هذا الرجل من عزم وثقة حسبهما ان ملآ كل هذه النفوس عزما وثقة ! .

واذا كان طلعت حرب قد أفاد فى سبيله بنهضة سنة ١٩١٩ واستغل اشتعال النفوس بالوطنية وتنادى الناس بالعمل على أسباب القومية ، فقد أضاف الى العزم حزما ، وجمع الى الثقة والاقدام بصيرة وعلما ، ذلك انه عرف كيف يتخير أسعد الساعات وأكفأها لنجاح مشروعه العظيم .

ولم يكن نجاح بنك مصر مقصورا على ذلك المدى الذى تدور فيه منافع البنوك ، ولكن كان له نجاح أوفى وأبلغ ، هو أنه بث فينا الثقة ، وردنا فى جليلات الاعمال الى أنفسنا ، وأقنعنا بالحس الصادق أننا فى مجال العمل ، غير أهل للخذلان ، ولا للفشل : فهذه شركات جليلة يقوم بها طلعت حرب كذلك ، ويرفدها بنك مصر أيضا ، وقد قامت كلها قياما كريما ، ونجحت كلها نجاحا عظيما .

هذه شركة للحليج ، وهذه شركة للملاحة ، وهذه شركة للطبع ، ولعله ستتبعها شركة للغزل والنسيج ، واخرى لصنع الزجاج ، حتى انى لاخشى اذا تمادى طلعت فى هذه الشركات الناجحة أن يظن جمهرة الناس أن لانجاح لسعى الجماعة الا اذا قام عليه طلعت حرب ، والا اذا سانده بنك مصر ، وفى هذا مساءة قد تستغرق ذلك الاحسان ، فليتدبر طلعت وليتدبر رجال الاعمال .

وبعـد فطلع بك حـرب وان لحقته السن مابرحله عزم الشباب حضـور ذهن ، وقوة تصـور ، ومتـانة ذاكرة ، وجودة رأى ، وصبر وجلد على معاناة كل مايليه من أعمال جسام .

وهو ربعة بين الطول والقصر غير متسق الجـوارح . مستطيل الوجه ، لا بالقسيم (١) ولا الوسيم ، لا يرضيك ظاهره ، فاذا لابسته تـكشف لك عن حسن محاضرة ، ولطف روح وسلاسة نفس ، على خلاف الظن به والرأى بادىء الرأى فيه !

واذا استحال هـذا الرجـل شعرا ما عدا أن يكون قصيدة فى ديوان أبى تمام ، لا تعجبك مطالعه ، على أنك تقع بعـدها على أروع المعانى وأشرف الكلام

ولقد تلقاه يوما فيطالعك بكل ما تملك نفسـه من أنس وبشر حتى تحسب أنه اضحى قطعة من نفسك اذا كنت أنت لم تصبح قطعة من نفسه ، ولقد تلقاه يوما آخر فيتولاك بوجه عبوس تكاد تمثل فيه غيما ورعدا ومطرا حتى لتشعر أنك فى حضرة (زلزله) لا فى حضرة رجل ، تعينه على ذاك الاذى عين خيفاء ، فان ترفعت بها فلت عين حواء . حتى لتطرق وانت تبتهل الى ربك وتسأله أن يلغى المال من الدنيا لكيلا تحتاج الى رؤيه طلعت حرب ! ! ولقد تبحث الامر وتتبينه فاذا هـذا (الحرب) سلم كله ، واذا هذا التجهم فى هذا الوجه لا يدل على أية غضاضة فى تلك النفس ! انما الامر جميع الامر أن الرجل تنوء به جلائل من الامر فيها مايسر وما يسوء ، وفيهـا ما يبسـط أسارير الوجه وفيهـا ما يربد ضواحيه ، ويعكر نواحيه ، وذلك الحظ الذى يدفعك اليه وهو فى احدى الحالين ، فلو ابتغيت قبل أن تطالعه عرافا أو ضارب تخت رمل أو (فاتحـة كوتشـينه) لكان أرفق بك وأبين لحظك معه .

* * *

واذا كان فى بعض طلعت حرب مالا يعجب بعض النـاس فلانهم لم يفهموه ، واذا كان فيه مالا يجمل بالرجـل العظيم ، فذلك أيضا من خلال الرجل العظيم !.

---

(١) القسيم والوسيم بمعنى .

وان تعجب لشيء في شأنه فالعجب كله أنه عضو في مجلس الشيوخ تعرض عليه ميزانية الدولة وتعرض عليه كل المرافق المالية والاقتصادية في الدوله ، فيجول فيها لويس فانوس ويصول فيها الشيخ حسن عبدالقادر ، ويضرب فيها شيخ العرب يس أبو جليل بجرانه ، وطلعت حرب مدير بنك مصر وأبو المشروعات المالية والاقتصادية في مصر لا تؤثر عنه فيها طول « الدورة البرلمانية » كلمة واحدة ! !.

ولعل هذا أنه يريد أن ينأى بنفسه ، أو بعبارة أخرى يريد أن ينأى ببنك مصر وملحقاته عن أي نزاع سياسي على العموم أو حزبي على الخصوص ، طلبا للسلامة وايثارا للعافية .

تعالى الله يا سلم بن عمرو أذل الحرص أعناق الرجال



،جه مصطفى ووجه فريد ، كلاهما لازم لوقت « الشغل » فقط :

حافظ رمضان بك

لو أنك لم تكن رأيت محمد حافظ رمضان بك وبدا لك أن تتمثل رئيس الحزب الوطني القائم على المطالبة بمصر والسودان ، مضاءا أسهما الصحفات ، سواء منها ما في يد الانجليز وما في يد الطليان وما في يد الاحباش ، وجلاء الجيش الانجليزي بلا قيد ، ولا شرط ، ولا مساومة ، بل ولا مفاوضة ولا اتفاق ، ولا . ولا . الخ ... لما استطاع ذهنك أن يتمثله الا رجلا عنيفا حاد الطبع ثائر الاعصاب ، اذا قاولك وبخاصة في شأن عام ، تفجر عن مثل بركان ! ... ولكن ... ما أعظم خيبة الخيال حين تقع عينك على حافظ رمضان بك ويضمك مجلسه ، فانه لايروعك الا أن ترى رجلا وادعا هادىء السعي بطيء الحركة الى حد الجمود تكاد تقطع بأنه قد فقد كل اتصال بين أعصابه وبين معارف وجهه . حتى لتوشك ألا يتغير عليها شيء من مظاهر العواطف المحسة . وانه ليتحدث اليك في الفنون ، ويتحدث اليك في السياسة ، ويتحدث اليك في جميع الاسباب الدائرة بين الناس فيجيد الحديث اجادة ينقطع من دونها الوصف ، جزالة علم ، وصحة رأى . ومتانة حجة ، وقوة بيان ، في حلاوة نبرة وعذوبة صوت ، وانه ليثير عواطفك ، وانه ليبعث معارف وجهك على التشكل طوعا لما أثار حديثه فيك من عاطفة ، أما هو نفسه فساكن وادع ، فتنصرف عنه وأنت تكاد تحسب أنك انما كنت تسمع الحديث من (فونغراف) متقن بديع يدور في هيكل انسان !

والواقع أن الله تعالى قد وهب هذا الرجل قصدا واعتدالا في كل شيء ، فهو معتدل الخلق والتكوين ، معتدل الاخلاق والسجايا ، معتدل

الحركة والسعى ، معتدل الحديث والرأى ، وهو فى الوقت نفسه، رئيس الحزب الوطنى ! ومبدؤه المطالبة بمصر والسودان والملحقات وجلاء الجيش الانجليزى عن جميع البلاد بلا مساومة ولا مفاوضة ولا اتفاق !

الحق أنى لو كنت فى موضع حافظ رمضان بك لكانت مهمتى أشق مهمة رجل فى العـــالم ، على أن حافظ بك يضطلع بها فى غير كلفة ولا عنـــاء ! ولنعظم العظائم .

* * *

ومحمد حافظ رمضـــان ابن المرحوم حافظ بك رمضان، وكان رجلا منقطع النظير فى العلم المالى يوم لم يكن مصرى فى هذا الباب خطر ، وكانت أعظم المصـــارف الاجنبية بالضرورة ترجع الى رأى حافظ بك فى دق مسائل الفن وأبعدها أثرا .

وأنجب عدة أولاد وأحسن تربيتهم وتعليمهم فخرجوا جميعهم رجالا ممتازين . فمنهم القـــاضى ومنهم المحامى ومنهم الجندى ، وها أنت ذا ترى أحدهم ، وهو الذى نعقد له هذا الحديث . فى كبار المحامين ورئيس حزب خطير الشأن فى البلاد .

نعم ، لقد بانت مواهب حافظ من يوم درج لطلب العلم ، وما برح يبرع فيه أقرانه حتى حاز اجازة الحقوق (ليسانس) واقبل على المحاماة مجدا أمينا حتى نما كعبه وبعد فيها صيته ، ولما يزل بعد فى فوعة (١) الشباب ، بعينه فيها علم غزير ، وعقل شديد وبديهة حاضرة وحجة قاهرة وبلاغة ساحرة ، كل أولئك فى صوت كأنما تخفق به أوتار عود . وكذلك كـــان حافظ بك خطيبا رائعا جميلا .

وقد اتصل من صدر أيام الشباب بفقيد الوطن المغفور له مصطفى كامل باشا وظل معه الى ان قبض الى رحمة الله . فكان شأنه كذلك مع المغفور له فريد بك الى أن شطت به النوى ، فما برح هو كذلك موصـــول الاسم بالحزب الوطنى حتى اختير له رئيسا

ومما يذكر له فى هذا الباب انه كان دائما شـــديد التـــوافى

---

(١) فوعة الشباب : اوله

لاساطين الاحزاب الاخرى حتى فى الاوقات التى كان السيد وفيق يرميهم بالمقذعات فى جريدة الحزب من غير حساب !

ولقد يبدو لك حافظ رمضان بك كسولا لا يحب أن يجشم نفسه من الامر جليلا ، على أنه اذا جد الجد كان أنشط من الكوكب السيار !

ومن أعجب ما يؤثر له من هذه الناحية انه قد بدا له فى صيف العام الماضى ، اذ هو فى اوربا ، أن يتسلق قمة جبال الالب « Mont Blanc » . وعبثا يحاول صدقانه (١) ان يصرفوه عن هذه النية ، والعبث بالعروج الى قمة الالب انما هو ضرب من العبث بالحياة نفسها . ويجمع حافظ همته وعناده معا ويخوض مهاوى الموت خوضا حتى يبلغ غايته ، ثم يدلى عن قمة الجبل (بالسلامة) والموت خزيان ينظر ويظفر بتلك الشهادة (شهادة المعراج الى قمة الالب) ولم يظفر بها من المقاديم الا قليل ، فكان أيضا حق « Sport » رغم مايرمى به من فرط الكسل وشدة الخمول !

وهو شديد الولع بالشطرنج حتى لقد يجلس الى رقعته خمس ساعات متواليات لايلحقه فيها ضجر ولا يتداخله سأم .

ولقد يظل طوال هذه المدة وفم «الشيشة» فى فمه ، أو فاغرا فاه فلا تسمع منه الا تنغما يهمس به احيانا ، أو « كش مات » فى غاية كل دست ينعقد له فيه الظفر !

وبعد فلا أدرى أكان حافظ رمضان بك فى قرارة نفسه ومطاوى حسه شاعرا يحلق فى أجواز الخيال أم لا ؟ على أن جلسته الطويلة يوسد فيها خده على كفه مهدل الشفة ثابت المحجرين فى جانب الافق ، لقد تدلك على أنه شاعر بعيد الخيال ، ولعل هذا المعنى فيه هو الذى يتخطى سائر مواهبه فيعقد الصلة بينه وبين مبادىء « الحزب الوطنى » !

---

(١) جمع صديق كالاصدقاء

ومع هذا كله فلا محيص من أن تقع المشاكل بين حافظ بك وبين نفسه كلما (زنقته) الحوادث بينه وبين مطالب حزبه ؛ ولكن حافظ بك كما أسلفت عليك. رجل خراج ولاج ، لا يغم عليه مشكل ولا يعيبه امر جسام : فاذا حزبه من ذلك شيء عمد الى حل بسيط سهل معقول مقبول ، وهو أن تعجله مسألة « فيحط كف » على أوروبا معذورا مشيعا بطيب التمنيات !

أليس هذا حلا سائغا معقولا ؟

وبعد فاذا كان التطرف فى الرأى السياسى ضربا من الشعر ، فما أعذب هذا الشعر وما أحوج تكافؤ النزعات السياسية اليه ، على انه اذا تجاوز حده وخرج عن أفقه فقد أصبح له فى توجيه سياسة البلاد شأن آخر

ولو كان لى من الامر شيء لدعوت بشركة (حافظ رمضان — عبد الحميد سعيد اخوان) فخيرتها امرين : اما ترك المغالى فى الاستجوابات والعوض على الله ولو مؤقتا ، فى الملحقات . واما ان تتولى الوزارة ؛ وعندها مهلة شهرين لتجيء فيها بالنيل من منبعه الى مصبه . والملحقات وملحقات الملحقات . والجلاء الكامل بلا مساومة . ولا مفاوضة وكمان) بلا اتفاق . على شرط أن تؤخذ عليها التعهدات ؛ بعدم (حطان الكتف) على أوروبا وقت الازمات ! ! !

حافظ ابراهيم بك

وجاءت نوبة صديقى حافظ فى (المرآة) ولم تغن عنى المطاولة ولاكثرة الدفاع ، كذلك حتم اصحاب «السياسة الاسبوعية» وبذلك جزم القضاء :

فانك كالليل الذى هو مدركى . وان خلت ان المنتأى عنك واسع

اذن سأجلو حافظا فى هذه « المرآة » وارمى فيه بالقول ، واذن سأدخل فى الورطة وتحق على الكلمة فى كل حال ! ويح نفسى من عنت اهل العنت من القراء ، فاننى ان قلت فيه خيرا قالوا : شهادة صديق لصديق ، فهى متهمة مهدرة ، وان قلت شرا قالوا : ماانكره للود وماأكفره !

وما لى لا اعوذ من السن هؤلاء بالحق ، فالحق اجدى من مصانعة هؤلاء . وعلى هذا فانى سأطلق كلمة الحق فى صديقى حافظ ، واعوذ بالله تعالى ان يلحقنى فيه قول ذلك الحكيم : « ان قول الحق لم يدع لى صديقا » ولا تنس بعد هذا ياسيدى القارىء مبلغ مايضحى به الكاتب المسكين فى سبيل رسالة يؤديها قلمه اليك لتلهو بها خمس دقائق او ستا ، وهو لايطمع منك فى اكثر من ان تقصد فى حكمك . وتترفق فى نقدك وشتمك ، والتضحية فى هذه المرة ليست بجسم يتعب ، ولا بمال يغصب ، ولا بقلم يغلب ، ولا بسبب يجلب ، انما هى باستهداف ود دام احدى وعشرين سنة للجلجلة بله الزوال ، وهى كانت منذ الصبا ، وهى كانت نضرة العمر ، وهى هى **الذكرى الباقية تحلو الحياة لمن ابرمه مر الحياة !**



فان لم تك (المرآة) ابـدت وسـامة
فقد ابـدت (المـرآة) جبهـة ضيغم

مالى قد غشينى من هـــذه العواطف المحزونة الوالهة ، حين عرض لى اسـم حافـظ مالم يغشنى قبل لاسم انسان ؟ وفيم كل هذا ولعلى لا اصيب فى صديقى الا خيرا ! حقـا انى لاخشى ان أكون اليوم مريضا وأن الامر كله من لوثة الاعصاب . فان كنت معافى صادق الوزن فاننى أرجو ان يكون صديقى حين تقع له هذه المقالة معافى متزن الاعصاب .

***

حافظ ابراهيم شاعر ، فهو يحب الجمال ويجتمع له ، ويكره القبح وينعى على اهله ، يجابه بذلك مجابهـة لاينقى فى القول ولا يتحرف ، وما ان طلع عليه فتى دميم الخلق غير مستوى معارف الوجه الا قال له : يافتى ليس الوزر عليك بل على ابيـك لانه لم يؤد مهرا ! واذا اطردت نظرية حافظ فلاشـك فى ان المرحوم والده تزوج على الطريقة الافرنجية فلم « يدفع » مهـرا بل هو الذى اخذ « الدوطة »

جهم الصوت ، جهم الخلق .جهم الجسـم ، كأنما قد من صخرة فى فلاة موحشة ، ثم فكر فى آخر ساعة فى ان يكون انسانا فكان " والسلام » . اما مايدعى فمه فكأنما شق بعد الخلق شقا ، واما عيناه فكأنما دقتا بمسمارين دقا . وأما لون بشرته ، والعياذ بالله ، فكأنما عهـد به الى « نقاش » مبتدىء تشابهت عليه الاصباغ والالوان فداف اصفرها فى اخضرها فى أبيضـها فى « بنفسجيها » ، فخـرج مزجا من هذا كله لايرتبط من واحـد بسبب ، ولايتصـل بنسب . وانك لو نضوت عنـه ثيـابه والبسـته دراعه من دونهـا سراويل ، وافرغت عليه من فوقها جبة ضافية ، وتوجتـه بعمامة عظيمة متخالفة الطيات ، لخلته من فورك دهقـانا من دهاقين الفرس الاقدمين ! فاذا جردته كله واطلقته فى البر حسبته فيلا ، او ارسـلته فى البحر ظننته درفيلا !.. ولكن !.. ولـكن اكشف بعد هـذا عن نفسـه التى يحتويها كل ذلك ، فلا والله ما النور بعد الظلام ، ولا العافية

بعد السقام ، و لاالغنى بعد البؤس ، ولا ادراك المنى بعد طول اليأس ، بأشهى اليك ، ولاادخل للسرور عليك من هذا حافظ ابراهيم !

خفيف الظل عذب الروح حلو الحديث ، حاضر البديهة رائع النكتة ، بديع المحاضرة اذا كتب لك يوما ان تشهد مجلسه اخذك عن نفسك حتى يخيل اليك انك في بستان تعطفت جداوله ، وهتفت على اغصانه بلابله . وأشرف نرجسه وتألق ورده ، فأذكراك طلعة الحب تانك عيناه وهذا خده ! وتنفس فيه النسيم بسحر هاروت ، فاعجب لمن ينشره هذا النسيم كيف يموت ! والبدر فى ملكه بين المجرة والجوزاء ، يخلع على الروض حلة فضية بيضاء فلاتدرى أأمست السماء فى الروض ، أم أمسى الروض فى السماء ؟!

ولم ار قط رجلا اسرع منه حفظا ولا اثبت حافظة ، ولقد تقع له المقالة الطويلة أو القصيدة الضافية فترى نظره يثب فيها وثبا حتى يأتى على غايتها . واذاهو قد استظهر اكثر جملها . أو أبياتها ان كانت قصيدا ، واذاهى ثابتة على قلبه على تطاول السنين . كذلك لم ار قط رجلا اجتمع له من متخير القول ومصطفى الكلام مرسلا ومقفى مثل ما اجتمع لحافظ ابراهيم ، فكان حقا له من اسمه اوفر نصيب . واذا كنت ممن يجرى فى صناعة الكلام على عرق وهيىء لك أن يحاضرك حافظ فى الادب ، لصب على سمعك عصارة الشعر العربى وابدع ماانتضحت به القرائح من عهد امرىء القيس الى الآن . ويمكنك أن تعد بحق حافظا أجمع واكفى كتاب لمتخير الشعر العربى عرف الى اليوم . وليتهم ، اذ يشرف على السن ، بدل احالته على المعاش يحيلونه على احد « دواليب » القسم الادبى فى دار الكتب ، اذن لعصموا عليها ذخيرة هيهات أن تعوض على وجه الزمان .

واذا اردت أن تتعرف لون شعره والى أى راد من اودية الكلام ينتسب ، فارجع الى اكثر مايهتف به ويردده من شعر من

قبله من الشعراء ؛ وانه فى هذا الباب لیؤمن قبل كل شىء بالصنعة والديباجة ونسج الكلام . وما بعد هذا عنده فعفو . وهو يرى . ولقد نرى معه كثيرا ؛ ان جلال الشعر وبهاءه ليسا فى العمق بدقيق المعنى وان تزايلت من دونها الالفاظ وان دق المعنى [illegible] فى حوارهم ومساوغ [illegible] . [illegible] النسج [illegible] الشعر [illegible]

[illegible] :

[illegible] مقصرا فى [illegible]
[illegible] [illegible] على البيد [illegible]

[illegible] :

[illegible] من دموع [illegible] فى المفرق
[illegible] :

[illegible] يخبرنا أين [illegible] باطنها السفن
[illegible] :

فمن بنى جرم اذا ما هجتهم وسعدا اذا حييت منك بنو سعد
فان يخبروك الحق عنى تجدهم يقولون يحمى صاحب الفرس الورد

وغير هذا من رائع الشعر مما لا يدخل تحت الحصر .

وبعد . فأى معنى فى مثل هذا يرتفع عما يبتذل به العامة فى أحاديثهم وأسمارهم وفنون منطقهم ! انما خطر ذلك كله فى لطف الصياغة وشدة القول وقوة الاسلوب . ولو قد ذهبت تؤدى بلغة أخرى أفخر ما نظم البحترى وأبو تمام وأضرابهما من أعيان الشعراء ما خرجت من ذلك بجليل بل لو أنك تعمدت أبلغ ما قالوا فنقضت غزله ونثرت نظمه . ما عدا أن يكون كلاما من أوسط ما اعتاده الناس من الكلام !

هذا رأى حافظ فى الشعر ، وتلك أيضا صورة من شعره ! مشرق الديباجة جزل اللفظ ، صافى القول ، محكم النسج ، رصين القافية ، ترى معناه فى ظاهر لفظه ، فاذا أقبل عليك ينشدك من شعره أبصرت البيت يستشرف وحده للقافية استشرافا حتى لتقبض عليها بذهنك قبل أن ينطق بها حافظ ابراهيم .

وحافظ ، كما أسلفت عليك مؤمن كل الايمان بالصنعة ، ولقد يسنح له المعنى الدقيق فيحاول أن يشكه بالقريض ، فان أصابه فى غير قلق ولا اعنات للفظ أو اخلال بقوة النظم ، والا صرف لغيره وجه القريض ، ولربما اصاب المعنى الرفيع فيسره للنظم تيسيرا ، حتى يخيل لك ، اذ تتلوه أنك فى كلام من جنس سائر الكلام ! .

وهو ، كما حدثتك ، حاضر البديهة رائع « النكتة » يتعلق فيها بأدق المعانى فى جميع فنون القول : فلا يحويه مجلس إلا رأيته ينزى تنزيا من ضحك ومن طرب ومن اعجاب . وهو كذلك شديد الفطنة حلو الملاحظة لا يكاد يمر بسمعه او ببصره شىء الا وجد عليه رأيا طريفا يسوغه فى « نكتة » عجيبة قد تستقر على سطوح الاشياء ، وحينا تتغلغل الى الصميم حتى تكشف الايام منها لا عن طرفة مستطرف ولكن عن رأى حكيم ؛ وهو لا يتحامى فى تظرفه ولا يتحرج فربما يقتحم عليك بنادرة من مداخلك انى سنحت له اقتحاما فيصيب من خلقك ومن ثيابك ومن أثاث بيتك ومن طعامك . على انه فى كل هذا مرضيك ومؤنسك وباسط أسارير وجهك ان لم يفرج بالضحك من ثناياك . فاما اذا كنت رجلا ضيق العطن متزمت النفس فلا خير لك فى مجلس حافظ ابراهيم

وهو أجود من الريح المرسلة ، ولو انه ادخر قسطا مما أصاب يده من الاموال لكان اليوم من اهل الثراء ؛ على أنه ما فتىء طوال أيامه يشكو البؤس حتى اذا طالت يده الالف جن جنونه او ينفقها فى يوم ان استطاع فاذا استغلقت عليه أحيانا وجوه السبل لاتلاف الاموال عد هذا أيضا من معاكسة الاقدار ! ولعل هذا من نضجت شاعريته فى باب (شكوى الزمان) وقال فيه ما لم يتعلق بغباره شاعر فهو ما يبرح يطلب البؤس طلبا ويتفقده تفقدا ايثار التجويد الصنعة والتبريز فى صياغة الكلام وتلك دعوة كانت للمرحوم الشيخ محمد عبده أحسب حافظا يحققها بيده اذا قصرت فى تحقيقها الايام . وانه لفنان « Artiste » حقا وان فيه لكل أخلاق الفنانين :

توله بالطعن من جميع أقطاره ، فقد يسامحك ويتراخى بالصفح عنك ، اما أن تتولى فنه وتسلك بالطعن صنعته ، فذلك الكسر الذى لا يجبر ، وذلك الذنب الذى لا يغفر ، وذلك مثار الدمع مايزال هاميا ، وذلك متنزى الجرح مايفتأ على الزمان داميا .

والعجب أن حافظا نفسه ضيق العطن قليل الصبر سريع الغضب ويا ويل الارض منه والسماء اذا تعجل أمرا فالبث دونه دقيقة واحدة ، اذن لهاج هياج الصبى ، فما يجدى فيه التصبير ولا التعليل وما أبدع غضبه وما أحلاها ساعة يهم بركوب مركبه فى الطريق فيرى الخيل قد خلعت عنها أرسانها . وهناك تسمع منه وهو يكاد يميز من الغيظ . أبدع النكت وأدقها . وقد عجلت اليه الشيخوخة قبل السن ، وضربته أعراض السبعين ، اذ هو لم يذرف كثيرا على الخمسين . ففاض من أنسه غير قليل . وشغل بالمرض أو بتوهم المرض ، فما يلقاك الا بنكت علة طارئة وطالعك بشكاة جديدة وتتقسم أوهامه مراجعة الاطباء والمتطببين ، وترديد النظر فى كتب الصحة والاقرباذين ، فما سمع بعلة الا احس اعراضها ، ولا وقع على عقار من العقاقير الا اتخذه وتداوى به !

ومن اظرف نوادره أن صديقا له لقيه مرة فى الطريق وهو منقبض النفس متربد الوجه فسأله ما به . فقال له : (ان المصران الاعور عندى ملتهب) فقال له صاحبه : وبماذا تشعر ! فقال : أشعر بوجع شديد هاهنا ، واشار بيده الى جنبه الايسر ، فقال له : (ان المصران الاعور انما يكون فى الجنب الايمن لا الايسر!) فأجابه حافظ من فوره : (يمكن أكون انا ياسيدى اعور شمال)

* * *

ولا احسب شاعرا يجيد الانشاد كما يجيده حافظ . وان له لصوتا جهيرا فخما رائع المقطع . فاذا هو وقف ينشد الجماهير هزها هزا ورفع بالترتيل حظ الكلام درجات على درجات .

ولا ننس لحافظ يدا جليلة على اللغة العربية بما نظم وما نثر انشاء وترجمة ، فلقد طالما استخرج من مجفوها صيغا

طريفة بليغـــة ادت كثـيرا من الاسباب الدائرة بين الناس ممـا تتحرك معانيه فى الانفس ويعيى اداؤه على الاقلام .

وحافظ ابراهيم ، ولا شك ، من مفاخـر هـــذا العصر ومن مباهجـــه معا . اسأل الله ان يبسـط فى عمـره وان يرزقـه العافية ، على ان يقتنع هو انه فى عافية !

وبعد ، فاذا كنت ياصديقى قدوترتك بعض حقـك ولم أعرض جميع مزاياك فلكيلا اجعل لاحد سبيلا الى الاتهام ، واذا ظن بى شانىء انى لم اتسقط كل هناتك ، أن كانت لك هنات اخرى ، فما كن الود ليرينى الا الخير فى اصدقائى ، على اننى اعتذر اليك فى الاولى ، واعتـذر الى القراء فى الثانيـة ، واستغفر الله فى الحالين . واسأله تعـالى ان يصرف عنى محنـــة الكتابة ويتوب على من فن الكلام

هدى هانم شعراوى

لقد نعرف ان العرب انما أخذوا علم المنطق عن اليونان وعربوه تعريبا ، ودونوا فيه الكتب ، واشاعوا البحوث وفرعوا الاسئلة ، على أنهم فى كل ذلك لم يخرجوا عن الافق الذى رسمه اليونان حدا للمنطق تدور فيه قضاياه ، وتتكيف اقيسته فى اشكاله المقسومة ، وكل اولئك مرده عندهم الى العقل ، والى العقل وحده ، فاما القضايا الوجدانية ، واما الاقيسة الشعرية ، فلا اعتبار لها ولا اعتداد بها فى معرض الاحتجاج .

وبهذا اضحى المنطق شبيها بالرياضة ان لم يكن شعبة منها .

واما الفلسفة الحديثة ، فلسفة الغرب . فقد تبسطت قواعدها حتى تناولت نجوى القلب وحديث الوجدان ! وادخلت هذا فى جملة الاقيسة التى تعتبر نتائجها ، ولقد يكون هذا من الحق ، فان شعور النفس احيانا لا يقل صوابا عن حساب الذهن ، بل لقد يسبق الوجدان احيانا ويستشرف الى ما لا يهتدى اليه العقل ، وينقطع من دونه جهد التفكير ، فليس عدلا وليس حقا ان يسقط الانسان هذه الأداة القويه النافذه من اسباب تعرفه واستكناهه لحقائق الاشياء !

على ان هذا ايضا لا يسلم من الخطل ، فكثيرا ما يكون موقع الراى فى الوجدان اثرا من آثار الهوى ، او حكم البيئة ، او الظرف الخاص ، او طول الاعتياد او نحو ذلك مما تتجه به نزعات النفس دون ان يكون للحقائق فى نفسها اى اعتبار .

وانما سقت هذه المقدمة الطويلة ، المملة ايضا ، لاقرر اننى ، فى مسألة المراة رجل رجعى ، لا أرد هذا الى قياس منطقى

عقلى ، على الطراز القديم : انما مرد الامر كله الى قياس وجدانى على الطراز الحديث . نعم لا ادعى اننى حركت فى الامر عقلى فاثبت لى بعد ترتيب الاقيسة المنطقية ، ان « نهضة المراة المصرية » غير ميسورة او غير صالحة . انما هى نزوة الوجدان لا تلهمنى من هذا الامر [illegible]

* * *

وهتف بى صديق : [illegible] عن الرجل وفى النساء منهن افضل من [illegible] عن [illegible] فى ان [illegible] عصر ، من غير تردد [illegible] شعراوى . ولكن [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

على انى [illegible] ولا بعد [illegible] ان [illegible] رابها ، ولا بد لى قبل ان اتحدث عنها ان اتحدث اليها . فكيف السبيل الى كل ذلك .... [illegible] ان اسعى اليها [illegible] لاسالها فى مسألة خيرية

ولقد تفضلت السيدة الكريمة واذنت لى فى المثول لديها فى قصرها الفخم القائم بازاء دار الاثار ، او انه قائمة بازائه دار الاثار

مضيت الى الموعد ورأسى يزدحم بجلائل الافكار عن هذه السيدة النبيلة المزدحم تاريخها بجلائل الاعمال . ولقد ثار المصريون فى صدر سنة ١٩١٩ يطلبون نصيبهم فى الحياة ، وأبت كرائم السيدات أن يتخفين فى الخدور فنفرن [illegible] الى الجهاد ، وفى طليعتهن كانت السيدة هدى هانم شعراوى ولقد يسيغ الرجل الرجعى «مثل» هذا لاننا كنا فى جهاد ، وهل خلا جهاد من أثر للسيدات عظيم؟ وهادننا الانجليز وهادناهم ، وسكت المدفع وتكلمت السياسة ، وابت أكثر العقائل الى خدورهن تاركات ذلك للرجال ، فذلك فى رأيى ، من شأن الرجال وحدهم وأبت هدى هانم ، فى سرب من ربات الحجال الا أن تجول فى السياسة مجالا ، ولعله عز على بنت سلطان باشا الذى [illegible] يوم فى البلاديوم حاصر العرابيون

الخديو فى الاسكندرية وكفوه عن ولاية الحكم . والذى جرد عليه بعض الثائرين السيف ضد يتعنعمن التشبث بما اعتقده منجاة للوطن ؛ ولعله عز على زوجة على شعراوى باشا الذى كان ذلك بلائه خاضوا ، فى يوم الروع ، مدافع السلطه وأسنتها ، وراحوا يقولون لعميدهم فى شمم وقوة : ان مصر تريد حريتها لا بد لا سبيل حياة الرق ؛ فاذا كنتم ترومون أن تنصلوا بها فلنكن عسد الائمة بالاكتفاء لا السادة بالعبيد — عله عز على هذه السيدة التى حاضت المجد من كل أطرافه أن تسكن أو تبلغ مصر غايه مناها من الحريه والاستقلال

على أنها ما بنت فى ميدان السياسة أن فطنت الى أن نهما مهمه أخرى لو حررت بهامواهبها العظيمه ، لكان ذلك ارد على بنى وطنها ، بل على قضيه هذا الوطن ولقد اجتمع للسيدة هدى هانم ما لم يجتمع لكبيرات فى هذه البلاد ، اجتمع لها الحسب ، والغنى ، والذكاء ، والنشاط . والغيرة الشديدة على النفع العام

وشاء الله لهدى هانم ، أو على الصحيح ، شاء لحظ مصر ان تقبل هذه السيدة بكل مواهبها على ما هو أخلق بها ، فرأت أن المرأة المصريه مظلومه فحق أن تنصف ، محرومه ، فحق أن تعطى ، جاهله . فحق أن تتعلم ، وأنفقت ما شاء الله من مالها وجاهها ومساعيها حتى شرعت الحكومة قانونا لسن زواج البنت ، وحتى فرضت من عنايتها نصيبا عظيما لتعليم البنات . وما زالت السيدة تلح بمساعيها على الحكومه فى شأن المراة . وما زالت عنايه الحكومة تتسع لهذا الالحاح الكريم

أما من جهتها هى فقد راحت تعمل على تهذيب المرأة المصرية وتعليمها ورفع شأنها بكل ما دخل فى امكانها من الذرائع : فمن انشاء مدرسه ، الى اقامه ملجأ ، الى تشييد مشغل ، الى نشر مجلة ، الى القاء المحاضرات العامه فى شئون التربيه والتعليم

ولم تقنع بكل ذلك فاقامت مصنعا للخزف تحيى به صناعة وطنية قديمة من جهة ، وتعصم به من جهة أخرى طائفة كبيره من الفتيان المتبطلين من التشرد والاطراد فى طرق الشر والاجرام

ويضيق العمل فى داخل البلاد عن مساحة همتها فتهاجر كل عام الى ديار الغرب لتهتف باسم مصر وتعلي من قدر المرأة المصرية هناك

واظن السيدة هدى هانم شعراوى أول سيدة مصرية مثلت بنات جنسها فى بلاد الغرب ، فقد وفد على روما من بضع سنين وانتظمت عضوا فى المؤتمر النسوى الذى عقد هناك . والقت بين أهله خطابا نفيسا دل القوم على أنهم كانوا فى عقيدتهم فى السيدة المصرية جد مخطئين

ووفدت صيف هذا العام على باريس ودخلت عضوا تنوب عن نساء مصر فى المؤتمر النسوى الذى حضره رئيس الوزارة ووزير المعارف كلاهما . ومما يذكر لها بالاعجاب انها لاحظت انه قد رفعت فى قاعة المؤتمر اعلام الدول التى ينتمى اليها الاعضاء جميعا ماخلا مصر ، فلم تتوان عن الجهر بما لاحظت ، فاعتذر اليها القائمون بشأن المؤتمر واكدوا لها جهد قواهم أن الامر لايمكن ان يصرف الا على مجرد السهو ، وبادروا الى العلم المصرى فرفعوه بين التحية والتصفيق ، ولما انتخب اعضاء لجنة المؤتمر التنفيذية كان بينهن ، ولا فخر ، ممثلة نساء مصر هدى هانم شعراوى .

كل هذه الافكار كانت تساورنى فى طريقى الى قصر السيدة هدى هانم شعراوى ، الا اننى ، كما اسلفت اليك ، فى مسألة « النهضة النسوية » رجعى . واذا كنت اخاف شيئا من وفادتى تلك ، فهو ان تغير السيدة هدى هانم رايى فى المرأة ، والمرأة المصرية على وجه الخصوص !

وأنت اذا جددت فى التفكير انتهيت الى أن أكثر مايستريح اليه الناس وما يختمون عليه قلوبهم فى معاقد آرائهم مدين لهذا النوع من الانانية فى الانسان ، وان المرء ليؤمن بالرأى حتى ليقاتل فى سبيله ويبذل مهجته من دونه ، وما كان هذا الرأى نتيجة منطق سليم ولا وليد تفكير صحيح ، بل لقد يكون أثرا من آثار التقليد أو طول الاعتياد أو حكم الظرف الخاص أو غير ذلك من مختلف الاسباب ، وان الزمن ليعقد بين المرء ورأيه الفا ومودة ،

وتلك العلة فى نفورك من كل من يكشف لك عن مواقع الخطأ فى رأيك ويحاول أن يزعجك عنه الى ماربما كان الصواب . ولقد لمس المتنبى هذا المعنى فى قوله :

خلقت ألوفا لو رجعت الى الصبا   لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

* * *

وبلغت قصر السيدة الفخم ، وقادنى الخادم الى غرفة صنعت على (الطراز العربى) وقد افتنت اليد الصناع فى سقفها وجدرانها ومحاريبها وأثاثها وثرياتها وصورها وتهاويلها ، حتى خيل الى أننى انما أعيش فى القرن الرابع عشر لاالعشرين . وجاء شاب من قرابة السيدة فدعانى وسارنى ، فخضنا بهوا عظيما هائلا يتحير الطرف فى بديع أثاثه ورائعة تحفه ، حتى أفضى بى الى غرفة مبسوطة الجنبات أثثت بفراش من طراز لويس السادس عشر ، وزينت جوانبها بغوالى الطرف ، كما زينت جدرها بأبدع ماجالت به أيدى المصورين . والواقع ان عينك لاتقع ، انى دارت ، الا على مظهر من مظاهر الغنى ، الا أن ذهنك سرعان مايستغرقه شعورك بما فى ذلك النظام من دقة ذوق وروعة جمال . وهناك استقبلتنى السيدة النبيلة مرحبة وأومأت الى كرسى كبير « فوتيل » فجلست وجلست .

ولست أعالج من وصف سيدة ماأعالج من وصف الرجال فى هذه « المرآة » ، الا أننى لا أكتم القارىء أن هذه السيدة تحيط بها هالة من جلال تحسر النظر عن تصفح مافى معارف وجهها من قسامة وجمال ، وذلك البريق فى عينيها قل أن يقع على محدثها ، بل أنها لتشرد به فى ناحية اخرى فى فتور طرف ، على أنك لو استطعت أن «تنشل» منه فى غفلة منها نظرة واحدة اقنعتك تمام الاقناع بأن نظرها انما يتجاوز المحيط الذى أنتما فيه ببعيد . والواقع أنها سيدة مفكرة ، والظاهر انها لاتنقطع عن تفكير عميق ، محتشمة الثوب ، محتشمة المجلس ، محتشمة القول ، محتشمة الابتسام .



وهمها فى العلا والمجد ناشـئة   وهم أترابها فى اللهو واللعب

وانتهى دور التحية ولم يبق لى بد من الكلام ، فقلت لها : ياستى ، انما جئت لاسالك فى بعض ماتعانين من الاعمال ؛ فأجابتنى فى دهشة قد تنطوى على شىء من الانكار :

ـ لقد اخبرونى ياسيدى انك آت لتسألنى فى مسألة خيرية !

ـ وهل ثم خير ابلغ واجمع مما تعالجين ياسيدتى من وجوه الاعمال ؟

ـ تفضل فسل عماشئت

ـ قبل كل شىء لاأكتمك اننى رجل لاأقول بالسفور ولا أذهب مذهب السفوريين ، بل انى اعترف بأكثر من هذا ! أعترف باننى فى مسألة « النهضة النسوية » مازلت رجعيا .

ـ رجعى ! ولماذا ؟ وما حجتك على هذا الخلاف لجماعة السفوريين ؟

ـ لست اتكلف لهذا حجة :بل لعله راى طبعتنى عليه البيئة بحكم نشأتى فى بيت محافظ

وهنا ابتسمت السيدة النبيلة ودارت ببصرها دورة سريعة وقالت فى بطء يتداخله شىء من العجب : وأين نشأت انا ؟! ... وكانها بهذه الكلمة الصغيرة تقول لى بابلغ البيان : وهل نسيت اننى نشأت فى اكبر بيت فى الصعيد له كل تقاليده المأثورة ، وعاداته القاسية الموروثة ؟ فأجبتها من فورى : وهذا ياسيدتى مما يزيد فى العجب !

ـ ليس الامر بدعا كما تظن ، فان امة تريد أن تحيا وأن تأخذ مكانها تحت الشمس انما تعبث بعقلها وكرامة تفكيرها اذا ظنت انها بالغة من ذلك ونصفها أشل ! وكيف يرقى الرجال اذا لم يرق النساء ؟ وكيف ينتظم حال بيت تديره امرأة جاهلة لارأى لها فى الحياة ولا كرامة ولا خطر ؟ وكيف تريد للامة رجالا صالحين اكفاء للحياة المجيدة القوية اذا كان يتولاهم فى بدء نشأتهم ويطبع تفكيرهم امهات جاهلات وضيعات التفكير ؟

ـ يلاحظ ياسيدتى انه فى هذا الوقت الذى قويت فيه الدعوة الى السفور خرجت كثيرات من السيدات عن آفاقهن سواء فى

ملبسهن وفى غير الملبس من مطالب الحياة ! . وترى هل هناك صلة بين الامرين ؟

— ان دعوة السفور ماكنت يوما لتنطوى على هذا التبرج وهذا السلوك الذى تنكره وننكره نحن معك . فاذا ظن ظان أن من السفور ما تفعل بعض سيداتنا مع كثير من الاسف . من الابتذال فى مجالس الرجال والرقص ونحوه فهو فى أشد الضلال . واذا كن بعض السيدات قد تطرفن فى سلوكهن فما كان ذلك الا نتيجة « السفور » الاجتماعى . ونحن اذا دعونا الى السفور وعملنا بجهدنا على تحقيقه فانما نفعل ذلك لنكبح جماح هذا « التطور » ونسير بالمرأة الشرقية فى الطريق النافع المأمون .

— وانك ياسيدتى لتجاهدين كثيرا فى أعمال البر . فهل لك أن تصورى لى شعورك كلما ادركت من عملك نجاحا ؟

— اننى اذا كان قدر لى فى مساعى نجاح كما تقول فان شعورى مشغول عنه بمعالجة ما لم يتهيأ بعد له النجاح . ثم قالت فى تواضع عظيم : ان خطانا ما زالت بطاء . وخطى الايام سريعة !

— لعلك ياسيدتى لاتزنين تمام الوزن أثر المجهود العظيم الذى بذلته على الايام لان أقل الناس ادراكا لنمو الطفل هما أبواه .

— على كل حال فانه ما زال بيننا وبين الغاية التى نطلبها بون بعيد . فاذا لم ندركها نحن رجونا ان يدركها من بعدنا من الاجيال .

* * *

وهنا استأذنتها داعيا لها بالصحة وطول العمر ، وانصرفت لا أدرى أبقيت على رأيى « الرجعى » فى النساء أم لا ؟ الا أننى رأيت **لسانى يردد قول المتنبى :**

ولو كان النساء كمن رأينا   لفضلت النساء على الرجال

اسماعيل صدقي باشا

ما رأيت رجلا افترقت فيه أهواء الناس كما افترقت فى اسماعيل باشا صدقى : فلقد احبه قوم أشد الحب ، وأبغضه قوم اشد البغض ، وبقى فيه آخرون متحيرى المذاهب مترجرجى الاراء . وليس يشغل الناس بكل هذا الا عظيم .

ولقد رزقه الله قصدا فى كل نواحى خلقه ، فهو ليس بالطويل ولا بالقصير ، ولا بالبدين ولا بالهزيل ، معتدل القامة ، متناسب الاعضاء ، له وجه لطيف مستدير ، وفم حلو تترقرق عليه ابتسامة حلوة ؛ يحدثك فى هوادة وظرف حتى لترى فيه خفر الكاعب وارتياح الغلام ، ولا تجده ، مهما لج بكما الحديث وتعلق بما يحفز ويثير ، الا وادع النفس مطمئن القول عذب الصوت ، يقاولك فى الجلى كما يقاولك فى أتفه الشئون ، حتى لتحسبن هذا الهيكل الذى يجتمع عليه نظرك لايجن الا باقات من الزهر ، أو قطعا من نسيم السحر ، فلا غضب ولا مراح ولا ضغن ولا وجد ولا غريزة من تلك الغرائز التى تتفجر فى صدور جميع الاحياء ! ولكن ارفع بصرك الى عينيه تجد هناك كل ما يصول به اللسان ، وتنزى به فى الحادثات جوارح الانسان ولصدقى باشا عينان حديدتان، وهما مستديرتان فى غير سعة ، وقد ركز الله فيهما مظاهر كل ما فى الرجل من الوان العواطف ، فاذا استرسلت نفسك منه الى مثل صفاء الغدير ، فاحذر فلعلك بين برائن ليث خادر ! .

ولصدقى باشا صلعة شديدة الوضوح تنحدر الى مؤخر نافوخه حتى لتعرفنه بها موليا كما تعرفه مقبلا .

ويهب الله له دقة فى الحس وصفاء فى الذهن لم يهبهما لكثير من الناس . واليهما يرجع البعض اعظمه فى كل ماأدرك من براعة ونبوغ . ولصدقى باشا كل مواهب الرجل الفنى حقا . وانه لم يعالج من يوم نشأته الى هذه الغاية . موضوعا فى هذا الباب الا برع فيه وأوفى على نهاية الاحسان . وبهذه المواهب تهيأ لاسماعيل صدقى ان يكون اكبر رجل مالى فى البلاد . لا أريد مؤلفا ولا محاضرا . وانما أريد رجل عمل انقذ بمهارته ميزانية الدولة مرة وكان قد اشرف بها سلفه على الدمار . وما يزال يعالج بتلك العبقرية الفذة ميزانية الدولة وزيرا وعضوا فى مجلس النواب .

وقد تطلعت الآمال من بضع عشرة سنة الى وضع مشروع جامع لترقية شأن البلاد من الوجهين : المالية والاقتصادية . وعهد بهذا الى (لجنة) من اهل الخطر فى هذه الامور مصريين واجانب . وتولى صدقى باشا رياستها . فبحث فى كل مرافق البلاد . لم يدع دقيقة ولا جليلة فى ذاك الا حررها ودل على مواضع النقص فيها . وكيف تطلب اسباب الكمال لها . وخرج بمشروع عظيم لو أن مصر وفقت الى الاخذ به والسير بمرافقها على ما رسم فيه لكان لثروتها المسكينة اليوم شأن آخر .

وهو من أعلى المثل للكفايات الواسعة المنسوبة التى لا تنحرج بمطلب ولا تنخذل عن الغاية ؛ وانى شارك فى عمل كان المجلى وكان أول نظره جماع الرأى فى النهاية . ومما يؤثر له ان المجلس الاقتصادى — ولا تنس انه من بعض آثاره فى وزارة المالية — انتخبه رئيسا للجنة الفرعية التى عهد اليها وضع النظام الجمركى ؛ فأعد برنامجا بديعا اتخذته اللجنة دستورا لها وما زالت تترسم آثاره الى الآن .

ومما يحصى له ان كانت تحصى مفاخر آثاره ؛ تلك المحاضرة

الرائعة التى القاها فى العام الماضى على محامى المحكمة المختلطة فى موضوع الامتيازات الاجنبية وعلاقتها بالضرائب . وما كان اعظم انتصاره اذ يضرب تلك الامتيازات فى أمنع قلاعها ؛ ثم يندلى عن المنبر بين تهليل صفوة « الاجانب » وهنافهم الطويل !

* * *

وأحرز صدقى باشا اجازة الحقوق من مدرسة الحقوق المصرية وسنه لم تتشرف بعد على الثامنة عشرة ؛ وخرج من مراكز النيابة فلم يظهر له فيها كبير خطر ؛ وأى خطر كبير يمكن ان يتهيأ لعضو نيابة محدود السعى محدود العمل ! ولكنه ما كاد يولى سكرتيرية المجلس البلدى فى الاسكندرية حتى ظهر نبوغه وظهرت معه تلك الجرأة النادرة . ويقبض رجل مصرى لاول مرة على ناصية المجلس البلدى فيضبط ادارته ويعمل على ان يطهره من ادرانه تطهيرا .

ثم جيء به سكرتيرا عاما لوزارة الداخليه فوكيلا لها ، فكان له شأن أكبر من شأن « موظف » مصرى فى ذلك الزمان . وأنى صار صدقى باشا فى مناصبه صارت معه الدقه والفطنه الى خفايا الامور والاضطلاع من مهام الحكم بكل عظيم .

وتولى الوزارة فلم يطل به الحظ فيها فاعتزلها ولبث فى داره بضع سنين ، الى أن ألف الوفد فى أعقاب سنة ١٩١٨ ليتحدث على قضية مصر فانتظم فيه صدقى باشا ، وكان رابع أربعه من رجالاته امتدت اليهم يد السلطة العسكرية فنفتهم عن البلاد الى جزيرة مالطة ، حتى اذا أطلقوا بعد تلك الاحداث الجلى ، انطلقوا من فورهم الى باريس حيث وافاهم سائر أعضاء الوفد ، وهناك جعلوا يرفعون صوت مصر ويطرقون بطلبتها كل باب ، ويسعون الى استقلالها ماوجدوا الى السعى سبيلا . واذا كانوا رفعوا صوت مصر فلقد رفعوا كذلك رأس مصر . واذا كانوا دونوا فى اثبات حقها صحائف خالدة على التاريخ ، فان اسم اسماعيل صدقى سيظل فى أجل هذه الصحائف خالدا على التاريخ .

وفشت مع الاسف فاشـــية انقبض على أثرها صدقى باشا عن العمل ، وصدر أدراجه الى مصر وبقى فى عزلته حتى كانت الوزارة العدلية فى أوائل سنه ١٩٢١ فتقلد فيها وزارة المالية ، وشخص فى الوفد الرسمى الى لنـدن فى تلك السنة . واذا كان قد شارك فى بحث المسألة السياسيه فقد انفرد ببحث المسائل الاقتصادية التى تعلقت بها المفاوضات ، فكان فيما حرره منها حق لبق وحق خبير .

ونعـــلم أن ثروت باشــا قد استخرج فى سنة ١٩٢٢ تصريح ٢٨ فبـراير واعـلان مصر دولة مستقله ذات سـيادة ، فلا تنس أن صاحبه صدقى باشا كان وزره فى هذا السعى وعونه بما جلى من التفاصيل . وما أبدع صـــدقى يكمل ثروت اذا عرضت عظيمات الامور ، هذا لخطب السياســـة الضخم ، وذاك لما يتكىء عليه حل المعضلات من دقائق الموضوعات .

فكيف بهذين مع عدلى بعينـه العالية ونظره السياسى القدير ؟ وكيف بثلاثتهم مع الزعيم الجليل سعد باشا وما اختصه الله به من شدة نفس وقوة حجة وصـلابة عود ؟

ولقد حق للامم الناهضة بهذا أن تغبط مصر ، وان مصر ببركة هذا الائتلاف المقدس لبالغـــة غرضها الاسمى ان شاء الله .

وبعد فلقد لبثت مصر بضـع سنين وعيشها السياسى قائم على تنابذ قادتها وتناحر أحزابها كل يعمل للقضاء على غيره حتى اذا خلا له وجه الامر تولى حل قضـــية البلاد على ما قدره هو لتحقيـــق أمانى البلاد . ويستحر القتـــال ويرمى كل عدوه بما ملكت يده من أسباب الهلاك . ويأبى حارس الـكنانة الا أن يبصر الصفوة من القادة وأعيان أهل الرأى بأنه اذا كان هناك من يستفيد بهـــذه السياسة الدامية فليست هى مصر على أى حال !

وما ان أهاب بالقـــوم ذلك الداعى النصيح حتى ألقى السلاح ونضيت الدروع ، وخشعت القلوب وفاضت العيون بالدموع ، ومشى الاخ الى أخيه يستعتبه فيعتب ، وهرع الولد الى أبيـه يستعطفه

فيعطف ويحدب وتبزل الاضغان وتسل الاحقاد ، فيجتمع الاحباب من كل ناد ، فلا ترى الا عطفا يملأ الافئدة ورحمه تسيل بها الاكباد

شواجر أرماح تقصف بينها شواجر أرحام ملوم قطيعها
اذا احتربت يومافافاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

وكذلك أصبحت البلاد بنعمة الله صفا واحدا يرمى فى غرض واحد بعد أن كانت صفوفا يرمى بعضها بعضا ، وصدقى باشا رجل شديد فى رأيه يعمل له بكل ما أوتى من قوة ، وهو من أكبر العاملين على ترك سياسة الفرقة الى سياسة الوئام ، وصل الله فى عمرها الى غاية الزمان ، فكان شديدا فى الاولى كما كان شديدا فى الثانية ، ومن ينكر عليه هذا فهو لايدين بمنافع البلاد حيث كانت ، ولكن يدين بعبادة الاشخاص حيث تكون !

وهل كان هذا فى شرع السياسة بدعا ؟ وهذه دول الغرب التى نأخذ عنها أساليب الحكم ونتروى وجوه التصرف فى السياسة ، لقد تتعادى أحزابها وتتفانى ، وينضح بعضها بعضا بالمكروه ، حتى اذا حدثت الاحداث تصافحت الايدى ، واتحدت الكلمه وتلاحمت الصفوف ، ودخل رجال من بعضها فى وزارة ينمى رئيسها لآخرين ، والامثلة على هذا أوفر من أن يتناولها البيان .

ولقد كان سعد وعدلى وثروت وصدقى من فجر النهضة حزبا واحدا ، يدينون برأى واحد ، ويسعون لغرض واحد ، فهل يعد عليهم اليوم ان تنحسر الفتنة بينهم وان يعودوا كما بدءوا قلبا واحدا ، وقد جدت الاحداث ، لانقاذ حياة البلاد ؟ ! ! !

* * *

ولعل صدقى باشا يمتاز عن اصحابه بشدة العصبية لاهله ومعشره ، فلا يفتأ يتفقدهم ويتوافى لهم ويصلهم بكل ما دخل فى ذرعه ، ولقد يفرط فى هذا الى الحد الذى يبعث ضعاف الاحلام ، على انكار ما اوصت به المكارم من صلة الارحام !

وصدقى باشا ، فى بابه ، عدة قوية للبلاد ، وهو لا يكل من

العمل ، على فرط ذكائه ، ولا يمل . ومما تحدث بهعنه اعرف الناس به انه حين كان وزيرا للمالية لم يكن يرهق كبارموظفيها بطول المراجعة والاستخبار ، بل كان يتكىء على فطنته واختباره وحدهما فى مذاكرة ما يدفعونه اليه من الاوراق . ومما تحدثوا به عنه فى هذا الباب ايضا انه كان فى غاية اليوم تحمل الى داره خرائط ثلاث أو اربع تجن كل ما يجرى من الاعمال فى وزارة المالية ، فيكب على دراستها من الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى فلا تدخل الساعة التاسعة الا وقد قتلها بحثا ومراجعة واستوى له فى كل منها الراى النصيح

وان خطئا عظيما الا يستخدم على الدوام للنفع العام ، فاذا أخذه شانئوه بهنة فما كان هذا لينتقص اقدار الرجال ، الا اذا تنقصت الكهوف أقدار الجبال ، ولعلهم فى هذا ايضا كانوا مسرفين!

من صدقى باشا الى محرر المرآة

وقد تفضل حضرة صاحب المعالى اسماعيل صدقى باشا فبعث الى محرر «المرآة» بالكتاب الاتى :

عزيزى الاستاذ الفاضل .

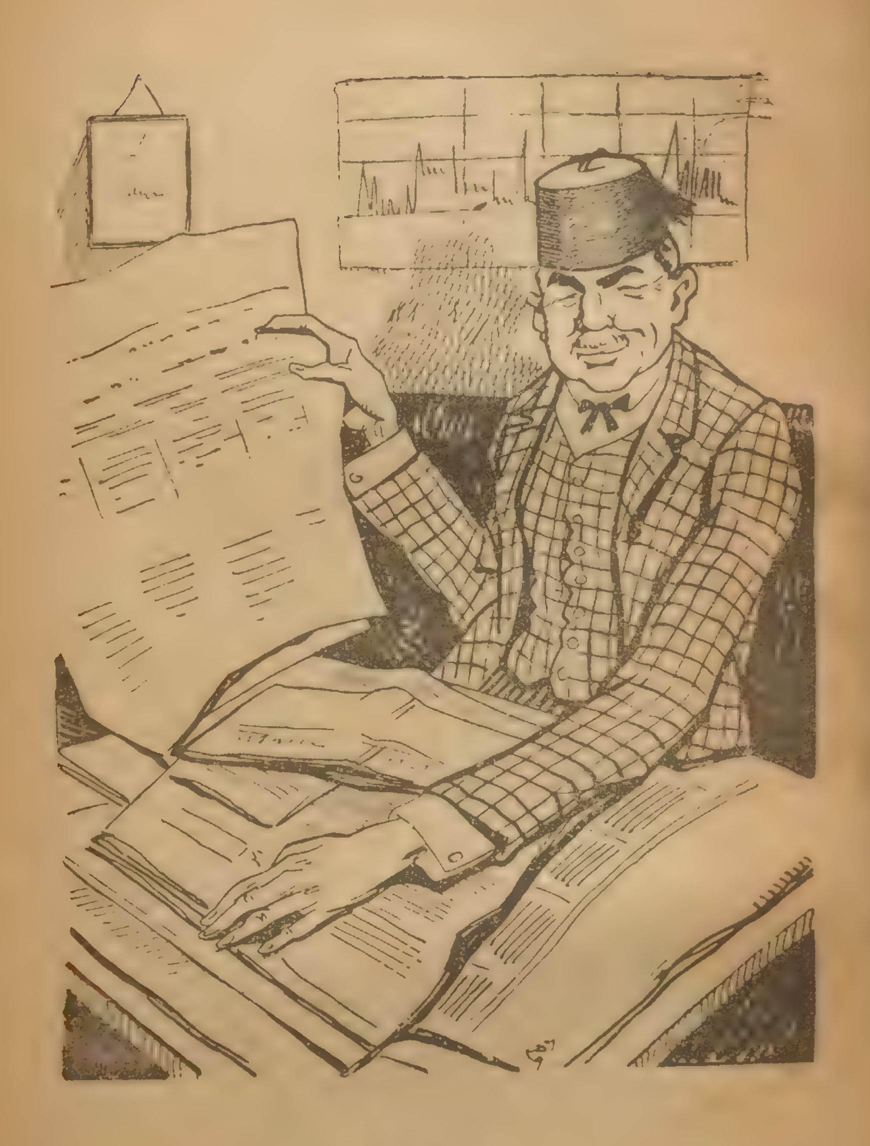
أشكر فضيلتكم كثيرا لمرآتكم الناصعة وان كنت لا اخفى عنكم اننى لم اتعرف صورتى تماما خلالها ، بل أخشى ان تكونوا قد بالغتم فى تجميلها وتزيينها .

وارجو قبول تحياتى .   المخلص

١٧ يناير سنة ١٩٢٧   **اسماعيل صدقى**

(محرر المرآة) وليس لى يامولاى ما اقوله فى هذا المقام غير قول الشاعر :

فلو (صورت) نفسك لم (أزدها)
على ما فيك من شرف الطباع



من ذخائر الامم

علي الشمسي بك

لم يكن على الشمسي من يوم نشأته منكور المحل ، واول عهد الجمهور به يوم كان فى سويسرا يطلب العلوم العالية ؛ فكان طالبا مجدا متفوقا ، وكان الى جانب ذلك حركة وطنية قوية تدعو لمصر المضطهدة وتطلب لها الحرية فى صميم بلاد الحرية . نعم كان الشمسى فى اوربا اقوى صدى لصوت الحزب الوطنى فى مصر . واتم تحصيل علومه ونال عليا الشهادات من اكبر جامعات سويسرا ، وعاد الى بلاده ، فظن الناس ان « وظيفة » تمهد فى الحكومة لهذا القادم النجاح الجديد ، فاذا به يعدل الى دار الحزب الوطنى وينتظم من فوره عضوا فى مجلس ادارته . وهكذا كان الشمسى درسا بليغا فى التضحية خالصة لوجه الوطن ، ومن حيث علم من لم يكن يعلم ان التلميذ يتعلم فى مدارس مصر حتى اذا تاقت نفسه الى طلب العلم العالى هاجر الى بلاد الغرب فلبث سنين طوالا بعيدا عن اهله واحب الناس الى قلبه ، وانفق ما شاء الله ان ينفق من مال وعمر ، وادركه ما شاء طلب العلم من كد ذهن وارهاق عصب ، حتى اذا برع وحاز اسمى الالقاب العلمية ، عاد الى بلاده لا ليطلب بهذا كله عند الحكومة مرتزقا ، ولكن ليطلب به « وظيفة » جندى مجاهد فى سبيل الوطن !

وكان على الشمسى فى الحزب الوطنى قوة كبيرة . لا فى جهاره الصوت ، ولا فى كثرة الترائى للجماهير ، ولا فى سبب من اسباب الظهور ، ولكن فى صحة الراى وبعد النظر وسلامة التدبير . حتى اذا بعثته ضرورة الحال لخطابة اسمع الناس كلام وطنى

شـــديد الوطنية ، فى عبـارات سياسى محصه العلم ومرســته تجارب الايام

وهنا يحلو لى ان اقرر ملاحظة صغيرة : تلك انه لم يكد يخـرج رجل فينا الى ميدان السـياسة الا جاز اليه بالحـزب الوطنى والتشيع بادىء الراى لمبادئه . والوجه فى هذا ، على تقـديرى ، ان الحزب الوطنى حزب الشباب حقا ، وان مبادئه مبادىء الشباب حقـا .

والشباب كله حد (١) وقوة : دم فائر ، وطبع ثائر ، وخيـــال طائر ، وامل لا يتحسب للصعاب ، ولا ينخذل عن الاستشراف للغاية مهما عز الطلاب (٢) :

اذا هم القى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانبا !

وكلمـا علت السن غدا العقل على الخيال ، وقصت التجاريب من حوافى الامال ، وطال النظـر وكثر الحساب ، وتحير الـراى فيما على طريق الغاية من عواثير وما فيها من عقاب (٣) — الى ما تثلم السن من القوة ، وتقلم من اظفار الفتوة ، وتعجـــز من تلحـقه عن النطلع الى الطفرة ، وتطامن من جماح امله طلبـــا للسلامة من العثرة . فاحكم انت بعد هذا : اكانت فترة الشـيوخ عن صحة تدبير وصدق حساب ، ام عــن تراخ فى المنة وعجز عن الوثاب ؟ !

وجاء الانتخاب « للجمعيـــة التشريعيـــة » فظفر عـلى بك الشمسى بالعضـــوية فيها عن مديرية الشرقية ، ولا ادرى اكان ظفره بذاك ، على شدة التنافس وقسوه الخصومة السياسية ، لادراك الناخبين صدق وطنيتـه وماله من المواهب السامية ، ام لانهم انما اخرجـوه للنيابة عنهم لحسبه واصالة عرقه وموضـع بيته فى تلك البلاد ؟

على انه ما كاد يتبوا كرسـيه فى « الجمعية التشريعية » وكان

---

(١) الحد : الحدة . (٢) الطلاب : الطلب . (٣) العقـاب هنا : جمع عقبة .



بصير بأعقاب الأمور كأنما   تخاطبه من كل امر عواقبه

اصغر أعضائها سنا ، حتى انفسح له بين رجالاتها فى مكان الراى والحكمه مكان خطير !

ودارت رحى الحرب العظمى ،وظهر للسلطة القوية ان على الشمسى (من غير المرغوب فيهم) فكفوه عن العودة الى بلاده ، ويلبث فى ديار الغرب منفيا طوال زمن الحرب ، فاغتنم هو هذا النفى ليدعو فيه لمصر وليستزيد من فضل الوقت لطلب العلم فى اعظم جامعات الغرب

واراد الله واغمد السيف ،وهتف هاتف السلام ، واذن (للمغضوب عليهم) فى العوده الى بلادهم ، فعاد على الشمسى لا ليستريح من ذلك النصب الطويل ، ولكن ليستقبل فى قضبة بلاده ذلك الجهاد الطويل

وشخص الوفد المصرى الى أوربا فسرعان ما اتصل به على الشمسى . وظل يمده بجهوده ويصله بصادق الدعوة فى مواطن الدعوة . ثم انتظم فيه عضوا .

وبعد . فأنت أخبر بمساعيه للوفد المصرى وبخاصة فى بلاد الغرب . مما أجدى عليه بقوة ذكائه وعظيم اختباره ووثيق صلاته برجال السياسة هناك أعظم الجدوى .

* * *

ولقد حدثتك فى أول هذا المقال ان على الشمسى لم يكن من يوم نشأته منكور المحل ، وانما أردت بهذا علم الناس بنشأته فى المجد والحسب ، وثقتهم بماله من شدة فطنة وواسع علم ، وايمانهم بما أدرك من اختبار وتمرين فى السياسة وصدق جهاد فى الوطن ، اما انه يصلح لان يكون وزيرا . وفى وزارة المعارف يضطلع بتلك الادارة الواسعة ويعالج اضخم مشكلة تعترض حياة البلاد ، وهى مشكلة التعليم فذلك ما كان محل نظر كبير ، ان لم أقل انه كان موضع خوف كبير ! حتى لقد سلم كثير من الناس الامر لله فى هذا وللزعماء تسليما !وحتى قال بعض الصادقين المخلصين حين رأوا اجماع الزعماء على تقليد على بك الشمسى وزارة المعارف : « اللهم ايمانا كايمان العجائز » : !!

وأول ما ظن به انه سينبعث بهوى السياسة وحدها فى عمله الجديد ، فلا يرى اثرا الا عفاه ، ولا بناء الا هدمه ، ولا عملا لاسلافه الا نقضه ؛ ولكن على الشمسى لم يكن عند رأى أحد من أولئك المتعجلين جميعا ! فقد ارتفع به علمه عن ان يغير فى نظم التعليم لمجرد الشهوة فى التغيير ، وارتفعت به وطنيته عن أن يغضب العلم ليرضى السياسة ، وحين فارت فورة بعض اعضاء مجلس النواب على ما صنع سلفه أبت على على الشمسى كرامته وكرامة العلم عليه أن يشايع بظهر الغيب ؛ بل لقد صارح القوم بانه لا يستطيع أن يحكم على عمل سلفه الا بعد أن يراجعه ويصيب فيه مكان الرأى ؛ فما كان منه خيرا نبه وقره ؛ وما كان شرا رده الى الخير . وأسرع لساعته فدعا بالافذاذ من اقطاب العلماء وأهل البصر فى هذا الموضوع ؛ والف منهم (لجنة) برياسته لمراجعة نظم التعليم بجميع درجاته ؛ ووضع الخطة الحكيمة التى تحقق فى العلم أمانى البلاد . وهاهى تى تمضى جاهدة فى هذه السبيل فلا تنتقل من خطوة الى خطوة الا بعد البحث وتقليب النظر وطول المراجعة . حتى لا ترسل خطوتها الا الى الثابت المطمئن ؛ مستهدية بالحكمة والاختبار وحاجة البلاد وطبيعة أهلها وما انتهى اليه رأى علماء التربية فى نظم التعليم . وانا لنرجو الله تعالى ان يوفق هذه (اللجنة) فى مهمتها حتى تبلغ غايتها ؛ وبهذا ندعو لعلى باشا الشمسى بتسجيل أبلغ فخر نبه التاريخ لوزير المعارف فى مصر .

* * *

وعلى باشا الشمسى رجل جم الادب وافر التهذيب ؛ يروى عنه انه لا يلقى أصغر عماله الا باللطف والهشاشة . على انه مع هذا شديد الحزم ؛ لا تأخذه هوادة فى موطن الحق . يغار على عمله غيرته على أوثق اسبابه . فلا يدع صغيرة ولا كبيرة من أعمال وزارته الا سلط عليها ذكاءه وقلبها على كل نواحى الرأى . فان اجتمع فيها وجه المصلحة الخالصة أمضاها واجازها ؛ والا فلام هوى النفس وهوى « الرجاء » الكل .

وليت حكامنا جميعا يصلبون على تقبل الشفاعات فى غير مواطن الحق ؛ فان الافراط فى الرجاء أصبح من اعضل ادوائنا الاجتماعيه

واذا كان الحاكم عدلا صادق الولاية على عمله فليس هناك معنى (للرجاء) عنده الا أن يراد به العدول الى الظلم وتعمد الخلاف للقانون ! أرأيت مثل هذا اسفافا فى الطباع وفسولة فى الاخلاق ؟ ! ... والعجب أنه مع وضوح هذا كله لجماعة المضطربين بفنون الشفاعات عند الحكام فان أكثرهم ليطلقون السنتهم بمقالة السوء فيمن يعتصم بالحق ولا ينحرف ، طوعا لشفاعاتهم ، عن حكم القانون . وبهذا اصبح لا يستحق الحمد ، فى شرع هؤلاء الا ظالم متمرد على النظام ! .

وقال لى صديق من القضاة يوما وهو جزع ثائر النفس لا يغيظنى يا فلان قدر أن يجيئنى الشفيع فى احدى القضايا فلا يفتح عليه الاجرام الا بأن يرجونى « أن أقضى فيها بالعدل » ! ومعنى هذا اننى لا أحكم فى أقضيه سائر الناس الا بالظلم ! ولو سألنى أن أقضى فى شأن صاحبه بالظلم لكان ذلك أرفق بى وأدل على اننى اذا ارسلت على طبعى لما عدوت مكان الحق !

أقول ، لو صلب الحكام جميعا على تقبل الرجاء لما اسكفوا الاذى فقط بل لطبعوا ، على الايام ، كثرة الناس على حب الحق واجلال القانون ، وما أحوج بلادنا فى نهضتها الكريمة الى أن يتغلغل فى القلوب حب الحق واجلال القانون .

ونعود الى على باشا الشمسى فنقول انه اظهر فى هذه الفترة التى قبض فيها على زمام وزارة المعارف كل مواهب الوزير العظيم القوى الذهن ، النافذ الرأى ، الواثق بالنفس ، والذى لا يجعل كلمته فى أسباب الحكم رهنا بمنصبه . بل يجعل منصبه رهنا بكلمته .

وليس لتعليم على الشمسى فضل كبير فى الحرص على كلمته . بل ان أعظم الفضل فى ذلك لحكم الوراثة . فقد قال أبوه أمين باشا الشمسى أغنى تجار القطن من قبل كلمة ، وكان له أن يتحلل منها فلم يفعل ، وخسر فيها مئات الاف الجنيهات . وهكذا اذا كان

فى نبـل الكلمة خسارة فى المنصب او المال ، فهى كل الربح يحصيه التاريخ لعظماء الرجال .

* * *

وعلى باشا الشمسى شـاب متين الجسم مفتول العضـل ، ادنى الى القصر منه الى الطول ؛ ابيـض اللون ؛ ازرق العينـين ، تسترعى نظرك منه تلك الجبهة الواضحة العريضة التى تمثـل لك قاعدة مثلث ينتهى بأسـفل ذقنـه ؛ وما ان راقك منه ادبه وشدة وداعته فاطلعت منه على تلك الجبهة الهائلة الا أحسست انه رجـل خلق للكفاح والنضال .

وحدثتك انه مفتول العضل ، ذلك بانه (Sport) حقا فهو يجيد السباحـة وركوب الخيل والملاعبة (بالشيش) ولا ينطوى عليه يوم الا فرض منه قسـطا للالعاب الرياضية .

واذا كان فى المصريين قوم قد اسفوا أول الامر على تقليـد على الشمسى وزارة المعـارف فان هؤلاء اليوم أشد الناس اسفا على أن الوزارة قد حرمت هذه العبقرية من زمان طويل .

عزيز عزت باشا

مظلوم من الطبيعة ، ومظلوم من الحكومة ، ومظلوم من الناس، ومظلوم من نفسه . شاع فيه المرض أو توهم المرض (اوماتراه أعظما وجلودا ؟) فهو يخشى الطعام لئلا يدركه البشم ، ويخشى الشراب لئلا يلح عليه السقم ، ويخشى المشى خوف تعب القلب وخفقانه والتفت اتقاء وجع الجنب وضربانه والحديث فانه يرهف العصب ؛ والكتابة فانها مدعاة للكد والنصب . ولا بد له من ان يطعم ليعيش ، فاذا قربوا اليه الطعام دفع صحاف اللحم ابيضه واحمره ؛ لان اضراسه لاتقوى على قضمه . ومعدته لاتضطلع بهضمه ، واذا جاءوه بالخضر صدف عن هذا ففيه حديد . وهذا لكثرة مايحوى من (الاسيد) . وهذا لانه وشيك التحجر ، وهذا لانه سريع التخمر ؛ وهذا لانه يستحيل فى الامعاء غازا ، وهذا لانه لايجد فى (الاثنى عشرى) مجازا . ثم مد يده فى خوف ووهل (١) فحيف من احدى الصحاف قطعة من (البطاطس) مسلوقة مدقوقة ، قد بالغوا فى عركها ، والحوا فى فركها ، ولم يعالجوها بدهن ولا مرق . حتى اذا اساغها بعد طول مضغ وهرس ، وترديد على كل ثنية وكل ضرس مضى يطلب لهضمها من العقاقير كل ما اخرج اطباء الانجليز والالمان ، والفرنسيين والامريكان مما يدر عصير المعدة ، ويحرك الامعاء ، ويشد المصران ويقوى (الضفيرة الشمسية) ويمنع التخمر ، ويشتف الغازات

---

(١) الوهل : الضعف .



لايغرنك سهولة المرتقى اذا كان المنحدر وعرا

ويحاز (الحجاب الحاجز) فلا يضغط القلب ، ثم راح يشكو هؤلاء جميعا ! ! !

وعزيز باشا عزت كبير الرأس . له وجه شاحب طويل على جسم رفيع طويل . لو وقف امامك ولم يتحرك لخلته عصى خيزرانة ركب عليها مقبض من العاج ! .

وقد نجم من بيت حسب وغنى ، وتعلم فى صدر شبابه فى مدارس مصر ، ثم شخص الى انجلترا فتلقى العلم فى مدارسها . ثم دخل فى جامعة ، ولبس العسكرية حتى اذا طوى فيها سنين طالبا مجدا متفوقا خرج منها ضابطا فى الجيش البريطانى . ثم استقال وعاد الى مصر فانتظم فى خدمة الحكومة المصرية حتى عين وكيلا للخارجية الى ان كانت وزارة محمد باشا سعيد الاولى ثم اثر ان يبقى فى وزارة الخارجية وكيلا فنزح باهله الى لندن واقام فيها كل هذه السنين

وهو رجل وافر الذكاء ، غزير العلم ، جم الادب ، صادق النبل ، وبهذه السجايا استطاع ان يحرز فى بلاد الانجليز مكانا رفيعا .

ولما جاء دور اختيار السفراء فندبته حكومة جلالة الملك فؤاد الاول لسفارة لندن ، وكان اختيارا موفقا من ناحية ما للرجل من سعة العلم وصدق النبل ووفرة الغنى والمنزلة فى عظماء الانجليز ، الا ان الرجل ، مع الاسف ، كما اسلفت عليك مريض . ولعل المرض هو الذى شغله عن متابعة الحركة المصرية ومدارسة قضيتها وتفهم ظواهرها وخوافيها . فلم يكن ذلك العوان الذى يتكئ عليه رجال السياسة فى معالجة القضية المصرية كلما جدت عظيمات الامور

وفى الحق ان عزت باشا فى خطبه البديعة الرائعة عن السودان انما كان رجلا وطنيا أكثر منه رجلا سياسيا . فان مهمة السفير ان يخاطب الرجال الرسميين لا يتخطاهم الى خطاب الشعوب . ولعل ظرفنا الخاص هو الذى بعث حرارة عزت باشا وأطلقه فى الشعب الانجليزى بتلك الخطب السوابغ . وكثيرا ما يغتفر فى أمثال تلك الرحات القوسية تجاوز مايدعونه بالتقاليد

ولقد اخذوا عزيز باشا عزت بطول اجازاته وتركه مثوى عمله

الاشهر الطوال الى سويسرا للتداوى وتارات الى مصر . والرجل لم يكن متجنيا ولا متبطرا ، فانه واهله كليهما مريض ، وقد حدثتك ان الطبيعة ظلمته ، واى ظلم اشنع من ظلم المرض ، وحدثتك ان الحكومة ظلمته اذ قلدته بادى الرأى منصبا لا تضطلع صحته بأعبائه ، وانه ليقدم اليها الاستقالة بعد الاستقالة وهى تأبى الا أن تردها اليه وأن تمسكه فى مركزه رغم أنفه ، والناس له فى هذا كذلك ظالمون

ويجمل فى هذا الموضوع أن نذكر ان الرجل لم يدل يده الى تناول راتبه طول مدة اجازاته ،فهو يردها على خزانه الحكومة رد؛ وأنت تعلم من مناقشات مجلسى البرلمان انه لم يدخل فى شأن «بيوت هوس» بيد ولا رجل ، بل لقد انكر هذه الصفقه اول الامر وقضاها زيورباشا آخره فى سر منه اذ هو فى سويسرا

وان من الغبن أن يقال ان عزيز باشا عزت «يشتغل» سفيرا لمصر فى لندن ، ولو سألتنى عن وظيفته الحقيقيه لقلت لك انه «يشتغل عيان» نسأل الله أن يلقيه العافية

وبعد ، فاذا كان لنا سفير فى باريس وسفير فى روما وسفير فى الاستانة وحتى لنا سفير فى طهران ! أفلا يصح أن يكون لنا سفير أيضا فى لندن !؟ واذا كانت لنا صلات ببلاد فارس . ولفارس فى أسواقنا سجاجيد » وشيلان كشمير » وسبح «كهرماز» فاننى أتخيل أن لانجلترا فى أسواقنا شيئا يدعى الفحم ، وآخر يدعى الحديد ، وثالثا يدعى الاقمشه على اختلاف أنواعها ، ورابعا وخامسا، فاذا لم يكن بيننا وبين انجلترا مسائل سياسية تستدعى أن نبعث لها سفيرا ، فلا أقل من أن نبعثه لما بيننا وبينها من وسائل تجارية !

واذا لم يكن فى مقدور حكومتنا أن تقبل من عزت باشا ما يقدمه لها من الاستعفاء ، فان فى مقدورها ان تعجل له الشفاء !

شوقى

لو بعث الله الناس كلا، لما عدا ان يكون شوقى نفسه قطعة شعرية جميلة نظمت فى الحب والرحمة . دقيق الجرم، ضئيل الحجم متناسق الاعضاء . مستدير الوجه . لاتزال عليه امارة من ملاحة الصبا وان تكرشت بعض معارفه بقضاء مافوق الخمسين، اذا اقبل عليك يحدثك مالت حدقتاه عنك الى ماعلى يمينك او شمالك او ظلتا تضطربان بينهما حتى تحس انه يوجه على غيرك الحديث . ولقد ينقطع عن المجلس . وهو فيه . المرتين والثلاث . فلا يسمع ولا يرى ما يدور بين يديه . فاذا كان على هذه الحال ورأيت رأسه يخفق وقد رشق ظفر ابهامه بين ثنيتيه وراح يهمس بالتناغيم يسلخها سلخا . فاياك ان تقتحم عليه سنته فانه انما يتلقى وحى القريض .

وهو خفيف الروح . رقيق النفس . نبيل الخلق واللسان ، ترى فيه غبطة العصفور وترى فيه وداعة الحمام . وهو . كما قلت لك . قطعة من الحب والرحمة . واذا كان الحب ضعفا . واذا كانت الرحمة ضعفا . فلا شك فى ان شوقى اضعف الخلق اجمعين . ولم اره يوما غاضبا ولا ممهدا سبيلا للقسوة الى قلبه او يده او لسانه . ذلك ان الله طبعه على ان يتناول بما فيه من الحب كل مايجرى فى هذا العالم من الخير ، وان يتناول بما فيه من الرحمة كل مايجرى فى هذه الدنيا من اذى وشر . ومن هنا ندرك كيف يشيع ذكر السيد المسيح فى شعر شوقى ، وكيف يتغزل بأفنن الغزل فى سجاياه العذاب !

مفرط فى حب نفسه ، شديد الولع بها ، مفرط فى حب بنيه

شديد الولع بهم ، وانه بعد ذلك لشديد الرقة للناس جميعا ، اضعفه الحب وفل من عزمه فلا يستطيع ان يشهد مشهدا مؤلما، ولايستطيع ان يسمع قصة حزينة ، ولو قد عرض لسمعه او لبصره شيء من هذا لولى منه فرارا ولملىء منه رعبا . ولوع بنفسه هيوب من ان تعتريها الايام بمكروه ، وذلك الوجه فيما ترى من دوام رضاه وارتياحه فلا تلقاه يوما شاكيا ولا برما بالحياة مهما تكدر العيش وتنكر وجه الزمان فانه اذا اصابه الخير هش له وفرح به ، وان اصاب المكروه سببا من اسبابه اطار خياله كل مطير فراح يلتمس له فى الضير خيرا وفى المكروه نعمة ، ثم جاءك بحدثك بمنة الله عليه وعنايته به، فهو رجل يستخرج الرضا ويستكره سبب الغبطة على كل حال ! وانه ليسرف فى هذا اسرافا شديدا لقد يصل بك احيانا الى العجب من امير الشعراء !

* * *

وبعد فلكم عالجت القلم على ان يقول فى « شاعرية » شوقى فعصى ، ولكم بعثته بالبيان عنها فتعذر وابى ، وان ظلما ان تريدنى « السياسة الاسبوعية » على هذا وان تقضى به على اليوم قضاء لزاما !

وليت البيان يعار فاستعير بيان شوقى ليصف شعر شوقى، فليس يتعلق بهذا الا ذاك وانى لآخذ فى شعر هذا الرجل فما يزال يشفنى ويرفعنى حتى ارانى استحلت روحا محضا يطير بى عند السماك ، ويحلق محلق الاملاك ، فاذا أتيت عليه وعدت الى نفسى فاذا انا مازلت جسدا رابضا على هذه الارض ، واذا شعر شوقى مايزال نورا يترقرق فى تلك السماء !

صائد لايخطىء سهمه ، وانه ليصيب ارفع المعانى من اول رمية ، وانه ليترفع بك اليها او يتنزل بها اليك فتسيغها فى غير عسر ولا عناء ، وان كنت حق شاعر بانه انما جاءك بما يجاوز تفكيرك ويعلو على مدى تخييلك

ولقد ضرب فى كل قصد ،وجال فى كل غرض ، فبرع وبذ واتى بالطريف لاتدرك آثاره ،ولايلحق غباره . ومن عجب



وما الدهـر الا من رواة قصائدى
اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

الزمان ان يخرج شوقي في هذا الزمان ! ولا ادري كيف فر هذا الشاعر من شاطىء دجلة الى شاطىء النيل ، ولا كيف تسلل من جيل ابي نواس الى هذا الجيل !!

ولقد عارض الفحول من متقدمي الشعراء في اجل قصيدهم فما قصر عن مداهم ولا انخذل عن اللحاق بهم ، بل لقد زاد عليهم من كل مافتق العصر في فنون المعاني يرسلها في الكلام الناصح فلا ينبو عنها الطبع العربي ولا يجد لها عليه نشوزا .

وشوقي هو شوقي من يوم شدن ومن يوم تحرك بالشعر لسانه ، آية من آيات البيان يدوي بها السهل والجبل ، ولقد يكون التقدم في السن ، والتبسط في العلم ، وتجارب الايام ، وطول التمرين في نظم الكلام ، قد بسطت في اغراضه وبصرته بكثير من مضارب القلم ، الا انها لم تزد ، وهيهات لها أن تزيد . في « شاعريته » كثيرا ولا قليلا ، ذلك ان هذه العبقريات انما تخلق مع المرء خلقا فلا تنال بكسب ولا تعليم ، فاذا كان لشيء من ذلك فضل ففي مجرد الصقل والتهذيب .

وليس بدعا في سنه الله أن ينضج طبع شوقي بكل هذا البيان العربي وهو فتى لا يتصل من أبناء العرب ، من امه وابيه بسبب ، ولا كان محصوله من لغتهم وأشعارهم ومحاضراتهم ومظاهر بلاغتهم بأوفر من محصول من نسأ فيهم من اهل البيان فوثب دونهم ورد بيان بني العباس عليهم - والا فمن علم البدر كيف يتألق ، ومن علم الغدير كيف يترقرق ، ومن علم السحر الجفون ، ومن علم الغمامة كيف تسح بالعارض الهتون ، ومن علم الوردة كيف تتنفس بالارج ، ومن علم البلبل كيف يتغنى بالرمل والهزج ؟ الا ذلك تقدير العزيز العليم !

وان طبع شوقي ليجود بالشعر يصيب به اعلى المعاني ما احسبه يرتصد لها او يعالجها بالمطاولة والتفكير ، ولقد تراجعه في بعض شعره وما يطلب به فيروح يفهمه معك بمجاهدة الفكر وطول النسد على العصب ، حتى اذا فر هذا الشعر واحتدت فيه الاذهان خرج

لناس فيه من وجوه المعاني مايحير العقول ويذهب بالالباب . فاذا رأيت بعد هذا شوقي ولم تستطع التوفيق بين مجلسه وحديثه في الاسباب الدائرة بين الناس وبين شعره الذي ينيف بك ، كلما قرأته ، على السماك ، فاعلم أن هناك موهبة أو ما يدعونه « عبقرية » ليس من الحتم أن تسبق دائما لسائر غرائز الانسان!

واذا رأيت أثر النعمة باديا على شعر شوقي فلا يتعاظمك هذا ممن لاغاه اسماعيل طفلا ورباه توفيق يافعا ، وخرجه عباس رجلا . وعاش عمره مدلل الاعطاف في الترف والنعيم .

وقيل يوما لابن الرومي : كيف يسبقك هذا الغلام (عبد الله بن المعتز) اذا وصف ، فلا تلحقه أنت ولا أضرابك من مشيخة الشعراء ؟ فقال : لانه اذا تكلم فانما يصف آنية بيته !

وشوقي لا يحفل كثيرا بنسج الكلام وتزوير اللفظ وتزويق الديباجة ، فان طبعه قد انصرف أكثره الى المعاني حتى انه ليحمل اللفظ أحيانا ما يثقله ويبهظه ، ويكد ذهن القارئ في التماسه وتبيينه ، بل انه في سبيل الوفاء بما قصد له من المعنى ليأتي أحيانا بالغريب الشامس من اللفظ لا تدرك معناه الا بعد مراجعة وطول استخبار !

على أنني في هذه المرة بسبيل تحليل نفس شوقي لا تحليل شعره ، فمن كان لم يزل في حاجة الى التهدي لفاخر شعره وعيون قصائده ، وهي فوق أن يتناولها العدد ، فليطلب بعضها في قصيدة صديقه شاعر النيل التي أعدها للمحفل الكبير ، فليس أهدى على الدلالة على فاخر شعر شوقي من حافظ ابراهيم .

وقد يسف شوقي كما كان يسف بشار وابو نواس وابو تمام والبحتري والمتنبي والمعري ومن دخل في خللهم من جلة الشعراء ، ولا بد للطائر المحلق أن يستريح هنيهة بالاسفاف ، وانك لو وازنت بينهم في نصاعة شعرهم وحبك قريضهم وارتفاع معانيهم ، وفي اسفافهم ذلك وتزايل ألفاظهم وفسولة معانيهم لخلتهم انما يعتمدون هذا اعتمادا استجماما بالعبث أو تجنيا على ما أمكنهم الله من نواصي البيان !

وقلت لك انني لست بسبيل تحليل شعر شوقي حتى أفد .. على ما تقدم به القول مختلف الامثال .

وشوقى فنان كل الفنان ، يكلف بفنه ويغرم بآثاره غراما شديدا ، وليس يؤذيه شيء كما يؤذيه أن تتره حقه وتتحيف من قدر صنعته

ولقد قلت لك انه ضرب بالشعر في كل قصد ، وجال به في كل عرض فبذ وبرع ـ نستغفر الله الا الهجاء فما احصى عليه فيه بيت واحد ، اللهم الا ان يتندر ويلاعب بشيء لا يبلغ به الاقذاع ولا يردى به الى داعر الكلام . ولا ادرى اكان ذلك ترفعا من نبل النفس وكرم النشأة . والنزاهة عن الدسس الى مكاره الناس ! ام انه يرجع ايضا الى تلك الطبيعة الغريرة والنفس الحلوة . فهيهات العصفور ان يكون بازيا ، وللحمل الوادع ان يستحيل ذئبا عاديا !

وللكتاب شعر تعرفه بجفافه وجريانه في مثل اقيسة المنطق ، وللشعراء نثر تعرفه بنزايل لفظه وانقطاع جمله وعدم استرسال معنيه . اذا عرفت هذه القاعدة تهيأ لك ان تعرف كيف يكون نثر امير الشعراء ! . على انك واجد لنثر شوقى حلاوة ، برغم ما يقيده من اسجاع الكهان ، ولكنها حلاوة شعر لا حلاوة كلام مرسل ، وكأنى به اذا اعتزم الكتابة في بعض الاغراض نظمها اولا في شعر مقفى موزون ، ثم كسره تكسيرا وبذره على القرطاس بذرا .

ولسان شوقى لا يفى بمطالب ادبه ولا خياله ، وان فيه فوق هذا لخجلا يمسكه عن الكلام احيانا في مواطن الكلام ، وقل ان تراه يتبسط في حديث الا اذا خلا الى نفر من صفوة خلانه ، على انك اذا شهدت مجلسه ولم يسر اليك احد بانه شوقى لما سهل عليك ان تدرك ان هذا شوقى الذى ملأ طباق الارض بيانا !

* * *

وليس جديدا ان انبئك بان العبقرية كثيرا ما تضخم في المرء على حساب ما فيه من الغرائز ، وكأنى بها تملك عليها قدرا من غذائها حتى ما تدع بعضها قواما . وتلك العلة ، لا شك ، فيما تراه وتسمعه من شذوذ جميع العبقريين في العالم . فاذا كنت منكرا على شوقى شيئا من الشذوذ فانك منكر من حيث لا تريد ولا تجرؤ ، تلك العبقرية الفحلة . وحسبه ان اصبح بها ملء الارض ، وحسبه ان اضحى بها حديثا للتاريخ طويلا .

محمد محمود باشا

تاريخ كبير فى سن صغيرة ، وشأن جليل ، فى جسم ضئيل .
ولعل محمد باشا محمود لم يذرف (1) بعد على الخامسة والاربعين ، ولكنك حين تقلب الذهن فيه ينسرح منه الى مدى عريض . وحسبك ان ترى ارنبة انفه وهو يشدها اذ يتحدث اليك او ترفعها له الطبيعة ، تدرك انه رجل لا يريد الا ان يكون عظيما ، او على الصحيح ، انه لم يخلق الا لعظيم . وكذلك كان محمد محمود من يوم اخرجه ابوه للتعليم فى مدارس الحكومة ، فكان فى السنة الاولى اول لداته جميعا ، فلما تحول الى الثانية كان فوق ان يكون اول تلاميذها ، فوثب به الناظر الى السنة الرابعة طفرة .
وجاء عاهل وزارة المعارف « دنلوب » ليطالع مدرسة اسيوط ويتشرف على سير التعليم فيها ، فلما انتهى الى تلاميذ السنة الرابعة راى غلاما دقيقا لا تتصل سنه بأهل تلك السنة . فبعثه من مجلسه وجعل يسأله وجعل محمد يحسن الجواب فى غير تنعنع ولا ورع حتى راع دنلوب شأنه . فسأل الناظر عنه فنفض له جملة خبره ، ففظع بدنلوب ان ينقل تلميذ من السنة الثانية الى الرابعة طفرة ، فعجل العقاب لذلك الناظر المسكين ! ولا ادرى كانت فعلة دنلوب حرصا على النظام ام حرصا على الا نفسح مدارس الحكومة طريق النبوغ لاهل النبوغ !!

ويمضى محمد محمود فى سبيله الى المدارس الثانوية بعد

---

(1) لم يزد عليها .



وانى من قـوم كأن نفوسـهم بها انف ان تسكن اللحم والعظما

اذ يحرز الشهادة الابتدائية ، ولايكون شأنه فى الاولى الا كشأنه فى الثانية مجليا ابدا ، حتى اذا ختم علومها واحرز (البكالوريا) مضى الى انجلترا وانتظم طالبا فى جامعة (اكسفورد) وكان له فى جامعة أبناء الاعيان من الانجليز ما كان له هنا : أكب على الدرس ، وضعه فى عزة نفس ، ونبل يمليه الحسب ، وكرامة يزكيها ما هيأ له ابوه من مال ونسب . وكذلك عاش محمد محمود مثلا اعلى للكرامة المصرية فى اعظم جامعات انجلترا بين ابناء أعظم اعيان الانجليز . وثنى عليه (ارنبة انفه) كذلك الاقران يعدون بينهم مجليا مجتفرا كما كان مجليا بين معشره فى مصر حتى احرز على الشهادات . وينقلب الى مصر تزيرة به عين شيخ جليل طالما صدق فى خدمة مصر بلاؤه ، وتمحض فى هواها اخلاصه ووفاؤه .

ودخل محمد فى خدمة الحكومة مفتشا ، على ما أظن ، فى وزارة المالية ، فسكرتيرا لمستشار الداخلية . وتضيق هذه المساحة عن همه كما تضيق بمطامعه فى الحياة . فيغامر فى ميدان السياسة ويغامر فيها بحزب قوى يجمع ارباب المصالح الحقيقية ورؤساء العشائر فى البلاد . ويقوم «حزب الامة» عوانا بين الحزب الوطنى وحزب القصر فى تلك الايام . وكان الشيخ الجليل محمود باشا سليمان رئيس هذا الحزب ، وكان الاستاذ الاكبر لطفى السيد على ترجمانه (الجريدة) . وتألفت ادارته من مشيخة من أهل الرأى والعلم والغنى والحسب فى البلاد ، وكان لمحمد محمود فيه . من وراء الستار . رأى كبير .

ويضطرب بعض الامر على اللورد كرومر بشبوع الدعوة الوطنية واطراد قوتها واستفحالها يوما بعد يوم . فيخط له نهجا جديدا ، ذلك بأن يستنف رؤساء العشائر و (أصحاب المصالح الحقيقية) ويقيم على المرافق العامة اهل الكفايات من أولادهم اصطناعا لهم من ناحية ، واستصلاحا لاسباب الحكم من ناحية أخرى ، فقد كاد الامر كله يفسد باستخذاء (١) رجال

---

(١) الاستخذاء : شدة الخضوع والانقياد .

لادارة لصغار المفتشين الانجليز واستسلامهم فى جميع الامر لهم ، اذ تشب فى الوقت نفسه حركة وطنية عنيفة تطالب بجلاء الانجليز جملة وتسليم مرافق البلاد لاهل الكفايات من أبناء البلاد . فقام محمد محمود مديرا للفيوم وسرعان ما جمع بين احتراز الانجليز ورضاء المصريين . وكان لارتفاع انفه فضل عظيم فى مدافعة يد المفتش عن معالجة الامور ، الى فوة عزم ، وحسن ادارة ، وصلابة فى موطن الرأى . ولعلها كانت فى ذلك العصر ، أول تجربة جدت على الطرفين جميعا .

ثم عين محافظا للقنال ، فمديرا للبحيرة يستقل بالامر حيثما كان ، ويأنف من أن يظهر على رأيه رأى انسان ، ولو كان المفتش ولو كان المستشار . وتحرج من هذا الحال صدور وتضطغن على محمد باشا محمود قلوب ، فيتربص به المكروه . حتى كانت حادثة فى البحيرة ارادوا ان يحرجوا فيها المدير فما استطاعوا الا ان يستقيل أو يقال من المنصب . وهو لم يزل بعد فى ميعة (١) الصبا . ضحية للاستقلال بالرأى . أو ضحية ارتفاع الانف ، لا النزول على المهانة فى أى حال .

ويلبث حتى أعقاب سنة ١٩١٨ اذ تقف رحى الحرب فيتقدم فى أصحابه الغطاريف (٢) للمطالبة بحق مصر فى حريتها واستقلالها ويؤلفون الوفد المصرى ويهيبون بالبلاد فتنهض فى آثارهم ، فتقبض السلطة القوية عليه مع دولة رئيس الوفد واثنين من أعضائه وتنفيهم الى مالطة . فيمضون اليها بارزى الصدور ، مرفوعى الانوف ، هاتفين ملء أشداقهم : الا فى سبيل مصر ، فلتحى مصر ! ثم كان من شأن الوفد وعظيم جهاده ما تعرف ، ولا محل لمعاودة القول فيه : الا أن نلمع الى ما كان لمحمد باشا محمود فيه من كريم المنزلة بشدة عقله ، وصحة رأيه ، وقوة عصبيته فى كبد الصعيد .

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن ندل على سعيه فى أمريكا اذ شخص عن الوفد لبث الدعوة المصرية هناك ، فتم له كل ما أراد من الفوز والنجاح .

---

(١) أول الشباب .
(٢) الغطاريف : السادة .

وهو من أوائل من استراحوا الى فكرة الائتلاف السعيدة ان لم يكن أولهم جميعا ، كما كان من أعظم العاملين على تحقيقها .

* * *

واذا كان محمد باشا محمود مدينا بماضيه الشريف القوى (لارنبة انفه) فهو كذلك مدين لها بكل مايحقد عليه الناس واسمح لى فى هذا المقام يامعالى الوزير أن أضغط على (أرنبة أنفى) أنا الآخر فأرفعها بمقدار ٢ سنتيمتر حتى أستطيع أن أصارحك القول وأخاطبك خطاب الاكفاء للاكفاء : ان خلقا من خلق الله ، وانا مع الاسف منهم ، شديد والموجدة عليك بما يظنون فيك من جنف (١) وكبر وتهاون للناس . وانك لتقتضيهم أن يتوافوا الدعوتك للشؤون العامة بكل ماملكوا من رأى وجاه ومال ، حتى لو دعا الامر الى ابتذال المهج ، والتضحية بالاهل والولد . اذا انت لاتحتفل لحاضر ، ولاتتفقد غائبا ، ولاتعود مريضا ، ولاتشيع جنازة ميت ، ولاتأبه لاصحابك مهما كرثهم من الامر ونزل بهم من المكروه ، حتى فى الوقت الذى يحتاج فيه الداعية الى مصانعة جميع الناس ! !

وانى لاصارحك بهذا (ورزقى على الله) فان كنت آخذى على هذه المعتبة بقطع (التليفون) عنى فلا احوجنى الله اليه ، أو مجازى بمنعى من السفر فى سكة الحديد فانى (أدق كعب) اذا لم تتهيأ لى الجمال ولا البراذين ، او معاقبى بعدم التخاطب بالبريد . فليست كتبى مما يسر القلب ، وتفضل من اليوم بتحويلها اليك فلن ترى فيها الا مطالبة (بذمامات) متأخرة ، وتذكيرا بديون منسأة . وعلى كل حال (فالله يغنيها) عن وزارة المواصلات كلها .

والعجب أن محمد باشا محمود ، مع هذا التجنى كله على خلق الله ، رجل شديد الادب ، لطيف المحاضرة ، اذا أذن الله وكشف

---

(١) اعراض وتنح .

لك عن ليلة القدر فأصبته في داره يجلس مجلسا للناس ! ولعل ذلك يفسر ما اقنعني به رجلان فاضلان من ان محمد باشا محمود لاكبر فيه ولا برم (١) بالناس ، انما هو المرض الملح المتدارك يحتازه عن كثير مما يرجو من مصانعة الناس وتفقدهم والتجمل لهم . واني لاقبل هذا التعليل (تحت الحساب) . وأسأل الله ان يمن على معالي الوزير بالعافية كلها لينعم هو بها وينعم بها الناس وينعم الوطن .

(١) البرم بالناس : الضجر منهم .

مختار "التمثال"

بيضة كبيرة ينتهى سنهابلحية دقيقة مرسلة على شكل مثلث متساوى الساقين . فاذا حسر الطربوش او القبعة عن راس « البيضة » رأيت غديرا فى صفاء المرآة وهدوئها ، يقوم على حفافيه نبت غزير ، وتلك ايضا راس مختار المثال . وهو كذلك من الرجال الذين تعرفهم بصلعتهم اذا ولوا . وهو ابيض اللون ، له تانك الحدقتان المتحيرتان فى عيون أكثر نوابغ العالم . اما أنفه فبائن الطول والانتفاخ فى غير كبر ولا تيه ، يتدلى على فم لولا غلظ فى شفتيه ما بان ولا انكشف . ثم هو بعد هذه (الزحمة) منتظم الجسم متسق الجوارح ، والحمد لله !

ومختار ضخم الصوت ، فاذا ارتفع صوته تسلخت بعض شعبه ، واذا تحدث ، سواء بالعربية أو الفرنسية ، سمعت لفظ مجاور متحذلق فى « تطجينة » عامل من سكان الخارطة بجوار سيدى ابو السعود !

والعجب انه مع هذا كله رجل « Moderne » مطبوع فى تفكيره ، وذوقه ، واناقته أيضا على آخر طراز . وهو ثائر عنيف الصولة على كل قديم ، متعصب شديد الهوى الى كل جديد . لا يعبأ فى طلب هذا لنفسه ولقومه بعادة ولا بتقليد ، ولا بما هو اشد من العادة والتقليد . وهو اذ نضا عنه الطربوش واتخذ القبعة لم يكن مفتاتا على عيشه الذى يكاد يكون اوربيا خالصا ، ومن العجب ايضا انك تراه مع ذلك يستريح الى الحياة البلدية

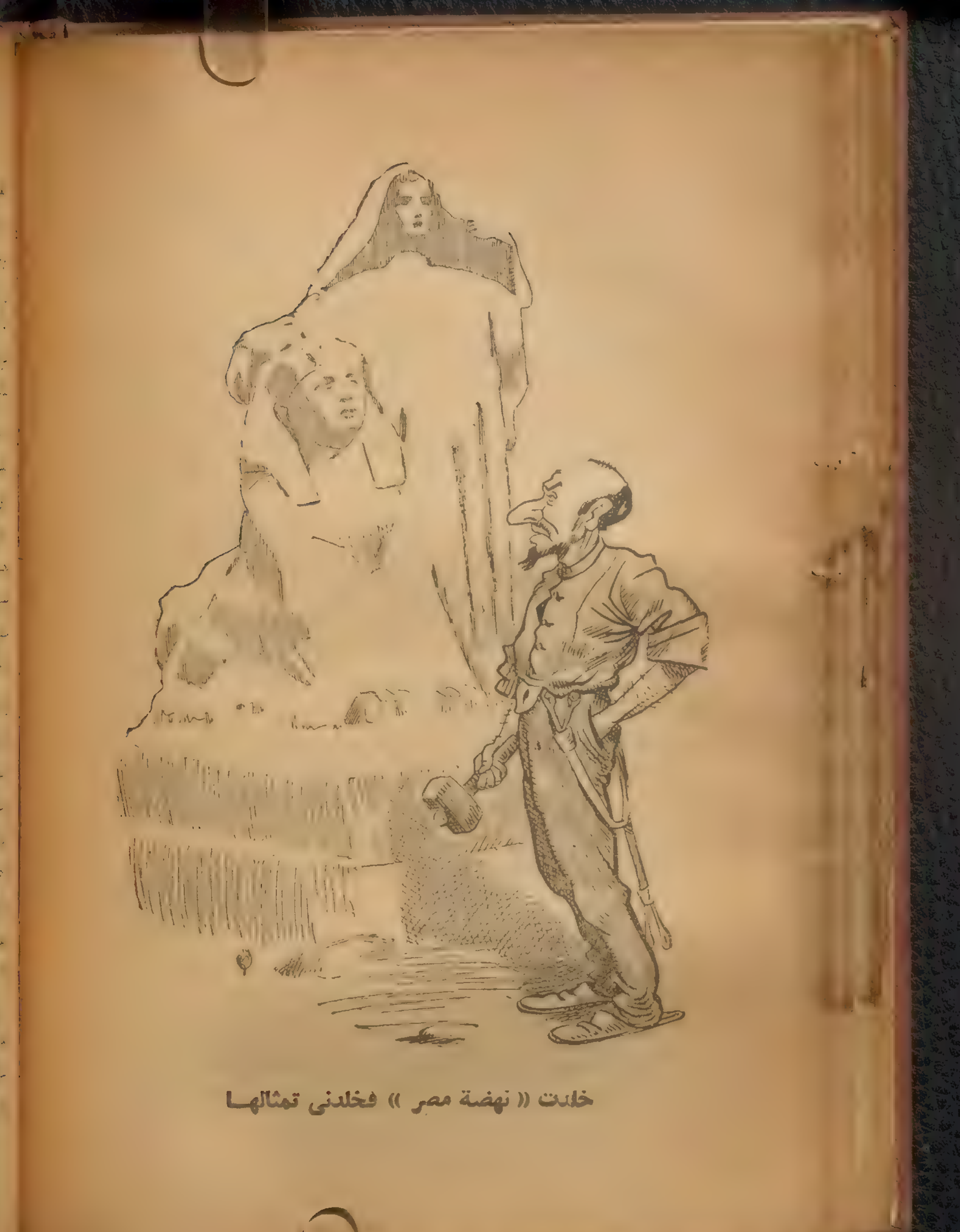
كلما تهيأت له ، فيأكل بكل كفه. ويعلق اسنانه فلا يعبها بمضغ ولا قضم . فاذا اتصل الحديث فى المجلس بنوان النادرات والفاكهات سمعت من مختار المطرب والمعجب من كل نادرة طريفه ، (ونكتة) رائعة ، حتى يخيل لك ان سنه تكنز ستين سنة ، تقضى نهارها فى « الربيعة » وليلها فى غشيان الاعراس « الوطنية » وحضور مجالس « الشعراء » على حواشى القهوات « البلدية » واستماع مايتطارح به جماعات المظرفين من فنون النكات !

وهو صافى النفس ، عظيم الشجاعة ، وافر الذكاء . لا يعنيه شيء فى الدنيا قدر عنايته بفنه الجليل .

وفى الحق ان مختارا مجموعة «Assortimant» يضم الوانا من الغرائب والمتناقضات . ولعل ذلك هو الذى هيأ له كل هذا النبوغ العظيم . وان مثلا يتروى فنه فى بلاد الغرب عن اكبر رجاله ، ويظل السنين الطوال فى ملابستهم ومحاكاتهم والتفطن الى مداخل صنعتهم حتى يحذقه ويبرع فيه ثم ينقلب الى بلاده فاذا هو بصير بكل عاداتهم وتقاليدهم واخلاقهم ومحاضراتهم وما جل ودق من شئونهم على تفرق طوائفهم واختلاف بيئاتهم — لهو جدير بأن يكون فى فنه الحسان كل الحسان .

* * *

وقد نجم مختار من اسرة كريمه ، فلما يفع اخرجته على العاده ، للتعليم فى المدارس الابتدائية ، فمضى فى درسه غير وان ولا متخلف ، على انه لم يكد يطوى فى الطلب بضع سنين حتى بدا ميله واضحا للرسم والتصوير ، فلا يرى مكبا على درس اكبابه عليه فى « حصة » الرسم ، ولا يكاد يرى هو نقشا باديا او صورة معلقة الا وقف يتصفح ويتأمل ويشيع كل حسه فى تقاسيمها ومنخالف خطوطها وتعاريجها ، ثم استل ريشته وادوات رسمه الصغيرة وراح يحكيها بكل ما تهيأ للموهبه الناشئة فى ذلك الجرم الصغير ! وظل كذلك عدة سنين لا يعدو منه الاجتهاد فى طلب



خلدت « نهضة مصر » فخلدني تمثالها

العلم على الاجتهاد فى تربية تلك الملكة ما استطاع اليها السبيل .

وكانت مدرسة الفنون الجميلة التى انشأها سمو الامير البار يوسف كمال ، فنزعت اليها نفس مختار ، ولعله لقى من اهله فى دخولها عنتا ، وكيف لا تعنت الاسر الطيبة ، فى مثل تلك الايام ، اذا رات ولدها يميل عن طريق الحقوق او الطب او الهندسة الى طريق لا تنتهى بسالكها الا ان يكون (مصوراتى) او حفارا او نقاشا ؟ ! . .

وعلى كل حال فقد تم لمحمود مختار ما اراد من دخول مدرسة الفنون الجميلة ، او بعبارة احكم ، لقد تم ما اراد الله لمصر من ان نرى نابغة من ابنائها يخلد نهضتها على تطاول الاعصار !

وفى هذه المدرسة جعلت موهبة مختار تتجلى ، وجعل اساتيذه يخصونه بعنايتهم لما أنسوا فيه من مخايل تدل على مستقبل عظيم . وبقى هو ، طول مدة الطلب . مجليا لا يلحق : اكبابا على الدرس ، واجتهادا فى المرين ، وتوافيا لكل دقيق من ملاحظات الاساتيذ ، حتى اذا برع بقدر ما يمكن ان يبرع طالب فى مدرسة الفنون الجميلة فى مصر راى ان ظمأه للفن لا ينقعه الا ان يغترفه من اصفى ينابيعه ، فشخص من فوره الى باريس وانتظم فى اعظم معاهدها ، اشخصه اليها كذلك سمو الامير يوسف كمال ، وظل يتعلم على اكبر اساتيذها عشر سنين متواليات ما احسبه انحدر فى خلالها الى مصر مرة واحدة ، واجتمعت شهادة اقطاب الفن هناك على ان هذا الفتى «المصرى» ولا فخر ينبغى ان يكتب فى جريدة كبار الممتازين . ويعهد اليه فى «معهد جربفان» بمنصب كبير ، وما كان هذا ليسوغ لاجنبى قط لولا نبوغ مختار الذى اوفى على كل تقدير .

ويشاء الله لمصر ان تنبعث ، ويشاء لها نهضة قوية يلتفت لها العالم كله ، فتثور موهبة مختار هناك وتأبى ثورتها ان تهدا الا اذا كشفت سر ابى الهول الذى ظل محقونا فى اطواء صدره المقبوض آلاف السنين ؛ واذا أبو الهول ناشز الرأس من وجد وسعى على

مصر الاسرة الفانية واذا ابو الهول يرفع راسه وينبعث ؛ لان مصر نهضت نفك اغلالها تسعى فى ارض الله سعى الاحرار .

وكذلك خرج تمثال « نهضة مصر » فاذا فلاحة تبعث ابا الهول فنحفز للوثاب ، وينهيأ للغلاب .

وما كاد مختار يعرض تمثاله فى « صالون باريس » حتى هرع اليه كبار رجال الفن واقبلوا على « المثال » المصرى باسم الهناء والاعجاب ، وتطايرت الاخبار الى مصر فسرعان ما اجتمع من شبابها كل ندب وطنى نجيد ، وسرعان ما ندوا بالاموال واستندوا ابناء الوطن ليسجلوا « نهضة مصر » ويرفعوا تمثال مختار ويرفعوا معه اسم مواطنهم النابغة مختار ، فجمعوا آلافا من الدنانير اذا لم تغن فى العمل الجسيم فقد مهدت السبيل لان تتولاه حكومة الشعب ، ومن حق حكومة الشعب ان تتولاه .

وقد مضى العمل فى تمثال « نهضة مصر » جدا بمعونة الحكومة وعطف الامة ، وهو الان يستشرف بفضل الله للتمام .

واذا كان مختار قد لقى بادىء الرأى تجنيا وعنتا من الدهماء واشباه الدهماء ، فتلك سنة الكون فى هؤلاء ، وهل قام فى الدنيا مصلح الا قاوموه واعترضوا سبيله ؟ وهل نبغ فيهم نابغ الا ملكهم الحسد من كل جانب فمضوا ينتقصونه بكل ما أحرزوا من جهل وتضليل ؟ .

ولقد تظاهر الجهل والحسد جميعا على تمثال مختار ، أما الجهل فمن أولئك « العلماء الاقطاب » الذين تراهم يقضون بياض نهارهم وسواد ليلهم على متون القهوات العامة ، اكفاء لان يفهموا كل نظرية ، ويبتوا فى كل قضية بحيث لا تخفى عليهم خافية من دقائق الفلك والطب والهندسة والسياسة وعلوم القانون وفن تعبئة الجيوش (التكنيك) وكل ما تنقطع دونه جهود فحول العلماء فى جميع العالم ! ! . وأما الحسد فمن أولئك الذين يصابون بضعف الهمة وقوة الشهوة ، وهم يأبون **الا أن يكونوا عظاما اذا لم تعدهم مداركهم ولا مساعيهم فى الحياة لعظيم .**

تظاهر هؤلاء وأولئك على مختار وعلى تمثال مختار فسلطوا بكل ما فيهم من « ذكاء » و « اخلاص » ينتقصونه ويتحيفون من قدره ومن الجهة « الفنية » ما شاء الله بها « الجدعان » ! !

وسار هذا الروح الخبيث فى تيار يعتمده دسائس ممن الذى أتيح لهم الزمن الخائر بمناصبهم شأن فى بعض الحكم ، ولها جميع الشأن فى أمر التمثال ، فما زالوا يدافعونه ويعترضونه بألوان العوائر ، ومختار ساكن سكون الواثق بأن عبقريته وحدها كفء لما أعد الحسدة وتفيهق الجهال ! !

وشاء الله أن تقدر هذه العبقرية قدرها ، وأن يقرر مجلس النواب ، بين التهليل والتصفيق ، فرض المال الضخم لاتمام تمثال « نهضة مصر » وكذلك تم الانتصار لمختار ، وان شئت قلت تم الانتصار للعبقرية الفخمة على حسد الحسدة وعلى جهل الجهال .

وتظفر مصر أخيرا بمثال نابغة من بنيها ، وأولئك الذين لا يطيقون أن يسمعوا مقالة الخير فى أحد من مواطنيهم ، قد أمست أنوفهم فى الرغام .

وفى الوقت الذى كان ينكر فيه عبقريو « القهوات » على مختار خطر فنه وخطر أثره . كانت تترادف عليه الدعوات من أكبر معاهد الفن فى أوربا لتستثمر موهبته فى عملها الجليل اذ يأبى مختار أن ينصرف عن تمثال « نهضة مصر » فى سبيل المال وما هو أعز من المال .

وحسبه من الجزاء على هذا التمثال ، أنه مخلد نهضة مصر على تطاول الاعصار والاجيال . فهنا ، ثم هنا ، « يا سى مختار » !

٨ - **قضايا الحب** - مجموعة من اغرب وامتع القضايا التى
عرضت على المحاكم المصرية فى مختلف
بلاد القطر للاستاذ فائق الجوهرى
المحامى

٩ - **جيشنا فى فلسطين** - تسجيل تاريخى لمعارك الجيش
المصرى فى حملته لانقاذ فلسطين
من الارهاب الصهيونى

١٠ - **الف ليلة الجديدة** - المجموعة الثانية من هذه
القصص الفريدة للاستاذ عبد
الرحمن الخميسى

١١ - **فى المرآة** - مختار المرايا التى نشرت فى السياسة
الاسبوعية لفقيد الادب الشيخ عبد العزيز
البشرى ويظهر فى اول ديسمبر القادم

١٢ - **الغاديات الرائحات** - مجموعة قصص مصرية متنوعة
من صميم الحياة تصور النضال
العنيف من بين الحب والعواطف
الاخرى للاستاذ محمود طاهر حقى

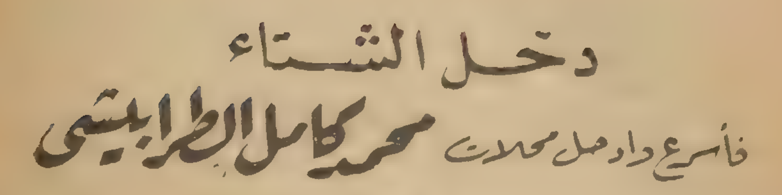
ثمن كل نسخة من هذه الكتب

٥ قروش





ص . ت ١٢٩٢


دخل الشتاء
فأسرع وادخل محلات محمد كامل الطرابيشي


كرسى هلال الشرق
لصاحباه
زكى محمد واخيه حلمى
هذا الكرسى عرف بقوة احتماله
وقدرته الفائقة فى جميع الأعمال
لذلك
احتل مكان الصدارة
بفضل اتقان الصناعة
وجودة الخامة
وجمال المنظر


متشكر يا شيخ محمد...
أنا سمعت نصيحتك
واستعملت أبو نخلة
وكان البرسيم عظيم...
أبو نخلة



حين يشتد برد الشتاء
اصوافنا تشعرك
بدفء الربيع
ان اصوافنا الانجليزية تمتاز
بنقائها . فانت تشعر بالدفء
حتى ولو كان القماش غير سميك
لذلك يقولون
٣٢ شارع قصر النيل
ت ٥٤١١٢ س ت ٥٧٩٧٥

كتب للجميع

عشرة أيام فى السودان

بقلم

محمد حسين هيكل باشا



٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة

طبع بمطابع « جريدة المصرى »



إهداء الكتاب

الى اهالى السودان

شكر وتحية

محمد حسين هيكل

مقدمة

ليس فى هذا الكتاب شيء اكثر مما يمكن أن يشتمله عنوانه . فهومجموعة ملاحظات ومعلومات جمعتهـا أثناء رحلتنا القصيرة بالسودان . وهى قصيرة حقـاً لانهالم تتجاوزعشرة أيام . وعشرة أيام أمد قصير لايستطيع الانسان فيه ان يلم الماما صـحيحا بكل مايقع تحت نظره كما لايستطيع تحقيق كل مايصل الى مسامعه. لكنها مع ذلك تسـمح بالوقوف على كثير مما لم يكن للانسان به علم ؛ كما تسمح بتحقيق كثيرمما كان الانسان يتخيله تخيلا ، وربما كان لصـحفى مثلى حظ لايتاح لغيره يمكنه من الوقوف على كثير من الاشياء . فالصحفى منظور اليه من الناس جميعا على أنه كلمة النـاس جميعا . اليه يذكرون ملاحظـاتهم وآراءهم ويبثون شـكاياتهم وهمـومهم ويبدون آلامهم . ثم هم يتسابقون فى اجابتـه الى مايطلب الوقوف عليه لعلمهم انه سيذيع ذلك للناس جميعا .

على ان ذلك ليس وحده هوالذى دفعنى الى تدوين هـذه الملاحظات والمعلومات التى وقفت عليهـا اثناء مقامى عشرة أيام بالسودان . فلقد سافرت قبل اليوم الى غير السودان من بلاد مجاورة لنا يعنينا أمرها عنـاية كبرى وفكرت فى ان أكتب شيئا عنها ثم ترددت وانتهى بى التردد الى الاحجام . وهـذه سوريا أقرب لنا من السـودان زرتهـا مرات وأقمت فيهـا فى كل مرة اكثر مما أقمت بالسودان ؛ بل أضعاف ما أقمت بالسـودان . ومع ذلك ؛ ومع عناية المصريين بما يدور فى سوريا . لم أر مايدفعنى الى ان أكتب عنها مثل ما أكتب اليوم عن السودان . ولعل أكبر السبب فى هذا راجع الى أن لدى المصريين فكرة تكاد تكون صحيحة عن سوريا وأحوالها وما يدور فيها والى ان السوريين أنفسهم يكتبون عن بلادهم وعن أحوالها مايزيد فى الدقة على كل مايمكن أن يكتبه

سائح قضى مدة قصيرة فى ربوعهم ثم لعل ثمت سببا آخر . ذلك أن بين مصر والسودان رابطة طبيعية هى النيل ابو النعمة ومانح الحياة للبلاد المحيطة بواديه الضيق الخصب المتصل أوله بآخره بآثار التاريخ الخالدة على التاريخ . هذه الرابطة الطبيعية المتصلة بها حياة المقيمين على ضفاف النهر السعيد تجعل بين ابنائه من رابطة الاخوة ما ان عقوه يوما فلن يزال رابطة تربطهم ويجب أن تنتهى الى خير ماتنتهى اليه مودة ذوى القربى .

ثم ان السودان على متاخمته لمصر وعلى امتلاء قلوب المصريين باسمه وبذكره بعيد عن أن تكون منه فى أذهانهم صورة مضبوطة . فمنهم من يخاله بلادا جرداء لاتصلح لمقام ولا يمكن أن تكون الا منفى لمن غضب عليه الآمر فى أرض مصر . ومنهم من يتوهمه مقام همج لا أمل فيه لرواج زراعة أو صناعة أو تجارة . وكثير امار وى عنه الراوون أن أهله أشد الناس عداوة للسعى والعمل . وانهم لايريدون من الحياة الا بلغة تقيم الحياة ، فليس بهم الى مياه النيل من حاجة ، وليس الى المقام بينهم باسم المدنية او التعمير سبيل . وهذه الافكار وما اليها من مثلها تروج فى مصر . ومنها كثير فاسد أشد الفساد وضار بالمصريين انفسهم أبلغ الضرر . فليس بد اذن من ان يكون المصريون لانفسهم عن هذه البلاد صورة صحيحة بعيدة قدر المستطاع عن ان تلونها شهوات الساسة

ثم ان مسألة مياه النيل وأولوية مصر التاريخية فى الانتفاع بها . وامكان توزيعها لكفى مصر والسودان جميعا امكانا فنيا ، وما قد يقوم فى وجه ذلك من عقبات سياسية . وما تجنى هذه العقبات السياسية على حسن فهم المصريين والسودانيين بعضهم لبعض ، وعلى احتفاظ كل منهم ازاء أخيه بعواطف الاخلاص والمودة — كل ذلك جعلنى أوجه حظا كبيرا من همى ومن عنايتى الى هذه المسألة الخطيرة التى لم تنج فى مصر كما لم تنج فى السودان من شوائب الشهوات السياسية ، والتى كانت وما تزال سببا لنشر

الدعوة التى تثير بين المصريين والسودانيين العداوة والبغضاء.

ولقد جعلتنى صفتى كصحفى أشعر بثقل حمل الواجب الملقى على عاتقى . فسعيت بكل مالدى من جهد لارى ولاسمع ولاحقق ولاصل الى الفكرة التى اقتنع بصحتها فى كل مسألة أتعرض لها . ولذلك لم أقف من ملاحظاتى عندما جمعت فى عشرة الايام التى أقمت بالسودان . بل جاهدت لامحص هذه الملاحظات بمناقشة من ذهبوا الى السودان ومن أقاموا فيه من المصريين ومن غير المصريين . وكل غايتى من هذا التمحيص ان يكون القليل الذى اعرضه فى هذه الرسالة أمام نظر القراء أقرب مايكون للواقع وللحقيقة .

ويجب ان أنبه القارىء الى أنى توخيت غاية الصراحة فيما سيقرأ . لم أرع ماقد يرعاه مشتغل بالسياسة مثلى من المجاملات ولم أسع لتمليق انسان أو جماعة ولم أتقيد برأى سياسى أو غير سياسى . لاعتقادى التام بان المواربة كثيرا ماينشأ عنها الخطأ . واذا اخطأ الناس فى تصور شىء لا وسيلة عندهم الى تحقيق رأيهم فيه لبعده عنهم بعد السودان عن مصر كان عسيرا بعد ذلك ان يتغير رأيهم ثم كانت الخطة التى يسيرون عليها مترتبة على هذا الخطأ داعية التورط فى ضلال لاينشأ عنه الا فساد فى السياسة واضطراب فى النظام.

وكل ما أرجو التوفيق اليه ان اوقف القراء عامة وبنى وطنى المصريين خاصة على شىء من صورة هذا السودان الذى يشاركنا فى الامال والامانى لانه وايانا يعيش على ضفاف النهر العظيم المحسن ، وان أوضح امورا غشت عليها الاهواء ، وان أدل قومى على منزلتهم من السودان ومنزلة السودان منهم ، وما يجب ان يكون بين المصريين والسودانيين من صلة وعلاقة . فان وفقت الى ما اليه قصدت فذلك خير ماابتغى . وان أخطأنى التوفيق فقد قمت بمجهود شعرت واجبا على ان أقوم به. وفى أداء الواجب لذاته غبطة للنفس كبيرة .

من مصر إلى الخرطوم

يعرف اكثر القراء الطريق من القاهرة الى الاقصر ويقع الطريق بين الاقصر واسوان فى مضيق بين سلسلتى تلال ليبيا والعرب ، ويسير القطار شرق النيل فى سفح سلسلة تلال العرب وتفصله عن سلسلة ليبيا فى بعض الاماكن مزارع ضئيلة تتسع او تضيق على ما تريد التلال المحيطة بها . ويبعد النيل عن القطار احيانا فيجعل المزارع بينهما . وقل أن ترى المزارع بين القطار وتلال العرب . ويصل الضيق المزارع فى بعض المواقع حتى لتشعر بالسلسلتين فى اقترابهما وليس بين احداهما وبين النهر الا دهليز ضيق مخضر بالغلال تارة . أجرد لازرع فيه أخرى ، فاذا كانت اسنا رأيت نشاطا غير الذى رأيت ، واحاط بالقطار من الاهالى باعة السلال المصنوعة من الخوص واطفال يتجرون بفاكهة البرتقال واليوسفى افندى .

فاذا بلغت كوم امبو رأيت خصبا ونماء لم يكن لك منذ الاقصر بهما عهد . وقد يدهشك كبر الدهشة كيف تترك الاف الافدنة مما يحيط بالنيل اله الخصب جرداء لا زرع فيها ولا نماء اذا أمكن أن تنتج هذه الاراضى مثل ما تنتج اراضى كوم امبو . ولم لا تعنى الحكومة المصرية بتشجيع الاهالى على استغلال هذه الاراضى بدل تركها غامرة يرضى المقيمون عليها بما يتبلغون به من شعير وما يرد اليهم من ذويهم القائمين بالخدمة فى المدن من ارزاق

تعود الارض غامره بعد كوم امبو الى اسوان . **فاذا بلغها القطار**

غادره كثيرون من الاجانب الذين قصدوا الى هذا المشتى البديع، وهم بين شيخ جاء يرجو فى أشعة الشمس المحسنة بعض معانى الصبا والشباب ، وعليل يمشى فى مناكب الارض يبتغى الصحة ، وحسناء تصحب هذا الشيخ أو ذلك العليل يعزيه حسنها ورقتها عن مشيبه أو علته . وترى هى فى اداء الواجب لهذا العزيز شفه السقام شيئا من رضاء النفس يعوضها عن المدن وبهجتها ، وترى فى هذه الشمس الساطعة والطبيعة القليلة النغير ما ينسيها تقلب القلوب واكاذيب الالسن وظلمات النفوس التى طالما خدعتها باللفظ المعسول . والى جانب هؤلاء الفارين من المدن وامراضها وآلامها ولؤمها قوم اتسعت ثروتهم عن أن يؤدى ركن ضيق من الارض طلبات اهوائهم وشهواتهم فجعلوا من السياحة والتجوال وسيلة لترييض النفس وعزاء من هموم قائمة .

ثم يقطع القطار ما بين اسوان والشلال ليبلغه فى منتصف الساعة الخامسة من المساء ، وهو فى هذا السبيل يعود ادراجه زمنا ثم ينطلق الى الشلال يقد صخورا وصخورا من الحجر ومن الجرانيت نحتت منه مسلات الفراعنة الاقدمين وتماثيلهم واقيمت منه معابدهم واثارهم ، وهو ما يزال الى اليوم تنحت منه التماثيل وتتخذ منه القواعد لولا ان اصبح فن الفراعنة اثرا من آثارهم

على أن هذه الاحجار التى شهدت لمصر مجدا كما تشهد لها اليوم هما ستبقى ليكون منها المجد المستقبل نصب وتماثيل تخلد على الزمن ما خلدت نصب الفراعنة وتماثيلهم

ويبدأ القطار يسير الهوينا يحيط به النيل وقد اتسع مداه بعد ما حجز خزان اسوان مياهه . ويظل كذلك بضع دقائق ينتهى بها الى محطة الشلال حيث تنتظره الباخرة وتنقل المسافرين معنا الى حلفا

* * *

وتنحدر جبال السلسلتين عند مركز الدر فى النهر مباشرة . ومن وراء الجبال صحارى غير ذات زرع . لكن مركز الدر هو

خزان اسوان . وهو فوق هـذا حصن بديع يفصل بين ما يقـع شماله وما يقع جنوبه . وهو لذلك من خير مراكز مصر ويجب أن يكون من أعزها عليها . ويخيل الى أن من غير المستحيل استغلاله على صورة تجعل الحياة فيـه أكثر رغدا ونعمة

وهو بعد مشتى لا مثيل له . وأنت كلما انحدرت الى ناحيـة الجنوب منه وجدت جوا أصح من نواحى الشمال فيه . ووجدت سماء صفوا تلمع نجومها فتضىء فى الليالى التى لا قمر فيها حتى لتحسبها مصابيح الكهرباء شدت الى السماء بخيوط من نور الامل الساحر . وهى شديدة البريق تبعث الى ظلمة الليـل العبوس ما يزيل عبوسها ويجعل سكينتها تملأ أفئدة المحدقين بالنجم اللامع بمعانى الطرب والجـذل . أمـا الجبال المحيطة بالنهر فهى وان كانت أغلب أمرها جرداء الا انها فى تجردها باسمة ابدا ، وكأنهـا تنبه بما وراءها من مخلفات الماضى المجيد : بآثار الفراعنة زاد القدم والبلى صمتها معنى يحدثك أنت ابن اليوم بما كان لحضارة العصور القديمة من آثار فى الفن تخـر أمامها آثار الحضـارة الحاضرة ساجدة ؛ وببقايا من آثار الرومان الذين غزوا الوادى فلم يبق من آثارهم الا بقـايا لا تنطق بمعنى ولا تنم الا عن غدر الغازى وعن سلطانه الاثيم

وقد يدهشك قيام هذه الآثار المجيدة من مخلفات الماضى وراء جبال مركز الدر القفر القليـل النبات . لكن دهشتك تزول اذا ذكرت انه كان أكثر نباتا ونمـاء قبل أن تغمر مياه النيل أرضـه بعد ما قام خزان اسوان فيه ؛ واذا ذكرت الى جانب هـذا أنه كان ولن يزال حصنا قويا يدرع بـه الملوك ذوو الايد اذا أغار عليهـم مغير أو ثار بهم ثائر . فجبال مركز الدر تتحكم فيما حولها خير تحكم . تتحكم فى النهر وفى السهل وفى الصحراء . ثم هى بعد جبال من صخر صلد لا يرتفع الماء الى عليائه ولا سبيل الى مسراه من خـلاله فلا خوف من ان يغير النهر على آثار اعدها اهلها لحياة الخلد وبقاء

عرجت الباخرة عند غير واحد من هذه الآثار الخالدة . عرجت عند وادى السبوع وآماد وابى سنبل وغيرها . وهى جميعا مظاهر من هذا الفن القديم الخالد على تفاوت فى العظمة والقوة وفى الدلالة على المجد والسطوة . وأبو سنبل هو بين آثار مركز الدر أكثرها عظمة وقوة ومجدا وسطوة . وناهيك بمعبد اقامه رمسيس ليكون واحدة من ايات خلده . وكان رسو السفينة عند ابى سنبل فى منتصف الليل فمدت اليه أسلاك الكهرباء ليرى السائح ابن اليوم نقوش أجداد الانسانية الخالدين على ضيائها اللامع . فمعبد أبى سنبل يخفى مكنون سره عن العيون الا لحظة من نهار فى بعض أيام السنة . تلك لحظة مشرق الشمس عند استواء الفصول . فى هاته اللحظة تمتد أشعة الطيبة والمصريين فنحيى . لحظة بزوغها منتصرة على جيوش الظلام تمثال رمسيس الخالد الجالس على عرشه منتصرا على جيوش الخيانة والغدر . أما فيما سوى هذه اللحظة فيختفى ماينطوى عليه المعبد وجدرانه فى حجب الغيب وجلاله . وناهيك بجلال الغيب من حجاب . وكذلك ظل هذا الاثر حتى امتدت الايدى الآثمة باسم العلم تكشف النقاب عن هذا الجلال بضياء المصباح والكهرباء على أنها حين كشفت عنه لم تكن أمام عظمته وقوته وأمام سلطانه وسطوته أقل سحرا وبهرا .

وبهذا الجلال المطوى فى حجب الغيب تحيط جدران معبد أبى سنبل وقد وقفت أمامه تماثيل أربعة للملك العظيم كلها المهابة والجلال .

* * *

أما وادى السبوع — وهو أقرب اثار مركز الدر الى اسوان — فيقوم فوق هضبة غير بعيدة عن النهر . يتخطى الداخل اليه دهليزا يحيط به أباء هول هى السبوع التى أطلق اسمها على الوادى عند أهل هذه المنطقة من السذج القانعين بسعادة الطبيعة الساذجة . وقامت داخل المعبد وفى ساحته تماثيل دكت من بعضها رؤوس وتحطمت من البعض سيقان . وقلت ذلك المحجر المحجوبة بطلاسمها المقدسة

وقد رسم على جدرانها من آيات ذلك الزمن القارب والجعران والثعبان وما اليها من آلهة ذلك العصر المجيدة

أما ماسوى هذين من الآثار فأقل منها جلالا وعظمة . على انها أبدا آثار العصور المجيدة . تحدث احجارها ويحدث الرمل المحيط بها بما كان لاهل هاتيك الازمان النائية من حضرة ومجد ، ويدعك وانت بين تلك التلال القائمة وسط الصحراء الغامرة الجرداء عامر النفس بمعان قل أن تدور بخاطرك حين تشهد آثار هذا الزمن الحاضر المملىء بحضارته وبعلمه وبفلسفته غرورا

* * *

لو أن السبل يسرت للوصول الى هذا المشتى البديع ، ثم أقيم فيه من وسائل الراحة والنعمة ما يطمع فيه من يرغب في الاستشفاء ومن يفر من قارس قر الشتاء حيث الشتاء قاس قارس لافادت مصر من مركز الدر كثيرا ولافاد اهل هذا المركز من مصحهم الشتوى البديع ما يغنيهم من فاقة وما يجعلهم — وهم اهل أمانة ونشاط — قوى منتجة ذات أثر فعال فى حياة مصر العامة

* * *

وانسابت الباخرة على هون تدفعها محركاتها فوق لجة النهر الهادىء الصافى وسارت تحيط بها شواطىء خضراء تارة مجدبة طورا ويشتملها هواء رقيق متع به المسافرون فوقها كما متعوا بهذا الجو البديع الذى لانظير له فى مشتى من مشاتى العالم ، وبهذه الجبال الصغيرة الجرداء تارة والخضراء اخرى والمحاطة بالرمال الناصعة الاصفرار حينا اخر .. وبالآثار المطلة علينا من القمم الصغيرة ترمق ابناء اليوم ترى هل بقى فى رءوسهم او قلوبهم او افئدتهم اثر من عبادة قدس الماضى المجيد فترى فى نفس المصرى حنينا يزداد او ينقص بمقدار عبادة الشخص وطنه او مجرد حرصه على ما يجنيه منه من فائدة

* * *

ها نحن اولاء الان تقترب بنا الباخرة من حلفا ، فلم يبق بيننا وبين رسو الباخرة عندها الا دقائق ، وهاهى تحيط بنا زينة

الشاطئين من نخيل واعشاب وتلال ورمال . وها هو ذا الماء ينساب الى جانب القارب على هون وفى هداة وسكون . والجو رقيق والسماء صفو والشمس ربيع زاه ، وحياة الوجود خضراء ناضرة . ثم هذه حلفا عند مرمى النظر . وهانحن أولاء فى سلطان حكومة السودان بعد ما ظللنا فى سلطان حكومة مصر الى ساعتين مضتا . فهل نحن سائحون فى بلد اجنبى . ام نحن ابناء النيل مانزال فى وطننا تحكمنا قوانينه كما تحكمنا طبيعته الجميلة الفاتنة !

لما اقتربت الباخرة من حلفا اقبل عليها رفاص فيه موظف اوراق الجواز الى السودان وطبيب مهمته ان لا تدخل الى السودان اوبئة من مصر . وهما انكليزيان . وكان اول ما لفت بعض المسافرين الذين جاءوا الى السودان قبل اليوم ان هذا الرفاص كان يرفع فى الماضى العلمين المصرى والانكليزى . اما فى هذه المرة فلم يكن عليه الا العلم الانكليزى . وقد اجاب انكليزى كان معنا بان العلم المصرى ما يزال يرفع فى السودان فعدم رفع الرفاص للعلم المصرى لابد ان يكون سببه ضيق المكان المعد لرفع العلمين عن ان يتسع الا لعلم واحد . قال رفيق والعلم المقدم هو بالطبع علم صاحب النفوذ الفعلى .

* * *

ورست الباخرة عند حلفا ، واستقبلنا جماعة من المصريين الموظفين فى حكومة السودان بكثير من البشر والترحاب ودعانا احدهم فتناولنا القهوة فى بيته

وذهبنا الى القطار الذى يقوم من حلفا فى الساعة الثانية من بعد الظهر ليصل الى الخرطوم فى الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم التالى فاذا به قطار ابيض واذا خطه ضيق كسكه حديد الدلتا . لكنك ما تكاد تدخل الى عرباته وما تكاد تستقر فى غرفة النوم المخصصة لك حتى تشعر بمعنى اخر . معنى النظام والنظافة والطمأنينة والراحة . ويدهشك ان عربات النوم فى هذا الخط الضيق اكثر راحة واستهواء من عربات النوم فى مصر . فمعدات الراحة فيها اكثر منها فى عربات مصر . سررها اكثر سعة وغرفها ارحب وبها مقاعد يجلس عليها الانسان

حين لا حاجة به الى النوم . وبها مروحة كهربائية ومنضدة صغيرة ودولاب صغير لاناء الماء وما قد تريده من لبن او فاكهة هذا غير وعاء الغسيل النظيف اللطيف

تحرك القطار فى الساعة الثانية وما كاد حتى ذهبنا نتناول غداءنا فى غرفة الطعام . وهى على مثال غرف النوم فى كفالة الراحة والطمأنينة . والطعام فيها مثله فى البواخر النيلية اقرب للنظام الانكليزى فى اصنافه .. والقائمون بالخدمة فيها كالقائمين بالخدمة فى البواخر النيلية ، هم جميعا من اهل البلاد . لا تقع عينك بينهم على اجنبى يقوم بالرياسة عليهم . وهم كزملائهم فى مصر نظاما ونظافة وادبا .

ما يكاد القطار يترك حلفا (المعسكر) حتى ينطلق فى (عطمور) ابو حمد . وهذا العطمور رمال تمتد امام النظر عن الجانبين حتى تلتقى بزرقة السماء الصافية عند الافق . ويبتعد النيل عن سكة الحديد فى استدارته الكبرى ما بين حلفا وابو حمد وتسير سكة الحديد فى خط مستقيم وسط الرمال مدى يزيد على ثلاثمائة كيلو متر، وفى هذا العطمور ينطلق القطار مارا بمحطات لا يحيط بها الا بناء المحطة وبيت الناظر ومساكن العمال . وبين كل واحدة وما بعدها ما يزيد على ثلاثين كيلو مترا . وبيت الناظر ومساكن العمال — او تكلاتهم كما يسمونها فى السودان — قد بنيت فى شكل عجيب . فقاعدتها جدران مستديرة من الطوب الاحمر ترتفع عن الارض مترين او تزيد قليلا وفوق ذلك قباء على شكل قباء الصيوان حتى لتكاد تحسبه صيوانا بالفعل لولا ما تتبينه بعد اقترابك منه انه بناء غشى بالجير الابيض . وهو على هذه الصورة اكثر اتقاء لسوافى الرمال ولما قد يندر ان تقذف به الصدفة من الامطار . وحول بيت الناظر ومساكن العمال رمال العطمور . فهم بذلك فى وحدة دونها وحدة الناسك فى صومعته . ويمر بهم قطار حلفا والخرطوم اربع مرات فى الاسبوع ذهابا وجيئة فيحمل اليهم ارزاقهم .

ولما لم يكن حولهم من مظاهر حياة الانسان ما يذر لهذه الاماكن اسماء تذكر بحادث وقع فيها او برجل اسس اول عائلة عمرتها او بما سوى ذلك مما يبقى تاريخا لمظهر من مظاهر الحياة الانسانية فليست لهذه المحطات اسماء تتصل بهذا التاريخ . ولذلك اعتبرت نمرا تبدأ عند حلفا بنمرة واحد ، وتنتهى قبل ابى حمد بنمرة عشرة . وعند نمرة ٦ تقف القطار طويلا لتبديل القاطرة وللاتصال بمناجم للذهب فى ام نباردى حيث تقوم شركة انكليزية باستغلالها

ولا وسيلة لقطع الوقت وهذا التشابه يحيط بك الا ان تقرا او تتحدث الى من معك من المسافرين ، واكثر المسافرين معنا من الانكليز . وهم على رقتهم وظرفهم اكثر اتصالا فيما بينهم منهم بغيرهم ؛ على انى قضيت ما بعد العشاء الى منتصف الليل فى حديث طويل مع المسيو السندرينى الذى قام باكثر اعمال خزان مكوار كما قام من قبل بحظ كبير من اعمال خزان اسوان

بقيت اتحدث والمسيو السندرينى حتى قاربنا منتصف الليل . وكان القطار ينساب فى ظلمة الليل الداجى زاده ظلمة ما يحيط بنا من انوار الكهرباء لتى تحجب عنا ما قد يكون من التماع النجوم فى السماء . وسألنا الخادم عن الوقت الذى يصل فيه القطار الى العطبره فاذا هو يصلها فى الساعة السابعة صباحا . حينذاك قمنا الى مخادعنا يهزنا القطار حينا فيطير النوم من اعيننا ويغلب النوم علينا حينا فلا نحس باهتزاز القطار . ثم انبعثت من خلال النوافذ تباشير الضياء وجاء الخادم بشاى الصباح . وما كدنا نفرغ من تناوله ومن لبس ثيابنا حتى كان القطار قد بلغ العطبرة ليقف فيها ساعة كاملة .

عند العطبرة تلتقى سكة حديد (حلفا - الخرطوم) بسكة حديد (بور سودان - كسلا) . وفيها حركة كبيرة لسكة حديد حكومة السودان . بها ورشة للوابورات كاملة النظام

وبها كذلك عدد عظيم من الموظفين المصريين . بل لعل اكبر عـــدد من الموظفين المصريين بالسودان هم المقيمون بالعطبرة . لقينا جماعة منهم على رصيف المحطة برغم هذه الساعة المبكرة من الصباح فرأينا منهم هذا البشر الذى رأيناه فى مصريى حلفا .

واكبر موظف مصرى فى العطبرة يتقاضى مرتبا ستة وثلاثين جنيها وهو وحده الذى يتقاضى هـــذا المرتب . اما من يليه فى الدرجة فيتقاضى سبعة وعشرين جنيها ويلى هؤلاء من دونهم فى الدرجة من الموظفين .

وقام القطار من العطبرة الى الدامر فاجتاز نهر العطبرة على جسر (كبرى) متين حســـن الشكل . ونهر العطبرة صغير كان ماؤه حين دنا به غائصـــا . ومن بعده وقف بنـــا القطار فى الدامر عاصمة بربر

فى هذه المنطقة وما بعـــدها تبدأ زراعة القطن على المطر . لكنها هنا ليست متســـعة النطاق وان كانت تؤذن بازدياد مطرد . ومن هذه المنطقة يسير القطار الى الخرطوم قريبـــا من النهر تارة ، بعيدا عنه طورا ، مخترقا صحراء جافة حينا فهى أقرب الاشياء شبها بالعطمور ، مارا بين اشجار متكاثفة اخرى محاذيا بعض المزارع ثالثـــة . وفى هذه المزارع ترى القطـــن وغير القطن من انواع الزراعـــة وترى الدوم والنبق وغيرهمـــا من الشجر .

لبثنا فى القطار بين حلفـــا والدامر اكثر من ثمـــانى عشرة ساعة . وما تزال بيننـــا وبين الخرطوم ساعات ثمان . ومثـــل هذه السياحة الطويلة فى سكة الحديد تعيد الى الذهن سياحات طويلة مثلها او اطـــول منها فى أوروبا . لكن بين هذه السياحة الافريقية والسياحات الاوربية فرقا كبيرا . فاكثر السياحات فى أوربا تمر بك بين جبال رفيعة وسط جو سريع التقلب وطبيعة لا يحـــول عبـــوس الجـــو دون ابتسامها ، واكثر الســـياحات فى اوربا تخترق سويسرا او غابة المانيا السوداء فتريك ســـفوحا ناضرة يفوح منها شذا العطـــر ويبدو للناظر اليها جمال الزهر

وهى بعد طبيعة لم تترك للطبيعة بل شارك الانسان الطبيعة فى زينتها وفى جمالها فزادها زينة وجمالا . أما هذه السياحة الافريقية الطويلة فتخترق بك الصحارى التى لاحد لها ولانهاية وتشعرك بالوحدة المطلقة وسط الفضاء الصامت لاتسمع فيه حسيسا ولا ترى فيه طيرا ولا حيوانا ولا ينبت فى أكثره نبت ولا شجر . وما انبت النبات والشجر فينبتهما وفى كل قطوب الصحراء وعبوس الجبال لا يقلل من غربهما الا جمال الطبيعة الدائمة الصحو . افترانا وقد تخطينا العطبرة والدامر واصبحنا يقف بنا القطار أو يمر على محطات ذات أسماء وذات تاريخ ويحيط بنا الوقت بعد الوقت شىء من الشجر قد صرنا الى منظر ذى بهجة يعوض ما مضى من عبوس وقطوب ؟

كان لنا فى ذلك أمل . لكنه سرعان ماتبدد وبقى انا منه سراب هو هذه المزارع القليلة من القطن وهذه الغابات ترعى فيها الابل ويجد فيها البدو لاغنامهم وماعزهم وابقارهم مرتعا . على ان لهذا السراب بهجته . ومن تلك البهجة اهل هذه المدن المستوحشة . فهؤلاء هم يقتربون من القطار كلما آوى الى احدى المحطات وبيد امرأة لبن رائب تبيعه وبيد غلام عيش يعرضه لمن به جوع . ولعلك غير مستطيع وان وصفت لك هذا العيش ان تتصور ماهو . فرغيفه صغير الحجم منتفخ لاتدرى أهو من ذرة أم من شعير وغير اللبن الرائب وغير العيش يتجر بعض السودانيين اخواننا فى سلال واسبات صنعت صنعا ظريفا من قش ملون . وهذه هى البضاعة التى يقبل عليها بعض السائحين ويجد لديهم سوقا رائجة . اما اللبن واما العيش فلا عيش لهما الا بين المسافرين من أهل البلاد

***

وهؤلاء السكان من طبقة العمال فى السودان ليسوا جميعا أصليين فيه . بل بعضهم سكناوية أتوا من سكتو واخرون فلاتة جاءوا من النيجر فى طريقهم الى الحج فوقفوا فى السودان يتغون مايقيتهم فى مبتدأ الرحلة الطويلة التى تكلفهم احيانا سنين

تباعا يقومون بها من قلب طيب ونفس راضية راجين ان يغفر الله لهم بعد اداء فريضتهم المقدسة ما تقدم من ذنبهم وما تأخر

ومن هؤلاء الفلاتة عدد عظيم يقوم بزراعة القطن وجنيه فى اراضى الجزيرة . وعلى عملهم تعتمد حكومة السودان الى حد عظيم

***

الدامر عاصمة مديرية بربر . والقطن الذى يزرع فى مديرية بربر وفى غيرها من مديريات شمال السودان يروى من مياه النيل الرئيسى . وطرائق ريه تختلف فما كان من زراعة الاهالى فترويه السواقى . وما كان من زراعات الشركات فترويه الالات . وقد ذكر لى بعضهم ان المساحات التى تزرع قطنا فى شمال السودان اى فيما قبل الخرطوم ليست كثيرة وليست بذات خطر

والقطن الذى يزرع فى هذه المناطق كالقطن الذى يزرع فى الجزيرة يسلم الى الحكومة لتتولى بيعه بالطريقة التى تراها . وقد رات بيعه بالمزاد فى هذا العام وبعد البيع تحاسب الاهالى . على انها مع ذلك قد صرحت لبعض رؤساء القبائل ذوى النفوذ بان يتولوا هم بيع اقطانهم بانفسهم . وقد ذكر لى مصرى من اليهود له متجر واسع للاقطان فى ليفربول انه هو الذى يشترى اقطان هؤلاء المشايخ فى كل عام كما يشترى قطن الحكومة . وان المشايخ الذين سمحت لهم الحكومة بهذه الميزة لا يبلغون العشرة عدا

وتسعى حكومة السودان ليكون مستقبل القطن فيه ذا شأن عظيم .

وليست تقف زراعة القطن عند مديرية بربر بل تتعداها الى المديريات التى بعدها حتى الخرطوم ، وان كانت الاراضى التى تزرع قطنا ما تزال قليلة . وهذه القلة هى التى تجعل أهالى تلك المناطق مايزالون بعيدين عن معانى الحضارة مستمسكين بتقاليد البدو الصحيحة ، على ان ما يجده بعضهم من الربح فى زراعة الارض يجذب هذا البعض للاستقرار واستغلال الاراضى

انطلق القطار بنا الى شندى ومررنا بعد ذلك بالشلالات الثلاثة وصرنا نقترب رويداً رويداً من الخرطوم بحرى . فلما بلغناها قابلتنا معسكرات واقعة على ضفاف النيل الازرق الى الضفة الشمالية وتمتد الى بعد منه غير قليل .

عن يمين الداخل الى محطة الخرطوم بحرى متسع كبير أعد كورنتينة للحيوانات المسافرة الى مصر تبقى فيه الزمن الكافى لليقين بان ليس فيها ما يحمل الى مصر وباء او ضرا ، وتنتقل منها مباشرة الى القطار الذى يقلها الى حلفا فالسفين الذى يقلها الى الشلال

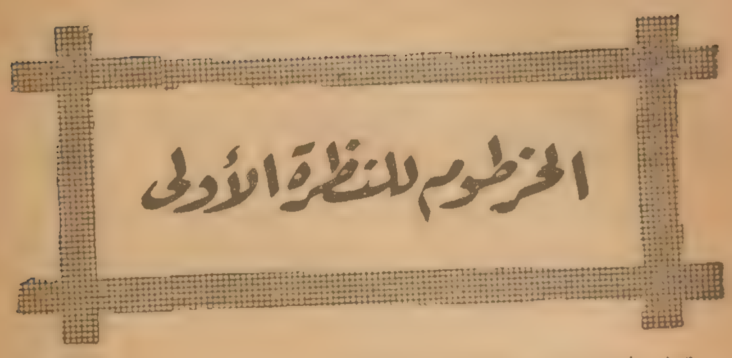
والى جانب هذه الكورنتينة مكان أعدته حكومة السودان لتربية الحيوانات . ولحكومة السودان فيما قيل لى عناية كبيرة بهذه التربية حتى لاتحتاج الى شراء خيل للجيش ولاتستعين من حيوانات الخارج الا بالنزر القليل مما تحتاج اليه لاصلاح النتاج .

* * *

ينساب النيل الازرق بين الخرطوم بحرى والخرطوم . ويجتازه القطار فوق جسر (كوبرى) عريض يتسع للقطار وللترام وللراكبين والراجلين ، ثم يلتوى القطار بعد ذلك مارا بين كلية غردون ومدارس الخرطوم المختلفة عن اليمين ومعسكرات الجيش البريطانى عن الشمال ويتابع التواءه حتى يصل الى محطة الخرطوم الرئيسية .

وتقع محطة الخرطوم فى فضاء من الارض لايحيط به مايشعر القادم معه بشىء من مهابة محطات العواصم . فالمبانى الخاصة باعمال المحطة منعزلة صغيرة قليلة الارتفاع كمبانى محطات الارياف العادية فى مصر . وليس لها من وجاهة مبانى محطات حلفا أو محطة العطبرة كثير ولا قليل. وخط الحديد لايظله سقف ولا يحيط به من الافاريز ولا يتصل به من خطوط المناورات الكثيرة ما يرى عادة فى المحطات الرئيسية . بذلك دهش من لم يعرف الخرطوم من

قبل أن تكون هذه محطة سكة الحديد لعاصمة السودان . على أن هذه الدهشة لم تدم الا ريثما أخذت بالبصر زينات كانت تمد الى مرمى النظر فى طريق متسع يبدأ أمام المحطة . هذه زينات يوم الملك أعدت للاحتفال بعيد تذكار مقدم جلالة الملك جورج الخامس الى الخرطوم حين عودته من الهند فى سنة ١٩١٢ . وهذا الطريق الذى تمتد فيه الزينات هو شارع فكتوريا . وهو يصل مابين المحطة وسراى الحاكم العام كانت الساعة الرابعة حين وقف القطار فى المحطة . وكنا قد أمضينا ستا وعشرين ساعة من وقت أن غادرنا حلفا . ومهما تكن معدات الراحة بالقطار كاملة فالسفر قطعة من العذاب . لذلك فرح المسافرون جميعا لبلوغهم الخرطوم . ونزل كل يبحث عن البيت او الفندق الذى يأوى اليه ونزلت مع من نزل فالفيت جماعة من المصريين الذين عرفت من قبل وقوفا ينتظرون . فلما رأونى قابلونى بالترحاب والبشر بما أدخل الى نفسى الغبطة والطمأنينة ثم غادرت محطة الخرطوم الى فندق جراند حيث قضيت أيام مقامى بعاصمة السودان .



قبل افتتاح السودان بقوات الجيش المصرى وبعض الفرق الانكليزية فى العقد الاخير من القرن الماضى كانت أم درمان هى العاصمة الكبرى لهذه الاصقاع المترامية من أراضى القارة الافريقية ، وكان يطلق عليها اسم عاصمة الدراويش وكانت ذات اهمية تجارية خاصة اذ كانت ملتقى طرق القوافل الآتية من الأبيض وغير الأبيض من بلاد الداخل . فلما فتح السودان وجد لورد كتشنر الخرطوم وفيها من التذكارات التاريخية للحملات المصرية الماضية مايجعل حقا لها أن تكون عاصمة بدل أم درمان . وكانت قد خربت كل مخرب أثناء الحرب فلم يبق منها الا آثار وأطلال . فجددها بهمة الجيش المصرى وقيامه بأعمال البناء وغيرها من أعمال التعمير . وسعى سعيه ليجعل أم درمان اثرا بعد عين . لكن أم درمان بقيت الى يومنا مستقر تجار الواردات الى السودان كما أن الخرطوم أصبحت بعد بنائها وبعد امتداد خط السكة الحديد عندها مستقر تجار الصادرات من السودان .

ولقد روى المحدثون كثيرا من الروايات عن الخرطوم وجعلوا منها مدينة غربية بحتة . فشوارعها متسعة يزيد بعضها على الخمسين مترا ولا ينقص واحد منها عن ثلاثين مترا . ومبانيها منتظمة تمام الانتظام . وفيها نور الكهرباء يضىء شوارعها ومنازلها ، وفيها المياه جارية فى كل المنازل . وهذه التفاصيل عن صورة هذه المدينة التى اشتق اسمها من صورة النيل الازرق الملتوى التواء خرطوم الفيل تترك فى ذهن القارىء محلا للمقارنات

كثيرة . فهذه الشوارع الواسعة وهذه الانوار الكهربائية وهذا الماء الجارى أقرب مايكون الى صور مدن المياه فى أوربا . ومدن المياه فى أوربا تجمع من معانى النعمة مالا يجمع فى غيرها من المدن . فيها الحدائق الغناء وفيها أماكن النزهة والرياضة وفيها المجتمعات الزاهية الزاهرة . وفيها كل مايجلو صدأ النفس ويطرد هموم القلب . اذن لابد أن تكون الخرطوم على هذه الصورة البسامة الجذابة . فطوبى لقوم جعلوا فى أقرب المناطق لخط الاستواء ماقصر عنه كثير من أهل مدائن المناطق المعتدلة .

وتدخل الخرطوم وهذه الصورة تملأ نفسك . فما يكاد القطار يسير بك نحو المحطة الوسطى — كما يسمونها — حتى اذا بك قد مررت — بعد تخطيك كبرى النيل الازرق بين الخرطوم والخرطوم بحرى — ببعض مبان للحكومة لاتحقق الصورة التى فى نفسك ولكنها مع ذلك لاتقضى عليها . فحول كليه غردون والمدارس المحيطة بها حدائق ظريفة تأخذ بالنظر . لكن بعدها فضاء صحراوى لابناء فيه ولا ماء . وتتلفت وأنت بالقطار يمنة ويسرة فاذا كل ماحولك مبان قليلة الارتفاع بنيت من طابق واحد . فاذا وقف القطار رأيت ميدانا واسعا ليس فيه شىء يزينه ورأيت امامه مثل تلك المبانى القليلة الارتفاع وشعرت بهذه الصورة الجذابة الممتلئة بها نفسك وقد بدات تذبل وتضمحل . لكنك سرعان ماتشغل عن هذه الصورة وذبولها بمن تراه من معارفك واصدقائك الذين جاءوا الى المحطة ينتظرون هذا القطار القادم من مصر آملين أن يجدوا به من ريح مصر مايسليهم وينعشهم وان يلاقوا بين الراكبين هؤلاء المعارف الذين غابوا عنهم سنين بعد أن كانوا فى حياتهم جزءا غير قليل من هذه الحياة . والذين أصبحوا بسبب هذه الغيبة ولوجودهم نائين عن القاهرة ومثلها من الاماكن التى عرفوهم من قبل فيها أقرب الى قلوبهم وأفئدتهم ترى هؤلاء المعارف فنهز ايديهم ويهزون يديك بشوق ولهفة ويسألونك عن البلاد ماحالها وعمن خلفت وما صار اليه أمرهم ؟ فاذا فرغت من ذلك وفكرت فى اختيار

فندق تأوى اليه عاونوك برأيهم وبمساعدتهم وبكل مايملكون من وسائل المعاونة . وأشهد لقد لقيت من رقتهم ما أنسانى مشقة سفر ست وعشرين ساعة فيها مافيها من مشـقة برغم مافى القطار من وسائل الراحة والطمأنينة

وعرفت ساعة وصولى المحطة احد كبار موظفى حكومة السودان من السوريين فلقينى بترحاب أى ترحاب وصحبنى فى سيارته الى جراند اوتيل حيث نزلت . وماكاد يستقر بى المقام حتى جاء لزيارتى بعض اخواننا المصريين وفيما كنت بالسيارة فى طريقى الى الفندق أظهرت دهشتى من هذه الصورة التى تبدت لى من الخرطوم والتى لا تتفق فى شىء مع ما كان مرتسما لها فى خيالى الشوارع واسعة حقا وعرضها يزيد على ثلاثين مترا . وفيـها الكهرباء حقا تضيئها اذا جن الليل وولت موليات النهار . لكنهـا شوارع غير مرصوفة والتراب عن جانبيها كثير حتى ليغوص فيـه عجل السيارة . ونحن على مايظهر فى خير احياء المدينة الآهلة بأعاظم سكان الخرطوم من الموظفين . ثم ما هذه المبانى المحيطة بنا والتى لا ترتفع اكثر من طابق واحد ؟ وما لها لا يحيط بهـا نضرة الزرع وخضرته الا قليل ؟ ولم استطع اخفاء ما يجول بخاطرى فسألت صاحبى مابالهم لا يرصفون الشوارع . فكان جوابه ان قال : أن ذلك يكلف مليونا من الجنيهات ولذلك تكتفى الحكومة بتسـيير الوابورات الثقيـلة فى القسـم الاوسط من الشوارع الكبرى حتى يتمكن الناس من السير فيه

ازدادت الصورة التى كانت مرتسمة فى خيالى من الخرطوم ذبولا حتى كادت تصل الى حد القبح حين ذهبت فى صـبيحة اليوم التالى أرود انحاء المدينـة فقد انحدرت الى احياء أعدت لموظفين أقل من الاولين درجـه ولبعض اعيان المدينـة ، كمـا انحدرت بعـد ذلك الى الاحياء الآهلة بالسـودانيين وتجارتهـم والتى تقع بعد ميدان الجامع . وهذا الميدان فسيح متسع أعـد لتقام فيه الحفلات ذات الصبغة الدينيه واخصها حفلة مولد النبى

ومع ذلك فهو ميدان ترب تفوص القدم فيه الى حد يتعذر معه السير ويهد السائر التعب بعد قليل . فأما ما بعده من الاحياء السودانية البحتة فتتجلى فيها مظاهر الفاقة القاتلة . ترى فجوات مفتوحة فى بناء منخفض هى حوانيت الصناع والباعة . وترى فى هذه الفجوات جماعة السودانيين جلوسا وعليهم ملابسهم البيضاء اصبحت سمراء من الشمس والتراب . وترى أمامهم من صناعاتهم العنجريبات والاحذية وغيرها من صناعات وطنية ضئيلة فاذا ازددت تغلغلا الى ما بعد ذلك رأيت حوانيت من القش يعمرها رجال لا يكاد يسترهم من الملابس لا قليل . ورأيت بعدها « سوق النساء » عملت الشمس فى وجوههن واساريرهن فرسمت عليها من علائم البؤس واثار الشقوة ما لا تفهم معه كيف ترضى احداهن احتمال هذه الحياة القاسية لولا ما فى الحياة من سحر خداع يغرى أشد الناس بؤسا وشقاء بأمل فى يوم نعمة ورخاء . وتبيع هاتيك النسوة الكسرة . وهى نوع قبيح من الطعوم ؛ كما يبعن الفلفل وبعض الوان الشقاء مما يطعم الفقراء

ولا تطاوعك نفسك لتشهد من بؤس هاتيك وأولئك اكثر مما شهدت فتعود أدراجك طالبا بعض ما يروح عن نفسك

وكان معى صاحب مصرى ظريف سار واياى الى ناحية الترام نركبه الى جهة (المقرن). والمقرن هو المكان الذى يقترن فيه ماء النيل الابيض بالنيل الازرق وتجرى عنده السفن التى تقل الركاب المسافرين بين الخرطوم وأم درمان . فقصدنا الى حيث محطة الترام وانتظرناه حتى اذا اقبل الفيته تراما بخاريا تجره آلة ذات عجيج وضجيج ومن ورائها عربات عدة تكاد تبلغ الثمانى او العشر واكثرها قذر تقوم فيه مدرجات يجلس عليها ركاب الدرجة الثالثة وبه عربتان هما عربتا الدرجة الاولى مفروشة مقاعدها بجلد أو مشمع تود لو ان مكانه خشبا نظيفا .

اجتاز الترام بنا الخرطوم من طرفها الى طرفها الاخر . واجتاز بنا فى أحياء تختلف نعمة وبؤسا، لكنه كان يسير فى شبه صحراء

قل ان تقع العين فيها على سائر فلما بلغنا مخازن الحبوب عند سكة الحديد وقعت العين على منظر ما أحسبنى رأيت فى الحياة شيئا أشد منه ايلاما ولا اكثر منه دفعا للاشفاق الى النفس. منظر لن يستطيع الخيال وان غلا وان بالغ فى الغلو ان يصل الى تجسيد الالم الانسانى كما جسدته هذه الحقيقة الناطقة بكل معنى القسوة الانسانية

الى جانب مخازن الحبوب ميدان فسيح من تراب ضارب لونه الى لون الرمل . وفى هذا الميدان تمر الغلال من ذرة او شعير الى المخازن. وقد يقع سهاى أثناء مرورها ما يختلط بهذا التراب

لم أر الحبوب تمر ولم أر ما سقط منها الى الارض واختلط بترابها . لكنى رأيت امرأتين كل واحدة منهما عارية او تكاد فلا يسترها الا خلق قذر يغطى بعض اسفلها ويترك الظهر كله والاذرع والراس مكشوفه للشمس وللهواء . وكانت كل واحدة مقعية كما يقعى الكلب وتنبش الارض بأظافرها وقد أحدثت فيها فجوة كبرى وهى ما تزال دائبة على النبش وتلقى ما بين حين وحين شيئا من التراب الذى يعلق بأظافرها وبيديها فى غربال او منخل الى جانبها . سألت صاحبى . مابال هؤلاء النسوة اكببن على الثرى يحتفرنه بأظافرهن كما يحتفر الحيوان وجاره بمخلبه ؟ قال صاحبى وفى نبرات صوته رنة هم وشجن هن فقيرات لايجدن قوتا ، وقد تعول واحدتهن طفلا او اكثر ، وقد أقبلن يحتفرن التراب آملات أن يجدن فيه من ذرة او شعير مما قد ينتثر ساعة حمل الغلال الى المخازن . فاذا ظفرت احداهن بما حسبته حبة ألقت به فى غربالها . وتظل كذلك يومها تحتفر القوت من تراب الارض احتفارا . فاذا خيل اليها ان قد اجتمع فى غربالها بعض منه عملت لتنظيفه عل فيه مايقيمها ويقيم من تعول من طفل او يتيمة يوما او بعض يوم . وهن كذلك يلقطن ماأعانهن القدر فاذا أمطرت الدنيا او انقضى موسم الغلال فلهن ولمن يعلن البؤس والويل



وكانت كل واحدة مقعية كما يقعى الكلب وتنبش التراب باظافرها آملة أن تجد فيه حبة من ذرة

أى سواد لحظ الانسان كهذا السواد ؟ ! هو أسود من تلك الوجوه الشقية والظهور العارية والشعر الفاحم فى تجعده والتفافه ذلك منظر دونه كل ما رأيت من مناظر الفاقة والبؤس . دونه هاتيك المتسولات يرتجين عطف كريم ؛ أو يامـلن ان تمس توجعاتهن قلبا مكلوما يفرج حزنه سخاء . هو بؤس النفس التى تعف عن السؤال وترى فى غايات الشقاء مع العمل نعمة الرفعة عن مسألة اللئام بل عن مسألة الكرام .

حدثت بعض المقيمين بالخرطوم بهـذا وبمثله مما شهدت فيها فاذبل ما كان لها من صورة فى نفسى . وجاهدت لاجد لذلك كله عذرا . فالخرطوم بلد جديد ؛ دخله الجيش المصرى ومن معه من فرق انكليزية سنة ١٨٩٨ ، فالفاه خرابا يبابا . ومن ذلك التاريخ اقيمت المدينة كلها بما فيها من معسكرات ومنازل وشوارع وطرق . رسمت يوم رسمت على صورة الراية البريطانية لتكون مثلا للنظام الانكليزى الهادىء المطمئن . وغرست الاشجار فيها فنبت ما نبت منها واعيد غرس ما مات . والمدن كالاشجار لها حياة غير الصورة الظاهرة وغير حياة الجسم الذى يتشابه مع اجسام الغير فى اكثر مظاهره . لها حياة الروح المستمدة من تاريخها ومما مر بها من محن وآلام ؛ ومن مسرات واعياد . وهذه السنون ليست كافية لتبعث الى مدينة من المدن حياة الروح ولتجعل منها ما يحدث النازل اليها بمعان تحدث بها المدن القديمة التى شهدت من غير التاريخ وعبره ما ترك على كل جدار من جدرانها وحجر من حجارتها صحفا ناطقة بمختلف الصور والمعانى . فللخرطوم العذر ؛ وهى بعد بلد حديث ؛ اذا هى لم تحدثك بمكنون حياتها وبدت لك كما تبدو للعين الدمية صنعها الصانع على مثال غيرها من الدمى ولم يكلمها الوقت بجراحه فيجعل لها معنى وقيمة؛ ولها الى جانب ذلك من الاعذار ما فيها من بعض الجمال انما أعد لمتاع الحاكمين وذوى الامر فيها مما لا تزال مظاهره لذلك قاصرة على الحى الذى فيه يقيمون .

فكان جواب بعض من تحدثت اليهم بما احسست به وبما المست للخرطوم من عذر ان قالوا ان فيما اقص عليهم شيئا من الحق كثيرا وفيه من الغلو كذلك شيء كثير . فالخرطوم بلد حديث حقا . وليس بين سكانه من التجانس ما يجعل فيه وحدة الروح التى تقيم الحياة . ففيه الانجليز والسوريون والمصريون والاروام والسودانيون . وليس بين هؤلاء جميعا من الاختلاط ما يخلق روحا جماعية ترفرف على البلد كله ؛ بل لكل جماعة فوامها القومي والجنسى والديني واللغوى وسوارع لبلدعلى سعتها لم تنظم بعد النظام الذى يجعل ساكن اوروبا وساكن مصر يراها بالعين التى كان يظن ان سيراها بها . واحياء البلد ثلاثة . أولها الواقع على النيل الازرق مباشرة وهو اجملها واكثرها نظاما ؛ لا يقطنه من غير الانكليز الا السير السيد على الميرغني باشا . فله فيها قصره وله امام قصره ساقية بمائها الجارى . وثانيها مقام غير الانكليز من الموظفين ومقام بعض الانكليز الاصغر وبه تجارة الاروام والسوريين وما فى البلد من دواعى المسرة . وثالثها مقام اهالى البلاد وبه الجامع وميدانه حيث يقام مولد النبى . وبه ما سبق ان اشرت اليه من مظاهر البؤس والفاقة . لكن للخرطوم على الرغم من ذلك كله جمالا وللحياة فيها روعة لمن عرف معنى الحياة وروعتها

ولعل الانكليز اول من عرف كيف يجعل للحياة فى الخرطوم معنى وروعة منذ نزولها . فقد اقاموا لكل منهم منزلا بما تحتمله كلمة منزل الانجليز

من المعنى . جعلوا فيه حديقة وملعبا للتنس ومقاما للطيور . وجاء كل واحد فى بيته من الحيوانات والطيور الاليفة او التي يسهل تألفها كالغزال والببغاء بكل ما تحتاج اليه لملء اوقات فراغه من غير ملال بل بغبطة ولذة . وقد وجد كل انكليزى من « منزله » الكامل الاداة ما يعوض عليه مشقات العمل فى هذا الجو الشديد الحرارة فى فصل الربيع وما يتسلى به عن

وحدته وبعده عن بلاده . ثم لم يكفهم هذا فخلقوا ملاعب لهم يلعبون فيها كرة القدم كما اقاموا خارج المدينة ميدانا لسباق الخيل . ومتى تمت للانجليزى معدات الرياضة كمل له نصف نعم الحياة . وهو واجد فى بيته غير ما فيه من معدات الرياضة سكينة وطمأنينة . فأما ما بقى بعد ذلك من لذة الجماعة والتحدث الى الاخرين فميسر للانكليزى فى ناديه بالخرطوم يذهب اليه كل مساء يقضى فيه شطرا غير قليل من وقته .

وقد اخذ غير الانكليز مأخذ الانكليز ونهجوا نهجهم . فلكثير من الموظفين السوريين والمصريين فى منازلهم ملاعب للتنس وانواع شتى من التسلية .

قالت سيدة سورية لها فى الخرطوم ثلاث سنوات : لقد شعرت شعورك لاول ما نزلت الخرطوم . فلم يعجبنى قفرها وصمتها الموحش . لكنى لم البث على ذلك الا قليلا . وما لبثت ان وجدت فى منزلى وماحوله من حديقة وملعب وطير او حيوان سلوى حببت الى الخرطوم وجعلتنى ارى فيها متاعا وروعة

ولا ريب فى احتواء ما يقولون على جانب من الحق كبير . فالبيت يشغل من حياة الانسان رجلا او امرأة حظا عظيما . فيه لمن عرف كيف يعيش فيه نعمة وسعادة. وليس البيت هذا الطابق الضيق فى احدى العمارات المشيدة يحيط بساكنه عن اليمين وعن الشمال واعلاه واسفل منه من يرى ضرورة المحافظة على سكينتهم كى يحافظوا على سكينته ، ثم هو لا يجد بعد فى هذا الطابق ما يعينه على مرحه ورياضته . انما البيت الذى فيه النعمة والسعادة هو ما اتسع لحديقة وملعب وكفل لصاحبه سداد ما يحتاج اليه وما يشتهيه. وما اكثر ما تكفل بيوت الخرطوم هذه الحاجات

ويذهب المقيمون بالخرطوم فى تحبيذ مدينتهم الى أكثر من هذا ، فهم يسألونك الا ترى هذا الشارع الجميل الممتد على شاطىء النيل الازرق ما بين سراى الحاكم العام وحديقة الحيوانات

والواصل الى المقرن ؟ الا ترى المبانى على جانبه تحيط بها خضرة الزرع الناضر وقد قامت فيها الاشجار باسقة فاشتملت اكثر المنازل حتى لتكاد تحسب القصر المنيف كوسجا فى ظلال حديقه ؟ وفى هذا الشارع يقوم فندق (الجراند) وهو يضارع أبهى فنادق العواصم العامرة بنظامه وظرفه وبالحديقة الغناء الواسعة المحيطة به . وحديقة الحيوانات الى جانبه فيها مسرح للعين ونزهة للخاطر بما تحتوى من ضوار وكواسر ومن طير ووحش وغزال . ثم ان بالخرطوم من اماكن التجارة مالا تطمع فيه مدينة فى حجمها وعدد سكانها : فيها متاجر واسعة يرد اليها كل ماينتجه العالم المتمدن من انواع الصناعة ومواد الترف ؛ وبعض هذه المتاجر كبير الى حد يكاد ينافس معه أماكن التجارة الكبيرة بالقاهرة . وما عليك الا ان تزور السوق لترى فيها محلا لدافبس براين ينافسه محل لفانيان الارمنى ، ولترى كذلك محلا لكباتو الرومى ولمرهج السورى ولترى غير هذه من الاماكن مالا تابى مصر القاهرة أن تنافس به مدائن العالم .

وليس للغريب النازل بالخرطوم أن ينعى عليها عدم توفر المجتمعات العامة بها . ففيها قهوات وبارات ومطاعم . ولئن كان هذا كله قليلا بكل غير ماهول فلان سكان المدينة قليلون لايزيدون عن ثلاثين الفا ولان أهلها اعتادوا عيش التولى يجتمع الى كل ناد من اتفقوا جنسا ولغه ودينا ؛ فليس بهم الى هذه المجتمعات من حاجه .

وفى هذا الذى يقوله سكان الخرطوم جانب من الحق غير قليل . وفيه مايدل على أن النظرة الاولى لهذه المدينة الجديدة المختلطة تسرف فى الانتقاص منها والجنايه عليها . لكن هذه النظرة الاولى تحتوى من الحق هى الاخرى جانبا غير قليل . فهذا النوع الذى يصفو لك من الطمانينه والسكينة قاصر على جماعة الموظفين والقائمين بأمر الحكم . ولئن كان اكثر المقيمين بالخرطوم موظفين وكان من بها من تجار ينتمى كل منهم الى طائفة يجد فى الانتماء لها متاعه فانت لاتكاد تشعر فى

الخرطوم بحياة المدنية غنى ماتألفها فى العواصم التى تجمع الموظفين والتجار وأرباب الصناعة والفن والعلم وماتنشئه هذه الحياه من جو فكرى تنبعث فيه الاراء المختلفة متآزرة مرة متضاربة أخرى عاملة دائما للسير بالانسانية المحيطة بها فى سبيل الرقى والتقدم

وهذا طبيعى ان كان السودانيون قليلين فى الخرطوم جد القلة ، وكانت حياة الطائفة الراقية منهم متصلة بالحكومة اتصالا له من الصبغة السياسية اكثر مما له من اية صبغة اخرى . ذلك بان ام درمان ما تزال للسودانيين هى المأوى وهى الملجأ . اليها تحن قلوبهم لانها عاصمة اسلافهم وان كانوا لا يملكون الدفاع عنها لتكون عاصمة الجميع وملجأهم ومأواهم .

هذه الصورة الخاصة بالخرطوم ترجع على ما ذكرنا الى انها مدينة جديدة لما يمض خمسون سنة على عمارتها للمرة الاخيرة . والى انها بنيت هذه المرة الاخيرة لسد حاجات المستعمرين ولتقدم اليهم مايستطاع من مواد النعمة والترف ومن اجل ذلك لايستطيع النازل بالخرطوم ان يرى بها مايكشف له عن معنى الحياة الوطنية فى هذه الربوع المترامية الاطراف . وانت اذا أردت أن تعرف شيئا من معنى هذه الحياة فلا سبيل لك الا أن تقصد الى الديم حيث تقوم « تكلات » السودانيين المبنيه من الطين والقائمة فى « ديم » الوطنيين ترى شبهه الحياة السودانية المحيطة بالخرطوم .

و « الديم » يبعد عن الخرطوم مدى غير قليل . وهو يعيد الى ذاكرتك حين تراه صور « العزب » القديمة التى يقطنها « التملية » والمستأجرون فى ارياف مصر . والديم كالعزب القديمة لامنافذ لمنازله المكونة من غرف ارضية بابها هو الفتحة الوحيدة فيها . منه يدخل الهواء والنور والشمس كما يدخل الناس والدواب .

ولما كانت الخرطوم مقام المستعمرين ومن احاط بهم من التجار الاروام والسوريين ومن لاذ بهم من بعض السودانيين فالحياة فيها اقرب للحياة الغربية فى كثير من مظاهرها . وانك لترى

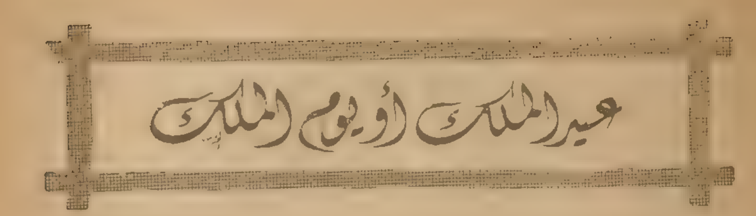


وعلق على صدور أعيان السودان الصالحين أوسمة صيغ أكثرها صلبانا ماكانوا ليرضوا أن تمسها أيديهم لولا أنها تحمل معنى الشرف والتقدير

متاجرها متسعة على طراز المتاجر الاوروبية كما ترى اكثر التجار فيها اشد بالاوروبيين اتصالا . وفى سبيل هذه الحياة الغربية يرضى المقيمون بالخرطوم ان يجعلوا للحوم والفواكه والخضر المحفوظة فى علب الصفيح والزنك حظا كبيرا فى قوام حياتهم، برغم ما يمكن ان يعترض به اولو العلم فى شؤون الصحة على هذه الاطعمة المحفوظة ، وبرغم ارتفاع اثمان هذه المواد التى ترد الى الخرطوم من بلاد بعيدة. لكن لاهل الخرطوم فى انخفاض اثمان الحاجيات الاخرى التى تنمو وتربى فى البلاد نفسها مايعوضهم بعض الشيء عن غلاء أثمان الواردات وما يخفف بعض الشيء كذلك من الاعتراضات الصحية التى يطعن بها على الاطعمة المحفوظة . فالغنم والديكة الرومية وكلاهما طعام صالح شهى رخيصة غاية الرخص . فريال يكفى ثمنا « لاوزى » لذيذ او لديك رومى أكثر منه لذة . ويرى بعض اخواننا المصريين المقيمين بالخرطوم والمتفننين فى الطعام ان الديكة الرومية تحتاج بعد ان تشترى بهذا الثمن البخس الى زمن تقيمه بالمنزل لتسمن وتلذ . لكن الاكثرين يرونها لذيذة من غير حاجة الى هذه العنايه .

اما الخضر والفاكهة فنادرة جد الندرة فى الخرطوم وفى السودان جميعا حتى لتنقطع فى بعض الفصول انقطاعا تاما وحتى لترى الوارد منها من الخارج تتخاطفه الايدى قبل ان يصل الى الاسواق . ولذلك كانت اللحوم الغذاء الاساسى للمقيمين هناك ؛ وكان لها عليهم من الاثر مانهم على اكلة اللحوم لولا حضارة أشربتها دماؤهم أجيالا طويلة فلا تستطيع شهور أو سنوات أن تقتلعها من طبائعهم اقتلاعا .

على أن الخرطوم تمتاز مع ذلك كله بانها مقر حكومة ذات نشاط عظيم . فاذا كانت مدينة تنقصها حياة المدنية وينقصها تاريخ المدائن فهى مستقر نشاط كبير للموظفين من اجناسهم المختلفة، وهى لذلك أكثر شبها بالمعمل Laboratoire وهذه الصورة منها تستحق أن تكون موضوع بحث مستقل وعناية خاصة .



اثر تتويج صاحب الجلالة جورج الخامس ملكا على انكلترا فى أواخر سنه ١٩١١ سافر على عادة اسلافه ليتوج امبراطورا للهند . وفيما هو فى طريق عودته مر بالسودان وزار الخرطوم فى ١٧ يناير سنة ١٩١٢ . وقد اعتبرت حكومة السودان هذه الزيارة بمثابة تتويج لجلالته امبراطورا للسودان واعتبرت يوم ١٧ يناير يوم عيد رسمى كأنه عيد جلوس جلالته على عرش السودان . ففى هذا التاريخ من كل عام يرسل حاكم السودان العام برقية الى جلالته بالنيابة عن أهالى السودان يعرب لجلالته فيها عن تعلقهم بعرشه واخلاصهم له فيرد جلالته شاكرا أهالى السودان مظهرا حرصه وحرص جلالة الملكة على رغد السودان وتقدمه . وفى هذا التاريخ من كل عام تقفل دور الحكومة وتزين الخرطوم بزينة العيد ويقيم الحاكم العام بسرايه حفلة شائقة توزع فيها الاوسمة التى تنعم بها حكومة ملك انكلترا على رعاياها من أهل السودان اعترافا بولائهم وتقديرا لاخلاصهم ولما يقومون به من جليل الخدمة للسودان وللامبراطوريه

وصادف أن كان يوم ١٧ يناير سنة ١٩٢٦ يوم أحد ، فتأجل الاحتفال بعيد الملك الى يوم الاثنين بعده . ولما كان مندوب انكلترا السامى لمصر والسودان قادما لافتتاح خزان سنار فقد جعلت حفلة هذا العيد التى تقام فى سراى الحاكم العام تحت اشرافه ورعايته . يوزع هو فيها ماتنعم به الحكومة البريطانية من الاوسمة ويقوم من المراسم بما تقضى به هذه الرعاية .

وسراى الحاكم العام جديرة بان تقام فيها مثل هذه الحفلة

وما هو أفخم منها . فقد أقيمت على أثر فتح السودان فى أواخر عام ١٨٩٨ حيث كانت تقوم السراى التى قتل دراويش المهدى فيها غردون باشا والتى كانت مقر حاكم السودان من قبل مصر . وقد روعى فى اقامتها مايجب لها من العظمة والفخامة. وهى تطل بمبانيها على النيل الازرق ؛ ولها عنده بابها البحرى. وتطل من الجهة القبلية على منتزه واسع الارجاء مترامى الانحاء بديع النظام يقوم فى آخره الباب القبلى المؤدى الى شارع فكتوريا فالى محطة الخرطوم .

وانت اذا دخلت الى السراى من جانب النيل الازرق قابلك لاول تخطيك الباب دهليز تتصل به غرفة انتظار من ناحية وتتصل به من الاخرى غرف عديدة متداخلة أعدت لموظفى الحكومة المتصلين بالسراى . وجدران هذا الدهليز مزينة كلها بعدة الحرب والته . فمنها قبعات وحراب مختلفة اللون والشكل ، لكنها جميعا قبعات الفرق الانكليزيه وحرابها . وعلى الجدران رايات الفرسان الانكليزية . فاذا انت تخطيت الدهليز وجدت افقيا عليه دهليزا اخر طويلا يمتد من الجانبين الى ناحيتى السراى الشرقيه والغربية . ويطل هذا الدهليز الافقى على ساحة يقوم على جانبيها جناحان خصص احدهما للحاكم العام واهله وجعل الاخر لضيوفه . والدهاليز والغرف والاجنحة كلها بادية الفخامة والمهابة . ومن فوق السراى يرفرف العلمان المصرى والانكليزى

اما حديقة السراى او الاحرى متنزهها فقد فرشت ارضه بسندس الجازون والحشائش الصغيرة وقامت فى جوانبه وفى اواسطه اشجار باسقة كأن ورقها فى هذا الفصل الذى يذبل فيه ورق الشجر فى مصر ويتعرى من كل ورق فى اوربا اخضر ذا رواء وبهجة. ولا عجب ، فاجمل ايام السنة فى الخرطوم هى ما يقابل ايام الشتاء . وما بالك بطقس نهاره نهار الربيع وليله اخريات الصيف وكل ما فيه من مظاهر الحياة بسام بديع الابتسام .

اصبحت الخرطوم يوم الاثنين اذن فى لباس العيد . كانت الرايات والاعلام ترفرف فى شارع فكتوريا وفى مقدمة بعض الحوانيت والمتاجر . وكان الحاكم العام قد دعا الى حفلة شاى تقام فى سرايه بعد ظهر ذلك اليوم عددا يزيد على الثمانمائة من بينهم مائة وعشرة من اعيان السودانيين ورؤساء القبائل والعشائر فيهامن لا يقيمون بالخرطوم كما دعا اعيان السودانيين بالخرطوم ودعا كبار الموظفين وكل ذى مكانة من غير السودانيين . وبهؤلاء وبزينة العيد خرجت المدينة من صمتها الموحش بعض الشيء . وكان اعيان السودانيين فى جببهم الحمراء والزرقاء المطرزة بالذهب وبسيوفهم المموهة اغمدها بالذهب كذلك اكثر ما خلع على منظر العيد بهجة وزينة .

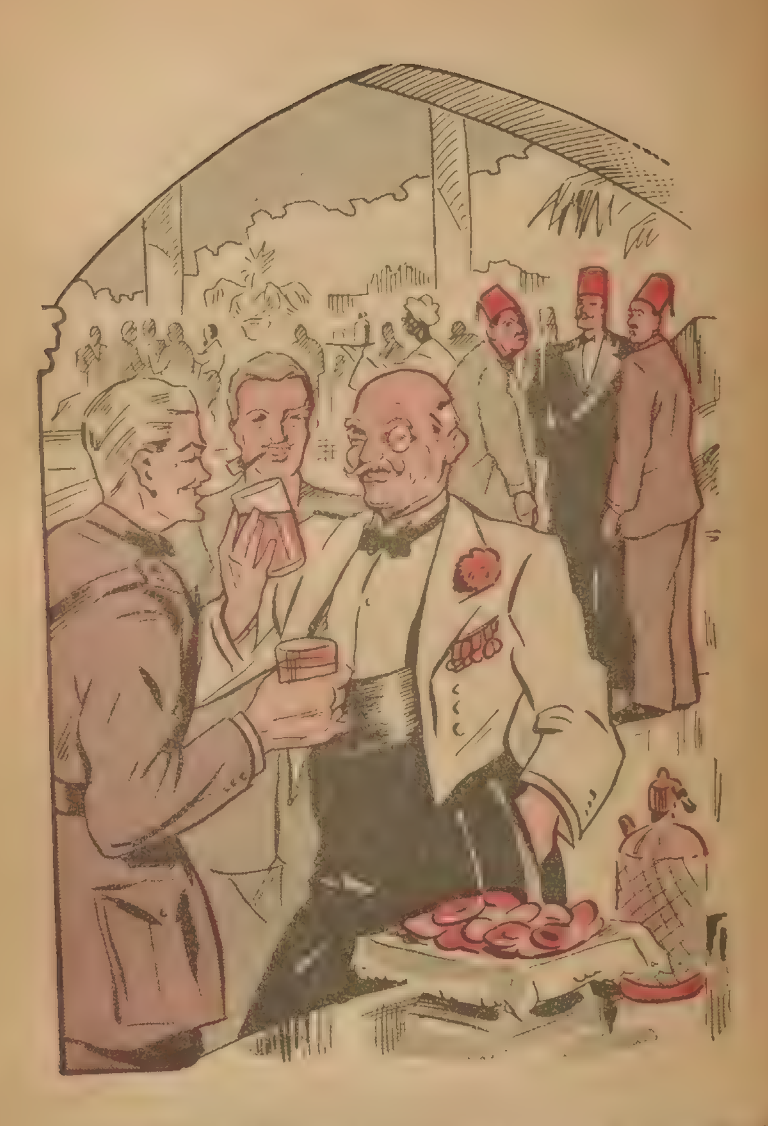
فى الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم استقبل الحاكم العام وقليل من رجاله اللورد لويد مندوب انكلترا السامى الذى وصل ساعتئذ محطة الخرطوم قادما من مصر ثم قصد واياه سرايه . ولم يكن فى انتظاره بالسراى غير عشرة من اكابر اعيان السودان صافحهم المندوب السامى وقرينته ثم صعدا الى غرفهما .

ولما كانت الساعة الرابعة قد حددت موعدا لحفلة الشاى حيث يقدم المندوب السامى اوسمة الشرف لاربابها هرع المدعوون الى سراى الحاكم العام ، حوالى هذه الساعة ، ومنهم جماعة « الرسميين » ارتدوا ملابسهم الرسمية وتقلدوا نياشينهم وأوسمتهم ، ومنهم اعيان السودان تقلدوا فوق عباءاتهم الحمراء او الكحلية المطرزة بالقصب الذهب وسيوفهم الموشاة الاغماد بوشى الذهب والفضة ، ومنهم غير الرسميين وغير اعيان السودان من ذهبوا فى ملابس كل يوم . وبذلك كانت حديقة السراى معرضا لاكثر ما يمكن ان يتصوره الخيال من لازياء تباينا واختلافا . فكنت ترى الردنجوت والطربوش يلبسه الموظفون فى الحكومة المصريه من المصريين والانكليز وقد حلى كثيرون منهم صدورهم بالنياشين المصريه . وكنت ترى ملابس

موظفى حكومة السودان المدنيين اتخـذت من القماش الابيض وفصلت على صورة « الجاكت » والعمامة والقفطان والجبة ترداها الموظفون الشرعيون كالقضـاة والمفتى وواحد او اثنـان غير هؤلاء . والفـراك او البنجور ومعها القبعة العالية على بعض اعيان السوريين او الاروام من التجار والمقيمين بالسـودان . وجبب حكومة السودان الرسمية على اعيان السودان . وبين هذا الجمع المتقمش بأردية المقابلة عدد كبير فى الزى العادى على مختلف اشكاله والوانه .

تزاحمت هذه الازياء المختلفة المناقضة المجتمعة فى هذا المكان وجعلت تتدافع نحو سـاحة السراى . ذلك ان الحاكم العام والمندوب السـامى جلسا الى منضدة فوق هذه الساحة وجلس حولهما ضيوفهما . كذلك جلس عدد كبير من الموظفين والاعيان الذين تقرر الانعام عليهم بالاوسمة الى جانب من الساحة المحاطـة بداربزون والمرتفعة فـوق ارض الحديقة بدرجات . وكان الحاكم العام قد وقف يتلو البرقية التى ارسل بها جلالة ملك انكلـترا بالنيـابة عن اهالى السـودان ورد جلالة الملك جورج عليها . فلما اتم تلاوته وترجمها فضيلة مفتى السودان وزع المنـدوب السامى الاوسمه على اربابها . ومشاهـدة ذلك كـله هى التى ادت الى ذلك التدافع بالمناكب بين كل تلك الازياء .

لذلك ما كادت هذه المراسم تنتهى حتى انفرط عقد المناكب المتراصـة وانقلب مـدها نحو ساحة السراى جزرا فى انحـاء الحديقة الواسعة . ونزل المنعم عليهم من عليتهم وانخرطوا فى سلك المدعوين تميزهـم اوسمتهم . واحدث نزولهم الى الناس شيئا من الحركه سببها اسراع الناس اليهـم يهنئونهم بمـا حازوا من ثقة عاليـة . فـكانت الايـدى تتصافح والشفاه تبتسم وحدق عيون المنعم عليهـم يلمع بمعانى الغبطة والرضا وتنخفض جفونهم احيانا فى صورة التواضع والحياء مما تبتهج به آذانهم من عبارات تقـديـر المهنئين وتمنياتهـم « الخالصة » لهم دوام الرفعـة ومثوبة رضا الحاكم . على ان نظر الغـريب عن الديار كـان



كان الانجليز فرحين ، أما المصريون فكان يخالجهم شعور الاسف وتأنيب الضمير

يسترعيه ما علق على صدور اعيان السودان الصالحين من اوسمة صبغ اكثرها صلبانا ماكانوا ليرضوا ان تمسها ايديهم لولا ما لها من معنى التقدير والتشريف . ثم ازداد العقد انفراطا وقصد كل الى مائدة من موائد الشاى المبعثرة على نظام ظريف فى انحاء المنتزه الجميل

كان اهل السودان فى ازيائهم المطرزة اكبر استرعاء للنظر من كل من سواهم . ذلك بانهم اهل البلاد وروح هذا الجو الصحو الذى يظلنا . على ان استرعاءهم النظر الاكثر كان راجعا لغرابة ازيائهم وحدها اكثر منه الى معنى نفسانى خاص . اما استرعاؤهم بمعناه النفسى والمعنى الخاص فلذلك معنى نفسانى يحتاج الى كثير التأمل والتعجب . فبين الغربى والسودانى من الفوارق فى اللون والشكل واللغة والدين والعادات والتقاليد ما يجعل السودانى عند الاوربى غريبا تبعده عنه سحنته السمراء ويبعده عنه تركيبه عن اسلافه ما ينطوى عليه روحه ونفسه الشخصية من هواجس يبعد عنها تقديره لعجيبة وغرابة منبته ونبعه نفسها . اما الشرقى فيدرك غير قليل من هذه الهواجس الدخيلة لانه يشارك السودانى فيها كما يشاركه فى اصل جنسه وفى نفسه وتقاليده . واما ابن النيل فيسترعى السودانى نظره كما يسترعى نظرك قريب او اخ غاب عنك سنين طوالا فاذا رأيته ورأيت ملامحه وقربه شعرت بين جوانحك بشوق وحنين وحادثك عينك بهؤلاء الابناء والاقارب الذى يجرى فى عروقهم الدم الذى يجرى فى عروقك وتلذعهم الالام التى تلذعك وتنبض قلوبهم بالامال التى تنبض بها قلبك

احاط بعض موائد الشاى جماعة من هؤلاء الاعيان من اهالى السودان . وكان معى صديق سودانى عرفته يوم زرت الخرطوم له بكل هؤلاء الاعيان صلة ومعرفة . فسار واياى يحدث بينى وبينهم من التعارف ما يسمح به المقام . ولقد شعرت واحسبهم شعروا اثناء هذا التعارف القصير باحساس الاحتياط والحذر الذى لاحظته على اخواننا المصريين من قابلونا

في حلفا وفي العطبرة وفي الخرطوم فلم يزد ماتبادلنا وجماعة أعيان السودان في حديقة سراى السير جوفرى ارشر حاكم السودان العام على عبارات التحية البسيطة وربما كانت هذه مبالغة في الحذر لايقتضيها الموقف . لكنى كنت من ضيوف حاكم السودان العام فكان واجبا ان ارعى لهذه الضيافة كل حقوقها .

وجلست الى مائدة جلس اليها السيد احمد الميرغنى وفضيلة مفتى السودان وجماعة آخرون كانوا كلهم مثال الرقة وحسن الضيافة . وفيما نحن جلوس اقبل السير السيد على الميرغنى باشا فقام الجمع تحية له واجلالا واقبل كل من الحاضرين عليه يقبل يده . وجلس الى جانبى فى وقار وهيبة وفيما هو جالس كان أعيان السودان يقبلون عليه وينحنون على يده يقبلونها ظاهرها وباطنها ويرجونه الرضى عنهم وحسن الدعاء لهم . وكانوا كذلك يقبلون يد أخيه السيد احمد . لكنى اشهد انى مارايت أيمانا كهذا الذى رايته مرتسما على وجوه هؤلاء الناس باديا فى نظراتهم متجليا فى كل حركاتهم حين اقبالهم مسرعين فى خشوع واجلال يقبلون يد السيد على وينظرون من طرف كسير نظره كله الايمان والاجلال ورجاء الرضى وحسن الدعاء . ومن هؤلاء الاعيان شبان تلوح عليهم مظاهر القوه والاعتداد بالنفس ، ومنهم كهول وشيوخ نرى على عوارضهم من الشيب بياضا فى سواد ، ولكل من هؤلاء الشبان والشيوخ سلطان على من يدينون له من القبائل والعشائر لكنه يتقدم بهذا السلطان امام السيد على وهو مؤمن بأن كلمة الرضى من لدنه أقوى من كل سلطان .

وللسيد الميرغنى احترام خاص لمكانته هذه عند النازلين فى السودان من كل الاجناس والطوائف . ويزيد فى هذا الاحترام ماله من صفات تملى على من يتصل به اكباره وحسن تقديره . وهو نحيف قصير القوام دقيق تقاطيع الوجه تنم عيناه ببريقهما الشديد عن كثير من الذكاء والدهاء وتطوق ثغره العربى الرقيق الشفتين ابتسامة دائمة تجعل محياه الجذاب دائم الاشراق . وتعلو جبينه قلنسوة

اقرب فى صورتها الى القلبق التركى القديم الذى كان يلبسه انور باشا وان لم تكن سوداء مثله بل اجتمعت عليها صنوف من الوان سوداء ومذهبة متوازية متقاطعة . وبحط بالقلنسوة عمامة يصعب تحديد لونها لكن تمامع لون العمامة انساقا وتجاوبا حسنا . اما قفطانه وجبته فعلى صورة ما يلبسه شيوخنا مع شىء كبير من الاحتشام فى ألوانها .

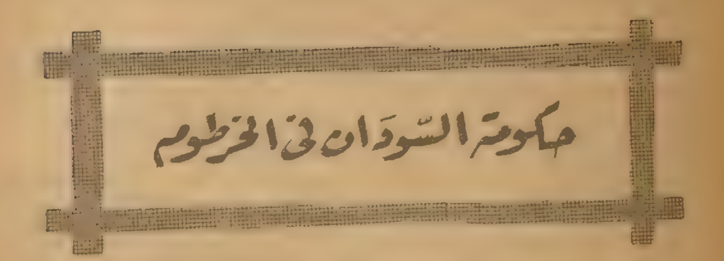
ومع ما كان باديا من الحبور والبهجة على المنعم عليهم بالاوسمة والرتب من اعيان السودان وموظفى حكومته فلا ريب أن اسعد من كانت علائم الغبطة بادية عليهم فى هذه الحفلة هم الانكليز سواء منهم من كانوا فى حكومة السودان ومن كانوا ضيوفا او سائحين اما المصريون فكان يخالج نفوسهم شعور مبهم يختلط فيه الاسف بالالم بتأنيب الضمير . وكنت تراهم يسير كل منهم منفردا اكثر الوقت وينظر الى ما حوله بعين الغريب الحائر . ولم يشذ اثنان من الباشوات المصريين نزلا ضيوفا بسراى الحاكم العام عن هذه القاعدة .

وحوالى منتصف الساعة السادسة نزل لورد ولادى لويد من ساحة السراى الى الحديقة ومعهما حاكم السودان العام وبعض الموظفين . وجعل اللورد وقرينته يطوفان بالحاضرين عموما وأهل السودان خصوصا يتعارفون بهم ويصافحونهم يدا بيد . قال صديق :

— ان كل شىء ياصاح مستحب مادام فيه خدمة للامبراطورية ولادى لويد على رقتها واتصالها بالعائلة المالكة فى انكلترا تسعد بمصافحة ثمانمائة يد مادام فى ذلك للامبراطورية سعادة وعظمة

كانت الشمس قد انحدرت الى المغيب فبدأ الناس ينصرفون جماعات بعضها اثر بعض . وانصرفت ومن معى ميممين أحد الأندية ونحن نذكر عيد الملك يقام فى الخرطوم تذكارا لمرور جلالة ملك انكلترا بها وفيما نحن فى حديثنا حانت التفاتة من أحدنا الى أعلى سراى الحاكم فرد طرفه الينا وقال :

— على كل حال فما يزال العلم المصرى خفاقا الى جانب العلم البريطانى فوق السراى . وفى هذا لنا بعض العزاء عن أن يكون لملك مصر فى الخرطوم عيد كعيد ملك انكلترا .



فى مقدمة كتاب لورد كرومر المعنون « عباس الثانى » عبارة يحسن الوقوف عليها لحسن تقدير وسائل السياسة البريطانية فى بلوغ غاياتها وحسن ادراك ما تبديه حكومة السودان فى الوقت الحاضر من مظاهر النشاط . قال اللورد :

« ان حجر الزاوية فى سياسة مصر والسودان ان نضع محل الاعتبار ان ليس ثمة رابطة بين الحاكم والمحكوم عند انعدام روابط الجنس واللغة والدين والعادات الاجتماعية الا المصالح المادية . وأعظم هذه المصالح خطرا ماكان متعلقا بالاعباء المالية .. لذلك تدعونا كل الظروف السياسية الى ان نخضع جميع الاعتبارات الى ضرورة عامة هى الحرص على تخفيض الضرائب وعلى المسئولين عن ادارة مصر والسودان ان يعتمدوا على انفسهم فى تنفيذ سياستهم على القاعدة المشار اليها . فقليل من يعضدهم فى هذه السياسة ذلك بان الاقتصاد ليس امرا مرضيا عند الناس . وكثير من يوجه اليهم جرح النقد . وهم لا يستطيعون الاعتماد الى حد كبير على تأييد الراى العام المصرى او البريطانى . فالانجليز يميلون عادة الى الاخذ بما سبق الاخذ به فى انكلترا من اعمال وتجارب . وقد تزايدت نفقات الدولة عندهم اخيرا الى حد كبير ونقلت الاعباء العامة الملقاة على عاتقهم الى حد كانوا يحسبونه مستحيلا منذ وقت قريب . وكان من اثر ذلك أن ساء تقدير الراى العام للاقتصاد وان تبلد الشعور القومى الى حد ما بإزاء ادارة الشئون المالية فى البلاد الخاضعة لانكلترا .

« ولن ينفك كثير من كبار الساسة الانكليز ولن تنفك الصحافه القويه السلطان عن مواصله جهودهم فى الحث على انهاض التعليم ونشره فى مصر اذ يرونه الاساس الاول لبناء الحكم الذاتى . اما انا فلا اظن ان مثل ما يلقى فى المدارس والكليات من تعليم كان ليعد المصريين يوما للحكم انفسهم مما لم يحوروا طابعهم القومى مما لا يتم الا تدريجا . وهذه ليست قضية البحث الان . فانما اريد ان ابحث فى نفقات التعليم وان ابين سوء الراى فى التوسع فيه الى حد فرض ضرائب باهظة .

« وثمت هجمات من نوع اخرى يجب صدها . فقد يميل الادارى الغيور . الذى يقدر ما يستطيع القيام به من خير ، فى زياده الطرق والكبارى والمستشفيات وسائر معدات المدنية الحديثة ثم يجهل ، مع الحاجه . النتائج البعيدة التى تترتب على ما تحتاج اليه سرعة تحقيق هذه المشروعات من طائل النفقات

« لذلك يحسن بالساسة المسئولين عن شئون مصر والسودان ، بالغا ما بلغ تلهفهم على هذه المشروعات حين مجرد النظر الى مزاياها . ان يبعدوا عن الساسة الخياليين ابتعادهم عن رجال الادارة فى الدواوين . وان يرجئوا ما يستدعى طائل النفقات من تلك المشروعات التى تستهويهم حتى يثقوا بأن موارد الدولة تحتملها دون ان يثقلوا كاهل الجمهور بالضرائب . ليشجعوا انتشار التعليم وخصوصا التعليم الصناعى وتعليم الاناث . وليشجعوا كذلك المشروعات العامه وغيرها من اسباب التقدم على ان يكون هذا التشجيع بمقدار لا يفضى الالتجاء الى فرض ضرائب جديدة ثقيلة » .

ليس بين الحاكم والمحكوم ، عند انعدام روابط الجنس واللغة والدين والعادات ، غير الرابطة المادية . هذه كلمه لورد كرومر التى تلخص كل ما جاء فى العبارة التى نقلناها بل التى تلخص الى حد كبير سياسة انكلترا فى مستعمراتها وفى البلاد التابعة لها ، وهى التى تجمع هذه السياسة الاستعمارية البريطانية

امتيازا وتفوقا على غيرها من سياسة الدول الاستعمارية الاخرى . فليس من اغراض السياسة البريطانية الاساسية ان تنشر الثقافة الانجلوسكسونية فى البلاد التى تحكمها . وليس من غرضها ان تنشر فيها مبادئ الثورة الفرنسية ولا ان تحمى فيها الهيئات الدينية المسيحية . كل ذلك قد يحدث بطبيعة فى النفوذ الانكليزى . لكنه ليس غرضا اساسيا مقصودا لذاته . انما الغرض الاساسى هو تلك الروابط المادية بين انكلترا وسائر اجزاء الامبراطورية . ولتكون هذه الروابط متينة مأمونة العواقب يجب ان لا تكون فائدتها لانكلترا وحدها . بل يجب ان تشعر البلاد المحكومة بان لها من ورائها فائدة ملموسة . ومن مظاهرها نقص النفقات العامة نقصا يترتب عليه تخفيض الضرائب وزيادة رفاهية المحكومين زيادة تشعرهم بالطمأنينة الى حاكميهم .

وقد اتبعت هذه السياسة فى مصر بدقة تامة مدة وجود لورد كرومر بها . ويمكن ان يقال انها اتبعت الى مستهل الحرب العالمية الاولى .. لكن هذه الحرب ادت الى انقلاب كان من ورائه ان غير المصريون من طابعهم القومى على ما ورد فى عبارة لورد كرومر .. وكان من وراء ذلك ان اعلن استقلال مصر . اما السودان وحكومته فى الخرطوم فما تزال السياسة الجارية فيه هى هذه السياسة التى رسمها لورد كرومر فى كلمته السابقة .

فمع ان كثيرين من المقيمين بالخرطوم يشكون من فداحة الضرائب التى يؤدونها ، والتى تبلغ ربع قيمة ريع المبانى القائمة بها ، تعمل حكومة السودان على ان تكون الضرائب فى سائر انحاء البلاد مخففة حتى لا يشعر اهل السودان بثقلها . وليس يضير السياسة البريطانية ان تكون ضرائب الخرطوم فادحة واكثر المقيمين فى الخرطوم ، كما رأيت من قبل ، ليسوا سودانيين ، بل اكثرهم موظفون وتجار من المصريين والسوريين والاروام وغيرهم . وهؤلاء لا شىء من الخطر فى ان تمس

الحكومة بتخفيض الضرائب التى يدفعونها وتكفيهم أن تعنى بتوفير
كل أسباب الراحة والطمأنينة لهم . وتخفيض الضرائب بالنسبة
لأهالى السودان أنفسهم موضع عناية دائمة . وقد عهد بها وبنظام
أعباء السودان المالية وميزانية ايراداته ومصروفاته الى لورد
ستمر أحد اكابر الاقتصاديين والماليين الانكليز . وبرغم ما ابداه
من حين الى آخر ترك هذا المنصب الشاق فان رجاء حكومة السودان
اياه ان يبقى لمصلحة السودان ولمصلحة الامبراطورية كان أكبر
على نفسه اثرا من ميله الخاص فبقى بالخرطوم ينفق أكثر بكثير
من المرتب الضخم الذى يتقاضاه راضيا بالحياة فى هذه البلاد
القاسية ليخدم الامبراطورية ويخدم السودان معها .

وتخفيف عبء الضرائب يترتب عليه نقص فى ايراد الخزانة العامة
فاذا لم يقابل هذا النقص بموارد اخرى تدر ضرائب مباشرة او غير
مباشرة تعذر على الحكومة القيام بواجبها . وميزانية السودان تزداد
عاما بعد عام بسبب الموارد الجديدة التى ما فتئت حكومة السودان
تسعى لتحقيقها لتحقيق استقلال السودان عما كان من قبل فى حاجة
اليه وما كانت مصر تؤديه له . وقد يدهشك أن تكون زيادة
السكان من بين هذه الموارد الجديدة . كما ان زيادة نشاط
السكان من بين هذه الموارد ايضا . وهذان الازديادان عنيت حكومة
السودان منذ زمن بعيد بتوفيرهما من طريق توفير اسباب الصحة
فى البلاد . فقد كانت حمى الملاريا تعيث بالسودانيين فتكا ذريعا
وما يصحبها من أسباب الضعف وما تزال هذه الحمى منتشرة فى
بعض انحاء السودان . لكن الحكومة قاومتها فى مناطق كثيرة
مقاومة شديدة انتهت ابادتها فى هذه المناطق ابادة تامة . وما تزال
الحرب المعلنة على الملاريا دائبة وما تزال حكومة السودان تعمل
على مطاردتها لمضاعفة عدد السكان ولمضاعفة نشاطهم .

كذلك عنيت الحكومة بمحاربة الزهرى المنتشر فى السودان
انتشارا مروعا والذى يجنى على الاعقاب جنايته على الجيل الحاضر
وانك لتعجب أشد الاعجاب بما تبدى الحكومة من نشاط وعناية

فى هذا السبيل . فهى تعالج المرضى بأجر زهيد الى حد يجعله فى حكم المجان . تنشر الدعوة لهذا العلاج فى طول البلاد وعرضها بمختلف الوسائل . وأطباء الحكومة من السوريين وغير السوريين المنتشرين فى أقاصى هذه البلاد الشاسعة يعاونون الحكومة المركزية بالخرطوم فى هذه المجهودات خير معونة .

ومن طريق زيادة السكان وزيادة نشاطهم ترجو الحكومة أن تجد اليد العاملة بمقدار كاف لنشر زراعة القطن فى البلاد . فملايين الافدنة فى الجزيرة الواقعة بين النيلين الازرق والابيض صالحة لانتاج القطن كما أن أراضى واسعة أخرى صالحة لانتاجه . واذا كانت التجارب التى تمت فى الجزيرة الى اليوم قد أسفرت عن نقص تدريجى فى المحصول بسبب الآفات التى تصيبه حتى أصبح الفدان الذى كان ينتج أول زرعة خمسة قناطير ونصف القنطار من صنف السكلاريدس لا ينتج الا قنطارين وربع القنطار بعد اربع أو خمس سنين من زراعته فان شركة الجزيرة وحكومة السودان تأملان التغلب على هذه الآفات بالوسائل العلمية . ومتى كان ذلك ممكنا فمشكلة اليد العاملة هى المشكلة الكبرى . والتغلب عليها لايكون الا بزيادة السكان وزيادة نشاطهم

ومسألة آفات القطن هى الآن من المسائل التى تستنفد من حكومة السودان عناية كبرى . وقد تخصص للبحث فى هذه الافات وعلاجها اربعة عشر عالما نباتيا من خير علماء الانجليز فى هذا الامر يقيمون بالخرطوم كما أن فى لندرة جمعية علمية نباتية تتضامن وهؤلاء العلماء فى عملهم وابحاثهم . فاذا نجح هؤلاء فى مقاومة آفة القطن نجاح قلم الصحة فى مقاومة الملاريا والزهرى كفلت الحكومة محصولا وافرا من القطن يحقق الى حد كبير ماترمى السياسة الامبراطورية اليه من رغد السودانيين وفائدة انجلترا فائدة كبرى .

وفى انتظار تحقيق هذه الغايات تعمل الحكومة لاكثار الماشية وجعلها من مواد التصدير ذات الايراد كما تعمل لترويج حاصلات السودان ترويجا يتفق ومصلحة انجلترا

ولكى تكون هــذه المجهودات منتجة يجب ان يكون الامن شاملا البلاد وان تكون فى سلم بعضها مع بعض . وهذا هو موضــع عناية الحكومة الادارى . وهى فى سبيله لاتلاقى من المشــقات ماتلاقيه حكومة مقيدة بأنظمــة خاصة ترمى الى حمــاية حرية الافراد فى صورها المختلفــة . فنظام الاحكام العرفية مايزال هو النظام السائد فى السودان وكلمة الحاكم العام هى الكلمــة العليا النافذة

❊ ❊ ❊

ويبــدو فى مصالح حكــومة السودان المختلفة نشاط كبير . فأول مانزلنا الخرطوم فى الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم السبت دعا مــدير المخابرات — وهــو كمــدير الامن العــام فى مصر — الصحفيين الى اجتمــاع عنــده الساعة السادسة . وذهبت فى الموعد بعد ان اجتازت السيارة بى شوارع تربة ، وصعدت فى بناء قليل الارتفاع قليل الوجاهة ولهابه على سلم ضيق من حجر الجبل حتى انتهيت الى غرفــة المــدير . فالفيت الصــحفيين جالسين على مقاعد ادركت لاول ما رايتها انها احضرت خصيصا لهذه الغاية وان المكان ليس به مقــاعد غير مقعــد المدير . وكان هناك رئيس مصلحة السفريات فلما انتظم عقــدنا شرح مــدير المخــابرات برنامج ايامنــا فى الخرطوم وبرنامج حفلة افتتاح الخزان . فيوم الاحد مرخــص من عناء السفر وليستمتع كل به مساء . ويوم الاثنين عيد الملك والصحفيون مدعوون فيه لحضور حفــلة الشاى . ويوم الثــلاثاء لاعمل فيه . أما الاربعــاء ففى مسائه يسافر الجميع الى مكوار حيث يحضرون الحفلة ليعودوا الى الخرطوم صباح الجمعة . ويوم الاحد يسافرون قافلين الى حلفا فالقاهرة .

على ان الغرض من الاجتماع عنــد مــدير المخابرات لم يكن مجرد معرفة البرنامج ، بل كان لنتفــاهم على طريقــة ارســال البرقيات من مكوار ومن بركات ، من غير ان يرتبك الخط بكثرتها ،

ومن غير ان يرتبك الصحفيون اذا اضطروا الى الذهاب لمكاتب التلغراف والى دفع الاجور . وانتهى الحال بالاتفاق على ان تعطى الخطب التى ستلقى فى الاحتفال ظهر الاربعاء على ان لاتذاع الا بعد القائها ظهر الخميس . وكان ذلك ميسرا باعطاء الاشارة الى مصلحة التلغرافات فى القاهرة وفى لندره كى لاتوزع الخطب الا بعد صدور اوامر اخرى . واتفق كذلك على ان يرسل كل مندوب من مندوبى الصحافة عددا معينا من الكلمات لايتعداه حتى لايزدحم الخط وتتأخر الرسائل ، وعلى ان يدفع كل صحفى رسوم تلغرافه فلا يضطر الى الذهاب بنفسه الى مكتب التلغراف فى الكوار وبوكات بل ترسل هذه المكاتب بمندوب من قبلها يتلقى التلغرافات من الصحفيين

وفى صباح اليوم التالى ذهبت الى رئيس مصلحة التلغرافات لادفع التأمين ولاتمم الاتفاق على ما اتفقنا بحضرة مدير المخابرات عليه . وكان معى صحفى ذهب الى الغرفة التى ذهبت اليها ، فألفينا غرفة هذا الرئيس الانكليزى غاية فى البساطة ولم نجد عنده مانجلس عليه حتى اضطر لاستعارة مقاعد من الغرف المجاورة . وجرى بيننا الحديث ولم نبعد الغاية التى قصدنا اليه لقضائها ، وفى دقائق نادى اليه الموظفين المختصين فجاءوا لنا بالتذاكر الصحفية . وتسلموا مبلغ التأمين الذى أردنا دفعه وتركنا المكتب بعد دقائق معدودة . وعلى اثر خروجنا اخذ اصحاب المقاعد مقاعدهم .

ونزلنا من عندهم فمررنا برئيس مكتب بريد الخرطوم ، وهو مصرى من الاقباط له بالسودان اكثر من عشرين سنة ومع ماقابلنا به من البشر والحفاوة لم نجد عنده هو الآخر مقاعد نجلس اليها . ولما لم يكن لنا عنده عمل خاص استأذننا وظل منصرفا لعمله مكبا عليه . وسألناه عن ساعات العمل فاذا متوسطها فى اليوم بين ست وثمان . لكنها مع هذا الانكباب على العمل تكفل انجاز حظ منه عظيم .

وهذا النشاط تشهده في غير هذين من مصالح حكومة السودان . ولعل النظام العرفي الذى تخضع له هذه البلاد والذى يجعل كلمة الحاكم العام العليا فى كل شىء له اثره فى هذا النشاط الدائم . ولئن صح هذا لكان مصداقا لان المبادىء المطلقه لاوجود لها فى الحياة . فليس شىء خيرا مطلقا وليس شىء شرا مطلقا ؛ بل فى كل شىء من الخير والشر والنفع والضر نصيب . ومن استطاع ان تغلب جنب الخير فى شىء من الاشياء أو فى نظام من النظم وذلك النافع للحكم

على أن هذا النشاط الذى رأيت لايتعدى مايتخطى به الروابط المادية التى اشار اليها لوردكرومر فى كلمته التى صدرنا بها هذا الفصل . فكل ماسوى ادارة شؤون البلاد والعمل لزيادة انتاج اهلها لايظهر له فى حكومة السودان بالخرطوم أثر كبير . وقد رأيت فى العطبرة كيف تقف المدارس التابعة للحكومة عند تخريج صغار الموظفين ومن يقومون ببعض اعمال الدولة الحكومية كالكتابة والتلغراف . وكيف تقف مدرسة الامريكان عند تعليم الابناء بما لا يزيد عن مقياس السنة الثالثة الابتدائية . وعناية الحكومة الرئيسية فى الخرطوم بشؤون التعليم لاتتجاوز كثيرا هذا الذى رأيت عند العطبرة كثيرا . ففى الخرطوم حقا كلية غردون . وبها مدرسة للطب انشئت حديثا وبنيت على طراز كليات انكلترا لكن التعليم فى كلية غردون لايتعدى التعليم الثانوى على نظامه القديم وبرامجه القديمة فى مصر . أى انه لايتعدى أن يكون وسيلة لتخريج موظفين ارقى من الموظفين الذين تخرجهم مدارس العطبرة وغيرها من البلاد الاخرى فى السودان . ومدرسة الطب لاتزال مدرسة حديثة وطلبتها قليلون وما يزال نظام تعليمهم غير محدد ؛ وهو يجب أن يتفق مع السياسة العامة التى ترمى الى اقامة العلائق المادية الحسنة بين الحاكمين والمحكومين ليس غير

وقد يكون لحكومة السودان العذر اذا تشبثت بهذه السياسة فى السودان . فالسودان بلاد واسعة مترامية الاطراف واهلها مايزالون على جانب من السذاجة عظيم . وميزانيتها لاتتجاوز الى اليوم خمسة ملايين برغم مابذل من العناية لتنظيمها وزيادة



وإذا غضبت الحكومة على أحد هؤلاء الزعماء استردت منه كسوته

ايراداتها . وما تزال طرق المواصلات فيها قليلة برغم سكة الحديد التى انشأها الجيش المصرى بين حلفا والخرطوم وبرغم المنشآت التى تمت بعد ذلك فوصلت مابين الخرطوم والابيض ومابين العطبرة وبور سودان وكسلا . وما لم توطد الحكومة أركان الامن فى البلاد وتشعر المحكومين بانها تجمع فى معاملتهم بين السلطان عليهم والبر بهم فليس يسيرا عليها أن تحقق مصلحة الامبراطورية ومصلحة السودان بالتبعية لها .

فأما شعور المحكومين بسلطان الحكومة عليهم فمظهره القوة المسلحة التى تغلبت على التعايشى وفتحت السودان واخضعت عصاته . ولئن كانت هذه القوة الاولى مصرية فالانكليز يعتقدون أن وجودهم على رئاستها يجعل أهل البلاد يعتقدون أنهم وحدهم هم أصحاب الكلمة سواء أبقيت هذه القوة فى البلاد ام اخرجت منها . وأما بر الحكومة فمن مظاهره ماقدمنا من عنايتها بالسكان وصحتهم ونشاطهم وتخفيضها الضرائب المباشرة عليهم ، كما أن من مظاهره هذه الالقاب وكسى التشريفة التى وقفت على شيء من أمرها يوم عيد الملك وقد روى لى كبير من الموظفين بحكومة السودان ان الحكومة اذا غضبت على احد هؤلاء الزعماء استردت منه كسوته

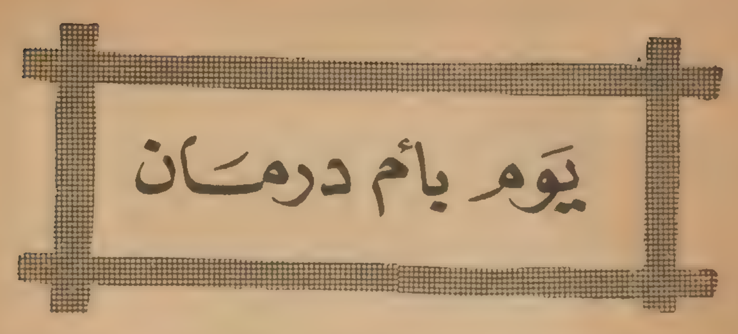
وليكون الناس اكثر شعورا ببر الحكومة بهم تنظم الحكومة الدعوة فى انحاء البلاد للاشادة بهذا البر ولتذكر الناس بما كانوا خاضعين له من قبل من الوان الاضطهاد وما كان ينتابهم فى الماضى من مظالم ومغارم وعلل ، ولما كانت الصحافة قليلة الجدوى فى بلاد قل فيها من يقرأ ويكتب كانت الدعوى الشفوية على لسان موظفى الحكومة والمتصلين بها من الذين يتكلمون لغة البلاد ، سواء منهم من كان من اهلها ومن كان اجنبيا عنها ، هى العمدة فى هذه الدعوة التى تساعد الى حد كبير على تاييد النظام والطمأنينة فى ربوع السودان . على ان بعض الدعاة يغلون فى دعوتهم الى غير حد . واذا صح ما سمعته من ان احدهم ينسب وجود مرض الزهرى فى السودان الى ايام دخول العرب فيه منذ قرون ماضية كان ذلك ادل مايكون على المبالغة والاغراق فيها .

فان هذا المرض - الذى يسميه كثير من اهل الريف فى مصر « بالافرنجى » اشارة الى دخوله مع الافرنج ايام الحملة الفرنسية فى اواخر القرن الثامن عشر - لم يعرف فى مصر ولا فى السودان قبل ذلك التاريخ . دع جانباً اغراق الدعاة فى تشويه الحكم المصرى فى السودان فهذا ماسمعته من كثير من كتاب الانكليز وخطبائهم فى انكلترا

على ان عدم جدوى الصحافة فى بلاد كالسودان لم يمنع حكومة السودان منذ الفتح من ان تشمل بعنايتها جريدة كانت من قبل ذات اتصال بجريدة المقطم فى مصر . تلك « حضارة السودان » . وقد ظلت هذه الجريدة متصلة بالمقطم الى ان اتجه نظر الحكومة الانكليزية لنزع السودان من نفوذ مصر . من حينئذ استقلت حضارة السودان وصارت متصلة بحكومة السودان وعهد بتحريرها الى واحد من اهالى السودان . الذين تعلموا فى الازهر .

وهذه خطوة فى تنفيذ السياسة البريطانية التى تقضى بأن تكون وظائف حكومة السودان للسودانيين قدر المستطاع وخطوة اخرى مثلها ان حرمت الحكومة على غير السودانيين الالتحاق بكلية غردون بعد ان كان المصريون والسوريون يلحقون بها . والغرض من ذلك ان يزداد عدد المتخرجين من هذه الكلية من اهالى البلاد لتسند اليهم الوظائف الصغيرة فى حكومة بلادهم . رغم ماكان من اخراج عدد كبير من الموظفين المصريين فما زال فى خدمة حكومة السودان عدد من المصريين أما السوريون فما زالوا فى خدمة حكومة السودان كما كانوا من قبل وما زالت الثقة بهم اكيده مطمئنة . وهم لاريب اهل لهذه الثقة لانهم يقومون بخدمة الحكومة القائمة خير قيام .. ولم لا وليست لهم ولا لبلادهم فى السودان مطالب سياسية تحرك منهم عصبا او عاطفة يخشى ان يكون لها فى السودان اثر

وهؤلاء الموظفون فى حكومة السودان من السوريين والمصريين ينفذون السياسة التى يرسمها هؤلاء الرؤساء بذمة ودقة . وهذه السياسة تتلخص فى تحسين العلاقات المادية بين الحاكمين والمحكومين . وهى من غير نزاع خير سياسة يمكن اتباعها فى بلاد لا تجمع الحاكم والمحكوم فيها رابطة من جنس او لغة او دين



يوم بأم درمان

قمت مبكرا فبصرت باشعة الشمس تطل من خلال النافذة المقفلة طول الليل وكانها يد ام رؤوم تملس على ابنها بحنان وعطف كى توقظه من نومه . وسمعت وما ازال ناعما بدفء الغطاء اصوات العصافير فى حديقة الفندق وكلها البهجة بمشرق الشمس ويعود النهار والنور . وجاء الخادم بالشاى والبسكوت فطلبت اليه ان يحضر طعام الافطار بالغرفة حتى لا اضيع الوقت وكى أدرك وصديقى ترام الخرطوم الذى يقوم فى منتصف الساعة التاسعة قاصدا المقرن لتقلنا الباخرة بعد ذلك عبر النيل الى شواطىء ام درمان

وكنا عند المقرن حوالى الساعة التاسعة . وانتقلنا من الترام الى الباخرة وانتقل معنا كثيرون من السائحين ومع بعضهم عربة اتوا بها ليطوفوا ام درمان فيها ، كما انتقلت مع جماعة من الاهالى الحمر والدواب . وظل هؤلاء فى الطابق الاسفل بينما صعد الذين يدفعون اجر الدرجة الاولى الى الطابق الاعلى . وتحركت الباخرة على هون وفى هداة وسكون بعد ما انقضى ما كان لصفيرها قبيل تحركها من زفير فى الهواء وشهيق

واستدارت الباخرة فاذا أم درمان ما تزال فى الحجب واذا اكثر المسافرين يوجهون ابصارهم صوب الخرطوم يطمع كل منهم فى ان يشملها جميعا بنظرة واحدة وتبدى الشارع الممتد على شاطىء النيل الازرق قامت عليه الاشجار الضخمة مكللة الهام بخضرة زاهية ، كما تبدت من ورائه بعض مبانى الخرطوم وطرقها كأنها صوامع نساك نثرت فى الصحراء على مقربة من واحة ذات خصب

ونماء . وظلت الباخرة تستدير ازاء جزيرة توتى زهاء ساعة حتى اذا قاربنا الشاطىء وجه المسافرون ابصارهم صوب عاصمة الدراويش ... الا ان للذين يعجبون بالخرطوم لعذرا فهذه المدينة القديمة لا يزين شاطىء نيلها الابيض ما يزين شاطىء نيل الخرطوم الازرق من شجر . بل يقع النظر عند مرسى الباخرة على رمال صحراوية انت مضطر كى تتخطاها الى ان تغوص اقدامك فيها . فاذا جزتها بعد جهد وبلغت تراما هو لترام الخرطوم صنو توأم صادفت عينك من المساكن والمبانى ما يزور عنه بصرك لحقارته وقذارته . لكنك تشعر كلما سار الترام وتغلغل فى المدينة انك فى مدينة سودانية حقا ، وترى بعد برهة ان المبانى الواقعة عند المورد عنوان سىء لام درمان ؛ وان فيها مثل ما فى الخرطوم من المنازل والمتاجر والمناظر وان لم يكن فيها ما فى مقر حكومة السودان من اضواء الكهرباء ومن مظاهر المدنية التى اقامها الحاكمون فى مقر حكمهم للترفيه عن نفسهم ولتتيسر لهم الحياة فى جو وفى بيئة وفى وسط لم يألفوها .

نزلنا من الترام عند متجر مصرى من أهل أسوان عرفناه فى الخرطوم . ولست اغلو ان انا قلت ان هذا المتجر وبعض المتاجر الواقعة الى جانبه اجمل وادعى للاحترام من اكثر متاجر الخرطوم . على أن ذلك ليس عجبا وصاحبه يتصل بلانكشير مباشرة وعنده فى مصر تجارة كبرى . وقد قابلنا بالترحاب وسألنا ان كنا نشرب « الجبنة » والجبنة قهوة اهل السودان . وانتظرت لارى اى نوع من القهوة يصنع هؤلاء الذين ما زالوا يعيشون عيش البداوة . واستعرضت اثناء انتظارى صنوف القهوة الساخنة والباردة مما يصنع فى مصر وفى اوربا . فنحن فى مصر نطحن البن ونضعه فى الماء الى ان يغلى ثم نشربه ، اما فى اوربا فيدقون البن حتى يتكسر ثم يصبون الماء الغالى فى مصفاة وضع فيها البن كى يمر الماء به وينال خيره وكنت افكر فى هذا حين جاءت « الجبنة » . افتدرى ما هى ؟ وعاء كروى من الفخار له فوهة ضيقة طويلة يوضع البن

فيه بعد ان يدق حتى يتكسر ويغلى بعد ذلك فى الماء ثم تغطى فوهة الجبنه بقطعة من ليف النخل كى تحجب البن المدقوق كما تحجبه مصفاة الفضة او المعدن حين يصفى الماء . وهذه هى قهوة اهل السودان : أرأيت .. هى اذن كقهوة الاوربيين سواء بسواء لا فرق بينهما الا فى الاناء التى تصنع فيه . واذن فقد تتفق ارقى صور الحضارة مع ابسط صور البداوة ثم لا يكون بينهما فرق الا فى الصورة والمظهر . ويكون هذا المظهر وحده هو الذى يخول لاصحابه حق حكم الاخرين والتحدث عليهم .

وقمت وصاحبى ارود عاصمة الدراويش لارى بلدا سودانيا بالفعل . ما اكبر الفرق بينها وبين الخرطوم ! .. ان بها لازقة ضيقه تنفر الخرطوم وشوارعها الواسعة من ضيقها ، وان بها من الصناعات الوطنية البسيطة ما لا يتفق ومظاهر النظام الانكليزى . وكل ما استحدث فيها من اسواق كبيرة ومن بعض شوارع وطرق واسعة لم يغير سحنتها كمدينة سودانيه . انظر الى الزقاق الضيق المسقوف بالواح من الخشب والذى يعيد الى ذهنك منظر الخيمية والفحامين بالقاهرة .. هذا هو مقام صناع المراكيب السودانية . وصناع المراكيب السودانيه لا يستوردون الجلد مدبوغا ولا يلجأون فى دباغته الى احدث الوسائل العلمية . بل هم يكتفون اكثر الامر بالقائه فى الشمس حتى تجففه لظاها . ومن الجلد الذى لم يجف بعد ماهو ملقى امام دكاكين اهل هذه الصناعة . وانظر الى ذلك الشارع الكبير عنوان المدينة . اليس يحيى ذكرى شارع النحاسين فى اواخر القرن الماضى فهؤلاء العطارون قد برزت دكاكينهم فى الشارع وجلس كل واحد منهم فى هيبة ووقار كأنما هو قاضى الشريعة . وهذا دكان جوهرى ما تكاد ترى فيه جوهرة واحدة وان رأيت بعض انية دقيقه وصاحبه فيه جالس وكانه احد يهود الصاغة . ثم قف الان قليلا فمتع نظريك بصناعة وطنية تجذب السائحين من الافرنج وغير الافرنج اليها . هذه صناعة العاج . فهذا سن فيل قد جوف ورسمت فيه فيلة



وكان جواب العجوز الذى اهتز السودان من عماله .
لم يعودوا يجمعوننى الا بتسعين بلحة !

تصغر واحداً بعد الاخر كلما قربت من ناحية السن الدقيقة.
وهذه زخارف ظريفة من العاج مموهة بالذهب او بالفضة .
لكن هذه الصناعة الوطنية الظريفة الثمينة ما تزال متأخرة
عن مثلها فى مصر تأخرا كثيرا . وما تزال توضع فى دكاكين
لا سبيل لمقارنتها بمثل متاجر الخرطوم . دعك الى جانب هذا
من كثيرمن مظاهر البؤس والفاقة مماجئنا على وصف بعض منه
عند اسواق الخرطوم وعند مخازن حبوب سكة الحديد ..
مع هذا كله فام درمان مدينة لها حياة المدنية . وفى هذه الازقة
والطرق والشوارع معابد تحدث عن اجيال واجيال. ولهذه المبانى
القديمة الغير المنتظمة تاريخ ،عدم انتظامها اول شاهد عليه .
كلا ! ليست ام درمان عزبة اومزرعة لمالك خططها كما شاء له
هواه ، ولكنها قدس لقبور كدست فوق قبور . وهل فى
غير القبور حياة وحضارة ؟ بل انك لترى نفسك وانت امام
فضاء عظيم فيها لا يفصل بينه وبين الطريق الا حاجز منخفض
من بناء ، قد شعرت بشىء من الجلال يملأ نفسك ومن الهيبة
تفيض بها جوانحك . ذلك حين تقف امام جامع المهدى حيث
يوجد اثر قبره . فهذا الجامع ليس كغيره من المساجد . ليس
كمسجد الخرطوم ومسجد ام درمان وامثالهما مما ترى فى بلاد
المسلمين طرا . بل هو فضاء منبطح ما تكاد تحيط العين به فى
نظرة لعظيم سعته ، وليس بينه وبين الطريق الا اسوار بلغ من
قلة ارتفاعها انها لا تحجب ارض الفضاء الذى تحيط به عن عين
الواقف على مقربة منها . لكنه جامع المهدى . وبحسبك ان
يذكر هذا الاسم حتى يمتلىء هذا الفضاء امامك بالصور والمعانى
وحتى ترى بعين بصيرتك جيلا كاملا من اهل هذه الاصقاع وقد
حشد فى هذا المكان وخر ساعة الصلاة ساجدا مؤمنا بان امامه
ومالكه رسول الله أو خليفة رسوله او هو الذى تجسد
لهدى الناس وخلاصهم . اجل .. ففى هذا الفضاء جمع
المهدى اهل السودان جميعا جيلا بل اجيالا . وفى أم درمان كانت
مئات الالوف مما زاد على المليون وعلى المليونين احيانا ، وكلهم
يؤمن بالمهدى ويرى فيه روح القدس . وما يزال هذا الفضاء

فضاء كما كان . ولئن دنسته اقدام لا تؤمن قلوب اربابها بقداسة المهدى مثل ذلك الايمان القديم فالشمس التى طلعت على المهدى وعباده ما تزال تطلع فتبعث من اشعتها ما يحيى امام الخيال كل هذا المنظر القوى الحى منظر المؤمنين اشد الايمان المتعصبين اشد التعصب، يحيطون بمعبودهم يجلونه ويقدسونه

على ان رجلا من الذين عمروا هذا الفضاء ايام كان يدوى باسم المهدى وكان له فيه يومئذ شان يذكر ما يزال حيا يرزق . ذلك هو عثمان دقنه . فقد كان هذا الرجل قائدا ينشر دعوة المهدى فى شرق السودان بينما كان المهدى ما يزال فى الابيض وما تزال دراويشه بعيدة عن الخرطوم وعن ام درمان . فلما استتب له الامر بعدما اضطر المصريون بمشورة الانكليز الى التخلى عن السودان كان عثمان دقنه فى طلائع قواته وقواده . ولما اعيد فتح السودان بقيادة السردار كتشنر بعد ثلاثة عشر عاما من وفاة المهدى قبض على عثمان دقنه اذ كان أمره قد استفحل وشوكته قد قويت . وظل هذا الرجل فى السجن وكانت حكومة السودان قد اذنت له فى اداء فريضة الحج فسافر مع شاب من اقربائه يريد بيت الله الحرام راجيا ان يقضى بمكة ما بقى من ايامه . فلما نشبت الحرب بين سلطان نجد وملك الحجاز عاد ادراجه الى السودان وردته الحكومة فيه الى معتقله . وهو قد بلغ اليوم من الكبر عتيا . وانك لتشفق على رجل مثله تحدرت به الشيخوخة الى احلام الطفولة من جديد حين تسمع ما كان من قصته مع السردار ستاك باشا حين زاره عام ١٩٢٤ ، فلما سأله عن شانه وما يمكن ان يشكو منه وما يمكن ان يشتهى كان جواب العجوز المتهدم الذى اهتز السودان من اعماله واعمال رجاله سنين تباعا : لست اشكو الا من شىء واحد . ذلك انهم كانوا يجيئوننى من بلح التمر كل يوم بأربعين ومائة بلحة . اما الان فلم يعودوا يجيئوننى الا بتسعين . هذا كان كل همه وتلك كانت شكواه . وفى عد التمر الذى

يؤتى له به كل يوم كان يقضي وقته . وسال السردار فى هذا الامر الخطير فعلم انهم كانوا يجيئون له بتمر صغير ثم رأوا هذا التمر الكبير خيرا له . قال السردار اعيدوا اليه بلحاته الصغار كما كانت اربعين ومائة ولا تكلفوا عقله واعصابه كل هذا الاجهاد الذى شكا اليوم بسببه.

هذه البقية من عثمان دقنه ؛ هذا الطلل الذى يندب التمرات التسعين بعدما كان صاحبه فى الشباب لا يعرف غير البطش والثورة هو الان خافت كذلك الفضاء الصامت اليوم بعد ان كان اسم الله واسم المهدى يدويان فيه كل يوم دوى الرعد وبعد ان كان له ما للرعد من نذر السماء

فاذا انت جاوزت هذا الفضاء المتلىء بصور الماضي وسرت فى طريقك متجها الى وسط ام درمان رايت عن يمينك مسجد ام درمان الذى شيد كما شيد مسجد الخرطوم على طراز حديث ولما يشهد من عبر التاريخ ما يحدث به وهو ابن عصرك ومن عمارة اقرانك

* * *

وام درمان بلدة سودانية . صحيح انك ترى فيها بعض ماترى فى الخرطوم من متاجر للسوريين وللمصريين ولجماعة من الاوربيين لكن هذه المتاجر ليست قوام حياة ام درمان ، بينما هى قوام حياة الخرطوم . ثم انت ترى ابدا الى جانبها مظاهر نشاط السودانيين انفسهم . بل انت ترى على هذه المتاجر مسحة من معنى السودان لا تراها على متاجر عاصمة السودان . فاذا اوغلت قليلا فى قلب البلد رايت الحياة السودانية بكل معانيها . ورايت شيئا عجبا . فالسودانيون فى هذه الحياة السودانية ليسوا كأمثالهم فى جو الخرطوم . فقراء الخرطوم من السودانيين تبدو عليهم وحشة الفاقة والمها وبؤسها اما فقراء ام درمان فلا يأبون ابتسامة للحياة تسفر عن اسنانهم البيضاء الناصعة . ولعل السر فى ذلك ان هؤلاء يلتئمون مع جو بلادهم فليس

بينهم وبين ما حولهم من الناس والكائنات مثل ما بين اولئك وما ينعم به الحكام من اسباب الرغد والرفاهية . او لعله الشعور بالحرية ان ليس بينهم وبين الحكام من الروابط القريبة ما يجعلهم دائمى الاحساس بمراقبتهم اياهم مراقبة ضيقة . على كل حال فان السودانيين والسودانيات هنا اكثر مرحا واشد بالحياة اغتباطا . مررنا بسودانيات تبيع (الرهط) فوقف صاحبى يساومهن . والرهط لباس الفتيات يأتزرن به ما دمن ابكارا . وهو حزام من جلد يبلغ عرضه قيراطين او ثلاثة قراريط ، تتدلى منه خيوط رفيعة من الجلد ايضا وهى كثيره كثيفة ، فاذا شدت الفتاة حزام الرهط على خصرها سترتها هذه الخيوط حتى ركبتها وليس يحضرنى للرهط شبه فيما تقع عليه عين اهل الحضارة الالباس بعض الراقصات فى الاوبرا وغيرها من المسارح الكبرى . غير ان بينه وبين لباس الراقصة ما بين (الجبنة) واناء القهوة الفرنسية من فرق . فاذا تزوجت البكر السودانية خلعت الرهط واتزرت بالقماش مكانه .

وقف صاحبى يساوم بائعات الرهط ويسائلهن ما بال هذا الرهط احمر مصبوغ وذلك الآخر على لونه الطبيعى ؟ فابتسمت الفقيرة السودانية ابتسامة قانعة وجاهدت لتفهمنا واجتهدنا لنفهم أن هذا المصبوغ احط فى صنف جلده من الآخر وهو لذلك اقل منه ثمنا . ولتزيدنا اقتناعا تناولت من تحت مقعدها جلدين احدهما ارق من الآخر حالا وهو الذى يصبغ لتوارى الصباغة سوآته ثم أمسكت بيمناها نصلا لسكين قديم ولفت بعض الجلد على ابهام قدمها وشدته اليها بيسرى يديها وارادت أن ترينا كيف تصنع خيوط الرهط المتدلية من حزامه . كل ذلك من غير أن تفارق فاها ابتسامته الناطقة باطمأنينة لشظف العيش بل لبؤس الحياه .

قال صاحب من السوريين المقيمين فى ام درمان كان معنا : ليت الحظ يتيح لكم ان تشهدوا حفل زواج هنا . كنتم فيه ترون صورة ظريفة من صور الحياة السودانية . وكنتم تدهشون مما فيه من شبه بالحفلات الاوربية مع اسراف فى التقدم والتبريز على

الاوربيين ففى هذا الحفل يجتمع بنات الطبقة التى منها العروس فيرقصن ويغنين . ثم يتقدم الخطيب الى عروسه يراقصها وهى اذ ذاك عارية لا يسترها الا هذا الرهط الذى ترون . فاذا تم دور الرقص امسك بيده سبعا من خيوط الرهط فجذبها جذبة واحدة . فان اقتلعها فهذا الرجل الذى تفخر به عروسه . أما أن عجز عن اقتلاعها فله ولها العار والخجل . وكثيرا ما يترتب على العجز من جانبه فسخ الزواج .

قال صاحبى الذى جاء واياى من الخرطوم :

— وما نزع خيوط الرهط الى جانب نزوح شبان حمر الهنود ؟ فلست أذكر أين قرأت عنهم أن الشبان الذين يريدون الزواج يحضرون الى حلقة تقف حولها بنات القبيلة ثم يتقدم كل شاب الى من ينزع ما حول أحد ضلوعه من اللحم ويمر حول الضلع حلقة من حديد يشد اليها حبل متين يربط بعد ذلك الى شجرة او نحوها . وبعد ذلك يتراجع الفتى للوراء بكل قوته حتى ينكسر ضلعه وتخرج من صدره حلقة الحديد وأى الشبان كان أكثر احتمالا للألم حتى تمام هذه العملية القاسية فله أن يختار من بنات القبيلة من شاء . أما هنا فما أحسب جذب خيوط الرهط السبع وانتزاعها الا ايذانا بأن أيام الرهط انتهت وآن للفتاة أن تكون امرأة .

ثم تابع السورى المقيم بأم درمان حديثه :

— لعلك لم تعد الحق فى شئ . فقد سمعت ان الفتيات كثيرا ما يحززن الخيوط السبع قبل رقصة العرس حتى لا تستعصى على الخطيب فلا يكون انتزاعه اياها الا وسيلة اعلان انخراط عرسه فى سلك النساء وخروجها من سلك البنات .

* * *

وتركنا السوق وصانعات الرهط وبائعاته وعدنا ادراجنا لتناول طعام الغداء عند تاجر سورى ظريف دعانا الى بيته . وبيت هذا التاجر مثل غيره من بيوت السودان صنع من اللبن او من « الجالوس » وجعلت نوافذه على الجهتين البحرية والقبلية لتغير الهواء الصحى فى السودان اذ يكون شماليا أحيانا وجنوبيا أحيانا

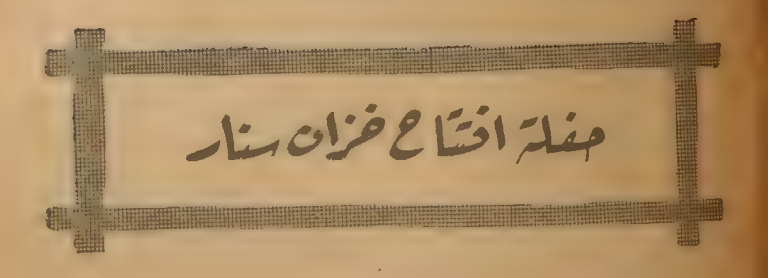


آه لو سعدت بمشاهدة حفلة عرس سوداني

اخرى . وبه فضاء غرس صاحبه فيه بعض الاشجار والزهور لتكون للعين بهجة وحين القيظ ظلا يتقي الانسان به لافح الهجير . وكان الى جانب هذه «الجنينة» الظريفة فضاء آخر متسع خصص لتربية الديكة الرومية وجدنا به حوالي الخمسين أو الستين منها حين درنا نرى البيت ومشتملاته .

ويعيش هذا التاجر في سعة من النعمة وينهل من صنوف المتاع المختلفة بما يرفه عنه الوحدة ويهون عليه العيش في بلاد نائية يبتغي الثروة كي يعود بها الى أهله ومسقط رأسه فيكون فيه موضع الاعزاز والاكرام . فعنده «فونوغراف» لطيف جمع له من مختلف «الاسطوانات» اشكالا وألوانا ، وفي ركابه نجار سوري يقيم بأم درمان هو الاخر ويتقن اللعب على الكمنجة اتقانا حسنا وكان معنا بين الذين دعوا الى الغداء سوري آخر جميل الصوت وانتظمت الحلقة وبلغت من البهجة أن نسي الانسان اين هو وان خيل اليه أنا في احدى بلاد سويسرا نتمتع من بديع جمال الطبيعة بخير ما يستمتع به الحس الظمىء الى معاني الجمال . فلما بدأت مولبات النهار تولى ذكرنا أنا مدعوون الى طعام العشاء عند احد معارفنا بالخرطوم فشكرنا صاحب الدعوة وسرنا حتى محطة الترام الذى أقلنا الى الباخرة فالى المقرن فالى دار صاحبنا

وترك هذا اليوم الذى قضيته بأم درمان في نفسي احسن الاثر . فقد رايت مدينة سودانية حقا . ورايت حياة سودانية يشعر اصحابها انهم في بلدهم وان الغريب عنهم نازل عندهم وانه في حمايتهم وهم ليسوا في حمايته شأن السودانيين المقيمين بالخرطوم . وهذه الحياة السودانية في أم درمان هي التى قضت على ماكان من محاولات للقضاء عليها كمدينة ولجعل الخرطوم كل شيء . بل أن من الناس من يعتقد أن الجسر الذى أنشىء الآن بين الخرطوم وام درمان سيزيد عمارة هذه المدينة وسيعيد اليها كثيرا من سلطانها ايام كانت عاصمة الدراويش . وما اظن واحدا من السودانيين الا يغتبط لهذا ويسر به . بل أحسب أن الذين شعروا حين مقامهم في السودان بانعطاف قلوبهم نحوه ليشعرون هذا الشعور ولهحفظون من أم درمان لا من الخرطوم ذكر السودان الصحيح



الاربعاء ٢٠ يناير سنة ١٩٢٦ الساعة الثامنة والدقيقة الاربعون مساء : القيام بالقطار المخصوص من الخرطوم الى مكوار لافتتاح خزان سنار رسميا

الخميس ٢١ يناير سنة ١٩٢٦ منتصف الساعة التاسعة صباحا: الوصول الى مكوار والى خزان سنار

الساعة الحادية عشرة صباحا حفلة الافتتاح

الساعة الرابعة بعد الظهر . مشاهدة وابورات الحليج ببركات

الجمعة ٢٢ يناير سنة ١٩٢٦ الساعة السابعة صباحا : الوصول الى الخرطوم عائدين بعد الحفلة

هذه هى مواعيد السفر للحفلة الرسمية التى سافرنا جميعا من مصر وسافر بعضنا من لندرة الى الخرطوم لحضورها . ولقد وزعت علينا منذ وصولنا الى الخرطوم كراسة فيها هذه المواعيد وغيرها مما تقتضيه تفاصيل الحفلة كما احتوت على سائر مواعيد حركاتنا بالخرطوم

واذ كنا ضيوف معالى حاكم السودان العام فقد عنيت حكومة السودان اثناء الرحلة كلها براحتنا . لكنها كانت أشد عناية اثناء السفر من الخرطوم الى سنار والعودة من سنار الى الخرطوم . فأرسلت الينا فى منتصف الساعة الثامنة من مساء الاربعاء ٢٠ يناير عربات كبيرة تنقل امتعتنا كما ارسلت سيارات فى الساعة الثامنة والربع كى نستقلها الى المحطة.

وما كدنا نصلها فى هذه الساعة التى أرخى فيها الليل سدوله على الوجود حتى الفينا جمعا كبيرا من الرجال والنساء لايتيسر تمييزه فى هذا الوقت . فلما آذن للقطار ان يتحرك فى الساعة الثامنة والدقيقة الاربعين ارتفعت اصوات هذا الجمع الحافل بزغاريد النساء وبشىء يشبه الهتاف من الرجال . واستمرت هذه الزغاريد زمنا طويلا كان القطار يسير فى اثنائها الهوينا مستديرا الى الشرق كى يحاذى النيل الازرق ويتبع شاطئه حتى يصل الى سنار

هذه الجموع الحافلة وهاتيك النساء المزغردة لاتعرف جمهرتها الكبرى شيئا من أمر خزان سنار . وربما اعتقد كثيرون ممن عرفوا عنه شيئا انه شر لهم لانه يحجز الماء فيما وراء ذلك البلد الثانى حجزا يحول دون فيضان النيل الازرق على حياض اراضيهم كما كان يفيض من قبل فيمنحهم الفرصة التى يزرعون فيها الذرة . لكن هؤلاء الرجال حشدوا لان حكومة السودان ارادت ان يحشدوا وهاتيك النساء زغردن لان حكومة السودان ارادت ان يزغردن . وهم جميعا واجبة عليهم طاعة اولى الامر . ولهم فى اهل مصر أسوة حسنة اذ يحشدون لغاية ولغير غاية فى مواطن كثيرة حسب ماتملى به اهواء الحكام وشهوات السياسة

وانطلق القطار يسرى فى دجى الليل ويخترق الظلمات وينهب الارض . وبتنا جماعة الصحفيين نشتغل بتلاوة الخطب التى وزعت علينا والتى اعدت ليلقيها لورد جورج مندوب انكلترا السامى وسر جوفرى أرشر حاكم السودان العام واسماعيل سرى باشا وزير الاشغال بمصر فى حفلة الغد . واضطررت انا لنقل خطاب حاكم السودان الى العربية اثناء سفر القطار لانه لم يكن قد ترجم . فلما أتممته جعل مكاتب التيمس يسألنى رأيى فيما حوته هذه الخطب وهو معجب بها ولها محبذ .

وقمت الى مرقدى قبيل منتصف الليل فلما أيقظنا الخادم لتناول شاى الصباح كان النور قد انتشر فى الارجاء وتبدت

من الجانبين سهول غامرة ظلت تحاذينا حتى وصلنا محطة سنار قبل الساعة السابعة . ثم تحرك القطار منها بطيئا الى مكوار على مقربة من الخزان والى جانب المكان الذى تقام فيه الحفلة الرسمية .

ماذا ارى ؟!! ... ماهذه الالوف المؤلفة من خلق الله اهل السودان ؟ وما هذه الطبول والزمور وما هذه الزغاريد تشق عنان الجو وما هذا العيد الذى لبس فيه أولئك السود الابيض الجديد ؟ وما هذه الاعلام المصرية والبريطانية يلعب بها نسيم الصبح العليل ؟ ما اظن اكبر مدن اية دولة من دول الحلفاء كنت مائجة بالناس يوم وضعت الحرب الكبرى أوزارها موج هذه البقعة المحيطة بترعة الجزيرة وخزانها ؟ .. أفحق ان أولئك كلهم جاءوا بباعث من نشوة الجذل والطرب يسعدون برؤية الماء ينزل فى ترعة الجزيرة ؟ ام انهم حشروا اليه كما حشر المزغردات والهاتفون فى الخرطوم ؟ وكما يحشر الناس فى مصر زمراً للقيا كبير او لتحية أمير .

قلت لاحد كبار الحكام فى حكومة السودان : انكم لاشد من حكومة مصر مهارة فى حشد الناس وحشرهم وابرع تمثيلا لما تريدون ان يكون احساسهم وشعورهم

قال وعلى ثغره ابتسامة جمعت الى التهكم الانتصار : لكنا لانحشرهم الا لمناسبة عظيمة كهذه المناسبة . أما فى مصر فما اكثر مايحشرون .

وقف القطار اذن عند مكان الحفلة فكان هذا المكان الى يساره . وكان خزان ترعة الجزيرة امامه ، وقد امتدت عليه وعلى الخزان كله قضب السكة الحديد التى ينتظر ان تمتد بعد ذلك الى كسلا . وكان مقررا ان يقوم القطار بنا فيتخطى الخزان كله وعرضه ثلاثة كيلومترات . لكنه كان يقوم بعد انتهاء الحفلة . لذلك فضلت ان اسير ولو الى منتصف الخزان راجلا كى احيط بشىء من امره خبراً . وأول ماتوسطت خزان

ترعة الجزيرة رأيت هذه الجموع التى ترى فى الصورة على شاطىء الترعة الايمن والايسر وقد اعتلى عدد كبير منها تلك الاكمة القاهرة . فما كنت ترى الا ملابس بيضاء ووجوها سودانية واقفة تحت الشمس فى صمت وسكون كانما انشقت ارض الاكمة عنها بعد ان كانت حبلى بها فبعثت خلقا جديدا .

وتخطيت ترعة الجزيرة فوق جسر الخزان ومضيت فى سيرى على الجسر فى امتداده عند الشاطىء الثانى للنيل الازرق . ويبلغ عرض خزان ترعة الجزيرة مائة متر وثمانية امتار ، يسير الجسر بعدها فوق ارض صلبة مدى اربعمائة وتسعة وثلاثين مترا ثم يمتد بعد ذلك فوق خزان احتياطى عرضه مائة وخمسون مترا ، يجىء بعدها خزان النيل الازرق نفسه وعرضه ستمائة متر وستة امتار يلتصق به خزان احتياطى ثان كالخزان الاول فى عرضه ، ويسير الجسر بعد ذلك فوق الارض الصلبة مائة وسبعة وثلاثين مترا اخرى .. وبذلك تصبح هذه الابعاد جميعا ثلاثة كيلو مترات وخمسة وعشرين مترا .

الى يمينك حين تخطيك الجسر من فوق ترعة الجزيرة الى تجاه شاطىء النيل الازرق الشرقى ترى خزان سنار حجز الماء عند ذلك الجسر الذى تسير عليه فجعل منه بحيرة واسعة ما يكاد يحيط بكل جوانبها نظر الرائى . وكان الماء يومئذ ازرق زرقة العقيق وزرقة السماء وكان الجو صحوا صافيا . فلما ابتعدت عن ضجة الوف من حضروا الى شاطىء الترعة وبلغت من الجسر فوق مجرى النيل الازرق وهبت على نسمات الصباح الرقيق ارسلت بناظرى أستطلع شيئا من خبر هذه البحيرة المتسعة الى يمينى . فلما عجزت عن الاستطلاع رددت الطرف يسرة فاذا ترعة الجزيرة تنتظر افتتاح الخزان ليرتفع الماء فيها ، واذا النيل الازرق فيما وراء الخزان محصور فى ستمائة متر بينما تتهادى مياه الخزان فى ثلاثة آلاف وخمسة وعشرين مترا واذا الفرق بين ارتفاع مياه الخزان وانخفاض مياه النيل الازرق

ياخذ بالنظر فعلا ويدعو الى شيء غير قليل من التفكير فى هذا العمل الهندسى العظيم وآثاره فى السودان وما قد يكون له من رد فعل على المياه اللازمة لمصر

فى منتصف الخزان غرفة عليها لوحتان من نحاس نقش على واحدتهما تاريخ بناء الخزان وعلى الاخرى اسماء حكام السودان اثناء بنائه والمهندسين الذين تعاقبوا هذا البناء . وفوق هذه الغرفة رفع العلم المصرى

مقابل الغرفة صفت مقاعد كثيرة بسرادق عندها المندوب السامى الذى جاء مع صحبه ليشهد الخزان ويسأل المهندس المقيم عما يريد ان يسأل عنه من المعلومات الخاصة بهذا البناء الفخم . وقد تقدمنى المندوب والحاكم العام واصحابهما حين عودتى راجعا الى مكان الاحتفال . وكان حتما ان اسرع بالعودة وانا راجل وهم مستقلون السيارات . وعدت فقابلنى كثيرون من المصورين والصحفيين مسرعين بالعودة كذلك . فلما بلغت الى حيث كان القطار واقفا انحدرت يمنة حيث اقيمت مظلة للمدعوين ترفرف من جوانبها الاعلام المصرية . وفى ظلها قامت صفوف مدرجة من المقاعد الخشبية الطويلة ليجلس المدعوون عليها .

امام هذه المظلة وضعت منصة للخطابة ووضع فوق المنضدة بوق لتضخيم الصوت حتى تسمعه هذه الالوف المؤلفة جميعا . كما قامت فوق المنضدة يد فى شكل «امنمحعت» متصلة كهربائيا بفتحات الخزان حتى اذا ادارها المندوب السامى انفرج باب الخزان وجرى الماء منه فى ترعة الجزيرة .

وفى الساعة العاشرة عاد المندوب السامى والحاكم العام وقرينتاهما وجلسوا الى المنصة وجلس معهم معالى اسماعيل سرى باشا وزير الاشغال بالوزارة المصرية فى ذلك الحين . وجلس من ورائهم الشيخ محمد الطيب هاشم قاضى النيل الازرق الذى كلف بالقاء ترجمة الخطب من الانكليزية الى العربية

العودة إلى الخرطوم
عند محالج قطن السودان فى بركات

انتهت حفلة افتتاح خزان سنار التى دعينا لشهودها وان لنا ان نعود بالقطار نتناول فيه طعام الغداء وننزل منه عند بركات نشهد احد وابورات الحليج بها ونستمع الى الخطاب الثانى الذى يلقيه فخامة لورد لويد مندوب انكلترا السامى

واذ كانت هذه الحفلات كغيرها من الحفلات الرسمية اقرب الى ان تكون مظاهرات منها الى أى شىء آخر وكان خطاب لورد لويد يجب ان يتناول الحديث عن زراعة اراضى الجزيرة والقطن النامى بها والناتج منها ولم يكن لورد لويد قد حضر الى السودان من قبل أبدا ، فقد وجب ان يستقل فخامته وقرينته سيارات يصحبهم فيها رجال حكومة السودان ويطوفون واياهم بعض مزارع القطن لكى يكون حديث المندب السامى عن علم او عما يشبه العلم فى نظر المستمعين . لذلك استقل هو ومن كان فى صحبته سياراتهم على ان يمروا بالمزارع واستقللنا نحن القطار . والى الملتقى ببركات

ها نحن الان تشهد اعيننا ضيوف الحاكم العام بحفلة افتتاح الخزان مجتمعين فى عربات القطار . لقد جاءوا من مصر وانكلترا زمرا ولم ير بعضهم بعضا فى اجتماع واحد . ولقد دعى كثير من اعيان السودان لشهود الحفلة ممن رأينا فى يوم عيد الملك وممن لم نر فى ذلك اليوم . وقد قمنا من الخرطوم فى المساء بعد ما تناولنا طعام العشاء بفنادقها ، وشغلنا عند سير القطار بالهاتفين والمزغردات وذهب اكثرنا بعد ذلك الى

مخدعه ، ثم تناول الاكثرون طعام الافطار فى مخادعهم كذلك . لهذا لم يتسن لاحد ان يرى جميع زملائه فى الضيافة الا حين حفلة مكوار . لكــن الذين اجتمعوا لشهود الحفلة من موظفين وغير موظفــين جعل التفــرقة بين الضيوف وغيرهم عسيرا . فلما تحرك القطار وباعد بيننا وبين الالوف التى حشدت لتهتــف للمحتفلين لم يبق الا نحن الضيوف وشعر كل واحد منا بما بينه وبين صاحبه من صلة الضــيافة ، فكنت ترى كثيرا من الابتسامات تتبادل ومن التحيات تتهادى

ثم كانت فرصة اخرى لزيادة التعارف تلك فرصة تناول طعام الغداء فى عربة الاكل . فقد هرع الناس الى عربة بعد سير القطار بدقائق ، واستبقوا يتخير كل منهم مكانا صالحا . ولم تعن حكومة السودان بتحديد الامكنة فى تلك العربة كما عنيت بتحديد مخادع النوم . فكان السابق صاحب الاختيار . وكان جماعة الاوربيين انكليزا وغير انكليز اسبق منا نحن المصريين الذين يرون فى الاسراع الى الطعام شيئا من التنافى مع الكرامة لما قد يبدون فيه من دلالة على الشره . لذلك الفينا نصف العربة الاول ممتلئا وبقى نصفها الثانى خاليا او يكاد . فتخيرنا فى هذا القســم الثانى اماكننا وجعلنا ننتظر من يجلس وايانا فيه بينا كان الخدم يقــدمون الطعام لاهل القسم الاول . اين جيراننا وزملاؤنا فى الطعام ؟. اولئك اعيان الســودان . وهم اشد تباطؤا الى الطعام وتظاهرا بعدم الاكتراث به لنفس السبب الذى جعلنا نتأخــر عن زملائنا الاوربيين . لكن .. هاهم بدأوا يفدون واحدا بعد واحد . وهذا جانب الغرفة يكاد يمتلىء ... لكن ... اين السير السيد على الميرغنى باشا !. ابعثوا فى طلبه .. احفظوا له مكانه ... وذهب كبير من موظفى حكومة الســـودان يبحث عنه ثم جاء واياه على مهل فاجلسه على المائدة المقابلة لمائدتنا

واشار جليسى الى احد اعيان السودان وسألنى ان كنت اعرفه، ثم اخبرنى انه انعم عليه بلقب «سير» يوم عيد الملك . وهو رجل طويل

القامة نحيف الجسم تبدو عليه مظاهر القوة والشدة . قال جليسى :

ـ « قد يدهشك ان تنعم حكومة صاحب الجلالة البريطانية على مثل هذا الرجل باللقب العظيم الذى انعمت عليه به والذى لم تنعم به فى مصر الا على رؤساء الوزارات . لكنك تزول دهشتك اذا علمت ان فى امرة هذا الرجل الفى رجل يتحركون باشارته ويدينون لطاعته . والانعام عليه يفيد ولاءه للحكومة وللتاج البريطانى ويقيده بهذا الولاء فعلا . واذن فهذا اللقب الذى لا يكلف حكومة الامبراطورية شيئا قد كفل لها ولاء الفى رجل كلهم عتاة شدادلا يعصون هذا الرجل ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون

وكانما شعر جماعة من اعيان السودان الذين جلسوا الى جانبنا انا نتحدث عنهم فنظروا الى ناحيتنا نظرات حذر وتأهب . ثم خاطبنا احدهم بلهجة عسر على ان افهمها . فرد عليه جليسى بعبارة خفيفة . وآليت ان لاتحدث عن هؤلاء الناس اثناء الطعام بشىء حتى لا اثير مايدفعهم الى التأهب من جديد . بل لقد حاولت ان لا انظر اليهم كيف يتناولون الطعام مخافة ان يحسبوا ابها نظرة نقد .

برغم هذا الحذر والتأهب الذى دفعت به الى نفوس اعيان السودان احداث السياسة كنت تلمح فى وجوههم من علائم السذاجة والكرم والمروءة مايذكرنا باجدادنا المصريين الذين لم يكونوا قد تأثروا بعد بالمدنية الغربية ولم تكن النظم الحاضرة قد دفعت الى نفوسهم ما ترى اليوم عند كثيرين من حرص على المادة وانغماس فى اسباب تحصيلها . بل كنت ترى اكثر من هذا . كنت تحس هؤلاء الاعيان يشعرون بشىء من الضيق لهذه التكاليف الرسمية . هم يغتبطون بما تنطق به من صلة بينهم وبين الحاكم . لكنها فى نفس الوقت لا تتفق وطباعهم الصريحة التى لا تعرف القيود ، ولعل الكثيرين منهم فى ذلك مثلهم مثل شيخ عرب من اكارم المصريين توفى منذ زمن طويل كان يذهب الى التشريفة لمقابلة الخديو مع سائر الاعيان فى كل عيد من الاعياد .

وكان يتضايق غاية الضيق من الجبة والقفطان . فكان يذهب فى ملابسه العادية والتى تنم عن بساطته وكرمه وحبه الانسانية، والتى تتكون من زعبوط وحرام، الى حانوت على مقربة من عابدين حيث يخلعها ويرتدى الملابس الرسمية مدى الساعة التى يدخل فيها قصر عابدين ويمثل فيها فى حضرة الامير . فاذا تمت هذه المهمة التى كان يغتبط بها اسرع الى حانوته فالقى ملابسه الرسمية ولبس زعبوطه وحرامه وعاد كما كان شيخ العرب الكريم السخى اليد الذى يريد ان لا يشعر فقير الى جانبه بالفقر ما دام يرى هذا المحسن اليه فى لباس بسيط كلباسه .

وانطلق القطار الى بركات فبلغها حوالى الرابعة بعد الظهر . ثم سار بعد ذلك على مهل الى وابور الحليج . ماهذه الجموع الحاشدة التى تزيد على جموع مكوار !! احسب ان حكومة السودان قد جندت من فى السودان جميعا لهذا اليوم . فهؤلاء لا شك يزيدون على خمسة عشر الف رجل . وهؤلاء لبسوا البياض . فلعله لهم او لعل الحكومة تتركه منحة منها ان كانت هى التى خلعته عليهم

نزلنا من القطار فى ساحة فسيحة يتسع جانبها البعيد عنا لهذه الالوف الحاشدة وفصل بيننا وبينها فضاء متسع وضعت فى ركن من اركانه اكياس القطن التى اتى بها للمحلج ، وقام وابور الحليج وبه ثمانون دولابا فى وسط الساحة ، وهذا الوابور واحد من اربعة يشتغل فى كل منها مائتان وخمسون عاملا . وسرنا تغمرنا شمس يناير الدافئة البديعة المنعشة حتى دخلنا بناء الوابور المقام من الصاج . اليس عجبا ان تمتد يد الحضارة لتقيم فى هذه النواحى البادية هذه الالات الضخمة العظيمة اتى بها من انكلترا على متون البحار قطعا وهذه هى تدور الان مكينات فخمة قوية تحلج مئات القناطير وتقدم لمئات السودانيين عملا كانوا فى غنى عنه بقناعتهم بعيش البداوة الهنى . لكن انكلترا يجب ان تتغذى بالقطن لينال عمالها واشرافها اكبر حظ يريدون نواله من المتاع بالحياة فيجب لذلك ان يخرج اهل السودان وغير اهل السودان على ما الفوا منذ مئات السنين وان

ينتجوا القطن وغير القطن كارهين لهذا المجهود اول قيامهم به . فاذا الفوه ، والفوا ما يدر عليهم من ربح وما يوفره لهم فى الحياة من نعيم استزادوا منه ما اطاقوا الاستزادة . ثم تراهم بعد ذلك ولهم فى الحياة مثل ما لعمال الانكليز واسرائهم من مطامع . يومئذ لا يكون مفر من احتدام تفاهم . وذلك شـــأن النظام الفردى فى الاقتصاد . ذلك النظام لا يدع القائم على ان يعنى كل ذاتيه . سواء كانت فردا او هيئة او امة . بمصلحتها . وان تنافس غيرها فى السعى لتحصيل هذه المصلحة فى خير ظروف ممكنة . فهو ينتهى دائما الى السمو بالانسانية فى سبيل التقدم . وهو من غير شك الحركة التى تصل . عن غير شعور من القائمين بها الى هذه الغاية الانسانية السامية غاية تفاهم الجميع خير الجميع وخير كل فرد او هيئة او امة يتكون منها هذا الجميع

درنا فى ارجاء قبور الخليفة ثم خرجنا من باب غير الـــذى دخلنا منه فاذا امام هذا الباب الثانى مصطبة كبيرة اقيمت عليها مظلة تحتها مقاعد عليها معظم المدعوين ومن حولها مقاعد اعدت ليجلس عليها المندوب السامى البريطانى وصحبه . وليقوم بالقاء خطابه . ينوه فيه باعمال الحضارة التى قامت بها بريطانيا فى السودان على هذه الالوف من السودانيين الذين حشدوا له . والذين لا يعرف أحدهم من الانكليزية حرفا ولا واحد فى كل مائتين منهم ان يدرك - ان هو استطاع ان يسمع - ما فى ترجمة هذا الخطاب الى العربية

واعدت للصحافة مناضد وضعت عليها اقــلام الرصـــاص و (بلوكنوت) من ورق صقيـــل كما مهدت للصحفيين من قبل كل وسائل العمل للاسراع فى ارسال رسائلهم البرقية الى انحاء العالم المختلفة يذيعون فيها أخبار هذا الاحتفال البريطانى فى مناطق خط الاستواء ، بعمل من أعمال الحضارة العظيمة قامت به بريطانيا خدمة للحضارة فى العالم ، وان كانت خدمة تفيد أهل البلاد وتفيـــد بريطانيا نفسها .

وبعد الساعة الرابعة بقليـــل اقبل لورد لويد ومن معه عائدين



ولم يكن ذلك الامريكى يشعر بما يشعر به أهل العالم من
قواعد السلوك فى حركاتهم وملابسهم

من زيارة مزارع القطن بالجزيرة فأحاطوا بالمنضدة تحت المظلة ، والقى لورد لويد خطابا هذه ترجمته :

كان لى هذا الصباح كما تعلمون عظيم الاغتباط بافتتاح خزان سنار وتسجيل خطوة جديدة خطيرة لترقى السودان الاقتصادى ومنذ الاحتفال مررنا بقسم من الاراضى التى أخصبها الخزان ولاحظناها • ومن دواعى سرورى أن تتاح لى الان فرصة مقابلة من تقع عليهم التبعة الخطيرة ، تبعة استغلال ما أنشىء الخزان له •

لايسع الزائر الذى يرى ماتم اليوم الا أن يقدر ما أنفق فى هذا المشروع من جهد ورويه واقدام• فمنذ سنة ١٨٩٩ عرف السير وليم جارستين الذى عمل كثير الاهالى مصر والسودان مكنونات سهل الجزيرة • ومن ذلك الحين ظلت المسألة موضع البحث الدقيق • وأستطيع شخصيا أن أقدر هذا العمل قدره بعد ما كان من حظى فى أثناء عملى فى الهندان افتنح واشهد أكثر من واحد من مشروعات الرى الكبرى التى قصد بها هناك كما قصد بها هنا الى تحسين حظ المزارعين وزيادة ثروة البلاد .

تعرفون تاريخ المشروع ووقوفه فى أثناء الحرب والصعوبات الهندسية العظيمة التى وجب التغلب عليها قبل اتمامه كما نراه اليوم . والمسألة الان هى كيفية الاستفادة الصحيحة من الموارد التى أسبغها على أهالى السودان عظيم ما أنفق من جهد ومال . والجواب لا ريب عندى أن النجاح رهن باستمرار ونمو التعاون الذى قام المشروع على اساسه . فقد اكتتب الجمهور البريطانى بمالايقل من احد عشر مليونا وربع مليون من الجنيهات ، وبررت الشركة من جانبها هذه الثقة بها بمباشرة الاعمال الزراعية وحفر الترع الصغرى ببعد نظر ومقدرة يقصر دونهما كل ثناء ، والقت درسا مدهشا بتدريب عدد عظيم من الزراع عند الطلمبات . واهم الاشياء أن علاقاتها بالزراع عموما كانت علاقات عطف ومودة ولا سبيل للنجاح الصحيح مالم يقم على قاعدة هذا العطف

وبعد ان أثنى على المسترانستين قال :

لقد تغيرت حالة السودان كلها فى السبع والعشرين سنة

الاخيرة . فكانت البلاد قبل اعادة فتحها تزداد كل سنة انحطاطا بدلا من ان تتقدم ، وكانت حروب القبائل وما تجر من الوباء والقحط وسائر الشرور التى تلازم عدم الطمأنينة على النفس والمال تهلك الحرث والنسل ، لذلك انقلبت مساحات واسعة كانت قبل عامرة الى اراض غامرة واشتد الظلم والقسوة . ومن بينكم لا ريب من يذكر تلك الايام ومن عاش ليرى الشوك والسعدان ينقلبان مروجا خصبة ، والضغط والقسوة يحل محلهما العدل والسلام . وتشهد الاحصاءات الرسمية بزيادة عدد السكان منذئذ الى ثلاثة اضعافه ، واصبحت الثروة لا تقض مضجع صاحبها مخافة أن ينتزعها منه مستبد . والغنى والفقير يستطيعان السير آمنين حيث يشاءان ، والقانون والنظام الحكم فى كل مكان . وفى السنة الاولى لاتمام الخزان زرع ثمانون الف فدان قطنا ، ومساحة عظيمة ذرة ينتظر ان تغل ثمانين الف اردب هذا العام ، وذلك كفيل بعدم جناية غرض مشروع الجزيرة الاول بزرع القطن لبيعه ، على حاجات الشعب لمؤونته كفالة تطمئن من يذكر قحط البلاد سنة ١٨٨٨ وما حاق بها من متاعب خطيرة سنة ١٩١٣ . ونقطة هامة تستحق التنويه هى كفالة حقوق الاهالى بقانون سنة ١٩٢١ . فهناك شركة بين الزراع والحكومة والشركة اشتراك وثيق فى المصالح يجعل كل طرف يسعى لانتاج احسن محصول واصحه

وختم جنابه الخطاب بتهنئة موظفى المديريات وشكر الحاكم العام والتنويه بفائدة المشروع لاهالى السودان وتجارة جميع الامم .

وكان يلوح على لورد لويد اثناء القائه هذا الخطاب انه متعب مجدود . فلم يكن فى مثل ما كان ساعة القاء خطاب الصباح من نشاط وهمة . وله العذر بعد هذا المجهود المضنى الذى قام به هو وقرينته والذى لا يعتبر شيئا الى جانبه ما قاما به من مصافحة اكثر من ثمانمائة مدعو فى حفلة « يوم الملك » عملا لمصلحة الامبراطورية العظيمة

وانصرفنا عائدين الى القطار ، وخفف عن هذه الالوف التى

حشدت نطاق النظام الحديدى الذى اوقفها فى اماكنها صفوفا كما توقف الجند . فاستفاد من ذلك بعض افرادها . كانوا يحدثوننا ايام الطفولة ان سليمان عليه السلام حبس الجن والزمهم بناء تدمر بالصفاح والعمد ؛ وانه ظل يرقبهم بنفسه فكان مجرد جلوسه عندهم كافيا لدابهم على العمل والجد فيه . ومات سليمان فى جلسته واسبل الموت عينيه ومع ذلك ظل الجن فى دابهم خيفة ان يكون اطباق النبى اجفانه لسنة اخذته فاذا شذوا عن امره انزل بهم الام العقاب . فلما مال جثمان سليمان وهوى الى الارض وايقن الجن موته انطلقوا فرحين اشد فرح بعود الحرية اليهم وجعلوا يعيثون حيث شاؤا وبما شاؤا . كان ذلك شان هؤلاء الذين خفف نطاق النظام عنهم . انطلقوا يعدون ملء سيقانهم ليملأوا هذا الفضاء الذى كان يفصل بيننا وبينهم حتى صاروا عقبة فى سبيل وصولنا الى القطار . فلما وصلنا اليه بعد جهد الفيناهم احاطوا به من كل جانب حتى تعذر الصعود اليه . واضطررنا للالتجاء الى القائمين بامر النظام فى هذا المكان الذى تولاه هرج اى هرج . وعجز حماة النظام عن معونتنا فشققنا لانفسنا الطريق بين هذه الجموع المائجة التى ظل لديها من الاحترام لنا ما توجبه عليها الشرقية المتسامحة من اكرام الضيف وحماية الغريب

فيم هذا الهرج والمرج ؟! ما هذا العجيج الذى تثيره هذه الخلائق المندفعة صوب القطار فى حماسة وجيشان ؟! .. صه ! ان لها من وراء اندفاعها لغرضا ساميا عظيما . انها تلتمس بركات صاحب البركات السيد على الميرغنى .

نعم ! فقد اقبل السيد الى عربته بالقطار فطار فى اثره مئات من السودانيين لا يقترب اليه منهم احد ولكنهم يتبركون بمواطىء قدمه ويطلبون اليه فى خشوع وابتهال كلمة الرضى والغفران . فلما صعدنا العربة رايتهم احاطوا بها وجعلوا يلمسون بايديهم عليها يتملون من بركاتها ما يتملى به اولئك الذين يزورون الاولياء الصالحين فى مقابرهم . ولعلك ان تحدثت الى

احدهم فيما يفعل قال لك ان عربة القطار التى يخلها ولى صـــالح كالسيد المرغنى اكثر حياة وبركة من ضريح به رفات ولى كان من الصالحين . ولعله يقول لك ذلك فى ايمان ناســـيا أن اولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ، وانهم بعد موتهم احياء عنـــد ربهم يرزقون .

اشرت فى فصل « عيد الملك » الى ايمان اعيان السودان بالسيد على . هذا الايمان المرتسم على وجوههم البادى فى نظراتهـــم المتجلى فى كل حركاتهـــم حين اقبـــالهم مسرعين فى خشـــوع واجلال يقبلون يده وينظرون من طرف كسير نظرة كلهـــا الايمان والاجلال ورجاء الرضى وحسن الدعاء . فأما ايمان عامة اهـــل السودان بالســـيد فيفوق ذلك اضعافا مضاعفة ويتجلى فى صورة من التعبـــد لاتبعـــد كثيرا عن العبادة . رأيت بعينى جماعة منهم تقبل سلم عربة الســـكة الحديد لان قدم السيد وطئتها . وكنت نسمع هذا الجمع الحاشد حول العربة مبتهـــلا اليه ان يكـــون واسطة له عند الله فى المغفرة . ولو ان السيد امرهم فى ســـبيل ذلك ما امرهم لما عصوا له امرا ولا خالفوا له كلمة . ولو انهـــم ظفروا من فضل رداء الســـيد بخيط واحد لاقتتلوا عليه يريد كل ان يكون له أو أن يلمسه ان لم يستطع امتلاكه .

انظر ! هذا جن ســـليمان فك عقاله . فهذه الالوف الحاشـــدة تزحف نحو القطار زحفا . وهذه كلها تصطف على مقربة منه صفا صفا . وهؤلاء افراد اشـــد من غيرهم حماسة فى ايمانهم يجاهدون ليشقوا لانفسهم الى عربة السيد طريقا . ولامنقذ لنا من هجومهم علينا الا ايمانهم بالسيد وفرط حرصهم على رضائه . ولامفـــر آذاننا من سماع عجيج دعواتهم الى ان ينطلق القطار فيخلفهـــم وراءه .

انطلق القطـــار ، فارتفعت الاصوات بالتهليـــل والتكبير . افحسبت انهم جميعا وقفوا عند تهليلهم وتكبيرهم . كلا بل انطلق جماعة منهم يســـابقون القطار محاذين عربة السيد وســـيقاهم

الدقيقة واعصابهم المتينة تجعل منهم من هو اعدى من السليك

انقطعت الضجة واخذ بالعادين الجهد وأبديت الى صاحبى الموظف الكبير بحكومة السودان عجبى لهذا الايمان . قال لاتعجب . فقد ذهبنا من نحو خمس عشرة سنة لافتتاح خط كسلا ومعنا السيد . وعلم أهل ذلك الاقليم بالامر فأحاطوا بالقطار اول دخوله اقليمهم لايخشون ان يوردهم عرباته الحتف اثناء سيره . بل تعلقوا به متماجين مهللين يلتمسون من السيد دعاءه وبركاته مما اضطر سائق القطار للسير الهوينا مخافة ان يذهب بهذه الارواح الصارخة . ودخلنا لذلك متأخرين عدة ساعات عن الموعد المضروب لدخول القطار واقامة الاحتفال

وقال اخر : ولو علمت ياسيدى انهم مايزالون اذا دخلوا الى داره بالخرطوم دخلوا الى البهو الذى هو فيه زحفا على أيديهم وسيقانهم وعيونهم دانية فى الارض لايرتفع له منهم نظره لقدرت مكانة السيد العظيمة وسلطانه الدينى . ثم لو علمت مع ذلك انه لايسخر هذا السلطان الدينى لدعوة سياسيه ولايطمع فى شىء الا ان يسود السلام بلاده لاكبرت من قدره فوق ما اكبرت ولعلمت انه اوتى من الله حكمة وفضلا عظيما

وامعن القطار فى انطلاقه وعدنا بعد تناول طعام العشاء الى مخادعنا . وانا لنعد عدتنا للنوم اذ بلغنا واد مدنى . فصعد الى القطار جماعه من الشبان المصريين الذين مايزالون مقيمين بالسودان وقصدوا الى مخدعى . وبعد تبادل التحيه سألونى ان انزل معهم الى رصيف المحطة لنكون بعيدين عن الانظار والاسماع . وهذا بعض مظاهر الحذر الذى اشرت اليه من قبل . فمنذ قتل السيرلى ستاك فى القاهرة ورتبت انكلترا على قتله اخراج الجيش المصرى من السودان قامت حكومة السودان باحاطة المصريين المقيمين فى ربوعه برقابة شديدة مخافة ان يثيروا فى السودان روح التمرد والعصيان . على ان هؤلاء الشبان الذين احاطوا بى فى واد مدنى كغيرهم من المصريين الكثيرين الذين قابلتهم كانوا اشد ميلا لاعتبار حركة سنة ١٩٢٤ حركة طائشة لاسباب عدة . ولعل أهم

هذه الاسباب في نظرهم ماأتاه كثيرون من الضباط المصريين من تصرفات ادت الى عدم رضى السودانيين ويسرت نشر الدعوة ضد الحكم المصرى فى السودان ولست ادرى مبلغ مارووا من الصحة . الا انهم كانوا يتهمون هؤلاء الضباط بأنهم لم يكونوا يعرفون الا شهواتهم وانهم كانوا يقضون النهار وطرفا من الليل فى استيفائها سواء منها الطبيعى والشاذ وسواء منها المطعوم والمشروب • وقد يكون لبعض هذه التهم قوام والحكومة المصرية لم تعن بان يكون نائبا عنها فى السودان رجل له مقام الوزير وسلطانه على المصريين الذين فى السودان على الاقل

كذلك كان من شكوى هؤلاء الشبان المصريين الذين تحدثوا الى فى واد مدنى ان بعض السودانيين الموجودين بمصر لايلقون من عطف المصريين عليهم مايبهج السنتهم بثناء يتردد فى مختلف جوانب السودان ويدل دلالة حقيقية على عواطف الاخوة الصادقة بين اجزاء هذا الشعب المتصل بأوثق الروابط والمستمتع والمقيم على ضفاف النيل الذى يسبغ عليه الحياة ونعمتها

وتركت هؤلاء الشبان الذين ودعوني بحفاوة شكرتهم واشكرهم اليوم عليها وعدت الى مخدعى فى القطار • ثم عاد القطار الى انطلاقه فأوينا الى مضاجعنا وبقينا فيها نياما حتى استيقظنا فى الصباح على مقربة من الخرطوم • فأخذنا افطارنا وتهيأنا للعودة الى فنادقنا نأوى الليلتين الباقيتين على مغادرتنا ربوع السودان

خزان سنار
ومشروع رى الجزيرة

«خزان سنار» أصبح الان الاسم الرسمى لهذا الخزان القائم على النيل الازرق تحجز مياهه لرى أراضى الجزيرة الواقعة بين النيلين الابيض والازرق ، ولكن هذا الاسم لم يخلع عليه بصفة رسمية حاسمة الا فى حفلة افتتاحه • أما الى يومئذ فكان كثيرون يسمونه خزان مكوار باسم البلد الذى بنى عنده كما سمى خزان اصوان باسم اصوان • ويحكون عن تغيير الاسم من مكوار الى سنار حكاية طريفة أقصها هنا من غير أن أكفل صحتها • ذلك أن مكوار عائلة كبيرة فى هذه المنطقة من مناطق السودان استوطنت الجهة وأطلقت اسمها على البلد الذى استقرت به • ثم كان ان عدا الدهر على العائلة فتدهور حالها وذهب أحد أبنائها يلتمس معونة الحكومة على غدر القدر • ولما سئل عما قدم هو وأهله للحكومة من خدمة تبرر هذه المعونة قال : « يكفى اطلاق اسم عائلتنا على هذا العمل الهندسى العظيم الذى يخلد ذكر هذه الحكومة وذكر بريطانيا» فكان الجواب رفض المعونة وتغيير نسبة الخزان من القرية الواقع عندها الى مديرية سنار القائم خلالها

وخزان سنار واحد من أعمال الرى الكبرى التى يراد باقامتها ضبط مياه النيل • فما يزال القسم الاكبر منها يضيع فى البحر الابيض المتوسط مع امكان الانتفاع به لرى ملايين الافدنة القريبة من النيل والصالحة للزراعة لولا عدم وصول المياه لها ولم يشيد خزان سنار الا بعد أن قد[illegible] كومتان المصرية والسودانية

بعمل مباحث مستفيضة عنه وعن سائر مشروعات الرى الاخرى وبعد ما أجريت تجارب كثيرة لمعرفة مبلغ صلاح أرض الجزيرة لزراعة القطن ذى التيلة الطويلة من نوع قطن السكلاريدس المصرى . فلما نجحت هذه التجارب أقدمت حكومة السودان على انشاء الخزان الذى حضرنا حفلة افتتاحه

وكان السر وليم جارستن مستشار وزارة الاشغال المصريه أول من لفت النظر لامكان رى سهل الجزيرة صناعيا فى سنة ١٨٩٩ ، وأيده فى تقرير قدمه سنة ١٩٠٤ لورد كرومر قنصل بريطانيا الجنرال فى مصر . والى ذلك الوقت كانت فكرة زراعة القطن فى مساحات واسعة بأراضى الجزيرة لا تزيد على خيال لم ينظر اليه الانكليز بعين الرجاء . ذلك أن زراعة القطن لم تكن غريبة عن تاريخ السودان . فقد روى المسيو بونسيه الذى زار سنار مع المبشر زافريوس دى برفان سنة ١٦٩٩ انه وجد بها مائة ألف من السكان رائجة تجارتهم فى تصدير القطن الى حد ان اتفق السلطان الازرق - وذلك هو اللقب الذى كان يطلق على أمير هذه المنطقة الواقعة على النيل الازرق - مع ملك الحبشة على ابقاء ضابط بالنيابة عنه فى شلجا عند حدود الحبشة لتحصيل العوائد على القطن الصادر واقتسامها شطرين يأخذ كل امير منهما شطرا . كذلك روى بركار الذى زار شندى فى سنة ١٨١٤ ان أهم صادرات سنار كان الدمور المصنوع من القطن ، كما روى ان مصانع القطن فى سنار وبجرمى هى التى كانت تمون القسم الاكبر من افريقيا الشمالية بالملابس . على ان هذه الصناعة انحطت فى السودان وتدهورت لقيام الصناعة الكبرى فى أوروبا ومزاحمتها الصناعة اليدوية فى الاسواق مزاحمة لم تقو هذه الصناعة اليدوية على البقاء امامها طويلا . لذلك انقلب السودان الى زراعة الحبوب واطلق على سهل الجزيرة انه مخزن حبوب السودان كافة . فلما استعادت الجنود المصرية السودان بعد ثورة المهدى كانت زراعة القطن

وصناعته قد تدهورت فيه . وأصبحت ضئيلة أشد الضآلة

ولما قدم السر جارستن تقريره عن امكان ضبط مياه النيل الازرق لري الجزيرة بدأت حكومة السودان في دسمبر سنة ١٩٠٤ بمساحة اراضي هذا السهل المترامي الاطراف التي انشئت لهذه المساحة قائمة بعملها حتى اتمت القسم الاعظم منه في سنة ١٩١٢ . كذلك مدت الحكومة خطا حديديا مابين الخرطوم وسنار بدأت العمل فيه في سنة ١٩٠٩ ووصلت به الى سنار في سنة ١٩١٢ ثم اخترقت به ارض الجزيره من جنوبها حتى وصل الى كوستى على شاطىء النيل والابيض اتجه الى بلدة الابيض . وفي الاثناء بدأت الحكومة تجربة زراعة القطن فاقامت في سنة ١٩١١ محطة طلمبات عند بلدة الطيبة على الشاطىء الغربي للنيل الازرق وحفرت الترع التي تأخذ مياهها من محطة الطلمبات هذه لتغذى ثلاثة الاف فدان زيدت بعد ذلك الى خمسة آلاف . وعهدت حكومة السودان في القيام بهذه التجارب الى نقابة زراعة السودان لما كان لهذه النقابه من سابقه القيام بتجارب زراعة القطن بزيداب في شمال الخرطوم .
وبدا نجاح تجربة الطيبة نجاحا باهرا في سنة ١٩١٣ . فدعا هذا النجاح الى ضرورة التفكير في اصلح طرق الاستغلال . وكان لورد كتشنر يومئذ قنصل بريطانيا الجنرال في مصر . فتوسط في الامر وانتهى الاتفاق على ان تكون حكومة السودان مسئولة عن الترع الكبرى في كل ناحيه بزرع القطن فيها وان تكون نقابة زراعة السودان مسئوله عن الترع الصغرى وعن ادارة المشروع كله وامداد المزارعين بالاموال اللازمه لهم وان يقوم المزارعون بالعمل في الاراضي وان يوزع محصول القطن الناتج من الزراعة بنسبة خمس وثلاثين في المائة منه للحكومه وخمس وعشرين في المائة للشركه والاربعون في المائة الباقية تكون للمزارع كما تكون له سائر الحاصلات التي تنتجها الارض

في هذه السنة عينها ، سنة ١٩١٣ ، وعلى أثر زيارة لورد كتشنر للسودان مع الفنيين في الري من رجال الحكومة المصرية

وبعد ان رفضت الحكومة المصرية ضمان القرض الذى اريد اصداره بمبلغ ثلاثة ملايين من الجنيهات لاقامة خزان سنار ونجاح مشروع رى الجزيرة ، فى هذه السنة اقر البرلمان البريطانى الحكومة الانكليزية على ضمان هذا القرض ، وعلى ذلك بدئت الاعمال التمهيدية لبناء الخزان فى سنة ١٩١٤ . لكنها اوقفت عندما شبت نيران الحرب الكبرى .

وقد رفضت الحكومة المصرية اذ ذاك ضمان هذا القرض لانها رات الامل ضعيفا فى استرداد ما دفعته للسودان سدادا لعجز ميزانيته بما بلغ احد عشر مليونا من الجنيهات ، ولان السياسة الانكليزية كان ظاهرا ميلها الى استئثار انكلترا بالسودان بعد ان تكون مصر قدمت له من الاموال ما مكنه من الاستقلال ماليا عنها وربما كان للحكومة وللجمعية التشريعية عن ذلك من العذر ان الاموال التى دفعتها مصر للسودان فى السنوات المتعاقبة كانت ملايين عدة . وضمان مصر لقرض الجزيرة قد ينتهى بأن تدفعه مصر فتضاف هذه الملايين الى تلك لتعود فائدتها اخر الامر على انكلترا وحدها . غير أن طائفة من المصريين كان لهم رأي غير هذا الرأي . وكانوا يعتقدون ان كل عمل هندسى او مالى يربط مصر بالسودان يقوى حجة مصر فى السودان ويكون نقطة ارتكاز لاولوية مصر فى ان تمسك بيدها تصريف مياه النيل ويذهبون الى اكثر من هذا اذ يقولون ان حكومة السودان كانت على استعداد لان يشترك المصريون ملاكا ومزارعين فى استغلال سهل الجزيرة ولكنهم اظهروا اعراضا تاما عن هذا الاشتراك كما اظهرت الحكومة المصرية الرغبة كل الرغبة عن ان يكون لها فى استغلال السودان يد او رأي .

وربما كان هذا الذى يقال صحيحا . وربما كان مركز مصر فى السودان غير ما هو اليوم او ان الحكومة المصرية ضمنت قرض الجزيرة الاول الذى زيد بعد انتهاء الحرب الاولى من ثلاثة ملايين الى ستة لارتفاع اسعار الخامات والاجور اللازمة لاتمام بناء الخزان . وربما

كان من الخير حقا لو ان المصريين ذهبوا لاستغلال هذا السهل المترامى الاطراف وحققوا بذلك تحقيقا فعليا حجتهم بان السودان هو المهجر الطبيعى لهم فلا سبيل لفصله عنهم . لكن هذا الذى تبدو صحته اليوم لم يكن واضحا مثل هذا الوضوح قبل الحرب حين كانت انكلترا صاحبة السلطان الفعلى المطلق فى مصر ، وحين كان المصريون فى شدة حذرهم من سلطانها فى السودان يخافون ان يتقدموا نحوه خطوة . لذلك كان لحكومته يومئذ ، او بالاحرى كان للجمعية التشريعية التى رفضت ضمان الحكومة المصرية قرض الجزيرة ، العذر كل العذر عن هذا القرار

تنحت مصر اذن عن الاشتراك فى استغلال سهل الجزيرة فاقدمت انكلترا بتشجيع لورد كتشنر على الانفراد بهذا الاستغلال واقر البرلمان البريطانى ضمان الحكومة الانكليزية قرض الجزيرة فبدىء بالاعمال التمهيدية لانشاء خزان سنار ، ثم استعرت نار الحرب فأوقفت هذه الاعمال . لكن ايقافها لم يمنع من الاستمرار فى قيام نقابة زراعة السودان باجراء تجارب جديدة خصوصا بعد ما تقرر أن تكون مساحة الاراضى التى يرويها خزان سنار ثلاثمائة الف فدان يزرع ثلثها قطنا فى كل عام . فأنشأت النقابة المذكورة فى أوائل سنة ١٩١٤ محطة طلمبات جديدة فى بركات لرى ستة آلاف فدان . ثم أنشأت بعد ذلك محطة أخرى لرى ١٩٥٠٠ فدان فى ناحية الحوش بدات استغلالها منذ سنة ١٩٢١ ، ومحطة رابعة فى وادى النورى لثلاثين الف فدان بدأت استغلالها منذ سنة ١٩٢٢ وكان هذا الاستغلال على قاعدة زراعة الثلث قطنا والثلث ذرة ولوبية وترك الثلث الباقى بغير زرع . أى على قاعدة الدورة الثلاثية

ولم تكن غاية حكومة السودان ولا نقابة زراعة السودان من انشاء محطات الطلمبات هذه مجرد القيام بتجارب لزراعة القطن . فقد كانت تجربة الطيبة كافية منذ سنة ١٩١٣ . لكن زراعة القطن كانت قد اندثرت من السودان قبل ثورة المهدى بزمن غير قليل . والمصريون المدربون على زراعة القطن رفضوا الاشتراك فى

الاستغلال . وقد عطلت الحرب استمرار القيام بأعمال انشاء الخزان . فرأت الحكومة ورأت النقابة الاستفادة من هذا الظرف لتدريب أكبر عدد ممكن من المفتشين الانكليز ومن أهالى السودان ومن الوافدين عليه من النيجيريا وغير النيجيريا على القيام بمهمة الزراعة ومراقبتها حتى اذا تم بناء الخزان وكانت الترع والقنوات فى الثلاثمائة الف فدان التى أعدت فى المشروع قد تم انشاؤها أمكن زرع ثلثها أو مايقرب من الثلث قطنا دفعة واحدة بمعرفة هؤلاء الانكليز المفتشين والاهالى المزارعين الذين تدربوا على زراعته . وقد اثبت الزمن بعد نظر الحكومة والنقابة فى هذا الشأن اذ أمكنت زراعة ثمانين الف فدان قطنا على اثر تمام بناء الخزان مباشرة فى شتاء سنة ١٩٢٥ — ١٩٢٦

* * *

اما هذه الثلاثمائة الف فدان التى تقرر منذ البداية أن يتكون منها مشروع رى الجزيرة فتمتد على الشاطىء الغربى للنيل الازرق مبدئة عند قرية الحاج عبدالله على بعد سبعة وخمسين كيلو مترا الى شمالى مكوار حيث يقوم الخزان . (وقد نسى الناس فى السودان اسم قرية الحاج عبدالله واصبحت هذه النقطة معروفة عند المهندسين باسم الكيلو سبعة وخمسين) . ثم تستمر فى امتدادها شمالا على محاذاة النهر وسكة الحديد مدى خمسة وثمانين كيلو مترا . ويختلف عرضها من الشرق الى الغرب بين اربعة عشر وخمسة وعشرين كيلو مترا . ويسير وامامك هذه الابعاد ان تتصور هذه القطعة من السهل المطمئن لاتقوم عليه ربوة من الربى ولاعقبة من العقبات محاذية النيل الازرق المخصب ؛ وان تتصور الى جانب ذلك أنها ليست الا جزءا من عشرة أجزاء من تلك الاراضى التى يمكن ريها بالمشروعات والتى تبلغ ثلاثة ملايين فدان من خمسة ملايين هى مجموع مساحة سهل الجزيرة . وان تتصور اخيرا ان هذه الثلاثمائة الف فدان تقررت سنة ١٩١٣ وها هى حكومة السودان ونقابة زراعة السودان تراها الآن غير كافية

بالحاجة الزراعية مع انها لم يبدأ بزرعها الا عام ١٩٢٥ - ١٩٢٦

وهذه الثلاثمائة الف فدان، كغيرها من أراضى سهل الجزيرة، لم تكن ملكا لحكومة السودان وهى ليست الآن ملكا لها. بل هى فى ملك اهالى السودان الذين كانوا يزرعونها على المطر حبوبا جعلت الجزيرة - كما اسلفنا - مخزن حبوب السودان. وقد رأت الحكومة ان نظام مشروع الجزيرة لا ينتج ثمراته اذا بقيت هذه الاراضى تحت يد ملاكها. ورأت من ناحية اخرى انه لابد لنجاح المشروع من ان تكون للاهالى مصلحة مادية فيه. فاستأجرت أراضى المشروع لمدة اربعين سنة بايجار سنوى عشرة قروش للفدان كما اشترت الاراضى اللازمة للترع الرئيسية وغير الترع الرئيسية من المنافع العامة بثمن جنيه واحد للفدان. ولما كانت مساحة هذه الاراضى قد حددت تحديدا دقيقا بمعرفة الهيئة التى نوهنا من قبل بذكرها والتى أتمت عملها فى سنة ١٩١٢ وسجلت أملاك الاهالى بأسمائهم فقد كانت المعاملة بينهم وبين الحكومة لاتثير نزاعا من هذه الجهة

على ان هؤلاء الاهالى الذين استأجرت الحكومة اراضيهم يجب ان يكون لهم الى جانب هذ الايجار الذى يبدو تافها ضئيلا متى استغلت الارض بزراعة القطن مصلحة أخرى تجعلهم لايتذمرون ولا يشعرون بان حيفا وقع عليهم. وقد حلت الحكومة والنقابة هذه المسألة بصورة تراها وتحكم على عدالتها بعد ان نصف لك كيف نظم ى الجزيره.

اصبحت الثلاثمائة الف فدان اذن فى حيازة الحكومة التى استأجرتها. وهذه الثلاثمائة الف فدان تحاذى ترعة الجزيرة حينا وتحيط بها حينا. وقد قسمت الحكومة والنقابة هذه المساحة الى تسع عشرة قطعة كل منها تبلغ نحو خمسة عشر الف فدان ثم قسمت كل قطعة مساحات مربعة. وتمر الترع الرئيسية الآخذة من ترعة الجزيرة وبين كل واحدة وما

بعدها نحو ١٥٠٠ متر . ومن هذه الترع تروى الارض عن طريق فتحات منتظمة ادق نظام

وقد رات الحكومة ان قدرة المزارع فى الاستغلال الصالح لا يمكن ان تعدو العمل فى ثلاثين فدانا يزرع منها عشرة افدنة قطنا وعشرة ذرة ولوبية ويترك العشرة الباقية بغير زراعة . لذلك جعلت هذه الثلاثين فدانا وحدة ما يضع الرجل عليه يده فى اراضى الجزيرة . وملاك الارض الاصليون يفضلون على من سواهم فى الاستغلال . فكل مالك يضع يده على ثلاثين فدانا من ارضه . ولكى لا يشعر كبار الملاك بانهم غبنوا فى تاجيرهم اراضيهم للحكومة جعلت القاعدة ان يكون للمالك حق اقتراح الاشخاص الذين يستغلون سائر ما استأجرته الحكومة من ملكه . وهو غالب الاحيان يقترح من يتصلون به بصلة القربى . وما دامت تقارير المفتشين عن هؤلاء المزارعين صالحة فلا محل لاجلائهم عن الارض التى يستغلونها

اشرنا الى ان محطات الطلمبات هى التى قامت بالتجارب الاولى كما قامت بتدريب المزارعين على طرق الاستغلال وادواته ، والتى استمرت كذلك الى ان تم بناء الخزان فى سنة ١٩٢٥ بعد ان بدات الاعمال الاولى التمهيدية فيه فى سنة ١٩١٣ ، واشرنا كذلك الى ان هذه الاعمال اوقفت على اثر اعلان الحرب العالمية فى سنة ١٩١٤ . فلما انتهت الحرب عاد المسيو السندريني الذى وكلت الحكومة اليه المشروع يباشر اعمال الانشاء . لكن ارتفاع الاسعار على اثر الحرب جعل المبالغ التى قدرت لاتمام البناء غير كافية . على انه استمر فى العمل لحساب الحكومة وباشر منه قسما غير قليل . وفى هذه الاثناء رات حكومة السودان ان خطة الانشاء على هذه الصورة ، صورة « الحساب الجارى » تبهظها بالنفقات . فلما قررت الحكومة البريطانية رفع قرض السودان الى ستة ملايين طرح اكمال بناء خزان سنار فى المناقصة ورساعلى محلات بيرسون واولاده بلندن فبداوا العمل فيه منذ ابريل سنة ١٩٢١ ، وهم الذين

وسبقنا الى وصف الخزان حين تمر فوقه . وذكرنا ان طوله ومعه الحوائط الصماء يبلغ ٣٢٥٠ مترا مد عليها شريط سكة الحديد استعدادا لانشاء خط مكوار — كسلا . ونثبت الآن مذكرة فنيه عن خزان سنار وضعها الفى بك الذى كان مدير اعمال تفتيش رى مصر بالخرطوم وتكرم باطلاعنا عليها كما تكرم بايقافنا على ما طلبنا من المعلومات الخاصة بهذا المشروع وبمشروع جبل الاولياء . وان كان قد اعتذر عن الافضاء لنا بما راى ان وظيفته لا تسمح الافضاء به

فتحات السد معمولة باتساع يسمح بمرور اكبر تصرف للنيل الازرق وزيادة وهو ١٥٠٠٠ متر مكعب فى الثانية والفتحات كالاتى : —

اولا — الفتحات السفلى وعددها ٨٠ وعرض كل واحدة ٢ متر وارتفاع ٤٠ و ٨ ومنسوب العتب ٢ و ٤٤ ويعمل عليها الموازنة ببوابات حديد تفتح بواسطة ونش بخارى .

ثانيا — الفتحات العليا وتسمى فتحات التخفيف وهى ٢ فوق الفتحات السفلى وعرض كل واحدة ٣ متر وارتفاعها ٢ متر وهذه الفتحات يعمل عليها الموازنة بواسطة اخشاب غما افقى وترفع بهلب باليد

ثالثا — يوجد بالجهة الشرقية من الفتحات المبينة عاليه ٢٠ فتحة عليا ومثلها فى الجهة الغربية — وعرض كل فتحة ٥ متر وارتفاعها ٢ متر — وعتب عموم الفتحات العليا على منسوب ٢ و ٤١٧ وتفتح وتقفل بواسطة اخشاب غما افقى

سعة الخزان وملؤه وتفريغه :

اولا — اعلا منسوب تصل اليه المياه امام الخزان هو ٧ و ٤٢٠ ويخزن على هذا المنسوب ٦٣٦ مليون متر مكعب

ثانيا — فى اول يوليو من كل سنة يكون منسوب أمام الخزان على ٥ و ٤١٤ ويرتفع تدريجيا فى مدة خمسة عشر يوما الى ٢٠ و ٤١٧ لاعطاء مياه رى القطن بالجزيره وتحفظ المياه على هذا المنسوب الى أول نوفمبر .

ثالثا — من أول نوفمبر الى ديسمبر يرتفع منسوب المياه

تدريجيا الى ٧ و٤٢٠ ويبقى على هذا المنسوب الى ١٨ يناير .

رابعا - من ١٨ يناير تأخذ الجزيرة كافة احتياجاتها من الماء المخزون أمام والتصرف الذى يكون فى النيل الازرق فى الروصيرص اى تصرف النهر الطبيعى يمر خلف الخزان كما هو لاحتياجات القطر المصرى لغاية أول يوليو حيث يتكرر الترتيب المبين عاليه .

ملحوظة - قد اتبع نظام خاص فى الحجز على الخزان منذ زمن لعدم اخذ مياه كثيرة فى يوليو يمكن أن يحصل منها ضرر للقطر المصرى وفى أول ديسمبر من هذا العام تم حفظ امام الخزان على الدرجة المطلوبة وهى ٧ و٤٢٠

ترعة الجزيرة :

اولا - فم الترعة عبارة عن ١٤ فتحة عرض الواحدة ٣ متر وارتفاع ٥ متر والعتب على منسوب ١٠ و ٤١١ - من هذه الفتحات سبع مقفولة بالخرسانة المسلحة، وتعمل الموازنة بواسطة بوابات حديد ترفع بونش يدار بواسطة رجلين .

ثانيا - الترعة عرض قاعها ٢٦ مترا وارتفاع المياه بها ٤٥ر٣ متر وانحداره ٧ سنتى فى الكيلو وذلك كاف لرى المساحة الحالية وهى ٣٠٠٠٠٠ فدان ومسطاح الترعة يسمح بتوسيعها عند زيادة الزمام

ثالثا - أول قناطر حجز على الترعة عند كيلو ٥٧ ويتفرع أمامها خمس ترع ومصرف على النيل لتخفيف المياه بالترعة وعندها يبدأ الرى بالجزيرة وكل الرى بالراحة

رابعا - ثانى قناطر حجز عند كيلو ٧٧ وأمامها ثلاث ترع ومصرف على النيل للتخفيف ثم قناطر حجز اخرى عند كيلو ٩٩، ثم عند كيلو ١٤٤

الارض المقرر زراعتها بالجزيرة

وقد تم رى ثمانين الف فدان قطن و ٤٩٠٠٠ فدان ذرة وعشرة آلاف لوبيا والزراعة حالتها حسنة

والمقرر هو أن يزرع مائة الف قطنا ومثلها ذرة وبقولا وتترك مائة الف فدان بورا

السبع فتحات المقفولة بفم الترعة والمسطاح المتروك بالترعة يسمحان بزيادة الزمام الى مليون فدان

* * *

وقد طرأ على بعض مافى هذه المذكرة تعديلات فيما يتعلق بالتواريخ التى تبدأ فيها حاجة مصر لتصرف النهر الطبيعى نعرض اليها حين الكلام عن مشروعات ضبط النيل كافة . كما ان سعة الخزان بعد ملئه للمرة الاولى تبين أنها ٨٠٠ مليون متر مكعب . والمناسيب المذكورة فيها مذكورة بالمقارنة الى ارتفاع مياه البحر الابيض المتوسط . أما ماورد عن مسطاح الترعة وكونه يسمح بتوسيعها عند زيادة الزمام فذلك لان الخزان يتسع لخزن مياه تكفى زراعة نصف مليون فدان أى ضعف المساحة الحالية الا قليلا . والسبع الفتحات المقفلة بالخرصانة من فتحات ترعة الجزيرة يكفى لامدادها هذا المقدار بالمياه اللازمة له

ويحسن ان ننبه القارىء كى يسهل عليه ادراك حكمة تواريخ الملء والتفريغ الواردة فى هذه المذكرة الى ان زراعة القطن بالسودان تبدأ فى أواخر شهر يوليو وأوائل شهر اغسطس . فرفع مستوى الماء فى الخزان من ٥ر٤١٤ وهو الرقم الموازى لمنسوب الفيضان الطبيعى للنهر الى ٢٠ر٤١٧ فى النصف الثانى من شهر يوليو انما يقصد به أن تغذية ارض الجزيرة بمياه الراحة اللازمة لرى الارض وزرعها قطنا . ويبقى هذا المنسوب ثابتا الى شهر نوفمبر حين تخلو مياه النهر من الطمى ويمكن التخزين . وفى شهر نوفمبر يرفع منسوب التخزين فى سنار الى مستوى ٧ر٤٢٠ ويبقى الى ان تبدأ حاجات مصر للماء لزراعة القطن ولتغذية النهر . واذ كانت أولوية مصر أمرا مقررا معترفا به من الجميع فقد وجب البدء فى تفريغ الخزان بحيث تأخذ أراضى الجزيرة كل حاجتها منه ويبقى تصرف النهر الطبيعى وقفا على مصر . والواقع ان حاجة اراضى الجزيرة للماء تقل بعد شهر يناير الذى تبدأ فيه الجنية الاولى من جنيات

القطن وتنتهى فى شهر مارس فلا تبقى ثمة حاجة لغير مياه الشرب . وهذه يكفيها مامقداره تصرف عشرة أمتار فى الثانية .

فاذا كان شهر يوليو وابتدأت الحاجة الى المياه فى الجزيرة لزراعة القطن وابتدأ الفيضان بجعل رفع الماء فى الخزان غير ضار بحاجات مصر بدىء فى عملية رفع المياه فى الخزان من جديد

* * *

لكن مسطح ارض الجزيرة يبلغ ، كما سبق القول : خمسة ملايين من الافدنة أو يزيد . والنية متجهة الى استغلال ثلاثة ملايين منها . فكيف السبيل الى هذا الاستغلال وخزان سنار لا يكفى مايحجزه من المياه الالرى نصف مليون واحد ؟ أم ان مشروع الجزيرة مايزال واقفا فى ذهن اصحابه عند رى هذا النصف المليون الواحد من الافدنة ؟

لا هذا ولا ذاك . والفكرة الانكليزية متجهة كل الاتجاه الى رى ثلاثة ملايين من افدنة الجزيرة واستغلالها لزراعة القطن الطويل التيلة . والوسيلة الى ذلك فى نظرهم ليست تعلية خزان سنار ولكن اقامة حجز على بحيرة تسانا فى جبال الحبشة لحجز ماينزل فى هذه البحيرة من الامطار مما ينحدر اثناء الفيضان مع مياهها فى النيل الازرق ويذهب ضياعا فى البحر الابيض المتوسط . واذا كان خزان سنار الذى يتسع لحجز ٨٠٠ مليون من الامتار المكعبة يكفى لرى نصف مليون من الافدنة فمن الممكن حجز ثلاثة مليارات ونصف مليار على بحيرة تسانا ، ولهذه الغاية جرت مفاوضات جدية بين حكومة بريطانيا وحكومة الحبشة انتهت باقامة الخزان

والظاهر ان هذه الفكرة ، فكرة الحجز عند تسانا ، لم تكن متمكنة من نفوس الذين بدأوا مشروع رى الجزيرة فى سنة ١٩٠٤ وفى سنة ١٩١٢ . فقد روى لى أحد كبار الفنيين من رجال الرى ان حكومة الحبشة رضت قبل الحرب ان يدفع لها

ربع مليون من الجنيهات اذا أرادت مصر أو السودان اقامة حجز على تسانا ، فرفضت الحكومتان المصرية والبريطانية هذا العرض . أما اليوم فحكومة الحبشة تطلب هذا المبلغ جزية سنوية مقابل انتفاع من يريد الانتفاع باراضى هذه البحيرة

وقد يتساءل بعضهم : كيف تحجز المياه التى تسقط فى فصل الامطار فى بحيرة تسانا مع ان هذه البحيرة هى التى تغذى النيل الازرق اثناء الفيضان . وماء النيل الازرق فى هذه الفترة مشبع بالطمى فيجب ان تكون مياه تسانا مشبعة بالطمى كذلك . فاذا حجزت رسب الطمى فى قاعها فارتفع هذا القاع وبلغ من ارتفاعه على تطاول السنين ان تطمى كلها . وهذا تساؤل من لا يعرف مصدر الطمى وطبيعة اراضى البحيرة المذكورة . فهى صخرية واقعة فى مرتفع جبلى . ومياه الامطار التى تنزل اليها تنزل اكثر صفاء من مياه النيل فى اى وقت من اوقات السنة . فأما الطمى فيتكون من اختلاط مياه الامطار بسفوح جبال الحبشة ومن انحدار الماء المشبع بتراب هذه السفوح الى مجرى النيل الازرق بعد خروجه من بحيرة تسانا . لذلك كان حجز هذه المياه فى هذه البحيرة منذ نزول الامطار فيها صالحا من الجهة الفنية غاية الصلاح وكانت خزانا طبيعيا بديعا لرى سهل الجزيرة ولترك ما يفيض من الماء ينحدر الى مصر

على ان الحكومة البريطانية كانت تتباطأ فى مفاوضاتها مع الحبشة بهذا الشأن بعد ما بدا لمشروع الجزيرة وجه من الصعوبة لا يتعلق بالرى ولكن يتعلق بالافات التى اصابت زراعة القطن فيها . فقد كانت نتيجة زراعة القطن فى اول امره تفوق كل تصور ، اذ انتج الفدان من السكلاريدس اكثر من خمسة قناطير ونصف قنطار . لكن امراضا غير معروفة فى مصر وما تزال اسبابها الحقيقية غامضة سرعان ما اصابت النبات فأضعفت من متوسط محصول الفدان اضعافا جعل حكومة السودان والحكومة البريطانية تفكر ان فى الامر تفكيرا جديا . ونظرة فى الاحصاء الرسمى عن حاصل الفدان فى الاماكن

المختلفة والسنين المختلفة تقنع القارىء بأن الامر يستحق التفكير بالفعل :-

السنة	الطيبة	بركات	الحوش	وادي النو
١٩١١ - ١٢	٥و٣٢	—	—	—
١٩١٢ - ١٣	٥و٦٢		—	—
١٩١٣ - ١٤	٣و٨٠		—	—
١٩١٤ - ١٥	٣و١٠	٥و٣٩	—	—
١٩١٥ - ١٦	٣و١٠	٣و٤٨	—	—
١٩١٦ - ١٧	٣و٤٧	٣و٢٠	—	—
١٩١٧ - ١٨	٤و١٠	٢و٦٦	—	—
١٩١٨ - ١٩	٤و١٣	٣و٥٠	—	—
١٩١٩ - ٢٠	٥و٦٠	٤و٩٨	—	—
١٩٢٠ - ٢١	٣و٢٠	٣و٥٠	—	—
١٩٢١ - ٢٢	٣و٤٦	٣و٨٤	٤و٣٢	—
١٩٢٣ - ٢٤	٤و٩٠	٤و٠٠	٣و٤٠	—
١٩٢٣ - ٢٤	٢و٥٤	٢و٨٧	٢و٨٨	٢و ٨٨
١٩٢٤ - ٢٥	٢و٣٣٨	٢و٢٨٨	٢و٣٩٠	٢و٠٤٦

هذا الاحصاء صريح فى الدلالة على خطر الحالة وتطلبها العناية والبحث . لذلك قامت الجمعية الامبراطورية لزراعة القطن بالاشتراك مع نقابة زراعة السودان ومع حكومة السودان بوضع برنامج شامل للمباحث التى يجب ان تعمل لفحص أسباب هذه الامراض ووسائل علاجها . وتكونت بلندره هيئة استشارية مثلت فيها هذه الجهات الثلاث ، وظيفتها فحص التقارير الزراعية الخاصة بمشروع الجزيرة واسداء النصيحة فيما يجب القيام به من المباحث فى العام الذى يلى هذه التقارير

أما مزرعة مباحث الجزيرة الكائنة على مقربة من واد مدنى والممتدة على مساحة قدرها ثلاثمائة وخمسون فدانا فقد أمدت بما

يجب لبحث المسائل التى تحسن زراعة الجزيرة . فأقيمت المعامل ليعمل فيها علماء للنظر فيما تقتضيه البحث الكيمانى والنباتى ولاجراء التجارب الخاصة بانتقاء بذرة القطن التى يمكن أن تصلح فى أراضى الجزيرة من غير أن تصاب بما أصيبت البزرة القديمة به من الآفات .

واكبر ظن الفنيين فى الوقت الحاضر أن هذه الآفات التى تفشت فى زراعة القطن سببها رطوبة الارض بعد ريها ريا صناعيا ، وأن هذه الرطوبة لم يقف أثرها عند توليد جراثيم لاتصيب الاظاهر شجرة القطن بل تولدت عنها جراثيم امتدت الى بذور القطن نفسه . على أن هذا مايزال فى حيز الظن الى أن تجلو المباحث العلمية الحقيقة

غير أن تباطؤ الحكومة البريطانية فى المفاوضات الخاصة بمشروع تسانا لم يثنها عن مطالبة الحكومة المصرية بزيادة الثلاثمائة الف فدان التى كانت تزرع فى الجزيرة الى اربعمائة وخمسين الفا . وقد بحث هذا الطلب بعد صدور الانذار البريطانى لمصر على أثر مقتل سير لى ستاك باشا فى القاهرة مما سنفصله فى الفصل القادم .

يوم فى جبل الأولياء
مشروعات الرى الكبرى

كانت زيارة جبل الاولياء ومشاهدة ما تم هناك من الاعمال لانشاء قنطرة الحجز التى اريد تشييدها لفائدة الرى فى مصر خاصة ، من أول ما عنيت به منذ نزلت الخرطوم . وذلك بأن الحكومة المصرية كانت قررت هذا المشروع . وبأن الاعمال كانت سائرة فيه على مهل حقا ولكنها كانت مستمرة فى انتظار طرحه للمناقصة العامة وتولى أحد البيوتات الهندسية الكبرى اقامته . ولم يقم أحد باعتراض جدى على هذه الاعمال واستمرارها منذ انتهت اللجنة الدولية التى بحثت الخلاف الذى كان حاصلا بشأن مقاييس مشروعات ضبط النيل بين السير وليم ولككس والمستر كندى من ناحية والسير مردخ ماكدونالد من الناحية الاخرى . فمن يوم حكمت هذه اللجنة بصحة نظرية السير ماكدونالد وابطلت ما تمسك به خصماه فى شأن المقاييس التى اقام هو عليها حسابه وفى شأن توزيع المياه من طريق قناطر الحجز بين مصر والسودان توزيعا لا يضر أولوية مصر التاريخية — من ذلك اليوم استمرت الاعمال فى مكوار الى ان تمت اقامة خزان سنار ، وارادت الحكومة المصرية الاستمرار فى تشييد خزان جبل الاولياء لولا أن الاموال التى قدرت من قبل الحرب لاقامة هذا الخزان وقدرها مليون من الجنيهات لم تصبح كافية بسبب الغلاء الذى عقب الحرب ، وان الحكومات المصرية التى كانت تتوالى فى ذلك الحين كانت فى وضع سياسى غير منتظم لم يمكنها من تقرير الاعتمادات اللازمة لانشاء خزان جبل الاولياء . فلما توالت الحكومات بعد اعلان مصر استقلالها لم

تستطع احداها الفصل فى الموضوع الى ان تولى معالى اسماعيل باشا سرى وزارة الاشغال منذ أواخر سنة ١٩٢٤ الى شهر مايو سنة ١٩٢٦ . واذ كان معاليه ممن عملوا فى تقرير مشروعات الرى ومن بينها جبل الاولياء فقد قررت الحكومة التى كان فيها الاعتمادات اللازمة للسير فى العمل .

والى ذلك الحين لم تكن فكرة اعمال خزان جبل الاولياء وتعلية خزان اسوان الحالى تعلية ثانية قد وجدت انصارا فى الحكم ولا كانت قد وجدت انصارا اقوياء خارج الحكم . لذلك كان طبيعيا ان اتمكن من الذهاب اليه صبيحة يوم الثلاثاء ١٩ يناير اذ كان برنامج حفلة افتتاح خزان سنار خاليا يومئذ . لكن اشتغال مواطنينا القائمين بامر جبل الاولياء باستقبال سرى باشا وزير الاشغال لم يجعل اجابة طلبى هذا ميسورة . فقضيت الثلاثاء بأم درمان وانتظرت الى يوم السبت الذى يلى وصولنا الى الخرطوم بعد حفلة سنار ، وفى هذا اليوم أعددت عدتى للذهاب مع مفتش رى جبل الاولياء محمد بك صبرى شهيب الذى تفضل بدعوتى كى اصحبه فى سيارته .

تقع قرية جبل الاولياء على بعد خمسة واربعين كيلو مترا الى جنوب الخرطوم على النيل الابيض . وقد اختيرت بعد ان اثبت جس قاع النهر ان القاع صخرى عندها فلا يحتاج الى نفقات جسيمة يجب انفاقها للوصول الى طبقة صخرية بعيدة عن القاع بعدا كبيرا . وكانت قد دارت بخاطر السير وليم ولككس حوالى سنة ١٩٠٩ فكرة انشاء قنطرة الحجز على النهر بين الخرطوم وام درمان لتغنى فى الوقت نفسه عن اقامة جسر بين عاصمتى السودان . لكن هذه الفكرة اهملت لما كان يترتب على الحجز من اتساع مسطح المياه اتساعا يضر البلدين جميعا ضررا جسيما

كنت اود لو استطعت بدل الذهاب فى السيارة ان اركب السفينة التى يسافر فيها المهندسون من الخرطوم الى جبل الاولياء ، لكن قيامها فى منتصف الساعة السادسة صباحا



وكانت عربة القطار التى يحلها السـيد الميرغنى أكثر حيـاة
وبركة من ضريح

وخشيتى عدم التبكير فى اليقظة عدلا بى عن هذا الميل . فلما
استيقظت فى الصباح الفيت الوقت مبكرا مما جعلنى أود لو
وجدت الوسيلة لاخطار مواطنينا المسافرين على ظهر النهر .
وزاد هذا الميل عندى ما كان من صحو السماء ودفء الجو
وتغريد العصافير فوق أشجار الفندق . لكنى بعد قليل من
التفكير وأنا ما أزال فى سريرى متمتعا بما حولى من دواعى
الكسل عدلت فعضبت أن أتناول الفطور [illegible] فى انتظار مجىء
السيارة فى الساعة السابعة والنصف . وقبيل هذا الموعد
كنت قد [illegible] وغادرت الغرفة الى شرفة الفندق حيث
انتظرت الى حين حلولها . ولما [illegible] فنزلت الى
[illegible] لارى [illegible] فيه ذهابا وجيئة .
ووجدت [illegible] فلحت [illegible]
[illegible] فى هذا الوقت [illegible]
شمسه [illegible] الاخرى [illegible]
[illegible] . واذا كانت الحديقة
لا تبلغ ركنا من أركان حديقة [illegible] خرجت منه بعد
ربع ساعة . ويممت الفندق من جديد . واذ وصلت الى بابه
كان [illegible] يسار عنى [illegible] وركبنا السيارة
التى احترقت بنا شوارع الخرطوم وانطلقت الى فضاء كأنه
الصحراء

نعم كأنه الصحراء . ! فهو ليس صحراء كالتى قطعها
القطار بين حلفا وأبى حمد والتى لا تعرف من صور الجماد غير
« السدادات » المنقطعة عند المحطات من نمرة ١ الى نمرة ١٠
لكنه مع ذلك رمال فسيحة ممتدة يقدم علينا الحين بعد
الحين [illegible] به بعض [illegible] ان [illegible] به غير منقطعة
كل الانقطاع وبعضها شجيرات يدعونها « العشار » أشبه
شىء فى [illegible] على الارض وفى قتام لون ورقها وفى
[illegible] الموحش لا يحييه طير ولا حشرة بتلك الشجيرات التى
تقوم الى جانب كثير من مقابر الارياف . وفوق هذه الرمال

وبين تلك الشجيرات ظلت السيارات فى انطلاقتها مسرعة وظللنا لا نرى انسا مدى ساعة ونصف الساعة . وحتى هذه « التكلات » القائمه فى بعض « الديم » والمبنية من الطين . لم يقم حولها رجل ولا امراة . ثم بلغنا قريه جبل الاولياء . وهى اقرب للكفور والعزب منها لقرى الريف . بل اقرب للكفور والعزب الصغيرة منها الى العزب الكبيرة .. ومن قبل ان نمر بهذه القرية تبدى امامنا جبل قليل الارتفاع هو الذى سميت باسمه القرية . وهو جبل قاحل من حجر جيرى كسته الشمس المحرقة لونا كالحا .

وتقدمنا نحو مستعمرة الخزان التى اقامتها الحكومة المصرية للمهندسين والعمال الذين سيقومون بالتشييد ومراقبته . وفى هذه المستعمرة منازل عده وبها مستشفى وقد زرعت فيها بعض الاشجار . وسرنا بين هذه المبانى التى اقيمت من حجر الجبل الى ان وصلنا مقر تفتيش جبل الاولياء ولعلك ان اردت ان تستوضح منه صورة موفق الى ذلك اذا كنت قد رايت بعض دواوين الهندسه فى مراكز مصر او بعضا من مبانى المحاكم الجزئية فى هذه المراكز

دخلنا التفتيش وجاء الموظفون فاذا بى فى وسط مصرى خالص ، واذا احد هؤلاء الموظفين كاتب كبير ما ظهر اسمه على صفحات الجرائد المصرية على مقالات فى التفكير والاجتماع ، ثم راى جبل الاولياء ووزارة الاشغال اكثر فائدة وجدوى من صناعة القلم . وجعل صبرى بك ينظر فى اوراق التفتيش زمنا . ولما اردت ان اقف على بعض معلومات خاصة بالخزان ذهب الى غرفة مجاورة ثم عاد يخبرنى ان المهندس المقيم مستر تيبر (Ths Resident Engineer Mr. Tabor) يفضل أن نزور المبانى التى تجاور الخزان وان نشهد مكان الخزان وان نرى الاستعداد للتشييد وما حوى هذا الاستعداد من تجارب هندسيه كى اتمكن بعد ذلك من ان اطرح عليه ما اريد سؤاله عنه

وسرنا صوب النهر الى حيث تقرر بناء قنطرة الحجز مارين فى طريقنا بسكك حديد ضيقة (ترولى) لنقل الاحجار والعمال .. ثم انعطفنا فتسلقنا الى حيث كان يقام بناء جديد للتفتيش يشرف على النهر ويمكن للمقيم به ان يرى العمل اثناء سيره وان يراقبه مراقبة دقيقة ، ولذلك سمى هذا البناء منزل الخزان . ومن عند هذا البناء تسلقنا من جديد قمة وضع فوقها حجر المحور كما يسمونه ومنه يرى الانسان على شاطىء النهر حجرين على خط مستقيم معه هما موضع بداية البناء عند كل شاطىء . وعلى حجر المحور هذا اعتاد الزائرون ان يكتبوا اسماءهم . وعليه كتبت اسمى انا ايضا مثلما يكتبون .

وانحدرنا من عند حجر المحور الى بناء التفتيش الجديد فالى شاطىء النهر ونحن نتحدث عن هذا الخزان وبنائه فلما كنا عند الشاطىء لفت نظرى حوض كبير فى الارض بنى من أحجار الجبل فسألت عما هو . فاذا السير موريس فترموريس المهندس الانكليزى العظيم فى شئون العمارة كان قد استدعى الى هذه المنطقة ليبدى رأيه من الوجهة الفنية فيما اذا كانت أحجار جبل الاولياء صالحة لاقامة قناطر الحجز منها أو أن ضروريا جلب أحجار الجرانيت من ناحية مكوار أو ناحية أخرى أقرب منها . وقد بنى هذا الحوض من حجر جبل الاولياء وملىء بالماء لمعرفة تأثير الماء فيه ولتقدير قوة مقاومة القناطر التى تبنى منه . ومع أن هذا الحجر ثبتت قوته فقد ابدى الخبير الفنى رايه بأنه يفضل بناء القناطر من جرانيت وجد على مسافة أربعين كيلو مترا من جبل الاولياء ويقتضى نقله نفقات غير قليلة ، لكن النفقات يجب أن لا يقام لها حساب كبير عند اقامة أعمال هندسية لها صفة الدوام كقناطر الحجز لخزن مليارات الامتار المكعبة من المياه ذات الضغط الشديد

واستدرنا عند هذا الحوض الى ناحية صهريج ماء مرتفع واقع عند شاطىء النهر لتغذية بعض أعمال البناء والهندسة القائمة هناك والى جانب هذا الصهريج امتد فى وسط النهر جسر ضيق لا يتسع

لاكثر من شخص واحد يسير عليه ويصل بين الشاطئ وورشة عوامة سمعنا منها أصوات المطارق التى كانت تعمل لاتمام معدات الباخرة كسلا الواقفة الى جانبها فوقفت بعد خطوات من الجسر هنيهة وأجلت البصر فيما حولى . أين أنا الان ؟ ... هذا هو النيل أمامى أراه كما أراه فى دمياط وفى المنصورة وفى القاهرة وفى أسيوط وفى اسوان . وهذه شمس الشتاء الدافئة فوقى تبعث من خلال السماء الصافية البديعة الصفاء أشعتها المحسنة التى تتعاون مع الماء لبعث الحياة فى أنحاء الوجود . وهذه هى الباخرة كسلا يقوم بالعمل لاعدادها جماعة من اخوانى المصريين . وهذه الاراضى المتسعة حولى أشبه فى طبيعتها السهلة رغم قيام جبل الاولياء فيها بطبيعة الوادى من مصر الى حلفا والى الخرطوم تقوم فوق اراضيه المنبسطة جبال لا تزيد على جبل الاولياء ارتفاعا . وهاهم السودانيون الذين جمعت بالخرطوم يتكلمون باللغة التى نتكلم بها ويدينون مثلى بالاسلام ويتصلون كما اتصل بماض مجيد بعرف الفراعنة وعرف الرومان وعرف العرب . ألست اذن فى بيئتى الطبيعية ؟ أليس هذا الصمت المحيط بى يوحى الى من العواطف والمعانى بما يوحى به صمت ارياف مصر ؟ أوليس ذلك حجة على ان النيل المحسن ب لكل من اقام على ضفافه الفياضة بالخصب والخير والبركة ، وكل من اقاموا على هذه الضفاف اخوان يجب ان ينعموا احرارا بخيرات ابيهم العظيم

وسرنا فوق الجسر الى الورشة العوامة وارتقينا فوق سطح الباخرة كسلا . وكسلا احدى بواخر وزارة الاشغال التى تقل المهندسين ومفتشى الرى المصريين بين الخرطوم والملاكال واعالى النيل الابيض وهى فى غاية الجودة . تمتاز غرفها وسعتها وتعد لراحة المسافرين عدة وسائل كاملة . والشىء الذى تمتاز به هذه البواخر الصغيرة التى تسير فى اعالى النيل غرفة كبيرة من السلك يقيم بها المسافرون ليقيهم فعل ناموس الملاريا بهم .

والمسافرون يلجأوا فى الشتاء الى هذه الغرفة نهارهم ويأوون الى الغرف العادية ساعات الليل . اما فى الصيف فالغرف العادية لاتحتمل ليلا ولا نهارا . عندذاك تصبح غرفة السلك هذه هى المأوى وهى الملجأ اليوم كله

وعدنا من حيث أتينا وغادرنا وراءنا كسلا والورشة العوامة وصهريج الماء والحوض الذى بنى من الحجر وارتقينا الشاطىء حتى وصلنا الى ورشة كبيرة سورت بحوائط من الصاج وقام بالعمل على وابوراتها جماعة من المصريين . وهذه الورشة مستعدة لكل مايحتاج الامر اليه فى اعمال التشييد والبناء .

ورجعنا الى تفتيش الرى وقابلت مستر تيبر المهندس المقيم الذى ابدى لى ، بعد تناول التحية ، تمام استعداده لاجابتى عن كل ما اريد أن أسأل عنه فى شئون الخزان الفنية . قال : « اما الاعتبارات السياسية فليست من شأنى ولذلك لاجواب لها عندى »

وقبل ان نبدأ الحديث اطلعنى على خريطة الخزان الذى يمتد — بعد تمام بنائه — من جبل الاولياء الى الدويم . ولما كانت هذه المنطقة تبدو للنظر رملية وكان تسرب المياه اثناء الرمال مما يسهل تصوره . كان اول ماسألت المهندس المقيم عنه اذا لم يكن الخزان فى هذه المنطقة من وادى النيل مضيعا لكميات كبيرة من المياه خصوصا وان ارتفاعها فى النهر مدة التخزين يجعل ضغطها على الرمال اكبر . ومن شأن ذلك ان يزيد كمية المتسرب خلال الرمال ؟

فكان جوابه :

« لقد ورد مثل هذا الخاطر بنفس الذين فحصوا هذه الارض قبل البت ببناء الخزان عليها ، فقاموا باجراء تجارب اقنعتهم ان الارض صماء لا تتسرب المياه خلالها اكثر مما تتسرب خلال اية منطقة جبلية . وما نزال نحن موالين اجراء مثل هذه التجارب وكل ما نقوم به منها يزيدنا اقتناعا بصلاح المنطقة للخزان . من هذه التجارب انا حفرنا ابارا كثيرة على شاطىء النهر ما بين

جبل الاولياء والدويم وتركناهذه الابار ازمانا طويلة . وقد لوحظ ان هذه الابار لا تتاثر بالفيضان ولا بالتحاريق . فارتفاع الماء فيها وغيضانه منها لا علاقة له بتة بارتفاع النيل وانخفاضه . وهذا دليل على ان تسرب الماء في هذه الارض ليس يسيرا كما قد يبدو للنظرة الاولى . وزادنا اقتناعا بصلابة الارض وعدم قابليتها للتسرب ان المياه فى هذه الابار لم تكن ترتفع وتنخفض وتغيض بنسبة واحدة ولا فى اوقات واحدة : فمن هذه الابار ما كان يرتفع مرة اكثر من غيره ومنها ما كان يغيض فيه الماء بينما ما يزال غيره يرتفع الماء فيه . وفضلا عن ذلك كله فان ارتفاع الماء فى هذه الابار لم يصل يوما من الايام الى محاذاة ماء النهر ولم يزد يوما على ان كان ماء نشع كما يرى فى اية منطقة غير منطقة جبل الاولياء وكما يرى فى بعض المناطق الجبلية الصخرية

« هذه واحدة من التجارب . وتجربة اخرى اننا وضعنا اسطوانة نحاسية ارتفاعها خمسة امتار عمودية على هذه الرمال وملاناها بالماء . وتركناها اياما طويلة فلم ينقص الماء فيها اى نقص مما يدل على ان الرمال لم تتشرب منها شيئا

« واكثر من خمسين تجربة من هذا النوع اجريناها وكلها دلت على ان ارض هذه المنطقة صماء وان التخزين بها لا يخشى معه من تسرب الماء خلال الارض ولا من تشرب الارض للماء . فاذا لوحظ الى جانب ذلك كله ان مقدرة الارض على التشرب تنتهى كما تنتهى مقدرة الماء على اذابة اى مادة قابلة للذوبان – كالسكر وكالملح – تلقى فيه . وان فيضان النيل فى هذه المناطق يرجع الى الاف السنين لم يبق امامنا موضع للريبة فى ان نظرية التسرب نظرية لا اساس لها »

لم اجد ما اعترض به على هذه الاقوال ؛ ولاحظ ذلك مستر تيبر . فانتقل من مسالة التسرب الى الحديث عن جبل الاولياء ووظيفته الحقيقية فقال :

« تعلم ان مصر بحاجة الى اربعة عشر مليارا من الامتار

المكعبة من الماء لامكان ري كل ما يمكن ريه من أراضيها القابلة للزراعة . وخزان اسوان الحالي لا يحجز اكثر من مليارين ونصف مليار . وخزان جبل الاولياء لن يقوم بحجز كمية اكثر مما يحجز خزان اسوان . ولا سبيل الى الحصول على التسعة المليارات الباقية لسداد حاجات مصر المائية في مستقبل غير بعيد الا بالتخزين على البحيرات الاستوائية التي ينبع منها النيل الابيض . وهذه هي مشروعات الري الكبرى التي يفكر فيها منذ زمان طويل — من أيام كان السير وليام جارستن مستشارا لوزارة الاشغال المصرية . والمياه المخزونة في المناطق الاستوائية لا تصل الى مصر قبل ثلاثة اشهر او ثلاثة اشهر ونصف . فلا مفر والحالة هذه من وجود حوض منظم تحجز عنده كميات من المياه كافية للحاجات العاجلة ويمكن ان تصل الى مصر في اسبوعين او ثلاثة اسابيع ذلك بانه اذا طلبت اسوان الماء اللازم لمصر من بحيرة البرت التي سيكون عليها الحجز العام فمن الواجب ان يطلب هذا الماء للحاجات التي تنتظر في مصر بعد ثلاثة اشهر او اربعة . وقد يكون من الصعب التنبؤ بما سيكون من هذه الحاجات . ففي اثناء ثلاثة اشهر او اربعة قد ينزل من الامطار في منطقة الحبشة او في منطقة اخرى ما يغني مصر عن هذه المياه . وفي هذه الحالة — حالة ما اذا لم يكن هناك حوض منظم ترسل المياه منه بدلا من البرت لاسوان مباشرة — يضطر رجال الري الى ترك هذه المياه تنصرف الى البحر الابيض المتوسط وتضيع فيه . والغرض من [illegible] الحجز انما هو [illegible] من ترك الماء يضيع [illegible] عند الحاجة . فاما مع وجود خزان جبل الاولياء [illegible] مصر المياه التي [illegible] . والحجز بعد ان يصبح على بحيرة البرت [illegible] عدم ذهاب شيء لا مسوغ له من حجز [illegible] الماء بعد الاسبوعين او الثلاثة الاسابيع [illegible] المسافة بين جبل الاولياء الى اسوان . ونعرف حاجات بلاد [illegible] بعد خمسة عشر يوما ايسر كثيرا من

تعرفها بعد ثلاثة أشهر أو اربعة ففرض ضياع الماء فى البحر الابيض المتوسط تكون فى هذه الحالة اقل بكثير . وهذه هى الوظيفه الحقيقيه الدائمه لخزان جبل الاولياء . هو حوض منظم أكثر منه خزان . لكنه سيكون خزانا لى أن يتم تعديل مجرى النيل فى منطقة السدود واقامة الحجز على بحيرة البرت .

وطال الحديث بنا فى هذه الشئون ثم شكرت المستر تبر وخرجت واصحابنا المهندسين المصريين الى حيث تناولنا طعام الغداء فى دار احدهم بجبل الاولياء وتركنا هذه المستعمرة المصرية التى لاتظهر امام العين أكثر من مستعمرة صغيره تكفى خمسون الفا او مائة الف من الجنيهات لانشائها والتى يقال مع ذلك انها استغرقت ثمانمائه الف من الجنيهات : تركناها عائدين الى الخرطوم حيث وصلناها ساعة آذنت الشمس بالمغيب .

* * *

آويت الى الفندق ورأسى مشغول بمشروعات الرى الكبرى ، هذه المشروعات التى لم تشغل بال المصريين مثلما شغلته منذ سنة ١٩٢٠ حين كانت حركة مصر الاستقلالية على أشدها وحين داخل الناس الروع على مصيرهم اذا ظلت مفاتيح النيل فى يد غير يد مصر . فلقد علت الصيحة يومئذ بأن مصر كانت منذ الازل متمتعة وحدها بمياه النيل وبطميه المخصب ، فمن الغبن ومن الاعتداء على الحقوق حجز هذا الماء أو بعضه عنها لزراعة القطن او غير القطن فى السودان ، ومن الغبن وضع تصرف النيل الذى كان دائما بيد المصريين فى ايد اخرى تستطيع ان تتخذ من ذلك وسيلة لتهديد مصر فى حياتها وعيشها لسبب ولغير سبب . لكن هذه الصيحة كانت متأخرة من ناحية وكانت متهمة بالغرض الذاتى من ناحية اخرى ، وكانت سياسة سيئة كذلك .

ومع ان المصريين جميعا اشتركوا فيها اندفاعا وراء المهندسين الذين قاموا بها وفى مقدمتهم السير ويلم ولككس

والمستر كندى الانكليزيين فاننى اشعر اليوم شعورا عميقا بانها لم تكن صيحة موفقة بحال من الاحوال . كانت متاخرة لان مشروعات الرى التى قامت الصيحة ضدها لم تكن بنت الحرب بل الحرب كانت عطلتها . ولم يبدأ بحثها وتصميمها قبل الحرب مباشرة بل بحثت ووضع تصميمها وقررت المبالغ اللازمة لانشائها قبل الحرب بسنوات . مع ذلك لم يعترض عليها احد ولم ينكر احد ما افادت مصر من انشاء خزان القناطر الخيرية ومن انشاء خزان اصوان وتعليته كما لم ينكر احد حاجة مصر للماء اذا اريد التوسع فى رى المساحات القابلة للزراعة فيها . فالمبدأ من حيث هو تقرر قبل الحرب بنحو خمس عشرة سنة . وطريقة التنفيذ وضعت فى سنة ١٩٠٩ وبدأت اعمالها التمهيدية فى سنة ١٩١٢ وكان هؤلاء المهندسون الذين اقاموا الضجة فى مصر يشغلون وظائف هندسية كبيرة ومع ذلك ظلوا جميعا لا يرفع احد منهم صوتا . وكانت هذه الصيحة مبهمة بالغرض الذاتى لان سير ولككس ومستر كندى لم يعترضا كما تقدم الا حين نشاط الحركة الاستقلالية المصرية وبعدما استقل السير مردخ مكدونالد بالاشراف فى انكلترا على مشروع الجزيرة من غير ان يشتركا واياه فيه مع ما كان لهما من المقام فى الاعمال الهندسية بمصر والسودان . وكانت الصيحة سياسة سيئة لانها اتخذت حجة عند السودانيين بان المصريين يريدون الاستئثار بخيرات النيل وحدهم مع ما يعلنون من انهم يعتبرون السودان ومصر قطرا واحدا ويفضلون ان تهدر مياه النيل فى البحر الابيض المتوسط على ان ينتفع بها غيرهم ، ولو كان هذا الانتفاع غير ضار بالمصريين انفسهم ، اذا قام المصريون وقام السودانيون ببناء القناطر اللازمة التى تحجز الماء للانتفاع به بدل تركه يسيل الى البحر الابيض المتوسط .

اشعر اليوم شعورا عميقا بان هذه الصيحة لم تكن موفقة صحيح ان اولوية مصر فى الانتفاع بمياه النيل اولوية تاريخية ثابتة لا سبيل الى انكارها ، لكنها لا تؤدى الى اكثر من حق مصر فى استيفاء

حاجاتها من ماء النيل قبل غيرها . وما دامت المياه التي تفيض من النيلين الازرق والابيض يمكن حجزها والانتفاع بها لتوسيع مصر الزراعي ولزراعة السودان والبلاد الواقعة على شواطىء النيل فمن الجريمة في حق مصر وفي حق هذه البلاد المجاورة لها والمتصلة بها . وفي حق العالم وفي حق الانسانية . ان لا تضبط هذه المياه ادق الضبط وان لا تستفيد منها مصر والسودان وغير السودان الفائدة التي تجعل رأسمالها ينتج اكبر نتيجة ممكنة والتي تجد الصناعة وغير الصناعة من امور الحياة في انحدار مياه النيل مما تستطيع او مما يمكنها استخلاصه منها .

ومياه النيل اذا ضبطت تتسع فيما ارى لا لتكفي للزراعة في ارض مصر والسودان وغير السودان فحسب . بل لتجعل من كثير من الاراضي الاخرى الصحراوية واحات وجنات . وما دام العلم قد سخر للناس قوى الطبيعة فمن الجهل ومن السخافة ان لا يستفيدوا كل ما يستطيعون استفادته من هذه القوى

ولست اريد في سبيل التدليل على هذا ان اشغل القارىء في بيداء الارقام والمكعبات . فلست مهندسا واكثر القراء ليسوا مهندسين . ويكفيني ان اذكر ان حاجات مصر الحالية من الماء المخزون تعادل مليارين ونصف مليار من الامتار المكعبة . وحاجة السودان الحالية تعادل ٨٠٠ مليون متر مكعب من الماء المخزون كذلك . أما مياه الفيضان فلا حساب لها لانها أضعاف مضاعفة عن حاجات مصر والسودان أثناء الفيضان . فاذا كان ممكنا أن يحجز فضلا عن ذلك ثلاثة مليارات ونصفا في بحيرة تسانا ومليارين ونصفا عند جبل الاولياء (أو عند أسوان اذا امكنت تعلية الخزان وملؤه) واربعة وعشرين مليارا في بحيرة البرت امكن القارىء ان يتصور ما يمكن زيادته من المساحات المزروعة في مصر والسودان . وعند ذلك يشعر معنا بعدم توفيق تلك الصيحة التي اندفع الناس لها وراء انتقادات السير ولككس ومستر كندي والتي كانت ترمى الى غرض اخر

صحيح ان تفاصيل الانتفاع بهذه المياه وكفالة ما لمصر فى ذلك من أولوية يحتاج الى دقة فنية كبيرة . وان من حق المصريين المعترف لهم بهذه الاولوية ان يراقبوا تصرف مياه النيل منذ صدورها من منابعه . وقد كان ذلك متبعا الى آخر الحرب بسبب مطالبة المصريين بحقهم الطبيعى فى الاستقلال وحرصهم على وحدة مصر والسودان فى هذا المطلب أدت مع الاسف الى مناوءة انكلترا مصر هذه المراقبة المترتبة حتما على أولويتها فى الانتفاع بمياه النيل . وبلغ النزاع أشده على أثر مقتل السير لى ستاك باشا حاكم السودان العام بالقاهرة . فقد ذهبت انكلترا فى انذارها الذى وجهته للحكومة المصرية بتاريخ ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٤ على اثر هذا الحادث الى انكار اولوية مصر التاريخية والى ان ايدت حكومة السودان فى اباحة زراعة ما تريد زراعته فى سهل الجزيرة من غير حاجة الى ان تم بين هذه الحكومة وحكومة مصر اتفاق سابق على هذه الزيادة . ومن غير تقدير لما يترتب على هذه الزيادة من الضرر باولوية مصر التاريخية فى الانتفاع بماء النهر . فلما هدأت الاحوال نوعا آن للتفكير السليم ان يحل محل العجلة التى اندفعت اليها انكلترا فى تقرير سياستها بمصر على اثر ذلك الحادث عدلت عن هذه الفقرة من انذارها ، وقررت اولوية مصر فى الارتفاق على مياه النيل فى وثيقة رسمية ، واتفقت على ان تحدد لجنة المساحة التى يمكن زيادتها على الثلاثمائة الف فدان المنزرعة قطنا وان تبحث كذلك مبلغ حاجات مصر لمياه النيل الازرق ومتى يجب ان يكون تصرف هذا النهر كله وقفا على مصر فلا يكون للجزيرة الا ما حجز من الماء فى خزان سنار

وقد قامت هذه اللجنة بالمباحث التى كلفت القيام بها . والمفهوم ان الاتفاق تم على ان تزاد مساحة مشروع الجزيرة الى اربعمائة وخمسين الف فدان بدل ثلاثمائة الف . والحجة فى ذلك ان خزان سنار يكفى متى ملىء لرى نصف مليون من الافدنة

وان ملاه لا يضر بحاجات مصر للماء ، فلا ضرر من زيادة المساحة خمسين الف فدان اخرى . والمفهوم كذلك انه قد تقرر أن بدء حاجات مصر لتصرف النيل الازرق كله يقع فى اول يناير فى السنين العادية وفى ١٨ ديسمبر فى السنين الواطئة الفيضان . وعلى ذلك يجب البدء بتفريغ خزان سنار فى هذه التواريخ بدلا من ١٨ يناير وهو التاريخ الذى اشار اليه الفى بك فى المذكرة التى اثبتنا صورتها فى الفصل السابق

وقد اعترف لمصر فى هذا التقرير بحقها فى مراقبة تصرف النهر كما اعترف لها بمراقبة تصرف خزان سنار . لكن تفاصيل الوسائل التى تتم بها هذه المراقبة لم تعرف بعد . وهى لا تعنى فيما اعتقد غير المهندسين

والمفهوم ان هذا التقرير وضع المبادىء المشار اليها بصفة مؤقتة يعاد النظر فيها عند تمام انشاء خزان جبل الاولياء وضبط المياه التى تستطيع مصر ان تستفيدها منه . ذلك بان انشاء خزان جبل الاولياء كان امرا مقررا يوم وضع هذا التقرير ولم يكن يدور فى حساب احد ان توقف الاعمال فيه لاعادة النظر فى صلاحه ام فى افضلية تعلية بناء خزان اسوان على انشائه . لكن الحكومة التى عقبت حكومة زيور باشا (وهى حكومة عدلى باشا ووزير الاشغال فيها عثمان بك محرم) قررت وقف العمل فى جبل الاولياء وانتداب لجنة دولية للبت اى الاثنين افضل : انشاء الخزان المذكور ام تعلية خزان اسوان . والى ساعة كتابة هذه السطور ايضا لم تحضر اللجنة الدولية التى قررت الحكومة انتدابها منذ ستة شهور ، بل لم تدع هذه اللجنة للحضور ، بل لم تجمع المعلومات والبيانات التى تمكن اللجنة من الفصل فيما يراد منها ان تفصل فيه

ولست فنيا فى شئون الهندسة والرى لاقطع فى الامر برأى . وهذا الموضوع لا يدخل فى نطاق كتاب وضع عن عشرة ايام قضيتها فى السودان . لكن ما اخذت به نفسى فى مقدمة الكتاب من ان

اوجه حظا كبيرا من همى ومن عنايتى الى هذه المسالة الخطيرة التى لم تنج فى مصر كما لم تنج فى السودان من شوائب الشهوات السياسية ، والتى كانت سببا للنشر دعوة تثير بين المصريين والسودانيين العداوة والبغضاء جعلنى اخشى ان يكون الخلاف فى مسالة اسوان وجبل الاولياء مشوبا بهذه الشهوات السياسية بينما كان واجبا ان يظل فى دائرة البحث الفنى الصرف وان يترتب عليه ما ترتب على الصيحة العامة التى قامت فى سنة ١٩٢٠ بزعامة السير وليم ولككس والمستر كندى والتى اتهمت بما اتهمت به

والراى عندى ان مشروعات الرى التى تقام على نهر محسن كبير كالنيل ليست معاقل سياسية يرجى من ورائها اخضاع شعب من الشعوب ولكنها تحوير فى الطبيعة يتمه العلم لفائدة الانسانية وليست مصر وليست السودان وحدهما هما اللتان تستفيدان من هذه المشروعات ، بل تستفيد منها الانسانية جمعاء فائدة عظيمة . وما دام صحيحا «اقتصاديا» ان كل زيادة فى الانتاج الزراعى او المعدنى او الصناعى تحدث فى ناحية من الارض تفيد الانسانية جمعاء فمن الجريمة ان تستغل اسباب هذه الزيادة لشهوات سياسية وسيان كانت هذه الشهوات فى امر مشروعات الرى على النيل ناجمة عن مطامع انكلترا او عن مخاوف مصر ، وامام المصريين مثل فى قناة السويس وموعظة . لقد حورت هذه القناة الطبيعة لمصلحة تجارة العالم كافة فزادت بذلك رخاء الناس طرا . وبالرغم مما اثارته من الشهوات والمطامع السياسية التى اضرت بمصر فقد افادت مصر من القناة فائدة مادية وفائدة معنوية كبرى . واذا كانت لم تفد ن ما كانت تستطيع افادته فليس الذنب فى ذلك على هذا التحوير الصالح للطبيعة . بل الذنب على الظروف الخاصة التى احاطت بالاجيال الحاضرة والتى نبهنها لتمهيد السبيل لسعادة الاجيال المستقبلة

ومشروعات الرى الكبرى تحوير للطبيعة من هذا النوع . فالطبيعة تجعل مياه النيل تنحدر بها الامطار فى فصل معين من السنة فتنساب فى مجراه لتضيع فى البحر الابيض المتوسط واذا امكن ضبطها للاستعانة بها فى فصول السنة المختلفة . كان ذلك خيرا لمصر وللسودان وللناس جميعا فى اقطار الارض المختلفة . وقد عولج ضبط هذه المياه منذ قدماء المصريين وعولج فى القرن الاخير بنجاح . فمن الجريمة عدم ضبطها اليوم ولدينا من وسائل العلم مايمكننا من ذلك .

واذا كان واجبا ان يعلن أمثالى من غير المهندسين هذا الرأى بمثل هذه الصراحة فواجب المهندسين الذين يحترمون انفسهم ويريدون ان يسخروا علمهم لمنفعة وطنهم وخدمة الانسانية أن يعلنوا آراءهم الفنية فى هذا الموضوع وفى كل موضوع يعتقدون صلاحه وفائدته . وليس يجدر بهم بحال من الاحوال ان يخلطوا اعتبارات السياسة باعتبارات الفن . فاعتبارات السياسة وقتية واعتبارات الفن دائمة . والسياسة ظروف تنتهز ولكن العلم والفن مبادىء وقواعد تقرر . وقد يبدو لك امر من الامور السياسية اليوم فى لون فاذا هو بعد زمن قصير فى لون آخر . وقد تحسبك مستطيعا أن تحكم تصريفه سياسيا فاذا تقديرك انقلب عليك غدا فاضطررت الى البحث عن تصريف لذلك الامر جديد . ومثل هذه الشئون الدائمة المور مع الحياة لا يصح لعالم يبحث مسألة من المسائل المتعلق بها علمه أن يدخلها فى حسابه . انما عليه ان يقول فى طمأنينة ضمير وطهارة ذمة مايعتقد حقا عليه لعلمه وحده ان يقوله . ويجب عليه لذلك ان ينسى ساعة ابدائه الرأى انه امة ضعيفة وان ينظر فى الامر لذاته لا للظرف السياسى المؤقت المحيط به

ولعل هذه النظرة العالية المتجردة عن العاطفة السياسية

أهون على المصريين فى مشروعات الرى الكبرى منها فى أية مشروعات اخرى . فالسودان ومصر وطن واحد فى الحقيقة . وأهل اصوان اقرب الى حلفا منهم الى القاهرة . والروابط التى تربط مصر والسودان كثيرة وثيقة ان ضعضعتها احداث السياسة يوما فلن تفضها . ثم هى لن تضعضعها الا الى اجل . وذلك الاعتبار أصح اليوم منه فى كل يوم مضى . فالامم فى الغرب والشرق تتقرب بعضها من البعض الآخر ولو كانت بينها فواصل طبيعية وليس بينها من الصلة ما بين مصر والسودان . وكلما ازدادت وسائل المواصلات تهدمت الحدود الصناعية بل الحدود الطبيعية . واذا كانت الامم تسعى اليوم للقضاء على الحواجز الجمركية التى أدت كثرتها الى ما يعانيه العالم منذ الحرب الكبرى من ازمات اقتصادية فمعنى ذلك أن ما أقيم فى الماضى من الحواجز الصناعية سيتهدم بطبعه

ولسنا الآن بمعرض بحث هذه العلاقة بين مصر والسودان فسنفرد لها الفصل الاخير من هذا الكتاب . لكنما نورد ما اوردنا لنقول أنه اذا وجب على رجال العلم ان يطرحوا جانبا اعتبارات السياسة فى أبحاثهم فذلك اوجب فى بحث مشروعات الرى الكبرى بين مصر والسودان

عشية الأوبة
يوم بحلفا وبشلال حلفا

عدت من حبل الاولياء مساءوقد اعتزمت السفر بالقطار الخاص الذى ببرح الخرطوم صباح الغد قاصدا حلفا . وكان فى نيتى ان اتناول طعام العشاءثم أحزم متاعى وآوى الى مضجعى لاستريح من عناء هذه الايام التى قضيناها بالسودان فى مثل نظام الجند حلا وترحالا . لكن عزمى لم يتحقق اذ لقيت جماعة من اصحابنا الذين دعونا الى الشاى بالمكتبة القبطية امس فى بهو الفندق ومعهم بعض اخواننا المصريين الذين جعلوا من مقامنا بالخرطوم مقاما بين اهل واصدقاء فأمضينا شطرا من الليل تناول حديثنا فيه شتى من شئون السودانيين والمجهودات التى تقوم بها حكومة السودان فى سبيل تعميره ليكون مزرعة من ابدع مزارع القطن فى العالم . واهل السودان قسمان : عرب وزنوج فأما العرب فيمتازون بدقة فى قسمات الوجه وبرقة الشفاه وارتفاع قصب الانف . وهم ينقسمون أفخاذا وعشائر كشعوب شبه الجزيرة . اما الزنوج ففطس الانوف غلاظ الشفاه غائرو الاعين . وهم يقيمون اغلب الامر فى داخلية السودان تحت امرة سلطان منهم ماتزال نفسيته نفسيتهم وروحه روحهم . وبرغم امتداد الحضارة الى الخرطوم والى ام درمان عن طريق اهل الجنسيات المختلفة الذين يقيمون بهما وعن طريق المصريين بنوع خاص اذ يمتون الى العرب السودانيين بكثير من الصلات بينها الدين واللغة والمصاهرة والعادات ، فان داخلية السودان

ماتزال فى شبه الحياة البدائية التى يقصون مثل قصصها عمن عاشوا فى مجاهل الارض منذ آلاف السنين . قص احد الذين حضروا معنا فى هذه الامسية انه كان مسافرا الى وجاف فى المنطقة الاستوائية ، فمر بأحد السلاطين الزنوج وطلب ان يحظى بالمثول فى حضرة عظمته وظهر من وراء السلطان مائتان ، معلمة رماحهم ، وكلهم فى خدمته ، فلما حظى محدثنا بحضرة السلطان قدم الى عظمته من الهدايا بعض المرايا وبعض الورق المفضض الذى تلف به قطع الحلوى ، فكان اغتباط عظمته بهذه الهدايا عظيما ولعله امر لمن قدمها بشىء كثير من العاج ومن ريش النعام .

وقص محدثون اخرون شيئا من مثل هذا القصص فأذكرنى ذلك جان جاك روسو ورجل الطبيعة الذى صوره فى كثير من كتبه والذى جعله المثل الاعلى للسعادة ودمعه ان تعود الانسانية الى احتذاء مثاله . وابتسمت لهذه الذكرى وتساءلت لو كان يرضى روسو بمثل عيش هذا السلطان وجنوده . ثم سرعان ما زالت ابتسامتى حين سمعت المحدثين يذكرون من شهامة هؤلاء الزنوج وبسالتهم واحتقارهم الحياة واقدامهم على الموت طائعين . زالت ابتسامتى وتخيلت روسو منتصرا يقول : « أرأيت يا صاح انهم سعداء لان مطامع الحياة وشهواتها لم تكتسح من نفوسهم اسباب العظمة الحقة التى تصل الانسان بالطبيعة وتجعله جزءا منها سعيدا بها مطمئنا اليها . وهم سعداء لان العلوم والفنون لم تخدعهم بباطل زخرفها ولم تزين لهم من الوان اللهو متاع الغرور ، ثم هم سعداء لانهم يعيشون عيش البساطة فكل ما ينالونه من خير يزيدهم سعادة . فلم لا تعيش الانسانية عيشهم فتطرح وراءها هذا الزخرف الباطل الذى نسميه الحقائق والعلوم والفنون والذى لا يزيد على انه عبث الذهن ولهو الخيال ؟ »

وأمسكت عن الاندفاع فى هذا التفكير حين اضطررت لمشاركة اخواننا المتحدثوا عن مصر واحوالها وسألونى عما اعتقده مصير ما تم بين أحزابها من ائتلاف . والحديث فى السياسة كحديث الافاعى

يطول . فاستغرق كلام اخوانناقى مصر وشئونها بقية سهرتنا . ثم ودعونى واعتذر جماعة منهم بعملهم عن توديعى ساعة الرحيل من الخرطوم

وتنفس صبح الاحد ٢٤ يناير واعتلت شمسه سماء السودان الصافية الاديم وتناولت الشاى واعددت متاعى وذهبت الى قاعة الطعام للافطار ثم خرجت من بهو الفندق الى حديقته الصغرى التى تفصل بين سياج الفندق وبنائه. والفيت عند الباب سيارة كبيرة وسيارات صغيرة بعثت بها حكومة السودان لتقلنا جماعة ضيوفها الى المحطة فى طريق عودتنا الى مصر . وتخطيت الشارع والقيت نظرة على صفحة النيل الازرق وتلفت حولى أودع هذا المنظر الذى ألفته وألفنى أسبوعا كاملا . فى هاته اللحظة دب الى نفسى احساس يخالجها كلما فارقت بلدا احتوانى وأنا فى شك من العودة اليه . واحساس الفراق يمتزج فيه الالم بالامل ، والخوف بالرجاء . وهل الفراق الا بعض صور الفناء والعدم والموت ! هل هو الا انهيار ما نفارق فى لجة مالا نرى وما لانحس الا خيالا وحدسا . فى هذه اللجة الفسيحة الممتدة الى اللانهاية والمحجوبة عنا بآفاق قريبة لانزيد على مدى ماتصل اليه حواسنا . وهو انهيار مخوف فى لجة الزمن الذى لايذر العالم لحظة من غير مور ولا تجدد . ومن يدرى ماتكون الخرطوم وام درمان والسودان ان قدر لى ان اعود اليه بعد سنوات ؟! هل أجد هذه الاشياء التى الفت والتى اصبحت جزءا من حياتى كلما خلفتها ؟ ام ارى مكانها شيئا جديدا أسدل عليها ستار الفناء وقام مقامها ! والحق عندى ان كل ماترى وكل مانحس وكل عاطفة تهز فؤادنا وكل فكرة تجول بخواطرنا هى بعض حياتنا القصيرة التى تنقضى بعد أن تصبح هى الاخرى بعض حياة الوجود الازلى الابدى . ولئن كان كل ما يصيب المادة يترك فيها أثرا لايزول — على حد قول هربرت سبنسر — فما اشك انا فى أن كل مايصيب حياة الوجود يترك فيها أثرا لايزول

دب الى نفسى الاحساس بالفراق حين رأيت السيارة الكبيرة التى أعدت لنقل المتاع والسيارات الاخرى التى اعدت ليستقلها المسافرون . ومن شأن الظروف التى تحيط بنا ساعة الفراق ان تجعل هذا الاحساس مبهما . فنحن ساعتئذ فى شغل بمتاعنا وبالمسافرين معنا وبما ينتظرنا فى سفرنا . وكنا جماعة المسافرين من الخرطوم أشد ما نكون شغلا . فهذا يبحث عن بعض ريش النعام يهديه أصدقاءه فى مصر أو فى غير مصر . وهذا قد نسى بعض ما ابتاع أمس فى مخزن مقفل اليوم — يوم الاحد — ويريد أن يدبر الوسيلة للحصول على ما ابتاع . وهذا ثقل متاعه فما يدرى كيف يحزمه . ورجال البوليس وسائقو السيارات يستعجلون المسافرين لينتهى واجبهم . واخيرا سارت السيارات تخترق بنا طرق الخرطوم فازدادت نفوسنا احساسا بمعنى الفراق . ثم انطلق القطار فى منتصف الساعة التاسعة يقطع الطريق التى قطعناها آتين من حلفا حتى بلغ عطمور أبى حمد بعد ما أرخى الليل سدوله . ولفظنا حلفا فى منتصف الساعة العاشرة من صباح الغد . ونقل متاعنا من القطار الى الباخرة بريطانيا التى كان مقررا ان نسافر فى أولئك المساء . فلم يك بد من ان نمضى النهار بحلفا .

حلفا بلد صغير أشبه ببنادر المراكز فى مصر فليس فيه ما يستوقف النظر . وحكومة السودان جد حريصة على أن لا يشعر ضيوفها بشىء من الملال . لذلك نظمت لهم سياحة صغيرة فى الصباح الى معسكر حلفا كما نظمت لهم نزهة بعد تناول طعام الغداء على ظهر الباخرة يزورون فيها شلال حلفا ويشهدون منه منظرا من أعجب مناظر الطبيعة وأكثرها جلالا ورهبة .

ومعسكر حلفا ، والى جانبه بيت كتشنر ، يقع على نحو ثلاثة كيلو مترات من محطة وادى حلفا . لذلك ركبنا اليه قطارا سار بنا حتى كنا حذاءه . وقد ركب معنا هذا القطار جماعة من الامريكيين لم يكونوا بالخرطوم ولكنهم جاءوا الى حلفا للنزهة

بعد ان قضوا فى فندق الشلال باسوان زمنا غير قليل استحبوا معه تغيير منظر اسوان . والامريكيون شعب جديد حقا . فالامريكى لا يشعر بأنه مقيد بما يشعر أهل العالم القديم بأنهم مقيدون به من عادات ومن قواعد للسلوك فى حركاتهم وفى نحلانهم وفى ملابسهم . ولقد لفتنا منظر شاب يسير فى سراويل بيضاء وينتعل حذاء ثقيلا غاية الثقل ويرتدى فوق أكتافه جاكتة وصدرية عجيب شكلهما . ولم يكن الانكليز ممن معنا أقل منا دهشة لهذا المنظر ، وكان هذا الشاب يسير مع سيدة نصف ورجل متقدم الى الكهولة ، عرفت فيما بعد أنهما ابواه . وان هذا الكهل استاذ باحدى الجامعات الامريكيه . واتصل بينى وبين هذه الاسرة حديث طويل أبدى الشاب خلاله من العجب للانكليز والاوربيين ومحافظتهم مثل ما ابدوا من العجب لاستخفافه بالتقاليد . ومع هذا النقد المتبادل وصل السفر بين الجميع فجعل كل يفضى الى أصحابه بما رأى وكيف تأثر به .

معسكر حلفا فضاء واسع من رمال لم يبق من آثاره الا قوس فخم لمحناه ساعة نزلنا من القطار ، وكان هذا الفضاء مضرب خيام فرق الجيش المصرى التى جاءت مع مصطفى فهمى ومع كتشنر من بعده لفتح السودان . على أنا لم نقصد بادىء الامر الى القوس ولا الى الفضاء الذى أصبح صامتا وكان من قبل معسكرا لرجال الحرب وعدته . بل ذهبنا الى دار قيل انها محافظة أو ما يشبه المحافظة كل ابوابها صدئة وليس فى عمارتها ما يلفت النظر . وانتقلنا من هذه الدار الى دار أخرى كانت منزلا لكتشنر شعرنا أول ما دخلناها بابتهاج أثاره فى نفوسنا ذلك الزرع الناضر والحضرة الباسمة القائمة امام المنزل والممتدة الى شاطىء النيل . ولقد استوقفنا هذا المنظر الناعم وسط جفاف الصحراء حوله ، واخذ بمجامعنا مزاد انفساح النهر وقيام كثبان الرمل وراءه متموجة بين صعود وهبوط كأنها بعض موجه حين الفيضان . وكان للشمس دون هذا المنظر وفى ذلك اليوم

من ايام الشتاء سنا يأخذ بالابصار ثم أدرنا عيوننا الى ناحية هذا المنزل الذى شهد من تدابير الحرب والسفك ما شهد والذى اصبح اليوم صامتا صمت مصطفى بهمى وكتشنر فى حجب الغيب وان كان على خلافهما ما يزال معرضا لعبث الحياة ولتدابير الحرب والسفك : ثلاث غرف قيمتها ماتكنه من الذكرى لاجمال فيها الا جمال ما شهدته من بطولة واقدام . الم يكن الذين اقاموا فيها قواد الجيش المصرى الباسل الذى نفذ الخطط التى وضعت بشجاعة وجراءة سجلا له على التاريخ فخرا خالدا ! وعلى ظاهر جدران احدى الغرف نقش تذكارى للذين اقاموا فيها واحتملوا مع الجند ما احتملوا من مضض وتضحية . والى جانب اللوحة زير قديم من الفخار لعله فى هشاشة بنائه أصلب على الحياة من اولئك الذين شربوا من مياهه ولم يبق لهم اليوم على الحياة غير الذكر . والزير لا يزال باقيا تمجده الانظار ويود أصحابها شربة من مياهه . وتعلقت الابصار بهذه الآثار وجاهد كل مصور يريد ان يأخذ منها رسما برغم معاكسة الشمس له . على ان الابصار لم تكن بالحديقة وبالنهر وبكثبان الرمل على شاطئه الثانى اقل ولعا . فكانت ما تكاد تستقر على البناء برهة حتى تعود لتجتلى من هذا المنظر البديع المتجدد على الزمان ما تجدد الزمان جماله الساحر وسحره الفتان .

وخرجنا الى فضاء المعسكر القديم والى القوس الباقى من آثاره . وذهب البعض بخيالهم الى ذلك التاريخ الغريب حين كانت الجنود الذاهبه من حلفا الى الخرطوم تقف فى هذا المعسكر الى ان تتلقى الاوامر بالاندفاع فى تيه العطمور لانشاء سكة الحديد او لسحب السفن بين احجار الشلال . وبقى اخرون سعداء بالجو الجميل حولهم وبالصور التى كان ياخذها المصورون لجماعتهم . وكان وقت الظهيرة قد اقترب فعدنا ادراجنا الى القطار الذى عادبنا الى محطة حلفا حيث نزلنا عائدين الى بريتانيا .

ونلنا من الراحه ماانلنا ثم انتقلنا بعد تناول طعام الغداء سفينه أخرى سارت بنا جنوبا نحو ساعة . فلما بعدنا عن حلفا ببضعة كيلو مترات تبدت امامنا مقدمات الشلال ، فانتشرت فى لجة النهر اكام صخرية من الجرانيت الاسود كانت مبعثرة بادىء الامر فللماء من خلالها فرضات ينفذ منها . لكنها كانت يقترب بعضها من بعض كلما اقتربنا نحن منها حتى تلاحمت او كادت وحتى لم يبق للماء امام العين الا مسارب تقف عند نتوء صخرى قريب . وملأت اكام الجرانيت مابين الشاطئين وترامت الى مرمى النظر والى غاية الافق متموجة فى لونها الداكن كانها ظهور قطيع ضخم من الفيلة ماتكاد تتحرك أو تتنوى الا بمعدار عبث الضوء بها وانعكاسه عنها . وامتدت بين هذا القطيع من الجرانيت ابصار تلتمس التماسيح التى خرجت الى رمال الشاطئ تنال دفء شمس الشتاء المحسنة قال الامريكى ذو السراويل البيضاء :

- لقد جئنا امس الى هنا ورأينا من التماسيح قطيعا كبيرا تمدد كل واحد من افراده على الرمل وفغرفاه الى الشمس يستشفى باشعتها من علل الشتاء

ونزلنا من السفين الكبير الذى اقلنا من حلفا الى زورق او توموبيل ليتسرب بنا فى تعاريج القنوات التى بين الصخور ، والتى لاتتسع لزورق اكبر منه ، كى نصل الى قمة عالية هناك يحيط الناظر منها بالشلال كله . وفى لجة نور الشمس الساطعة سرى بنا الزورق وكاننا فى لجة ليل بهيم فاتت بين اكمتين سوداوين وامامك على امتار اكمة سوداء ثالثة تكاد تتصل بهما وتقطع الطريق او يرتطم السارى . وتلتمس مسارب الماء بين ماتمر به من اكام الجرانيت فيرتد بصرك ولم يفدك شيئا . ثم اذا الزورق انحرف فجأة ليحاذى الاكمة القاطعة عليه طريقه فما يكاد يحاذيها حتى تنجم امامه اكمة جديدة يتلوى من حولها كتلوى الثعبان فى مسارب الارض . ولم تمض دقائق فاذا بنا فى غابة



وكان اغتباط السلطان بالمرايا والورق عظيما

كثيفة من صخر رهيب مخوف . لكن روح الجماعة فى طبعها المرح مالم يلجمها الوجل او يستثرها الغضب . لذلك ظل اصحابنا تلتمس أعينهم التماسيح التى قص عليهم الشاب الامريكى امرها . فاذا خدع احدهم بصره وخيل اليه انه رأى تمساحا ثم تبين أن لا تمساح الا فى خياله تبودلت النكات من جوانب الزورق عن ضخامة الحيوان الموهوم وعن ذنبه الذى كاد يلقى بنا فى النهر وعن فكه المرتفع ليبتلعنا ، ولم يكن مخدوع البصر أقل نصيبا فى النكات من غيره . ومالنا لانمرح ومعنا الدليل الذى قص علينا أنه يتسرب بقاربه فى هذه اللجنة عشرات المرات فى كل شهر ومعنا النوبيون من أهل هذه النواحى يفخرون بأنهم يعرفون مسارب الشلال اكثر من معرفتهم ازقة قراهم . ثم ما لنا لا نجد فى هذا المنظر الرهيب موضعا للمسرة وبيننا سيدات وفتيات فى شبابهن المتورد الوجنات مايضىء الحالك ويبدد الظلم وهن برهبة هذا المنظر معجبات بل مفتونات

وطال بنا تسرب الزورق وتلويه من غير ان نحظى بتمساح واحد من سرب صاحبنا الامريكى حتى انتهينا الى الشاطىء عند أسفل القمة العالية . وأسرعنا جميعا لنتسلقها ؛ وما كدنا نبلغ منتصفها حتى شعر كثيرون التعب . فالقمة رملية تغوص فيها الاقدام غوصا وتحتاج من أجل ذلك الى مجهودين : تخليص القدم من الرمل ، ثم لنساق للغوص به فى الرمل من جديد . لكن الشباب لا يعرف المشقة ولا يعجزه التعب . والطفولة لاتشعر بتعب ولابمشقة لذلك أسرع الاولاد والبنات وأسرع الشباب والشابات الى رأس القمة . وفى النفس الانسانية وان شق عليها الجهد غريزة المنافسة وحب الفوز . وكم كان عجبا منظر شيوخ وعجائز هدهم التعب واضناهم الكلال ثم لايريدون ان ينظر اليهم الجيل الذى بعدهم وكأنهم أضعف منه حولا أو أقل حيلة . انظر الى هذه العجوز البادنة المترهلة البيضاء الشعر كيف تلهث ! لكنها مع ذلك تستعين بنوبى

يصل بها غاية القمة لتكون مع أبنائها وحفدتها بما يخيل اليها أنها تملك الحياة ملكهم وتستمتع بها استمتاعهم . وهى كلما غاصت قدمها وغاص معها قلبها وقفت زمنا تسترد قلبها أولا وتنتشل قدمها بعد ذلك . وما كنت وما كان غيرى ، ونحن نطل عليها من أعلى القمة ، نحسب أنها بالغة ما تحتمل كل هذا الجهد فى سبيل بلوغه . لكن الارادة القوية غالبة أبدا . وبارادتها تغلبت هذه السيدة على الهرم وضعفه ووقفت معنا فى أعلى القمة تمتع طرفها بالمنظر الرهيب العجيب

ما كان أصغر هذه القمة حين كنا بعيدين عنها ننظر اليها من فوق السفين الذى جاء بنا حتى أبواب الشلال ، وما أصغر نحن الآن فوقها ! وقف هذا الجمع الحافل الحاشد من أشتات جوانب الارض فى مصر وانكلترا وأمريكا وايطاليا وغيرها ، حول بضعة أحجار منثورة فوق رمال هذه الاكمة ، فاذا هو من قلة الكم بما لا تلمحه عين من ظلوا فوق السفين . لكنه مع قلة كمه صلة ما بين هذه الاقطار الشاسعة التى يتكون العالم منها ، وهو لذلك روح هذا العالم الذى نعيش فيه . فمنه يستمد العالم أدق ما فى حياته وحركته . وهو لذلك صغير عظيم ، لكن عظمته ليست فى أفراده بل هى فى الروح الانسانية الخالدة التى تعظم على الزمان كل يوم بما ترث على الزمان من سلطان والتى تزداد عظمة بما تشتمله من الوجود فى سلطانها وبما تذيبه فى الوجود من نفسها .

واذا كنا صغارا فوق الاكمة فماذا نكون فيما حولنا والاكمة ليست منه شيئا مذكورا . مددنا الطرف نريد أن نجتلى غاية الشلال وأحجاره فارتد دون هذه الغاية وقد ملأته الاكام الحجرية النابتة فى الماء رهبة ، وأجلناه فيما حولنا من كثبان الرمل المهيلة ، فأخذته واياها الى الافق فى موج لألاء تحت أشعة الشمس المنحدرة الى المغرب ، وتخطبنا به النهر فاذا بعض أشجار تحبى فى هذا المحيط العابس جدة الابتسام ، ثم ثبتت زمنا فوق أكمات الجرانيت النابتة فى الماء تحيط بها قنواته الضيقة ثما يكاد بعضها يتسع لمثل القارب الذى تسرب بنا خلال الشلال الى حيث ارتقينا القمة التى نطل الان من فوقها . وبدت على

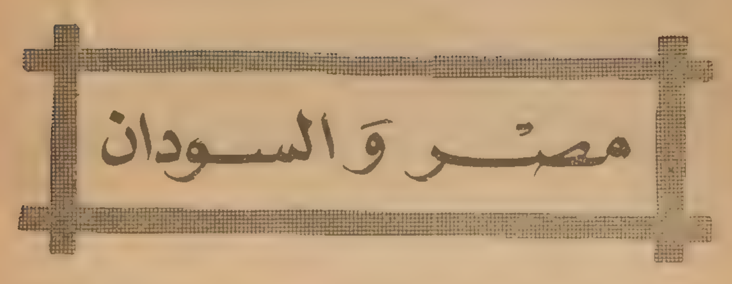
الوجوه علائم الدهشة والاكبار لهذا المنظر العجيب ، فساد الصمت جمعنا حينا . ثم بدا الجمع يتدرك القمة عائدا الى القارب . ياعجبا ! ما اكثر ما يتغير منظر هذا السرب من الفيلة الجاثمة فى الماء ، فكلما تدرك الهابط سفح القمة بدت تحت ضياء جديد فاخذت صورة غير صورتها : فبعض يزداد من بعض اقترابا وبعض يزداد عن بعض بعدا ، وكذلك تتغير المحسوسات بتغير موقفنا منها . فماذا يكون شأن ما نسميه الحقائق فى هذه النظريات من تصورات الذهن وأبنية الخيال :

وجلست أثناء هبوطى على حجر جاثم فوق الرمل وتلفت حولي فلم ار احدا بالقرب منى اذ كان كثيرون مايزالون بأعلى القمة وكثيرون غيرهم وصلوا القارب . وجعلت أناجى نفسى : ماذا نكون من هذا الوجود العظيم! وماحياتنا الثائرة القصيرة الى جانب هذا الخلد الساجى تبدو حكمته فى سكينة ماحولنا وطمأنينته . وانى لفى نجواى اذ مرت العجوز البادنة معتمدة على نوبيين وهى تلهث فى نزولها كما كانت تلهث فى صعودها . لكن ابتسامة على ثغرها كانت تعبر عما يدور فى خاطرها من عظيم الغبطة لانتصارها على ضعف الشيخوخة واقناعها بذلك نفسها انها ماتزال قديرة على حمل عبء الحياة الثقيل اللذيذ

وعدنا الى زورقنا فعاد يتسرب بنا بين صخور الشلال حتى السفينة التى ظلت فى انتظارنا . وعلونا سطحها والشمس تتأهب للمغيب ثم انتقلنا منها الى بريتانيا التى سارت بنا قبيل العشاء .

وفى الايام التى قضيناها بضاحتى أسوان عادت الى خاطرى صورة الشلال وصورتنا فوق الربوة نجاهد ، عبثا ، لنحيط بكل حدوده رغم ما نزعم من الاحاطة حتى بحدود المجهول . لكن هذا العجز الذى يمسكنا ونحن وقوف يزول اذا تحركنا فاختزنا فى خيالنا صور الشلال وغير الشلال جزءا بعد جزء . وهذه الخيالات المخترنة هى قوتنا وذخرنا فى الحياة وهى الميراث الذى تتعاقبه الاجيال فيزيد الانسانية صلة بالوجود وسلطانا عليه .

وبلغنا أسوان صبح الاربعاء وبلغنا القاهرة صبح الخميس ، فعدنا يهزنا برد الشتاء بعد عشرة أيام قضيناها فى ربوع لا تعرف الشتاء .



لا استطيع ان أختم هـــذا الكتاب من غير ان اتناول علاقات مصر والسودان بكلمة . وليست غايتى من التكلم عن هذه العلاقات غاية سياسية . فلعل القــارىء قد أدرك من خلال الفصول السابقة أنى لم أتأثر فى أية مسألة مــن المسائل التى عرضت لها بأهواء السياسة أيا كانت . وانما توخيت مايمليه العــدل وما تقضى به المصلحة الانسانية العليــا التى لاتقف عند حدود مصر والسودان بل تتجاوزها لمــا يمــكن ان يستفيد العالم كله ممــا فى هذه البلاد من خيرات . وانما غايتى ان ابين ان خير الســودان وخير مصر وخير هذه المصلحة الانسانية العليا التى تستفيد منها انكلترا قبل ان تستفيد منها اية أمــة أخرى انما يتحقق على وجه أكمل كلما ازدادت مصر والســـودان ارتبــاطا سواء من الجهــة الاجتماعية او الجهة الاقتصادية أو الجهة السياسية وكلما تعاونا من طريق هذه الرابطة الرنيفــة فى سبيل ترقية مصادر الانتاج المــادية والمعنوية فيهما .

ولست أريد من أجل هــذا البيــان ان أدلل على ان مصر والسودان مرتبطان تاريخيا بروابط قديمة تجعل من حق مصر ان تطالب بالسودان كما كانت فرنسا تطالب بالالزاس واللورين . ولست اريد كذلك ان أقيم الحجه على ما أنفقته مصر فى السودان من مهج وأموال أو أن أرجع الى التاريخ لاى سبب من الاسباب ، فالتدليل التاريخى فى مسألة كعلاقة مصر بالسودان أشبه الاشياء بالمرافعات التى تحتاج الى قاض للفصل فيها والقاضى فى العلاقات التى تربط

الدول بعضها ببعض هى المصلحة الحاضرة التى يراها أبناء هذا الجيل من غير حاجة للرجوع الى أسانيد التاريخ ووثائقه

ومن نافلة القول ذكر الرابطة الطبيعية بين مصر والسودان وما توجبه هذه الرابطة من ضرورة توثيق الصلات بين هذين الجزأين من أجزاء وادى النيل ، وحاجة مصر الى توثيق هذه الصلات وتوكيد تلك الروابط أوضح . فليس كمصر بلاد معلقة حياتها بنهر واحد ، وليس يصدق على بلاد ما يصدق على مصر من أنها هبة للنيل ، ولولا النيل لكانت مصر بعض الصحراء الافريقية الكبرى ولوصلت هذه الصحراء مابين المحيط الاطلانطيقى والبحر الاحمر ، لذلك كان هم المصريين فى كل الازمان بل كانت حياتهم معلقة على هذا النهر ، فكل ماتتأثر به مياهه من ظروف الطبيعة أو من عمل الانسان تتأثر به مصر ، وما نظن التاريخ يذكر أن المصريين ابتهلوا الى الله فى ضراعة وخضوع كابتهالهم اليه ليتم على النيل فيضانه ، ولا نظن المصريين فكروا فى امر من أمور حياتهم تفكيرهم فى هذا الماء المخصب المحسن الذى يجىء اليهم من طريق السودان يحمله المجرى العظيم بين جوفه

فاذا كان أكبر هم المصريين متجها الى الجنوب وكان اكثر تفكيرهم فى الصلات التى تربطهم بجاراتهم النيلية وفى توكيد هذه الصلات وتوثيقها فليس ذلك منهم حبا فى الفتح أو اندفاعا وراء شهوة الاستعمار التى يجرى وراءها كثير من الامم بل هو الحرص الطبيعى على الحياة حرصا أصيلا فى سليقة كل حى وفطرته

على انه اذا كانت حاجة مصر الى توكيد الروابط بينها وبين السودان أوضح من حاجة السودان الى مثل هذا التوكيد لموقع السودان عند منابع النهر فليس ذلك معناه أن السودان أقل من حاجة مصر لتوثيق الصلات بينهما ، ولئن كان السودان منبع الحياة المادية التى تفيض على مصر مع فيضان النيل فمصر هى منبع الحياة المعنوية التى تفيض على السودان مع فيض الحضارة أيا كان مصدره ، وكما تحيط الصحارى بمصر فتقصر حياتها على ما يغذيها النيل به من

ميـــاهه كذلك تحيط الصحارى بالسودان وتفصله عن مصـــادر الحضـــارة ، ولقد بالغت الطبيعة فى ذلك حتى ليحسب الانسـان حين ينظر الى خـريطة النيل أن حـوضه عالم مستقل فيـه كل ماتحتاج اليه الحضارة من أدواتها وأسبابها ، ولقـد فتحت موانىء على البحر الاحمر لتصريف تجارة السودان ولجلب التجـارة اليه ، لكن هـذه الموانىء لا تصلح ولن تصـلح لتكـون باب الحضـــارة والعمران ، بل كانت الحضارة وكان العمران يهبطان الى السودان من طريق مصر أكثر مما يهبطان اليه من اى طريق آخر . ولذلك كان السودان بأرجائه الفسيحة هـو المهجر الطبيعى لمصر تحمل اليه من أسباب حضارة العالم مايشركه بنصيب فى هذه الحضارة .

وقد كان الغزو والفتح وسائل الحضارة فى الماضى . فكانت الدول ذوات الحضارة القوية تغير على غيرها من الدول فتفيـــد من حضارتها وتفيدها من الحضارة القوية ولذلك كثيرا مااتصلت الحروب بين مصر والســـودان لاستقاء الصلات الطبيعية التى يجب ان يشـــعر السودانيون والمصريون جميعا بمحاربة اسباب ضعفها لا بالمحاربة فى ســـبيل وصلها . على أن تقـــدم العلم وتقريبه بين شعوب العالم المختلفة وتضييقه دائرة الارض جعـــل الغزو والفتح منظورا اليهما بعين المقت حتى من الاقوياء الذين كانوا يستفيدون منهما . وكلما ازداد العلم تقدما وازدادت الشـعوب بعضها من بعض قـربا وتمتنت الروابط العقليـــة والمعنـوية وتحطمت الحـــدود والحواجز زادت اسباب التعارف والتفاهم وأصبحت وسائل العنف والبطش بين الجماعات منظورا اليها بعين المقت والازدراء مثلها اليوم بـين الافراد والطـوائف . ويومئـذ تكون بين شعبين متجاورين اوبين شعب واحد يقيم فى بقعة من بقاع الارض يسر العـلم اسباب الرغد فيها شيئا عجبا وأمرا نكرا . ويومئذ يحل التضامن بين الشعوب محـــل التنافس . ويكون بين الشعوب المتجاورة التى تصـل الطبيعه بينها اقوى رباطا وأمتن عقدة . ثم تكون كل الاســباب الصـــناعية الطارئة على هـــذا التضامن والمفسدة اياه موقوتة مرهونة بالزوال

لامفر اذن من أن يكون هـذا التضامن بين مصر والسودان على القواعد التى نفضى بها ظروف الحضارة فى الوقت الحاضر . وادوات هذا التضامن كثيرة اشرنا الى بعضها حين الكلام عن مشروعات الرى الكبرى . وهذه المشروعات يجب أن لاتراعى فيها الا الاعتبارات الفنية التى تؤدى الى حجز اكبر مقدار يمكن حجزه من مياه النيل لانتفاع الاراضى الزراعية الواقعة على شاطئيه من أول مصر ذات الاولوية التاريخية فى هذا الانتفاع الى آخر منابع النيل . كذلك يجب على مصر ان تكون المنبع الذى تجرى منه اسباب الحضارة الى السودان . فليس الى السودان سبيل للحضارة غير هذا المنبع . ذلك لان المصريين اكثر العناصر امتزاجا بالسودانيين منذ اجيال طويلة . ولئن كان هذا الامتزاج قد اقترن فى احيان كثيرة بعناصر سيئة من جانب او من الجانب الآخر فانه خلق بين الشعبين من الاواصر ما يسر التفاهم بينهما الى حد كبير . والحضاره اذا مرت بمصر كان يسيرا أن يسيغها السودانيون بسبب هذه الاواصر . فأما اذا حملتها الى السودان عناصر أخرى ولو كانت من أمم اعلى من مصر فى الحضارة كعبا فانها لاتتأقلم فى السودان بمثل السهولة التى تتأقلم بها حين تحملها العناصر المصرية . ولعل الاسباب التى ادت فى الماضى الى عدم نجاح مصر فى حمل هذا العبء الانسانى فى السودان ان الذين كانوا يقومون برئاسة المصريين هناك كانوا من عناصر غير مصرية ، وان المصريين الذين كانوا مرءوسين لهؤلاء كانوا من طراز محتاج لاسباب الحضارة فلا يستطيع أن يقدمها لغيره . واعتقد اعتقادا اكيدا ان مصر تستطيع أن تعاون السودان فى هذا المضمار معاونة جدية اذا وجد من المصريين ذوى المكانة والمقدرة من يتطوعون لهذا العمل من غير أية فكرة سياسية بل بدافع التضامن تحت تأثير الفكرة الانسانية السامية وحدها

أعلم أن اعتراضا عمليا له قيمته يقف فى هذا السبيل .

ذلك وجود الانكليز فى السودان وقيامهم بالحكم فيه . وهو اعتراض صحيح اذا كان الانكليز يريدون حكم السودان لمجرد الحكم والاستعمار فللانكليز مصالح بريطانية يقتضونها من السودان اهمها القطن الذى يزرع فيه . ولعل المواصلات الامبراطورية بعض هذه المصالح كذلك . لكن الانكليز لا مصلحة لهم فى اعاقة تقدم السودان وتحضيره . وكلما تقدمت الحضارة فى السودان وكان أهله أقدر على الاستفادة من وسائل العلم كانوا اكثر انتاجا فى سوق العالم العامة من جوانبها المختلفة . ولانكلترا فى هذا مصلحة أى مصلحة . ولئن كانت الظروف السياسية قد قضت فى الماضى ان تقف مصر وانكلترا فى السودان موقف الخصومة فاعتقد ان الانكليز والمصريين قد ادركوا تمام الادراك سوء تلك السياسة وعقم نتائجها بالنسبة لانكلترا ولمصر وللسودان جميعا . فمن الحكمة — وهذه هى الحال — ان يقدروا وجوب اتجاه السياسة فى المستقبل الى غير ما كانت عليه سياسة السودان الى اليوم

وليس نظام الحكم فى السودان هو المشكلة العويصة فى رأيى . واعتقد ان من الممكن التفاهم فى هذه المسألة بين مصر وانكلترا على ان تكون السودان ومصر متحدتين بينهما مثل نظام ال « federation » فيكون لكل فى المسائل الداخلية حرية التنظيم والتشريع وترتبطان جميعا فى المسائل الخارجية والمسائل العامة باتفاق مقررة قواعده وليس المقام هنا مقام تحديد أو تفصيل لهذا الاتحاد قبل قبول مبدئه . فاذا قبل هذا المبدأ كان وضع التفاصيل يسيرا . واحسب ان مثل هذا النظام فى مرونته وقابليته للتحوير يستطيع ان يحقق غايات الاطراف المختلفة .

وقد يمكن اذا قبل مبدأ هذا الاتحاد ان يترك النظر فى مصالح انكلترا وامتيازاتها فى السودان الى حكومة السودان نفسها تحلها فى حدود المسائل المتروكة بموجب نظام الاتحاد لتصرفها .

ويخيل الى ان حلا كهذا قد يكون من شأنه أن ينهى مسألة

معلقة لا فائدة لأحد من تعليقها، إن يحل الى جانب ذلك مسائل كثيرة كمشروعات الرى الكبرى، وكتحضير السودان وما الى ذلك مما يفيد السودان ومصر على السواء من غير أن ينشأ عنه ضرر لاية مصلحة من المصالح

واذا كان المؤتمر الامبراطورى البريطانى قد قبل مبدأ مساواة الممتلكات المستقلة مع انكلترا وأن يكون رباطها جميعا ولاءها للتاج وذلك لمصلحة الامبراطورية البريطانية ولفائدة السلام فى العالم ، فان مثل هذه الفكرة الحرة فكرة الاتحاد بين مصر والسودان قد تسهل الوصول الى حل مسألة السودان حلا موافقا لمطلب مصر من غير مساس بما للدول من المصالح فيهما

ولهذا الحل مزايا يعود أكبرها على السودان كما أن لمصر منها فائدة لا تنكر ، وهو فى نفس الوقت يكفل لانكلترا أن تحصل من السودان على المصالح والامتيازات التى ترمى الى تحصيلها من غير أن تضطر لحمل عبء المسئوليات المستقبلة التى تحملها اليوم فيه

وأول مزايا هذا الحل انه يحقق ما يريد المصريون والسودانيون من وحدة القطرين ، من غير أن يجنى ذلك على عزة أى منهما ، ومن غير أن يعوق تقدمه متأثرا بعوائده وعقائده واعتباراته القومية الخاصة ، وهو مع ذلك لا يجد من الاعتراض عليه ما يجده الاندماج التام بين القطرين. فالذين يريدون هذا الاندماج يبنونه على التاريخ وعلى وحدة الجنس والعادات فى مصر والسودان ، وخصوم الاندماج ينكرون وحدة الجنس ويذهبون الى أن السودانيين غير المصريين والى أن طوائف العرب فى مصر وفى السودان لا تكون سواد الشعب فى أى بلد من البلدين وانما هى أقليات جاءت فى عصور الفتح الاخيرة ، وهم ينكرون كذلك وحدة العادات ويذهبون الى أن تطور الحضارة فى مصر غير من عاداتها القديمة حتى لو أن شيئا من الوحدة كان موجودا فى الماضى بين عادات المصريين والسودانيين فقد انقطع اليوم ، وسواء أكان هذا الاعتراض صحيحا ام باطلا فهو لا يغير من العلاقات الطبيعية التى بين القطرين والتى أشرت اليها

من قبل ، وهو لذلك اذا أمكن جدلا أن ينهض عائقا فى سبيل الاندماج فلا يمكن أن ينهض عائقا فى سبيل الوحدة

فالاتحاد السويسرى والولايات الامريكية المتحدة ليس بين الولايات التى يتكون منها أى من هذين الاتحادين مثل ما بين مصر والسودان من شبه أو علاقة ، انما تصل هذه الولايات روابط المصلحة البحتة ، فأما سوى ذلك فيختلف بين ولاية وولاية اختلافا بينا . فسويسرا على صغرها يتكلم أهلها ثلاث لغات مختلفة هى الفرنسية والالمانية والايطالية ، ويدين أهلها بمذاهب مختلفة ، ولا تجمع بينهم الا ناحية أخرى . والولايات الامريكية المتحدة تجمع من مختلف الامم واللغات والالوان . لكن رابطة الجوار والمصلحة تسمو فوق كل اعتبار آخر وتجعل من الاتحاد الامريكى قوة قومية وعالمية منقطعة النظير

ثم ان اعتراضا آخر يقيمه جماعة من المصريين انفسهم يجعل الاتحاد وسيلة صالحة . ذلك ان نظام القبائل والعائلات قد زال من مصر ولم تبق منه الا آثار لا قوة لها ولا سلطان وحل محله النظام الديمقراطى الصرف الذى يجعل الحياة الدستورية هى الحياة الوحيدة الصالحة كنظام للحكم فى مصر . فأما فى السودان فما يزال نظام القبائل والعائلات هو النظام الاساسى الذى تقوم عليه الجماعة السودانية . ولئن كانت التطورات العالمية المقبلة قد تدفع السودان كما دفعت مصر نحو النظام الديمقراطى فان هذا التطور بحاجة الى زمن غير قليل . والى أن ينقضى الزمن اللازم لتمام هذا التطور فمن العسير ؛ بل من التعسف ، اخضاع السودان للنظام الذى تخضع مصر اليوم له .

وثمت اعتبار آخر يجعلنا نفضل نظام الاتحاد بين مصر والسودان على نظام الاندماج . ذلك أن مصر متهمة فى سياستها بازاء السودان بأنها سياسة استعمار لا سياسة تحرير . وهذه التهمة تروجها

السنة السوء كما روجت من قبل تهمة حرص مصر على الاستئثار بمياه النيل . ولا تكتفى هذه الالسن باتهام المصريين بالميل للاستعمار بل تذكر السودانيين بأيام قديمة كان نواب حاكم مصر فى السودان يسلكون مسلك العسف والاستبداد ويضربون هذا المسلك نظاما لحكم المصريين ومع بطلان هذه التهمة أمام التاريخ والحق لان هؤلاء الولاة الذين يوفدون الى السودان لم يكونوا مصريين وانما كانوا من جنس الحكام الذين يحكمون مصر نفسها ، فانا نعتقد أن المصريين احرص من أن يتهموا بالميل للاستعمار وانهم يريدون للسودان التقدم الحقيقى نحو الحرية . وذلك يتحقق تماما تحت نظام الاتحاد . فيومئذ يكون المصريون الذين يذهبون للخدمة فى السودان انما يذهبون بدافع محبة السودان والحرص على رقيه لابدافع استعماره وحكمه. ويومئذ يجد السودانيون الوسيلة للرقى ولتحقيق كل معانى العزة القومية

ولهذا الحل مزايا يعود اكثرها على السودانيين انفسهم . فهو يطمئن جميع المصريين تمام الطمأنينة على مشروعات الرى الكبرى ويزيل من نفوسهم كل خوف من ان تكون هذه المشروعات يوما من الايام وسيلة لاكراههم على قبول مالايقبلونه اختيارا أو سببا لارغام عزتهم واذلالهم . ويومئذ تتسع الاراضى المصرية القابلة للاستغلال وتضعف فى نفوس المصريين فكرة الهجرة الى زمن طويل مقبل . واذ كانت النفس الانسانية غير مولعة بالانتقال الا بدافع المصلحة وكان الاكثرون لاينظرون الالمصالحهم الخاصة القريبة فان المصريين الذين يذهبون فى هذه الظروف الى السودان سيذهبون تحركهم عواطف انسانية سامية تريد ان تمتن صلة الحضارة بين السودان وكافة مواطن الحضارة التى يتعذر انتقالها الى السودان عن طريق غير مصر كما سبق القول . وما نشك فى ان هؤلاء سيعاونون على سرعة رقى السودان فى مضمار التقدم الانسانى مادامت ادوات الحضارة

المادية تشاد فيه فتعاون على تزايد سكانه وعلى اخذ ابنائه بنصيب فى المعارف اللازمة لزيادة الرغد والرخاء فى ارجائه .

ونعتقد ان السودانيين يشعرون بشعورنا هذا ، وأن الانكليز الذين أقاموا بالسودان منذ افتتاحه وتعاونوا مع المصريين فى تنظيمه يشعرون بهذا الشعور كذلك . ومهما كانت احداث السياسة قد دعت فى بعض الظروف الى اعلان سيئات عن المصريين واعمالهم فى السودان فالحقيقة التى لاريب فيها أن المصريين كانوا دائما اشد العناصر صلة بالسودانيين واكثرها عطفا عليهم ، وانهم لم يكونوا فى السودان تحركهم عاطفة الانانية التى تحرك غيرهم من النازلين اليوم فيه ، والتى تدفع هؤلاء الى ان يقصروا نظرهم على المصلحة الشخصية والحرص على اقتناء الثروه .

وهذا الحل ادنى الى المصلحة البريطانية من نظام السودان الحاضر . فهو حل يرضى عزة السودانيين ويتفق وكرامتهم القومية . وهو لذلك يبعد السودان عن اسباب القلق التى تكلف الحكومة البريطانية مسئوليات الامن والنظام فى السودان وما يترتب على هذه المسئوليات من نفقات يحتملها دافع الضرائب الانكليزى من غير أن تكون لاحتماله اياها ضرورة ملجئة . ثم هو حل يتفق وتطور العالم فى سبيل التضامن السلمى المنتج لخير الجميع ، والذى اصبح يحل رويدا رويدا محل القوه والاكراه والاستعمار . وهو من جهة ثالثة اقرار لنظام مرن لايتنافى مع ماتريده انكلترا من تقدم زراعة القطن فى السودان ومن نجاح مشروع الجزيرة نجاحا باهرا . وهو فوق ذلك عين على هذا النجاح ويجعله اقرب منالا واقل نفقات بما يطوع للمصريين من الاخذ فيه بيد السودانيين ومعاونتهم اياهم معاونة هى لاشك خير واجدى من معاونة الفلاتة وغير الفلاتة من المزارعين الطارئين . ولئن كان المصريون قد ترددوا فى هذه المعاونة لما دعتهم انكلترا اليها من طريق شركة الجزيرة فى سنة ١٩١٣



البحر الأبيض المتوسط
ليبيا
خريطة
وادي النيل
العرب
السودان
الحبش
الكونغو البلجيكية
اوغندة

فذلك لان ظروف السياسة كانت يومئذ مبعثا للخوف والقلق .
بينا اقرار نظام كنظام الاتحاد بين مصر والسودان وما يترتب على هذا النظام من الطمأنينة لنفوس المصريين يزيل كل اسباب الخوف والقلق .

وثمت اعتبار آخر لايمكن ان يغيب عن فطنة السياسة البريطانية وبعد نظرها ذلك ان سواد المصريين لايمكن ان يهدأ لهم بال اذا رأوا السودان منفصلا عنهم . وهم سيذكرون دائما كلمة وزيرهم شريف باشا : «اذا تركنا السودان فالسودان لن يتركنا » ، وكلمة المستشار الانكليزى لوزارة الاشغال المصرية : « السودان الزم لمصر من الاسكندرية » . واذا صح ان مرت فترات من الوقت هدأت فيها عواصف السياسة لسبب من الاسباب واضطر المصريون للرضى عن حالهم سواء لعدم ملاءمة الوقت او لان القادة الظاهرين منهم قد شبعت اطماعهم بما نالوا من المناصب والجاه والمصالح لانفسهم ولذويهم فان هذه الفترات لايمكن ان تدوم فى حياة الامم مادام ثمت مايدعو الى تزعزع الامور فيها . كذلك لايمكن ان يغيب عن فطنة السياسة البريطانية وبعد نظرها ان السودان ومصر بينهما فضلا عن رابطة النيل الطبيعية رابطة اللغة والعقيدة والجوار . وهذه روابط لاوجود لها عند اى من الدول الاخرى المتاخمة للسودان . وطبيعى مع تقدم الرقى والحضارة فى السودان ان تزداد عقدة هذه الروابط متانة وان ينظر السودان لمصر بمثل العطف الذى ينظر مصر به للسودان . ويومئذ لايترك السودان مصر اذا هى تركته . ولا يمكن ان يغيب عن فطنة السياسة البريطانية وبعد نظرها اخيرا ان فترات القلق اصلح الفترات لشعوذة السياسيه وابعدها عن ان تكون النظر فى الملائم للاتفاق الودى المعقول . فاذا كان ذلك كله صحيحا كان الوقت الحاضر انسب الاوقات للتفكير فى اتحاد مصر والسودان على المبادىء السابق ذكرها . ذلك بانه وقت سكينة وهدوء يكل

اتفاق يتم فيه يتم بعد روية وتفكير ويكون منبعثا عن اعتقاد صحيح بصلاحه .

ولقد اكدت لي اقامتى القصيرة بالسودان صحة هذا الرأى الذى عرضت . فكما ان السودانيين بحاجة لى أن يقوموا بالعمل لتتطور نظمهم الحاضرة فى اتجاه يتفق وسيرة العالم الحاضرة - هذه السيرة التى لامفر من وصولها الى ايجاد مشابهة كبيرة بين نظم الحكم فى مختلف دول العالم بسبب ما تقرب المواصلات الدول بعضها من بعض - فهم بحاجة فى هذا السبيل الى معونة صادقة مخلصة ليست لها اية غاية سياسية ؛ واذا كان وجود الانكليز للاشراف على تقدم زراعة القطن فى سهل الجزيرة من شأنه ان يعطيهم فى ذلك مثلا صالحا فان الفارق بينهم وبين الانكليز فى اللغة والجنس والعادات والدين يجعلهم بحاجة الى المصرى القريب منهم فى ذلك كله والذى درس الانكليز عن قرب ، والذى لا يرجو بعد وضع قواعد الاتحاد بين مصر والسودان ، الا ان يمهد السبيل لبقاء هذا الاتحاد وثيقا متينا بعيدا عن العثرات والاضطراب .

١٣ - صانع الحب - مجموعة من القصص الواقعية ، جرت حوادثها فى القاهرة وباريس ولندن للاستاذ احسان عبد القدوس

١٤ - دموع وضحكات - مجموعة قصص واقعية تمثل مافى الحياة من مآس وخواتمها للكاتب الكبير الاستاذ عباس حافظ

١٥ - عند ما تحب المرأة - مجموعة قصص مصرية تصور نفسية المرأة وتحلل غوامضها للاستاذ حلمى مراد المحامى

١٦ - حاجى بابا الاصفهانى - عن جيمس موريبه بقلم درسى الشافعى مجموعة من خرافات فارس وأهلها تضحك اعمى الناس ضحكا

١٧ - جرائم ومرافعات - للاستاذ يوسف حلمى المحامى - مجموعة من اشهر القضايا الجنائية الغريبة التى أثارت اهتمام العالم كله

١٨ - الطريق الى السعادة - للفيلسوف الامريكى هنرى لنك بقلم ثروت محمود - أبحاث عملية تجريبية للتخلص من متاعب الحياة والحصول على السعادة

١٩ - موعد فى الجنة - قصص واقعيه عن الابطال المصريين الذين استشهدوا فى فلسطين للصحفى المعروف الاستاذ حلمى سلام

٢٠ - نجيب الريحانى - دراسة وافيه دقيقة لحياة نجيب الريحانى بقلم الاستاذ عثمان العنتبلى

٢١ - صور من الريف : صورة صادقه لحياة الريف بما فيه من نعيم وشقاء ، ومسرات واحزان للكاتب المبدع الاستاذ محمد زكى عبد القادر

٢٢ - الحب فى التاريخ - اشهر قصص الحب التاريخيه للاستاذ سلامة موسى

ثمن كل نسخة من هذه الكتب

٥ قروش

تطلب من شركة التوزيع المصرية ٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة



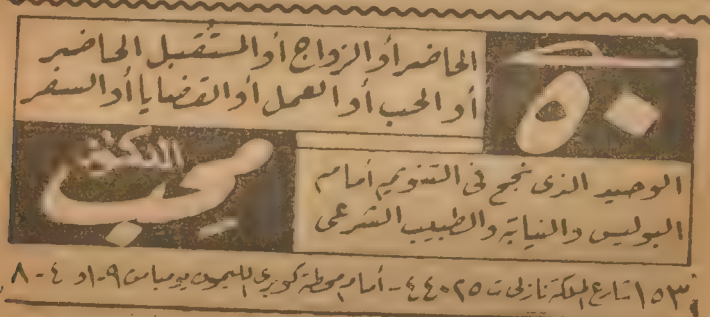
العدد الثاني يصدر يوم ١٥ نوفمبر



توجد أجهزة
أدميرال
لكل ما تحتاج اليه
راديوجرامافون
مطهى كهربائى
ثلاجة







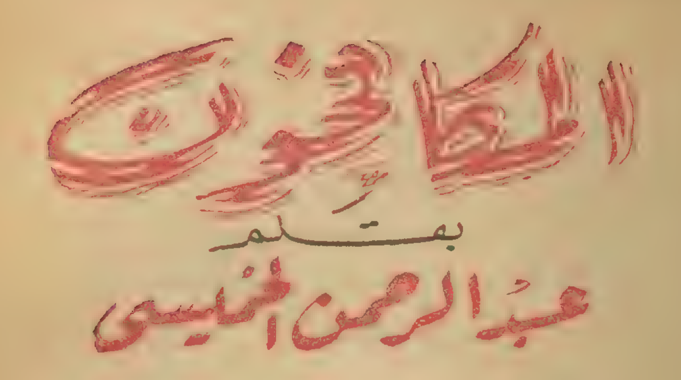
١٥٣ شارع الملكة نازلى ت ٤٤٠٢٥ - أمام محطة كوبرى الليمون يومياً من ٩-١ و ٤-٨


الطهطاوى
بقلم
عبد الرحمن الخميسى
٦
كتب للجميع

ابتداء من اليوم الاثنين



قريبا فى الأسكندرية بسينما فريال





٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة

طبع بمطابع جريدة « المصرى »

كتب صدرت للمؤلف

١ ـ ألف ليلة الجديدة (الجزء الاول) طبعة شعبية تطلب من شركة التوزيع المصرية

٢ ـ ألف ليلة الجديدة (الجزء الثانى) طبعة شعبية تطلب من شركة التوزيع المصرية

٣ ـ من الاعماق (مجموعة قصص) طبعة خاصة تطلب من المؤلف

٤ ـ يوميات مجنون (أقاصيص مترجمة) طبعة شعبية تطلب من شركة التوزيع المصرية

٥ ـ المكافحون (مجموعة سير) طبعة شعبية تطلب من شركة التوزيع المصرية

كتب تحت الطبع للمؤلف

١ ـ الظاهر والباطن (مجموعة قصص)

٢ ـ غرام فنان (قصة طويلة)

٣ ـ فوق الحياة (ديوان من الشعر)

٤ ـ غبار الطريق (مجموعة صور تحليلية)

٥ ـ الباحثون عن الحب (قصة طويلة)

٦ ـ من أفق الموسيقى (صور فنية تحليلية)

٧ ـ الساق اليمنى (قصة طويلة)

٨ ـ من غربة الروح (ديوان من الشعر)

٩ ـ قصة ميت

إهداء

إلى ماهر محمد على الذى تتمثل
فى شخصه الحبيب ملامحُ القرية
الطيبة "منية النصر" .. هدية
إعزازٍ له .. وللريف .. وللنضال

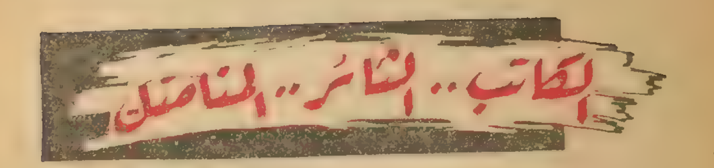
عبد الرحمن الخميسى

٢٥ / ٩ / ١٩٥١

في عصور الطغيان ، كانت القوى الغاشمة تسجن الاحرار، وتقتلهم ، ظنا منها أن فى تلك الاعمال الاجرامية ، قتلا للافكار والمبادىء التى ينـادى بهـــا المفكرون والمناضلون .

ولكن الواقع أن أفكار هؤلاء فى سبيل الشعوب ، تسرى فى الناس ، وتبقى فى العقـــول لاتزول ، حتى تخـرج من حيز الامانى الى النطاق المادى ..

وهـذه مجموعة من ســـير المكافحين ، تصور بعض نواحى حياتهم ، نسوقها الى القــراء ، لعل فيها حفزا لكل مؤمن بحق الشعب فىالحياة الكريمة الحرة ، الى الجهـاد المتواصـــل ، والى التضحية بكل غال فى ســـبيل المجموع .



على الكتاب ان يحطموا أقلامهم ، اذا ألمت بالوطن النكبات ولم يشهر كل منهم يراعه كالحسام يفلق به رءوس الجائرين . عليهم ان يكسروا اقلامهم اذا لم يلبوا صرخة الوطن الجريح ويجندوا هذه الاقلام ، ينفخون القوة منها فى الارواح ، ويجعلون صريرها دويا متواصلا فى الضمائر والقلوب ، ويمزقون بها وجه الظلم والظالمين . واذا كانت رسالة الكاتب هى الدعوة الى الحق والحرية ، فجدير به ان يدعو اليهما وان يعمل على تحقيقهما فى وطنه . ومصر السخية العظيمة التى تجود على ابنائها بالخير والنعمة ، مصر العروس الخضراء التى تتفتح العيون على سحرها وفتنتها ، مصر التى توحى وتلهم وتزود الارواح بكل معنى جليل رائع ، مصر امنا الوفية الرءوم ، جديرة بأن نقدسها ما طلع الصباح وما جرى النيل وما دبت فى اجسادنا الحياة وخفقت بين صدورنا القلوب

واذا أهاب داعى الوطن فعلينا ان نخوض الهول والموت ، كل بما ملكت يداه ، الجندى بسلاحه ، والمناضل بدمه ، والكاتب بقلمه !!

فالى الاحرار من بنى مصر الوطن العظيم ، نهدى هذا الفصل من سيرة السيد عبد الله نديم ، لنؤكد به ان التشريد والتعذيب يهونان فى سبيل الوطن امام المثل الاعلى الذى يستولى على قلب صاحبه فينسيه كل ما عداه

ليس يعنينا فى هذا الفصل ايها القراء ان اذكر لكم اين ولد

السيد عبدالله نديم، فكلنايعرف انه من مواليد الاسكندرية . وليس يعنينا ايضا ان اثبت لكم ان اباه انتقل من بلدته الطيبة بمديرية الشرقية الى الثغر الاسكندرى وعمل نجارا فى صناعة السفن ثم افتتح مخبزا هناك بعد ذلك

المهم ، ان السيد عبد الله نديم نشأ فى بيئة فقيرة ، وعانى ما عانته تلك البيئة من عسر الرزق وضنك الحال . وقد لحظ ابوه ميل الطفل الى الكتب ورغبته الشديدة فى المطالعة فكان يشجعه على حضور الدروس فى مسجد الشيخ ابراهيم باشا . وقد دفعه ذلك الميل الى مخالطة رجال الادب والاستنارة بارائهم والاستماع الى مناقشاتهم . واستطاع عبد الله ان يفيد من تلك الحلقات افادة ادبية كبرى ارهفت حسه وكونت له ذوقا ادبيا رفيعا . هذا الى جانب مطالعاته ومحاولاته المتكررة للانشاء . واشتد على التدريج ساعده الادبى فراح ينظم الشعر والزجل واخذ يطارح الشعراء والادباء حتى كان يتجمع حول مطارحاتهم جمهور كبير من عشاق الشعر تنصب لهم الحلقات بعد الحلقات . ولكن الشعر لا يطعم ولا يسد رمقا .. وانه الى جانب ذلك يصرف الشاعر عن العمل ويحتم عليه الفراغ . ومن هنا التفت عبد الله نديم ذات يوم فاذا يده فارغة وجيبه خال والدنيا امامه مثل الصحراء تسفى على رمالها الرياح

وكان لابد له فى تلك الفترة ان يمارس مهنة تدر عليه مايمسك به اوده ويحفظ عليه ماء وجهه . فتعلم فن الاشارات البرقية وعمل فى مكتب البرق ببنها العسل وانتقل منها بعد ذلك الى القصر العالى مقر والدة الخديوى اسماعيل باشا . وقد اتاح له عمله الجديد ان يتعرف بمشاهير الادباء والشعراء وان يذيع صيته ويجل قدره . واطمأن عبد الله نديم الى وضعه هذا وراح ينمى شهرته بما تجود به قريحته وروحه من فنون القول . وكان فى القصر ابان ذلك خليل اغا وكان له من السيطرة ما يخيف

ويهز الفرائص ، فاذا رضى اغا القصر عن انسان فقد رضيت عنه الحياة وتبسمت له الدنيا . واذا غضب اغا القصر على شخص ، فقد اكفهرت امامه السبل وضاقت الطرق وتعثرت خطواته فى الاوحال والاقذار .. خليل اغا ، هو الحاكم بأمره ، والحكم لله وحده !! وقد غضب خليل اغا هذا على عبد الله نديم فأمر بفصله من عمله ولكنه الى جانب ذلك امر ان يضرب عبد الله قبل ان يغادر القصر !! ولم يكن لامر خليل اغا مرد !! فضرب الرجل ضربا مبرحا وطرد على اقبح وارذل الوجوه !!

فالى الشارع اذن يا عبد الله وهو رحيب وسيع يضم كثيرين امثالك .. الى المقاهى والحلقات الشعبية فان فيها متسعا لكل من ضاقت به الدنيا وقذفت به من عل الى الحضيض ... وما يضيرك ان تأكل كسرة من الخبز وان ترشف جرعة من الماء وانت غنى الروح ثمين النفس ؟ لقد ارند لك ان يتخلى عنك العمل ، ولكن عملك الاكبر لم يتح لك فيه المجال ، وان عليك ـ حتى يحين الوقت ـ ان تتلمس الرزق أينما سعت بك قدماك ، ولن تخونك الحيلة فى الظفر بطعامك ومأواك

وأخذ عبدالله يتقلب على كف الحياة من عسر الى عسر ومن ضيق الى ضيق حتى ساقته المقادير الى الشيخ ابى سعدة عمدة بدواى بالدقهلية فاقام عنده يعلم اولاده القراءة والكتابة جزاء طعامه ونومه ، ولكنهما تشاجرا شجارا عنيفا افضى بعبد الله نديم الى السير على وجهه مرة اخرى فى متاهة الحياة خالى الوفاض ولكنه عامر النفس ! وقيض الله له بعد ذلك من افتتح له حانوتا لبيع الخردوات بالمنصورة ولكن اسراف عبد الله اتى على الربح وراس المال وادى به الى اغلاق الحانوت ، وجعل الرجل بعد ذلك يتجول فى البلاد وافدا على اكابرها فيكرمون وفادته ويبتهجون بمقدمه ويعقدون حوله المجالس

الطوال مستمتعين باحاديثه العذبة الطلية وما تنطوى عليه من معان وافكار . ودام الرجل على هذه الحال حتى اتصل بشاهين باشا كنج مفتش الوجه البحرى الذى اعجب بظرفه وادبه وطلاقة لسانه فاتخذه رفيقا حيث حل، وظل فى ضيافة ذلك الباشا مدة طويلة اتصل بعدها بالتتونجى بك فجعله وكيلا على ضياعه ومازال يقوم بهذا العمل حتى عاد الى الاسكندرية مسقط راسه

تلك هى خلاصة الفترة الاولى من سيرة السيد عبد الله نديم . وقد اتخذت حياته بعد ذلك شكلا ووضعا اخرين متغايرين . وان الذى يتابع سيرته من تاريخ عودته الى الاسكندرية حتى النهاية ، قد يستغرب كيف يتحول هذا الرجل المرح الجوال فى انحاء البلاد يتلمس الرزق بالظرف والخفة ، الى سيف ابتر ماضى النفاذ ؟!

ولكن الواقع انه كان يستر تحت مرحه دم الجراح المنفتقة بين جنبيه ، وانه كان فقط يتحين الفرصة كى ينفض نفسه الحقيقية امام الناس وكى يبين لهم الجمر تحت الرماد . وقد كانت اعباء مصر فى تلك الفترة تفرض ذاتها على كواهل العارفين الفاهمين الاذكياء . وكانت اشجان الوطن كثيفة ثقيلة بحيث يستدعى وضع مصر ان تتألف قلوب بنيها لدفع الاخطار التى تهدد كيانها ومستقبلها . وعلينا ايها القراء ان نعود باذهاننا القهقرى الى الوراء ، الى عهد اسماعيل باشا ، كى يمكن لنا ان نتصور التدهور المادى الذى وصلت اليه البلاد ، وكى نستطيع ان نتخيل الناس اشباحا من الجوع ، عرايا من العوز تلهب ظهورهم سياط جباة الضرائب التى يرزح تحت ثقلها الشعب بأسره . الدولة فى حاجة الى انهار المال ، فليتصبب ذلك المال عرقا ودما على جباه المواطنين المكدودين التعساء . واذا نحن عدنا الى عصر اسماعيل نستطلع فيه الايدى السياسية الخفية التى تندس فى الظلام لتحوك وتنسج المؤامرات والدسائس ،



راعنا ان تلك الايدى المدسوسة الاجنبية عديدة كثيرة ، وانها لم تكن تهدف بحركاتها الا الى وضع البلاد فى عنق الزجاجة كما يقولون. كى يتسنى لها ان تظفر بالغنيمة وان تأكل لحم الامة وتشرب دمها ! ! وقد افاقت على هذه الدسائس والحركات اللئيمة التى تمتد من الوراء عقول متفتحة واعية . وكان لظلم الواقع على كاهل الشعب اثره البالغ فى اشاعة السخط والتبرم لا على السنة عامة الناس . ولكن على وجوهها واساريرها ! !

ولكن الطبقة المستنيرة من الشعب ارادت ان تفصح عن امانيه المحطمة المتوارية تحت الثوب المزيق والبدن الهزيل والروح المظلوم المنكود . وكان لابد ان يأخذ ذلك التعبير طريقا عمليا فى نهاية حكم اسماعيل وكان السيد عبد الله نديم فى تلك الاونة قد وصل الى الاسكندرية فوجد هناك لفيفا من الشباب المتحمس قام بتأليف جمعية سرية يجتمعون فيها على البطش بكل مظهر للطغيان . وكان اسم هذه الجمعية « مصر الفتاة » فرحب عبد الله بفكرتها اذ رأى فى ذلك متنفسا لما يطوى عليه جوانحه وانضم اليها يدا عاملة وقلبا حارا صادقا . وعمل فى الصحافة فأخذ يدبج المقالات الرائعة الفريدة . وكان اسلوبه نمطا جميلا لا مثيل له بين المشتغلين بالصحافة فى ذلك الحين ، ثم عمل بعد ذلك هو وجمع من الادباء على تكوين (الجمعية الخيرية الاسلامية) واختاره زملاؤه مديرا لمدرستها وكان ذلك فى اواخر حكم اسماعيل باشا . وقد بلغ فى تلك الفترة تذمر الشعب حدا لا نهاية بعده ، ولعبت فى الخفاء اصابع السياسة الاجنبية ادوارا رهيبة ادت الى خلع اسماعيل باشا وتولى توفيق باشا وظن الناس ان الازمة قد سلمت نفسها للرياح ، وان الله بدل من العسر يسرا . واخذ عبد الله ينشىء المقالات يدعو فيها الناس الى اتحاد الكلمة فى وجه الاجنبى وراح يلقى الخطب تتناقلها البلاد بلدا تلو الاخر . ووضع فى ذلك الحين قصة اسماها «الوطن وطالع التوفيق»

واخرى سماها « العرب » ابان فيها ما آلت اليه حال الوطن . وقد تردد ذكر الكاتب فى كل مكان ولهج بحمده والثناء عليه كل مواطن وعمت شهرته وذيوع صيته ارجاء البلاد .

ولكن الجمعية الخيرية الاسلامية طرأ عليها فساد اسندوه الى عبد الله . فتركها بعد عكوفه على بنائها وانشا صحيفة « التنكيت والتبكيت » خلط فيها الجد بالهزل واخذ يلذع بما يكتبه كل جائر وكل جور .

كان الفلاحون اصحاب الارض وزارعوها وجالبو خيراتها كأنهم مطايا الشراكسة فى ذلك الحين . وكان ذلك الطابع عاما فى كل مناحى الحياة فى الوظائف المدنية والاعمال الحرة والمعاملات الشخصية والجيش . وكانت النفوس تجيش وتغلى فى صمت مرير بلغ والافواه مكممه مغلقة ! ! واذا قدر لاحد ان يشكو او ان يطالب بحقه الشرعى فى الحياة فان السياط هى الجواب على مايقول وان الاضطهاد فى اعنف اشكاله هو الرد على ما يفوه به . وقد كان الضباط فى الجيش يلحظون باعينهم تلك المحاباة الصارخة التى يعامل بها من دونهم الشراكسة ، ومازالت حادثة عثمان رفقى باشا مع احمد عرابى باشا الزعيم الفلاح ماثلة فى الاذهان ! ! ولسنا هنا فى سبيل سرد تفاصيل الحركة العرابية لان ذلك له مجال اخر .

وحسبنا ان نذكر هنا ان الحركة العرابية كانت اول حركة جريئة صادقة يرتفع فيها صوت الشعب فوق كل صوت ! ! ولقد ظلت رغبات الشعب حبيسة تفرى الضلوع وتحرق القلوب وظلت كذلك تلك الرغبات فى سجنها حائرة خائفة تتردد بين الظهور والخفاء ، حزينة مضطربة متقدة يعوزها اللسان الذى يفصح عنها واليد التى تلوح بها . ولقد كان عرابى ذلك اللسان وكان تلك اليد فى ذلك الحين . وكان طول المدة التى اشتدت ابانها المظالم وازدادت فيها الاضطهادات وتفاقمت خلالها تعاسات ابناء

الوطن ، كأن تلك السنين الطويلة السقيمة الشجية قد صهرت فى بوتقتها النفوس ايذانا بانصباب النار واندفاق النقمات وهبوب الثورات . فقط .. كانت الحركة تتطلع الى القائد .. ولم يكن ذلك القائد غير عرابى وحده الذى اصبح بين يوم وليلة امل الامة كلها ، والذى صارت داره كعبة القاصى والدانى يحج اليها الوافدون وفى يد كل منهم شكاية وفى قلبه جراح !! عرابى صوت الفلاحين المكدودين التعساء !! وكانت هذه فرصة سانحة يتحينها السيد عبد الله نديم ليضطلع بمهمته .. كان هذا هو الفجر الذى سطع فنعلق عبد الله بنوره .. الفجر للنائهين فى شعاب الظلام .. ان على السيد عبد الله ان يفرغ الان ما فى جعبته . ولقد عاش الرجل وفيا لامته وما لاح عرابى فى الافق حتى اخذ يروج له ويكتب الانهار الطوال فى صحيفته يحث بها الناس الى الالتفاف حول الزعيم وينبههم الى انه جالب حقوقهم الغصيبة وكان السيد عبد الله لا يكتفى بهذه المقالات النارية الصادقة ، ولكنه كان الى جانب ذلك يلقى الخطب الحماسية التى تلهب الارواح والضمائر تحمسا للحق وشدانا له !! وكانت خطابته ضربا فريدا من الخطابة ، مهيجا مثيرا . وكانت طلاقة لسانه — وهو يصور الظلم الواقع على كواهل الناس — فذة تحير الالباب .

ولماذا لايكون كذلك ؟ وهو واحد من الذين عانوا الشقاء غليظا كالحا طاغيا ، وكابدوا شظف العيش وناموا فى العراء وطووا بطونهم على المسغبة ؟!

لماذا لايكون كذلك وقد وسعت معرفته احوال هذه الكتل اللحمية التى تؤلف مجموع الشقيين من ابناء الوادى الحزين ؟ !

لماذا لايكون كذلك وقلمه يسيل ولسانه ينهمر ، ولايعوزه من وسائل البيان خاف ولامستدق ؟!

لقد كان عبد الله ينتقل من بلد الى بلد ، ومن مكان الى مكان ليرثى معالم الوطن الذبيح ويستبكى على خيراته من يخضبونها بدمائهم ويغسلونها بالدموع .

ولقد كان يهيب بعد ذلك بالباكين الناحبين ان يحفظوا الدمع فى مآقيهم ؛ وان يهبوا موجة واحدة عاتية تكنسح كل مايعترضها فى الطريق !! الارض ارضنا ونحن بلا مأوى !! والزرع زرعنا ونحن بلا طعام ... والماء ماؤنا ونحن عطاش حيارى على متاهة الصحارى والرمال !! واذا كان الحق فوق القوة ؛ فان على الحق ان يجند له قوة يدفع بها كل بأس الى الانهيار .. كان عبدالله هو داعية الحركة العرابية الذى لا يهدأ ولا يستقر ؛ والذى يثير العواصف والمآسى فى القلوب أينما كتب واينما خطب . فلا عجب اذا انتقل الى القاهرة وقويت به الحركة فيها . ولقد كان وجوه القوم يولمون الولائم للعرابيين ويدعون عبد الله الى الخطابة ؛ فاذا قام الى الكلام ساد الحفل انصات بالغ شديد يعقبه دوى التصفيق وهو يتطاير موجات موجات على اجنحة السماء !

ونشبت الحرب بعد ذلك فى الاسكندرية بين العرابيين والانجليز فهرع اليها عبد الله مع جماعة من كبار الضباط ثم لحق بعرابى باشا وقد كسر جيشه الاعزل الى كفر الدوار ثم انتقل معه الى التل الكبير وهو يصدر فى المعسكر الحربى صحيفة «الطائف» يطمئن بما يكتب النفوس الهالعة والقلوب الخائفة . وظل على هذا الكفاح المواصل حتى منيت حركة عرابى باشا بالهزيمة ففر عرابى وعلى الروبى وعبد الله الى القاهرة واتفقوا على ان يحمل عنهم كتابا الى الاسكندرية يطلبون فيه العفو من الخديو . وما ان وصل عبد الله الى كفر الدوار حتى بلغه خبر القبض على زعماء الثورة ودخول الانجليز القاهرة . فرجع اليها وبات بها ليلة اختفى اثره

بعدها عن اعين الجواسيس . وظل مختفيا هو وخادمه تسعة اعوام كاملة لايسمع له احد صوتا ولايعرف مكانا !! وراحت الحكومة خلال تلك المدة تطلق وراءه العيون سدى ، ولما اعيتها الحيل ، حكم عليه بالنفى من القطر المصرى مدى حياته .

وجملة مايعرف عن اختفائه انه ودع اباه صبيحة ذات يوم ببولاق وقصد دار احد اصدقائه هو وخادمه فأقام عنده اياما ثم بدل زيه فارتدى ثوبا من الصوف الاحمر (الزعبوط) واعتم بعمامة خضراء واسدل منديلا على عينيه واخفى شاربيه واطلق لحيته فتبدلت هيئته ثم هبط مع خادمه الى سفينة قاصدة بنها . وغادر بنها بعد ذلك الى منية الغرقا جوار طلخا . وكان السيد عبد الله اول اختفائه جزعا من تعقب البوليس له ولكنه كان ذكيا واسع الذكاء فما كانت تمتنع عليه الحيل فى تضليل الجواسيس بشتى الطرق والوسائل . وقد كتب المرحوم احمد تيمور باشا فى تراجم اعيان القرن الثالث عشر واوائل الرابع عشر ، فصلا عن حياة السيد عبدالله نديم جاء فيه انه قصد رجلا من مشايخ الطريقة الصاوية كان اخذ عليه العهد فى السلوك اسمه الشيخ شحاته القصبى وكان مشهورا بين الناس بالصلاح والتقوى فلما دخل عليه لم يعرفه لتغير شكله فجلس هنيهة حتى انصرف من بالمجلس ثم اختلى به وعرفه حاله واقام عنده ثلاثا ثم اشار عليه الشيخ بالانتقال واعتذر بكثرة الواردين الى داره واشار الى خطورة ذلك فتحول الى دار احد دراويش الشيخ الموثوق بهم فآواه شهرا ثم قصد بلدة اخرى وطوحت به الطوائح ولقى الاهوال . وحدث انه نزل مرة مختفيا عند قوم فأخفوه فى قاعة مظلمة يتساوى بها الليل والنهار ويتوصل اليها من سرداب طويل شديد الظلمة وكانت ارضها ترشح الماء لانخفاضها وقربها من خليج مار بجانب تلك

البلدة . وكان لايتمكن من الكتابة والمطالعة الا على مصباح صغير من زيت الحجر المسمى بالغاز كثير الدخان فقاسى الشدائد بهذا المكان تسعة اشهر ولما خرج منه كاد لايبصر الطريق لما غشي عينيه ، وكان كلما حل او ارتحل يغير اسمه وحلته فتارة يبخر لحيته بالكبريت حتى تبيض ويخضبها بالحناء اخرى وكان اسم خادمه حسينا فسماه صالحا وخفي امره على الناس وظنوه شيخا من الصلحاء حتى لقى مرة بعض من يخشاه وحادثه فستره الله وشمله بعنايته حتى فارقه ثم القت به يد الاقدار الى بلدة تسمى العتوه القبلية بمديرية الغربية فاختفى عند عمدتها الشيخ محمد الهشمري فأكرم مثواه واقام فى داره ثلاث سنوات ونيفا تزوج فيها وولدت له بنت وماتت ولم يشعر به احد . وزوج خادمه حسينا بأخت زوجته ثم مات فى اثنائها رب الدار وكان شهما ذا مروءة كبيرة وله امرأة مثله شهامة ومروءة فاستحضرت اكبر اولادها واعلمته ان ضيفهم المختفى عندهم هو عبد الله نديم طريد الحكومة وسألته هل يطمع فى الجعل ويسلمه أم يكون كأبيه فى حفظ الجار وحماية الذمار ؟ فاهتز الولد لقولها وأبى الا ان يقتدى بأبيه فى الكرم . ولعمرى ان ما اتته تلك الاسرة من مكارم الاخلاق وعلو الهمة ، لمما يندر مثله فى هذا الزمن . وتنقل عبدالله من بلد الى بلد وماتت زوجته ثم ذهب الى القرشية نزيلا عند احمد باشا المنشاوى فكان يجتمع به صديقه القديم الاديب محمد التميمى وغيره وتزوج هناك ببنت مصطفى منى من اهل المحلة الكبرى . الا انه لم يحمد المقام فانتقل الى دار التميمى فأقام بها شهرا ثم سافر الى الدلجمون بمديرية البحيرة فلم يمكث بها الا نحو اسبوع وعاد الى الغربية وقصد البكاتوش فكان يقيم تارة عند عمدتها الشيخ ابراهيم حرفوش وينتقل تارة الى دار جاره احمد جوده .. وكان رجلا قوى الجنان لايبالى بظلام الليل انى سار فيه فصار يصحب السيد عبد الله اذا اراد الانتقال

من بلد الى بلد فى الليل الحالك، ويتجشم معه اضيق المسالك ولم يزل عبدالله كذلك حتى انتقل الى صديقه الاديب الشاعر محمد شكرى المكى كاتب المركز بدسوق

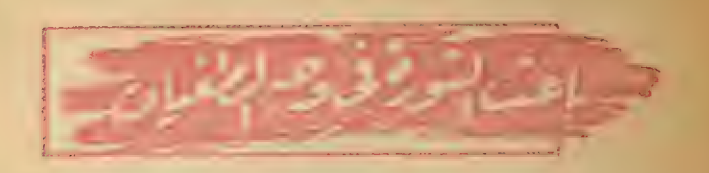
وانتقل عبد الله مع زوجته عند صديقه محمد شكرى مدعيا انه ابن عمه اتاه زائرا من الحجاز وسمى نفسه عليا اليمنى فمكث نحو ستة اشهر ثم انتقل بمفرده الى شباس الشهداء ولحقت به زوجته بعد عشرين يوما

وظل السيد عبد الله على هذه الحال من التنقل والاختفاء حتى رآه جاسوس ارشد اليه فقبض عليه البوليس وسألوه عن اسماء الذين اختفى عندهم فلم يذكر اسما واحدا منها . وانتهى الامر بنفيه خارج القطر .. ونقل بعد ذلك السيد عبد الله الى يافا منفيا ثم جاب هناك البلاد الفلسطينية

ولم يزل مقيما بيافا حتى مات الخديو وتولى عباس باشا فصرح له بالعودة الى مصر .

وعاد عبد الله الى القاهرة وانشأ مجلة الاستاذ . وحدث ماحدث بين الخديو والانجليز فقام عبد الله يستثير الهمم والنفوس حتى احفظ عليه المستعمرين فوقفوا مجلته واعادوه الى يافا منفيا . وما كاد يستقر به المقام فى يافا حتى امروا بابعاده من هناك فانتقل الى الاسكندرية . ولقد عانى الرجل شر ما يعانى الابى الكريم فسعى له الغازى احمد مختار باشا وعاونه حتى قبله السلطان عبدالحميد بدار السلطنة واستخدمه فى ديوان المعارف . فأمضى بقية ايامه شريدا عن وطنه حتى اشتد عليه السل ففارق الدنيا غير آسف عليها .

واذا بدا لاحد من قراء سيرته ان يسأل عن كتبه ومؤلفاته العديدة ، فلن يجد على ذلك جوابا الا انها ضاعت جميعها ! ! ولم ينشر منها على الناس غير جزء من « كان ويكون » وعلى السائل بعد ذلك ان يوقع المسئولية على كاهل الاستعمار وعلى الظروف العصيبة التى اضطربت فيها حياة ذلك البطل الشهيد .



ما أحوج الشرق فى هــذه الفترة العصيبة الى ان يستخرج صور مجده الباسلة العظيمة . ! وما أعوزه الى أن يجلوهــا أمام الناظرين واضحة الملامح ، رائعة التكوين ، تستنزل منهــا الامة العربية احســاسها بكرامتهــا وشعورها بعزتها وحقوقهــا فى الحياة أمام الغاصبين . ان فى استعادة ماضى الكفاح بعثا للهمم الفتية ، وانهاضا للعزائم المتحفزة ان يخوض أربابها معركة الموت فى سبيل الحق والحــرية . كم عاش بيننا الفرد فى سـبيل المجموع ؟ وكم التفت شعوبنــا حول أبنائها الاحرار وهم يلطمون وجوه الظالمين بالوحل ، ويدقون أعناقهم فى التراب ؟ وكم قام بيننــا دعاة الحــرية وحماة رسالة الحق ؟ وكم لقوا من الظلم ما يدك الجبال فى سبيل رسالاتهم الرفيعة ، طارحين وراءهم بهرج الدنيا وزخرف الحياة ، مستعذبين التضحية بالمال والولد والجاه ، غير قابلين عوضــا عما يحملون الى الشعوب من الخير والسعادة والمجد . هؤلاء هم اصحاب المثل العليا التى تتمخض الاجيال عن حركاتهم الاصلاحية فتحيا مبادئهم وتمتد رســالاتهم من جيــل الى جيل ، تسطع بالنور فى الظلام ، وتدفق بالماء فى الجدب ، فتبل الارواح وتلهبها فى سبيل العمل على اسعاد المجاميع الانسانيــة التى تعيش معها . ما أحوجنا الى هؤلاء القادة المثاليين يسيرون بالشعوب الى خيرهــا وحقــوق افرادها المظلومين ! ما احوجنــا

الى الذين يصيحون : ((خائن كل من يساوم على أبناء أمته ؛ ملعون كل من يتجر بالشعب من أجل راحته ، لانه يشتريها على حساب شقاء الملايين من أبناء الشعب الكادح المسكين))

فالى الخونه الذين تخنق جرائمهم أرواحهم يوم الحساب .. الى شاربى الدماء فى الجماجم ولاعبى النرد بالانفس .. الى الذين يستحلون فى سبيل شهواتهم الدنيا اهدار حقوق الناس .. الى هؤلاء واضرابهم على طريق الغواية والشر .. والى الذين يقابلونهم على الطريق السوى .. الى مكافحى الطغيان ورافعى المظالم عن كواهل الجماعات .. الى العاملين على النهوض بالشعوب الذين يكابدون العذاب ويقابلون الموت دون تحقيق رسالاتهم .. الى هؤلاء وأولئك جميعا نسوق ذلك الجانب من سيرة السيد جمال الدين الافغانى ، آملين ان يكون فيه الدرس للفريقين ، والعبرة للظالم ! والعزاء للمظلوم !

• • • • •

اذا كبرت العبقرية تشعبت اتجاهاتها وتنوعت تلك المسالك التى تسير فيها قواها ، وهذه حال السيد جمال الدين الافغانى ، فقد حمل رسالة الاصلاح فى كثير من اتجاهات الحياة ، فهو صاحب دعوة دينية ، وهو صاحب دعوة سياسية ، ولسنا هنا فى مجال التحدث عن دعوته الدينية ، ولكننا نحاول بقدر اتساع المقام أن نعرض جانبا من كفاحه السياسى فى سبيل تحرير الشرق والعمل على خير شعوبه واسعادها . ويمكن لنا أن نعرف قيمة الرجل اذا عرفنا مدى تأثيره فى الجماعة الانسانية التى حوله ، وحسبنا أن نثبت هنا ان المهمة التى اضطلع بها الشيخ محمد عبده ، والنهضة التى قام بها سعد زغلول هما بذرتان من بذور السيد جمال الدين الافغانى .

جاب الافغانى بلاد الشرق والغرب فهاله عند المقارنة أن يرى بلاده سجينة الخمول ، رهينة الكسل ، مرتعا للجهالة والتواكل والتاخر ، فى حين تدور عجلة الغرب نشيطة مجدة نحو المعرفة والتقدم ، ولم يكن السبب فيما آل اليه الشرق من سوء الحال غير تسلط المستعمرين عليه واستنزافهم لقواه ، يضاف الى ذلك تعسف الامراء الذين تناوبوا حكم بلاده ، وجورهم الشديد وتفردهم بالسلطان تفردا باغيا لايسمح معه لصوت الشعب ان يرتفع ولا لكلمته ان تعلو .. وقد وضع السيد جمال نصب عينيه أن يكافح الاستعمار الاجنبى وأن يناهض الحكم الاستبدادى داخل البلاد .

لهذه العقيدة وهب الرجل نفسه طول حياته وسخر جهوده حاثا الخاملين الى النهوض والمنقسمين الى اجتماع كلمتهم واتحاد رايتهم ، وكان فى كل ذلك يؤمن بان الحرية والاستقلال لاتؤخذان الا بحد السيف داعيا الناس الى الاستشهاد فى سبيل تخليص بلادهم من براثن المستعمرين

بداية الجهاد

وقف السيد جمال الدين الافغانى وهو فى الهند وقال لجماعة من زائريه :

« يا أهل الهند ، وعزة الحق وسر العدل، لو كنتم وأنتم تعدون بمئات من الملايين ذبابا مع حاميتكم البريطانية ، ومن استخدمتهم من أبنائكم فحملتهم سلاحا لقتل استقلالكم واستنفاد ثروتكم ، وهم بمجموعهم لايتجاوزون عشرات الالوف — لو كنتم مئات الملايين كما قلت ذبابا ، لكان طنينكم يصم أذان بريطانيا العظمى ، ويجعل فى أذان كبيرهم المستر جلادستون وقرا .

لو كنتم أنتم مئات الملايين من الهنود ، وقد مسخكم الله فجعل

كلا منكم سلحفاة ، وخضتم البحر ، واحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى ، لجررتموها الى القاع ، وعدتم الى هندكم احرارا »

قال هذه الكلمات بعد أن أرغمه الانجليز على مغادرة الهند ، وسيروه الى السويس ، فنزل منها الى القاهرة وظل فيها أربعين يوما كان ينتوى خلالها السفر الى الحجاز ، ولكن السلطان عبد العزيز دعاه الى الاستانة ، بعد أن سمع عنه ماسمع من رفعة الشأن وجلال القدر وعلو المكانة . وصل السيد جمال الدين الى الاستانة سنة ١٨٧٠ ، فاكرمه السلطان ، وتالفت حوله حلقة من عشاق أدبه وعلمه ، وعين عضوا فى مجلس المعارف ، فاراد أن يقوم باصلاح التعليم . ولكن حساده تكاثروا من حوله ، فرماه شيخ الاسلام بالالحاد . وحينئذ ثار جمال الدين وغضب غضبة شديدة لهذا القذف ، وطالب بمحاكمة الرجل ... ولكن الدساسين أفلحوا فى العمل على نفيه . وانتهزها جمال الدين فرصة لبث مبادئه ، فتحدث مع زائريه وهو يتاهب لترك الاستانة عن السلطة المدنية والروحية قائلا : « كل شعب تلعب به الاهواء ، ويفرق شيعا وطوائف ، وتستحكم من افراده محبة الذات والانانية ، فيتجرون باسم الامة تجاه الفرد المسلط ، ويستنزفون ثروة المجموع ، ارضاء له ، لينالوا بلغة من عيش — يكون كالانعام السائمة أو أضل سبيلا »

ثم قال : « اذا سار الدين فى غايته الشريفة حمدته السلطة المدنية بلا شك . واذا سارت السلطة المدنية فى الغاية المقصودة منها وهى العدل المطلق حمدتها السلطة الروحية وشكرتها بلا ريب . ولا تتنافر هاتان السلطتان الا اذا خرجت احداهما من المحور اللازم لها ، والموضوعة لاجله »

الى مصر

عاد جمال الدين الى مصر فى ربيع عام ١٨٧١ ، وكانت شهرة جمال الدين تعم البلاد فلا عجب ان استقبله جمهور كبير من



المتادبين وعشاق العلم وطلاب الحكمة . وقد أجرت الحكومة عليه مرتبا سنويا مكنه من الاستقرار ، فالدعوة الى الاصلاح كما سياتى . وقد مكث جمال الدين فى مصر ثمانى سنوات كان بيته فيها حلقة تتالف من عشاقه ومريديه وكان هو يبث تعاليمه بين هؤلاء وقد حمل على الاستعمار الاجنبى حملة كان صداها ظهور سعد زغلول ، وحمل على التأخر الثقافى حملة كان صداها ظهور الشيخ محمد عبده .

وعلى هذا المنوال كان تاثير جمال الدين فى تلامذته ومريديه حاثا اياهم على التوجه الى الحرية والحق فى كل سبيل من سبل الحياة .

وكانت مصر فى تلك الايام تجتاز فترة عصيبة ؛ اذ بلغت قروضها من الدول الاوروبية نحو خمسة وتسعين مليونا من الجنيهات . وقد تبع ذلك تنازل مصر عن كثير من حقوقها للاجانب حتى اطلقت ايديهم فى شئونها الداخلية . ولم تكن الحكومة فى ذلك الحين الا مرغمة على فرض الضرائب الباهظة التى أثقلت كواهل الفلاحين . وهنا يظهر السيد جمال الدين ويخطب فى تلامذته محذرا اياهم من ضرر التدخل الاجنبى فى أمور البلاد . وكان يجوب الشوارع وتلتف حواليه جماعات من الناس فيقول : « انكم معشر المصريين قد نشاتم فى الاستعباد وربيتم فى حجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وانتم تحملون حب الفاتحين ؛ وتعنون لوطأة الغزاة ، تسومكم حكوماتكم الحيف والجور . وتنزل بكم الخسف والذل ، وانتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم ومواد غذائكم ، التى تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم ؛ بالعصا والمقرعة والسوط ، وانتم معرضون . فلو كان فى عروقكم دم فيه كريات حيوية ، وفى رؤوسكم اعصاب تتاثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة ، ولما صبرتم على هذه الضعة والخمول ؛ ولما قعدتم على الرمضاء وأنتم ضاحكون . تناوبتكم أيدى الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب

والاكراد والمماليك ثم الفرنسيس والمماليك ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، ويهيض عظامكم باداة عسفه ، وانتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة ، لاحس لكم ولا صوت ! انظروا اهرام مصر وهياكل ممفيس وآثار طيبة ومشاهد سيوه وحصون دمياط شاهدة بمنعة ابائكم وعزة اجدادكم

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم   ان التشبه بالرشيد فلاح

هبوا من غفلتكم .. اصحوا من سكرتكم ، انفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول ، عيشوا كباقى الامم أحرارا ، وموتوا مأجورين شهداء »

وكان السيد جمال الدين يؤمن بان نهضة الامة لا يمكن ان تتم الا على ايدى الاحزاب ولكن مصر لم يكن فيها فى ذلك الحين حزب واحد ، فاراد السيد جمال ان يستنصر بالمحفل الماسونى فى سبيل استنقاذ المظلومين والدفاع عن حقوق الفلاحين ومواجهة عسف المستعمرين . غير ان الماسونيين لم يوافقوا على الاشتغال بالسياسة فقال لهم السيد جمال : « اذا لم تتدخل الماسونية فى سياسة الكون وفيها كل بناء حر ، واذا لم تستعمل آلات البناء التى بيدها لهدم القديم وتشييد معالم الحرية والاخاء والمساواة ، واذا لم تدك صروح الظلم والعتو والجور ؛ فلا حملت يد الاحرار مطرقة حجارة ، ولا قامت لبنائهم زاوية قائمة » . ثم قال : « ان اول ماشوقنى للعمل فى بناية الاحرار عنوان كبير خطير : حرية ، مساواة ، اخاء ! وغرض هو منفعة الانسان ، والسعى لدك صروح الظلم وتشييد معالم العدل » .

ولكن السيد جمال أيقن بعد ذلك انه لايستطيع العمل مع المحفل الماسونى لتردد اصحابه . وما لبث بعد ذلك ان ألف مع نخبة من الساسة والادباء الحزب الوطنى عام ١٨٧٩ . وقد تكونت جمعيات وطنية أخرى فى ذلك الحين فكان السيد جمال الدين

اول مؤسس للحياة الحزبية السياسية فى مصر . وفى تلك الايام كادت المجاعة أن تنتشر بين الفلاحين ، وساءت حال المصريين سوءا لا حد له . قال المستر بلنت فى كتابه التاريخ السرى يصف تلك الحال : « وكان من النادر ان يرى الانسان شخصا فى الحقول وعلى رأسه عمامة وعلى ظهره شىء أشبه بالقميص وكان الذين يملكون العباءات بين مشايخ القرى قلائل معدودين . وقد ازدحمت المدن فى أيام الاسواق بالنساء اللواتى يبعن ملابسهن وحليهن الفضية للمرابين الروم . وذلك لان جباة الضرائب كانوا يتربصون بهن فى القرى والسياط مرفوعة فى أيديهم » .

وقد كان السيد جمال الدين فى هذه الفترة نهبا للتأثر والحزن لهذه الحال اليائسة التى وصل اليها الشعب المصرى . فكان يقوم فى الناس خطيبا وهو يقول : « أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الارض لتستنبت ماتسد به الرمق وتقوم بأود العيال ، فلماذا لاتشق قلوب المستعمرين ؟ لماذا لاتشق قلب الذين يأكلون ثمرة اتعابك ؟ »

وحدث بعد ذلك أن أصدر الباب العالى أمرا باقالة الخديو اسماعيل ، فتولى مكانه ابنه توفيق باشا ... وقد أراد المستعمرون وأرادت الظروف العصيبة أن ينفى جمال الدين من مصر بعد أن ربى فيها عقولا وأنمى قلوبا . وأقام جمال الدين فى مدينة « حيدراباد » وهناك بلغته أنباء الثورة العرابية . وماكاد يستقر به المقام فى الهند حتى أخذت تجيش فيها الثورة ، فنقله الانجليز الى « كلكتا » وشددوا عليه الحراس . ثم أفرجوا عنه بعد فشل الثورة العرابية .

الى الغرب

اتجه جمال الدين بعد ذلك من الهند الى لندن ، والتف حوله نخبة من المفكرين الانجليز . ولكن بقاءه فى لندن لم يمتد فتركها الى باريس . ودارت هناك محاورات بينه وبين « رينان »

وجمع من الكتاب الفرنسيين حول العنصرية والاسلام والعلوم كان فيها جمال الدين فارس الحلبة . وقد لحق بالسيد جمال الدين فى باريس زميله الامام الشيخ محمد عبده .

قال اللورد « سالسبرى » للسيد جمال الدين فى اجتماع عقده بينهما المستر « بلنت » : ان بريطانيا تعلم مقدرتك ونحن نقدر رايك قدره ونحب ان نسير مع حكومات الاسلام بمودة وولاء ، على قدر ماتسمح لنا به الظروف والاحوال ، لذلك راينا ان نرسلك الى السودان سلطانا عليه ، فتستأصل بذور فتنة المهدى ، وتمهد السبيل لاصلاحات بريطانيا فيه » . فقال جمال الدين : « تكليف غريب ، وسفه فى السياسة مابعده سفه . اسمح لى ياحضرة اللورد ان اسألك : هل تملكون السودان ، حتى تريدوا ان تبعثوا اليه بسلطان ؟ » ثم قال : «ان الاصلاح وما تنويه بريطانيا من عمله وطرق ادخاله وماتبحث له من الوسائل ، فعلى سبيل الاستطراد ، والتطفل ، الفت نظرها ، ونظر كبير رجالها حضرة اللورد ، الى ايرلندا وما تعانيه من ضروب البلاء فيما تنشده لنفسها من طلب الاستقلال ، ليتسنى لها معه الاصلاح لبلادهم . فلماذا لاتجيبون سؤلهم ، وتصلحون امرهم ؟ هم اقرب اليكم من حبل الوريد ، وبينكم وبينهم من الجامعات ما هو معدوم لكم فى مصر والسودان وغيرها من ممالك الشرق» . ولم يكن غريبا بعد ذلك أن تمتد الجفوة بين الرجلين وان يتابع جمال الدين كفاحه فى باريس .

العروة الوثقى

انشأ مجلة العروة الوثقى كى يعبر بين صحائفها عن آمال الشرق المغلول ، مدافعا عن الحقوق الضائعة مطالبا بالعدل والمساواة والاخاء بين الناس ، مقويا الاواصر بين الشعوب الاسلامية ، وحسب الذين يطالعون العروة الوثقى أن تستجيش آلامهم وتتحفز عزائمهم حين يقرأون :

« بكائى على السالفين ، ونحيبى على السابقين ، أين أنتم ياعصبة الرحمة وأولياء الشفقة ، أين أنتم يا اعلام المروءة وشوامخ القوة ؛ أين أنتم يا أهل النجدة وغوث المضيم يوم الشدة ، أين انتم ياخير أمة أخرجت للناس ؛ تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، أين أنتم أيها الامجاد الانجاد ، القوامون بالقسط ، الآخذون بالعدل ، الناطقون بالحكمة . المؤسسون لبناء الامة ؟ ألا تنظرون من خلال قبوركم الى ماأتاه خلفكم من بعدكم ، وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتكم ، انحرفوا عن سنتكم ، وحادوا عن طريقتكم ، فضلوا عن سبيلكم ، وتفرقوا فرقا أشياعا ، حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب اسفا ، وتحترق الاكباد حزنا ، أضحوا فريسة للامم الاجنبية ، لايستطيعون ذودا عن حياضهم ، ولا دفاعا عن حوزتهم . الا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل ، ويوقظ النائم ، ويهدى الضال الى سواء السبيل ؟ » ثم يصرخ صرخة مريرة ، وكان قارىء العروة الوثقى يحس قلب الرجل وهو يحترق فى هذه الصرخة قائلا : « ملعون من يخون بلاده لمرض فى قلبه ، ملعون من يبيع اهل ملته لحطام يلتذ به ، ملعون من يمكن الاجانب من دياره ، ملعون من يختلج فى صدره ان يلحق عارا بامته ليتمم ناقصا من لذته .. هيهات ، هيهات ! ايظن مريض القلب انه سيترك حتى ياتى هذا المنكر ؟ أيظن انه يعيش حتى يتمتع بما تكسب يداه ؟ »

ولم يكن بد للمستعمرين ان يحاربوا العروة الوثقى وان يحولوا دون دخولها الى بلاد الشرق عاملين على مصادرتها فى كل مكان ، ولكن الاحرار من ابناء البلاد العربية كان لايعوزهم ان يحتالوا بكل الوسائل على اقتناصها والتهام ماتفيض به صحائفها من صرخات حارة تستحث همم الشرقيين وتوقظ عزائمهم لاهبة مستعرة عنيفة . ولكن السيد جمال والشيخ محمد عبده لم

يستطيعا ان يواصلا اصدارها لمحاربة الانجليز لهابكل وسائلهم الاستعمارية

الى ايران

سافر جمال الدين الى ايران وكان الشاه ناصر الدين قد اراد ان يتشرف بانتساب جمال الدين الى بلاطه فجعله وزيرا للحربية، ولكنه حين لمس فيه الجراة والاندفاع للعمل فى صالح الشعب، خشى بأسه، واحس انه اقدم على خطأ شديد، واحس جمال الدين بشعور الامير، فرحل الى « موسكو » تاركا وراءه ايران، ثم الى « بطرسبرج »، وراح يلقى المحاضرات فى الاندية والمحافل.

واخذ يكتب فى الصحف عن سياسة الشرق والغرب. وقد دام بقاؤه فى روسيا اربع سنوات كان يدعو فيها الروس الى مناصرة الاقطار الشرقية فى مكافحة الاستعمار. وقدم الى « بطرسبرج » الامير ناصر الدين وطلب مقابلة السيد جمال الدين فرفض. وقد اراد القيصر ان يعلم اسباب الخلاف بين الشاه وجمال الدين فقال له جمال الدين انه يرى من الضرورى ان تشترك الامة فى حكم نفسها وان ذلك نظام لايرضى عنه الشاه. فقال القيصر انى ارى الحق فى جانب الشاه، اذ كيف يرضى ملك من الملوك ان يحكمه فلاحو مملكته ؟ فاجاب جمال الدين : « اعتقد يا جلالة القيصر ان الملايين من الرعية اذا كانت أصدقاء للملك خير من ان تكون أعداء له تكمن فى صدورها سموم الحقد ». وكان ذلك آخر لقاء بين القيصر وجمال الدين. وسافر جمال الدين قاصدا الى باريس فالتقى به الشاه ناصر الدين فى « ميونخ » وظل يلح عليه أن يعود ويشتد فى رجائه حتى قبل، ورجع جمال الدين وهو ممتلىء النفس بالاصلاح قوى الامل فى اقامة الدستور بين الامة. فاستدعاه الشاه وسأل عن خلاصة ذلك الدستور وقال له بعد أن اطلع عليه : « أيصح أن أكون يا حضرة السيد وانا ملك من ملوك الفرس كاحد أفراد الفلاحين ؟ » فاجاب جمال الدين :

« اعلم يا حضرة الشاه أن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك ستكون بالحكم الدستورى أعظم وانفذ واثبت مما هى عليه الآن »

وحينئذ ثار الشاه على جمال الدين وأمر بخمسمائة فارس فانتزعوه من فراشه . قال السيد جمال الدين : « وسحبونى على الثلج الى دار الحكومة ، بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن يتصور دونها فى الشناعة ثم حملنى زبانية الشاه ؛ وانا مريض على برذون ، مسلسلا ؛ فى فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية ، وساقتنى جحفلة من الفرسان الى « خانقين » على الحدود العراقية »

بعد ذلك خلت البلاد للشاه يعيث فيها فسادا ويتاجر بابنائها ووطنهم كما يتجر فى السائمة فهو يبيع مصادر ثروتها وخيراتها للاجانب المستعمرين . وهو يغل أبناء الوطن فى قيود الطامعين الغاصبين . ولكن جمال الدين كان له بالمرصاد ، فاعلنها عليه حربا طاحنة لا تنتهى ، وأخذ يلقى المحاضرات فى البصرة عن مباذله ومفاسده ، مبينا ما انتهى اليه الشعب فى عهده من الجوع والبؤس والفاقة الشديدة . وكان يراسل صديقا له فى ايران هو الحاج « ميرزا محمد حسن الشيرازى » ويكتب له الكتب المطولة يعدد فيها مفاسد الشاه ، ويقول : « انه باع الجزء الاعظم من البلاد الايرانية ومنافعها لاعداء الدين : المعادن ، والسبل الموصلة اليها ، والطرق الجامعة بينها وبين تخوم البلاد ، والخانات التى تبنى على جوانب تلك المسالك الشاسعة التى تتشعب الى جميع أرجاء المملكة ، وما يحيط بها من البساتين ، والحقول وما يتبعها من الجنائن والمروج ، وما على اطرافها من العمارات والفنادق ، والتنباك وما يتبعه من المراكز ومحلات الحرث وبيوت المستحفظين والحاملين والبائعين ، انى وجدو حيث بنيت ، وحكر العنب للخمور وما تستلزمه من الحوانيت والمعامل والمصانع فى جميع أقطار البلاد والصابون والشمع والسكر

ولوازمها من المعامل ، والبنك وما أدراك ما البنك ، هو اعطاء زمام الاهالى كلية لعدو الاسلام واسترقاقه لهم واستملاكه اياهم ، وتسليمهم له بالرئاسة والسلطان » .

ثورة الشعب الايرانى

وقد بلغت ثورة الشعب الايرانى فى ذلك الحين حدا لا يمكن وصفه.

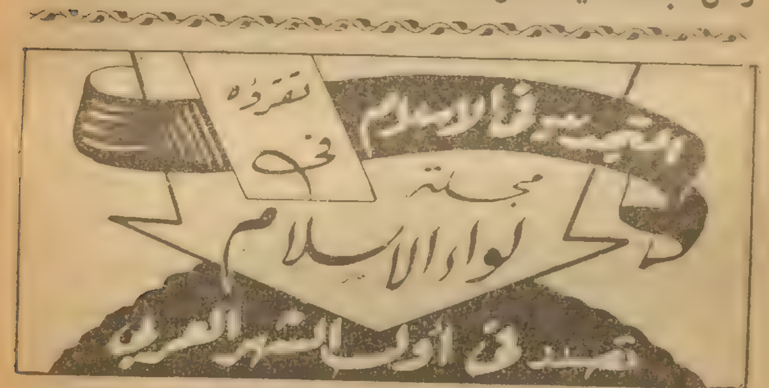
وكان للسيد جمال الدين الدور الاول فى اثارة الناس على الشاه وفى دعوتهم الى المطالبة بحقوقهم. وقد اصر جمال الدين فيما بينه وبين نفسه ان يحطم ذلك النير الذى يرهق كواهل الناس فرحل الى لندن واخذ يساهم فى تحرير مجلة شهرية اسمها ضياء الخافقين . شن فيها حملات متواصلة على شاه فارس ، وقد جاء فى العدد الاول منها الصادر فى اوائل ١٨٩٢ دراسة كتبها السيد جمال عن احوال فارس نقتطع منها هذه الكلمات : « لا حد فى الاقطار الايرانية للضرائب والجبايات والخراج والمكوس ، ان الجرائم ليست لها حقائق احرزها الشرع وحكم بها العقل ، كل هذه تحت سلطان الهوس والشره والقهر ، لا دستور للحكومة ولا نظام ولا قانون ، كل يفعل مايقدر عليه وتدعوشهوته اليه ، ولا رادع لقضاء الحاكم ولا مانع لحكمه ، يأخذ الجار بالجار ، ويدمر قرية بذنب يدعيه على رجل ولا ذنب ، كل مسئول لديه عن الكل » .. وعلى هذا المنوال اخذ جمال الدين يكافح الشاه ، وكان لكتاباته تلك صداها البالغ فى نفوس الايرانيين، واحس الامير ناصر الدين بالخطورة التى تتربص به ، فارسل سفيره الى لندن يستميل السيد جمال اليه عارضا عليه مايشاء من المال ولكن جمال الدين قال للسفير : « والله لا ارضى الا ان يقتل الشاه ويبقر بطنه ويوارى فى القبر » .

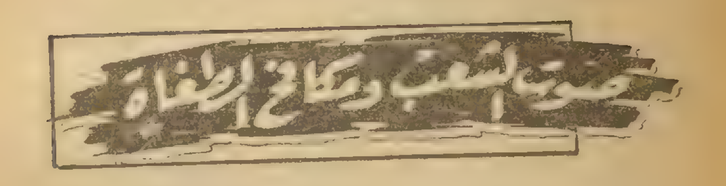
وانتقل بعد ذلك السيد جمال الدين الى « الاستانة » وقد اشتدت ثورة الشعب الايرانى فى ذلك الحين على الشاه « ناصر الدين » فانقض عليه وهو فى جامع عبد العظيم بطهران « رضا الكرمانى » احد تلامذة السيد جمال الدين وطعنه بمدية فى يده

وصاح : « خذها من يد جمال الدين » وحين سمع السيد جمال بذلك النبأ قال : « قد تحقق الآن ان الامة الفارسية لم تمت، وانها امة لن تنقطع منها الآمال ،لان الامة التى يقوم من ابنائها من يأخذ بثارها ويفتك بالطاغى الذى على رأسها ، لاتكون قد فقدت جراثيم الحياة »

فى الاستانة

ظل السيد جمال الدين فى الاستانة محاطا بالجواسيس والحاسدين الذين يحيكون من حوله الدسائس ، وقد خشى بأسه السلطان عبد الحميد فبث من حوله العيون ، وكانت العلاقات بينهما تفتر حينا وترتبط حينا آخر ، وكلما ضاق السيد جمال الدين بالحياة فى الاستانة واعتزم الرحيل عنها ، خشى السلطان ان ينضم الى جماعة الثوار الاتراك فى فرنسا ، فيعود ويرغمه على البقاء فى بلاطه . وهكذا قضى السيد بقية حياته مراقبا اشد المراقبة ، وقد فتح داره كعبة لرواد العلم وطلاب الثقافة على اختلاف انواعها ، حتى اصيب فى عام ١٨٩٧ بالسرطان فقضى عليه، ولم يسر فى جنازته غير ثلاثة من اصدقائه ، اذ أصدر السلطان أوامره بان يدفن فى غير احتفال ،وقد شاعت الاقاويل المختلفة حول مصرعه ، ولكن لم يجزم بواحد منها .. مات السيد جمال الدين ولكن مبادئه حية لاتموت .





اذا الشعب يوما أراد الحيا ة فلابد أن يستجيب القدر
ولابد لليـــل ان ينجلى ولابد للقيـد ان ينكسر

* * *

صدق الشاعر ..

ومن كان لا يؤمن بما ينطوى عليه هذان البيتـــان من معنى ثابت وحقيقـة أكيدة ، فليقلب معى صفحات التـاريخ المصرى الحـافل المشرف لنستخرج من قلب ذلك التـاريخ مثلا صادقا حيا يؤيد هـذا المعنى ، ويؤكد هذه الحقيقة اجلى تأييد واقواه.
اجل ، ان الذى يطـــالع تاريخ مصر لا يملك الا الاعجاب البالغ بروح ذلك الشعب العظيـــم ، وبعزيمته الماضـــية النـافذة ، وبإرادته الحديد التى تهوى اذا شاءت بالقمم ، وتعلى اذا شاءت السفوح . وان المتتبع للحركات القومية فى هذا الوطن العظيـم ، ليبهره ويأخذ عليه لبه ، مايكمن فى نفسية الشعب المصرى مـن الاستماتة فى الصراع ، والاستشهاد فى مقـاومة الطغيان ، والموت دون ما يبتغى الغاصبون .. فكم فى أوعية التاريخ من أمثلة باهرة تخطف ابصار الجاحدين ، وتدلهم على أن الشــعب المصرى الباسل يعلى فوق الطغاة كلمته ، وينفذ قبـل مشيئتهم ارادته ، فهو وحده صاحب الوطن .

والحقيقة التى قد تخفى على بعض الذين لا يبصرون الشمس

فى وضح النهار ، هى ان الشعب المصرى تمر عليه فترات متعاقبات يبدو فيها كأن روحه المعنوى قد انطفأ ، وكأن حماسه قد تبخر ، وكأن اتجاهه نحو الحق والعدل والاقدام ، لم يعد الا تخبطا وتعثرا فى طريق الجمود ، ولكنه - وياليتهم يعلمون - يستجمع فى هذه الفترات العصيبات حماسة للوثوب ، وقوته للانقضاض ، فاذا هذه الالوف المؤلفة ، وكأن فى دمائها السعير ، تجتاح الظلم وتدق اعناق الظالمين .

* * *

الى عصر المماليك أيها القراء .

الى حكم العثمانيين فى مصر ، وقد تربصت بهم طعنات الروس فى أوربا ، وبلبلت يقظتهم مداورات النمسا ومحاوراتها

الى عصر المماليك ، باذخى القصور ، يستحلون فى سبيل مطامعهم تجويع الملايين والملايين من أبناء ذلك الشعب الباسل المنكود ... الى العراة والكلاب كاسية !! والى الجياع والحيوانات متخمة !! والى الجهلة المحرومين من نور العلم لانه مقصور على شرذمة المماليك !! .. والى الكادحين فى الحقول يشربون العرق وياكلون التراب ، وتستنزف قواهم تلك الفئة الطاغية التى لاهم لها سوى اغتصاب الحكم لابتزاز الاموال ... الى هؤلاء الرازحين تحت عبء الضرائب تلهب ظهورهم السياط ، ويقادون الى حتوفهم كالسائمة فى ايدى الجزارين

لقد كانت الدولة العثمانية تعانى فى تلك الفترة سكرات الموت الاكيد ، وما كان حكمها لمصر بعد السلطان سليم الاول غير حلقات متلاحقات من الاضطراب الشديد . فقد اخذ خصومها فى اوربا يناوشونها ، ويشنون عليها من حروب الاعصاب ماشغلها من ادارة الحكم فى مصر بقبضة تكفل لها بقاء النفوذ . وما كان

هم الدولة العثمانية فى غير جمع المال من مصر . فما يبتغى المستعمرون غير ان يمتصوا دماء الشعب وثرواته ومحاصيله وقواه ؟ وماذا يعنيهم اذا الشعب ظل فقيرا معدما ؟ أو اذا عاش مقصيا عن نور العلم ، نهبا لخرافات الحياة واباطيلها المظلمة الكالحة ؟ ماذا يعنيهم من امر ذلك الشعب وهم ينظرون اليه كما ينظرون الى البقرة الحلوب يستدرون لبنها ويأكلون لحمها ؟. انهم يريدون المال .. فلتحترق قوى الناس ، ولتنقلب مصر رأسا على عقب فى أتون من الاضطراب المستعر ، وليتضور أبناء مصر جوعا وفاقة وضعفا ... لذلك كانت الدولة العثمانية ترسل الوالى الى القاهرة لاقصد له غير جباية الضرائب وارسالها الى القسطنطينية ، وكانت هذه السياسة العقيمة من جانب القسطنطينية سببا فعالا فى تقوية المماليك ومناوأتهم المستمرة للباشا الوالى . ويشهد القرن الثامن عشر بان كوكبة من أمرائهم استطاعت أن تقبض على يد السلطة فى مصر تدريجا ، وان تنازع ممثل السلطان العثمانى وتقصيه عن الحكم الفعلى ، وكان « اسماعيل بن ايواظ » أول من دانت له الديار المصرية ، وأول من استطاع ان يحكم مصر حكما مطلقا دام ثلاث عشرة سنة

ويمكن - اذا علمنا باغتياله بعد ذلك - أن نتصور تنافس بعض المصريين فى ذلك الحين ، وتطاحن المماليك على الاستئثار بالحكم ، كل يود السلطة لنفسه دون سواه ، يخوض فى سبيلها بحرا من الدماء ، ويدك أكواما من العظام والاشلاء . ولم تنتقل السلطة بعد موت « اسماعيل ابن ايواظ » الى ايدى العثمانيين ، لان المماليك اخذ ينقض منهم الخارج عن السلطة ، على الامير الحاكم . فما يذهب واحد منهم الا ليعتلى آخر مكانه .. وهكذا دواليك . . . وكانت تشتعل بين الفرق حروب طاحنة ومشاحنات ثائرة متصلة تحتدم نيرانها بين الطامعين فى

الحكم من الامراء . وكان الشعب فى ذلك العهد الاسود مبعدا عن التدخل فى شئون السياسة لا يرتفع له صوت ولكنه كان يجد متنفسا ومجالا للتعبير عن آرائه وأمانيه ومثله العليا فى الطرق والمساجد . وقويت على الناس المظالم وهم ضحايا ابرياء لهؤلاء السفاحين الذين لا يبتغون سوى الحكم طمعا فى المال وحده ، لا تدفعهم اليه رسالة ولا يحسون شجون العامة ، ولا يحزنهم ما آلت اليه الطبقة الكادحة الشقية من سوء المصير ومغبة التقدير ، والتأرجح فى ظلمات الجهل ، والتكبيل فى قيود العوز . لقد آن لتلك الغمامة السوداء ان تنجلى عن العيون . وقد آن لذلك الانين الخافت ترسله الملايين ، ان يتحول الى صوت واضح يطالب بالحقوق .. ثم يقوى ويقوى الى أن ينقلب صرخة رهيبة قوية مدوية تكاد تنخلع من خشيتها قلوب الظالمين

الارض أرضهم ، والزرع زرعهم ، وهم لا يجنون منها مايسد رماقهم وانما يغتصب ماتجود به الارض ويحمل الى قصور الامراء والمماليك لتوزيعه على جنودهم وجباة الضرائب . وقد ابتليت البلاد بحكم طاغيتين من الامراء هما مراد وابرهيم . وكانا يتوزعان السلطة ويتقاسمان الغنائم ... الغنائم المصبوغة بالدماء ، وكأن صرخات الشعب لا تكاد تصل الى أذنهم حزينة اليمة حتى تردها من حيث أتت جدران تلك القصور الباذخة السميكة . وقد اشتهرا بافحش الفجور وابشع الظلم واخس الطباع . وكأن القضاء اطلق هذين الطاغيتين على الناس كالريح الزعزع تقتلع الاشجار من الحقول ، وتثير فى الافاق سحائب غبراء تنعقد كالظلام الغائم فتستر النهار البهيج وتشيع الرعب والاضطراب فى نفوس الاحياء . ولم تكن تلك المظالم المتعاقبة ، ولا ذلك العدوان المتصل الحلقات ليزيدا أبناء مصر الا استجماعا للهبوب وتحفزا للمطالبة بحقوقهم فى الحياة

وفى ذلك الحين كان السيد عمر مكرم فى نقابة الاشراف ابان حكم ابراهيم ومراد . وكان بقاؤه فى تلك الدوله الطاغيه نحو خمس سنوات ، يثير العجب ويبعث الدهشه . ذلك لان هذا الرجل كان وحده القلب النابض والروح المحرك والباعث القوى لاستثارة الناس الى حقوقهم وقيادتهم الى التحرر من ربقة العبودية .

وقد اتضح للسيد عمر مكرم ان هذين الاميرين لا يستطيعان حماية الشعب حين توافدت الرسل تحمل نبأ الغزوة الفرنسية للاسكندرية ، ذلك لما شاهده بعينيه من انهما سارعا الى حماية كنوزهما وأموالهما ، وقد ظنا ان ذلك الغزى شأنه كشأن سائر الذين هاجموا مصر من الرعاع والبرابرة ، فاقسما أن يحطما ذلك العدو تحت سنابك الخيل ولكن الانباء الواردة من الاسكندرية زعزعت ذلك القول وزحزحت عن قلبيهما اليقين . فلم يكن ذلك العدو مثل سابقيه ، انما تحرسه المعدات الحربية الحديثه التى يذود عن نفسه بها والتى يقتحم بها الاسوار المنيعة والقلاع الشامخة ، انه جيش نابليون بونابرت يزحف فى اوربا طالبا فى مصر مفتاح الشرق وجنته . وقد سادت البلاد ألوان من الاضطراب والحيرة خاصه بعد فرار مراد وفشله فى مقاومة العدو . ولم يجد المصريون أمامهم غير ابراهيم وهو صورة من الجبن قبيحة ، خائر العزيمة واهن الروح . وتطلع الشعب فلم يجد فى يده سلاحا ، ولو ان فى انفس ابنائه مراجل تغلى وعزائم تثور . وهنا ارتفع صوت السيد عمر مكرم واستطار لبه من الحماس وراح يجأر فى الجماهير مطالبا أن يهبوا للدفاع عن أنفسهم فتجمع من القاهريين عدد كبير تحت قيادته ، وساروا بأسلحتهم الساذجه وعصيهم وطبولهم لملاقاة الفرنسيين . ولكن ما لبث أن فرق الجيش الفرنسى بقايا جيوش ابراهيم ، وتناثرت أمام الناس أسلحتهم وتحطمت عزيمتهم فولوا الادبار .

ماذا يصنع هؤلاء السذج والبسطاء وهم عزل من السلاح الا أن ينكصوا على أعقابهم مرتدين؟ لقد ملكت افواه الطرف جيوش الفرنسيين ، وزحفت متثاقلة نابتة على قلب القاهرة ، فما كنت المرسلات تزأر بالحنق والرعب واستنكر الهزيمة ، وعانت القاهرة ليلة ليلاء لم يذق فيها المصريون طعم النوم ، وحين طلعت ترى غير الهلع على الوجوه ، وما كنت تسمع غير الصيحات شمس الصباح كان شيوخ البلد وعلماؤها قد استتب رأيهم على اعلان التسليم ، وأراد قائد القوة الفرنسية أن يجتمع بزعماء الشعب وطلب فيمن طلب السيد عمر مكرم ليفاوضه مع سائر الشيوخ ، ولكن .. أنى له ذلك ؟ أيرضى السيد عمر أن يفاوض فى تسليم بلاده للعدو الغاصب ؟ ان الموت أهون على نفسه من هذا الموقف الشائن ، ولو أنه أراد مالا أو ابتغى جاها لعاد خافض الرأس مطأطىء الجبين ، ولكنه استجاب الى صوت ضميره الوطنى ، وآثر أن يترك وراءه أملاكه الشاسعة وأولاده وأسرته مفضلا الهجرة الى الشام ، هاجر فى السر وهو يعلم كل العلم ان الفرنسيين سوف يبددون ماله من بعده .. وقد كان فى وسعه اذا شاء أن تتكدس جيوبه بالذهب وتنتفخ أوداجه من الجاه ، اذا هو سالم الفرنسيين وركن معهم الى الدعة . هاجر الى يافا وفى ذهنه صورة ذلك الصراع الرهيب الذى اشتعل بين المصريين والفرنسيين ودوت فى سمعه تلك الصيحة المجنونة (الى الفرار .. الى النجاة) تلك الصيحة التى كانت تتناقلها أفواه القاهريين وينتزعون أقدامهم من أوحال الطريق فى المعمعة ناكصين على أعقابهم تحت مطر الشتاء ونيران العدو .. ألوف القتلى وألوف المجروحين تنتظمهم فى تصورات السيد عمر سلسلة دامية التضحية دامية الفداء .. لقد صحب السيد عمر جيش ابراهيم بك الى يافا واستقر به



المقام هناك عازما كل العزم أن يواصل جهاده حتى النهاية وأن يذكى روح الحماس والفتوة فى قلوب المصريين

ولكن بونابرت فتح يافا بجيوشه الزاخرة وبعد أن سلم له اهلها ، قتل منهم نحو ستة آلاف وارتكب الجيش الفرنسى هناك من الفظائع والاهوال مايطير بالعقول ويطيح بالافئدة . ولكن ذلك كله لم يرهب السيد عمر مكرم فيجعله يعود الى محالفة الفرنسيين منتحلا فى رجعته انهم ارغموه على العودة .. بل مضى السيد عمر مكرم فى سبيله القويم على عقيدته الثابتة واخذ يتحين الفرصة لمواصلة الجهاد .. وعاد الى القاهرة بعد ثمانية أشهر من الاغتراب المفعم بالشجن والامل . الشجن على ما آلت اليه بلاده من تمزق فى ايدى الغاصبين .. والامل فى ان يهب ابناء مصر هبة واحدة وقبضة واحدة لاكتساح هؤلاء عن ديارهم . وكانت دولة ابراهيم ومراد قد دالت ، ودارت عليهما الدوائر وانتقل زمام الحكم الى ايدى الفرنسيين ، ولكنهم لم يستقر بهم الحكم عدة اسابيع حتى فاجأهم الانجليز ومنيت الحملة الفرنسية بفشل ذريع اذ حطم الانجليز اسطول فرنسا فى موقعة ابى قير وانتهز المصريون هذه الحال السيئة التى تردى فيها الغاصبون فشنوا حملة قوية عليهم وكان اكبر زعمائها السيد بدر الدين المقدسى وكان المرجل الذى ظل يغلى طول مدة الحملة الفرنسية قد شاءت له هذه الفرصة ان ينفجر وقد عاد السيد عمر والشعب على هذه الحال من اتقاد النفوس بالثورة وتطاير العقول من الشعور بالاستعباد . عاد ولم يقبل منصبه فى نقابة الاشراف ولم يفز من الحاكم الفرنسى الا بالقليل من املاكه التى استولوا عليها عنوة وقسرا .. ولم يفلح الفرنسيون فى استمالة هذا الرجل العنيد فآثروا أن يتركوه وسبيله ، ولم يكد يمضى على نزول السيد عمر فى القاهرة

اسبوع واحد حتى طارت الاخبار بأن حملة تركية هبطت الى الاسكندرية لتخرج الفرنسيين من الديار المصرية فأسرع نابليون الى القاهرة وهو مفجوع الخيال متهدم الامن مفقود الرجاء . لقد كان كل ما وهمه نابليون سرابا خادعا .. والخير كل الخير ان يغادر مصر وما عقده عليها من آمال .. وتسلل القائد الغزى خفية الى فرنسا آمرا ان يضطلع بالقيادة بعده (كليبر) ، وكان وقع سفر نابليون ذا اثر كبير فى نفوس المصريين اذ اتاح لعواطفهم ان تتنفس .. وتوالت بعد ذلك المعارك فالتحم الجيش الفرنسى بجيش الترك الذى ارسل للاستيلاء على القاهرة ودارت الموقعة طاحنة عنيفة بين الفرنسيين والاتراك وانتهت بانتصار كليبر عند المطرية ، وضاق الشعب بهذه الحياة المضطربة واحس المصريون انهم يعيشون على شفا جرف هار من اللهب .. فأين ، اين الزعيم ؟ اين من تتكتل تحت قيادته هذه الجموع الزاخرة ؟.. لم يكن هنالك غير السيد عمر مكرم . ذلك النقى الشريف ، انه واحد من ابناء الشعب النابغين فهو لذلك قبلة الانظار وموئل القلوب . ان رأيه الحاسم الراجح وارادته الماضية الصادقة خير نبراس لهؤلاء الضالين الذاهبين . وكانت الناس تهتف باسمه فى طرقات القاهرة فيشتد بهم الحماس وتلهب نفوسهم نيران الغضب للكرامة والثورة للوطن . وصاح السيد عمر مكرم صيحة ، واشتعلت على اثر ذلك الثورة المصرية الكبرى التى شهدتها احياء القاهرة سبعة وثلاثين يوما كاملة . وكان السيد عمر مكرم فى طليعة الثائرين يوجه حركاتهم ويرعى حماسهم . وكان يوزع نهاره بين طوائف الثائرين يذكى نارهم هنا ثم يعدو ليستفز غضبهم هناك .. والسلاح ؟ الم يسعفهم احد بامداد السلاح فانشأوا معملا للبارود ببيت قائد اغا فى الخرنفش . واقاموا فى حى المشهد الحسينى مصنعا حربيا يواصل فيه المصريون عملهم الليل

بالنهار وكأن القاهريين استحالوا جميعا فى تلك الايام الى ثورة مشبوبة عارمة تنشر الذعر والخراب فى اعين الاعداء وهم فى ذلك كله لا يستندون الى احد فى معونة انما يصنعون الموت ويبذرون الرعب بسواعدهم الفتية واسلحتهم الساذجة ..

الى متى تظل ترسف أعناقهم فى القيود ؟ ! الى متى يستنزف قواهم الغاصبون ؟ ! الى متى يستسلمون للوبل يفرضه عليهم طغام الدخلاء. لقد كان الجزارون والعمال والفلاحون يتصايحون صيحة واحدة اما الحياة الكريمة أو الموت الكريم .. ولقد استطار لب السيد عمر مكرم من الفرح والغبطة وهو يشهد الحاج مصطفى البشتيلى وجماعة من التجار والصناع يقيمون المتاريس والمرابط ويدقون اعناق الفرنسيين العتاة تمتزج دماؤهم بالوحل وتتناثر عظامهم على الطرقات .

وكانت النيران تنطلق من فوهات المدافع يرسلها الفرنسيون على القاهرة .. ولم يجد الفرنسيون بدا من اظهار رغبتهم فى المفاوضة ومال الشيخ الشرقاوى والشيخ السرسى الى الاخذ بذلك الرأى حفظا للارواح فثار الاهالى عليهما ثورة عاتية ورموا عمامتيهما الى الارض وانهالوا عليهما سبا وتجريحا .!

وكان لا بد للحديد والنار ان ينتصرا والشعب المصرى منهما اعزل فاقتحم الفرنسيون القاهرة واستولوا عليها. وفى تلك اللحظة اثر السيد عمر مكرم ان يغادر بلاده على ان يراها تداس باقدام الاعداء . وقد بالغ الفرنسيون فى الانتقام من الابطال المصريين خاصة وان احدهم وهو سليمان الحلبى قتل القائد الفرنسى كليبر فاحرقوا ذراعه ومزقوا احشاءه والقوا بجسده الى الطير يمزقه قطعة قطعة ومثلوا باجساد الثوار وحتموا ان ترفع رؤوسهم المبتورة عن أجسادهم فوق العصى ليرتووا من الغل وليعظوا بها سائر الناس.

ولم يطل استبداد الفرنسيين بالشعب حتى عاد السيد عمر مع الصدر الاعظم يوسف باشا فاستقبله الناس استقبالا رائعا يفوق كل وصف .. ولم لا ؟ أليس هو صوت الشعب الذى يتجاوب صداه فى الافاق ؟ أليس هو مكافح الطغاة ؟ . انه بلا ريب خير من يمثل نفسية الشعب وأبسل من يجأر بحقه .

اجتمعت بعد ذلك قوات الاتراك وحملاتهم وقدر بعدها لمصر ان يغادر الفرنسيون ارضها ونعم فبت بعد ذلك على الوطن محن متصلة فقد دخل جيش الاتراك وكان خليطا من اجناس متباينة بين شوام وترك وارناؤوط ومغاربة وكان هم ذلك القطيع ان يبحث عن الغنائم وان يتقاضى ثمن الخدمات التى اداها وكان ذلك كله على حساب المصريين وقد عجزت الحكومة فى ذلك الحين عن رد الايذاء الذى كان يوقعه ذلك القطيع بالناس . وتوافد على مصر فى تلك الفترة العصيبة المظلمة ولاة كثيرون ما يكاد المقام يستقر بواحد منهم حتى يخلعه الشعب . ودارت المعارك حامية الوطيس دامية الالتحام مجنونة السعير بين المماليك والولاة . وكان المماليك ينفضون ثم يرتدون ليستجمعوا قواهم ويأخذوا فى الانقضاض المرة بعد المرة . وكان الولاة يحوكون الدسائس وينصبون الشباك للقضاء على المماليك واذلال اعناق الناس . وكان يحتدم بين تلك المطامع المتناقضة قتال يعقبه قتال . وظلت مصر على هذه الحال الاليمة الى ان ولى الحكم احمد خورشيد باشا وقد جاء وهو يحسب الحال كما كانت .. يريد ان يأمر فيلبى الناس . ويريد ان يتكلم فتنصت الجموع وكان يضمر للمماليك حقدا شديدا وكراهية عميقة . وقد حدث ان اسرف خورشيد باشا فى جباية الضرائب من الناس فتوجه الشعب رافعا ظلامته الى السيد عمر مكرم الذى كان يحس قلبه

يذوب بين جنبيه حسرة والتياعا على تضحيات الشعب التى لم تثمر حتى الآن : لقد كان السيد عمر مكرم يريد للشعب حياة حرة كريمة .. لقد كان يريد الشعب ان يحكم نفسه بنفسه وان ترتفع ارادته فوق كل ارادة وان يدوى صوته فوق كل صوت . فما الخير فى ان ينتقل امر ذلك الشعب من مغتصب الى مغتصب . وما الخير فى ان يلقى بزمامه من طاغية الى طاغية . الضرائب الثقيلة تبهظ ظهور الناس وقد عمد خورشيد باشا الى جبايتها بطرق فظة : فنهض السيد عمر مكرم نهضته : وقام قومته الابيه مطالبا الوالى ان يكف عن ظلم الفقراء والمعوزين . فبادر خورشيد باشا حين احس بسلطان الزعيم الشعبى والغى أمر جباية المال من غير القادرين على الدفع وكان بين قواد خورشيد باشا فى ذلك الحين محمد على الكبير راس العائلة العلوية وقد افلح محمد على فى ان يجمع حوله افئدة الناس وشعر بذلك خورشيد باشا فاشتم رغبة قائده فى الولاية على مصر : فاقصاه على راس قوة الى الصعيد وكان الباشا فى ذلك الحين يدبر له المكيدة بوصول الامداد من القسطنطينيه قبل عودة محمد على الى القاهرة . كى يقضى بها على قوة محمد على وجيشه وكانوا جميعا من الارناؤود . وكان يتعمد فى ذلك الحين ان يستميل قلوب الزعماء بزيارته لهم وعلى راسهم **السيد عمر** مكرم وهو يقصد بذلك ان يكتسب بعض وقت الشعب قبل ان تضطرم ثورته ويتأجج لهيبه وهو مازال فى انتظار المدد ولكن محمد على كان اذكى قلبا وانفذ خاطرا فبادر بالعودة الى القاهرة عندما وصلت الى خورشيد باشا الامدادات من تركيا وطالب محمد على امام الجيش الجديد ان يدفع الباشا مرتبات جنوده التى فات على دفعها زمن طويل . وكان لتلك الحركة اللينة الذكية التى قصدها محمد على أثرها الحاسم فى نفوس الجنود الجدد وقد آثروا بعدها ان لا يقاتلوا اخوانهم الارناؤود . وقد ردهم عن ذلك القتال انهم جاءوا الى مصر طامعين فى اموالها وذخائرها وهم يرون الان امام

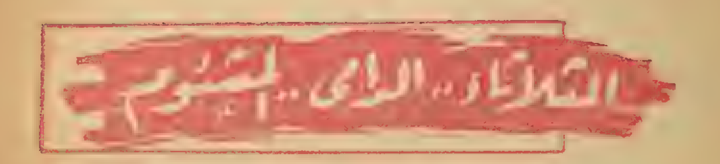
اعينهم سابقيهم من الجند يرسفون فى قيد من الحرمان المادى ولم يجدوا سبيلا الى نيل مآربهم غير السطو على الناس واستخلاص ما فى الدور والمنازل عنوة وسلبا . وقد راى الشعب بعد استشارة السيد عمر مكرم ان الخير كل الخير فى خلع ذلك الوالى الصغير خورشيد باشا وتولية محمد على بدلا منه . وقال خورشيد باشا حين بلغه ذلك النبا وهو يصرخ من راسه كالمجنون : « لقد ولانى السلطان فلن يعزلنى الفلاحون » وكانى بالسيد عمر مكرم يجيبه بصوت رهيب ان هؤلاء الفلاحين هم اصحاب الامر والنهى فى بلادهم يخلعون من يشاءون ويولون من يشاءون لادافع لارادتهم ولا معترض لما يريدون . ان هؤلاء الفلاحين هم الذين تتحرق اوصالهم فى لهيب الشمس وتتصبب جباههم فى جحيم الحقول وتتقوس ظهورهم من حمل الزروع .. ان هؤلاء الفلاحين هم الذين يهبون الباشوات والسلاطين السعة فى العيش والبذخ فى القصر والابهة فى الزى والصحة والامل والشباب . . فكيف اذن يقول خورشيد باشا قولته هذه الغريبة الشاذة ؟ »

لقد أراد الشعب أن يكون محمد على واليا على مصر ، وقد تم له ذلك بعد صراع عنيف مستمر لعب فيه السيد عمر مكرم اخطر دور وانبله وهو مبتهج لان امنيته تتحقق . . . ولسنا هنا فى سبيل سرد ذلك النضال الشاق الذى انتهى بتولية محمد على واعتراف السلطان بولايته وعزله لخورشيد باشا . لقد عاد السلطان العثمانى فأمر محمد على بأن ينتقل الى سلانيك ثم هبت تلك الزعازع القومية وتجمعت تلك التيارات الشعبية الجارفة التى حطمت امر السلطان . واضطر محمد على ان يعتمد على جيشه فى الدفاع عن مصر ، الامر الذى

احنق السيد عمر مكرم وجعله يفكر فى ان استقلال الارناؤود بالعمل فى الجيش وضع يمس الكرامة المصرية وكان صريحا جهير الصراحة فاطلع محمد على باشا على ذلك ولكن الباشا لم يتقيد بما رای السيد عمر مكرم وانما نفذ ارادته سريعة حاسمة، وحدث بعد ذلك ان وشى بالسيد عمر مكرم الواشون فامر الباشا بنفيه وان كان يضمر له المودة والحب ، واراد الباشا قبل أن ينفيه أن يعالج أسباب شكواه فرفض السيد عمر ان يفاوضه فى ذلك .. وظل على اساه وغضبته منفيا ، حتى انتصر ابراهيم باشا فى حرب الوهابيين فسر لذلك السيد عمر مكرم واراد ان يشارك المصريين فى الفخار بابن محمد على الكبير لانه واحد من المصريين فارسل الى الباشا تهنئته بذلك النصر الباهر ، وكانت تلك البادرة بداية صلح بينهما وفاتحة وئام وسلام، اراد الله بعدها لمصر ان تتحرر وان تمجد وان تسمو وان تستقل

* * *

اذا الشعب يوما اراد الحياة	فلابد ان يستجيب القدر
ولابد لليل ان ينجلى	ولا بد للقيد ان ينكسر !



تحفل كتب التاريخ بالوقائع الدامية التى يشهد بها العالم عدوان الانجليز على حريات الشعوب .

ومن يريد ان يستطلع هذه الفظائع وان يعلم ارقامها بالتحديد فعليه ان يقلب بعض هذه الكتب لتهوله فى كل صفحة من صفحاتها دماء الضحايا وارواح الشهداء .. ونحن هنا نسرد على القارىء لاقصة من تلك القصص التى تكاد ان تحترق كلماتها لتهوله ، بل حكاية من الحكايات التى لا يثبتها المؤرخون فى كتبهم لان وقائعها وحوادثها تجرى فى الضمائر والنفوس

فالى ذكرى ١١ يوليو عام ١٨٨٢ نسوق هذه الفصول

المنظر الاول

جون بول : اعاهدك ايها الشيطان أن أستنير برأيك وأن أتبع نصائحك

الشيطان : (مكملا) فتضمن لنفسك الغلبة والمجد والسيادة والحياة

جون بول : أقسم لك بقداستك عندى أن أمتص دماء الشعوب وأن أستحل فى سبيل المظالم كل مطلب عادل جميل وان اعيش مثل الكابوس الجاثم على صدور الامم .. زودنى بنصائحك

الشيطان : بورك فيك يا حليفى الوفى .. ضع نصب عينيك أن قوتك اذا لم تفلح فى قتل أعدائك الاحرار ومحاربيك الذين ينشدون العدل والحق والحرية ، فعليك ان تلجا الى سلاح أمضى .. هذا السلاح كفيل بتقويض الامم وتخريب الشعوب . . انه من اختراعى وحدى

جـون بول : وما هو هـذا السلاح ؟ مانوعه ؟ أهو مدفع من طراز جديد ؟

الشـيطان : كلا .. كلا .. لقد صنعت المدفع من قبـل ، او قل اذا شئت انني أوحيت الى الانسان بصنعه ولكنني الان بعد ان اكتشفت ذلك السلاح الجديد أيقنت أن المدفع أهون خطرا منه

جون بول : وما الذى حـدا بك الى اختراع هذا السلاح ؟

الشيطان : انمـا أعمل لنصرة فكرتي وانني أواصل الليل بالنهار بحثا عن الوسائل التي تحقـق أهدافي .. أنا خادم الشر وصاحب رسالتـه وانك أحـد أجنـادي المخلصين ، أليس كذلك ؟

جون بول : لقد كنت أتنسم سبيلك منذ ترددت في صدري الحياة .. وان استعدادي لخدمتك كبير عظيم .. لقد بدأت حياتي قرصانا ألقى الرعب والهول في نفـوس النـاس .. كنت وأنا اجوب البحار في ظلام الليل باحثا عن فريسة في زورق تمثل وجهك الناري وارادتك الشريرة واحلم وأنا انقض على فرائسي من ركاب البحـر بانني حائز رضـاك .. وهانتذا تشق قاع البحر مرتفعا الى الشاطىء لتلقاني والقاك .. فيالها من سعادة تعلو على الوصف .. وياله من شرف عظيم لى أن تجعلني احد جنودك الاوفياء .. انها منحة من رب الشرور يطوق بها عنقى فتنقـل كاهلي سجودا له ..

الشيطان : شكرا .. شكرا .. ان مقلتيك تلتمعان بلمعة قريبة الى التى أراها في عيون الجن

جـون بول : انه السرور بما منحتني اياه ، عجزت عن الافصاح عنه كلماتي فالتمع في عيني .. لك الولاء .. لك الولاء

الشيطان : نعود الى السلاح الجديد .. ألا تريد أن تستمع الى وصيتي ؟

جون بول : أن شوقي الى ذلك عظيم .. كلى آذان مرهفة ..

الشيطان : ماهى خطتك أولا ؟

جون بول : خطتي تهدف الى سفك الدماء وسـلب الامـوال

وإذلال الحق وانتهاك العدالة واشاعة الظلم بين العالمين

الشيطان : وكيف تصل الى اهدافك هذه ؟

جون بول : سأحول بلادى كلها الى مصانع حربية تقيم الاساطيل وتصنع المدافع وتتفنن فى ابتكار آلات الدمار .. سأجعل عمل بلادى صناعة الموت .. وبعد ذلك سأزحف بجحافلى على العالم كله وسأضع نصب عينى ان احتل بلاد الشرق مهبط الدين وحاملة الوية النبوة ومهد الرسالات السماوية

الشيطان : احسنت . . احسنت .. ان الشرق مرتع خصيب . . أراضيه مزروعة .. ومياهه دافقة .. وظلاله وارفة .. ما اشبه الشرق بالجنة ، التى اخرجت منها آدم من قبل . .

جون بول: وسوف أعيث لك فيه فسادا .. سوف اسخر جيوشى ومعداتى الحربية لاستنزاف دماء بنيه وللسطو على قلاعه وحصونه ولابتزاز ثرواته وامواله .. لن اترك كاسيا الا وهو عار .. لن اترك شبعان الا وهو جائع .. لن اترك موسرا الا وهو مفلس .. سوف امتص كل ماعند هؤلاء .. ووسيلتى هى اذلال اعناقهم بالحرب ودك حصونهم بالمدافع واستعمال سلاحك الجديد الذى لم تخبرنى به بعد .. قل لى ماهو حتى اضيفه الى قائمة ذخائر الموت ؟

الشيطان : انه سلاح هين خطير . . هين فى طبيعته ، وخطير فى نتائجه .. **الم تسمع بالدسيسة ؟ . . الم تسمع بالوشاية ؟ . . هاتان الصفتان اللتان تعتبرهما البشرية اخس الصفات .. عليك بهما .. انهما كفيلتان بان تفتتا كل بناء مرصوص .. وحرام ان نخسر جنديا من جنود الشر قبل استعمال الدسائس وحوك الوشايات .. ينبغى عليك ان تحتفظ بقوة جيوشك وان قطرة واحدة من دم الشيطان . . او قطرة واحدة من دم اتباعه لتساوى ارواح ملايين البشر .. ضع ذلك نصب عينيك جيدا**

جون بول : ولكن غزواتى المنتظرة للعالم تستوجب ان

يموت من جنودى عدد كبير .. ان يموتوا فى سبيـــل نصرتى ونصرتك

الشيطان : عليك ان تلجأ قبل الزج بارواح هؤلاء ، الى الخديعة والدس والمكر . . ينبغى ان تفرق أبنـاء كل بلد تريد ن تحتله .. وأن تجعل من بعضهم لبعضهم خصوما وفرقا والوسيلة الى ذلك سهلة يسيرة فلن تخسر كثيرا اذا اطعمت بعضهم لحم البعض الآخر . . وهــذا هــو السلاح الذى نصحتك باتباعه ..

جون بول : اذن .. فسوف احشـد قبل آلات الدمار ذلك السوس الجديد وسأجعله ينخر فى عظام الدول وسأقف عندئذ لاشاهد أبناء الوطن الواحد وهم يقتتلون ويتصـــارعون . . وسأحتفظ بكل قطرة من دماء جنودى واتباعى

الشيطان : (مقهقها) ها .. ها.. ها .. انهم جنود الشيطان

جون بول : سوف أسود بذلك العالم واخضعه لمشيئتك

الشيطان : اوشكت نار الفجر ان تحرق جوانب الافق .. وقد آن لى ان اعود . كما جئت الى قاع البحر.. ان النور اذا تنفس فما ينبغى لى ان اظهر ..

جون بول : نعم .. نعم فأنت رفيق الظلام ..

الشـــيطان : وداعا يا حليفى العزيز . . وســوف نلتقى فى المبادىء التى تعهدت بتنفيـــذها.. سوف نلتقى فى كل دم يراق .. وفى كل روح تزهـــق .. سوف نلتقى فى عدوانك المقبـــل المصـــــل الحلقات على حريات الشعوب . وفى انتهاكك لحرمة المطالب العادلة .

(وتصافح الشيطان وجـون بول .. وكانت السماء فى تلك الآونة ملطخة بدماء الشمس التى تجاهد للسطوع .. وكانت مياه البحر ساكنة تتكسر عليها أنوار الفجر الدامـيـة فتبدو كانها كفن من الحرير صبيغ بالدم ..

وشق الشيطان سـطح الماء واختفى لائذا بالقيعـان ولـكن صورته لم تختف من نفس جون بول وظلت ترف بين جوانحه تقطر

بالنار وتفح بالشر فاتقد فى عينيه بريق عجيب ورفع يديه الى السماء ثم صاح مقهقها : ((أنا نصير الشيطان ..)) وكأن هذه الصيحة تجاوب صداها فى أركان السماء فظل الافق يقطر بدم الشمس ايذانا بسيادة أمة غاشمة وشعب باغ ودولة مستبدة آثمة .. وقرع الناقوس .. ناقوس الكنيسة المجاورة يستدعى اليه المؤمنين الاخيار ، فى حين غرق جون بول فى أفكاره السوداء الحالكة يقنص منها الخطة للجريمة ، وينسج من خيوطها المشؤومة أهبته للعدوان .. ودار النهار وأقبل الليل واذا جون بول قد أعد دستوره واستكمل أدواته وشرع فى العمل بوصية الشيطان وهكذا ظهرت انجلترا الى الوجود . هكذا نشرت جناحيها وحلقت ماشاء لها التحليق)

المنظر الثانى

جون بول : (جالس على صخرة وسط البحر تتلاطم حواليه الامواج معولة كأنها ارواح سجينة تئن وهو ملتحف بدثاره الاسود الغربيب)

يا روح الشيطان .. لقد كنت وفيا مخلصا لك . ونفذت تعاليمك الحازمة . فاستوليت على الهند . ملايين الملايين من أبناء الهند الاخيار . اذا أمرت أطاعوا . واذا تكلمت انصتوا . الهند . أصبحت لى محاصيلها الكثيرة الغزيرة . وثرواتها الكبيرة العظيمة .. ولقد عطلت التعليم . وقسمت الهنود الى فرق . وألبت النفوس على بعضها . واستنبت لى من وراء ذلك السيادة والعظمة .. ولكننى اخاف .. ! يساورنى خوف مبهم . لست اعلم مصدره . ولا ادرك كنهه .. انا خائف .. خائف .. اننى استلهمك النصح ياروح الشيطان .. لقد حاربت العدل كما اردت ، وسفكت الدماء حسب مشيئتك ، وقاومت النور ان يندفق فى النفوس .. كنت حليفك الامين فاهتك السترعن مخاوفى .. وارشدنى الى طريقك القويم .. ان الحسرة تاكل قلبى حين اتمثل انك تخليت عنى ياروح الشيطان .

صوت الشيطان : كيف اتخلى عن أبنائى الاوفياء ؟

جون بول : مرحى .. مرحى .. أفى حلم انا ؟

الشيطان : كلا .. اننى أطوى العالم كله كى اصل الى من يناجينى او ينادينى .. لبيك .. لبيك

جون بول : اهتك اذن حيرتى، واقتل فى نفسى ذلك الخوف الرهيب المجهول

الشيطان : الطمع اذا استفحل تحول الى صحة

جون بول : اذن ادركنى من هذه الصحة .. أغثنى من ذلك الخوف .. لست ادرى مم اخاف

الشيطان : انك تخاف أن تفلت من يدك الهند . لان طريقك اليها وعر شائك . فعليك أن تمهد اليهاكل سبيل بينك وبينها .. هذه الكنوز العظيمة .. هذا المرتع الخصيب

جون بول : اذن . . ماذا اصنع ؟

الشيطان : عليك بمصر ... مصر جنة الله فى ارضه .. مصر مفتاح الشرق ... مصر مهد الحضارات .. ينبغى ان توقف فيها عجلة التقدم ، وان تشل كل رغبة الى الرقى .

جون بول : (بصوت ترن فيه نبرة الطمع) مصر !! نعم .. نعم .. يجب ان اضع يدى على مصر . لقد امتص خيراتها الاتراك ، وهى ما تزال غنية خصيبة تجود اراضيها بشتى الزروع .. واذا كانت الهند كنزا فمصر هى الاخرى كنز جديد . صدقت ، صدقت ايها الشيطان ، اننى كنت اخاف ان تضيع الهند من يدى ، وها انت ذا رسمت لى السبيل الى الاحتفاظ بها .

الشيطان : (وهو يربت على كنف جون بول) الى مصر .. الى مصر .. فى نصرة الشيطان !

(وفى عام ١٨٠٧ شنت القوات البريطانية حملاتها على مصر ،

ولكن المصريين ردتها على أعقابها ،وارغموا ((فريزر)) على توقيع عقد بالجلاء . والجأت انجلترا الى تأليب السلطان التركى على محمد على باشا لعزله . وكان جون بول يتبع فى ذلك سياسة الشيطان التى اوصاه بها ، وهى ان يشهر فى الخفاء سلاح الدسيسة، واثارت انجلترا ايضا أهل الشام بعد ذلك على محمد على الكبير عاملة على هدمه .وهنا ضاق جون بول بهذه المتاعب ووجد أن الروح المعنوية للشعب المصرى عالية رفيعة . فاستنجد بحليفه وها هو ذا الشيطان يشق الحائط ويلبى نداء جون بول)

جون بول : اين أنت .. أين أنت يا حليفى العظيم .. أهكذا تتركنى !؟

الشيطان : هأنذا بين يديك

جون بول : لقد اوشكت على السأم والملالة .. حاولت أن أدك قلاع المصريين بالمدافع وأن اخضعهم بالحديد والنار فلم ينفع لا الحديد ولا النار فى ازهاق أرواحهم القوية العاتية .. وقد هزموا قوتى عام ١٨٠٧ وارغموا احد اتباعى على توقيع عقد بالجلاء وكنت من قبل قد تآمرت على محمد على الكبير حين وجدته يعمل جاهدا لاصلاح حال الشعب واتبعت ما نصحتنى به من الدسيسة والخداع ولكن ذلك السلاح أيضا لم ينفع ... ولم افلح الا فى التعاون مع تركيا لرد الفرنسيين عن مصر وكان ذلك فى عام ١٧٩٨ .. وهأنذا حائر بائر فرغت جعبتى من الحيلة والقوة .. واننى ليخامرنى العجب كيف ان هؤلاء المصريين يستطيعون أن يهزمونى وهم عزل من السلاح

الشيطان : المصريون أجلد الشعوب على المقاومة .

جول بول : وما سر ذلك ؟ !

الشيطان : لانهم شعب عريق قديم ، وان روح الكفاح تشتعل بانفسهم حتى تجعلها نارا .

جول بول : اذن ما العمل ؟ !

الشيطان : لقد كنت انتبع خطواتك .. خطوة ، خطوة ..

ولقد قدرت متاعبك فى اخضاع هؤلاء العمالقة .. لذلك تعاونت مع الظروف على جعل الحالة المالية والاقتصادية فى مصر مضطربة .. فعليك ان تعرقل حاجتهم المالية بقدر ماتستطيع وان تدخل انفك فى كل شأن من هذه الشئون وان تفتح من ذلك ثغرة لك فمنفذا تدخل منه الى مصر .. هذا هو دورك .. فالى العمل .. الى الجهاد .. ولا تنس الدسائس .. اختر من اتباعك من يجيد صوغها وادفعه الى ساحة العمل

جون بول : اذن سوف اسعى عند الباب العالى واضم الى جانبى الدول الاوربية كى يخلع السلطان الخديوى اسماعيل .. وسأرى بعد ذلك ما يكون ..

المنظر الثالث

(الليل ساج ممتد على شواطىء الاسكندريه . يرى على بعد ، الاسطول البريطانى فى مياه الثغر)

الشيطان : ماذا فعلت ؟

جون بول : فعلت كل ما يرضيك ..

الشيطان : اخبرنى . . اخبرنى ...

جون بول : لقد نضجت الثمرة وحان وقت قطفها ؛ تخلى اسماعيل باشا عن العرش لولى عهده توفيق باشا . ورأيت توفيق باشا يعمل على اعلاء قدر الوطنيين ، ويختارهم للاعمال الحكومية الكبرى

الشيطان : اعلم ذلك . ولقد امر توفيق باشا بترقية لكثيرين من الوطنيين الى رتب عليا فى الجيش ، وكانت تلك الرتب موقوفة على الضباط الجراكسة والاتراك .. فأوحيت الى ناظر الجهادية « عثمان رفقى باشا » بعد ان طلب الضباط الوطنيون عزله من منصبه ان يعاقبهم عقابا مريرا .

جون بول : نعم . . نعم . . فقد استدعاهم « عثمان رفقى باشا » الى قصر النيل ، وعلى راسهم « عرابى » وامر بالقبض عليهم فكانت لذلك ثورة العرابيين الاولى

الشيطان : وفى ٨ سبتمبر اصدر « داود باشا » امرا الى القوات التى يقودها « عرابى » والقوات السودانية التى يقودها « عبد العال بك » بالرحيل عن القاهرة الى الاسكندرية ودمياط فلم يطع عرابى الامر وكذلك لم يطع صاحبه . وقام زعماء الحركة بمظاهرة عسكرية فى يوم ٩ سبتمبر . فساروا الى ساحة عابدين وطالبوا باسم الامة بعزل رياض باشا واعطاء الامة الدستور وزيادة عدد الجيش الى ١٨٠٠٠ عسكرى .

جون بول : وكيف علمت كل هذا ؟

الشيطان : واعلم أكثر من هذا ...

جون بول : اذن تعلم اننى حرضت على مؤامرة لاغتيال عرابى ؟

الشيطان : نعم .. ولكنها لم تفلح .. !

جون بول : وتعلم اننى اتفقت مع فرنسا على القيام بمظاهرة بحرية بالرغم من معارضة الباب العالى ؟

الشيطان : (مكملا) وتحرك الاسطولان الفرنسى والبريطانى امام الاسكندرية فى ٢٠ مايو ..

جون بول : وقد قدم ممثلا بريطانيا وفرنسا مذكرة الى رئيس النظار فى صيغة بلاغ نهائى يطلبان فيها استقالة النظارة وابعاد عرابى عن القطر المصرى ، ونفى صاحبيه « عبد العال » و « على فهمى » الى داخل القطر .

الشيطان : ولكن « الخديو توفيق » لم يسلم بمطالبهما واعاد عرابى الى النظارة وها أنت ذا يا حليفى ترى الامة المصرية يكاد الفرح يطير بأنفس ابنائها لعودة عرابى ، ها أنت ذا ترى مصر يدا واحدة وقلبا واحدا وصوتا واحدا ... **فما الذى صنعت ؟** وهل يرضيك هذا الحال .. القوم لاهون مبتهجون . فعليك ان تقتل افراحهم وان تحيلها الى احزان

جون بول : وكيف السبيل ؟ **اننى قد اعددت عدتى ولكن عليك ان ترسم لى الطريق**

الشيطان : اطمئن ... ولاتجزع .. ساعقد لك مفاجأة سارة عظيمة .. وستدخل مصر مرفوع الجبهة . شامخ الانف .. وعليك حينئذ أن تجعل أفراحها اتراحا وان تضع العوائق دون كل تقدم لها

جون بول : فقط اريد ان اضع قدمى .. وغدا سترى

المنظر الرابع

(رجل اجنبى (مالطى) يسير فى احد شوارع الاسكندرية فيرى احد المكاريين ويدور بينهما الحوار التالى) :

المالطى : اريد ان استأجر منك ذلك الحمار لمدة ساعة

المكارى : تفضل

المالطى : كم تريد ؟

المكارى : عشرة قروش

الشيطان : (لا يبدو ولكن صوته يفح فى اذن الرجل المالطى) .. وهذا الرجل المصرى يتغفلك . عشرة قروش ؟ ! هذا مبلغ كبير فكيف يجوز هذا ؟

المالطى : هذا كثير . اننى أدفع خمسة قروش فقط

المكارى : انك تريد ان تستغلنى ايها الرجل الاجنبى

صوت الشيطان : (يهمس فى أذن المالطى) ما هذا ؟ اصفعه على وجهه .. الطمه على راسه .. هذا الحيوان القذر .. !

(يشتبك الرجلان فى معركة بالايدى يبطش فيهما المصرى بالمالطى وتتجمع جمهرة كثيرة من الناس حولهما ... وهنا يختفى الشيطان)

المنظر الخامس

الشيطان : هل سمعت بحادثة الرجل المالطى الذى اعتدى عليه احد المكاريين

جون بول : كلا

الشيطان : لقد ضرب المصرى الرجل وشج رأسه وشوه وجهه .. وها هو ذا اسطولك يذرع مياه الاسكندرية حائرا لا يدرى ماذا يصنع . اضرب الاسكندرية ولك العذر فى ذلك

جون بول : وماذا اقول للدول الاوروبية

الشيطان : قل لها اننى دخلت مصر للمحافظة على حقوق الاجانب . لقد مرت على هذه الحادثة مدة وها انت ذا ترى المصريين وهم يقيمون القلاع والحصون على شاطىء الثغر كى يقوى جيشهم وحصونهم ويشتد ساعدهم .. فالى متى السكوت والانتظار ؟ ينبغى ان تدك هذه القلاع قبل ان ترتفع

جون بول : فكرة رائعة . سأتخذ من حماية الاجانب وسيلة الى دخول البلاد وسأذل اعناق رجالها وسأمتص دماء بنيها .. وحينئذ تصبح مصر فى فمى لقمة سائغة طالما تشهيتها . ولك الفضل وحدك ايها الشيطان . **(صائحا فى القواد المنتشرين على سطح الاسطول)** ايها القواد .. ايها العساكر .. فى هذا اليوم . ١١ يوليه سنة ١٨٨٢ اصدر اوامرى اليكم بان تضربوا الاسكندرية حتى تدكوا حصونها وحتى تحيلوها رمادا باكملها . **اليوم** نطأ الاراضى المصرية . . . اليوم نملك مفتاح الشرق . **اليوم** يرفرف العلم البريطانى على الحصون المصرية مزهوا خفاقا . . وبعدئذ سنشل فى مصر كل تقدم . سنحرم الشعب من التعليم .. وسنقف عجلة الزمان فى تلك الامة الشامخة . . وسنعطل كل عمل يعود بالخير على ابنائها . ستلعب الدسائس وتنطلق الوشايات وهذه وسيلتى . وسيلة الشيطان . اضربوا الاسكندرية . اهدموا قلاعها .

الجنود : (يتصايحون) الى المدافع .. الى المدافع . !

وتفجرت براكين النيران على الاسكندرية وتقهقر الجيش

المصرى الاعزل الى ((كفر الدوار)) وكان ذلك اليوم المشئوم بدء احتلال الانجليز لمصر . . وليتذكر ذلك المصريون . . وليستعيدوا صور الفظائع التى ارتكبها البريطان فى بلادهم . . وليكن من ذلك اليوم حافز يتقد بالنار فى الانفس وتلتاع من سورته الارواح . لقد غصبوا بلادنا عنوة . واستحلوا فى سبيل ذلك كل محرم . . فلنلعن ذلك اليوم وتلك الساعة كلما دار نهار وكلما اقبل ليل . ولنجتمع كلمة واحدة ويدا واحدة لنمزق وجوه الغاصبين



مصر التى رفعت من الهباء مدنية الوجود ، وتغلبت بعلومها حتى على الموت ، وأقامت على جناتها العذراء محاريب الفكر والفن ، وفتحت مغاليق الارض بحد السلاح .. مصر التى طرحت عن الانسان الاول ثوب الجهالة واخذت بيده الى أبواب الحضارة .. مصر الخالدة تطالب بالوفاء أبناءها المخلصين . وان لها فى اعناقهم دينا باهظا لو يعلمون !! فمن ترابها ومائها يورق الزرع . ومن ثمارها اليانعة تشب الابدان . ومن نسيمها تتردد الحياة فى الصدور . ان فى كل خلية من جسدى منحة للوطن . فلولا ترابه وماؤه ونسيمه ، ما نبض قلبى ولا نما عودى ! وان كل مصرى هو جزء حى من الوطن العظيم ، يحمل عنه رسالته الى المجد ، ويذود بنفسه عن كل شبر من أرضه الغالية . وان المصريين هم أبناء وادى النيل جميعا ، لا فرق بين سكان الشمال واهل الجنوب . عشيرة متماسكة يؤلف بين عناصرها التاريخ والدين واللغة . هم جسد واحد ينبض فيه شريان واحد هو النيل فهل يمكن لهذا الجسد ان يختلج بالحياة اذا تمزق الشريان ؟! هيهات .. هيهات . ان الصور الذهبية من ماضينا الرائع تشرق أمام العيون باهرة

وضاءة ، وتستحث ابناء الوادى المقدس الى الترابط لبلوغ هدف واحد والسعى الى مستقبل واحد ! وان ذلك الشعور يوحيه الوادى والنيل يخفق فى صدره الى ابنائه الاوفياء . واننى فى هذه الصفحة أدير عجلة الزمن الى الوراء واقف بها عند عام ١٩٢٤ لانقل الى القارىء من سفر التاريخ لوحة ناصعة يحق لنا أن نستجلى معانيها فى ذلك الوقت العصيب !

فى مصر

اذا ذكرنا عام ١٩٢٤ انتشرت فى الاذهان صور الاضطراب البالغ الذى كان يسود مصر فى تلك الحقبة ، واستطعنا ان نتمثل الشعور الوطنى الذى كان يشتعل فى النفوس . ولقد كان على رأس الحكومة فى ذلك الحين المغفور له سعد زغلول باشا . وكان حماس المصريين جميعا يدفعهم الى الموت او التحرر من ربقة الاستعباد . وكانت هذه اليقظة من جانب الشعب بشائر سعيدة نحو تقدمهم الى المطالبة بالحرية ... الحرية منحة الله للناس فكيف يسلبها بعضهم من البعض الآخر ؟ ! لقد التفت المصريون الى حقهم الطبيعى فى الحياة فاحتدم الجنون الوطنى بالرءوس وقرر الشعب ان يغسل عار القيد بالدماء ، واعتزم اما الحياة الكريمة أو الموت فى سبيل الجهاد . وكانت تلك الموجة من الحماس تجتاح الوادى من الجنوب الى الشمال ، وكأنها مع النيل من منبعه الى مصبه تتدفق عاتية عارمة ! الصغار والكبار ، الشيوخ والشباب ، النساء والاطفال ، كانوا جميعا صوتا واحدا مدويا ينادى بالاستقلال . وارجف الانجليز من ذلك الوعى ثم راحوا يتدبرون الامر على طريقتهم من التفكير البطىء . ولكن ، حدث فى تلك الآونة ان قتل السردار ، وكان ذلك نذيرا للفظائع التى ارتكبوها فى مصر ، والتى ما تزال مواقعها

شاهدة تسرد على الاجيال قصة الاستعباد دامية الصفحات ! دق الناقوس .. فالى الموت جماعات جماعات .. الى الموت احرارا اطهارا لاذنب ولا جريرة غير المطالبة بالحياة . وما الحياة بغير الحرية ؟ انها اظلم من القبر ، واشد مرارة من الهلاك . لقد اراد منطق الاستعمار الا يتنفس الناس . ولم تقف الطامة الكبرى عند ذلك الحد ، بل اخذت انذارات الانجليز تتوالى على الحكومة المصرية مطالبة اياها بتنفيذ الف بند وبند مما تفرضه لغة الغاصب على المغصوب . وكان فى احد تلك الانذارات مادة تنص على وجوب اخلاء الجيش المصرى للسودان

فكيف تتخلى القوات المصرية عن الاراضى المصرية . وما السودان !؟ انه شطر من جسم الوادى المتحد طبيعة وناسا ولغة ودينا . وأرسل اللورد اللنبى المندوب السامى امرا بتنفيذ تلك المادة المشئومة الى هدلستون باشا نائب سردار الجيش فى السودان

بطل الخرطوم

جرت كل هذه الاوامر فى الخفاء ، ولم يكن أحد فى السودان يعلم ما اراده هدلستون باشا من طرد الجيش المصرى من وطنه الجنوبى . وفى ليلة ١٩٢٤/١١/٢٢ ظهرت جريدة الحضارة تحمل النبا المكتوم المشئوم الى الناس . فانقلبت الخرطوم رأسا على عقب وترددت الشائعات عن سر ذلك التصرف الشاذ ، وامتلأت القلوب بالحماس ، وكان نصيب الاشقاء السودانيين منه وافرا جليا - أما الكتائب المصرية وعلى رأسها القائمقام أحمد رفعت بك فقد غلت نفوس جنودها بالنار ، خاصة حين استولى ثيربورن بك الانجليزى على مفاتيح المخازن التى توجد بها الذخائر الحربية. وأخذ ولشن بك الانجليزى أيضا يصدر أوامره الى الضباط

المصريين بالسفر الى القاهرة . وفى تلك اللحظة الرهيبة التى يهون الموت أمامها كان بعض الضباط الانجليز يسيرون الى مخازن الحربية كى يقيموا عليها حراسة بريطانية. وهنا اعترضهم أحمد رفعت قائد المدفعية المصرى وأمرهم بالعودة من حيث أتوا . وأخبرهم ان ذلك أحفظ لحياتهم ، لانهم اذا ساروا خطوة واحدة الى الامام ، فسوف يقتحمون بها الهلاك المحقق. قال لهم هذه الكلمة ، ومن خلفه الجنود المصريون تابى أن تسلم سلاحها وذخيرتها وترفض أن تتخلى عن وطنها للغاصبين . كتلة واحدة وارادة واحدة جمعها احمد رفعت فى قبضته القويه يلوح بها فى وجه البريطانيين وهنا أرسل هدلستون باشا بوصفه نائب سردار الجيش الامر الاتى الى احمد رفعت بك البطل المصرى

الى القائمقام احمد رفعت بك:

كان من نتيجة قتل المرحوم صاحب المعالى السردار والحاكم العام فى القاهرة أن قدم صاحب الفخامة المندوب السامى الى الحكومة المصرية عدة مطالب منها اخراج القوات المصرية والضباط المصريين من السودان فى الحال. وبما ان الحكومة المصرية لم توافق على مطلب صاحب الفخامة المندوب السامى فى مدة ال ٢٤ ساعة المحددة فى مذكرته ، فقد أمر فخامته صاحب السعادة نائب الحاكم العام باخراج القوات المصرية والضباط المصريين من السودان . وقد عهد الى بصفتى نائب السردار بتنفيذ هذه الاوامر ووجب على اذن اتخاذ جميع الاحتياطات العسكرية ووضع جميع القشلاقات فى معزل .

وعلى الجنود المصرية أن تركب القطار بالسلاح والبيارق ولكن بدون ذخيرة

هدلستون
نائب السردار



أذن ، فقد صدقت الشائعات واتضحت نية الانجليز سافرة ، فماذا يفعل احمد رفعت ؟ هل يطيع ما أمر به هدلستون ؟ ان ذلك أبعد خاطر أمكن أن يومض فى ذهنه ، ولكنه أمر فى الحال بتشكيل مجلس حربى مصرى استصدر القرار الاتى :

نص القرار

انه لمناسبة البلاغ الذى طلب فيه مندوب جلالة ملك بريطانيا من حكومتنا المصرية اخلاء السودان من الجنود المصرية ، وبما ان حكومتنا الموقرة رفضت هذا الطلب ، وترتب على رفضها ، أن اصدر الجنرال اللنبى امره الى اللواء هدلستون باشا بطردنا من هنا ، ولما كان هذا الجيش هو جيش صاحب الجلالة الملك فؤاد الاول ، ملك مصر والسودان، ولما كان السودان قطعة من وادى النيل ، واقسمنا اليمين لجلالة مليكنا أن ندافع عنه ،وأن لاننخلى عن شبر أرض منه ، قررنا نحن رئيس وأعضاء المجلس الحربى المذكور أن نثبت الى النهاية حتى نسلم أرواحنا فى أماكننا أو يدعونا مليكنا

وطبقا للانظمة العسكرية قررنا أن نوحد قيادة القوات المجتمعة بالخرطوم بحرى ونعهد بقيادتها الى حضرة صاحب العزة القائمقام احمد رفعت بك قائد المدفعية المصرية بالخرطوم حيث أن اللواء محمد أمين باشا اقدم ضابط مصرى فى السودان تخلى عنا فى هذا الوقت العصيب

وهذا القرار منا بذلك **قائمقام**
احمد رفعت

استصدروا هذا القرار ، ولم يزعجهم أن القوات البريطانية قامت فجأة بحصار القوات المصرية ، أما مخازن الذخيرة فقد عرفت الجنود المصرية كيف تتسرب الى منافذها الخفية

وتخرج مافيها من عدة ، وتقدساهم مع المصريين فى تلك الحركة اخوانهم السودانيون وقد احسوا ان خروج الجيش المصرى من وطنهم هو اقتطاع جزء حى يقطر بالدم من جسم ذلك الوطن ، واوشك الجبر كان أن ينفجر وأوشكت النار أن تندلع ؛ وحمل احمد رفعت القرار المقدم للمجلس الحربى المصرى واخترق بمفرده الحصار البريطانى متجها الى ديوان الحربيه الواقع قبلى الخرطوم ، واقتحم مكتب هدلستون باشا وهو مدجج لا بالسلاح ؛ ولكن بقوة الايمان ومضاء العزيمة ، وكانت فى تلك اللحظة فوهات المدافع المصرية موجهة الى سراى الحاكم العام ، ومقابلة للحصار الانجليزى وجها لوجه ! دخل احمد رفعت على هدلستون ، وهو يعلم كل العلم ان السودان بأجمعه يؤيده فيما يقول ، واسلمه قرار المجلس ثم قال له وكأن اصوات الملايين من المصريين والسودانيين تجتمع فى نبرته وتدوى فى كلماته رهيبة قوية :

ان امركم هذا يخالف التقاليد المرعية ، واننى اكرر لك انه لايمكننى تنفيذ امر الانسحاب من السودان ، وما دامت القوات الانجليزية امامنا كما ترى فاننى لا اضمن عدم الاشتباك

ان الضباط والجنود تحت قيادتى ان يسافروا الى مصر الا بالشروط التى سأسردها عليك ، واننى رجل لا اخشى الموت وفى استطاعتى ان اقلب الخرطوم رأسا على عقب فى ساعة واحدة اذا لم تنفذوا مطالب جيشى ، اما الشروط ، فهاهى ذى :

١ - لانبرح الاراضى السودانية الا بعد وصول مندوب مصر من قبل جلالة مليكنا

٢ - اذا جاءتنا الاوامر المصرية بالسفر ، فيجب ان نرحل بجميع اسلحتنا ومهماتنا ، موفورى الشرف العسكرى

٣ ـ يكون السفر فى تلك الحال عن طريق حلفا وليس عن طريق بور سودان

وحينذاك ، لم يجد هدلستون باشا بدا من التراجع فامر بابعاد القوات البريطانية فى الحال . واتفق على ارسال برقية الى المسئولين فى مصر .

عاد بعد ذلك أحمد رفعت الى حيث يشهر جنوده الاباة أسلحتهم ، وينتظرون أمره ليبذلوا أرواحهم . وقد لجا هدلستون باشا الى هذا التقهقر لانه كان على يقين من تصميم الشعب السودانى الباسل على الانضمام الى صفوف المصريين لطرد الانجليز من الخرطوم . أجل ؛ لقد كان هدلستون باشا يعلم تمام العلم أن السودانيين من شغفهم ببطولة رفعت بك ، واعجابهم الشديد برجولته ، ومن فرط حبهم البالغ لاخوانهم المصريين وتمثلهم ذلك الحب فى شخص قائد المدفعية الباسل ، كانوا يسمون كل مولود ذكر فى تلك الآونة باسم رفعت . ومن هنا استطاع هدلستون بدهائه أن يتدارك الامر قبل انفجار البركان فأمر بفك الحصار البريطانى

وارسلت بعد ذلك برقية الى الجهات المصرية !! وقبل وصول الرد المصرى كان أحمد رفعت يتاهب لخوض الموت على أسنة الرماح . ولكن الكتاب المصرى التالى ورد اليه من وزير الحربية فى ذلك الحين :

حضرات الضباط وضباط الصف والجنود بالجيش المصرى فى السودان

عهدنا فيكم الشجاعة والولاء ولا يداخلنا أى شك فى أنكم مستعدون جميعا لاراقة آخر نقطة من دمائكم فى خدمة جلالة الملك وفى سبيل الوطن

على اننا نأمركم بأن تكفوا عن مقاومة الاجراءات التى اتخذها

نائب حاكم السودان العام لاخراجكم بالقوة من الاراضى السودانية ، فانه ليس من وراء هذه المقاومة سوى سفك الدماء بغير جدوى

وبما أن الحكومة المصرية قد احتجت صريحاً على هذا العمل الذى نفذ بالقوة القاهرة ، فعودتكم لا يترتب عليها أى مساس بحقوق الوطن ولا بشرفكم العسكرى

يا حضرات الضباط . ان الحكومة المصرية لن تنسى لكم قيامكم بواجبكم فى خدمة جلالة الملك وفى سبيل البلاد ، ذلك الواجب الذى أديتموه بالصدق والاخلاص . وترى الحكومة حقا عليها أن تظهر عطفها عليكم ، وأن تبلغكم انها مهتمة بامركم لتكونوا آمنين على حاضركم ، مطمئنين على مستقبلكم

وزير الحربية والبحرية
محمد صادق يحيى

وقع هذا الامر وقوع الصاعقة على النفوس . فكيف يخلى الجنود ارض السودان ؟ وأين يذهبون بذلك الحماس الذى يأكل نفوسهم ويلهب ارواحهم الماجدة ؟ وماذا يقولون لاخوانهم السودانيين الذين ترابطوا معهم ترابط الارواح والعزائم والاهداف ؟ لقد أطاع الضباط والجنود المصريون الاوامر التى تلقوها . أطاعوها كما يلبى الانسان أمرا بتجرع السم الزعاف .

وكانت القاهرة نهبا للازمات السياسية فى ذلك الحين . وكان فى استطاعة رفعت بك أن يقلب السودان كما قال رأسا على عقب ، لان سواعد السودانيين الابطال كانت تناصره ، والسنتهم تلهج بحبه واكباره . وكان بوسعه كذلك ان يصبح حاكما عاما بارادة السودانيين لو شاء اولو الامر

العودة

كانت تلك المعركة قمة وانتصارها رجع بعدها الجيش المصرى الى القاهرة ولم يترك من معداته وذخائره شيئا كما أراد هدلستون باشا ولكن سنفرد عن طريق حلفا كما نص قرار المجلس الحربى المصرى .

عاد الجنود البواسل وكأنهم يحملون نعوشهم ويسيرون فى مآتمهم ، لانهم لم يفرجوا عما فى صدورهم من ظمأ المجد ؛ وكأن على جبين كل منهم اكليل العزة وفى نفسه التعطش الى الموت ، وقد تركوا بعودتهم فراغا كبيرا فى قلوب السودانيين ؛ وكان توديعهم يقطر بالدموع والحسرات من اخوانهم ابناء السودان ، فقد خرج فيه الشيوخ والصغار الى الشوارع كل منهم كأنه يودع املا عزيزا حكم عليه ان يفقده عنوة وقسرا ؛ وكان العلم المصرى يخفق فى السماء والضباط مرفوعو الجباه شامخو النفوس ؛ ومن حولهم تتعالى الهتافات من الشعب السودانى تكاد تشق اجواز الفضاء ؛ ولم يملك الانجليز امام تلك الاحتفالات الشعبية الا ان يدفنوا وجوههم فى ستائر الثكنات ويواروا فيها احقادهم على هذا الترابط الخالد مدى الحياة . ومنذ تلك الآونة ، فطن هدلستون باشا وانصاره فى السودان الى حقيقة الشعور الشعبى تجاه المصريين ، واخذوا فى الخفاء يدسون معاول الفت فى تلك الوحدة المترابطة باساليبهم الملتوية المسمومة ؛ ولكن فى اعماق النفوس ايمانا راسخا بان مصر والسودان جسم واحد ينبض فيه قلب واحد !

الى اسوان

وصلت القوات المصرية الى اسوان فى طريقها الى القاهرة ، ولكن رئاسة [illegible] فوجئت بامر السلطات العسكرية [illegible] ببقاء الضباط والجنود فى اسوان الى حين صدور قرار آخر . وقد علم احمد رفعت ان السبب فى ذلك الامر هو [illegible]

يفعله فى القاهرة ؛ فقد انتهى الى وزارة الحربية ان احمد رفعت قرر ان يلتحم مع البريطانيين حتى لو كان ذلك فى شوارع العاصمة؛ وبذلك رأت وزارة الحربية المصرية ان تبعث اليه بذلك الامر . وقد ظلت القوات المصرية مقيمـه فى اسوان ثلاثة شهور كاملة حتى سمح لها بعد ذلك بالرحيل الى القاهرة

فى القاهـرة

وحمل القطار احمـد رفعت على راس ضباطه وجنـوده البواسل من اسوان قاصدا بهم الى العاصمة . وكان كل منهـم يتصور الاستقبال الحماسى الذى يمكن ان يقابل به ؛ وسار القطار بهم من محطة الى اخرى وكلما اقترب من القاهرة دنا الامل فى الاستقبال الرائع لمن اراد الانجليز ان يشتروا حريتهم فقرروا هم ان يبيعوا ارواحهم دون ما يبتغون!

ووصلوا الى العاصمة فكان فى استقبالهم .. ارصفة المحطـة وجدرانها الجامدة الصـمـاء ، يعلوها الغبار . وتتهاوى عليهـا برودة الموت . ولون العدم .. ولم يأسـف احمـد رفعت لذلك الاسـتقبال المجيد ! لانه عبـر بحركته الباسلة فى السودان عن الروح المصرى وحـده ؛ وفعـل ما تمليه عليـه كرامة الوطن العظيم ؛ وكان احمد رفعت يعلم انه من الوطن واليه ولم ينتظـر غير ان يدفع ما فى عنقه للارض التى انبتت عوده ؛ وللبلد الذى رباه جسما وعقلا ونفسا ، وقد اريد لذلك البطل ان ينقـل الى القرعة كى يبعدوه عن السلاح

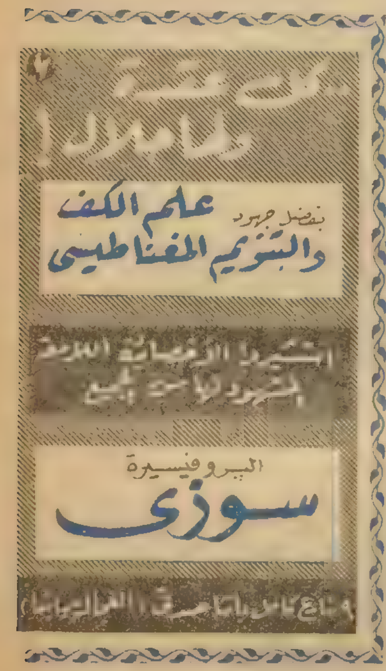
المطـالبة باعتقاله

وعلى اثر وصول احمد رفعت الى القاهرة ؛ اخـذت الصحف البريطانية تطالب باعتقاله لتمرده وعصيانه لاوامر رئيسه هدلستون باشا . واسرفت صحف انجلترا فى ترديد ذلك القول وخاصة بعد ان راح السـودانيون يشاغبون السلطات الانجليزية هناك

وهذه فقـرة من مقال نشرته النيرايست بتاريخ ٨ يناير ١٩٢٥

قال مراسل النيرايست فى الخرطوم : ان رفعت باشا قائد المدفعية المصرية واشياعا له ، هم الذين اوعزوا للسودانيين بالثورة ثم تركوهم للقضاء والقدر . ولو كان هؤلاء المحرضون المصريون قتلوا بالرصاص فى نفس الوقت الذى قتل فيه السودانيون ، لارتفع مركز البريطانيين الى مستوى عال على حساب المصريين واهانتهم

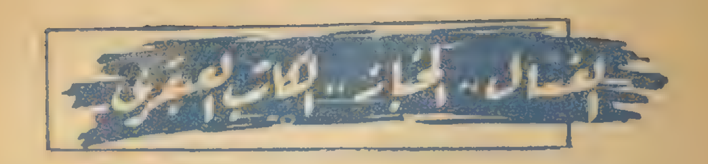
وجاء فى جريدة الديلى ميل بتاريخ ٢٠ ديسمبر ١٩٢٤ كلمة اشار فيها المحرر الى وجوب تسليم رفعت بك وذكرت قراءها بان الحكومة البريطانية لم تعثر على قتلة السر لى ستاك بعد وقالت ان الناس فى بريطانيا اخذوا يشعرون بان مصر راحت تعبث بولاة الامور البريطانيين



وبالغت بعد ذلك الصحف فطالبت احداها براس الرجل دون اعتقاله ومحاكمته !

وبعد ؟

فلعل القارىء يسال عن بقية قصة ذلك البطل ، واننى لا اذكر منها غير انه مات كمدا ، بل استشهد كريما ، فلم يسر فى جنازته واحد من الاعلام العظماء ! واننى احيل القارىء بعد ذلك على المتحف الحربى ليشعر بالخيبة والاسى اللذين خامرانى حين لم اجد فى ذلك المتحف تمثالا لذلك البطل العظيم



الليل ..! كأنه جلاد اسود ينكل بساهريه !!

والنجوم المبعثرة على ثوبه الفضفاض .. كأنها عيون الجن تقدح بالشرر وترشده الى كل يقظان !!

والريح .. تحسرج تارة فيرتطم انينها الاصفر باكوام المقابر والاجداث . وتصفر تارة اخرى ثم تلطم وجه مكسيم كأنها وحش خفى لايستطيع ان يمسكه ولا ان يراه — او كأنها ارواح شريرة تتصاعد اليه من تحت القبر الرابض امامه ، اوتتساقط على وحدته الموحشة من سجف الظلام !!

من ياترى ايها الشاب المرتعد قذف بك الى مدينة الموتى وقد غطت اديمها اكفان الجليد ؟!

من ياترى رماك الى القبور فى قبضة هذه الليلة المتوحشة المجنونة وهى تعوى كأنها عجوز تلطم خديها باكية مافات من ايامها البيضاء ، وكأنك فى قبضتها هشيم ينكسر او غصن يلوى ؟!

لم يكن الذى دفع مكسيم جوركى الى مكابدة اهوال الظلام بين المقابر سوى رغيف واحد يطمع فى الظفر به عند احتراق جنبات السماء بنيران الصباح . وكانت هذه هى الليلة الاولى التى يرغمه فيها العوز الى احتراف الصلاه على الموتى حتى يستطيع ان يجد الخبز الجاف يمسك به اوده من الهلاك . ولم يكن يقبل ان يتناول اجرا على قيامه طول الليل بالصلاة غير بعض الخبز ثم يرفض كل مايقدم اليه من النقود . وكان هذا التصرف الشاذ من جانبه يثير فى نفوس الناس الدهشة والتقدير . وان

المسئولية فى انتهاء مكسيم الى تلك الحال تقع على عاتق الجوع والبطالة اللذين كانا يهددان الناس فى ارواحهم . وتقع بالتالى على المجتمع الذى يعيش فيه!

وان حياة مكسيم جوركى فى هذه الآونة تنقسم الى شطرين يبدآن من حاضره ، ليسير احدهما على طريق ماضيه حتى ساعة مولده ، ويسير الثانى على طريق مستقبله المجهول لينتهى حيث يخفق سراج حياته خفقته الاخيرة!!

واذا قدر لاحد من الناس ان يتابع حياة مكسيم جوركى من تلك الليلة الرهيبة سائرا مع الزمن الى وراء ، فان عليه ان يخوض معارك دامية طاحنة عاناها مكسيم من لياليه المنصرمة فتركت فى نفسه وقلبه الجراح الفائرات.

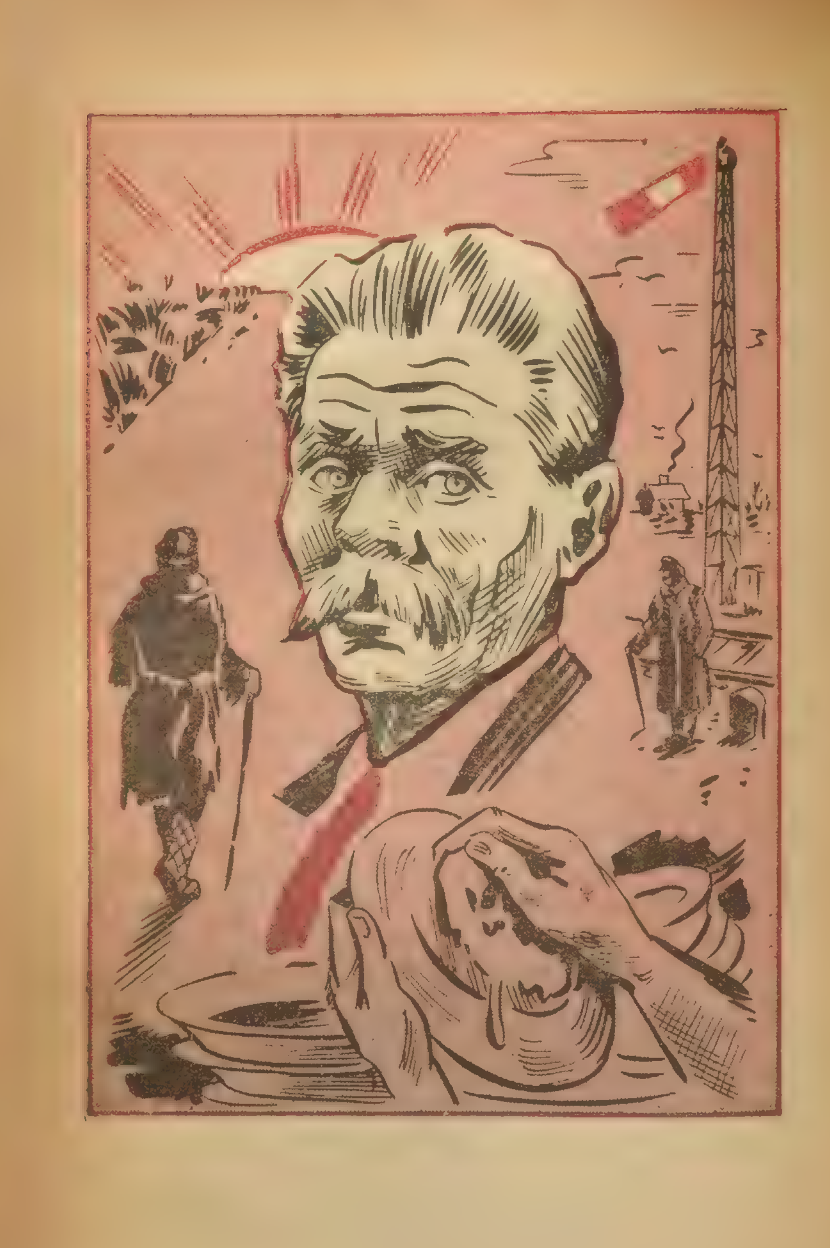
ولو ان مكسيم وهو فى تلك الليله اتيح له ان يسرد قصة حياته مجملة ، لقال وصوته يهدر على الظلام:

كانت طفولتى شقية شريدة وكان كل يوم فيها قطرة من التعاسة والعذاب . . وكل ماتعيه ذاكرتى عن ابى انه كان صانعا يختطف قوت يومه من بين انياب الشقاء . وانه تعرف الى جدى وهو رأس آل كاشيرين وصاحب مصبغة فى مدينة « نجنى نوفوجرود » الواقعة على نهر الفولجا شرقى موسكو . وكانت لجدى ابنة تدعى فاريا تزوجها ابى وكنت انا زهرة ذلك الزواج . وقد عاش ابى مع أمى فى دار ابيها حيث رزقا بى عام ١٨٦٨ واسميانى « الكسى » ولو ان اطفال الحى كانوا يطلقون على اسم « الوشا » ونحن نلعب ونلهو خارج المنازل . وقد اصبت وانا فى الرابعة من عمرى بالكوليرا وايقن اهل الدار اننى صائر الى الموت . ولكن الله كتب لى الشفاء فى حين انتقلت عدوى المرض الى والدى الطيب ولم يترك منه الوباء اللعين سوى جثة هامدة خالية من الحياة حملوها الى حيث اغلقوا عليها باب القبر الى الابد . ولم يشأ القدر بعد ذلك ان يجعل لى من حنان أمى ورعايتها عوضا فاختطفها الموت والفيت نفسى شديد الوحشة غريبا اشد

الغربة فى دار آل كشيرين . وكان وجه جدى يبعث فى نفسى
الرعب والاشـــمئزاز بعينيه الصـــفراوين [illegible]
الخضراوين [illegible]
وكنت [illegible] بالقسوة . ثم ان ابنيه كانا اسمج
اقسى ولا [illegible] الذين [illegible] الرجال فيهم يضرب
نسائهم ضربا وحشيا شـــديد القسوة . وقد حاولوا من قبـل
ان يقتلوا ابى حيا وذلك ان احدا منهم فى معركة من تلك المعارك
التى كثيرا ماكانوا يلتحمون فيها كالحيوانات . اسقط والدى فى
هوة ثلجيــة وتركه حتى يقضى نحبه . ولكن ابى تخلص من تلك
الميتة بمهارة وجهد كبيرين .

وقد كان بيت جدى « فاسيلى فاسيلايفتش » فى احـد دروب
مدينة نجنى نوفوجـرود وكنت كثيرا ما اطل من النافذة فأرى
الى اليمين ساحة السجن الاصفر الرهيب الذى يعتقل فيه وتحبس
عصابات المجرمين واشـهد الى الشمال ذلك البناء الرمادى ذا
الابراج الاربعة وكأنها تشير الى المسجونين ضما فى تلك الاضرحة
التى يسمونها السـجون . ولم يكن يرحمنى من الاضطهاد غير
جدتى العجوز التى كثيرا ما كانت تتشاجر مع من يقسو على ضعفى
وطفولتى الحزينة . و[illegible] السوداء على نجنى
نوفوجراد ، فتفرق اهل الحى فى السبات العميق كان صوت جدتى
يترقرق فى اذنى وهى تحكى لى خرافات « نجنى » واســـاطير
الاولين . وهكذا كانت طفولتى مقسمة عادة بين خرافات الليل
وشقاء النهار . ولم يكن هناك بد والجو الذى يســود دار آل
كشيرين [illegible] . ثم ان الحمى نزلت ببدنى خاصة بعد ان
فشل جدى [illegible] الكتابة والقراءة .
كان [illegible]
من [illegible]
و[illegible] حدث فى
احد الايام ان سقط [illegible] من الحساء الساخن [illegible]

الى المستشفى وتركت ذلك الصانع الى غير رجعة . وعملت كذلك فى جمع الخريقات من الطرق وبيعها . ثم انتقلت الى العمل لدى بائع اسفنج ولكنه كان نقمة على طفولتى التاعسة ولم يكن ارهاقه لى بأقل من ارهاق صانع الاحذية فهربت من العمل ورحت اذرع شوارع نجنى نوفوجرود ووفقنى الله بعد ذلك الى العمل فى زورق بخارى اغسل فيه الصحون . وقد كانت الغابات والمرائى التى تجلبها الرحلة فى النهر الى عينى المدهوشتين سببا فى تخفيف اعباء عملى الشاق . فقد كنت اعمل من الساعة السادسة صباحا حتى منتصف الليل . ولم يكن يشعرنى بالحياة وانا غارق فى شقائى الشامل الا طباخ الزورق الذى فتح امام عينى كنوزا غالية عزيزة . ولم تكن هذه الكنوز من الذهب ولكنها كانت من الورق المتآكل . فقد اخذ ذلك الطباخ يجلب لى الكتب لاقراها ووجدت فى القراءة وانا فى تلك الفترة العصيبة من العمل الشاق المتواصل متنفسا وراحة وسعادة . وقد اتيح لى ان اطالع قصص الجن للكاتب النرويجى « هانس اندرسن » . كنت اقراها بعد ان يشل يدى غسيل الصحون طيلة النهار فأحس التعب قد تبخر ، والعناء قد ذهب ! وكنت اقرأ بعد ذلك بلزاك وفلوبير وبوشكين وجوجول ولرمنتوف وترجنيف . ولم يكن كتابى الاكبر سوى الحياة بما اشتملت عليه من مختلف النماذج والصور واضداد الاشكال والانواع والشيات ! ولكن الالم كان يحز فى نفسى كلما وجدتنى مرغما على انفاق ساعاتى فى العمل لالتقاط فتات من الخبز امسك به حياتى . لان ذلك كان يصرفنى مضطرا عن تزويد عقلى وروحى بالزاد الفكرى الرفيع ! كم كنت مسكينا معذبا منكودا !! ولو ان احدا تعهد بى وقال : اذهب .. وليكن وقتك كله للمطالعة والدرس ولكننى اشترط لذلك ان تضرب علنا امام الناس فى ميدان نيكولايفسكى ايام الاحاد . اذن لقبلت ذلك الشرط موفور السرور منشرح الصدر !! كانت روحى جائعة مثل معدتى ! وما اقسى الشعور بجوع الروح !



انه يطحن ويذرى كل تماسك نفسى عبر الهواء !! لبيك . لبيك ايها [illegible] الذى يستبد بعقلى وروحى ! انا [illegible] الى [illegible] وفيها [illegible] !!

هكذا [illegible] سنة ١٨٨٤ [illegible] فى [illegible] الى جامعتها ، ولكنى نجحت فى ان اكون احد [illegible] حلقة سرية [illegible] . [illegible] فى هذه الحلقة [illegible] على رصيف النهر . وكنا نجتمع عند مدخل المدينة فى « القصر البلورى » . ولم يكن ذلك القصر غير طلل مهجور محطم النوافذ تئن بين ارجائه الرياح لانها لا تجد فيه ما تعبث به بعد ان عبثت به يد التدمير والخراب ! وقد كانت حلقتنا تضم اشكالا متباينة من طريدى [illegible] ومنشرديها فهذا طالب مطرود من الجامعة وهذا [illegible] وهذا [illegible] به [illegible] وهذا [illegible] . لقد كان كل منا صاحب [illegible] . كان [illegible] نيران [illegible]

[illegible]

ولا تتفق مع النظم الديموقراطية فى كثير او قليل !! اننا نموت جوعا وغيرنا يموت من فرط التخمة !! شد ما اتمنى ان اصبح كاتبا . فاضرب المثل لهؤلاء الذين يكتبون للترفيه عن عدد من

الاثرياء المخمورين ، ويدعون القصص حول الغانيات المترفات،
ويتملقون في ذلك الشهوات الرخيصة ، فيجنون على انفسهم
وعلى مستقبل المجتمع الذي يعيشون فيه . فعندما تتمنى ان
تصبح كاتبا فعليك درسا موجها على كتاب الزخارف والبهارج
الذين يعتبرون الفكر مادة يتلهى بها المترفون في الوقت الذي
يسحق به الفقراء حتما من الشهوات الدنيئة كي ينهض !!
هؤلاء هم المجرمون الحقيقيون لانهم يخذلون قلب المجتمع
الانساني بما يكتبون . والشعب يتلقى وقت الحاجة شعراءه
وكتابه ومثقفيه .. وانا واحد من ذلك الشعب المضطهد فلماذا
لا اكون صوته وصورته ! افكر وارسم خطوط المستقبل
واضع نفسه .. هكذا تعلمت وهذا ما ينبغي ان تكون !!

على اذن ان اعد العدة كي اعبر قلبي دائما عن الشعب .
وقد تعرفت بصاحب حانوت لبيع الكتب يدعى « اندري درنكوف »
ووجدت لديه كداسا من الكتب العلمية القيمة . واخذت اقرؤها
الواحد بعد الاخر في شغف وفي نهم عظيمين . واني قد افدت افادة
كبرى من جمعية الشباب الثوري هذه . تتلمذت على نظريات آدم
سميث وكتابات جرانفسكي وكتب الاقتصاد السياسي وغيرها
وغيرها من المؤلفات . وقد فتش البوليس مسكني ذات اسبوع
فوجد احد الكتب العلمية وقد سجل اسمي منذ ذلك اليوم في
قائمة المشبوهين !!

اقبل الخريف ولم يعد لي عمل على رصيف النهر فرحت
أذرع الشوارع جائعا يعوزني المأوى كما جن الظلام . وقد
وفقت بعد ذلك الى العمل في مخبز يملكه وحش آدمي يدعى
« سيميونوف » وكنت أعمل مع زملائي في ذلك المخبز ١٤ ساعة
متصلة مرهقة كل يوم . وقد كانت صرخات المتسولين الجائعين
تهز قلبي بين جنبي ، ولكن « سيميونوف » اللعين كان قد
اقام حول المخبز نوافذ حديدية تحول بيني وبين القاء بعض
الارغفة الى هؤلاء الجياع المشردين .

ولم يكن ذلك العمل المضنى يستطيع أن يمنعنى من القراءة والدرس فقد كنت افنىَ عمر الليل على ضوء شمعة ضئيلة والكتاب بعد الكتاب بين يدى . وقد كان سيميونوف يتفنن فى تعذيبنا نحن العمال ، فيضرب الواحد منا لاقل هفوة تبدر منه أثناء العمل . وكان يحاول أن يصرفنى عن القراءة بالقوة !! وقد حدث أن فاجانى فوجد بيدى كتاباً لتولستوى فأمرنى ان ألقى بالكتاب فى النار . ولكننى زأرت فى وجهه وبين جوانحى بركان على وشك الانفجار : ان تجرؤ على احراق هذا الكتاب ! وهكذا بدأت نضالى امام سيميونوف الفظ اللعين . وقد كنت تمثل فى ذلك النضال الظلم الشديد والعذاب الاليم الذى كان يلقاه العمال على يدى سيميونوف صاحب المخبز . وقد حاولت أن أجعل زملائى يضربون عن العمل فى احدى المرات ولكن خوفهم والجهل الذى يسود عقولهم منعاهم من الاقدام على الاضراب !

انشأ صديقى اندرى درنكوف مخبزا بعد ذلك ؛ وما سمعت بذلك النبأ حتى جمعت من أعرف من رفقى فى مخبز سيميونوف وانتقلت بهم الى مخبز درنكوف وقد سرنى أن أرباح ذلك المخبز خصصت للكتب والنشرات . وكان الذى نقل الى فى تلك الفترة خبر وفاة جدتى ؛ نقل معه الى نفسى الحزن والانقباض والحسرة ؛ ونقل معه الى عينى الظلام والدنيا نهار . وكان الخريف قد أقبل يحمل فى يمينه الزوابع وفى شماله الامطار . فضقت ذرعا بذلك الخريف المقبل كانه مصدور ينفث دم الطبيعة على صدرها ويحيل كل لون الى الصفرة والشحوب . وكل ورقة مخضرة وزهرة عاطرة الى الارتعاش والذبول والسقوط !! اقبل الخريف فشممت فى ثيابه الصفراء رائحة الموت الزاحف على كل شىء !! ولم يكن لدى من الملابس ما ادفع به غوائل الشتاء اللهم لا هذه الخرق المرقعة التى أستر بها بدنى خجل العراء .
وطافت بذهنى المكدود ذكرياتى السعيدة القديمة وأنا طفل جالس

القرفصاء استمع الى جدتي وهي تحكي لي في جوف الليل خرافات « نجني نوفوجرود » وأساطير الظلام . لم يكن لي حبيب غيرها .. والان حرمني القدر حتى من ذلك الحبيب !! تذكرت أيام كنت أصطاد الطيور وأنا صغير وأعود بمجهود اليوم تبيعه ونقنات بثمنه ! .. وكانت تلح على نفسي تلك الصور الهنيئة ثم أفيق فأجدني عريان جوعان مفلسا الا من تلك الهواجس والافكار السوداء . وفي احدى الليالي الشديدة الظلام اختمرت في نفسي فكرة الانتحار تخلصا من أوجاعي التي صبحت فوق الاحتمال . وسرت في ضواحي المدينة وانا فاقد الوعي ماخوذ بفكرة الخلاص من عذاب الحياة . وغيري ماخوذ بفكرة التمسك بجمال الحياة !! ورفعت يدي وبها المسدس واطلقت النار على نفسي . ولم احس بعد ذلك الا وانا طريح الفراش في احد المستشفيات والى جانبي طبيب يقول : ان الجرح غائر خطير .. واني ارجح ان المريض سيفارق الحياة في غضون ثلاثة ايام . وحينئذ صرخت باعلى صوتي وانا لا أعي ما اقول : لا .. لن أفارق الحياة !! لن افارق الحياة !! قلت ذلك . وكانني استغرب صوتي واحسبه آتيا من اعماق مجهولة سحيقة الغور . . وكانت هذه تهاويل المرض ورواسب الاوهام التى خلفتها تلك الازمة النفسية الحادة .

عدت بعد شفائي الى الاشتغال في مخبز درنكوف وتعرفت فيه باحد المبعدين الذين قاسوا في منفى سيبريا عشرة أعوام طوال، ويدعى ميخائيل روماس . وتوافق مزاجنا وميولنا فتاكدت صداقتنا وسرت معه بعد ذلك الى قرية « كرازنوفيدو » وكان يملك فيها حانوتا صغير . وقد عشت معه في هذه القرية مدة سعيدة لانني اطالع عن كثب — لا في الكتب ولكن في مسرح تلك الحياة الكبيرة — صورا حية صادقة من أحوال الفلاحين والمزارعين واصحاب الاراضي . وكثيرا ماكنت ارى بعض الفلاحين يفلق رأس زميله بالفأس لاتفه الاسباب !

وقد لجأ اثرياء القرية الاقطاعيون الى مضايقتنا ـ روماس وانا ـ لما عرف عنه من انه ثورى يجعل صغار الفلاحين والعمال يتمردون بدعاياته النارية !! فغادرت القرية مرغما مع احد الرفاق حتى وصلنا بحر الخزر وتنقلت فى العمل من خباز الى مأمور مخبز الى صياد !!!

ودارت الايام . . واذا انا مرة اخرى فى قزان !! ولكننى وجدت مخبز درنكوف قد اغلق ولفظتنى المدينة جثة فارغة من كل سبب للاقامة فيها . فنزحت الى « دوبرنكا » حيث عملت حارسا فى محطة السكك الحديدية ، بينما حراستى فى الساعة السادسة مساء ونصبح فى السادسة صباحا . وقد رأيت بعينى راسى كيف يسرق مدير المحطة عربة الدقيق مع الموظفين !! وساءنى ان اضطهدتنى طباخة المدير فكانت تعهد الى فى خلال النهار وهو وقت راحتى بالكنس والغسيل ومختلف الاعمال المماثلة !! وقد كنت اقرأ هاينى وشكسبير وانا احرس الدقيق واستغرق فى احلامى الفكرية الفنية وفجأة اهبط الى عتبة الارض واوحال الحياة ! وكنت فى ذلك الحين قد قطعت من العمر اثنين وعشرين سنة ، وكنت قد نقلت حارسا فى محطة كروتايا . ولكننى غادرتها فى تلك السنة الى نجنى نوفوجرود فى بداية الربيع سيرا على الاقدام فلم اصلها الا فى منتصف الخريف ! وكان على ان اتقدم الى الخدمة العسكرية ولكن السلطات لم تقبلنى لان الكشف الطبى اثبت ان فى رئتى ثقوبا وان صدرى ضعيف ! وحمدت الله على ذلك ! وبدات اتجول فى انحاء الروسيا مشيا على الاقدام فلم اترك مدينة ولا سهولا الا شهدتها وخالطت ناسها وكل من عليها وما فوقها !!

وهذا انا بين المقابر اصلى على الموتى فى حلك الليل لاظفر فى الصباح بلقمة اسد بها رمقى

* * *

واذا كان علينا بعد ذلك ان نتم قصة جوركى للقراء فحسبنا

الآن ان نوجز خطوطها فيما يلي :

لكن اهم ما يشغل جوركي في تلك الاونة هو كتابة قصص وقد احتشد ذهنه بالنماذج العديدة العجيبة التي تزدحم بها حياته ومخالفاته ودراسته لطبائع الناس ، فكان يعمل على وضع القصص التي يصور فيها شخصيات الجياع والمشردين

وقد اخذ يرسل الى الصحف بعض انتاجه فتنشره معجبة به على الناس . وفي تلك الفترة اخذت مواهب جوركي في السطوع وقد كان بعض القراء يظنون جوركي ضابطا متقاعدا ولكن محرر احدى الصحف ابان لهم ان مكسيم ليس غير متشرد من المتشردين العباقرة واخذت شهرة جوركي في النمو، ولكن الداء الخبيث راح يراود صدره في ذلك الحين وعمت شهرة جوركي في انحاء الروسيا فقلقت لذلك الحكومة والقت به الى السجن لكنها اضطرت تحت ضغط الرأي العام ان تخلي سراحه . وحين حل عيد الميلاد في تلك السنة ، احتفل به مكسيم على طريقته الخاصة فجمع خمسمائة طفل فقير واطعمهم وكساهم في منزله امام [illegible] والمشردين [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] وقرروا [illegible] الى القيصر [illegible] القيصر جيشه ان [illegible] تلك الجموع [illegible] بالنار . [illegible] المجزرة فاضطر جوركي [illegible] يصور فيه هذه المجزرة الآثمة ويستنجد فيه بالعدل امام الطغيان ! !

وفي عام ١٩٢١ اضمحلت صحة الكاتب الكبير واخذت تبدو عليه علامات الانهيار فسافر الى ايطاليا مستشفيا ووضع اثناء وجوده هنـــاك « مذكرات جريدة » و« ذكرياتي » و« أيام جامعاتي »

و « قراءات » و « فى الحراسة » وسواها من المؤلفات

وحين عاد جوركى الى روسيا عام ١٩٢٨ احتفل الشعب بأسره ببلوغه الستين من عمره وقد مات جوركى مسموما عام ١٩٣٦ فسرى نعيه سريان الحمى فى جسد الامة الروسية وفقدت بموته الانسانية أحد الذائدين عن حرمتها المقدسة !

* * *

وبعد

فهذه خيوط أساسية من نسيج حياة ، وليست هى سيرة مكسيم جوركى مصغرة أو مجملة ، فقد عاش ذلك الكاتب الانسانى العظيم عيشة حافلة بكل عجيب وقد نجح فى ان يصب على الورق اجدر الجوانب من عيشته بالكتابة ، ولم يغادر جوركى هذا العالم الارضى الا بعد ان ألف ١٧ مسرحية كبيرة وما يربو على ٣٥٠ قصة غير الكتب التى وضعها والمقالات والصحف التى اشترك فى تحريرها واشرف على اصدارها

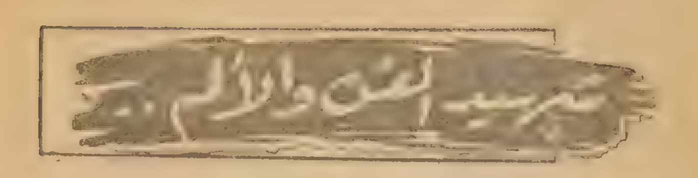
وكان المطبوع من كتب جوركى الى عام ١٩١٧ لا يزيد عن ١٫٠٨٣٫٠٠٠ نسخة نشرت بثمانى لغات ، وما ان أتى عام ١٩٤٢ حتى قفز المطبوع من مؤلفاته الى واحد واربعين مليونا واربعمائة وتسع وستين ألف نسخة نشرت بخمس وستين لغة .

وحسبنا ان نذكر هنا ماقاله الكاتب الفرنسى الكبير اندريه جيد فى فصل ادبى ممتع قارن فيه بين شكسبير ومكسيم جوركى ، جاء فيه :

« ان مكسيم جوركى باهماله للمجتمع الارستقراطى وبعدم تسجيله لما يجرى فيه ، ينأى عن شكسبير ليشق سبيله الرائع الجبار الى النضال المتصل من اجل مثله الاعلى الذى يبتغيه ؛ وهو فى ذلك يدافع بكل مشاعره عن جوهر الانسانية .. الانسانية السليمة البريئة من كل شائبة والتى تتمثل فى نفسيات شعوب العالم بأسره دون تمييز بين كل منها »

وهذه مجموعة من سير المكافحين
فى سبيل تفتيق براعم المشاعر
الانسانية ، تتضمن بعض أجزاء
من حياتهم ، وتصور نواحى من
جهادهم الفنى على طريق الجمال
والخير والالهام ..

هؤلاء بعض الفنانين الذين
احترقوا كى يترجموا الحياة ،
ويحولوها الى أعمال فنية خالدة ،
يغنمون بها من الدنيا كل ألم ،
ويمنحون الناس بها كل مسرة



الليـل الجاثم على «وارسو» حزين ثقيل الظلام . والفجر ! كان انفاسـه احتبسـت وراء الافـق ، وآثرت ألا تشرق على الروس العتاة ، وهم يدوسـون حرمة بولندا بالنعال . و فردريك فرنسوا شوبان وجم ينتشر على وجهه العرق البـارد ، وتشتعل في قلبه حـيرة من نار . إعتزم ابناء بولندا البواسل أن يغسلوا بدمائهـم كل شـبر من وطنهم يحتله الروس . فـكيف يغادر شـوبان بلاده فى ذلك الـوقت العصيب ؟ ان ضمـيره المعـذب تدوى فيه صيحـة الـواجب . أليس بولنديا ؟ اذ كان أبوه فرنسى الاصـل ، فانه طعـم من أرض بولندا ونهـل من عذبها ، وصار فردا من شعبها ، بل استاذا فى احدى جامعاتها ؛ رأيناه من اعرق الاسر البولندية وارقاها واشدها حماسة وحبا للوطن . وهـو صاحب رسالة فى الموسيقى تحمل عبـير الحـرية وصـوت الالم ! حقيقـة ، انه فى نحـو العشرين ولكن .. هل العبقرية بعداد ؟ الم يكتسـب بعض شـهرته الموسيقيه وهو دون التاسعة من عمره ؟

مسـكين انت ياشـوبان . وما عساك ان تصنع فى المعارك ، حين يشتعـل الجنـون الوطنى بالرءوس ، ويخترم الموت افئدة الشباب ؟ انك نحيـل ضئيل انثـوى التركيب ، تجلس الى البيانو كانك روح لايكاد يلمسها الانسان . ليس التناحر الدموى مجالك . ولايمكنك أن تخـدم وطنك بحمل السلاح . فعليك أن تدفـع الضريبـة من دمك واعصابك عن طـريق آخـر .

عليك ان تجعل موسيقاك تنوح فيها العواصف الحزينة . ولقد أصر مواطنوك الاحرار على سفرك ، واهدوك حفنة من تراب الوطن الغالى تحملها فى صرة حريرية بينما ذهبت

❊ ❊ ❊

سافر شوبان تاركا وراءه بركان المعركة . وراح يتذكر محبة مواطنيه وعطف والديه وحنان أخواته الثلاث . ذكر طفولته فى زيلازوفا ولا وهى تبعد عن وارسو نحو ثلاثين ميلا . تذكر أتى الى هذه الدنيا رقيق البنية وكان ضعف جسده مصدر قلق لاهل البيت وكثيرا ما كانوا يسمعون صيحة الهلع والاشفاق كلما اعتزم شوبان مغادرة المنزل : « لف معطفك حول عنقك جيدا يا فردريك » وذكر ذلك القول فشعر بنسمة عليلة ساخرة . ماذا تنفع الرقابة والمرض فى رأسه ؟! كان يحس أن أجله قصير . لذلك شاعت فى موسيقاه أحزان المقدورين رهيبة ضافية . ومن يستطيع أن يسمع « المارش الجنائزى » ثم لا يعتصر نفسه الشجن ؟! تذكر شوبان كل ذلك ولم ينس قول مواطنيه له وهو على وشك الرحيل : « اجعل نصب عينيك فكرة الوطن : فان مرتفعات بولندا وغاباتها وبراريها تعيش كلهـا فى اغانيك وموسيقاك » فجذب الى شفتيه صورة يضعها جوار قلبه ، وهى تمثل مدينة وارسو سابحة فى نور القمر . وطبع عليها قبلة صادقة . واخذ يتطلع الى المستقبل . انه الان فى باريس شمعة وحيدة تجاهد فى مدينـة النور وليس امامه مايشغله عن العمل . فقد اشتهر حتى فى عهد المراهقة باحتقاره وحملته على الشهوات . ثم أحب مغنية صبية (سوبرانو) وكان حبه لهـا نقيا كالفجر . قصيرا كعمر الزهر . وهو لا يجد

من انحطاط قواه حافزا الى الملذات الحسية . وانه فوق ذلك مسرف الاناقة ، رفيع النفس ذو حاسة اجتماعيه تجذب اليه عظماء الناس . وهذه باريس بعد انكسار نابليون تعوم فى أساها . غير أن النجوم الجديدة تلمع فى سمائها بالرجاء . هؤلاء هم .. دى ميسيه ، برليوز ، هيجو ، وبودلير ، وبلزاك . طاقه من زهور الفن والفكر . وقد انتظم معهم اخوانهم ومندلسن . عليه اذن ان يشق هيلر ، وليست ، وهاينى ، ومندلسن . عليه اذن ان يشق سبيله وسط مواكب الطموح . واذ كان قد سافر الى فيينا من قبل ، فان الجو والبيئة هنا فى باريس غيرهما هناك . ان باريس لاتلتفت لغير المتأنقين . وشوبان تكمل فى نفسه معانى النضوج .

ذهب شوبان الى كالك برنر ديكنور البيانو فى ذلك الحين لعله يتزود منه بنصيحة . ولكن كالك أجابه فى حذلقة المغرور : يجب أن تتتلمذ على يدى ثلاثة أعوام . وعندئذ استطيع أن أصنع منك موسيقارا . فابتسم الشاب ابتسامة ازدراء . وأيقن ان ليس هناك شئ يتعلمه . وان الله وحده هو الذى يصنع الموسيقيين .

جلس شوبان الى البيانو فى احدى الحفلات . وكان بين الحضور الموسيقار الشهير « ليست » . وعزف شوبان فأحس « ليست » أن لغة السماء تتسرب من بين أصابع الفنان الشاب . وساد جو الحفلة وجوم واستغراب . لقد اذهل شوبان الموجودين وحملهم بموسيقاه الى عوالم خفية مسحورة . وما ان انتهى العزف حتى غمرت القاعه موجة من التصفيق الشديد وصافح « ليست » شوبان مهنئا وكان أول المصفقين ، ومنذ ذلك الحين أصبحا صديقين . بدأ المجتمع الباريسى يتطلع الى



ذلك الفنان الشاحب . وأخذ شوبان يقيم الحفلات ويعطى الدروس . وأتيح له دخله أن يقبع فى منزل فاخر كان يجمله بزهر البنفسج الحزينة المحببة اليه .

وارتبط بصداقة شديدة مع عدد وفير من النساء . كانت كل منهن تغمره بالحب والاشفاق الحب لطهارة نفسه وتقديره ، والاشفاق على صحته وشحوب لونه ، واقتراب المنية من ذلك الفنان النحيل . ولكن حبه لهن كان من حبه للفن بريئا من الشهوات

عكف شوبان على نفسه فى العمل . يواصل الليل بالنهار ويصب شبابه ويصيح فى مرارة الذى عقبت قرع الطبول أسبب بلدى فى موسيقاى وموسكو تحكم العالم ! ومن هم الروس اذا كانوا يسيطرون على الارض فنحن نسيطر على السماء ! وشتان بين المدافع والقيثارات

كانت موسيقاه فى الحب ترجمة عن أحزانه . وكانت رثاء لذويه ، وقلبه ، ونفسه ، مع كل يوم يمضى .. وقد أحس فى تلك الفترة أنه فى حاجة ملحة الى الحب .. الى الحب يغذى به صدره الذى أوشك على الانطفاء . ودارت عجلة الزمن ، وها هو عام ١٨٣٦ يتعرف على الوجود ، ويخصم فى مطلع أيامه ... قصة حب جورج صاند الكاتبة المعروفة والفريد دى موسيه الشاعر الرومانتيكى الشهير . ولكن القضاء أراد أن يفتح الباب المغلق ! فساق شوبان الى التعلق بهذه المرأة فى فترة يائسة عاصفة من حياته .

وما الحب ؟ انه ترابط النفس وتجاوب الروح مع الحبيب . وهو تكميل الذات بما ينقصها من الاشياء . وشوبان ضعيف الجسم رقيق العاطفة وفى نفسه صفاء الغيوم . وجورج صاند

فارهة العود متوحشة الاحساس تطحن في نزواتها قلوب الفنانين . وأحس شوبان ان الحياة الدافقة تطل على آلامه الباردة الفنية من عينيها الواسعتين الصريحتين . وتمضى تهمس في اذنه :

« شوبان » انني اعبـدك ! وكانت تقول عن احد عشاقها السابقين قولا يترجم نفسية المرأة ويفضحها . تقول : « لو أنه فهمني لاستطاع ان يحبني . واذا أحبني لكان في وسعه ان يخضعني . واذا كنت قد خضعت لرجل لشعرت بالامن في حماه ، لان حريتي تبتلعني ! » وهذه هي المرأة .

انتقل جورج صاند ومعها طفلاها الشرعيان الى معزل شوبان وأقسمت أن تكرس حياتها له الى الابد . ولكن قسمها كان أمام الجدران الصماء التي لا تعي . وفي شتاء عام ١٨٣٩ رحل العاشقان الى جزيرة « ماجوركا » يلتمسان فيها الهدوء والبحر والسماء . وفي شهر [illegible] : تناوب فيه الاطباء فحص شوبان الذي وقع فريسة المرض ، او فريسة المرأة ! وقد تمكن من هذه [illegible] في احد خطاباته فقال : « [illegible] التي ستموت . وقال [illegible] انني قد [illegible] . [illegible] العاشقان الى [illegible] في دير . وكان يبدو مثل اطلال شيدت على الطراز القوطي . له ممرات مجوفة حجرية . حجراته صامتة رهيبة . يطل على مقابر يغطيها شجر السرو .

واخذت قواه تتدهور بسرعة مخيفة . غير أن وميض عبقريته كان باهرا رائعا جعله يتماسك كي ينسج آخر أضواء الابداع . فكان لا يفارق البيانو الا حين يسقط من شدة الاعياء . قالت

جورج صاند : « هبت الرياح وانهمر الثلج والمطر . واندفع الرهبان فى نشوة الروح يصلون للابدية . وشوبان مدفون فى موسيقاه لا يحس شيئا من حوله .. »

كان اذا جلس الى البيانو يخوض حربا صريحة هوجاء ضد كل موسيقى الماضى ، تخلص من سوناتا البيانو التقليدية بما فيها من التراكيب المألوفة . واذا كان بيتهوفن ازدرى البيانو، وموزارت قد عالجه باهمال ، فان شوبان جعل له أهمية فريدة عظيمة . كان يحول تلك الآلة الى حياة رائعة حزينة مثله ، ومثل وطنه الجريح ، ويستعيد قول أصدقائه : « اكتب الفالسات والرقصات للفلاحين البولنديين . صف بألحانك موكب البلاط البولندى . وانشد رثاء العظمة الضائعة فى أيام النصر ، فانت ابن بولندا وقد أذابتها الشدائد » وكان يقول : « من الذى يستطيع أن يضع موسيقى قوية وقلبه مثلى حزين ضعيف ؟ »

أجل فانه أخذ يتساقط يوما بعد يوم مثل شجرة الخريف . وكانت تخاطبه جورج صاند بقولها « ياجثتى العزيزة » وكانت الحجرة التى يعمل فيها حقا مثل التابوت . ولم يكن يشعر بالحياة على سرير العرس ، بل بين جنبات ذلك التابوت !

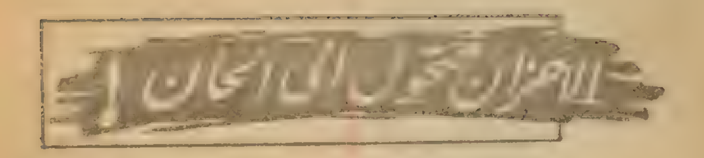
عاد العاشقان الى فرنسا . يمثل شوبان دور الزوج وتمثل جورج صاند دور الزوجة .

واستأجرا منزلا جميلا أسرفا فى تزيينه وتأثيثه على النسق الشرقى . وقد تغير شوبان كثيرا عن ذى قبل . وكان الناظر اليه يحسبه ميتا يسعى فى الكفن ،ويستطيع أن يشم من ثيابه رائحة القبر . قال الناس والنقاد عن موسيقاه انهم يكرهون حزنها وحبها العليل . وما عساه يصنع غير أن يبث فى الحانه شعور المسلول ؟ وفى تلك الاونة تنمرت جورج صاند . مالها وللمارش



الجنائزى؛ ذلك اللحن ذى الخطى منخفضة الدبيب يعرض فيها شوبان موكب الموت !! لقد احست أنها ضاعت فى الهباء ثمانية أعوام مع رجل محكوم عليه بالفناء . ليله سعال ، ونهاره عمل . استيقظت فى نفسها الحاجة الجامحة الى حب حسى مدمر عنيف . واشتد بها جنون المرأة للرجل . فتركت الفنان السقيم . وقد اسلمته الى حافة القبر . لم يعش بعدها غير سنتين . وقابلها مرة واحدة قبل موته . فضغطت على يده وكانت كالثلج . فانتفض شوبان وسحب يده بسرعة . وهرب من وجهها متمتما لم أعد أومن بالدموع بعد ما رأيتها تبكى .!

وفى نهاية المأساة حضرت احدى أخواته لتسهر على صحته . وأرسلت اليه سيدة معجبة فاضلة مبلغا كبيرا من المال يستعين به . وقبل أن يموت بيومين طلب أن ينشدوا له لحنا من ألحانه . وكان يقول فى آخر لحظاته : « اعزفوا لى حين أذهب بعض الموسيقى ، فان روحى سوف تثمل بها وهى فى العالم الاخر »



اغمريني ، اغمريني بهذه الامواج ، فان الموسيقى بحر ساكن الموج ثائره ، ونحن ، أنت وأنا ، نحب أن نغرق فيه بروحينا ، لان في ذلك تطهيرا لنا أي تطهير .

اغمريني ، اغمريني بهذه الامواج ، فان روحي تحب أن تفهق بين تلاطم الالحان فهقات الالم ، أن تنشق عبير الراحة ، أن تسمو وتهبط ، أن تشرق وتغرب ، أن تحلق وتغوص ، **أن تجوب رحبات الغموض ، أن ترود قيعان المجهول** ، وهي مبهورة بالالم ، نشوى بالمسرة ، ماخوذة بالاسرار .

اغمريني ، اغمريني بهذه الامواج ، فانها تذيب عن روحي طبقات التراب ، وتجلوها رائقة كالماس ، وانا تراب وماس ، جوهري يحن الى الانسياح ، وترابي منجذب الى الارض ، حائر .. ضائع ! يريحني أن أسمع ، ان أتوهج بين الظلمات

اغمريني ، اغمريني بهذه الامواج ، فان الموسيقى وحدها ، هي القادرة على [illegible] براعم الرغبات الخفية التي تنبت في داخلي ، واعطاء بعض الحلول [illegible] مسائلي . أقنع مسكنني [illegible] انسان ، وتسكبني انني أعيش [illegible] .

[illegible] . فهذه صورة لاحتراق قلب على جمرات الالم .

أيها الغرور العقلى ، لاتحاول أن تفسر شيئا ، فانت اكذوبة ، ودعنى تتقاذفنى أمواج «شوبرت» الحزينة «صافية الشجن » فانا أحب أن أستشهد غريق هذه الامواج !

مسكين « شوبرت » الفنان العبقرى ، وشقى الزمن والحياة .!

لقد شهد الفنان فى نومه . ذات ليلة ، حلما غريبا ، انفرق منه شتيت النفس فى الهلع ، تتساقط على روحه قطرات الرهبة المجهولة ، وتداعب أوتار قلبه انامل غير منظورة

لقد شهد الفنان فى حلمه أن أباه طرده من البيت ودفعه شاردا حائرا الى الضياع .!

ولم يكن يعلم « شوبرت » أن ذلك الحلم الغريب . هو رمز مظلم لما ستنتهى اليه أيامه من الدمار ، ولكنه باحساسه كان يحس ذلك الرمز ، ويبطن قلبه بالخوف

ومنذ وقوع ذلك الحلم الغريب . جعل « شوبرت » يجوب آفاق الحياة ، تجذبه القوى السحارة غير المنظورة ، وتقوده الى المسير ، ولكن .. أى مسير . !

كان ينضد من الحان الهوى ، مواجع الحرمان ، وحيدا .. وحيدا ، الا من أساه .

ويالهول أساك « ياشوبرت »

الناس أنكروه ، وجحدوا عظمته . !

لم يختلج على نغامه قلب ، وأنغامه بعد موته ، تهتز لها الاحجار . !

الكون الرحيب ، ذلك الكل المترابط ، الواصل بين أدق أجزائه خيط دقيق لاتراه سوى بصائر الصوفيين ، ذلك الكل العظيم ، كان فيه « شوبرت » جزءا يحبه ، ويحس أواصره

الخفية ، ويستجلى حقيقته ، فيصيح - أنا أحب الناس . .
أحب الشجر . . أحب الماء . . أحب كل شيء . . ان قلبي يفيض بالمحبة ، فلماذا ينكرني الناس ؟ ولا يجيب على صيحة « شوبرت » الصاعدة من أعماقه ، غير صدى تلك الصيحة ، فالليل واجم ، والوحدة جاثمة ، وبنو الارض على الارض موزعون مشغولون

اذن ، فليس غير الموسيقى بوتقة يصهر فيها الفنان ما يمتلىء به وجدانه ، وما تحبل به رؤاه

واذن ، فليعكف الفنان على افراغ اشجانه فى تلك القوالب الباهرة من الانغام ، ولا يهم الفنان ، ان أصغى اليه الناس ، أم انصرفوا عن الاصغاء

الحب . . .

هل دخل الحب الى قلبك ، وانسل فى كل طواياك سره ، وامتزج بكل لفائفك ، حتى صرت تتنفس اشواقه ، وتعانى مواجعه ، وتصبح فى اساره مملوكا ، لا قدرة لك على الافلات من قيده الحبيب ، وسطوته التى تتحكم فى كل جزء منك ؟

ان « شوبرت » وقع فى ذلك الاسار ، واستعبدت قلبه يد الغرام ، فكانت تعتصره اعتصارا . . !

اليأس . . .

هل فجعك قاهر الظلم فى هواك ، فحرمك من جمال الجمال ، وأقصاك عن راحة الوصال ، وأهرق أيامك ضحايا على مذبح الحرمان ، فلون اليأس حبك بمائه الاسود ، وغلف الهيام فى نفسك بأردية الموت ؟!

ان « شوبرت » عاش فى قبضة اليأس هالك الرجاء ، فغنى بين



ظلمات أيامه اغانى الحب اليائس المحروم ، وارسلها من قلبه مثل السهام تكاد تثقب جدران السماء

وتحت ظلمات الحياة ، يسقط الفنان الشاب الذى ينكره الناس أجمعين ، صريع المرض وهو فى عنفوان الشباب

لقد انهار الفنان فى السادسة والعشرين . فحملوه الى المستشفى يلتمسون له الشفاء بين عقول الاطباء .

ولم يكن انهيار صحته غير فجوة اندفقت منها عبقريته الدفاقة . وسالت على الورق سيولا ، الحانا الحانا .

وعجز الاطباء . لان كلمة الله تسمو فوق عقولهم الكليلة وكان الله قد كتب للفنان أن يمرض ليمنح الدنيا وهو فى جحيم بلائه أزاهير عابقة من فنون النغم .

الثمن باهظ باهظ ، ولكن الفنان يدفعه من هنائه ، يدفعه من شبابه . يدفعه من راحته دون التماس الاجر . لانه مرسل والمرسلون لايملكون من أمورهم شيئا .

ويغادر « شوبرت » المستشفى ميئوسا منه ، تتراكم فى نفسه أحزان الدنيا بأسرها ، فهو يائس الغرام ، مطحون القوى ، عليل البدن ، طريد الحياة . يتآمر كل شيء على اشعاره بأنه ضائع شرف ومضه على الغروب .

وسدى ينشد المسكين النسيان . فلا الخمر تجدى ، ولا الفرار من الناس ، ولا محاولة الهروب من هواجسه . !

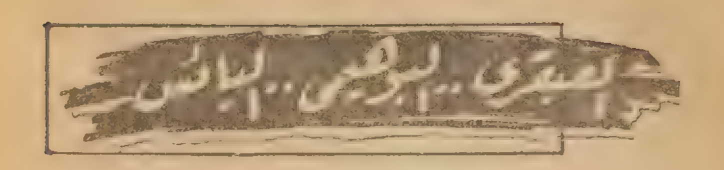
وعندئذ ، تختمر تلك الاحاسيس فى قلبه فيصبها نسقا خالدا من الانغام ، وتخرج « السيمفونية التى لم تنته » تخرج من ذاته حروفا موسيقية لايسمعها غير روحه ولا تحييها نفس غير نفسه بتهاليل الابداع

ويخاطب شوبرت ذاته بقوله – ان هذه السيمفونية صورة نفسك ، صورة رجل لارجاء له في استعادة صحته ، وقد ذهبت آماله جميعا الى الابد

• • • • ويموت [illegible] عن [illegible] ، لينكشف عبقريته بعد موته [illegible]

اغمريني ؛ اغمريني بهذه الامواج ، فان السيمفونية التي لم تنته تسحرني ؛ بل تحولني الى شجن من أشجان ذلك العبقري العظيم

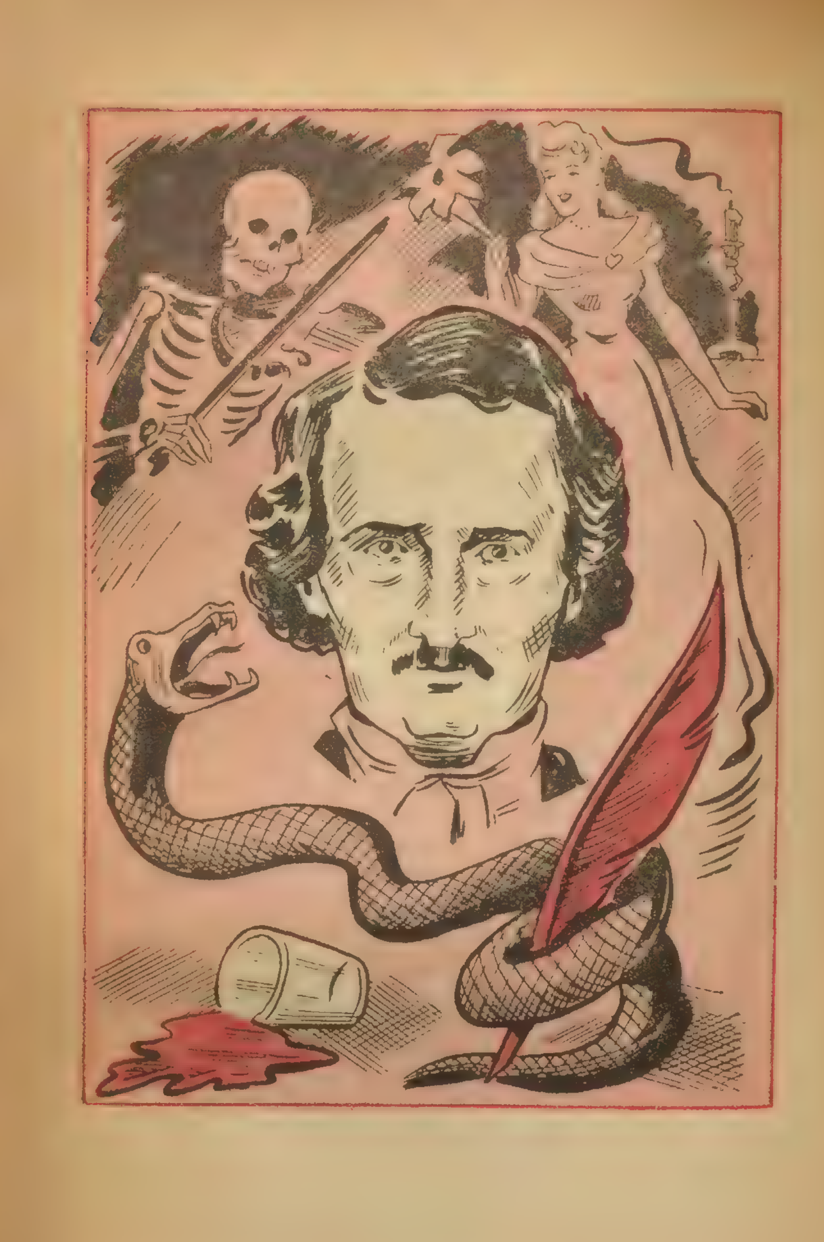
اغمريني . اغمريني بهذه الامواج ؛ فان روحي تحب ان تفهق بين تلاطم الالحان فهقات الالم . أن تسمو وتهبط . أن تشرق وتغرب ؛ أن تحلق وتغوص ؛ أن تجوب رحبات الغموض ، وهي مبهورة بالألم . مأخوذه بالاسرار .



كان أبواه يشتغلان بالتمثيل فى الفرق المتجولة ، وتركاه على عتبات الحياة طفلا صغيرا كسير القلب ، اعزل من كل سلاح . لم يورثاه غير الوحشة واليتم والفقر . ولكن عناية السماء منحته ثروة تنبع من افئدة الناس . وانها ثروة لاتغيض . فقد كان منظر الطفل المسكين يثير عليه الاشفاق والحسرة والالتياع . كانت طفولته الجميلة الحزينة تهز حتى القلوب المتجمدة التى لاتخفق الا على رنين الذهب ، فاحتضن ادجار وتبناه احد الموسرين الارستقراطيين من عائلة ألان الشهيرة فى فرجينيا . وترعرع الطفل فى القصر الباذخ العامر ، ولكن نفسه ظلت مثل الطلل المهجور ، لاتؤمها الراحة ، ولايسكنها الاطمئنان . نعم ... ان مستر ألان اغدق عطفه عليه ، ولكنه لم يستطع ان يصوغ عقليته على غراره . لم يستطع ان يخلق من ادجار ارستقراطيا كالقرد ، منطفىء الروح ، وضاء الثياب !

لم يستطع ان يقتحم نفسه ويطرد منها الهلع والحيرة والاضطراب ، ولم يكن يدور بخلد الرجل ان وراء هذا الوجوم وهذه الحساسية الشديدة عبقرية تجاهد للظهور

ارسل ادجار الى مدرسة انجليزية داخلية ، وعاد الى امريكا مهدم النفس انيق المظهر ! وقد تعلم اهم مايتقنه الانجليز ابناء الطبقة الراقية . تعلم التهور فى المقامرة والشراب . وجعله يسرف فى هاتين الرذيلتين ضعف ارادته الذى لازمه طول الحياة . لم يكن يعرف غير الانطلاق حتى لو قاده الى التلف والهلاك . ولذلك



تضخمت فى نظر المجتمع رذيلته وكان ينفض ماينفسه على لسانه،
ومن هنا قيل انه سليط . كان لايقوى على ضبط اعصابه امام
طوارىء النفس والحياة . وهل يملك المرجل الا يغلى والنار تحته
من نسلة الحريق ؟!

هذه كانت هى جرثومة [illegible] كما [illegible] . وهى التى [illegible]
[illegible] . وهى التى زرعت فى نفسه [illegible]
وحرمت ابويه [illegible] .

لم يكد ادجار بو يلتحق بجامعة فرجينيا حتى اخذ يستدين
ويسرف [illegible] القمار ! ورفض مستر آلان الدين [illegible] الذى [illegible]
ان يدفعه عن ربيبه الشاعر فانفجر غضبه كالبركان . وخرج بو من
الجامعة ليبدأ صفحة جديدة من حياته فى ديوان المحاسبة .

يا لهزء الاقدار !! ماهذه المكاتب المرصوصة كالقبور ؟ ومن هؤلاء
الجالسون كالالات يشتغلون بالارقام ؟!..

لقد شعر بو وهو معه بثقل الطين يجذبه الى الارض فى حين
ان نفسه وهبته الجناحين كى يحلق فى السماء !.. ولم يجد بو عملا
يغذى به حماسته ويرزق نفقته فانخرط فى الجيش . وظل هناك
عامين كاملين حتى رقى الى رتبة سيرجنت ميجر . وحينئذ
عاوده الحنين الى الفرار من القيد والقانون . وكأنى به يقول : نحن
الذين صنعنا القيود ونحن الذين نحطم القيود !..

حار الوالد المزيف فى طيش ربيبه البوهيمى . وأحس خيبة
امله فى ذلك الولد [illegible] . كم تمنى مستر آلان ان يرى ادجار
تربة صالحة [illegible] لان يصير وريثه . ولكن ادجار [illegible]
الرجل من [illegible] . وبالرغم من ذلك .
[illegible] مستر آلان امر بو بعد هروبه من الجيش . وقرر ان
يفسح له الفرصة الاخيرة لعله ان يصلح ما افسد . والتحق بو
بالاكاديمية الحربية . ولكن هيهات ان يخضع الثائر للنظام ! وان
يجنح الطليق الى التكبيل ! لقد اذهل الطلبة حرصه الشديد على
الابتعاد عنهم . وكيف يعلمون انه يقيم فى وحدته عالما غنيا بالمخلوقات،

عالم الطيوف والصور والاحلام؟! واخيرا وقعت الكارثة وطرد الشاعر من الاكاديمية شر طردة. وعند ذلك نفض مستر الان يديه من امر بو . وأفلت الشاعر من الارستقراطية التى طالما اقتضاه تكلفها جهدا شاقا كبيرا . وراح بو ينسج من مشاعره واخيلته المحمومة شعرا لم تسمع مثيله امريكا من قبل . واخذ يزف الى الصحف قصائده الفريدة الغريبة عروسا بعد عروس . وظن الناس ان فن بو معقد لاقيمة له . والواقع انهم عجزوا عن استيعاب القوالب المستحدثة التى ابتدعها فى طريقته الغنية الفريدة ، عجزوا عن الاستمتاع بذلك الصدى او حتى لموسيقاه الجديدة . ونشر اول عمل شعرى فى كتيب اجمعت الصحف على استحسانه . ولكن عبقرية بو كانت تضيق بهاقوافى الشعر وانغامه ، فتطلع الى الرواية . وكأن صوت القدر كان يهمس فى اذنه : ان شهرتك ستأتى عن هذا الطريق !..

وصدقت النبوءة . وفاز ادجار بالجائزة الاولى فى مسابقة قصصية ورغب اصحاب الصحف فى بلتيمور ان يتناولوا الغداء مع الرجل الذى نال اولى الجوائز ، ولكن "بو" لم يذهب ، ارسل اليهم معتذرا فى صراحة عجيبة بانه يأسف لعدم استطاعته تلبية دعوتهم . وسبب ذلك امر طبيعى متواضع هو انه ليس لديه ملابس لائقة يحضر بها الى الحفلة ! .. كان بو يجتاز فى هذه الفترة ضيقا ماليا شديدا . وسمع ذات يوم ان مستر الان على فراش المرض فهرول اليه ، وكأنه يحمل فى عنقه جمائل المريض بعدد السنين التى انفقها فى كنفه ورعايته ، واقتحم غرفته واخذ يتمسح بجواره كمن يطلب المغفرة عن ذنب عظيم .. ولكن الرجل استجمع قواه وهب من رقدته وامر الخدم بطرد ادجار من البيت . وظل بو يعقد الرجاء على الوصية التى تركها مستر الان بعد موته . وكم كانت صدمته عنيفة حين وجد ان الراحل لم يترك له دولارا واحدا .

واخذ سكان بلتيمور يشيعون حول ادجار الشائعات وتوالت

سخريتهم به وتهكمهم عليه . ولكن بعضهم اتفق على مساعدته، وتمكن بو بعد ذلك من العمل لقاء عشرة دولارات اسبوعية فى صحيفة « الرسالة الادبية الجنوبية » فى ريتشموند بفرجينيا ، وأحس ان حياته استقرت الى الابد فأعلن زواجه من فرجينيا كليم . وكانت تبلغ الثالثة عشرة فى ذلك الحين . وتزوجها بالرغم من محاولات اهلها تأجيل الزواج حتى تكبر الفتاة . كانت فرجينيا بنت عمته صبية ناعمة رقيقة ، يكاد يطفر قلبها بالحب والامل والسذاجة. احبها ادجار كما لم يحب احدا ... ولكن الغيب كان يضمر للفنان المسكين ويلات واهوالا ، وقد جاء فصل بو من عمله نذيرا لما تبعه من الكوارث . وكان الدافع الى الاستغناء عن خدماته كما قال مستر هوايت هو اسرافه فى الشراب وسلاطة لسانه فى الزراية بكل من يصطدم به

حزم ادجار امتعته الى فيلادلفيا لعله يجد حظا اسعد وعملا احسن ونسى انه يقابل سوء حظه وظلم ايامه اينما ذهب. نسى انه يحمل فى نفسه العناصر التى تدمر حياته . الانفعال السريع الطائش، وضعف العزيمة ، وعدم القدرة على ايجاد الاصدقاء. ولم يحاول ان يصلح نقائصه ، حتى يشق طريقه ثابت الاقدام . وقد نشر فى تلك الآونة مجموعة من القصص حمل عليها الكتاب الموتورون الذين طالما آلمهم نقده اللاذع لاعمالهم . واسودت الدنيا فى عين ادجار . وتوالت عليه بعد ذلك الخطابات التى تحمل اليه اسف اصحاب الجرائد لعدم استطاعتهم التعاون معه . كانوا يشترطون عليه ان يكف عن الشراب ، ويظهرون استعدادهم للارتباط به اذا هو انقطع عن الخمر . وتتابعت الضربات اشد ايلاما . واى المواجع أفدح من سقوط فرجينيا زوجته وحبيبته وقد انفجر لها شريان ؟! وعاش ادجار ست سنوات كاملة يكابد مرضها

كأنما هو المصاب بالمرض . وكانت تفترسه لحظات عنيفة من الرعب والجمود واليأس والامل .

ولم يكن يجد غير الخمر منفذا من هذه التيارات النفسية الحادة ! وكان يعلم أن فرجينيا تذوب بين يديه ، فتذوب نفسه بين جنبيه .. وفقد عمله مرة اخرى فى مجلة جراهام واضطر بو المتغطرس ان ينزل عن كبريائه فكتب الى احد أصدقائه : عزيزى جريس وولد . ألا تستطيع أن ترسل لى خمسة دولارات ؟! أنا مريض . وفرجينيا على وشك الموت

وغادر فيلادلفيا بعد ذلك الى نيويورك ومعه زوجه العليلة . ولم يلبثا الا قليلا حتى داهمهما الشتاء يحمل فى ثلوجه الزهرة الذاوية الحمى والعرق والسعال .. ورقدت فرجينيا على سرير متواضع تلتف بمعطف ادجار رجاء أن يجلب اليها الدفء والصحة ، وكان بو يدلك يديها لعلمه أن ذلك يساعد الدورة الدموية على الاستمرار . وكان المسكين وقد اصطرعت فى خياله صورة الموت . يضرع الى الله أن يمد فى حياتها البائسة لحظات يمعن فيها النظر الى شحوب خديها وكانا وردتين !

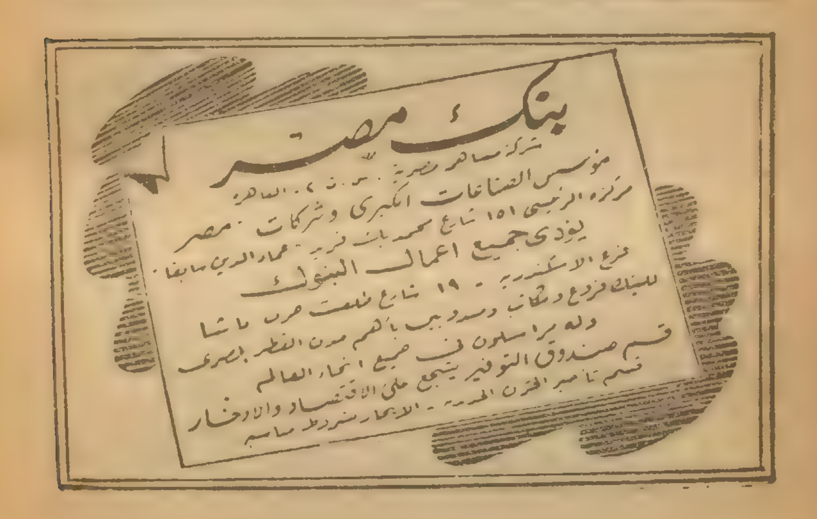
والتوى عنقها الابيض نحو كتفيها الى الابد . وحمل ادجار جثتها ودفنها وهى فى معطفه الاسود الذى كان يتحايل به على تدفئتها منذ ساعات ...

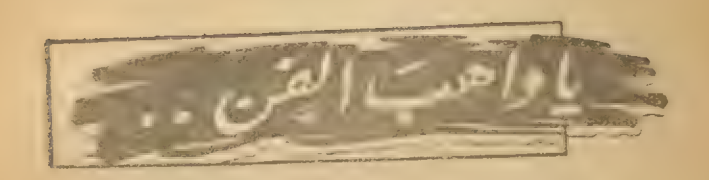
انزوى ادجار بعد وفاة زوجته فى كوخ بسيط بأوردهام . وكانت شهرته قد نمت ، فانتزع نفسه من أنياب المرض والحزن والوحدة يلقى المحاضرات فى مختلف الانديه .. وواصل رحلته الى انجلترا ، والتقى فى احدى محاضراته بمسز ويتمان التى أعجبت به . واتفقا على الزواج . ولكن المرأة نفرت منه ؛ لانه كثيرا ما كان يوجد على أرصفة الشوارع فاقد الوعى من فعل الخمر ملطخ الثياب بالوحل

وفى عام ١٨٤٩ ، ترك فوردهام الى ريتشموند كى يشرع فى العمل الذى طالما تمناه . كان يحلم باصدار مجلة حرة يتولى تحريرها ولكنه ماكاد يصل الى ريتشموند حتى تبخرت حماسته واندثرت

آماله . وبدات الكوارث التى حلت به تبدو آثارها على وجهه وتهدم جسمه النحيل . ولم يجد مفرا من أحزانه غير الانطواء على اوهامه وتخيلاته الرهيبــة ! وخلقت له رؤاه الدامية وشعوره بالاضطهاد حالة من الهستيريا . فكان يتوهم ان هنالك مؤامرة تدبر لاغتيال حيــاته . وقـد طلب من احـد اصدقائه موسى يحلق به شاربه كى يغـير سحنته تضليلا للذين يقتفون اثره !! ولم تهدأ مخاوف أصدقائه على سلامة عقله الا حين جدد بو علاقته بزميلة قديمة . كانت ارملة ثرية اتفق معها على الزواج . ورحـل الى الجنـوب ليعقد قرانه . ولكنه وجد نفسه فى بلتيمور ففقد الرشد . وقيل انه سقط وهو سكران فى ايدى عصابة من منتخبين الاشرار ، كانــوا يطوفون به عـلى الدوائر الانتخابية كى يعطى فى كل دائرة صوته باسم مستعار . وحمـل بعـد ذلك الى المستشفى مغشيا عليه وقد فتح له هذه المرة باب القبر ! وكانت آخرة تمتمة تنهد بها المحتضر . هى قوله :

يا الهى !! هل كان ما نراه أو كل ما يبدو غير أحلام . . فى طيها احلام !!؟





دعــاء ..

يا للحروف .. ويا للألفاظ والكلمات التى تخطها يدى ، فيستقبلها القارئ ليسبح فيما وراءها من المشاعر والأفكار .. !

ليت حروفى كانت أنغاماً . وليت كلماتى كانت ألحاناً ، تنقل الى قلوب الناس ، ما يسرب بين جوانحى ، وما يفلت من قلمى ، من ألوان الأحاسيس . تنقله أصواتاً على أوتار الموسيقى ، لا حروفاً خرساء على الورق الأصم الذى لا يتنفس . ولا ينبض . ولا يتنهد .. !

ليت قلمى كان قيثاراً تتصاعد من قلبه تأوهات قلبى . وتصرخ على أوتاره هواجس روحى . وتصدح من قوسه أفراح ذاتى .!

ليت قلمى كان قيثاراً تئن فى جوفه أحزان الليل ، وتنطلق منه زغريد الضياء .. !

ما أتفه اللغة وسيلة للتعبير . وما أضيق الكلمات عن أن تتسع لخفى الشعور .. !

ليتنى يا واهب الفن . كنت موسيقياً . ينقل مقاطع الأنين ، أو أناشيد البهجة . ويرسم بالصوت ، كل صورة من صور الحياة والطبيعة . ويترجم بالألحان كل نبرة خفية من نبرات الوجود .. !

انك يارب قد منحتنى هـذا القلم ، فعذبت فى سبيل الوفاء له السـنين ، وكان عـزائى ان تمتلىء نفسى كـرامة وعـزة ، وهو بين أنامل يصر فوق الورق صريرا محبوبا .!

ولكننى يارب ، ما اصغيت مرة الى روائع الموسـيقى ، الا شعرت بأن قلمى المزهو أصبح عاجزا ضئيلا . وبأن للكاتب لسانا واحدا . وللموسيقى الف لسان . وبأننى اصغر وانكمش حتى اتوارى ، ليحتل مكانى جلال النغم . وليشغل ماكان يملؤه وجودى . جمال الموسيقى .!

اللهم لك الحمد ياواهب الفن، فانك قـد جعلت روحى تتزود من عطاياك الالهية ، فأرسلت الى هذه الدنيا عبقريا أذهل الوجود بموسيقاه .. وراح .. ولكن روائعه الخالدة ، ظلت لى ولابناء الحياة جميعا ، منهلا روحيـا صافيا ، ترتاده القلوب ، وتجد لديه الارواح مبتغاها من الجمال، جمال الالم ، وجمال الحنـان ، وجمال المحبة .!

هـذا العبقـرى هـو « تشايكوفسكى » الذى ينتصر حبى لفنه على كل حب ، والذى اصف موسيقاه بأنها الهدايا التى تزفهـا السماء الى الارض فى مواكب من السحر والجلال .!

ان لتشايكوفسـكى تأثيرا بالغا على حياتى الفنية ، لان آفاقه الرفيعة تستحث أجنحتى دائما الى التحليق . ولان موسيقاه الصريحة الجميلة ، تهيىء لنفسى جوا غنيا . تنهمر منه خواطرى وتتساوق فيه افكارى .

واننى لاجد نفسى - كلمـا افتقدتها - بين الحان ذلك العظيم ، أجد آمالها ، واحزانها، ومخاوفها ومحبتها المعذبة ، أجدها جميعا أصواتا متآلفة ، تبعث الرعب فى قلبى تارة ، وتشيع الطمأنينـة تارة اخرى .

وحسبى ، كلما غام شعورى فى قلبى ، أن اتذكـر لحنـا

لذلك العبقرى . فارى انغـامه تمشى فى رأسى نغما نغمـا ، متصاعدة من داخلى . مرتفعـة فى أذنى ، واضحة كما لو كانت تعزفها امامى جوقة موسـيقية كاملة ، أو كما لو كانت تذيعهـا اسطوانة دائرة ؛ فيلقى شعورى انغائم المبهم — فى اللحن الـذى اتذكره فأسمعه جليا — ترجمة له ومتنفسا ، واحس عنـدئذ الراحة تفيض فى ارجاء نفسى .!

« الخميسى »

افتتاحيه روميو وجوليت

كثيرا ما سألت نفسى :

لمـاذا يبلغ حبى لموسـيقى تشايكوفسكى حـد الهـوس ، فأدمن الاصغاء اليها واستلهامها ، واطوف باصدقائى ادعوهم الواحد بعد الاخر ، الى التزود مـن جمالها . كما يطوف بالنـاس صاحب رسالة أوحتها السماء ، ويدعوهم الى استنباط معـانى الحسن والخير من رسالته .!

ولمـاذا تحولنى موسـيقى تشايكوفسكى الى أى شيء تريد ، الى شجن مرير . أو الى عاصفة مريدة . أو الى رقصة طائرة .؟

وكانت عنـدئذ تتوافد على ذهنى أجوبة عديدة متلاحقة ، أهمها ان اسلوب تشايكوفسكى فى صياغة الحانه . سهل . واضح الخطـوط . لا يعتريه أقـل التعقيد ، وانما يفيض من وراء الالهـام ، صريحا ، منسابا ، صافيـا ؛ مثلمـا تفيض الجداول فى احضان الطبيعـة رقراقة حينا ، مزمجرة حينا اخر ، كما شاء لها الله أن تكون

وهكذا أجد حماسى لفن هذا العبقرى ، لا يزاحمه شيء فى قلبى ولا ينتصر عليه حماس فى روحى لانه يتوقد بين جوانحى بالدعوة الى جمال الفن .

وافتتاحية روميو وجـوليت عمل من الاعمال التى تعيش فى نفسى ، كاملة الانغام ، بالغـة التأثير .

قيل ان موت شكسبير ، هو الذى أوحى الى تشايكوفسكى ، القيام بهذا العمل الخالد ،ولكننى أرى ان المشاعر التى صبها تشايكوفسكى فى هذه المقطوعة، قد وهبتها فجيعته الشخصيه فى غرامه ، وقد أثارها فشله الغنى بالاحاسيس .. !

وضع تشايكوفسكى هذه الافتتاحية ، عام ١٨٦٩ بعد أن خيم على قلبه ضباب الذكريات الحزينه ، ذكريات الحب الذى أغدقه صادقا ، لتلك المغنية الفرنسية الجميلة .

لقد شجعته هى على أن يتعلق بها ، ثم هجرته ، وتركت له قصة هواهما ، تدمى بين جوانحه وتقطر بالاسى فى روحه طول الحياة

عندئذ ، أوحدته المأساة . فجسدها فى هذه الافتتاحية ،من بداية نصوع الغرام ، الى نهاية احتراق المحبين

ألا فليسكب فى أساليب النغم كل ما يهدد نفسه بالخراب .

ألا فلتحفل هذه الافتتاحية ، بالعرض الدراماتيكى الكامل ، الذى تتساوق اجزاؤه مرة ، وتتناقض أخرى ، لتصور جهاد الروح فى سبيل الانتصار !

اننى حين أصغى الى القسم الثانى من هذه الافتتاحيه ،وأجد الانغام تقوى وتشتد ، ويعقبها هدوء المرهق المضنى . ثم تنفجر منقدة صارخه كأن كتلا من الانغام تتهاوى ، لا أملك غير مقاومة نفسى ، مخافة أن أسقط على الارض !

ومن هنا، يدرب العباقرة بأعمالهم الفنية ، قلوب الناس على استشعار كل شىء وعلى الامتلاء بكل حالات الوجدان

ومن هنا يؤثر جمال الفن وصدقه ، فى توسيع مشاعر الاحياء ، وفى ارهاف أحاسيسهم، ومن ثم تلون حضارة الفن جميع حضارات الحياة ، فلا يستطيع أحد أن ينكر ان موسيقى فاجنر التى كان يستلهمها نيتشه ، قد مهدت الطريق فى قلوب الالمان ،

لبعث الاتجاه النازى ، والتحمس له ، تعـاونها فى ذلك أغانى نبتشــه ، وفلسفته التى تحلم بالانسان الاعلى

باثيهات تشايكوفسكى

لماذا يشقى الفنان وهو الذى يمنح الناس السعادة ؟

انهـا ضريبة العبقريه التى يدفعها المســكين ، مرغما ، أو طائعا ، ولكنها ضرورية على أية حال ٠٠ !

لقد كان تشايكوفسكى، يحيط نفسه بالعزله الموحشه الأليمه ، ليصنع البـاثيهت التى ترقص العالم بأسره ، وهو يبكى ٠٠ !

وحق له أن يتألم ، لان حياته كانت مزروعة بالخوف ، متسمة بالرهبه ، موهوبة لقسوة العمل .

حقا لقد كان يصنع الجمال . ولكن ذلك ظل يقتضيه الثمن الغالى طول الحياة .

الناس يتهامسون، ويتغامزون وهم يرددون : ان تشايكوفسكى ناقص الرجولة، فيتجنب المسكين ان يلقى الناس . ويتعمـد الا يربطهم به سـبب ، ثم تتكاثر الاشاعات ، فيوشك ان يقتله هذا المعنى الموجع الممض ، ولا يجد قطعا للاقوال والشائعات ، غير ان يتزوج .!

يالها من مجازفة خطيرة .!

ويصر الفنان فى معـاندة مع القدر على ان يتزوج ، فيأخذ فى البحث عن امرأة صالحة .

كانت النساء تهيم به حبا . والدوقات الروسيات تتنافس فى اقامة الحفلات له . والكل يخطب ود ذلك الرجل الشاحب الجميل

وكان هو يفر من النســاء ، ويفلت من مجالسهن .

ولم يكد يعـتزم البحث عن زوجة ، حتى راحت تطارده فتاة جميلة تدعى «انتونينا ميليوكوف» ساذجة القلب ، فتنة الوجه ،

بلغ حبها له حدا ارهقه ، وهددته بان تنتحر اذا لم يقترن بها .!

وعندئذ اخذ يقرع بين جوانبه الخوف ، وتستفيق بين جوانحه مأساته الشخصية ، ويتلبد في قلبه العذاب .!

وراح سدى ينفرها منه ، فيقرر لها انه رجل عصبي ، نصف مجنون ، تتحكم فيه اشياء فوق حياته ، وانه فقير ، غير اجتماعي ، سجين الوحدة الموحشة ، وان ايامه خالية من البهجة ، مليئة بالاوهام الحزينة.

وكانت هي كلما غالى في تنفيرها اشتدت في التعلق به .

واخيرا ، لم يجد خلاصا ، فأقدم على الزواج منقطع النفس ، كاسف الروح ، كأن يد القدر تدفعه الى مقبرة .!

وابتسمت انتونينا الساذجة في حين اخذت تتلوى في قلب الفنان ، العواصف الهوجاء .!

وصارح الفنان زوجته ، بأنها لا ينبغي ان تتوقع من جانبه غير الحب الاخوى .

وفي تلك الفترة ، سقط تشايكوفسكى فريسة الهموم ، حتى لقد حاول الانتحار ذات ليلة ، بأن دفن نفسه تحت اكوام الثلج عدة ساعات .

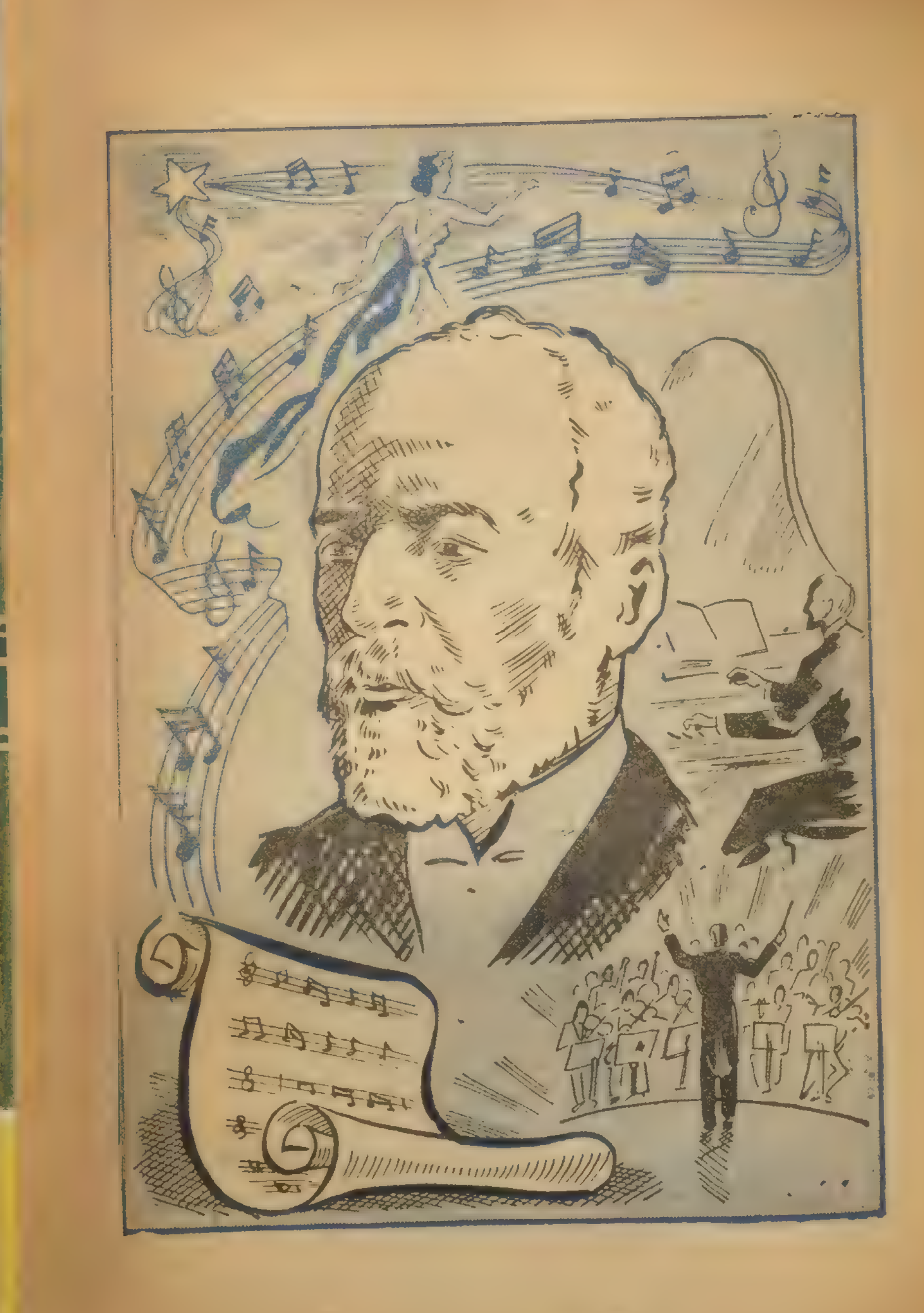
وكانت الناس في تلك الايام ترقص على ايقاع الباليهات الرائعة المسكرة ، التي وضعها الفنان ، ليملأ بها القلوب افراحا ويموت هو فرط الاشجان

ولم يدم هذا الزواج غير المألوف ، وانما انصرم من حياته ، كما ينصرم الطوق من قبضة السجين .!

وعندئذ حاول المسكين ان يلتقط أنفاس الحرية ، وأن يستعيد جمال الانقطاع الاليم ، حيث لا شيء .. الا النغم ، وياله من عزاء .!

السمفونية الرابعة

كان يحمل حياة تشايكوفسكى حلم مجهول ، امرأة ثرية هامت



بموسيقاه ، فكانت تمد اليه يدها بالعون من وراء الستار ، ولم تقتصر مساعدتها على بذل المال ، ولكنها ارتفعت فوق ذلك الى المؤازرة الروحية .

وهذه السيدة هي « ناديزدا فون مك » التي كانت تعبد موسيقى الفنان ، وتقيم لها المحاريب .

ولقد كتبت مدام فون مك الى الفنان بعد ما انفصل عن زوجته :

سيكتب لك الشعراء . وسوف تسعدك الموسيقى مرة ثانية ، و يملأ حبك ، وعندئذ تبدأ عملك في سيمفونيتك الثانية .

... وكانت هذه السيمفونية الرابعة .

وكتب تشايكوفسكي بعد ذلك الى ناديزدا يقول :

عزيزتي الرقيقة

اذا لم تخضعني التقدير ، فانني اعد هذه السيمفونية ، أحسن عمل وضعته حتى الان .

وترسل اليه مدام فون مك مبلغا من المال ، ليتسنى له أن يدفع ثمنا طبع السيمفونية

واخيرا . يعزف هذا العمل الفني في موسكو ، وتشايكوفسكي مقيم في فلورنسا

وتنقضي مدة طويلة ، لاتصله خلالها انباء عن مدى نجاح عمله الاخير ، فتتولاه الهواجس . وتضنيه الالام . ويعجب لهذا الوجوم الذي استقبل به الجمهور الروسي هذه السيمفونية ، ويكتب الى مدام فون مك :

قد انتظرت ان تحوز سيمفونيتي رضاء اصدقائي ، اذا لم تستطع ان تكون ذات تاثير عميق في نفوسهم .

... وكان المعنى الذي اودعه تشايكوفسكي هذه السيمفونية هو لن الانسان اذا لم يجد السرور في نفسه ، وجب ان

يستدير نحو الناس . فيبحث عن الافراح بينهم .

وقد اراد الفنان ان تقول انغامه :

انظر الى الناس .. كم هم سعداء ، لان مشاعرهم بسيطة ساذجة ، تطبع حياتهم بالبساطة والجمال .

ويغتم تشايكوفسكى للصمت المخيف الذى قابل به الجمهور عمله . ويصيح :

لا توجد فى السيمفونية جملة واحدة ، لم يعمق شعورى بها قبل ان اضعها ، وان كل نغم فيها هو صدى صادق لاعمق اجزاء طبيعتى .!

واخيرا ، ارسل الى الفنان ، أحد النقاد يقول :

ان السيمفونيه جميلة صادقة ، ولكن اسلوب الشعر قد طغى على صياغتها . فطال القسم الاول منها ، واسترسل اكثر مما ينبغى .!

استمرت الاتصالات الروحية بين مدام فون مك والفنان ، على نحو غريب شاذ ، فلم تكن « ناديزدا » قد رأت وجه تشايكوفسكى . ولم يجمعها واياه مكان واحد .

وكانت المرأة خيالية ، صادقة فى حبها لفن اعبقرى ، حريصة على ان يظل فى حياتها طيفا عابرا . لا حقيقة ماديه .

تشايكوفسكى

وكان تشايكوفسكى ، **حريصا هو الاخر** ، على الا تتطور هذه العلاقه الروحية ، **فيخسر ذلك التقدير لفنه** ، وتفترسه من جديد أحزان آدم ، تفلت من سيطرته حواء . !

وحدث مرة واحدة ، ان التقى الفنان مصادفة ، بالمراة التى تعبد موسيقاه ، فحملق فى وجهها ثم انحنى ، ولم ينبس بكلمة . وردت المراة التحية بانحناءة خفيفة ، ثم أمرت سائق عربتها بالمسير .

وكتب لها الفنان بعد ذلك يقول :
اعذرينى لاهمالى الغبى . !

الفنان والناس

كان تشايكوفسكى يعتقد ان الفنان يجب ان ينقطع عن الناس ، وان يؤلف حياته الخاصة على النحو الذى يتلاءم مع فنه ، ويخدم رسالته ، ولكن المجتمع ، لم يكن يرحم وحدته ، ولايحترم انعزاله .

واخذت « انتونينا » بعدما انفصل عنها الفنان ، تعمل على مضايقته بكل الوسائل ، فترهقه بمطالبها المادية ، وتكلفه ما لاطاقة له به .

وكان المسكين يغدق ما فى يديه بلا حساب ، وفى سبيل ان يحتفظ بهدوء وحدته

ولكنه - بعدما رفضت انتونينا الطلاق - كان يصرخ من اعماق روحه . !

لقد تعلمت كيف تستطيع المراة ان تحول الرجل الطيب ، الى مجرم شرير . !

وتآمرت على الفنان الالام المبرحة : الارق الدائم ، وارتباكات المعدة ، والصداع ، واضطراب دقات القلب . !

ولكنه كان دائما ، يتحدى الاوجاع ، ويخدع شعوره بالالم المادى ، ليخلص الى فنه العظيم

كتب الى مدام فون مك فى هذه الفترة :

اننى اجد كلماتى عاجزة عن وصف المشاعر التى تعترينى ، عندما تبدأ فكرة جديدة فى اتخاذ شكلها النهائى فى راسى . اننى عندئذ ، انسى كل شىء ، واصبح رجلا مجنونا ، يرتبك كل عرق فى جسده وينتفض ، حتى لا اكاد القى الزمن المساعف لاخراج النموذج الذى يتكامل فى شعورى . فان افكارى تتوافد

مسرعة متلاحقة على راسي ، وكثيرا ما توقظني في هذه الحالة السحرية ، صدمة خارجية ، كرنين الجرس ، او دخول الخدم ، او دقة الساعة التي تذكرني بأن اعمال اليوم العادي ، ينبغي ان تراعى .

ان موسيقاي تنقلني الى عالم مختلف عن العالم الذى نعيش فيه ، فانسي نفسي ، واصبح اداة في يد قوة عليا ، تحركني كما تشاء .. !

السمفونية السادسة

طبقت شهرة تشايكوفسكي الافاق ، في حين انه لم يكن يعير هذه الشهرة اقل اهتمام

وكانت تتكاثر عليه الدعوات الى انحاء اوربا وامريكا ، كل بلد يطلب اليه ان يتفضل بزيارتها .

واعتزم الفنان ان يرحل الى امريكا ، ولكن القدر أراد أن يملأ رحلته بالعذاب ، وان يجلل هامته بالشجن ، فكتبت اليه مدام فون مك ، رسالة غريبة اللهجة ، تعلنه فيها بانقطاع ما بينهما ، وتصرح له بأنها اصبحت تمقت موسيقاه . !

وعندئذ تستبد بالفنان الحرارة ويشعر كأن الألم انيابا تمزق فؤاده

هل تحسب مدام فون مك ان رسالتها مع الفنان قد انتهت ، لانه اصبح في غنى عن معاونتها المالية . ؟

وكتب لها يقول :

وهل يمكن لى ان أنسي ما صنعته من أجلى .. ؟

... وظل الفنان لا يعرف السر في مقاطعة المرأة له ، فاستولت عليه حال غريبة ، ذهول مستمر ، وحيرة دائمة ، وتوزع غير عادى ، وتشتت ذهني رهيب .. !

اختير عضوا للاكاديمية الفرنسية ، وذهب الى لندن حيث تسلم درجة الشرف من جامعة كمبردج ، ولكن ذلك المجد كله لم يملأ الفراغ الذى تركته ناديزدا في حياته .. !

وفي هذه الحالة الاليمة ، راح تشايكوفسكي يطوف مأخوذا من بلد الى آخر ، وبدأت السيمفونية السادسة تأخذ

طريقها الى قلبه وتكتمل فى وجدانه .

ولقد جاءت ألحانها جنائزية تئن بأغنية الوداع لصداقة ماتت !

واقترح موديا شقيق تشايكوفسكى ان يطلق عليها الفنان اسم « الباثيتيك » ففعل .

وكانت هذه السيمفونية اخر اعمال العبقرى ، التى اظهر فيها للعالم لهب عبقريته ، وجمال المه !

واجتاح الروسيا فى ذلك الحين وباء الكوليرا ، فأصيب به الفنان، ومات ضحيته بعد ما ترك للدنيا كنزا رائعا من الاحاسيس .

وتوارت موسيقى تشايكوفسكى فترة من الزمان ، واختبأت فى ذمة التاريخ ، ثم لم يلبث العالم ان ساوره الظمأ اليها ، فعادت ألحانه تغمر الدنيا ، وتذهل الوجود . !

عادت ألحانه اكثر ما تكون جدة ، وحيوية ، وغنى . !

وراح الناس ينهلون من موارده الفريدة الصافية ، ويثملون . !

ان السيمفونية السادسة التى تبهر القلوب ، لتعتبر من اكبر اعماله واعظمها ، اذا لم تكن اكبرها واعظمها ..

ما سمعت هذه السيمفونية الا شعرت بوطأة الشجن المرير ، وبالوحشة الحزينة الممضة ، تحرق قلبى ، وتفتك بروحى ، وبالتوزع والتقطع بين مخالب القضاء . !

وقد كانت هذه ، هى الحالة التى وضع فيها العبقرى السيمفونية السادسة ..

فما أصدقه ؛ وما أروعه ؛ وما أخلده

■ ◆ ◆ ■

ألا فانعم أيها الفنان فى عالمك الثانى ، بما كابدت من احزان الحياة ، لانها كانت واهبة عظمتك ، ومخلدة فنك .

ان رسالتك الجميلة الحزينة ، قد عاشت فى قلوب الناس ، وسوف تعيش مادامت اذن تصغى ، وما دام قلب يحس .

ما احسست وحشية الحزن الا فى موسيقى تشايكوفسكى

وما تنسمت الحرية الا فى طلاقة الحانه ..

وما احببت صراحة العواطف الا من روائعه ..

فاين فى مصر الموسيقى التى تسكب هذه المعانى ، والمشاعر .. ؟

* * *

ياواهب الفن .. يارب

اللهم انك مطلع على احزانى التى تكاد تقتلنى ، لان وطنى قد نكب بفئة من تجار الفن ، يسدون الطريق فى وجه كل موهبة ، ويلفقون من تزاويق النغم الكسيح ، مايتلف الشعور بالجمال فى مصر ، وما يربط المثل العليا فى القلوب ، بتلك الحلقات المترنحة من الالحان الخاملة ...

اللهم ، ابعث فى وادى النيل ، ياواهب الفن ، عبقريا من هؤلاء العباقرة ، الذين يسحرون الوجود بالحانهم ، ويجملون الحياة بروائعهم ، وينمون باعمالهم الجميلة الكاملة ، شعور الناس بالجمال والكمال ، فترهف القلوب وتستيقظ الارواح الى حب كل جميل كامل

وعندئذ ، يتوارى كل نقص فى النفوس ، ويشيع كل حسن فى الحياة ، ويتسابق الناس الى عشق المعانى ، ويتنافسون .

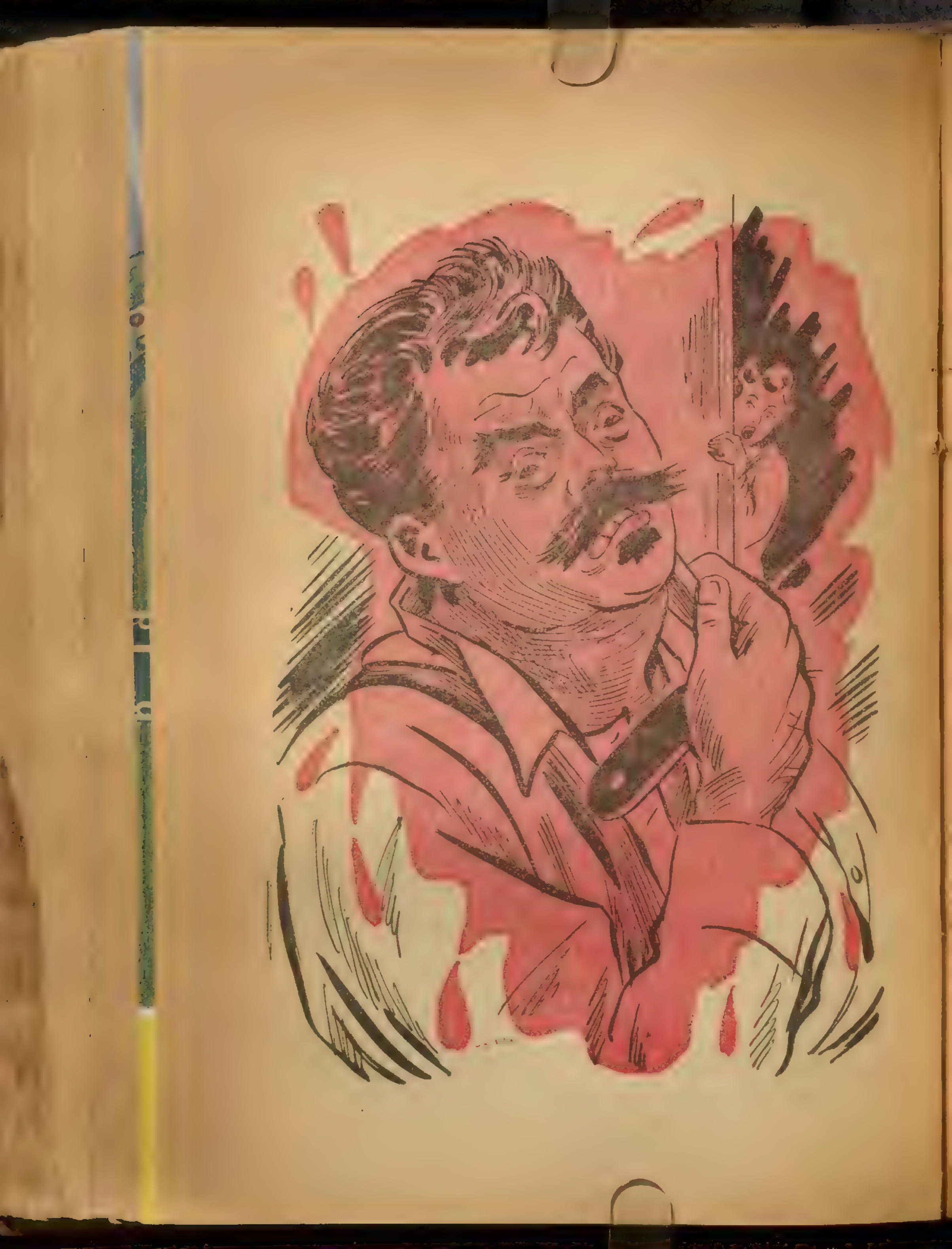


كثيرا ماتنتهى حيـاة العبقرى الى مأساة داميةمروعة ، ينطفىء فيها سراجه الوهاج ، الذى اضاءمن حوله عالم الارواح او العقول، والذى اهتدت بنورهمواكبالدنيا فى اتجاه من اتجاهات المجهول .

رحمتا . . رحمتا لهؤلاء الذين احترقوا على مذابح الفكروالفن ، بعدما عاشوا شـقاوة الحيـاةوسعادتها ، واستقطروها فنونا وافكارا ، ظلت بعد ذهابهم منهلالقلوب ومراد النفوس على مدى السنين .

رحمتا . . رحمتا لهؤلاء الذيناعتصروا قلوبهم رحيقا سـائغا للناس ، وسلخوا حياتهم فى ظلامالارهاق ، ليمنحوا الدنيا نورا . . اى نور

اننى ماطالعت قصـة للروائىجى دى موباسان ، حتى جعلت اتخيل حياته الموحشةالقاسية ،وهو منفرد بالليـل فى حجرة ساكنة ، يصوغ من مشـاعرهوقلبه النابض مقـاطع الموضوع الذى يكتب ، بـل يسـكب تلكالمقاطع النفسية الرائعة الصادقة فى قالب واحدمنالشعرالحماسى.وهو فى ذلك يعيش حياة الانسان الذى يعالج حياته بالقلم ، فـكم حياة عاشها موباسـان وكتبها ، وكم فكرة نفذ اليها والتقطها ثمعكسها على الورق مقيدةبالالفاظ والكلمات .؟



الا ، ان المرء ليضل بين قصصه العديدة المتنوعة ، ليدرك ان الدنيا كانت تعج فى داخله عجيجا ، تعج بفلاحيها ، وملاحيها ، وموظفيها ، ونماذجها البشرية المتناقضة ، ولياليها المتعاقبة واصباحها ، وفصولها المتلاحقة . وليدرك بعد ذلك ان الفنان الذى عاش مع ابطال قصصه ، ليضطرب حين ينفرد بالليل فى حجرة ساكنة ، وتتراءى من الحجرة حمى حائرة ، وتتوزع خياله وعقله ونفسه ، تلك الوجوه المتلاحقة ، والاصوات المتشابكة . ثم يجلس كى يسكن الى الموضوع الذى يستخلصه من ذلك الزحام المضطرب فى داخله . حتى اذا انتهى فيما يريد ، اصبح هو وابطاله الذى يكتبها ، كيانا واحدا ، لا تفصله عنهم شعرة ، ثم امسى وهو محموم بفاعل الاندماج فى شخصيات القصة ، يكتب معجزاته السحرية !

واذا تمنى المرء ان يتخيل جى دو موبسان وهو يكتب ، استطاع عندئذ ذلك ، ان يعلم كيف جن الفنان ، وانتهى عقله الى فضاء التخيل الرهيب ، الذى تستوى عنده جميع المتناقضات !

لقد ظل الفنان السنين العديدة يلتقط الحكايات من افواه القرويين والملاحين والكتبة والزانيات والنساء ، متبعا فى ذلك القاعدة التى اخذها من (فلوبير) وهى تنصح للفنان : بالتأمل ، ثم بالتأمل . ثم بالتأمل .

وكانت تطوح به فى ارجاء الدنيا حواس القصاص العبقرى ، فيصيح :

– ان دماء القراصنة تجرى فى عروقى . ولست اجد مسرة اعظم من ان ابحر بزورقى فى صباح الربيع الى اماكن مجهولة

وكان يتظاهر بفراغ قلبه من الرحمة ، فيقول – بوسعى ان

اشق جمجمة شاعر، لا لشيء .غير الفضول الذى يدفعنى الى رؤيةماينطوى داخل تلك الجمجمة !

ومن هنا ، جاء معظم ابطال قصصه ، حيارى لايتسمون براحة العقائد ، ولايتوفر لهم اطمئنان الروح .

وكانت بليته الكبرى ، هى قدرته الخارقة على النفاذ الى حقائق الاشياء وجواهرها ،وكثيرا ماتصبح البصيرة النفاذة محنة على صاحبها ى محنة !

وليت القراء ، ملايين القراءالذين كانوا يتخاطفون ما كتب ، ليتهم علموا ان الاشباح التى تمتلىء بها روائعه ، كانت من صنع حياته الخاصة

ليتهم علموا أن موباسان الذى يملأ وحدتهم بضجيج ابطاله ، كان يفر من وحشة حياتهواقفارهاالمرهوب ، ويطرق ابواب الغانيات فى جوف الليل . ليبعد الملالة والوحشة عن احساسه المعذب

المرض ذو الصداع .. المرض ذو الصداع المميت.. ان ديسمبر ملعون مسجور بالآلام .. وان موباسان ليرتعد كالورقة فى مهب الريح ، فيهرول الى موقد النار،شتاء وصيفا ، ربيعا وخريفا ، الرعشة تسرى فى اوصاله ،والاخيلة المحمومة تتزاحم فى عقله وتتداخل ، ولا شىء فى البيت غير الفراغ !

أن موباسان ليدخل الى المنزل .وتدب على ارضه قدماه ، فيسمع وقعهما فى اذنيه قرعا مخيفا .وعند ذلك ، يدخل الى غرفة مكتبه ، فيرى .. ياهول مايرى .!احقا ! نعم ، حقا ، انه يرى شخصه جالسا الى المكتب ، يلوح بيده له ، ويدعوه الى الجلوس !

ويكفن الفنان وجهه بيديه ، ثم يصرخ مستنجدا ، ويفزع كالمخبول الى الخارج ، هاربا من الرؤيا المخيفة !

وتتكرر الرؤيا مرات ومرات ولايفوت الفنان ان يقطع عصبه

فى نسيج رائع لاحدى روائعه ،فيضع من تجربته المخيفة قصة La Horla ، عن رجل مزدوج الشخصية

ولم يكن يصور فى تلك القصة غير نفسه هو .!

وجعل موباسان بعد ذلك يصرح للناس بانه يحب الجنون، وبانه فى طريقه الى ان يصف طريق الجنون .

ولا يستطيع احد من قراء الادب فى الدنيا ، ان ينسى قصة موباسان التى اسماها «يوميات مجنون»

وفى تلك الاثناء ، يرى موباسان صور الموت فى كل شيء ، وسدى يحاول ان يدفعها عن باصريه ،صور الموت تطالعه اينما سار ، الحشرات التى تتساقط عن الشجر ، الشعر الابيض فى رءوس الناس ، ضوء القمر اللامع ،سطوع الشمس البهيج ، المحيط الواسع ، الانهار النبيلة الجميلة. كل هذه المرائى والمجالى تكمن فيها عناصر الموت الخبيء .!

ثم يموت اخوه الفتى القوى فجاة ، فينهار لموته موباسان ، ويخف مع الركب الحزين الى المقبرة ، حيث يوارى الشباب المنطفىء وسائد الحجر والتراب

وهناك ، والقوم يوسدون الميت قلب المدفن ، ويهيلون على الشباب الذى راح اكوام الثرى ، والدموع تتناثر من الوجوه العابسة ، والآهات تفنى فى حلوق الباكين قبل ان تخرج الى الهواء . ينزوى جى دى موباسان هامد الجسم ،مشلول النفس ، مضيع الرشاد

وفجأة ، يسمع جى دى موباسان صوت اخيه الذى دفن ، يهمس فى اذنه قائلا : جى . انك مخبول ياجى . . أنت مجنون .!

ويحاول الفنان سدى ان يهرب من صوت الميت الذى يخفق فى مسمعيه قائلا : تعال . . تعال نلعب فى الحديقة ياجى مثلما كنا نفعل ونحن صغار .!

ومنذ ذلك الحين، يشرد الفنان فى ملكوت غير منظور لينضدد اوجاع البشرية وهمومها فى اقاصيصه الخالدة

وتساير آلامه قوى الابداع الكامنة فيه ، خطوة خطوة ، ويرى بغتة ان كل شيء فى البيت يتحول الى حيوانات عديدة تمشى داخل المنزل وتهبط اندرج ، الكراسى ، والمناضد ، والكتب ، والاشياء جميعا ، تصبح حيوانات تدب هنا ، وتدب هناك ، وتتكلم ، وتشير ، وتونول ، وتنوح .. !

وفى تلك الاثناء يدلف موباسان الى ركن فى بيته ، ويخرج مسدسا ، ويطلقه على رأسه ، فيتبين انه فارغ من الرصاص

وعند ذلك ، يمسك الموسى ، ويحملق فى المرآة ، ثم يقطع بها عنقه .!

ويهرول خادمه اليه ، والفزع يأكل قلبه ، فينظر اليه جى دى موباسان مبتسما ، ويقول — انك ترى ما فعلت يافرنسوا . لقد قطعت بالموسَى عنقى . اليست هذه حالة الجنون ؟ !

ويكتب على الفنان بعد ذلك ان يذرى ايامه الاخيرة فى فراغ الخبل .!

الا ما ابهظ مايدفع الفنان من صحته فى سبيل مايكتب ، وليت الناس بعد ذلك يشكرون



مجلة الجميع
الدكتور
في خدمة الجميع



كتب قيمة بقروش زهيدة

١ ـ آبار فى الصحراء ـ مجموعة قصص مصرية للاستاذ محمود كامل المحامى

٢ ـ الضاحك الباكى ـ احاديث عن الثورة المصرية لفكرى اباظة باشا

٣ ـ ألف ليلة الجديدة ـ اخراج جديد لهذا القصص الفريد للاستاذ عبد الرحمن الخميسى

٤ ـ نساء من خزف ـ مجموعة من القصص المصرية للاستاذ سعد مكاوى

٥ ـ صندوق الدنيا ـ صورة فكهة لفقيد الادب الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

٦ ـ فرعون الصغير ـ مجموعة قصص مصرية طلية للاستاذ محمود تيمور بك

٧ ـ الشرق والغرب ـ مجموعة قصص للدكتور محمد عوض محمد بك

٨ ـ قضايا الحب ـ مجموعة من أغرب وامتع القضايا للاستاذ فائق الجوهرى

٩ ـ جيشنا فى فلسطين ـ تسجيل تاريخى لمعارك الجيش المصرى فى حملته لانقاذ فلسطين من الارهاب الصهيونى للصاغ السيد فرج

١٠ - ألف ليلة الجديدة - المجموعة الثانية للاستاذ عبد الرحمن الخميسى

١١ - فى المرآة - مختار المرايا فى السياسة الاسبوعية لفقيد الادب الشيخ عبد العزيز البشرى

١٢ - غاديات رائحات - قصص مصرية للاستاذ محمود طاهر حقى

١٣ - صانع الحب - مجموعة من القصص الواقعية للاستاذ احسان عبد القدوس

١٤ - دموع وضحكات - مجموعة قصص واقعية للاستاذ عباس حافظ

١٥ - عندما تحب المرأة - مجموعة قصص مصرية للاستاذ حلمى مراد

١٦ - حاجى بابا الاصفهانى - عن جيمس موريبه للاستاذ مرسى الشافعى

١٧ - جرائم ومرافعات - مجموعة من اشهر القضايا للاستاذ يوسف حلمى

١٨ - الطريق الى السعادة - من الفيلسوف الامريكى هنرى لنك للصاغ ثروت محمود

١٩ - موعد فى الجنة - قصص واقعية عن الابطال المصريين فى حرب فلسطين للاستاذ حلمى سلام

٢٠ - نجيب الريحانى - دراسة وافية دقيقة للاستاذ عثمان العنتبلى

٢١ - صور من الريف - صورة صادقة لحياة الريف بما فيه من نعيم وشقاء ، ومسرات واحزان للاستاذ زكى عبد القادر

٢٢ - الحب فى التاريخ - اشهر قصص الحب التاريخية للاستاذ سلامة موسى

٢٣ - عشرة ايام فى السودان - لمعالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا

٢٤ - وراء القضبان - لزعيم حزب مصر الاشتراكى الاستاذ احمد حسين

٢٥ - مارد من الشرق - صور من الهند للاستاذ احمد قاسم جودة مع فصول للاستاذ محمود ابو الفتح صاحب المصرى

٢٦ - خبايا سياسية - فصول طريفة عن أسرار السياسة المصرية بقلم الدكتور محمود عزمى

٢٧ - جنة الحيوان - فصول فى الادب والحكمة فريدة فى مستواها لمعالى الدكتور طه حسين باشا وزير المعارف

٢٨ - بائع الحب - باقة جديدة من الادب العاطفى للاستاذ احسان عبد القدوس

٢٩ - حياة ثانية - قصة حياة عجيبة تصور متع الشباب ومآسيه للدكتور ابراهيم عبده

٣٠ - ادركني يا دكتور - صور واقعية لادق الاسرار فى حياة الناس كما تعرض للطبيب للدكتور ابراهيم ناجى

٣١ - مشاكل الحب والزواج - ارشادات للفتيان والفتيات قبل الزواج وبعده - لفائق الجوهرى

٣٢ - شخصيات بلا رتوش - تحليل واقعى لحوالى مائة شخصية فى عالم السياسة والادب والفن - بقلم الاستاذ صلاح عبد المجيد وريشة الرسام فوزى

٣٣ - قصص تمثيلية - فصول فى النقد والتحليل تشمل خمس عشرة مسرحية فرنسية للدكتور طه حسين باشا

٣٤ - الوان من الحب - مجموعة قصص عاطفية تحليلية للاستاذ عباس حافظ

٣٥ - يوميات مجنون - مجموعة قصص مختارة ترجمها الاستاذ عبد الرحمن الخميسى عن موباسان وتولستوى ودستوفسكى وشيكوف وغيرهم من كبار كتاب القصة فى الغرب

٣٦ - العاصية - مجموعة قصص طريفة تشمل دراسة ممتعة للحب للاستاذ احمد الصاوى محمد بك

٣٧ - مهازل الحياة - مجموعة من القصص الغريبة من مختلف بلاد العالم للاستاذ حبيب جاماتى

٣٨ - فاتنة الشيطان - مجموعة من الصور الواقعية الغريبة للحياة المصرية للدكتور سعيد عبده

٣٩ - شهر فى نيويورك - دراسة ممتعة للحياة فى امريكا لرئيس تحرير جريدة المصرى الاستاذ احمد ابو الفتح

٤٠ - الجاسوسية فى مصر - مجموعة من الحوادث الخفية التى طوتها الملفات الحربية ضمن ما تطوى من اسرار للاستاذ محمد رفعت المحامى

٤١ - نساء فى حياتى - قصص حياة اثنتى عشرة امراة عشن فى حياة المؤلف وعاش فى حياتهن للاستاذ امين يوسف غراب

٤٢ - فكرى اباظة فى الراديو - نقدات لاذعة للحياة الاجتماعية والسياسية فى مصر لفكرى اباظة باشا

٤٣ - الشباب والجنس - محاولة علمية لتحطيم الجهل الجنسى فى سبيل الصحة والسعادة الزوجية لفائق الجوهرى المحامى

٤٤ - القدر - قصة عجيبة نقلها من الشرق فولتير وترجمها عميد الادب العربى معالى طه حسين باشا

٤٥ - حكايات لمصر - آراء ونظريات تحليلية فى واجب الفرد نحو الدولة وواجب الدولة نحو الفرد للنائب المحترم احمد ابو الفتح

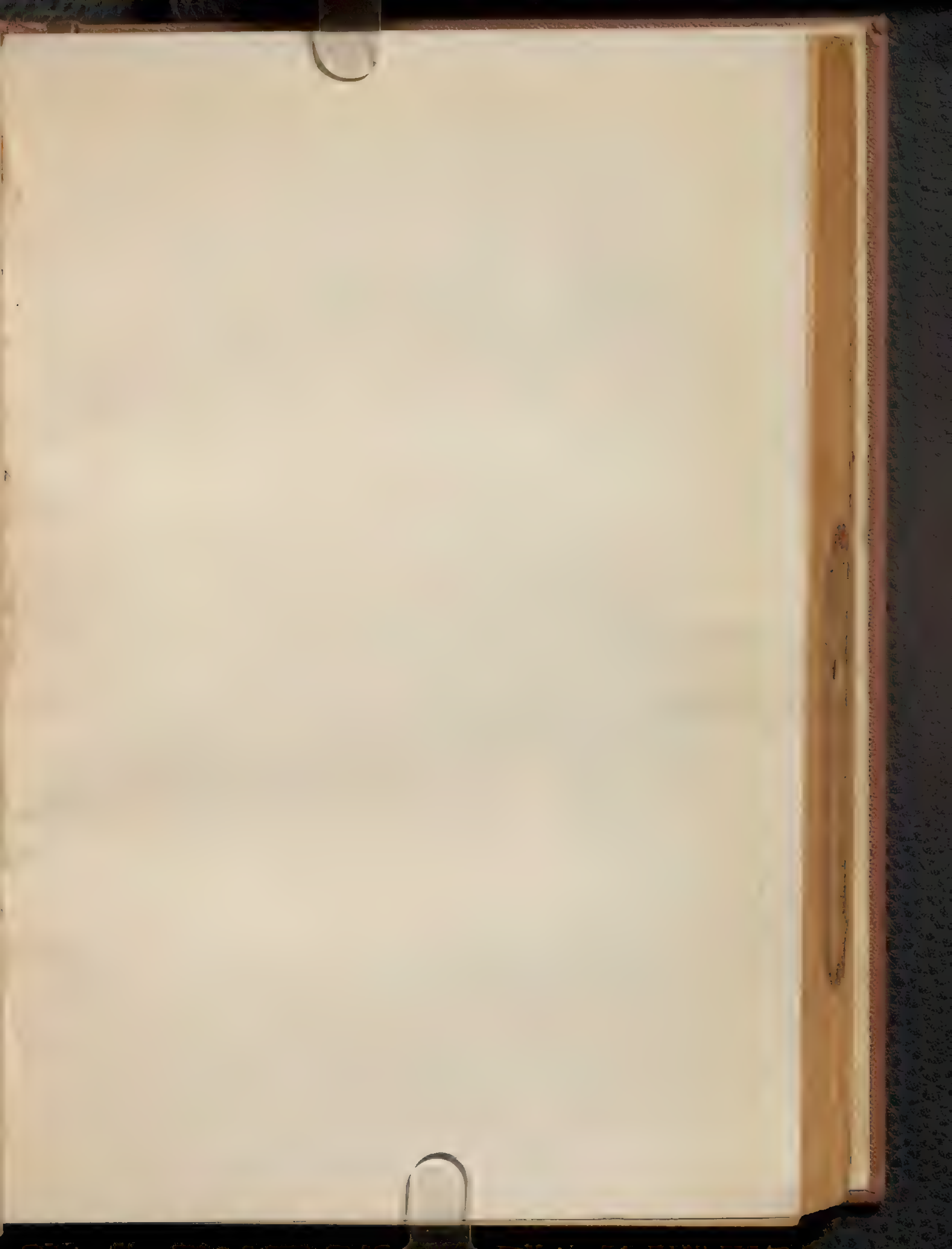
ثمن النسخة لغاية العدد ٤٠ ٥ قروش

ثمن النسخة ابتداء من العدد ٤١ ٦ قروش

تطلب من شركة التوزيع المصرية ٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة


قصص للجميع
تقدم
كل شيء
المجلة الجديدة
الملحقة بالعدد الجديد
من قصص للجميع
فيها آخر أخبار المجتمع
والسينما والمسرح والاذاعة
والبوليس والمحاكم والرياضة
والعلوم والطب.
كل شيء، فيها كل شيء
ممتع ... الفلك!
مع غلاف ممتاز
ومع هذا فالثمن كالمعتاد
٥
كل شيء
فيها عن كل شيء!


الدكتور
محمود عزمي
خبايا سياسة
٥
كتب للجميع



كتب للجميع

قضايا سياسية

للدكتور محمود عزمي



٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة

طبع بمطابع جريدة « المصرى »



فهرس

تمهيد

الواقع انى متصل بالحركة السياسية المصرية اتصالا غير منقطع منذ نيف واربعين سنة والواقع انى عرفت عن طريق هذا الاتصال المستمر عديدا من الشخصيات المصرية البارزة والمستترة التى قامت بادوار فى تلك الحركة السياسية كما وقفت خلال هذه المعرفة على كثير من الحقائق التى ساعدتنى ذاكرة قوية فى مقتبل العمر على وعيها واعاننى التدوين هذه السنوات الاخيرة على الاحتفاظ بذكرها .

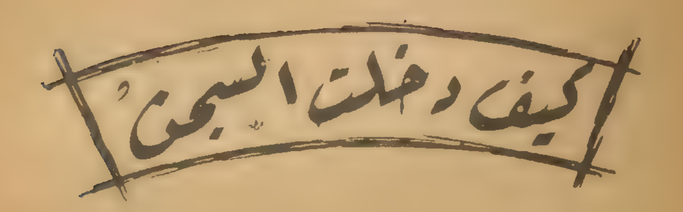
والحق ان حوادث التاريخ لاتسجل عادة منزهة اذا هى كتبت او رويت تحت تأثير عوامل الساعة التى تقع فيها ومن اجل هذا كان تقديمها « على البارد » كما يقول الفرنسيون — ممايقدره المؤرخون قدره لانه يعرض عليهم رواية بعيدة قدر المستطاع البشرى من التحيز المقصود او الوقوع عفوا تحت مؤثرات الخاطف من النظرات والجارف من التيارات .

ولعل هذه الاعتبارات هى التى املت على يوما التفكير فى امر القيام بذلك الذى اعتبره واجبا على مثلى ممن اتاحت له الظروف ما اتاحت من اتصال وتعرف ووقوف نحو التاريخ المصرى والمؤرخين له فاعد لهم من المعلومات مايصح ان يكون سندا فى سبيل دقة التحليل وعميق التحقيق وهما ركنان لابد من استيفائهما فى كل بحث جدى . لكنى اعرف ان لاعلان الحقائق شروطا اذا توافرت بالنسبة لبعضها فقد لاتتوافر

بالنسبة لبعضها الاخير فى حين ان بين البعضين فى اغلب الاحايين تضامنـــا يقضى باعلانهما على السواء . والى هذا فان الحركة المصرية السياسية لاتزال قائمة. وفى اعـــلان بعض الحقائق عنها كشـــف لستر قد يؤمن المرء بان تركه الان فى الغياهب انما هو من المصلحة القومية فى شيء . وذلك كله الى حساسية المتصدين للعمل العـام فى مصر حساسية تكاد تـكون مريضـة فتجعلهم ـ اذا ذكـر لهم اسم او اسند لهم راى ـ يعتبرون هذا الاسناد وذلك الذكر عملا عدائيا موجها لشخصهم ولمبادئهم وللجماعة السياسية التى ينتمون اليها بل للوطن والوطنية جميعا وليس فى أى شيء من كل تلك الاعتبـارات مايشجع على نشر الذكريات والادلاء بالمعلومات . لكنى اعتدت خلال تلك السنوات الاربعين التى اتصلت طوالها بالحركة السياسـية المصرية ان اجابه الحملات والانتقـادات فى اطمئنان لانى اومن برسالة المثقفين فى مثل بلدنا من ناحية واومن بضرورة تحمـل انواع الاذى فى سبيل تأدية الرسالة من ناحية ثانيـة ..

ولذلك فقـد اعتزمت الادلاء هنا بشيء من ذكرياتى السياسية وان كنت قد اعتزمت فى الوقت عينه الا ادلى عن طريقهـا بما احسبه فى غير المصلحة القومية مادامت قضيتنا العـامة معلقة

محمود عزمى



كنت ـ حينما كان على ان القى درسا بمدرسة التجارة فى الساعة الثانية صباحا ـ كنت أغادر المنزل دون ان اتناول فطورى أو دون ان اتناوله كاملا وكنت اوصى على « طبق من الفول محكم » يعد لى بمكتب « الضابط » اتناوله بعد أن افرغ من القاء درسى فى الساعة التاسعة

ويوما وأنا اتناول هذا الفول التقليدى دخل الى مكتب ضابط المدرسة ضابط بوليس يسأل عن الاستاذ محمود عزمى فاجبته بأنه هوذا ودعوته الى مشاركتى الفول وطلبت اليه ان ينتظرنى حتى اتم المهمة ومضيت آكل وانا احسبه قريب واحد من الطلبة يريد ان يسأل عنه أو يوصى به خيرا وسيدلنى على اسمه فى الطريق

مفاجاة وتفتيش

لكنه لم يدل الى بشىء وأنا من ناحيتى لم اسأله عن شىء ووصلنا الى مكتب الناظر ودخلناه فتقدم هو اليه وطلب السماح بتفتيش مكتبى بالمدرسة بناء على امر كتابى أخرجه من جيبه وكانت مفاجأة ، ولماذا : لا يدرى ولحساب اى تهمة او أى تحقيق ؟ لا يدرى

فأخذته وقصدت الى حجرة الاساتذة ولم يكن بها احد على ما اذكر ودللته على مربع من بين المربعات دولاب كبير وقلت له « هاهو مكتبى الذى جئت مكلفا بتفتيشه وهو على ماترى مفتوح وليس على ماترى غير كراستين او ثلاث رصدت فى كل واحدة منها اسماء طلبة من الفرق التى ادرس فيها ».

فكر الضابط اوراق الكراسات وتركها فى مكانها وحسبت التفتيش قد انتهى لكنه طلب الى ان اصحبه الى منزلى فلبيت طلبه وخرجنا من المدرسة واذا بها شرطى واثنان من رجال البوليس السرى تبعونا الى حيث كنت اقطن بالعمارة البلجيكية بشارع حسن الاكبر

وفتش الضابط المسكن تفتيشا دقيقا وفتحت له ادراج مكتبى وقلت له ان اوراقى مرتبة فيه ترتيبا فهى فى اضمامات وقد كتبت على كل اضمامة موضوع ما فيها من الاوراق وفى هذا من تسهيل المهمة ما فيه لكنه خبرنى ان الاوامر التى صدرت له تقضى بأخذ جميع اوراقى دون فرز ونصحنى ان اقدم له حقائب من الجلد يضع فيها الاوراق احتفاظا بها والا اضطر الى وضعها فى زكايب تحشر فيها حشرا فقدمت الحقائب واخذ رجاله يضعون فيها الاوراق جميعا واحتفظ هو بحرز « حرير » بعض حبات من الرصاص الذى يضعه عمال الادوات الكهربائية فى « نقالات » المصابيح التى يمكن تحريكها الى فوق والى تحت وكانت احدى النقالات قد كسرت فانتشرت تلك الحبات على الارض فجمعناها فحسبها الضابط «رشا» لسلاح

فى المحافظة

وحمل الضابط رجاله الحقائب بما فيها من اوراق وطلب الى ان اقصد الى المحافظة نحو الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم نفسه وأطلب ان أقابل فيها « فلبيدس بك » . وقصدت الى المحافظة فى الساعة المحددة وطلبت ان أقابل « فلبيدس بك » فادخلت مكتبا فيه موظف لم اكن قد رأيته من قبل فحييته فرد التحية فى لطف وجلست وطلب لى « قهوة » ودق التليفون « فتناول السماعة » وتكلم فاذا به يقول ان الاوراق قد جىء بها الى المحافظة و ... هو موجود بمكتبى و .. حاضر يا افندم .. حاضر يا افندم .

وتناولت القهوة ثم دخل شخص ابيض الوجه اشقر الشعر



وصاح بهم الشرطى ـ خذوا هذا النفر السياسى !..

ازرق العينين فنظر الى نظرة تفرس دامت لحظات ثم سأله الموظف « خلاص » وانصرف

وحينئذ اخبرنى الموظف ان اوراقى سترسل الى الاسكندرية ليفحصها بدر الدين بك اما انا فغير مطلوب منى شىء . وغادرت المحافظة وقد استنتجت ان حالتى متصلة بالتحقيقات التى تجرى فى الاسكندرية لمناسبة حادث القنبلة التى القيب على موكب « السلطان حسين » ما دامت اوراقى مرسلة الى بدر الدين بك كما استنتجت ان ذلك الذى استدعى لينظر الى ويتفرس فى انما هو الشخص الذى كلف بمراقبتى الى ان يتم فحص الاوراق . وقلت ان رجال ادارتنا امرهم عجيب فقد كان دخول ذلك الشخص ونظره الى وتفرسه فى لافتا نظرى انا الاخر اليه فتفرسته كما تفرسنى وانطبعت صورته فى بحيث استطيع تعطيل مهمته لو اردت .

ليلة راس السنة الهجرية

ومضى اسبوعان لم اشعر خلالهما حقا بشىء غير عادى وان كنت قد حاولت مرارا ان اتعرف اذا كان احد يتبعنى او يراقب حركاتى .. وجاء اليوم السادس من نوفمبر ١٩٣٥ وخرجنا بعد الغروب فقصدت الى « سينما » وكنت مع زوجى وكان معنا المرحوم عبد الحميد مصطفى باشا « وعثمان فهمى » باشا « ويس احمد » بك « وقصدنا الى شارع عماد الدين نتخير سينما ونتخير برنامجا لكنا وجدنا ازدحاما ذكرنا بانا ليلة راس السنة الهجرية وبدأنا نقرر العودة الى دارنا نتناول فيها العشاء ونمضى السهرة متحدثين وعدنا ادراجنا وما ان فتح لنا الخادم « مختار » الباب حتى اخبرنى فى ذعر ان الضابط الذى كان قد فتش المنزل منذ اسبوعين قد جاء يسأل عنى مرة اخرى ثم عاد يسأل مرة ثانية

القاء القبض

وبينما نحن واصدقاؤنا الثلاثة حول المائدة اذا بجرس يدق

وبالخادم يعلن ان الضابط قد حضر فهرولت لاستقباله فانبأنى انه مكلف بان يقبض على فسألته هل لديه امر كتابى فى هذا الشأن فاخرج ورقة رسمية بامضاء « بدر الدين » وكان مدير الامن العام فى ذلك الوقت المعلنة فيه الاحكام العرفية — واراد ان يمهلنى حتى اتم عشائى لكنى عدت الى الاخوان فى الغرفة المجاورة واخبرتهم الخبر وآثرت الخروج مع الضابط على الفور لكنه نصح لى بأن آخذ «مرتبة» و «ومخدة» و « ملاية » فاعددناها وحملها الخادم « مختار » وودعت زوجى واصدقائى وخرجت مع الضابط وقصدنا و « ومختار » من خلفنا الى باب الخلق .

فى بلوك الخفر

ووصلنا الى باب المحافظة والى باب سجن الاستئناف وحاول الضابط ان يسلمنى لصاحب النوبة فابى بدعوى ان ابواب السجن اغلقت منذ الغروب فاتصل الضابط تليفونيا بحكمدار البوليس وتم التفاهم على ان ابيت ليلتى فى « بلوك الخفر » وصعدنا الى الطابق العلوى من بنائه فاستقبلنى فيه احد ضباطه الذى كان معروفا [illegible] تحت السلاح [illegible] اسمى عرض على المبيت [illegible] غرفة الضابط الاخر [illegible] صاحب [illegible] ومضى [illegible] « شاويش انجليزى » [illegible] غرفة فسيحة مطلة نوافذها على فناء المحافظة تتوسطها منضدة جلس اليها جندى انجليزى فى لباس الجنود الانجليز وعلى ذراعه شارة « الشاويش » وكان وقت دخولى منكبا على الرسم بالاقلام الرصاص الملونة واعد لى ما اعد للنوم عليه من « الواح » من خشب وضعت عليها « المرتبة والمخدة والملاية »

شاويش عجيب

وتركنا الضابط برهة ثم تحدث الى وهو يقول ان امر ذلك «الشاويش» عجيب فهو نجليزى ولكنه يرسم اشكالا لا تدل على

شدة ولعه بانتصار الالمان فهو يصور « غليوم » فى بارجة تغرق البوارج الانجليزية على طول الطريق وطلب الى ان اسال « الشاويش » عن حقيقة أمره فالقيت نظرة اليه فكما كان «الشاويش» الانجليزى منهمكا فى تصويره فوجدته على ما يصفه الضابط حقا فسألت « الشاويش » ايضاحا ما يرسم فقال لى انه سيتحدث الى بعد ان يغادر الضابط الغرفة وقلت لصاحبنا ان الشاويش لا يريد ان يتحدث وانى اريد ان انام فتركنا الضابط واخذ الشاويش يحدثنى .

روسى فى لباس انجليزى

وحدثنى الشاويش الانجليزى فاذا به يخبرنى انه غير انجليزى بل انه اسرائيلى من روسيا قتل متعصبى البروس أهله فى حملة من حملاتهم التى كانوا يشنونها على اليهود فى بعض المناطق فغادر روسيا الى فلسطين وظل بها الى ان قامت الحرب الكبرى فقبضت عليه السلطات العثمانية وخيرته بين ان يصبح عثمانيا فيجند او يظل روسيا فيعامل معاملة الاسير فاختار الجنسية العثمانية وجند واختير لمعرفته اللغة الالمانية ليلحق بالحملة على قناة السويس ووصل معها الى القناة وعبرها مع من عبر من رجالها وقبض عليه عند الضفة الغربية وارسل اسيرا الى « المعادى » وهناك رفع مظلمته الى القيادة العليا للجيوش الانجليزية مبينا انه فى الواقع غير عثمانى بل روسى وانه اذن من الحلفاء لا يصح ان يعامل معاملة الاسرى فقبلت القيادة العليا وجهة نظره لكنها جندته « حليفا » وبعثت به الى « الدردنيل »

وفى حملة « الدردنيل » حارب فى الخنادق مع المتحاربين لكنه حدث من الخندق البريطانى تبادل اشارات مع الخنادق العثمانية فشكت القيادة الانجليزية فى امره واعادته الى مصر لاجراء التحقيق معه . ومن اجل هذا فهو مقبوض عليه .

كلام له خبيء

لكن كيف يسجن جندى انجليزى يراد التحقيق معه تحقيقا عسكريا فى بلوك خفر البوليس المصرى وكيف مر قبل ان يجىء به الى بلوك الخفر بسجن الحدراء بالاسكندرية وكيف تعرف فيه بعبد الغفار متولى احد المقبوض عليهم بمناسبة قنبلة السلطان حسين واحد اصدقائى المقبوض عليهم هناك ولماذا يسرنى انا بذلك كله وهو متأكد من انه سيخرج من السجن قريبا ويشغل باله ان لن يكون له عمل يقتات منه ؟ . لابد ان يكون وراء الاكمة ما وراءها واذن فقد اكتفيت بالاستماع الى تلك الاقوال واكتفيت بان قلت لزميلى المقبوض عليه معى فى بلوك الخفر انه اذا خرج من السجن وكان فى احتياج لقوت فليقصد مسكنى حيث يجد حتما شيئا يسد رمقه .

عند بدر الدين

وامضيت الليلة ... دون نوم .. لا لانى كنت مشغول البال بل لانى لم اكن وحدى فى مضجعى اذ شاركنى فيه عديد من « الحشرات المقلقة » واصبح الصباح وجىء لنا بالفول من باب الخلق ثم اقبل الضابط وطلب الى ان اصحبه حتى وزارة الداخلية حيث اقابل بدر الدين بك وذهبنا وادخلت عند بدر الدين بك فعرض على كراسة مذكرات كنت دونت فيها شيئا من الذكريات وانا طالب بباريس وسألنى هل هى كراستى فقلت نعم . فحرر كتابا سلمه للضابط وقال له انه كتاب لانجرام بك الحكمدار وقال لى ان التحقيق سيجرى معى هناك ودعانا الى الانصراف .

فى الطريق الى الاسكندرية

وكان الخادم « مختار » يعرف منذ البارحه انى امضى الليلة او السهرة ببولك الخفر وكان يعرف فى الصباح انى قصدت الى وزارة الداخلية لمقابلة بدر الدين بك وكان قد ابلغ ذلك كله فى حينه الى زوجى فلما انتهيت من المقابله وجدتها فى انتظارى

فاخبرتها بما جد من امرى وكان علينا اذا ان نمضى الى «المحافظة» نتم فيها اجراءات « ترحيلى » الى الاسكندرية ومررنا فى طريقنا اليها بشارع حسن الاكبر فطلبت الى الضابط المرافق أن يسمح لى بالذهاب الى المنزل لآخذ فيه حماما يزيل ما قد يكون هناك من آثار « الحشرات » التى شاركتنى المضجع فى « بلوك الخفر » وكان الضابط ظريفا فسمح لى بماطلبت وذهبنا معا الى المنزل وانتظرنى حتى اتممت « نعمة الحمام » على .

ومن ثم قصدنا جميعا الضابط وزوجى وانا وخادمنا الى المحافظة لنتم اجراءات الترحيل واريد ان يكون السفر بالدرجة الثانية فرفضت وانا ممن كان مرتبى فى ذلك العهد يجعلنى انتقل على حساب الحكومة بالدرجة الاولى . واخيرا تصالحنا على ان يكون السفر بالدرجة الثانية

وكان لعدم وجود عربات الدرجة الثالثة بقطار الظهر دخل فى اقناع رجل الضبط بتسامحه والرقى بى الى الدرجة الثانية وطلبت الى زوجى ان تسبقنى الى المحطة وركبت من المحافظة عربة حملناها « المرتبة والمخدة والملابس » وركب معى فيها شاويش من رجال البوليس كلف تسليمى الى محافظة الاسكندرية . ووصلنا المحطة وركبنا القطار واحتللنا من القطار « عينا صفيرا » فى نهاية العربة ظللت بها انا وزوجى منفردين حتى محطة الاسكندرية اما الشاويش المرافق فكان كلما وقف القطار على محطة دق الباب وسألنا هل نحن فى حاجة الى « كازوزة او الى قهوة من البوفيه » وهل نحن فى حاجة الى اية خدمة على العموم . ذلك بانى حين كنت راكبا معه العربة من المحافظة الى المحطة ذكرت أن بها عطلة رسمية فلم نجد بها احدا من الموظفين ووجدنا جماعة من رجال الخفر والبوليس جالسين الى جانب مقر التليفون فصاح بهم الشرطى المرافق بعد ان تبادل واياهم التحية « خذوا هذا النفر السياسى » وتسلمونى منه بايصال وتسلموا ماكان معه من كتاب كان مرسل من بدر الدين بك لانجرام بك وتركنا الرجل ليطوف بالاسكندرية قبل

ان يعود الى القاهرة بقطار المساء وظللت منتظرا الى جانب هؤلاء الخفراء حتى تمت الساعة السادسة واقبل انجرام بك وادخلت عليه فقال لى « انى سانتظر بدر الدين بك حين يجىء من القاهرة ليجرى معى التحقيق وسأل عن سجن الحدراء هل يستطيع استقبال ضيف جديد فاجيب كما اجيب ضابطى بالامس ان الابواب قد اغلقت لان الشمس قد غربت فامر بان امضى الليلة فى قسم محرم بك . واخرجونى من طريق غير الطريق التى كانت زوجى تنتظرنى فيه فغابت عنى وغبت عنها . وقصد بى إلى مخفر البوليس .

فى الطريق الى السجن

وامضيت الليلة هناك ونمت نوما عميقا كنت فى كبير الحاجة اليه ولم استيقظ منه الا بعد ان ايقظنى الحارس واخبرنى ان الساعة دقت الثامنة ومن هناك اخذونى واخذوا معى « المرتبة والمخدة والملايتين » الى سجن الحدراء ومررنا فى طريقنا اليه بفندق كنا نعتاد النزول [illegible] زوجى [illegible] فيه فنجحت فى أن أترك لها خبر انى قد [illegible] الى سجن الحدراء وارجو ان [illegible] فى الصباح من [illegible] .

دمعة حارة

[illegible]

[illegible]

نقود واشياء ثمينة وسلمت ما كان معى من نقود وسلمت ساعتى ولمح مدير السجن فى اصبعى « خاتم الزواج » فطلب منى ان اخلعه فرفضت فالح فالححت فى الرفض وقال لى ان لوائح السجن

تقضى بما يطلب وشرح لى حكما اللوائح وارجعها الى الخوف من ان يغرى « الخاتم » احد المسجونين فيطمع فى الاستيلاء عليه فيرتكب فى سبيله جريمة اوجرائم واقتنعت بهذا الدليل وخلعت على كره منى الخاتم من اصبعى وانهمرت من عينى دمعات لن انسى حرارتها ابد الدهر .

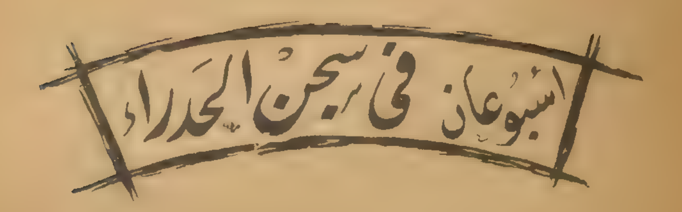
حافظ عفيفى والكمباشى

واخذنى وكيل السجن وادخلنى بهوة الفسيح وقال لى بأن بالسجن بلوكين فى الدور الارضى من احدهما ينزل شفيق منصور ونجيب الهلباوى وعبد الغفار متولى وشمس الدين ومن اليهم وفى الدور العلوى من ثانيهما ينزل الاستاذ عبد المقصود متولى وبعض الاخوان المحامين والاساتذة وسألنى وكيل السجن اى جناح اختار فقلت الدور العلوى مع صديقى عبد المقصود فاجاب الواقع انه جناح صحى لارطوبة فيه وقد كان فيه الى نهاية الاسبوع المنقضى حافظ عفيفى والمكباتى وسأنزلك فى محل احدهما قلت على بركة الله .

وقصدنا الى ذلك الجناح « الصحى » ووجدت غرفة والى غرفة لانى لم اكن اعرف بعد انها « زنزانات » مفتوحة ابوابها وبعض المساجين « المعذبين يلمعون » اسفلتها ووجدت بينهم صديقى وزميلى فى المدرسة التوفيقية وفى مدرسة الحقوق الاستاذ عبد المقصود متولى المحامى فلما لمحنى قال . الله ماذا جاءبك الى هنا ؟ قلت لاعلم لى وتصافحنا اذ كان موقفه فى طريقى الى « غرفتى » ووقفنا عند باب هذه الغرفة بدورى الى ان تم اجراء اللحظة فقيل لنا بالدخول فدخلنا ودخلت معى كذلك — من باب الاستثناء « المرتبة والمخدة والملايتين » واقفلت الباب .

من غير معرفة السبب

وعند ئذ لمست انى فى السجن ذ أحسست وحشته وأحسست ضيق « زنزانته » واحسست بخاصة شيئا من الثورة النفسية لانى لم أكن أعرف لماذا قبض على .



اغلق السجان باب « الزنزانة » ومر « بالزنزانات » المجاورة لغلق ابوابها كذلك فكان الصوت الناشىء من اصطدام كتافتها بالحائط هو الذى استمعه على التوالى بينما كانت الاصوات البشرية تختفى الى ان خيم السكون ولم يكن يستمع غير صوت وقع احذية المساجين على الاسفلت واحتكاك بعض المفاتيح ببعضها وهم عائدون واذا كنت قد احسست عند ذلك شيئا من الغرفة فانى لم أحس شيئا من الوحشة لان ضوء النهار كان منتشرا وشيئا من اشعة الشمس كان يلقى خيالا على حائط «زنزانتى» من الداخل وهو خيال لعنصر حى يؤنس

الزنزانة

واخذت احيط « الزنزانة » ببعض نظرات فاذا بها حجرة طولها متران ونصف تقريبا وعرضها متران أو يقل عنهما شيئا وارتفاعها كطولها ولها نافذة مربعة لايزيد طول ضلعها عن الخمسين سنتمترا ان لم يقل . تطل من أعلى الحجرة على فناء السجن وتتخللها قضبان من الحديد وارضية الحجرة من الاسفلت الاسود اللامع وخمسا الحوائط من اسفل مدهونان بدهان زيتى لونه قاتم وثلاثة اخماسها العليا « مرشوشة » بالجير « السماوى » اما الاثاث فسرير حديدى اعد بمعدات النوم العادية وكرسى من الخشب الباقى على لونه الطبيعى ومنضدة من الصاج المدهون عليها « قلة » وكوب ثم « جردل »

الطــــابور

وجلست على السرير «اتأمل» وبقيت فى تأملاتى ساعة الا قليلا سمعت بعدها اصوات مفـاتيح تعمل فى ابواب واصوات نـاس تتجاوب بها الاركان ثم أحسست المفتاح يعمل فى باب « زنزانتى » ورأيت الباب يفتح والسـجان يدعونى الى الطابور وخـرجت من "الزنزانة والتقيت بالزمـلاء السياسـيين " ولاحظت ان زنزانتنا غير ملاصقة بل مفصولة الواحدة منها عن الاخرى بزنزانة [illegible] وكانت ابواب زنزانات هذا الدور الاخير مقفلة على من فيهـا .

[illegible] الى [illegible] الطابور [illegible] فى السجن سياسـيا يقفون فى [illegible] كل [illegible] وبعد كل فرد من افـراد الصف الواحد عن الفرد [illegible] او يزيد [illegible] الى [illegible] وعودة الى نقطة الابتداء [illegible] السجن [illegible]

ويشرف عـلى الطـابور [illegible] » [illegible] ان يبين سلطته فيصيح بين آونة واخرى [illegible] بالمسافة وبالاسراع فى السير لكن هـذه الاوامر بطبيعة الحال لا تحول دون الضراب ودون التحدث . ألم يكن هؤلاء المشرفون [illegible] فى مـدارس وعـرفوا كيـف « يحدون » عـلى المدرسـين والضبط فى « الفصول » وفى « الطوابير »

ثلاثة وثمانون يوما دون تحقيق

واستطعت خلال الطابور الاول أن أقـترب من صـديقى وزميلى فى مدرسة الحقوق وفى المدرسة التوفيقية من قبـل — الاستاذ عبد المقصـود متـولى المحامى . وان اتحدث اليه وان اعرف انه قد امضى ثلاثة وثمانين يوما فى السجن دون ان يسأله

احد ودون ان يوجه اليه احد تهمة فهو لايدرى لماذا قبض عليه وماذا سيكون مصيره وكان فى هذا تهدئة لى وطمأنينة . اذ وطنت النفس على ألا أنتظر سؤالا ولا تحقيقا قبل ثلاثة وثمانين يوما على الاقل .

وسألنى صديقى عن سبب القبض على فحرت جوابا ، وتبادلنا شيئا من ذكريات الصبا وسخرنا معا من المقادير وافاعيلها واخذنا حالتنا بما لامفر من اخذها به . بالابتسامة والضحك من الاعماق

طعام الدرجة الاولى

وعدنا الى جناحنا ودخلنا زنزانتنا وجىء لنا بطعام الغداء فيها وهو طعام من « الدرجة الاولى » بين درجات الطعام فى السجون وكنت قد سألت عن « بيانه » فوجدته جديرا بالتقدير والوانه « مكرونة » و « بفتيك » و « فاكهة » بالنسبة « لفندق » الحدراء لكن اقترب من هذه الالوان وابدأ فى تذوقها تجد انها غير قابلة للبقاء فى الفم لحظة فالمكرونة عتيمة والزبدة أو السمن أو الزيت أو الشحم أوما لا أدرى ماذا صنعت به غير محتملة (زناخة) (والبفتيك) لاتعمل فيه السكين الا بصعوبة ولاتقوى الاضراس على مضغه ولا الخياشيم على رائحته و (الفاكهة) وجيهة المنظر لكنها عفنة المخبر واذن لم يكن لى نصيب من هذا الغذاء الذى لاتعود الفائدة منه حتما الا على « متعهدى توريده » للسجون وسألت السجان عما يقدم للعاديين من المحكوم عليهم فناولنى قطعة من الخبز اشبه بالاجر لكنها لذيذة الطعم وخليطا من الخضر لم اتبين انواعها فاستسغتها هى الاخرى وسألت عن طعام العشاء فأنبئت عن بيانه فوجدته فاخرا هو الآخر لكنى « أوصيت » بالاكتفاء عنه ببيضتين « مسلوقتين » و « بسلطانية من اللبن الزبادى »

طعامى الخاص

ومر مرة مدير السجن بعد الظهر يسأل عن نصيبى من الراحة فرجوته اذا ماجاءت زوجتى للسؤال عنى ان يطلب اليها اسعافى بطعام خاص فاستوضحنى بيانه فقلت « لبن وقهوة » فى الصباح فقال ان هذا مستحيل لان « القهوة » من « المكيفات » الممنوع ادخالها الى المسجونين قلت ولكنى لا استسيغ اللبن وحده ان لم يكن مثلجا فإن سأفكر فى طريقة وكانت الطريقة ان وصلت الى فى صباح اليوم التالى واستمر الوصول طوال الايام التى قضيتها هناك زجاجة فيها لتر من اللبن الممزوج بالقهوة وقيس لى ان هذا المزيج هو الذى انقذ الموقف لان القهوة لم تصبح مستقلة واذن فليس فيما يصل الى شىء من المكيفات وعرفت ان بوكان « العماوى » قد حصلت هى الاخرى بادارة السجون وقد تغلبت على احكام لوائحها فى مصلحة السجون وفى هذا خير وبركة حقا

احرج موقف

وفى صباح اليوم التالى - طلب الينا - والينا نحن المسجونين عامة السياسيين منا والعاديين ان نذهب لقضاء حاجتنا الطبيعية ودلونى انا الحديث على مكان « بيوت الخلاء » فقصدت اليه فوجدت مجموعة منها لا فاصل بين بعضها وبعضها الآخر فاصل ووجدت ناسا مصفوفين اليها صفا قاعدين للقرفصاء فى غير حياء اقشعر بدنى لهذا المنظر وارتعدت فرائصى وقفلت راجعا الى « زنزانتى » ثائرا على هذه « الوحشية » المجلبة تنظمها الانحة من لوائح ادارة حكومية منتظمة وطلبت ان اتحدث بشأنها الى رؤساء السجن وفقدت بطبيعة الحال كل رغبة فى قضاء ماتقضى به الطبيعة وتحدثت فى ذلك الشأن فرد على بان هذه حال تسرى على الجميع ، أما أنا



فأخرجت يديها وقالت : لاشيء كما ترى !...

فلست فى هذا من الجميع وتصالحنا على ان يكون استدعائى لقضاء تلك الحاجة فى الصباح وفى المساء بعد ان تنتهى المدة المحددة للجميع على أن أكون فى ذلك المكان الدقيق وحدى على انفراد . والحق انى لست ادرى كيف لا يزال هذا النظام «الوحشى» مستمرا تطبيقه الى الآن وللحياء حكم وللبشر حرمة

بعد اسبوع

وبعد أسبوع دعيت للذهاب الى محافظة الاسكندرية حيث اجرى معى بدر الدين بك تحقيقه الاول وقد دار حول تلك الكراسة التى كانت واحدة من عدة كنت اضمنها مذكراتى اليومية وانا طالب بباريس وكانت تلك الكراسة متضمنة ذكرياتنا عن ربيع عام ١٩٠٩ وصيفه وقد وجدتها بين يدى بدر الدين بك وقد عمل فى صفحاتها قلمه الاحمر تارة والازرق تارة أخرى وميزت بعض هذه الصفحات بوريقات كتبت فيها ملاحظات

امتحان ذاكرة

وكانت الاسئلة متجهة الى تحديد « اشتغالى بالسياسة » وأنا بباريس أو عدم اشتغالى بها وكان ميل المحقق الى اثبات « الاشتغال » وكان ميلى الى دفع الاتجاه الى الاثبات وأراد بدر الدين ان يستدل على الاشتغال بفقرة من فقرات المذكرات فسأل . كيف لم تكن تشتغل بالسياسة وقد ذكرت بتاريخ ١٤ سبتمبر انكم اجتمعتم بالجمعية المصرية بباريس لارسال تلغرافات احتجاج على الاحتلال لمناسبة دخول الجيش الانجليزى مدينة القاهرة فى مثل ذلك اليوم ؟ وكتب لى ان استذكرت كل ماكان مدونا فى تلك الكراسة من مذكرات فرددت على هذا السؤال بقولى ارجو من حضرة المحقق ان يستمر فى قراءة الفقرة الخاصة بذلك الاجتماع من مذكراتى .. فقال بدر الدين بك « بلاش السؤال ده » فأصررت على طلبى فقال انه متنازل عن

السؤال فهددت وقد أحسست ضعف المحقق فى موقفه بعدم الاجابة عن أى سؤال آخر اذاانا لم اجب الى طلبى فقرأ بدر الدين بقية الفقرة وأثبتها الكاتب فى محضر التحقيق واذا بهاتقول ان « عبد الحميد سعيد عرض على الجمعية ارسال برقيات الاحتجاج الى مصر والى انجلترا فلاحظ أعضاء بعثة الجامعة المصرية — وهم سيد كامل وتوفيق السناوى ومنصور فهمى ومحمود عزمى أن اقتراح عبد الحميد سعيد اقتراح بعمل سياسى [illegible] من هيئة الجامعة المصرية لا يستطيعون [illegible] الجمعية [illegible] دون ان تتضمن [illegible] هذه الفقرة [illegible] المحضر [illegible] لا [illegible] »

مفاجأة مدهشة

وانتقل بدر الدين الى سؤال آخر [illegible] تشتغل بالسياسة فمن هم [illegible] الذين كنت تجتمع بهم وكنت تتحمس حماستهم حين كانت ترد عليهم انباء الثورة من بلادهم فأجبت بأنى لا اذكر ان ثورة فى روسيا سنة ١٩٠٩ حتى يكون لها انباء وحتى تعقدلتلقى هذه الانباء اجتماعات وحتى نتقبل هذه الانباء فى حماس فاذا كان لدى حضرة المحقق علم بهذا الحادث التاريخى فليتفضل بادلائه لعلى اذكر لمناسبته شيئا » فأجاب ننتقل الى سؤال آخر فطلبت قبل الانتقال ان يدون فى المحضر عدم ورود شىء فى مذكراتى عن هذا الحادث الذى بنى عليه المحقق سؤاله عليه او ان يدلنى على موضع الاشارة اليه فى مذكراتى اذا كان فيها شىء بخصوصه فتردد بدر الدين والححت واخيرا تضمن المحضر عدم ورود شىء فى مذكراتى عن ذلك الحادث الذى ابتكره المحقق ابتكارا

ولكن

واحسست بعد ذانيك الموقفين انى متفوق على حضرة المحقق وانى متغلب عليه لامحالة ، ولكن نعم ولكن .. ولكن بدر الدين وقد اعتدل فى كرسيه ونظر الى على غير عادته

قال « واذا لم تكن حقا تشتغل بالسياسة فما قولك فى ارسالك بطاقة الى صديقك « احمد وفيق » تقول له فيها انك ارسلت كتابا الى صديقكما « نجيب » متضمنا ماتراه من رسائل فعالة لاخراج الانجليز من مصر وهى فى نظرك ليست الا وسائل القوة وتسيرا فيه الى انه يمكن الحصول من طريق طرابلس على معدات تلك الوسائل الفعالة ؟

ووقع منى هذا السؤال موقعا « غير ظريف » واردت الاستجمام بعض الشيىء للرد عليه

فقلت « ماهذا الكلام » قال بدر الدين « هذا كلام مدون فى مذكراتك اليست هذه كراستك ؟ » قلت نعم قال او ليس هذا خطك قلت نعم قال اليس هذاهو الوارد فى هذه الصفحة من الكراسة واعاد تلاوته وعقب عليه بقوله : « فما رايك فى هذا » قلت « رايى انه كلام شباب وقد كانت سنى لاتجاوز العشرين فى الوقت الذى كتب فيه » قال بدر الدين « هذا كلام غير مقبول » قلت هل تنكرون أن للعقل فترة تكون وانه لاحساب على الاراء التى تجول بالخواطر خلال هذه الفترة ؟ » وانطلقت اشرح نظرية الملكات وتكوينها والافكار وعناصرها والاعمال واتصالها بالافكار ومالى ذلك من آراء .

واعدناه الى السجن

وتركنى بدر الدين اشرح مااشرح واقرر مااقرر و « اتفلسف ما اتفلسف » ولم يعقب على ذلك كله الا باملائه على كاتب التحقيق عبارة قفل المحضر وختمها بقوله : واعدناه الى السجن .

ليلة بيضاء

وعدت الى السجن بعد اننجحت فى المرور بالمكان الذى كانت تنزل فيه زوجى وتركتنها بطاقة تنم عن شيء من احساسى بعد هذا التحقيق الاول- وعدت مطرقامفكرا وامضيت الليلة كلها فىالتفكير وقد تمثلتأمامى صفحات « قانون العقوبات » .

وتمثلت مواده وتمثل منهاماهو متعلقبالتحريض علىالثورة وما ينبعه منعمل فعل ومالايتبعهماتتم معداته وما لاتتم وتمثل ذلك كله واضحا جليا بحيث كنت أرى المواد رؤية وارى الصفحات التى تضمنتها الىاليمين او الى الشمال وتمثلت ماورد فيها بخاصة من عقوباتثم عقبت على هذا التمثيل جميعه بانهامواد وعقوبات تطبقفى « المحاكم الاهلية » فى الايام العادية واننا فى ذلك الوقتنعيش فى حالة حرب تجرى عليها الاحكام العرفية وتطبقهذه الاحكام المحاكم العسكرية « الانجليزية » التى ورد فىذلكالكتاب ماورد عنطريق اخراج « جيوشها » من مصر

نصيحة خالصة

وقصدت زوجى الى بدرالدين تسأله عن الموقف بعد التحقيق « ففتح لها محضرا »دون لها فيه شهادة أراد أن يتعرف خلالها عن ذلك«النجيب» الذى وردفىمذكراتى انى بعثت له بذلك الكتابالخطير وكان بدر الدين يحسبه « نجيب الهلباوى » بطلالمقبوض عليهم فى حادث القنبلة على موكب السلطان حسينالحادث الذى يتصل بهالتحقيق معى فلم يفز منها بشيء مماكان يؤمله ولما لفتت نظره الى انها انما قصدت اليه لتعرفشيئا عن مدى التحقيق معى لا لتتقدم اليه بشهادة نصحها بأن تعود الى القاهرة لان التحقيق معى سيطول مداه لانه « لالزوملتحملها نفقات اقامتها فى

الاسكندرية » فسـألته هـل يستطيع تحديد هذا المدى ولو على التقـريب فأجاب بالسلب فاستوضحته من هو رئيسـه الذى يشرف على التحقيق الذى يجريه فقال انه رشدى باشـا وزير الداخليـة ورئيس مجلس الوزراء .

فى القاهرة

وعادت زوجى الى القـاهرة وتحدثت الى حسن باشـا عبد الرازق كى يمهد لها سبيل مقابلة رشدى باشا ـ وكان حسن باشا فى ذلك العهد وكيـلا للديوان العام فدلها على ان عميد اسرتنا درويش بك سـيد احمد من اصدقاء رشدى باشا واستحسن العاشرة من صباح ذات اليوم ان تكون المقابلة عن طريقه وكان ان طلب درويش بك الى رشدى باشا موعدا لتقابله فيه زوجى وحدد هذا الموعد ضـحى يوم بمنزل رشـدى باشـا بجنينة قصر العينى .

ماذا تحملين فى يدك

وقصـدت زوجى الى منزل رشدى باشا وانتظرته فى قاعة الاستقبال التى كان ينتظر فيها ايضـا احمد بك عبـد اللطيف وكانت زوجى جالسه فى طرف القاعة وكان [illegible] وكانت [illegible] الذى فى ذلك [illegible] المحامين [illegible] وكانت زوجى [illegible] فلما [illegible] رشدى باشا [illegible] على هـذه [illegible] فى [illegible] ماذا تحملين فى يدك فخرجت [illegible] زوجى هى الى حضرتى [illegible] الاستقبال [illegible] روسية ومن يدرى كل ماتستطيع الروسيات ان يحملن تحته ..

وكانت مناسـبة ظريفـة للتحدث فى موضوعى بحضـور نقيب المحامين الاستاذ احمد عبد اللطيف وكانت زوجى تريد فقط ان تعرف هل سيطول سجنى او سيقصر وهل سيعقبه افراج

عنى أو ارسال الى « مالطة » كما كان يحدث للمعتقلين السياسيين فى ذلك العهد

رشديات

وقد بدأ رشدى باشا يشكو الشبان المصريين ، وعدم تقديرهم دقة الظروف التى تجتازها البلاد والمخاطر التى قد تعرضها لها اعمالهم فقالت له زوجى وهل من العدل أن تحاسبوهم على ما كان يجيش فى صدورهم أيام شبابهم الاول من آمال لاجل مصر ومن عواطف نحوها او لم تكن انت ياباشا مثلهم لما كنت فى مثل سنهم فاعتدل رشدى باشا « انا لقد كنت اكثر حماسا منهم واشد التهابا ولو جاءت السلطات العسكرية وفتشت الان منزلى لوجدت من اوراق ذلك العهد ومذكراته ما لو حوسبت عليه لقذف بى الى قاع البحر الابيض المتوسط .

قالت له زوجى « واذن ؟ » فأجاب « واذن .. لكن قولى لى « هل انتما هنيئان فى زيجتكما ؟ » فقالت « بل نحن على خير ما يحلم به زوجان من سعادة » قال وانا لا احب ان تحطم هناءتكما وسيخرج عزمى من السجن « قالت متى ؟ - قال غدا وسأعطى التعليمات من الوزارة بمجرد وصولى اليها الان قالت - قد تنسى ياباشا وهذا التليفون الى جانبك الان فهلا تحدثت قال فليكن .

الامر للسجن مباشرة

وامسك رشدى باشا التليفون وطلب محافظة الاسكندرية وسأل عن بدر الدين دوجيدة [illegible] سجن الحضراء وتحدث الى مأموره مباشرة وطلب اليه ان يرسلنى الى القاهرة لمقابلته بدون قطار النوم فى صبيحة اليوم التالى .

ازوزه ..

ونحو الساعة الرابعة بعد ظهر ذلك اليوم استدعانى مأمور

السجن الى مكتبه واخبرنى انلديه خبرا يسرنى هو انى عائد الى القاهرة بقطار الصباح الباكر واضاف انه يود ان يشاركنى السرور فقدم لى زجاجة « الازوزة » ، فاستغربت تقديم الكازوزة فى فصل الشتاء مع ملاحظة ان مدام عزمى كانت تلبس « الماتششون » ، ولكنى شكرته وتناولتها ولا ازال أذكرها . زجاجة من زجاجات كازوزة الاسكندرية ذات « البلية » وكان طعمها لذيذا وقد تذوقته بعد اسبوعين قضيتهما فى السجن ولما انتهيت من شرب الكازوزة واستأذنت فى العودة الى زنزانتى حتى الصباح همس هامس فى اذنى ان زوجى وراء الباب وان فى استطاعتى ان اراها اذا التفت .

وكانت بمجرد ان اتم رشدى باشا حديثه التليفونى مع ادارة السجن قد هرولت الى محطة القاهرة ولحقت القطار الذى يغادرها ظهرا ووصلت الى الاسكندرية تتأكد من تنفيذ الاوامر وترافقنى فى عودتى فى سبيل الانطلاق كما كانت ترافقنى فى الذهاب فى طريق السجن

بدر الدين

وكان بدر الدين بك قد حدد لاستئناف التحقيق معى الساعة التى غادرت فيها الاسكندرية وكان قد ملا آندية الاسكندرية اعلانا بأنه قد وضع يده على « رأس العصابة » وكان يود ان يحسب احد افرادها « شمس الدين » بحكم كونه تلميذى فى مدرسة التجارة هو الواسطة بينى وبينها ودق التليفون من المحافظة الى السجن يبلغ اوامر بدر الدين بك باستحضار المسجون السياسى محمود عزمى فأجيب بدر الدين أن عزمى بأمر رئيس الوزراء فى طريقه الان الى القاهرة ـ



٦ مناديل حريرية

وغادرت سجن الحدراء فى الصباح الباكر وقصدت ومعى جاويش من رجال البوليس الى محطة الاسكندرية فى عربة حملناها ملابسى التى كانت قد أرسلت لى فى السجن كما حملناها « المرتبة والمخدة والملايتين » التى كنت قد اخذتها مساء القبض على فى القاهرة وفى المحطة التقينا بزوجى وركبنا القطار ووصلنا الى القاهرة فى الضحى وقصدنا الى رياسة مجلس الوزراء بعد ان مررنا فى طريقنا بالمنزل حيث نزلت زوجى وانزل ما كان معنا من امتعة — واعلنت لرشدى باشا وادخلت فى مكتبه وكان معه جعفر والى باشا وكيل الداخلية اذ ذاك فاخبرنى رشدى باشا انه امر بالافراج عنى وبعودتى الى التدريس بمدرسة التجارة كما كنت ونصح لى بعدم الاشتغال بالسياسة فى تلك الايام العصيبة وطلب الى جعفر باشا ان ينهض ليتم اجراءات الافراج عنى بسرعة اذ تنتظرنى « الست حريمى » على حد تعبيره — واذن كان أمرى يهم جعفر باشا

فى مكتب وكيل الداخلية

وقصدت مع جعفر باشا الى مكتبه فاصدر اوامر بتسليم رجل البوليس الذى صحبنى من الاسكندرية كتابا يعود به الى محافظة الاسكندرية . واذ كنت قد سمعت رشدى باشا يقول لجعفر باشا ان امرى كان يهمه فقد شكرت له اهتمامه وسألته سببه فأجابنى بأن مستر سيمندر ناظر مدرسة « التجارة »

- وقد كان فيما مضى استاذه في المدرسة التوفيقية - كان يسطره كل يوم سؤالا عنى وعن سبب القبض على وعن مصيرى فى السجن وكان ينبع سؤاله كل يوم بشهادة حسنة فى .

فى مدرسة التجارة

وعدت الى المنزل وعدت الى تناول الطعام الشهى فيه ثم قصدت بعد الظهر الى مدرسة التجارة وقابلت ناظرها وشكرت له اهتمامه بى وسؤاله عنى فعلمت ان جعفر باشا كان قد اخبره ان سبب القبض على يرجع الى العثور عندى على مذكرة كتبت فيها انه يجب اخراج الانجليز من مصر وانه لابد من استعمال القوة فى ذلك السبيل وسألنى مستر سيمندر هل هذا السبب صحيح فاجبته انى لا ادرى شيئا عن تحقيق السبب الصحيح للقبض على واضفت انه لو كان هذا السبب هو الصحيح لكنت بقيت فى السجن الى ان اقدم للمحاكمة العسكرية فقال رحمة الله عليه - وكان طيب القلب سليم النية - اذن كان القبض عليك غير مشروع واذن يجب ان تقاضى الحكومة على ما فعلت فلت ربما يكون هذا ميسورا فى الايام العادية اما والاحكام العرفية معلنة فيجب الاكتفاء بحمد الله على ان وقفت اجراءات القوم عند هذا الحد واخرجت نفسى هكذا من مأزق السلطة المحرجة .

عند وزير المعارف

وبعد يومين استدعيت لمقابلة وزير المعارف - وكان عدلى باشا - فقصدت الى الوزارة وادخلنى عليه - شريف بك صبرى - وكان اذ ذاك سكرتيره الخاص وكانت هذه هى المرة الاولى التى مثلت فيها امام عدلى باشا فاستقبلنى فى لطف وسألنى كيف معاملتى فى السجن ثم نصح كما نصح رشدى باشا من قبل بالابتعاد عن السياسة وعن مواطن الشبهات واضاف انهم فى مثل

هذه الاحوال ينظرون عادة فى أمر عودة الموظف الى وظيفته او عدم عودته اليها وفى استحقاقه مرتبه عن مدة الاعتقال او عدم استحقاقه لكنه قرر عدم التعرض لهذين الامرين بالنسبة لى واذن فلأستأنف عملى كأن شيئا غير عادى لم يطرأ فشكرت له وانصرفت وقد ترك حسن استقباله ووداعة حديثه فى نفسى أحسن الاثر .

صاحبنا الروسى

وبعد أيام جاءنى فى المنزل ذلك « الشاويش الانجليزى » الذى وجدته مقبوضا عليه فى بلوك الخفر ليلة القبض على فى القاهرة والذى عرفت منه انه كان روسيا وكنت قد اعطيته عنوانى ليقصد ليه اذا هو اصبح بعد الافراج عنه فى حاجة الى وقص على أنه قد حوكم وبرىء وأصبح شخصا مدنيا عاديا وانه فى حاجة الى عمل ليكسب منه قوته وفى حاجة كذلك لبعض ملابس فاعطيته بعضها ونفحته بجنيه وأعطيته كتابا يتقدم به لروسى كان يعمل مصورا فوتوغرافيا فى مصر الجديدة يجد عنده عملا .

وبعد ايام قابلت هذا المصور وسالته عن صاحبنا فقال انه لم يره وانه لم يتسلم من احد كتابا حررته فحملت التصرف محمل ما اعرفه من تصرفات العديدين ممن يقصدوننى واضفت « الفصل » الى قائمة « الفصول الباردة » التى يأتيها آدم وحواء

من رجال البوليس السرى

لكن لم تمض ايام حتى جاءنى صاحبنا من جديد يعتذر عما فرط منه ويقر فى صراحة انه فى الواقع من رجال البوليس السرى الذين يستخدمهم « فلبيدس » وانه مكلف بمراقبتى وانه مكلف ايضا بمعرفة اسماء من يترددون على منزلى وسألنى رايى فيما يضمنه تقريره الذى يجب ان يرفعه لرؤسائه فامسكت بذراعه واخرجته من المنزل وقلت له ان يضمن تقريره هذه الحقيقة

حقيقة طردى اياه وان يكف عن زيارتى والتقدم الى لاى مناسبة من المناسبات وعبثا حاول المسكين ان يقنعنى باستعداده لان يكون رهين اشارتى فيما اريد ان يضمنه تقريره الذى يجب ان يقدمه ــ اكلا للعيش ــ فرفضت استمرار التحدث اليه واغلقت الباب فى وجهه .

دقة تليفون

لكنى فوجئت بعد عدة اسابيع بدقة تليفون سمعت خلالها صوت « صاحبنا » يطلب ان اقابله فرفضت فالح وقال ان موضوع المقابلة امر خطير يهمنى فرفضت فالح من جديد وعين جهة النيل من ناحية الجزيرة مكانا للمقابلة فلم اعبأ به وبموعده ولم اذهب .
وفى صباح اليوم التالى وجدته امام « العمارة » التى كنت اسكن فيها بشارع حسن الاكبر فنهرته وعبست فى وجهه لكنه اصر على التحدث الى مرارا مصرا ان امرا قد صدر لرجال البوليس السرى بتفتيش منزلى فى منتصف الليل ولما كان يعرف انهما منزلا صديقين لى فقد جاء يخبرنى الخبر لعلى اخطرهما بالنبأ فى الوقت المناسب وكان هذان الصديقان هما عبد الحميد بدوى باشا وتوفيق السنوى باشا فهرولت اليهما وكان احدهما يقطن بميدان عابدين والاخر بشارع محمد على ــ وافضيت اليهما بها اتصل بى من نبأ خطير واحسبهما قد اتخذا للموقف ما هو جدير به من حيطة وعلمت منهما فى الصباح ان البوليس قد نزل بمنزليهما فعلا عند منتصف الليل واجرى فيهما تفتيشا دقيقا

اين هو

واذن فقد كان « الجاسوس » صادقا وقد حاولت الالتقاء به لمكافأته لكنى لم اعثر عليه ولم اسمع عنه ولا ادرى ماذا كان مصيره ومن يدرى اين هو الان وكان قد اخبرنى حين ابلغنى نبأ تفتيش منزلى الصديقين انه سيفر من وجه البوليس فرارا لانه لا يطيق العمل فى البوليس السرى .

فى قطار حلوان

وهكذا اسدل الستار على مضاعفات حوادث القبض على لمناسبة القاء القنبلة على موكب السلطان حسين سنة ١٩١٥ . ولم يجد عليها سوى أنى كنت يوما قاصدا الى حلوان وكان القطار الذى ركبته من محطة « باب اللوق » يقف بمحطة « السيدة زينب » ولما وقف هناك وجدت شخصا يركب فى « العين » التى كنت راكبا فيها ويجلس بجانبى وانظر اليه فاذا هو « بدر الدين » تبادلنا التحية وبادرنى بسؤالى عن وجهتى . فقلت الى « حلوان » فقال فى زياره ! فقلت هل هو تحقيق جديد ! وابتسمنا واخذنا نقرا الصحف صامتين الى ان وصل بنا القطار الى حلوان فافترقنا على غير موعد .

كيف عثر على بدر الدين

بقى ان ادون ظروف عثور بدر الدين على أو فى — على التعبير الاصح . والذى حدث فى هذا الشأن هو أنه لما القيت القنبلة على موكب السلطان حسين بالاسكندرية اتجهت الشبهات الى بعض طلبة المدارس فقبض عليهم وكان بينهم طالب طب هو عبد الغفار متولى وكلف بدر الدين بك وكيل ادارة الامن العام فى ذلك الحين بالتحقيق معهم وكان من أساليبه أن يوسع دائرة التفتيش والاعتقال والتحقيق ما استطاع الى التوسع سبيلا

واذن كان بين المعتقلين «متولى» فقد وجد فى نظر بدر الدين ان تفتش منازل جميع أقارب هذا « المتولى » وأن يقبض عليهم وأن تؤخذ أوراقهم جميعا والاستاذ عبدالمقصود متولى المحامى شقيق عبد الغفار فكان محتوما أن يلقى عليه القبض وهذا هو ما كان وكان محتوما أن تضبط أوراق عبدالمقصود كلها وهذا هو ما كان أيضا وكان بين هذه الاوراق « أجندة »جيب ، فيجب أن تقرأ مذكراتها بدقة وعنايه وورد فى المفكرة اليومية اشارة الى تناول العشاء عند «محمود عزمى» فيجب تفتيش منزل «محمود عزمى» ثم القبض

عليه ، أما ظروف ورود هذه الاشارة الى تناول العشاء فهو انا كنا مساء بنادى المدارس العليا قبل أن تغلقه السلطه العسكرية وتحرم الاجتماع فيه فتسلم عبدالمقصود طردا من المحلة فتحه أمامنا فاذا فيه اثنى عشر منديلا من الحرير عرضها علينا فقلنا « شيء جميل » وكانت زوجى معنا وقالت هى الاخرى « شيء جميل » واذن فقد قال عبد المقصود «تفضلى» فشكرت معتذرة فالح وألحت فى الاعتذار وانتهى الامر الى اهداء عبد المقصود اياها ستة من المناديل الحريرية المحلاوية، فرأيت أن تدعوه لهذه المناسبة الى تناول العشاء وتحددنا فى الموعد حددناه وسجله عبد المقصود فى مفكرته وكان هذا كافيا لان يكون ظرفا للقبض على لمناسبة القاء القنبلة فى الاسكندرية على موكب السلطان حسين

حكاية مذكرتى

أما تلك الكراسة التى وجدت ضمن أوراقى وتضمنت ماتضمنت من اشارة خطيرة الى وجوب اخراج الانجليز من مصر ووسائل هذا الاخراج فحكايتها عجب ذلك بأنى حين قصدت الى باريس طالبا فى صيف ١٩٠٨ رأيت أن أدون فى مذكرات يومية تتضمن مشاهداتى وتأثراتى فى العاصمة الفرنسية الكبرى يلذ لى بطبيعة الحال أن أقرأها بعد سنوات وسنوات وأقيس عن طريقها مدى ما يكون قد نالنى من تطور فكرى ولاسيما انى قصدت الى باريس ولم أكن أجاوز التاسعة عشرة وحدث أن دونت بالفعل مذكرات فى ثمانى أو تسع كراسات رأيت من باب الحيطة أن أخفيها عند عودتى الى مصر سنة أخفيها عند عودتى الى مصر سنة ١٩١٢ ثم أحرقها حين أعلنت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ ولذلك فلشد ما كانت دهشتى حين أطلعنى بدرالدين فى وزارة الداخلية غداة القبض على فى القاهرة على واحده منها التى كنت أحسبها فى غير هذا العالم المادى لكنى عرفت فيما بعد أن واحدة من تلك الكراسات التسع كانت قد ابتعدت عن مكانها العادى من « الدرج » واختلط أمرها بمؤخرته الخشبية

فلم أعثر بها حين أخرجت الكراسات لاحراقها وأراد القدر أن يعثر عليها الضابط «حجاج» وقد فتحت له أدراج مكتبي على مصراعيه وانا مطمئن تمام الاطمئنان الى انه لن يجد فيما فيها من اوراق شيئا يكون محل ظن اومؤاخذة ..

سر الصنعة

وكان ماصادره البوليس من أوراق رسائل خاصة تبادلتها وزوجي قبيل الزواج وخلال صيف بعد زواجنا بثلاث سنوات قصدت فيها الى روسيا وبقيت أنا فى مصر كما كانت رسائل متبادلة بين زوجي وو الدتها . أما هذه الرسائل الاخيرة فلم يجد بها البوليس من يعينه على تعرف ما فيها غير عسكري روسي في الاسكندرية لم يكن في مقدوره أن يعرف الاسلوب الذي كتبت به . واما رسائل الحب فقد اوهمني ضابط من رجال الامن العام من كان يبيع بعض صورها بين اصدقائه الذين كان يجتمع بهم في محل « جروبي » وكانت هذه الاذاعة التي تشعر بي نبأها سببا في ان اطالب برد الاوراق التي اخذت من منزلي فرد بعضها واعتذر عن رد الباقي بعدم استطاعة التوفيق في العثور عليها .

مقادير

وتريد المقادير بعد ذلك بسنوات أن تقوم القيامة المصرية وأن استقيل من مدرسة التجارة لالقي بدلوى فى دلائها وأن أتولى تحرير جريدة « المحروسة » سنة ١٩١٩ واتصل عن طريق عملي الصحفي المصرى فالتقى فيه بالوزراء الثلاثة يغذون الوفد بتقريراتهم فيكون بين هؤلاء الوزراء الثلاثة رشدي باشا الذى أفرج عنى من سجن الحدراء وعدلى باشا الذى تركت مقابلته لى لتلك المناسبة فى نفسي احسن الاثر فيكون لهذا الاثر ولذا الصنيع لاريب دخل - وان كان غير محسوس - فيما شعرت به نحوهما من ميل وما احسست لكفايتهما من تقدير

الحزب الديموقراطى

ضحى يوم من ايام اخريات الشتاء ١٩١٨ – ١٩١٩ وانا اسير الهوينا فى شارع جامع شركس متجها الى ميدان سليمان باشا لما لا اذكر الآن من قصد قابلت على غير موعد سابق صديقى الدكتور منصور فهمى وكان يعمل فى ذلك الحين سكرتيرا لجمعية الهلال الاحمر وكان يقصد الى مقر عمله فيها وكانت تشغل « شقة » من « شقق » البناء الذى كانت تشغل احدى شققه الاخرى « جماعة الاقتصاد السياسى والتشريع » وهو البناء الذى تقوم مقامه الآن « عمارة صيدناوى » المطلة على ميدان سليمان باشا وشارعى قصر النيل وجامع شركس فدعانى صديقى الى ان اصحبه حتى « سكرتيريته » حيث يقدم لى فنجانا من القهوة وحيث يتحدث الى فى امر اعتزم من مدة ان يتحدث الى فيه وذهبنا واخذت استمع الى حديث الصديق بينما اتناول القهوة واذا بالحديث تأسيس حزب سياسى تحدث بشأنه صديقى منصور بالفعل الى بعض اصدقائه من قبل وتم التفاهم فيما بينهم عليه وعلى الاسم الذى يطلقونه عليه وهو « الحزب الاشتراكى »

وتقدمت لصديقى على فكرته باعتراضين . الاول بعد فكرة تأسيس احزاب سياسية عن الصواب بينما يقوم « الوفد المصرى » موحدا الصفوف وراءه فى سبيل الجهاد الوطنى القومى والثانى عدم ملاءمة الظروف المصرية الاقتصادية والاجتماعية لتنظيم الجهود فى سبيل المبادىء الاشتراكية وعدم اخذى انا بهذه المبادىء على اى حال .

اما الاعتراض الاول فقد رد عليه الصديق بان لا معارضة
ة بين قيام « الوفد المصرى » وقيام احزاب الى جانبه فانما
ن هذه الاحزاب موالية للوفد بل ستكون منظمة لبعض
د ومتجهة بتيارها الى حيث يصب فى « بحيرة » الوفد
الذى يجب ان تتجه اليها كل الجداول والاقنية والانهر .

وقد اقتنعت بتدليل صديقى على هذه الوتيرة فانتقلنا الى مناقشة الاعتراض الثانى وكنت فى تلك الفترة عاكفا على قراءة كتاب فى « الديمقراطية الحديثة » لمفكر فرنسى معروف اعجبت بكثير من الآراء التى تضمنها وهى تسمو بالديمقراطية عما يذاع عنها عادة ويسند اليها عامة من المبادىء والتوجيهات التى اذا استساغتها ظروف تنظيم الجماعات ايام « جان جاك رسو » فان مقتضيات الاجتماع هذه الايام لا تسيغها اولا تسيغها بسهولة على اية حال .

ويظهر ان تدليلى فى هذا السبيل قد اقنع صديقى فرضى ان يعدل هو واصدقاؤه عن تسمية المولود الجديد « الحزب الاشتراكى » وان يستبدل به اسم « الحزب الديمقراطى » وان تكون هى المبادىء الديمقراطية التى يسعى الحزب الجديد للدفاع عنها والدعوة اليها فى مصر بينما يوجه جهوده فى سبيل القضية المصرية العامة شطر « الوفد المصرى » يغذيه بنتائج لتلك الجهود .

وتفاهمنا على هذا وتركت صديقى على ان اجتمع به وباصدقائه فى موعد حددناه لنمضى فى سبيل الاجراءات اللازمة لتأسيس الحزب « الديمقراطى » ووضع مبادئه وقانونه .

قرار المعممين من الديمقراطية

واجتمعت بالصديق واصدقائه ذات مساء فى ادارة جريدة « السفور » وكانت فى ذلك العهد فى شارع « عبد الدايم » وتكررت الاجتماعات ومضى المجتمعون شوطا فى سبيل وضع مبادىء

الحــزب وقانونه ولاحظت بــين المجتمعين نفرا من « المشايخ » صعب على ان ادرك مدى نزولهم عند المبادىء الديمقراطيــة التى تقرر وصعب على ان اسكت على بقــائهم « ديمقراطيين » اذا لم يكونوا نازلين عند تلك المبادىء حقا فانتهزت فرصـــة عرض المجتمعين لمبدأ « توحيد التشريع فى مصر » معنــاه ليس تطبيق التشريع الواحــد على المصريين والاجانب فحسب بل معناه قبل هذا وفوق هذا تطبيق التشريع على جميع المصريين مهما تــكن اديانهم ومعتقـــداتهم فاجابوا موافقين . لـــكننى احسست انهم لم يدركوا بعــد ما اعنى فاضفت الى ماتقــدم قولى . بمعنى ان تــكون للمصريين كلهم احكام زواج وطـــلاق واحدة فقالوا « لو اصبحت نعم » فقلت « وبمعنى انه اذا رغبت مسلمه ولتكن احدى اخواتنــا مثلا أن تتزوج من قبطى — وليكن عزيز ميرهم هذا الجالس معنا — فلا تكون هنــاك مانع ولا اعتراض فسكت « المطربشــون » وهاج « المعممون » وقالوا بل التوحيد فى كل شىء الا فى احكام الاحوال الشخصية فقلت ليس هذا من الديمقراطيــة فى شىء اذ ان التشريع يجب تطبيقه على ساكنى القطر الواحد [illegible] من مبادئها الاساسية .

عنــدئذ رفضــوا ان يكونوا ديمقراطيين [illegible] راحوا [illegible]

[illegible]

[illegible]

ذلك ان خبيئا اسر الى [illegible] الظــروف التى جعلت الاحــرار الاوليين يفكرون فى [illegible] الحزب [illegible] « الخبيث » ان [illegible] « الوفد المصرى » [illegible]



وهاج المعممون وقالوا : التوحيد فى كل شىء الا فى الاحوال الشخصية

اول الامر قاصرا على سبعة من اعضاء الجمعية التشريعية فلما مضى « الوفد » فى تنظيم اموره شوطا راى ان يزيد عدد اعضائه او ان يضم الى هيئته عددا من الممثلين لهيئات سياسية ولاسيما الحزب الوطنى الذى كان انضمام حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا وحضرة صاحب السعادة حافظ عفيفى باشا على سبيل تمثيلهما اياه .

وكانت هناك جماعة اسمها « جماعة السفور » تشرف على تحرير جريدة « السفور » لصاحبها الاستاذ عبد الحميد حمدى فاجتمعت ذات مساء وقررت ان تطلب الى الزعيم سعد باشا ان يضم اثنين من اعضائها الى هيئة الوفد يسافران مع اعضائه الى باريس ويسعيان معهم فى سبيل الاستقلال وانابت الجماعة عنها ثلاثة اشخاص كان بينهم الدكتور منصور فهمى والشيخ مصطفى عبد الرازق لعرض قرارها على رئيس الوفد فقصدوا الى «بيت الامة» وقابلوا الزعيم سعد وعرضوا عليه الامر فسألهم - رحمه الله ورحم سرعة خاطره ومليح تهكمه - من أنتم؟ فقالوا نحن جماعة السفور قال : ماجماعة السفور ؟ .. قالوا جماعة تنشر مبادىء الفكر الحر وتدل الناس على الحقائق سافرة قال هل انتم حزب سياسى او ان لكم فى سياسة البلد مكانا ممتازا وهل وكلكم فريق من الامة فى النيابة عنها ومن تريد ان تنوب عنها جماعتكم؟ .. قالوا : الدكتور منصور فهمى والشيخ مصطفى عبد الرازق قال : أفهم أن نضم الينا الشيخ مصطفى عبد الرازق على مكانته الشخصية ومكانة أسرته واتصال جهودها بالحياة السياسية المصرية اما « جماعة السفور » فلا افهم لها اتصالا بهذه الحياة ولا افهم لطلب تمثيلها فى الوفد معنى ، ولو كنتم حزبا سياسيا لكان لكم شأن اخر .

وانصرف المندوبون وعادوا الى باعثهم يفضون اليه بتفصيل مادار بينهم وبين الزعيم سعد فتباحثت الجماعة فى : هل تكتفى بتحقيق ماشار اليه رئيس الوفد وهو ضم الشيخ مصطفى عبد الرازق

الى هيئته بصفته الشخصية وهو شرف لها على اية حال او تصر على ان يكون لها ممثلان رسميان ؟ فكادت الجماعة تميل الى الاكتفاء بوعد سعد باشا لولا ان اصر الدكتور منصور فهمى على ضرورة تمثيل الجماعة تمثيلا رسميا فلما اشار اخوانه الى اعتراض رئيس الوفد الخاص بعدم توافر الصبغة السياسية والحزبية للجماعة اجاب اذن فلنؤلف حزبا . اذن فلنؤسس حزبا

ويقول « الخبيث » ان الرغبة فى عضوية الوفد هى التى ولدت فى الحقيقة فكرة انشاء الحزب ودعوة من دعوا بعد ذلك الى العمل فى سبيل تأسيسه وكنت منهم وماكنت لاقف على حادث الحوار بين سعد وجماعة السفور ولولا ان رواه لى ذلك « الخبيث » من مؤسسى جماعة السفور .

مسالة الرياسة فى الجماعات المصرية

ومضينا اذن نؤسس الحزب ونضع قواعده وعرضت حكاية « الرياسة » ولكل رياسة فى مصر حكاية اى حكاية وكانت كثرة الذين انضموا لهيئة تأسيس الحزب التى اجتمعت بالبهو الكبير بدار ال عبد الرازق خلف قصر عابدين من الشبان الذين اتموا دراساتهم فى فرنسا وفى باريس وليون على وجه خاص .

وكان للمصريين فى « ليون » جماعة وكان مبعوثو الجامعة المصرية اول عهدها قد مروا بليون فى طريقهم اليها والى باريس والى لندن صيف ١٩٠٨ واحتفت بهم الجماعة المصرية بليون ولمحوا خلال الثمانى والاربعين ساعة التى امضوها هناك ان بين اعضاء الجماعة فتورا فى العلاقات نشأ عن خلاف على الرياسة فلما هبط من هبط منهم الى باريس وفكروا مع من فكروا فى رياسة جماعة مصرية فى العاصمة الفرنسية ذكروا ما بين اخوانهم فى ليون من جراء الرياسة فقرروا الاتكون لجماعتهم رياسة وان تكون ادارة الجلسات بالتناوب بين اعضاء مجلس ادارتها وان يكون هذا التناوب بينهم بترتيب الحروف الاولى

من اسمائهم ولعل الشيخ مصطفى عبد الرازق بالذات - اذا لم تخنى الذاكرة - هو صاحب اقتراح هذا النظام علينا بباريس سنة ١٩٠٩ ولذلك فقد كان من الميسور ان يدخل هذا المبدأ ذاته فى تنظيم حزبنا السياسى بالقاهرة فى سنة ١٩١٩ .

واسس الحزب وله مجلس ادارة مؤلف من تسعة اعضاء بينهم سكرتير هو الاستاذ عزيز ميرهم وبينهم امين صندوق هو الدكتور سامى كمال وتناوب اعضاء هذا المجلس رياسة الجلسات .

فى سبيل الوطن

وبدأ الحزب يعمل ولم تكن جمعيته السياسية قد زاد عددها على الخمسين او الستين لكن اعضاءها كلهم كانوا من الشبان المثقفين القادرين او رياسته المثقفين فى البلاد الناهضة وكان اجتماع الشباب والثقافة فيهم مبعدا بينهم وبين المطامع فى الجاه او المناصب او مبعدا بينهم على الاقل وبين جدية تفكيرهم فى تحقيق تلك المطامع اذا كانت عندهم وكانت النهضة المصرية فى ابانها وكانت فى خلوصها وطهارتها وكانت فى اتجاهها الى الوطن والوطن وحده وكانت البلاد مرتاحة وكانت فى تراثها بديعة فلم يكن بد من ان تكون كل حركة فى ذلك العهد بديعة . وان تكون جهودهم منتجة وقام الحزب الديمقراطى بما استطاع ان يقوم به من وضع النداءات وتوجيهها الى ممثلى الدول الاجنبية وتوزيع المنشورات وقد ... بالانسحاب وحض على الاسراع فى اتخاذ الخطط الحاسمة

النقابات ومشروع الرى

وكانت حركة العمال لا تزال بادية فى الافق فتعهدها برعايته والاشراف بعض الاشراف على نقاباتها وتأليفها وشكاوى العمال والدفاع عنها . وكانت مشكلة اعمال الرى فى السودان قائمة فكانت له لمناسبتها جولات وكانت له مباحث واراء تقدم بها الى الخبراء العالميين والمحققين الفنيين الذين جاءوا يفصلون فيما كان بين الخبراء المحليين من خلاف .

بيان لجنة ملنر وحفز الشباب للشيوخ

ولم ينس حقا فى الثمانية عشر شهرا الاولى من حياته ذلك المبدا الذى قام عليه التفاهم الاولى بينى وبين صديقى الدكتور منصور حين حدثنى فى امر الحزب وتأسيسه وهو مبدا ان يكون تياره موجها الى « بحيرة الوفد » يصب فيها ما يكون قد وفق اليه من افكار وما يكون قد وفق الى تنظيم جهود .

واذكر له فيما اذكر من هذا الصدد يوم حلت بمصر « لجنة ملنر » واصدرت نداء للمصريين ونشرت هذا النداء فى صحيفة « المقطم » بعد الظهر اذكر له انه اجتمع بعد ساعة واحدة من صدور « المقطم » وانه بحث نداء لجنة ملنر وعلق عليه بما شاء من ملاحظات وكتب بتعليقاته نداء دفع به الى جريدة « المحروسة » التى كنت اشرف على اصدارها فى ذلك الحين فأخرجت به ملحقا وزع على الناس قبل الغروب ثم قصد ثلاثة من اعضاء مجلس ادارته كان منهم الاستاذ عزيز ميرهم وكنت انا من بينهم الى « بيت الامة » يتحدثون مع لجنة الوفد المركزية بشأن نداء لجنة ملنر ونداء الحزب الديمقراطى فلما دخلوا « بيت الامة » راوا اعضاء اللجنة يتلون ملحق « المحروسة » وسمعوا المرحوم مرقس حنا باشا يقول « لقد اصدر الحزب الديمقراطى بيانا ولما نجتمع نحن بعد فهيا بجلستنا الى الانعقاد » ولمحنا مرقس باشا داخلين فقال « لقد سبقتمونا ولكنكم فى سبقكم تحفزوننا وتحضوننا على العمل والشيوخ حاجة لحفز الشباب . وكان طبيعيا وكان محتوما ان تنتج تلك الروح الخيرة وهى روح الثقة المتبادلة والاقتناع بان المصريين عامة انما يعملون لخير مصر عامة ـ كان محتوما ان تنتج تلك الروح الخيرة ماكان متجليا فى الحركة الوطنية ابان نهضتها الاولى من تكاتف وتسابق فى سبيل مصر وهنائها وفى سبيل الوطن وجده ورفعته

فى حضرة سعد . نظرية الاتصال

وموقفا اخر نذكره للحزب الديمقراطى وهو موقف محاسبة سعد اباه على فكره بعث بها اليه من القاهرة الى باريس .

وكان ذلك فى ابريل سنة ٩٢١ وكان عدلى باشا قد ولى الحكم على راس « وزارة الثقة » وكان قد قيل انها تتولى هى المفاوضات مع الحكومة الانجليزية ولكن الناس اخذوا يتساءلون عن موقف الوفد من هذه المفاوضات فعرضت للحزب الديموقراطى فكرة سميت فى ذلك العهد « نظرية الاتصال » تقضى بان يتولى عدلى باشا ووفده الرسمى المفاوضات الرسميه على ان تكون متصلا بالوفد المصرى يقفه من شئونها على كل صغيرة وكبيرة ولا يخطو فيها خطوة الا بالتفاهم عليها » . وبعث الحزب برأيه الى سعد باشا بباريس كما كان شأنه فى كل مكان يعن له من آراء فى المسألة العامة ومعالجتها وعاد سعد الى مصر وقصدت الامة الى « بيت الامة » تهنىء الزعيم وحج اليه — على حد تعبير الوقت — حجا وجاء دور الحزب الديمقراطى بين الهيئات السياسية التى يستقبلها الزعيم وكان ممثلا فى مجلس ادارته فلما اجتمع بالزعيم سأل سعد باشا « اين عزيز ميرهم » وكان عزيز ميرهم هو السكرتير العام الذى يوقع على مكاتبات الحزب كلها فأشار بقية الاعضاء اليه فسأله سعد باشا « اين تعلمت المفاوضة » وما نظرية الاتصال تلك التى تنصحنى بها لاهى تعنى ان يحضر عدلى الى مائدة المفاوضة وان اكون انا فى غرفه مجاورة اصفق له .

ولا اذكر ان احدا حاول يفسح نظرية الاتصال بعد ذلك لاستقبال لها ولموقع الخطاب المتضمن اياها ولكننى اذكر ان الاعضاء حين عادوا الى الحزب يدونون محضر اجتماعهم بالزعيم سعد وكنت بينهم وكنت استمع حديث الاستقبال للمرة الاولى لانى لم اكن قد ذهبت معهم اذكر انهم كانوا يداعبون الاستاذ عزيز

مبرهم مداعبة وظهر انه اخذحينما سئل سعد " ابن عزيز مبرهم " فرادوا من باب المداعبة ايضا ان يقولوا فى محضرهم بعد ان ذكروا سؤال الزعيم عن مبرهم ا فلان عزيز فص ملح وداب ا

لكن الذاتيات

ومهما يكن من امر فقد ظل الحزب الديمقراطى رافعا لواء التفكير الديمقراطى الحر وظل خادما القضية المصرية فى سموها والوطن المصرى فى سموه الى ان دخلته كما دخلت الهيئات المصرية جميعا المنازعات والذاتيات فأصبح مرسحا للدس وميدانا لسباق ذوى الاغراض واذكر مساء انتخابات - وكنت قد سقطت من قبل فى الانتخاب لمجلس الادارة - انضم فيه الى الحزب مئات ومئات لا ادرى حتى اليوم من زكاهم ومن دفع لهم رسم الدخول والاشتراك الذى أدرى بكل أسف ان كان من بينهم كثيرون ممن يتبوأون الان من المناصب أعلاها ومن يشرفون على تصريف غير الهين من الامور

درس وعظة

ولم يلبث الحزب بعد ذلك الا ان اضمحل فتفرق شمله وذهب من اعضائه ذات اليمين من ذهب وقصد ذات الشمال من قصد ونفر من الجانبين من نفر

وهكذا كان « الحزب الديمقراطى » درسا فى الدافع الى تأليفه . ودرسا فى انشقاقه وانحلاله ، كما كان درسا فى حياته العملية

وفى ذلك كله عظة وذكرى لمن يريد فى مصر أن يذكر وأن يتعظ .



مشروع ملنر بين سعد باشا وبيني

عاطفة فى ثورة

فى شهر مارس سنة ١٩٢٠ وقد أتمت لجنة ملنر تحقيقها فى مصر وعادت الى لندن محملة باجماع من المصريين امرائهم ووزرائهم واولى الامر فيهم والرأى والطاقة من الفلاحين والعمال وسائر الناس كلهم معقود على ان لاعلاقة للجنة بهم والا حديث لها عندهم وان الحديث والعلاقة جميعها انما يختص بهما « الوفد » ويختص بهما « سعد باشا » فى باريس والتقارير يعدها لسعد باشا « الوزراء الثلاثة » وتعدها « لجنة الوفد المركزية » ويحملها اليه من القاهرة « على ماهر بك » وتشخص ايضا مصر الموحدة الصفوف القوية العزيمة نحو باريس حيث يقيم وفد مصر والمصريون أجمعون فى ذلك الشهر من تلك السنة ورد على من زوجى — وكانت قد ذهبت منذ تسعة شهور الى باريس تستعيد فيها دراسة الطب قصد التخصص فى امراض الاطفال وتكريس حياتها لمعالجتهم فى سرابنا الذى فقدناه طفلا لم تتجاوز سنه الستة شهور — ورد على منها كتاب اثار فى ما اثار من لوعة وشجن لم يكونا ليدعنى أهنأ بالا الا اذا وصلت الى باريس على عجل .

واذن فكان لا بد من السفر مهما تكن الظروف وكان لا بد من مضى اسبوعين او ثلاثة اسابيع حتى تتهيأ الظروف المواتية وكانت المخاطبات متبادلة اثناء تلك الاسابيع الثلاثة بين سعد باشا بباريس وعدلى باشا بالقاهرة حول موضوع لجنة ملنر والاتصال

بها فى أوربا وتنظيم طريقة هذا الاتصال وانتهت هذه المخاطبات الى تقرير سفر عدلى باشا ليقابل سعد باشا بباريس والى تحديد اليوم السابع عشر من شهر ابريل موعدا للابحار عدلى باشا من الاسكندرية على ظهر الباخرة « سفنكس » الفرنسية .

مراسلتى للاهرام

وكانت هذه الباخرة ذاتها هى التى وفقت من طريقى الى حجز مكان لى على ظهرها وكنت قد اعتزمت مغادرة القاهرة صباح نفس اليوم الذى تبحر بعد ظهره من الاسكندرية وكنت أمضى السهرات مع اصدقائى عادة فى محل سولت فتحدثت اليهم بارحة سفرى فى رحلتى الى باريس وكان بين أولئك الاصدقاء « داود بركات » فعرض على ان اراسل « الاهرام » من باريس وان أترك له أمر الاتفاق المادى مع جبريل تقلا بك بمجرد عودته من الاسكندرية بعد يومين أو ثلاثة أيام فقبلت وسافرت فى الغد ولى صفة لم تكن بالامس .

مهربات

ولم يكن لى بعدلى باشا فى ذلك الحين غير اتصال الصحفى -وكنت اصدر جريدة « المحروسة » الى أن عطلتها السلطة العسكرية البريطانية - الراغب فى الوقوف على انباء التطور السياسى المصرى من المصادر الاصيلة الوثيقة لكن الناس لم يكونوا ليقنعوا بمجرد هذه الصلة وكانوا « متبرعون » لها بحواش وذيول واضافات أدع القارىء يتصور من تلقاء نفسه قدر ما بلغته من ضخامة وانتابها من مضاعفات حين عرف انى سافرت على ظهر الباخرة التى سافر على ظهرها عدلى باشا .

وكانت جماعات قد قصدت الى الميناء تودع عدلى باشا وتذكره بالاستقلال والاستقلال التام واذكر ان الشيخ « عبد الحميد النحاس » كان احد المنظمين لتلك الجماعات الموجهين لما تهتف

به من نداءات وأذكر انه لمحنى على ظهر الباخرة فاقبل يودعنى ويزودنى بنصائحه على اعتبار اننى مساهم بعض المساهمه فى رحلة عدلى باشا ومهمته وكان لايريد ان يصدقنى حين كنت انفى زعمه وكنت اضحك من نجنى القوم واصرارهم على عدم التصديق وظنهم فى الخبث والمخادعه لانى كنت اعلم فى ذلك الشأن على الاقل ان عدلى باشا يبحر بالدرجة «الفاخرة» من درجات الباخرة بينما أبحر انا بدرجتها الثالثه .

فى حضرة سعد

ولم ار بطبيعة الحال طوال الطريق بين الاسكندرية ومرسيليا لاعدلى باشا ولا غير عدلى باشا من المصريين ومن عادة شركات الملاحة ان تحكم الفصل بين ركاب الدرجة الاولى والدرجة الثانية فما بالك بالحواجز التى تقام بينهم وبين ركاب الدرجة الثالثة وكذلك لم التق به فى الثغر الفرنسى الكبير ولم يكن لى فى الواقع من هم سوى اللحاق بأول قطار يغادر مرسيليا قاصداً الى باريس .

ووصلت الى باريس وخصصت اليوم الاول لنفسى ثم قصدت فى اليوم التالى الى مقر « الوفد » بشارع « ماريوف » وهناك تفضل الرئيس سعد بمقابلتى وبالسؤال منى عن الاحوال فى مصر وكان متجليا خلال اسئلته كلها اهتمامه بحال الشعب المعنوية ورغبته فى تعرف مدى استعداده للبذل والتضحية وجاء عدلى باشا وانا فى حضرة سعد وكان فى حضرته كذلك على ما اذكر الان عبد العزيز فهمى باشا ولطفى السيد وعلى ماهر والمكباتى ومحمد على واحمد عدلى يقص على سعد باشا ظروف رحلته وتوديعه من الاسكندرية واصرار المودعين على طلبهم اليه الهتاف بحياة « الاستقلال التام » وسأله سعد وقد ضحكت أساريره «وهل هتفت لهم بحياة الاستقلال التام» واجابه عدلى باشا «انتهيت

الى الهتاف بحياة الاستقلال » وكان سعد باشا يضحك لهذا الموقف موقف عدلى باشا الهتاف ضحكات مستفيضة صادرة من اعماق كائنة .

انتقال الوفد الى لندن

وبعد تبادل الرأى والاستيثاق قرر الوفد الانتقال الى لندن قصد الاتصال فيها بلجنة ملنر ومباحثتها فى القضية المصرية فتقدم الى « مكتب التأشير على جوازات السفر البريتانى » بجوازات أعضائه وسكرتيريته فأشر لهم عليها بالتصريح بالسفر الى انجلترا وغادروا باريس اليها بالفعل وكان عدلى باشا وبعض اعضاء الوفد قد سبقوا سعد باشا وصحبه الى لندن من ايام .

حكاية التاشير على جواز السفر

وجاء الى مصر نبأ انتقال الوفد الى انجلترا فوصلت الى برقية من « الاهرام » تطلب الى مرافقته فقصدت الى مكتب الجوازات البريتانى التمس التأشير على جواز سفرى وسفر زوجى فقوبل طلبى بالرفض بحجة ان « الوفد » قد ابلغ المكتب منذ يومين قائمة باسماء المصريين الذين يرغب فى سفرهم ولم يرد اسمى فى هذه القائمة وعبثا حاولت ان اقنع القوم انى لست من الوفد ولا من سكرتيريته ولا من صحفييه حتى يرد اسمى فى قائمته وانى قد تسلمت البرقية من الجريدة التى اراسلها بعد سفر الوفد بيوم فلم اظفر باكثر من وعد بان يكتبوا الى لندن ليأخذوا رأى الجهات المختصة فيها .

وانتظرت اياما عدت بعدها الى ذلك المكتب البريتانى فقيل لى فيه ان اشارة وردت عليه من لندن ردا على استعلامه تصرح بالتأشير على جواز سفرى وترفض التأشير على جواز سفر زوجى

فلم ارض الاخذ بهذا الرأى العجيب وبعثت بكتاب لعدلى باشا اقص عليه القصة وارجو منه التوسط فجاءنى بعد يومين اثنين

كتاب من لطفى بك السيد يخبرنى فيه ان عدلى باشا طلب اليه ان يبلغنى ان وزارة الخارجية البريطانية قد ابلغت سفارة انجلترا فى باريس تعليماتها بشأن التصريح بالسفر الى لندن « لى ولزوجى ومن نشاء أن يرافقنا من الخدم »

وقصدت الى « مكتب الجوازات البريطانى » على عجل وقدمت الموظف الذى « اخذ يستثقل طلبى » جواز سفرى وسفر زوجى فقال ما معنى تقديم هذا الجواز الاخير وقد قيل لى من قبل ان الاذن صادر بالتأشير على جواز سفرى وحده فاجبت فى هدوء و« برود — شبه بريطانى — بل انتم ستؤشرون على الجوازين الاثنين قال كيف ذلك قلت لديكم تعليمات قال ليس لدينا تعليمات غير التى ابلغناك عنها فقلت اسألوا اذن السفارة فلابد ان تكون قد تلقت فى هذا الشأن تعليمات من وزارة الخارجية وحسبنى الرجل اهذى لكنه ذهب يتحدث تليفونيا وجاء يقول نعم ويأخذ الجوازين للتأشير عليهما ويسألنى « وعلى جوازات من تريدون ايضا التأشير » فاجبت انى مكتف اليوم بالتأشير على هذين ..

المفاوضات فى لندن

واقصد اذن مع زوجى الى لندن وارقب تطور المفاوضات عن كثب وابعث بانبائها البرقيات والرسائل الى «الاهرام» وكانت مفاوضات تجرى فى الوقت عينه بين وزارة الخارجية البريطانية ووفد روسى وتعرف أن ابن عم لزوجى احد اعضاء هذا الوفد فحسب ان هذه المصادفة قد تكون هى سبب رفض التأشير الاول على جواز سفرها ونعجب لمدى فعل المصادفات .

وتجرى المفاوضات واقف لمناسبتها على ما اقف من ميول وآراء واتجاهات ليس هنا محل تسجيلها وليس ذلك وقت اذاعتها .



وبهت دومانى وصاح -لقد نسيت ارسال البرقية!..

سكرتير عدلى باشا

وكنت حينما شممت رائحة قرب انتقال الوفد الى لندن قد بعثت الى « الاهرام » برسالة رأيت ان احضر بها الاذهان لذلك الانتقال حتى لا يفاجأ المصريون بخبره حين وقوعه مفاجأة . فلما نشرت رسالتى فى « الاهرام » ولم يكن الوفد قد بعث للجنته المركزية بشىء من ذلك الصدد ، تلقى الناس ما بعثت به بشىء من التردد فى التصديق ونشرت جريدة « النظام » وكانت على صلة متينة بلجنة الوفد فى ذلك العهد تتساءل من « الدافع لعزمى على نشر ذلك النبأ ؟ "هل جاء من تلقاء نفسه او بايعاز من عدلى باشا الذى سافر ليكون سكرتيرا له » .

ووصلت جريدة النظام الى مقر الوفد بباريس واطلع عليها عدلى باشا قبيل سفره الى لندن بدقائق فلما كنت اودعه بالمحطة سألنى هل اطلعت على « النظام » ولم اكن قد اطلعت عليه فقص على القصة واخبرنى ان الجريدة بمقر الوفد .

فلما اطلعت بعثت برسالة الى « الاهرام » اشير فيها الى تساؤل « النظام » وكانت الحوادث قد اكدت ما اردت تنبيه الاذهان اليه قبل وقوعه واقرر انى لا اعمل سكرتيرا لعدلى باشا « لانى اربأ بمواهبى ان تؤجر لاحد » .

محسوب علينا

وذهبت اروح واجىء فى ميدان « بيكاديلى » وشارعه اقضى ردحا من الوقت اعود بعده الى الفندق الذى ينزل فيه الصديقان وبينما اروح واجىء فى « بيكاديلى » التقيت بصديق ثالث تركته بالقاهرة منذ شهور - وهو عباس بك سيد احمد فأقبلت عليه وسألته متى وصل الى لندن فقال فى ظرفه الباش المعروف « وصلت اليوم وسأعود الى باريس غدا » فقلت ما هذا الكلام قال « لقد انتهت المفوضات » سألت كيف هذا قال لقد سلم لورد ملنر سعد باشا مشروع الاتفاق فى الساعة

الرابعة بعد ظهر اليوم سألت وممن علمت هذا النبأ ؟ قال من عدلى باشا .

عند عدلى باشا

فتركته حيث كان وتوليت نحو عدلى باشا وكان يتناول العشاء فلم اتردد فى اعلان رغبتى فى مقابلته فاقبل مرتديا « لباس السهرة » مبتسما ابتسامته الاخاذة وقد علاه شئ اخر يريد ان يقول به « لقد فاتك ان تعرف فى الاوان » واستوضحته الامر فقال « كل مافيه ان لورد ملنر تحدث الينا تليفونيا فى الساعة العاشرة هذا الصباح وقال لى انه انتهى هو وزملاؤه من وضع تقريره عن المفاوضات ويود لو يسلم لسعد باشا بعد الظهر فاتصلت بسعد باشا وتفاهمنا على ان يكون الموعد فى الساعة الرابعة .

مر بسعد باشا أولا

سألت وماذا تضمنه المشروع فسرد على عدلى باشا مواده واحدة واحدة الى ان انتهى منها جميعا فهممت مهرولا فسألنى الى اين ؟ قلت الى مكتب التلغراف قال لا بل الى سعد باشا اولا فقد يكون له رأى فيما يرسل للبلد وما لا يرسل قلت وهو كذلك وقصدت الى فندق « كرلستون »

لطائف

وكانت الساعة التاسعة قد اكتملت وكانت غرفة الاستقبال فى مقر الوفد غير منارة كل مصابيحها وكان بها سعد باشا وكان معه حمد الباسل باشا وواصف غالى والمكباتى فتقدمت الى الرئيس سائلا هل تسلم مشروع ملنر فقال نعم قلت وماذا تضمن المشروع ؟ فأجاب هذا اشكال فقد تعهدنا بعدم اذاعته قبل وصوله الى القاهرة قلت ولكنه عندى قال وماذا تعرف عن مضمونه فسردت ملخص مواده بالترتيب قال وكيف عرفته قلت من عدلى باشا قال لاغبار عليه فالذين تعهدوا هم

اعضاء الوفد وحدهم قلت انى كنت قاصدا الى التلغراف لابعث به الى الاهرام لكن عدلى باشا طلب الى أن استنير بكم فى صدد مايرسل منه وما لايرسل قبل أن يرسل كله واستدرك فى الحال « ولكنا ارسلناه » للجنة الوفد بمصر .. » قلت ولكن على ان ابعث به لجريدتى. قال لقد بعثنا به مستعجلا قلت لكن يجب ان اؤدى واجبى الصحفى فعاد ان البيان قد ارسل بطريق الاستعجال ففهمت من هذا الالحاح ان البيان لم يرسل وان سعد باشا لايريد أن يصل علمه الى احد فى مصر قبل ان يصل الى اللجنة المركزية وفهمت سبب « سؤال الباشا عن كامل سليم ورودا فى ثلاث مرات »

وأردت أن أبعد عن الاذهان انى سأسبق الوفد فى الاعلان فقلت ان مكتب التلغراف قد اقفل على اى حال واليوم يوم أحد والمكتب يغلق ايام الاحاد فى الساعة الثامنة مساء

وكان هذا صحيحا بالنسبة لمكتب التلغراف بشارع البرلمان ولم يكن صحيحا بالنسبة لمكتبه الرئيسى الذى يظل مفتوحا طول النهار وطول الليل ايام الاسبوع وايام الاحاد .

رأى سعد باشا ..

وسألت سعد باشا رايه فى مشروع ملنر فأجابنى بتحليل موقفه بصفته مصريا وبصفته رئيسا للوفد ووكيلا عن الامة فى المطالبة بالاستقلال التام ثم بتحليل موقف امثال « امين الرافعى » الذين يطالبون بما يطالبون به « من المنبع الى المصب » وبتحليل غير ذلك من المواقف التى لاتطاوع الظروف بعد على اذاعة الاراء بشأنها .

فى مكتب التلغراف

واطلت الجلسة عمدا حتى لا أدع الشك فى انى ذاهب الى التلغراف يتطرق الى نفس احد وفى منتصف الساعة الحادية عشرة استأذنت فى الانصراف وهرولت الى مكتب التلغراف

الرئيسي فحررت برقية وسلمتها منتصف الليل وحسبت حساب تقربها الى القاهرة والفرق بين لندن والتوقيت فى مصر وادركت ان البرقية ستصل بعد ان تكون «الاهرام» قد اعدت للطبع وجرأت ان اضيف كلمتين عمدا «اصدروا ملحقا»

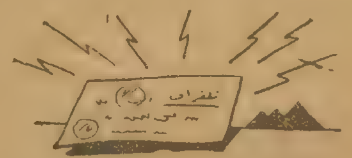
وكان ما حسبت حسابه فلم تصل البرقية حتى الساعة السادسة صباحا واصدر «الاهرام» على غير عادته ملحقا فى الساعة العاشرة صباحا .

وفى المحطة

وكان الاستاذ دومانى هو الذى يشرف على «شحن عفش» اعضاء الوفد فلما قصدت ضحى اليوم التالى . الى المحطة «فيكتوريا» لاعود مع الوفد الى باريس وجدته منهمكا ووجدت جيوبه مملوءة بالاوراق يخرج بعضها ويدخل البعض الاخر ويخشى الا يلحق القطار واخيرا تمت الاجراءات وقصدنا معا الى «الرصيف» فاراد دومانى ان يخرج «تذكرته» فخرجت من جيبه ورقة صفراء واللون الاصفر هو لون ورق البرقيات التى ترسل للخارج فى انجلترا فلما راها دومانى بهت وصاح «لقد نسيت ارسال البرقية» سألت اى برقية ؟ فقال البرقية بمشروع ملنر . .

وقد اعددتها هذا الصباح لكن مشاغلى حالت دون ارسالها من الفندق ...

فدللته على مكتب التلغراف على الرصيف وقصدت انا الى القطار اقص القصة كلها على سعد باشا الذى ضحك لها كثيرا ...





فى اليوم الاخير من شهر اكتوبر سنة ١٩٢٢ كون فى مصر حزب الاحرار الدستوريين وأنشئت جريدته « السياسة » ودعيت الى ان أكون مندوبا لها فى مدينة « لوزان » اثناء انعقاد مؤتمر الصلح بين تركيا والحلفاء وقصدت الى « لوزان » فى هذه المهمة ونزلت بفندق « موريس » وانعقد المؤتمر فى الثانى والعشرين من شهر نوفمبر واخذت اقوم فى عملى الصحفى وليس لمصر فى المؤتمر وفد رسمى لكن لها فى لوزان وفدين متخاصمين – وفد « الوفد المصرى » فى « لوزان » بالاس « ووفد الحزب الوطنى » فى فندق « سيسيل »

وذات مساء وانا اتناول العشاء بالفندق الذى اقطن فيه همست الخادمة فى اذنى معلنة ان قاطنا آخر اشارت اليه يرغب فى التعرف بى فاجبت باستعدادى لذلك بعد الانتهاء من الطعام وتقدمت اليه ونقدم الى فاذا به زميل صحفى من ناحية وله بمصر علاقة من ناحية أخرى هو الدكتور « برامر » النمساوى قال لى انه يمثل صحيفة المانية ولو ان المانيا غير ممثلة فى المؤتمر كما كنت امثل صحيفة مصرية ولو ان مصر غير ممثلة فى المفاوضة وقال لى انه كان بمصر حين اقيم خزان اسوان يعمل طبيبا لعمال الخزان وأمضينا الامسية فى الفندق نتناول شتى المواضيع وكان مما تبادلنا هذا الحديث هو .. اتعرف ان عاهلكم السابق عباس مقيم الآن فى «لوزان» ؟ ؟

أنا .. لا لا اعرف ذلك

هو .. انه مقيم بفندق « سافوا » ونازل فيه باسم « كونت دى شابان » وانا اعرفه من قديم وقد زرته فى فندقه هذين اليومين

وافترقنا للنوم ثم اعتدنا ان نتناول القهوة معا فى بهو الفندق واثر كل غذاء وكل عشاء نتبادل انباء المؤتمر وتطور المفاوضات فيه دون أن نقفى مرة على حديثنا السابق عن « العاهل السابق » وقبل ظهر ٢ ومؤتمر الصلح منعقد فى « قصر اوشى » والصحفيون مجتمعون بناديهم قبل ان ينتشروا لدى مختلف الوفود يتعرفون من اعضائها بعض الانباء قرأت خلال اطلاعى على الصحف الانجليزية نبأ تلغرافيا بعث به مراسل « الديلى تلغراف » بالقاهرة الى جريدته يقول فيه ان وزيرا مصريا سابقا هو اسماعيل صدقى باشا ومحاميا مصريا كبيرا هو حسن صبرى بك رفعا الى حضرة صاحب الجلالة الملك وقت تشرفهما بالمقابلة لمناسبة عودتهما من أوروبا ان مقابلة جرت فى سويسرا بين سمو الخديو عباس وعبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزارة اذ ذاك واضاف المراسل ان الامر قد نشأت عنه أزمة وزارية . هنا ذكرت حديث الدكتور برامر الاول وما تضمنه من بيانات عن اقامة العاهل السابق بلوزان ونزوله بفندق « سافوا » وتسمية نفسه باسم « الكونت دى شابان » ووجدت من واجبى الصحفى ان اتعرف الخبر اليقين عن تلك المقابلة التى احدثت فى مصر ازمة وزارية

قصدت اذن الى فندق « سافوا » وطلبت مقابلة « كونت دى شابان » فأقبل على بعد برهة « حسين بك شعبان » أو « ابن شعبان » وكنت اعرف من أمر هذا الاسم ان اكبر تجار الطرابيش فى مصر يحمله كما يحمله ابنه الذى يعتبر صديقا حميما للنقيب « أحمد لطفى بك » .

سألنى شعبان بك ماذا ابتغى فأجبت اِنى أود التشرف بمقابلة سمو الخديو فصعد ليعرض الامر على سموه وعاد الى يقول ... اذا أردت مقابلة سموه بصفتك الصحفية فان سموه

لا يرى لذلك فائدة لان الصحافة فى مصر مكممة ولانك لن تستطيع نشر شىء مما قد يدور بينكما من حديث . ولما اذا اردت المقابلة بصفتك مصريا فابواب سموه مفتوحة لكل المصريين فأجبت على الفور ... بل بصفتى مصريا اود المقابلة والتمس ان يحدد موعدها فسرتنى هنيهة قلت لنفسى خلالها « ماذا يهمنى الصفة مادمت ارمى الى تعرف الموضوع رجاء هو بعد ذلك يدعونى الى التشرف بالمقابلة . بالدور الثانى أم الثالث لا اذكر الآن وفى احدى الغرف المطلة على البحيرة من فندق « سانوا » بمدينة « لوزان » يوم من الايام الاخيرة من شهر نوفمبر أو الاولى من شهر ديسمبر سنة ١٩٢٢

تشرفت لاول مرة فى حياتى بالمثول بين يدى حضرة صاحب السمو الخديو عباس باشا حلمى الثانى وكل ماتستوعبه حافظتى من ذكريات متعلقة به يرجع الى انى ارتديت أول بذلة سوداء « مفصلة » عند ترزى ولبست اول قفاز حريرى ابيض لمناسبة زيارة سموه لمدينة المنصورة سنة ١٨٩٨ أو ١٨٩٩ واستقبلنا اياه نحن التلاميذ على شاطىء النيل ساعة وصوله وفى فناء المدرسة الاميرية فى اليوم التالى بأنشودة « سلام الخديو » التى كنت بين الاربعين تلميذا الذين اختيروا لترتيلها ويرجع الى تلك المواقف التى كنا نقفها نحن تلاميذ المدرسة التوفيقية والمدرسة الخديوية وكانتا المدرستين الثانويتين الاميريتين الوحيدتين بالقاهرة فى ذلك العهد – بحديقة الازبكية حيث كانت موسيقى الجيش البريطانى تعزف ألحانها للجمهور فكنا نقف موقف الانتباه محيين التحية الرسمية حين كانت تردد انغام « سلام الخديو » على اعتبار انه رمز حريتنا ومصريتنا وكنا نمضى فى غير اكتراث حين كانت تردد انغام السلام الانجليزى اعلانا منا لعدم التبعية وعدم الخضوع كما كانت حافظتى تستوعب ذكريات وقوفنا نحن طلبة الحقوق فى طريق الخديو عند غدواته وروحاته بين قصر عابدين وقصر القبة نصيح « ليحى الدستور »

وذكريات غضبنا من سياسة « الوفاق » بينه وبين المنتل البريطاني فى مصر اذ وجهت سهامها الموحدة الى الحزب الوطنى الذى كان يمثل الوطنية المصرية فى ذلك الوقت ثم ذكريات خلع الحكومة الانجليزية اياه باعلانها الحماية على مصر وما انتج ذلك الخلع مقرونا بهذا الاعلان من عطف على الضحية

وتلك الذكريات جميعا تتزاحم فى خاطرى مثلت بين يدى صاحب السمو وقد استأذن لى شعبان بك واعلنني وانسحب

وسموه اقرب الى القصر منه الى الوسط ضخم الجسم كبير الرأس أصلعه على عينيه الزرقاوين البراقتين منظار « امريكى » يخترق زجاجه بصره لحاد ، مقصوص الشوارب ، حلو الابتسامة ، ظريف الاستقبال . مد يده مؤهلا فصافحتها باحترام صادق ودعانى الى الجلوس ففعلت واخذ يسأل فأجيب ثم نحدث وكانت أسئلته اول الامر خاصة بعملى فى « لوزان » ومقامى وبما أتبينه من مصير للمفاوضات الدائرة فى المؤتمر وتحدث عنى فقال انه يعرفنى ويقف على مختلف جهودى ولا يزال يذكر جلسة « مجلس النظار » الذى تقرر فيها تعيينى مدرسا بمدرسة التجارة كما يعرف انى ابن عم الدكتور سيد كامل وانه تتبع باهتمام نشاط الحزب الديمقراطى الذى اشتركت فى تأسيسه وذلك بأن سنوات الحرب على حد قوله الحرفى - قد علمته ان يكون ديمقراطيا - وذكر مصر فتدفق يسأل عن اشخاص معينين من مختلف طبقاتها . امراء وزعماء وعلماء وموظفين وملاك ومحامين واطباء وصحفيين وعمد وضباط ، وافقار ومهربى الحشيش يذكرهم ويذكر الى جانب كل واحد منهم تاريخا له ولاسرته ومجملا عن حياته ونشاطه وتفصيلا لخلقه وموطن الضعف والقوة فيه ويذكر لمناسبته حادثة سياسية او عملية مالية او قصة اجتماعية ويروى نادرة قد يرد فيها مايتعلق بلص او قاتل عرفه سموه شخصيا وتبادل واياه الحديث .

قاموس حى للاحياء والاموات من المصريين الذين لعبوا دورا

فى الحيـــاة المصرية منذ عهد اسماعيل وحافظة جبارة تلم بالدقائق والتفاصيل وشخصية جذابة يكتنفها الظرف كل مكتنف وحديث حلو متنقل مرسل ذلك هو الاثر الذى تركه فى نفسى مثولى أول مرة بين يدى سمو الخديو عباس حلمى باشا الثانى الى جانب اقتناعه حين قال لى انه « اصبح ديمقراطيا » بانه لم يكن الا مداعبا موطن حساسا عرفه عند محدثه والى جانب احساسى انه لم يكن بعد واثقا الثقة كلها حين قال ردا على سؤالى الخاص بمقابلة تروت بننا الذى انتهزت الفرصة لطرحه : لا انا لم اقابل تروت ولماذا اقابله ! وماذا يستطيع ان يعمله لى لقد عرفت تروت دائما « العجله الخامسه للعربة » ثم صرفنى سموه واعدا ان يدعونى الى مقابلات اخرى مدة وجودنا « بلوزان » وهكذا كان حرف تشرفى بمعرفة الخديو .

بعد ربعة أيام أو خمسة من انصرافى من حضرة صاحب السمو الخديو حين تشرفت بالمثول بين يديه للمرة الاولى بمدينة لوزان فى سنة ١٩٢٢ استدعيت لمقابلته مرة ثانية ثم تكررت الاستدعاءات وتكررت المقابلات وكان اعجابى بذكاء سموه وحافظته وتجاربه يزداد كلما ازدادت بيننا الاحاديث وكنت أدلى لسموه بما اعلم من انباء المؤتمر وبما احاول ان أعرف من موقف الانجليز ازاء المسألة المصرية فى هذا المؤتمر استئناسا برايه الذى احسبه نتيجة قيمة لتجارب عدة وكان فيما رويته لسموه انى نظرا لعدم وجود مصرى داخل المؤتمر ولفشلى فى محاولة الاتصال بالوفد الفرنسى لما هو معلق على مدخل قاعته من انه غير مسموح لغير الصحفيين الفرنسيين بتجاوزه حاولت ونجحت فى ان «أفلت» بين الصحفيين الانجليز على اثر كل اجتماع للمؤتمر الى القاعة المخصصة لهم فى الوفد الانجليزى حيث يبلغهم موظف خاص تفصيل ما تم فى الجلسة المنتهية كما رويت أنى عرفت أحد الخبراء فى الوفد الانجليزى وانى اتحدث اليه فى المسألة المصرية .

وكان سموه متصلا اتصالا محكما بوفد « الحزب الوطنى » واتصالا غير جلى « بالوفد المصرى » وسأل سموه اصدقاءه الوفديين رأيهم فى ، وكانت العلاقات بين الاحرار الدستوريين والهيئتين الاخريين على غير مايرام فاجابه احدهم او بعضهم أو كلهم لا ادرى سامحهم الله جميعا على اى حال — انى من جواسيس الانجليز — وجاءت روايتى لسموه انباء اتصالى بالخبير الانجليزى وبالمندوب الصحفى الانجليزى فى المؤتمر مدعمة فى نظره ذلك الرأى الذى تقدم به فى اصحابنا المصريون .

وسموه لاينفك يبحث لا منذ وضعت الحرب اوزارها فقط بل منذ سنة ١٩١٦ عن وسيلة يقرب بها الى الانجليز ويفاهم واياهم اى نوع من التفاهم ولاسيما فيما يتعلق بنتائج تصفية املاكه فى مصر حسبنى الواسطة الصالحة التى يجب تسييرها وتوجيهها لمصلحته .

وحدث انى اخبرت سموه يوما كما اخبرت الاستاذ حافظ رمضان بك رئيس الحزب الوطنى انى عالجت الشئون المصرية مع ذلك الخبير فى الوفد الانجليزى على قاعدة تاليف وزارة من عنصر ثانوية ترأسها شخصية لايكون بينها وبين الوفد « خصومة متأصلة » تطلب الافراج عن سعد باشا من جبل طارق فيلبى طلبها ثم تطلب رفع الاحكام العرفية فيلبى طلبها فتكسب بهذا وذاك غير قليل من عطف الامة ثم تصدر الدستور التى أعدت مشروعه « لجنة الدستور » فلا يقابل بالجفاء الذى كان يقابل به لو كانت وزارة ثروت باشا هى التى تصدره لما بينها وبين الوفد من عداء ثم تجرى الانتخابات فى جو يكون قد صفى بما تقدمه على يد محايدة حقا من امور تطمئن لها البلاد وانما اشترطت وجود « شخصية » على رأس تلك الوزارة المكونة من عناصر ثانوية كى تستطيع ان تدفع محاولات انتقاص الدستور واقترحت ان تكون تلك الشخصية هى شخصية « رشدى باشا »

وطلب الى الخبير بهذا الرأى مذكرة رفعها الى وزارة الخارجية

ثم جاء يخبرني بأن رئيس القسم المصري يسره لو استطعت الذهاب الى لندن لنتحدث معا بشأن تدا-كرة

واقتضيت بذلك كله سمو الخديو وكان يود التقرب من الزعيم سعد باشا بعد ودّه التقرب من الانجليز فوجد من أمر الفرصة السانحة التي يجب اقتناصها مزدوجة

وحلل سمود الموقف ووثق وافترض ثم قرر لنفسه خطة لم يفصح بها الى لكني فهمتها اذ كنت قد بدأت أفهم شيئا من جوانب تفكير صاحب السمو وكان الرأى الذى وصل اليه هو أن يفهم سعد باشا أن سموه هو الذى سعى الى فك عقاله من جبل طارق من ناحية وان يفهم الانجليز أن سموه هو صاحب الحل الموفق الذى أتقدم به أنا من ناحية أخرى

وبعث يستدعى بالتلغراف حنفى بك ناجى من القاهرة ذلك لان حنفى بك على حد اعتقاد سموه من أصفياء سعد الممنة على الاوراق بالباخرة التى كانت قد اقلته هو وحاشيته فى رحلته الشهيرة الى الصعيد وذلك بأنى سأطلب من الانجليز اذنا بزيارة سعد باشا بجبل طارق حتى أبلغه أمر ما يكون قد تم عليه الاتفاق فيجب أن يذهب معى حنفى بك الى جبل طارق ويجب أن يبدأ هو بمقابلة سعد باشا ويفهمه ما يشاء سموه أن يفهمه كما يجب أن ينتهز حنفى بك فرصته لافهام الانجليز انه رسول الخديو فى تلك الحركة

وسافرنا الى لندن وهمى موجه الى ألا يعرف الانجليز من مهمة حنفى بك شيئا حتى لا يفشل المسعى جميعه وسواء لدى أن فهم سعد باشا أن الخديو هو صاحب الفكرة أم لم يفهم ، فانى أتوق الى تحقيق الفكرة لمصلحة مصر وكفى ... وليحظ بالفخر من يريده

وقابلت رئيس القسم المصرى بوزارة الخارجية الانجليزية وتحدثنا وطلبت اليه أذنا بزيارة سعد باشا بجبل طارق لى ولحنفى بك على اعتبار انه من أصفيائه الذين يثق بدرايتهم ، فقال ان هذا الاذن لا يمكن صدوره من غير رأى «لورد لنبى» المندوب السامى

البريتانى بمصر وانه سيكتب اليه بشأنه وأفضيت فيما أفضيت بأن الدافع الحقيقى لمسعاى « انما هو تألمى مما أراه حالا بمصر ورغبتى فى أن أرى أمورها العامة مسيرة بالخير »

لكن حنفى بك أخذ يلح بعد ثلاثة أيام أو أربعة فى مغادرة لندن وجوها غير محتمل فى شهر فبراير وأخذ يتعجل الحصول على الاذن بالذهاب الى جبل طارق فكتبت الى رئيس القسم المصرى أستوضحه مدى الوقت الذى يستغرقه استصدار الاذن فأجابنى انه ينتظر رد المندوب السامى عند نهاية الشهر

وكان مؤتمر لوزان قد أجل جلساته وكان على ان أعود الى مصر فقررت السفر مادامت مهمتى الاصيلة قد تمت واستبقيت حنفى بك فى لندن ينتظر الرد بعد أن قدمته تقديم معرفة فقط للموظف الانجليزى .

قصدت الى باريس واطلعت فى صحفها بعد أيام قليلة على أنباء ازمة وزارية فى مصر وكان دولة نسيم باشا هو القائم يومها بالحكم وسافرت الى « سان ريمو » حيث كان سمو الخديو لاودعه واذهب من هناك الى ثغر البندقية اركب منه الباخرة الى الاسكندرية وبينما أمضى يوما « بسان ريمو » قبل اخذ طريق العودة الى مصر وصل كتاب من حنفى بك الى سمو الخديو يقول فيه انه ذهب لمقابلة رئيس القسم المصرى بوزارة الخارجية البريتانية وبين له مايقاسيه من جو لندن وافهمه انه « لولا اخلاصه للرأس الكبيرة التى كلفته الذهاب الى انجلترا لما استمر بقاؤه »

فأجاب الرئيس « نعم انى معجب برأس عزمى واخلاصه لبلده » فقاطعه حنفى بك أى عزمى انى اقصد سمو الخديو »

وعدت الى مصر فوجدت مفاوضات تدور مع عدلى باشا لتأليف الوزارة الجديدة وعلمت انه ورد خلال هذه المفاوضات ذكر لرأى أبداه «مصرى» بوزارة الخارجية البريتانية كما ورد اسم هذا « المصرى » ثم حدث ان القيت تلك القنبلة بجوار مسجد

«أولاد عنان» ورفض عدلى باشا تأليف الوزارة وعدلى باشا هو الاخر شخصية تستطيع ان تحول دون انتقاص الدستور وعهد الى يحيى باشا ابراهيم بتأليف الوزارة التى نفذت عهدها ما تضمنه رأى ذلك «المصرى» من اقتراحات فأفرج عن سعد باشا وألغيت الاحكام العرفية واصدر الدستور

واذا كان الدستور قد أصابه بعض الانتقاص والاحكام العرفية قد الغيت بتضمينات فقد افرج عن سعد باشا من غير شرط أو قيد لكن الافراج تم دون ان تكون هناك زيارة لجبل طارق وبخاصة دون ان يكون هناك سابق تحدث فى الموضوع بين سعد باشا وحنفى بك ناجى .

وهكذا لم يكن التوفيق قد بين الخطة التى ارتسمها سمو الخديو لنفسه فى سبيل التقرب من سعد باشا للمرة الوحيدة التى اعرفها انا بالذات .

مع لورد لويد

تهيؤ الرحيل

في شهر مايو من سنة ١٩٢٩ وقـــد الغى مجلس وزراء « الدكتاتورية » الاولى « جريدة الشرق الجديد » التى كنت اساهم في تحريرها كما كان قـــد الغى من قبل « جريدة وادى النيل » لنشرها مقالاتى فكرت في الهجرة من مصر الى اوربا لعلى انعم فيهـــا بالحياة في جو « باريس » الحر الطلق وانعم فيه كذلك بتدوين بعض ذكرياتى عن الحركة الوطنية القومية المصرية التى لا تسبقـــها ولا يسبقنى حوادث ورجالا منذ قامت قيامتها العظمى في ســـنة ولا يسبقنى حوادث ورجالا منذ قامت قيامتها العظمى في سنة ١٩١١

وكنت احسب تلك الذكريات اذا ما دونت تخرج نفسي ربما في سفر اسميه « على هـــامش التاريخ المصرى » واسجل فيه الوقائع التى شهدتها وتحليلات لشخصيات عرفتها واترك ذلك كله « لمصادر المؤرخين »

اللورد لويد

وكان « اللورد لويد » يتولى في ذلك الحين منصب المنـدوب السامى البريطانى بالقـاهرة . وكان يقوم في السيـاســة المصرية وفى الادارة المصرية بدور كبـــير له اثره في تكييف الامور وتسيير الشئون ولم اكن اعرفه بالذات وكنت احسبه جديرا بفصل من فصول ذلك السفر الذى كنت اذعت فكرة اخراجـــه او تدوين « مهماته » على الاقل فاعتزمت السفر للحظوة بمقابلته والاستماع

اليه ورجوت صديقا من رجال « الدار » فى ان يهيىء لى فرصة المقابلة التى اخبرته القصد منها وباستعدادى للاكتفاء خلالها للتفرس فى « لورد لويد » تفرسا يعاوننى على استخراج شيء من نفسيته التى كنت احسبها « غير عادية » على الاقل

ما كنت اعرفه عن لورد لويد

ولم اكن اعرف شخصية « لورد لويد » اكثر مما يعرفه غيرى من الصحفيين المتصلين مثل اتصالى بالحياة العامة المصرية فى ذلك الحين . وكل ما كنت استطيع الاستناد عليه فى التدليل على ناحية من نواحى الرجل النفسية انما هى بعض حوادث وقعت لعدلى باشا معه وانما هى بعض تعليقات من عدلى باشا على هذه الحوادث بالذات

حول تبادل الزيارات

فقد زاره عدلى باشا مثلا مرة اثناء قيام وزارة « زيور باشا » بناء على مشورة ثروت باشا ثم اعلن هو عن رغبته فى مقابلة عدلى باشا مرة ثانية فرفض عدلى باشا ان يذهب اليه لانه لم يكن قد ادى لدولته زيارته الاولى وتدخل ثروت باشا فى الامر وانتهى بان دعى « لورد لويد » عدلى باشا الى « تناول الشاى » لا لى زيارته وكان اول ما تقدم لعدلى باشا حين استقبله انما هو حديث الزيارات وتبادلها وقد اعلن اسفه « اذ قيل له فى الدار ان المندوب السامى لا يرد الزيارات ، فاجابه عدلى باشا انه لا يريد ان يتدخل فى تقاليد الدار ولكنه يعرف ان من سبقوا « لورد لويد » فيها كانوا يردون له زياراته فاعتذر اللورد ووعد برد الزيارة لعدلى باشا بعد عودته من السودان وكان معتزما القيام برحلة اليه بعد يوم او اثنين

الموظفون الاجانب

وكانت اجال عقود كثرة لموظفين الاجانب قد حلت ايام

وزارة « لازلاف » الاولى لسنة ١٩٢٦ فقدم « لورد لويد » من رئيسها عدلى باشا بمطالب خاصة بتجديد بعض تلك العقود او زيادة مرتبات اصحاب بعضها وبزيادة مدة التعاقد فى بعضها الاخر فرفض عدلى باشا أن يتحدث اليه « لورد لويد » بشأن من شئون تلك العقود التى يعتبر امرها بين الحكومتين المصرية والانجليزية قد سوى بمجرد صدور قانون التعويضات فاصبح من اختصاص الحكومة المصرية وحدها ان تتصرف فيها بما تراه هى من مصلحتها دون تدخل احد فاظهر « لورد لويد » موافقته على راى عدلى باشا لكنه قصد الى حضرة صاحب الجلالة يحدث الى جلالته فى الموضوع على اعتبار انه موضوع يتحدث فيه للمرة الاولى وافضى صاحب الجلالة لعدلى باشا بمسعى « لوردلويد » فاظهر دهشته اذ يحاول اللورد هذه المحاولة بعد ان وافق على الرأى القائل بعدم تدخله ولم يمكنه عدلى باشا على اى حال من التدخل

الجانب الكاريكاتورى

وكان لورد تيرل « سر » وليم تيرل وكيل وزارة الخارجية الدائم فى ذلك الوقت قد جاء يمضى بمصر شهرا من شهور الشتاء سنة ١٩٢٧ — ١٩٢٨ او الشتاء الذى بعده فتقابل مع عدلى باشا فى الصعيد فجرى بينهما الحديث على « لورد لويد » فقال « لورد تيرل » ان للمندوب السامى البريطانى الى جانبه « الكاريكاتورى » جوانب جدية تقدر حقا اذا عرفت فأجابه عدلى باشا ولكنه لم يرنا نحن غير جانبه « الكاريكاتورى » .

فى طريق اللورد لويد

وفى جعبتى مثل تلك المعلومات الخاصة الى جانب المعلومات العامة المعروفة وصلت الى دار المندوب السامى قبيل الساعة السابعة من مساء اليوم الذى حدد لى تماما هذه الساعة للحظوة بمقابلة لورد « لويد » بقصد التفرس فيه والاستماع

اليه اذا شاء كى يعاونني على ان اخصص له بعض صفحات «هوامشى التاريخية» .

وبعد دقائق امضيتها انتظارا عاد الى «الباور» الذى كان قد استقبلنى حين وصولى وقادنى الى ان [illegible] فى دهليز غير مضاء [illegible] مضربين من باب غرفة السكرتير [illegible] فى كثير من [illegible] محمود عزمى باشا ! » فاجبت على الفور « لا بل المستر محمود عزمى فقط » . فتح الباب الذى كنا نقف عنده فخرجت منه [illegible] الذى كان مضافا [illegible] فى ناحية من نواحى «الانجليز» [illegible] « المستر محمود عزمى » وافسح لى الطريق فدخلت وخرج هو مغلقا الباب .

فى حضرة لورد لويد

وحييت اللورد فى انحناءة وكنت حاسر الرأس اذا كنت البس «القبعة» فى ذلك العهد وكان اللورد ناهضا الى مكتبه مادا يده فصافحته ثم جلسنا متقابلين وبدا الى اللورد «لويد» وانا على مقربة منه اسمر الوجه اسود الشعر سريع الحركات عصبيها فكان على غير ما اعرفه فى كثرة الانجليز وما يعرفه الناس جميعا وفى مثل الانجليز .

بالانجليزية او بالفرنسية

وبادرنى اللورد محدثا باللغة الانجليزية ومسائلا « هل سيدور الحديث بيننا بالانجليزية او بالفرنسية ؟ » فاجبت فى لغة انجليزية « بل بالفرنسية » فغضب اللورد ملاحظا « ولكنك تتكلم الانجليزية » فقلت « لكنى أجيد الفرنسية » فقال « اذن سينالك مضض فرنسيتى » قلت « خير من ان ينال فخامتكم مضض انجليزيتى » ثم مضى اللورد يتحدث فرنسية يجيدها ويتقنها

التضحية فى سبيل الرأى

ودار الحديث اول مادار حول القصد من زيارتى ومناسبة هذا القصد منها فوجدت لورد « لويد » يعرف انى اخلفت مع



وغضب اللورد ملاحظا ـ ولكنك تتكلم الانجليزية !..

« الاحرار الدستوريين » من اجل ما اصاب الدستور في التاسع عشر من يوليو لسنة ١٩٢٨ كما عرفت اني كنت هنأتها في جريدة « السياسة » وفي بيت « الاحرار الدستوريين » وانه قد اصابني شخصيا من جراء تركي لهم ولجريدتهم ما اصابني من ضيق وقلق يضطرني الى « الهجرة المختارة » من مصر لم وجدته يعلق على ذلك كله بقوله واني وان كنت ارى مخالفة لآرائك وسياستي لاتنال موافقتك لاقدر تلك التضحيات في سبيل الرأي واقدر الغضب من اجل المبدأ واحترم كل من يصدران عنه احتراما .

هل عرض نظام الدومنيون على ثروت باشا ؟

وعرض اللورد في حديثه الذي عقب به على تلك الملاحظة الاولى بشيء من سياسته « التي لاتنال موافقتي » وخطته التي يعتقدها وان لم يجاريه المصريون في اعتقاده في مصلحة المصريين وخير مصر وعلاقاتها الدولية وسجلت على لسانه في هذا الصدد عبارة احسب ذاكرتي لاتخونني حين اقول انها كانت على هذا النص .

« ليس لي ان أقفك على السياسة التي أعتزم تحقيقها في مصر وان كنت اومن انك لاتوافق عليها لكني عرضت على ثروت باشا الحل الوحيد المخرج من مآزقها جميعا فلم تكن لديه شجاعة قبوله .

ولم يزد لورد « لويد » هذا القول ايضاحا ولم يكن لي وقد احاطته بما احاط من سياج ان استزيده ايضاحا لكن عبارة اللورد لويد تركت في نفسي من الاثر ما جعلني احسب ذلك العرض الذي يعرضه « لورد » لويد » ولم يقبله ثروت باشا رئيس الوزارة الاستقلالية الثانية انما هو عرض تطبيق نظام الاجزاء الامبراطورية المستقلة على مصر على اني الى الآن لم استطع ان اتحقق من صحة ذلك الاثر الذي تركته تلك العبارة في

نفسي ولاشك ان المؤرخين سيجدون فى مذكرات ثروت باشا مايوضح هذا الموقف كل توضيح

اتفاقية المياه

وكانت اتفاقية « مياه النيل » قد عقدت فى ذلك الحين بين الحكومتين المصرية والانجليزية

وكان لورد « لويد » معتزا بوصوله الى عقدها اعتزازا فسألنى رأيى فى تلك الاتفاقية وكانت موضع اهتمام الصحافة والوفد والهيئات السياسية الاخرى وكان المهندسان الكبيران عثمان محرم باشا ومحمد زغلول باشا قد تقدما لمناسبتها بمذكرة أو مذكرتين وكنت اتصل فى صددها باهل الذكر والاختصاص فى شئون الرى وفنونه وكنت خارجا من ذلك كله بان الاتفاقية فى غير مصلحة مصر من جانبين فلما سألنى لورد « لويد » فيها اجبت « ان لى عليها ملاحظتين » فقال فى دهشة وعصبية «ملاحظتين» قلت : نعم قال : لك على الاتفاقية اعتراضان ؟ قلت نعم ، قال ماذا اسمع ؟ قد كان هنا قبل وجودك بساعة واحدة « وزير ... سابق » أحد رجال الرى المشهود لهم بالكفاءة التامة وقد تحدثنا فى اتفاقية المياه فكان رايه متجليا فى قوله لى «انى لا افهم كيف اعطيتم مصر كل ما اعطيتم فى الاتفاقية فقد كنتم اسخياء جدا » .

وكانت خريطة السودان والبحيرات واواسط افريقيا ملصقة على الحائط الى جانب مكتب المندوب السامى فنهض لورد لويد ونادانى مشيرا الى الخريطة وقال « نعم هذا هو السودان لكن هذه هى بحيرة فيكتوريا ، وهذه هى أوغندا وانت تعرف ان اوغندا مستعمرة بريتانية لادخل لمصر فيها البته ومع ذلك فقد جعلت الاتفاقية لمصر حق الاشتراك مع اوغندا فى تقرير الاعمال الكبرى التى تقام داخل حدودها ومع ذلك كله تقول ان لك اعتراضين ؟ .

قلت « لى اعتراضان اخذتهما من اهل الذكر والفن وسيظلان عندى اعتراضين مادام اهل الذكر والفن يعتبرانهما على هذا النحو » وسردتهما على حد ما كنت اعرفهما فى ذلك الوقت .

هل يدلون اليهم بالحقيقة ؟

لكن اللورد « لويد » لم يقتنع بحاجتى برأى ذلك الفنى الكبير والخبير الخطير الذى قال له ما حاجتى برأى ذلك الفنى الكبير انى اخشى ان يكون من الصعب جدا ان تتعرفوا حقيقة احساس جميع من يتحدثون اليكم من امثال من تذكرون . ذلك بأنهم يعرفون اتجاهاتكم وميولكم فيسبقونكم فيها ظنا منهم ان هذا يسركم وهم يريدون ان يدخلوا عليكم السرور وكفى حتى تظل علاقتهم بكم علاقات سرور ومودة قد تنفعهم ، وهم مثلا يسوؤنكم اما انا الصحفى والصحفى « المؤيد » غير المسؤول فانى اقول للمصريين ان لى على الثقافة مبادئ الشيل اعتراضين وهذا القول نفسه هو الذى اتقدم به اليكم ايضا وبلدات .

الثقافتان

ثم نص لورد لويد الحديث الى موضوع الثقافتين الفرنسية والانجليزية وكان اللورد يسعى فى نشر نفوذ الثقافة الانجليزية على الجامعة المصرية وكنت انا من المعارضين لهذا السعى . لاسيما فيما يختص بكليتى الاداب والحقوق اللتين يجب أن تكون الثقافة النافذة فيهما ذات صبغة مصرية قبل كل شىء وهما العاملان على تكوين التفكير المصرى والاجتماع المصرى واذا كان محتوما ان يكون لثقافة اجنبية نفوذ فيهما فهى الثقافة اللاتينية التى يستند اليها هذا النفوذ من الوجهة التاريخية وما تقرره من تفاعل ثقافات البحر الابيض المتوسط.

واذا كان لا بد من فتح المجال للثقافة « الانجلوسكسونية » فليكن ميدانها كليتى العلوم والطب ومثيلهما من معاهد تتمشى طبيعة التحصيل فيها مع طبيعة التحصيل فى الكليتين

وأحسب الحديث فى هذا الموضوع لم يقنع واحدا منا بوجهة نظر الآخر

لا تكن قاسيا على المندوب السامى

ودامت حظوتى بالوجود فى حضرة لورد لويد نحو ثلاثة أرباع الساعة استمعت خلالها الى كثير وتفرست أثناءها فى كثير

وعند ما هممت بالاستئذان للانصراف تفضل اللورد لويد فأظهر استعداده لمقابلتى فى باريس وهو فى طريقه الى لندن حين يقصد اليها فى اجازة الصيف وللادلاء بما قد أكون فى حاجة اليه من معلومات تكميلية

وكانت آخر كلمة وأنا أجتاز باب مكتبه « لا تكن قاسيا جدا على المندوب السامى »

فى لندن لافى باريس

ورحلت عن مصر الى باريس وجد فى الافق السياسى المصرى ـ الانجليزى ما جد من جراء فوز العمال فى الانتخابات العامة وتوليهم الحكم بتأييد الاحرار . وجد فى أفق دار المندوب السامى البريطانى ماجد من جراء الخلاف الذى بين لورد لويد ومستر هندرسون وزير الخارجية الذى انتهى الى استقالة لورد لويد ومناقشته هذه الاستقالة فى مجلس العموم واعلان مستر هندرسون لمناسبة هذه المناقشة التى أثارها صديق اللورد مستر تشرشل ان وزير الخارجية السابق فى حكومة المحافظين سر « استون تشمبرلين » كان قد بعث ببرقية للورد لويد يطلب اليه فيها ان يكف عن التدخل فى شئون الحكومة المصرية فلم ينزل عندها فنشأ الخلاف فى الواقع بينه وبين وزير الخارجية منذ ذلك العهد السابق وتولى العمال زمام الحكم .

وكانت المفاوضات تجرى فى لندن بين مستر هندرسون ومحمد محمود باشا فقصدت الى لندن كما قصدها غيرى من المصريين الذين

يعنون بمصير مصر وعلاقاتهـــابانجلترا وهناك سعيت لمقــابلة لورد لويد « المستقيل » لاقف منه على بعض معلومات تكميلية كنا نحسب اثناء اجتماعنـــا فى القاهرة ان « فخامة المنـــدوب السامى » سيتفضل بالادلاء بها فى باريس .

رد سلف

وحظيت بمقابلة لورد لويد فى منزله بميدان « يورتلند » وتفضل فتحدث الى عن مصر ورجالاتها حديثا مستفيضا مطلقا من قيود « الرسمية » فشمل فى صراحة غير قليل من التعليق على الحوادث والرأى فى الاشخاص تعليقا ورأيا لم يتهيأ بعد ظروف اعلانهما

وتحدثنا عن استقالته فاعدت على مسامعه ماكان قد قاله لى فى دار المندوب السامى بالقاهرة حين ذكر تركى لجريدة السياسة وحزب الاحرار الدستوريين عن « فهم التضحية فى سبيل الرأى وقدرة الغضب من اجل المبدأ واحترامه كل من يصدران عنه احتراما »

وابديت له نفس الاحســـاس وان كانت سياسته على حـــد تعبيره « لاتنال موافقتى »

حكومة صدقى باشا فى سنة ١٩٣٠

لما ولى اسماعيل صدقى باشا الحكم سنة ١٩٣٠ وقلقت البلاد من جراء ظروف توليه الحكم على دستورها وحريتها العامة وحريات أفرادها الخاصة . هب المصريون صاخبين محتجين داخل مصر وخارجها هبة طبيعية محتومة هى هبة الدفاع عن النفس والاحساس بالخطر الداهم

وكنت فى ذلك الحين بمدينة «لوزان» ـ بل بأحدى ضواحيها ـ أتبع فيها علاجا لمرض السكر الذى كنت أحسست شدة وطأته وانا قبل ذلك باسابيع فى مدينة لندن حيث كنت لمناسبة ماكان يجرى فيها من مفاوضات بين « الوفد المصرى » وحكومة العمال « البريتانية »

وفى «لوزان» كما فى «جنيف» وسائر عواصم العالم فى غرب أوربا طلبة مصريون يغضبون بطبيعة الحال لما يحل ببلادهم من أذى أو خطر الاذى فاجتمع طلبة « لوزان » المصريون أو المصريون المستزيدون من العلم هناك اذ كثرتهم قد جاوزت حدود التحصيل العادى باتمامها الدراسية العالية فى مصر وتباحثوا فيما يجب ان يؤدوه لبلادهم فى تلك المحنة واجتمعت بهم بعض الاحايين وقرروا أن يبعثوا ببرقيات الى مصر يحتجون على صدقى باشا فى بعضها ويناصرون (الوفد) فى بعضها الاخر ويدعون الامة قاطبة الى ان تقف الموقف الجدير بها وبدرجة ادراكها معنى الدستور وتقديرها نعم الحياة النيابية . ثم راوا ان يقوموا بنصيبهم من الدعاية فى مثل تلك الظروف فراحوا ينشرون مقالات واحاديث

فى الصحف السويسرية وينتهزون فرص الاجتماعات التى يحضرها ذوو النفوذ فى العالم الدولى فيتقدمون خلالها بما يستطيعون ان يتقدموا به من شرح للموقف المصرى وما يكتنفه من تبعات .

فى باريس

ولما أتممت علاجى «بلوزان» قصدت الى باريس وقد اعتزمت الاقامة فيها اقامة لانى ادركت ان حياة الاحرار بمصر فى عهد صدقى باشا لن تكون بحيث تمكنهم من توجيه مواهبهم التوجيه الذى يحسبونه الوحيد فى مثل تلك الظروف التى يتولى الحكم فيها صدقى باشا ولانى أعرف من ناحية اخرى ان الاقامة فى اوربا تمكن من العمل لمصر عن طريق الدعاية لدى عامة المشتغلين بالمسائل الشرقية ولدى خاصة المتصلين بها كذلك على الخصوص ومع كثرة المصريين الذين يطلبون العلم فى باريس من رجال البعثات الحكومية التى يحول ارتباطهم بها دون حرية نشاطهم لأجل الامور العامة فان فى العاصمة الفرنسية دائما — وفى ذلك الحين بالفعل — نواة طيبة من «الاحرار» تعمل البيئة الفرنسية فى تكوينهم عملا يحسون معه ضرورة التقدم للمصلحة العامة وضرورة البذل فيها .

جماعة حقوق الانسان

ورأت تلك النواة من المصريين تنظيما لجهودها وتدعيمها لدعايتها واحتياطا لما عسى أن يوجه اليها من « مضايقات ادارية » ان تؤلف من نفسها « شعبة جمعية حقوق الانسان » وهى جماعة سياسية قوية لها فى باريس الى جانب مركز اتحادها الفرنسى العام مركز لاتحادها الدولى العام ايضا تتبعه كل ما ينشأ من شعب غير فرنسية .

وقامت بعض الصعوبات المبدئية فى سبيل انشاء الشعبة المصرية ترجع اهمها الى « عبارة نظامى » يقضى بأن يكون مركز العمل الرئيسى فى مدينة من مدن الدولة التى تتبعها جنسية المؤلفين

بها . لكن الاستعانة «بالسوابق» ذللت تلك الصعوبات الجوهرية فقد سبق للايتاليين غير « الفاشيين » الذين ابتعدوا عن بلادهم بحلول عهد «موسولينى» فيها ان اسسوا « شعبة ايتالية» لجماعة حقوق الانسان بباريس صدر من لجنة اتحاد الجماعة الدولية بعد الرجوع الى الجماعة الفرنسية ذاتها قرار باعفائها من شرط الوجود بالبلاد الايطالية لان افرادها انما هم فى ظروف تجعل هذا الوجود بالنسبة لهم مستحيلا .

وعلى هذه الوتيرة عومل طلب انشاء الشعبة المصرية وصرح لها بالقيام فوضعت لائحتها ضمنتها اغراضها واشارت فيها الى انها مقيمة بباريس بصفة وقتية الى ان تزول ظروف الحكم الدكتاتورى فيها

نشاط الدعاية

واخذت « الشعبة المصرية » تنشط وتقوم بدعايتها عن طريق المقالات فى الصحف والتحدث الى رجال الدولة والبرلمان وعن طريق عقد الاجتماعات والقاء الخطب فيها

وكان من الاجتماعات التى عقدتها الشعبة المصرية بباريس اجتماع جعلت مناسبته ذكرى مرور خمسين عاما على حظوة مصر بنظامها النيابى الصحيح بين ان حمل انجلترا وذى النيل فعطله وتستبدل به نظام الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين »

وحضر الاجتماع عديدون من اصحاب الرأى من الفرنسيين ورأسه أحد أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسى خطب فيه من خطب من المصريين غير واحد من اعضاء مجلس النواب الفرنسى ايضا .

فضل جماعة حقوق الانسان

وظهر لنا بارحة الاجتماع وامسيته فضل جماعة حقوق الانسان وحكمة تاليف المصريين شعبتها المصرية بباريس ذلك انه

اتصل بنا ان المفوضية المصرية هناك سعت لدى ادارة البوليس – ولديه مباشرة دون وساطة وزارة الخارجية الفرنسية – كى يمنع الاجتماع الذى اعدت معداته فاحتطنا لنتائج المسعى المصرى الرسمى اذ أحطنا به علم الاتحاد الدولى والاتحاد الفرنسى فتدخل الاخير تدخل التنبيه الى ان شعبننا المصرية مؤلفة وفق قوانين الجماعه ولوائحها وان قانونها مسجل وفق احكام القانون الفرنسى ومنشور فى جريدة فرنسا الرسمية وان كل حد من نشاطها انما يعتبر اعتداء على الجماعة العامة ذاتها

ووضع الامر الى من هم فوق ادارة البوليس فى العاصمه الفرنسية من رجال الدولة فاشاروا بانهام « حضرة صاحب المعالى محمود فخرى باشا وزير مصر المفوض بباريس» ان حكومة الجمهورية لاتستسيغ تدخله المباشر لدى البوليس وانها لاتستطيع الحد من حريات الافراد والجماعات مادامت اعمالهم فى حدود القوانين الفرنسية

قانونان استثنائيان

وكان صدقى باشا قد اصدر دستوره «دستور سنة ١٩٣٠ » وكان برلمانه قد انعقد وكان هو قد استصدر قبل انعقاد برلمانه بيومين او ثلاثة ايام مرسومين بقانونين عدل باحدهما احكام قانون المطبوعات ومواد قانون العقوبات المتصلة بالصحافه وعدل بثانيهما قانون الجنسية اذ اضاف الى حالات اسقاط الجنسية الواردة فيه حالة جديدة خاصة « بالمصريين المقيمين فى الخارج » والذين يتصلون اى نوع من انواع الاتصال بهيئة او مكتب او جماعة تتصل هى الاخرى اى نوع من انواع الاتصال بحكومة نظامها لاجتماعى مخالف لنظام مصر الاجتماعى وفهم امام صدور هذا المرسوم الثانى ان «الشيوعية» هى التى سيفضى مجرد الاتهام بها اتهاما اداريا باسقاط الجنسية عمن يراد اسقاط الجنسية

عنهم من المصريين المقيمين فى الخارج كما فهم أن استصدار « المرسوم بقانون » الخاص بهذا التعديل فى قانون الجنسية قبل ان ينعقد البرلمان بيومين اثنين معناه قيام الحكم الجديد من يوم اخراجه وعدم اعطاء الفرصة لمناقشته فى البرلمان أو تعديله .

الشائعات

وراحت الاشاعات من القاهرة الى باريس او غير باريس من المدن التى يقيم فيها المصريون « غير المرغوب فيهم » من صدقى باشا ونظامه وراحت تجرى باسماء معينة بين هؤلاء وهؤلاء تقول انهم المقصودون بالذات بذلك التشريع الاستثنائى المستعجل وانه سوف تصدر المراسيم باسقاط الجنسية عنهم بين حين وحين .

والحق ان الذين كانت تجرى الاشاعات باسمائهم كانوا يقابلونها بابتسامة الاستخفاف والسخرية وبالاستعداد للبذل والتضحية فى سبيل آرائهم وفى سبيل مخاصمة نظام صدقى باشا والحمل عليه بكل ما يستطيعون .

سؤال فى البرلمان الصدقى

ووصلت الينا الجرائد المصرية يوما وفيها سؤال برلمانى تقدم به احد اعضاء حزب الاتحاد او الحزب الشعبى — هو عبد الله للوم على اية حال — يسائل فيه الحكومة متى تعتزم تطبيق احكام قانون الجنسية الجديدة فتسقط الجنسية المصرية عن اولئك المصريين المقيمين بباريس والمتصلين بجماعة تدين بالمبادىء الشيوعية وتتصل بحكومة موسكو وهى « جماعة حقوق الانسان » قرانا ذلك السؤال البرلمانى الفذ ودعونا مجلس شعبتنا الى الاجتماع وتبادلنا الرأى فيما يصح اتخاذه لمناسبته من اجراء، وهممنا بنشر السؤال فى الصحف الفرنسية وفى الصحف الانجليزية ومجرد نشره يدل على قدر جهل « النائب المحترم » المتقدم به كما يدل على سوء نية الدافعين لتوجيهه والفرنسيون والانجليز

يعلمون ان جماعة حقوق الانسان تضم بين اعضائها رجالات فرنسا وانجلترا السياسيين وتضم بخاصة في صفوفها الاولى من كانوا يتولون في ذلك الوقت الحكم في فرنسا وانجلترا ومنهم «اريو» و«بول بونكور» و«بالتو» ومنهم «مكدونالد» و«هندرسون» و«جون سيمون» والفرنسيون والانجليز يعلمون كذلك ان المؤتمر المشار اليه الذي كان قد عقدته جماعة حقوق الانسان في ذلك الوقت انعقاده كان قد أصدر قرارا يعلن فيه عداءه لكل نظام «دكتاتوري» يميني او شمالي فاشي او بلشفي «وهذا القرار هو نفسه الذي اتخذه حزب العمال الانجليزي في احد مؤتمراته التالية لذلك المؤتمر الفرنسي الدولي لكننا آثرنا اهمال تلك الجهالة في انتظار نتيجة المؤامرة المدبرة .

وكان السؤال هو اخر سؤال وجه في دورة ذلك الحين البرلمانية وانقضت الدورة دون ان يرد عليه أحد من الوزراء واعتبرنا نحن المؤامرة : مؤامرة تهديدية يقصد بها اسكاتنا او الحد من نشاطنا .

برقيـة التيمس

وظهر يوم من أيام أغسطس على ما أذكر جلست الى «كافيه دى لابى» اقرأ جريدة « التيمس » بعد وصولها الى باريس بالطائرة وقع نظرى فيها على برقية من مراسلها بالقاهرة يقول فيها : ان مرسوما صدر بحرمان ثمانية من المقيمين في الخارج لاتصالهم بانظمة شيوعية وكان سؤال عبد الله اللوم لايزال عالقا في الذهن وان كانت دورة برلمانهم قد انتهت دون ان يرد عليه وزير وكان عدد أعضاء مجلس ادارة الشعبة المصرية لجماعة حقوق الانسان بباريس ثمانية كما ورد في برقية « التيمس » فخامرني بعض شك أول الامر ثم قررت ان اتصرف على اعتبار ان اولئك الثمانية التى تعنيهم البرقية هم نحن أعضاء مجلس ادارة الشعبة بالذات .



وتلقيت منه الخبر فى هدوء، واذا هو يضحك ضحكة مسلية !...

تذكرة الشخصية

وجال بخاطرى ان فرنسا لاترضى عن الشيوعية وهى بطبيعة الحال لا ترضى عن الاجانب الذين يتصلون بالشيوعية ويقيمون فى بلادها وليس لديها اى دليل أو شبه دليل أو قرينة أو شبه قرينة على أنى متصل بالشيوعية أى نوع من أنواع الاتصال .

واستطيع ان اثبت بغاية السهولة على انتقاد تلك الحملة نفسها بل انى مسجل عند الشيوعيين فى عداد « الرجعيين » لانى مثقف من ناحية والمثقفون فى عمومهم خصوم لذلك « النظام الاحمر » ولان لى مقالات ضد « الشيوعية » بالذات من ناحية أخرى لكننى اعذر فرنسا اذا هى لم تعتد ببياناتى اذنا مادامت حكومتى أنا — ومفروض انها تعرفنى خيرا مما تعرفنى أية حكومة اخرى — تتهمنى بتلك التهمة وتذهب الى حد اسقاط الجنسية من أجلها عنى واذن فلا يبعد بعد ان تذاع الاسماء التى اشتملها ذلك المرسوم الذى اشارت اليه برقية « التيمس » ان تتقدم السلطات الفرنسية وتطلب الينا مغادرة البلاد .

ولما كان واجبا على كل أجنبى مقيم فى فرنسا أكثر من شهرين أن يحصل على «تذكرة شخصية» تبيح له الاقامة وكانت السلطات الفرنسيه تعتبر عدم وجود هذه المذكرة سببا كافيا لاخراج من تصل اليه يدها من المناسبات وكنت أنا قد قدمت طلب الحصول على «تذكرة الاقامة» لكن لم أقصد الى المحافظة لاستلامها فعلا فقد كان أول همى بعد ان قررت مواجهة الامر كأنه واقع بالفعل أن أسعى على عجل لاستيفاء هذا الاجراء وفى تمام الساعة الثانية بعد الظهر كنت قد استلمتها وكانت فى جيبى تلك التذكرة

الزملاء

وفى انتظار الساعة الرابعة بعد الظهر — وهو موعد استئناف العمل فى اندوارين [illegible] الصباح عند الظهر

تماما - سعيت لمقابلة بعض الزملاء القاطنين بالحى اللاتينى بالقرب من المحافظة وقصصت النبأ على من قابلت ونصحت بالاستعداد وبالاتصال ببقية الزملاء، قصد الاستعداد أيضا، وتقابلنا عصرا وتحدثنا فى الامر جديا وتلمسنا طريقة نستطيع أن نعرف بها أسماء أولئك الثمانية على التحقيق وأردنا أن نرسل برقية لاحدى الصحف فى القاهرة أو نطلب الى مراسل احداها فى باريس أن يتصل بجريدته ويحصل على تلك الاسماء لكننا ترددنا فى تنفيذ هذا الرأى لدقة ملابساته

صديق

وحضر اجتماعنا صديق كان يمر بباريس مرورا لا يشتغل بالسياسة ولا بالصحافة فلا يلفت اسمه الانظار وعلم من أمريكا ما كنا نتباحث فيه فعرض علينا أن يبعث هو ببرقيه لاحد أصدقائه فى القاهرة يسأله الخبر فشكرناله وساطته ورحنا ننتظر الرد فى الصباح .

اختيار الحدود

وفى انتظار الرد عرضت فى المساء لمسألة الحدود التى اختارها حين تطلب الى السلطات الفرنسية مغادرة بلادها ففكرت فى سويسرا ثم فى بلجيكا ثم فى اسبانيا وكان الملك الفونس قد غادرها وأعلن فيها نظامها الحاضر - واستقر رأيى عليها وذكرت أن لا بأس من تمضية وقت فى الاندلس، أستعيد فيه ذكريات الماضى العربى المجيد

ثم لاح فى الافق خاطر دفع تلك الخواطر جميعا وتساءلت لماذا لا أختار انجلترا ولماذا لا تكون لى فيها حملة على نظام صدقى باشا الذى يسأل عنه الانجليز كما يسأل صدقى باشا ولماذا اظهر فى مقالات اكتبها بشاعة ذلك التواطؤ «الانجليزى الصدقى» الذى يكون من اثره ان يقال لمن يجرى فى عروقه دم مصرى قديم عتيق « انك اصبحت بمجرد جرة قلم غير مصرى» ولما وقفت فى المطاف عند هذا الحل الاخير رضيت به وهدأ روعى ورحت

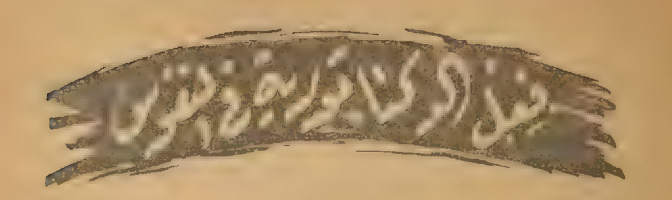
انتظر الرد على برقية الصديق الى الصباح ونمت نوما عميقا بعد أن اتصلت تليفونيا بزوجي التي كانت تصطاف بالقرب من « بيارتز » واخبرتها الخبر ، فاهمت واياها على ما كنت قد وصلت اليه من اختيار للحدود حين الرحيل .

أية جنسية جديدة

على ان سؤالا كان يتردد على طوال ذلك النهار وتلك الامسية فهب انى حرمت من جنسيتي المصرية فأية جنسية جديدة اختار ، وصعب على الاجابة عن هذا السؤال لا لدقة الاختيار بل لعدم استطاعتي اعتبار الجنسية « قميصا » ينتزع ليحل محله غيره والجنسية في نظرى كالدين لا اسيغ استبداله بالخروج منه والدخول فى غيره واسفت اذ لم تصل البشرية بعد فى اعتبار الجنسية الى ما وصلت اليه اعتبارات شتى اخرى فتكون عندنا « لا جنسية » تعتنقها هى الاخرى أو يكون عندنا « جنسية عالمية » يعتنقها كل انسان .

وفى الصباح

وفى الصباح دق التليفون واذا بذات الصديق الذى تفضل بالاستفهام من القاهرة تلغرافيا يقول بصوت مبتهج « هذه هى الاسماء : الدكتور الثونى . ابوبكر راتب . خليفة بويطى . توفيق راتب . محمود عزمى . ومضى فذكر اسماء الثمانية الاعضاء فى لجنة الشعبة المصرية لجمعية حقوق الانسان وان انثنى منه فى هدوء الخبر الذى كنت وطنت نفسى على صحته منذ البارحة ، فضحك الصديق ضحكة مستبشر بكذب الخبر ويقول بل انها « شبارزوت » رزنال ..و...و .. » ومن لا أدرى الآن من ممن اسقطت عنهم حق الجنسية المصرية بمقتضى المرسوم الاول انفاذا وفاقا لحكم تلك المادة التى اضافها صدقى باشا الى قانون الجنسية قبل اجتماع برلمانه بيومين اثنين وبادرت من فورى ابلغ الاخوان مداعبا بمثل مداعبة الصديق والى هنا انتهى الحديث فى ذاته ولو انه ظلت له بعد ذلك ذيول



اذن انتهت تلك الاشـــاعة الخاصة بحكاية اسقاط الجنسية المصرية عن اعضاء « جمـــاعة حقوق الانسان » بباريس على ذلك النحو المضحك الذى سردته لكن لم يكن انتهاؤها الى ذلك الحد انتهاء قطعيا .. اذ كانت للحكاية كما ذكرنا ذيول تقـدم طرفا منها .

اشاعة المنع من الدخول

ذلك بأن اشاعة اســـقاط الجنسية اذا كانت قد اختفت من الافق بعد أن تبين لنا ماتبين خلال برقية الصديق فان اشاعة أخرى قد حلت محلها وراحت انباؤها تنقل بين الشرق والغرب بين مصر وفلسطين والشـــام والعراق وبلاد العرب وبين فرنسا وانجلترا وسويسرا وتركيا وتلك اشاعة منعى من الدخـول الى القطر المصرى التى كانت تتردد الى أصداؤها خلال كتب يبعث بعض اخوانى من القاهرة وخلال احاديث يبلغها أيى بعض الزملاء بباريس وخلال بعض الأنات التى كان يبثها بعض اصـدقائى فى البلاد العربية التى كنت أزورها .

سخافة لا دستورية

وكنت أرد على أولئك الذين كانوا يحملون الى أنبـاء تلك الاشـــاعة أنها ســـخافة من السخافات التى لا يمكن تحققها لان مبادىء الحرية التى اقرها الدستور المصرى والتى احتفظ بها دستور صدقى باشا المعمول به فى ذلك العهد لا تجيز بحـال

منع مصرى من العودة الى بلاده اذ انها تحرم نفى المصريين الى الخارج كما تحرم حظر الاقامة عليهم فى كل مكان .

حتى جريدة كبيرة

لكن الاشاعة كانت تتوارد بالحاح وكان مروجوها يصرون على صحة اشاعتها ولا يقيمون وزنا لدليلى " الفقهية " ويميلون الى الاعتقاد بأن عبد صدقى باشا قد اهدر الحريات جميعا وقد استساغ الخروج على كل قاعدة قانونية دون أن يقف فى سبيله أى اعتبار وذهب هذا التوارد الى حد أن جريدة من جرائدنا الكبرى أشارت فيما نشرت من مقال خاص بنوع من النشاط الذى كان يبدو اذ ذاك فى بلد من البلاد العربية لمناسبة التفكير فى نوع نظام الحكم الذى يصلح له اشارت الى بالذات على اعتبار انى " صحفى مصرى ممنوع من العودة الى وطنه "

برقية

وعلى الرغم من كتابتى الى تلك الجريدة الكبرى ألفت نظرها الى الخطأ الذى وقعت فيه ونشرها ما بعثت به اليها فان الاشاعة ظلت متواترة وملحة وظل الاصدقاء يبعثون الى بمعلوماتهم وافتراضاتهم ونصائحهم وكانت كلها قائمة على اعتبار صحة تلك الاشاعة واعتبار كونها حقيقة واقعة .

وبدأت أنا تحت تأثير ذلك الالحاح العجيب من اخوتى واصدقائى أخفف من " غلواء " ايمانى بقدسية الاحكام الدستورية وعدم جراءة " الدكتاتور " على ابطال جزءا من احكام دستوره بالذات فبعثت الى صديق عزيز فى جزيرة قبرص عليه القصص وطلبت اليه اجابة تلغرافية تقتصر على احدى الكلمتين فاما " نعم " اذا كان للاشاعة نصيب من الصحة واما " لا " اذا لم يكن لها من الصحة نصيب وجاءتنى برقيته متضمنة " لا " وحملت انباء الاخوة والاصدقاء على ... عطفهم وحرصهم على عزتى .

قرينة

لكن مالبثت تلك البرقية تضع الامور فى نصابها حتى
حدث ماشاء الناس فى مصر لا يعتبرونه قرينة اى قرينة على
صحة الاشاعة وحقيقة الامر بمنع دخولى الى مصر .

ذلك انى اعتزمت المجىء الى مصر أمضى فيها شهرا أو شهرين
وقصدت الى ثغر « البندقية » وركبت منه الباخرة « فكتوريا »
الحديثة بالفعل وسارت بنا الباخرة من ثغر البندقية الى ثغر
« برنديزى » فى طريقها الى الاسكندرية وكان الشهر شهر
اغسطس وكان البحر هادئا وكانت الرحلة بديعة وكانت
وسائل الراحة الحديثة كلها متوافرة فى الباخرة الجديدة
وكنت هنيئا بذلك كله وبالعودة بعد بعض غيب الى مصر على
أى حال .

ونحو الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى لقيام الباخرة من
« البندقية » بينما تقترب من « برنديزى » لتبقى فيها ساعات
ثم تستأنف المسير الى الاسكندرية تصل اليها بعد يومين . اذ تقدم
منى احد « غلمان » الباخرة وقدم لى برقية لاسلكية التقطتها
الباخرة اثناء سيرها عبر البحر ففضضت الغلاف ووجدت
البرقية مرسلة من « كرلسباد » ومطلوب الى فيها ان اقطع رحلتى
فى « برنديزى » وان اعود الى باريس مباشرة لعمل هام ينتظرنى
هناك وكانت البرقية من سمو الخديو السابق الذى كنت متصلا
بسموه اتصال عمل ودهشت لهذه البرقية اذ لم يكن قد مضى
اكثر من ثلاثة ايام او اربعة على تركى لسموه فى مدينة « لوزان »
ولم يكن هناك على ما اعلم عمل يستدعى الرجوع الى باريس على
عجل وكنت فى الواقع قد هيأت نفسى لتلك العودة الى مصر بعد
غياب وبعثت لإخوتى بانتظارى فى الاسكندرية .

فتمردت على تلك البرقية اللاسلكية واردت اعتبارها نوعا
من « هوى الامراء » وقررت التغلب عليها « باعتبارها قد

وصلت الى بعد مغادرة الباخرة برنديزى واذن فحيث لا استطيع النزول قبل وصولى الى الاسكندرية فعلا »

لكن صاحب السمو واسع الحيلة وكثير الاحتياط فما ان رست الباخرة فى « برنديزى » حتى صعد اليها مندوب شركة « لويد تريستينو » واخذ يصيح مرسلا اسمى بين الارجاء فتقدمت اليه واذا به يقدم الى برقية لم توجه الى بالذات بل وجهت الى مكتب الشركه وفيها ان « ابلغوا محمود عزمى بالباخرة فيكتوريا ان يقطع رحلته ببرنديزى وان يعود الى باريس » واذن فقد شهد على شاهد انى ابلغت فى ثغر « برنديزى » واذن فلن تجوز حيلة « وصول البرقيه وانا فى عرض البحر بعد برنديزى » واذن فلابد من النزول برا والعودة الى باريس وكان بين ركاب الباخرة فى الطريق الى الاسكندرية احد وزراء الدول المفوضين فى القاهرة ولم اكن قد اخبرته خبر البرقية الاولى ولم يكن يعرف شيئا عن احتمال مغادرتى الباخرة فى برنديزى فبحثت عنه على عجل واخبرته انى مغادر الباخرة اذ وصل الى نبأ برقى يستدعى عودتى الى باريس وودعته واعدت من جديد حقائبى ونزلت الى البر حانقا .

خبر فى الاهرام

وبعد أسبوعين من ذلك الوداع اطلعت فى باريس على جريدة « الاهرام » فوجدت فيها وصفا حنق من أنهرها ثلثى نهر « لما قررت الحكومة اتخاذ من اجراءات الحيلولة والمنع والقمع لمناسبة عودة محمد محمود باشا من الخارج ووجدت فيها فى ذيل هذا الوصف مباشرة خبرا عنوانه « الاستاذ محمود عزمى » وفيه أنى كنت قد اعتزمت العودة الى مصر منذ أسبوعين وانى ركبت الباخرة من البندقية بالفعل لكننى تسلمت برقية لاسلكية فى عرض البحر جعلتنى اغادر الباخرة الى « برنديزى » واقفل راجعا وفهمت ان النبأ قد وصل الى الاهرام عن طريق مقابلة

جرت بين احد محرريه والوزير المفوض الذي عاد الى مصر بالباخرة التي كنت قد ركبتها من «البندقية» والذي يعرف انى صديق الزميل المحرر بالاهرام فقص عليه نبأ ما حدث .

وكان لنشر الخبر الخاص بي في ذيل الخبر الخاص بالاجراءات المتعلقة بمنع الاحتفاء بمقدم محمد محمود باشا من الاثر في أذهان القراء من أصدقائي ان حسبوا تلك البرقية التي تلقيتها في عرض البحر صادرة من صديق لي في مصر عرف انى ممنوع من العودة الى القطر المصري وذهب خصب التخيل الى حد الظن بانه وقف على الاجراءات التي تعتزم الحكومة اتخاذها قبلي حين أصل الى ميناء الاسكندرية فاثر ان ينبئني بالامر قبل وقوع المحظور .

وهكذا زادت الاشاعة قوة بانى جد ممنوع من الدخول في مصر .

في القدس

وفي شهر ديسمبر بعد ذلك « الاغسطس » الذي كنت اعتزمت المجيء فيه الى مصر قصدت الى فلسطين لمناسبة انعقاد المؤتمر الاسلامي وكنت قد اعتزمت اعتزاما اكيدا قبل مغادرتي باريس الا استسلم لضعف يجعلني أقصد من القدس الى القاهرة فلما وصلت الى بيت المقدس اتصلت تليفونيا باخوتي في القاهرة ونالني من جراء الاستماع الي أصواتهم وتقدمهم بالسؤال «متى تصل الى القاهرة» ما نالني مما خشيت أن ينزل بي شيئا من ذلك الضعف الذي قررت في باريس الا ارضخ له . فامضيت الليلة قلقا وملت في بعض الاحايين الى ان اركب في الصباح قطار القاهرة وأصل اليها مساء اجتمع باهلي واصحابي لكني امسكت بشجاعتي كلها وحررت خطابا في الصباح الباكر لصديق عزيز لي في القاهرة اقول له فيه اني على مسافة نهار واحد من القاهرة لكني لن اقصد اليها لاني مصمم على الا تطأها قدماي واهلها على ما هم عليه من « خنونة » اذ يقابلون اعتداء

صدقى باشا على الدستور والحريات ذلك الاعتداء القاسى البشع بمجرد توجيهات وابتهالات يبعث بها الباحثون الى الله ورسوله وكنت حين اكتب هذا الذى كتبت انما اريد تسجيل تصميمى على عدم المجىء الى مصر والحيلولة بينى وبين ما قد ينتابنى من ضعف تحت تأثير من نوع ماشعرت به وانا استمع الى ذلك الصوت الذى يسائلنى متى تجىء الى مصر ؟

وكان لهذا الموقف الامتناعى اثره كذلك فى رواج الاشاعة التى كنت اسمعها من عديد المصريين الذين ذهبوا الى القدس يحضرون المؤتمر الاسلامى العالمى وفى زيادة الاقبال على تصديقها .

لا دلالة

وكل ذلك بينما لاتصادفنى فى أوربا دلالة على وجود أى اثر لتلك الاشاعة التى صدرت عن القاهرة فكثيرا ماكانت أوراق جواز سفرى تنتهى قبل انتهاء مدته بزمن طويل فكنت اقصد الى قنصلية مصرية اطلب منها جواز سفر جديد فلم اكن اقابل فيها الا بما ينبغى ان يقابل به المصريون ولم يكن يلوح لى خلال اجراءات تجديد الجواز اى شىء يدل على أن لدى القوم «تعليمات» خاصة بشأنى وكنت اتعمد الذهاب الى قنصليات متعددة اطلب منها التجديد فلم تكن الاجراءات فيها كلها تنم عن شىء غير عادى .

شىء من الايضاح

وعدت الى القدس بعد سنة من موعد انعقاد المؤتمر الاسلامى وقابلت فيها صديقا مصريا متصلا بصدقى باشا وحزب الشعب وجريدة الشعب نوعا من الاتصال فتحدث الى وسألنى لماذا لا اعود الى مصر وانا لست ممنوعا من العودة اليها وقص على فى هذا الصدد انه قصد الى صدقى باشا يوما اشتدت فيه الاشاعة بمنعى من العودة الى مصر وسأله هل صحيح انى ممنوع من العودة فاجابه صدقى باشا ان الاشاعة غير معقولة لانه لايمكن منع

مصرى من العودة الى مصر فقلت له الصديق : اذن يصح ان تكذب
الاشاعة فى جريدتنا (يعنى جريدة الشعب) »

فاستحسن صدقى باشا عدم ترديد الاشاعة وعدم تكذيبها وتركها تجرى كما تجرى وتترك ما تترك من أثر .

فى النادى المصرى بلندن

والواقع أن أثرها كان عظيما فى نفوس الاخوان المصريين فى اوروبا فكنت كلما قابلت واحدا منهم يحدثنى على اعتبار انى ممنوع من العودة الى مصر وكنت ألقى على كل واحد منهم محاضرة فى الدستور وأحكامه والمصرية وحقوقها والجنسية والحكم الذى يخول باسقاطها وان وزارة صدقى باشا ان تحاول تطبيق هذا الحكم اذا بلغ منها التعنت مبلغه ، لكنها لا تستطيع منعى ما دمت مصريا من العودة الى مصر ، وكنت أحس فى نهاية المحاضرة أن مستمعى لم يقتنع وانه باق عند اعتقاده الاول .

وحدث انى حللت بلندن للاقامة فيها اقامة مستمرة وان طلب الى بعض أعضاء مجلس ادارة النادى المصرى أن ألقى عليهم محاضرة فاعتذرت ولفتت أنظارهم الى ما قد يجر عليهم القائى المحاضرة من مشاكل ، فألحوا وحددوا الموضوع والموعد وبعثوا بالدعوات للاعضاء ولم تكد احدى تلك الدعوات تصل الى القائم باعمال المفوضية المصرية هنـاك ـ وكان الوزير المفوض يمضى اجازته ـ حتى ارتعدت الفرائص وخارت العزائم وارتبكت الامور وتقدم الرجال الرسميون الى شباب الطلاب يتوسلون اليهم ويهددون اذا لم يجد التوسل كى يحولوا دون الكارثة العظمى كارثة القاء عزمى محاضرة فى النادى المصرى بلندن

وتقدم الى الاخوان على مضض يخبروننى الخبر ويبلغوننى رفضهم الاذعان لما طلب اليهم «الرسميون» الوجلون وتصميمهم على أن تلقى المحاضرة مهما تكن النتائج لكنى أعفيتهم من هذه النتائج وأخذت على عاتقى أن أضع الامر فى موضعه الصحيح أى موضع الخلاف بينى

وبين رجال مصر الرسميين هناك فظهروا مظهرا لا يغبطون عليه وقد أبدوا من خوف وتولاهم ماتولاهم من « رعشه » وباتوا واقعين هم الاخرين تحت تأثير اشاعة انى ممنوع من العـودة الى مصر على الرغم من خلو أوراقهم الرسمية جميعها مما يؤيد هذه الاشاعة

مفاجأة

وقام فى جزيرة العـرب شبح الحرب بين ابن السـعود والامام يحى وتفاهمت وجـريدة « ديلى اكسبرس » على أن أكون مراسلا لها من ميدين القتال، وتم التفاهم وأخذ القرار فى بضعه أيام وكان على أن أصل الى مكه على عجل فآثرت السفر من لندن بالطيارة ووصلت الى الاسكندرية وجمعت قبل وصولنا جوازات سفر الركاب جميعا وقصد بها الى البر وعاد بها أحد ضباط الطائرة دون أن يبدوا عليه أن فيما بين يديه من جوازات جوازا هو محل معامله خاصة ، ووصلنا الى القاهـرة ونزلت بنا الطائرة عند قصر النيل وطلعنا الى البر فتقدم منى ضابط الطائرة وسلمنى جواز سفرى وهو يودعنى بكل احترام

لكن الاخوان يصـرون

وكان وجودى الفعلى فى مصر ومرورى حين دخلت اليها ببوليس الميناء وفى الاسكندريه والتأشير منه على جواز سفرى كان ذلك كله كافيا لان يقـدم الدليل على سخافه تلك الاشاعة وبطلانهـا ، لكن الاخوان والاصدقاء أصروا على أن يظلوا مستمسكين بصـــحة الاشاعه فكانوا كلما قابلني واحد منهم بادرني بقوله « كيف جئت الى مصر » ؟ وكنت أنا أندهش بعض من لا يقـوى على السـؤال لكن نطق به أساريره ، كنت أتقدم بتكذيب الاشاعه وسخافة موضوعها لكنهم جميعا كانوا يتركوننى مقتنع انهم غير مقتنعين

فعل الدكتاتورية

وهكذا كان فعل الدكتاتورية فى النفـوس فعـلا خبيثا يصور للناس الاوهام حقـائق والسخف أمرا معقولا



نشرت الصحف فى يونيةسنة ١٩٣٥ ضمن برقياتها الخاصة التى وصلت اليها من جنيف انسمو الخديو السابق قد زار دولة زيور باشا الممثل الآن لمصر هناك فى مكتب العمل الدولى .

ثم جاء « المصور » بعد ذلك يلقى على ذلك النبأ البرقى شيئا من الضوء فقال ان المقابلةمتعلقة بالمرتب الذى يتقاضاه صاحب السمو من الحكومةالمصرية اذ تعتزم انقاصه واذ يعترض سموه ويسند اعتراضه الى ان الاتفاق الذى تم بينهما فى ١٩٣١ « قد سجل فى عصبة الامم على اعتبار كون سموه من رعايا الدولة التركية » .

وقد وجدت فى نشر مانشره المصور مناسبة للكلام على الاتفاق الذى تم بين سموالخديوالسابق والحكومة المصرية والذى لاتزال ظروفه الحقيقيةوملابساته مطوية لم تنشر بعد .

كنت فى لندن فى اوائل شهر ابريل سنة ٩٣١ اعد مع محامى صاحب السمومستندات الدعوى التى يطالب بها سموه التاج البريتانى بمليونين من الجنيهات تعويضا لما لحق بسموه من اضرار من جراءتصفية املاكه فى مصر بالطريقة التى صفتها بها السلطة العسكريةالبريتانية وفى انجلترا يجب ان تستصدر اذنا بالخصومة قبل كل شىء اذا أردت مقاضاة التاج او الحكومة البريتانية .

وكانت المحكمة قد رفضت الاذن الذى كان قد أعد عريضته احد مشاهير المحامين الانجليز . ولما كانت القوانين الانجليزية

نتيجة الاستئناف في هذه الحالة هو المجلس الخاص ، فقد رغب سموه في الاستئناف . وتصادف في الفترة التي تلت صدور الحكم الابتدائي وسبقت تقديم الاستئناف ان جرى تعديل في الوزارة البريطانية كان من نتيجته ان عين ذلك المحامي الكبير الذي كان قد أعد عريضة الدعوى الاولى « مدعيا عموميا » والمدعى العام عضو في الوزارة البريطانية وهو بحكم منصبه الذي يرأس هيئة استئناف مثل هذه الاحكام الصادرة في طلبات الاذن بخصومة التاج فكان ان تقدمت هيئة الوكلاء القضائيين عن سمو الخديو السابق بنفس عريضة الدعوى الابتدائية على اعتبارها عريضة استئناف . ولكن اذن ان ينظر المدعى العام في عريضته التي كان قد اعدها محاميا . وكان ان قبل الاستئناف واذن لصاحب السمو بالخصومة وكان بطبيعة الحال ان اعتبرنا في لندن هذه النتيجة فوزا وتغلبا على صعوبة جوهرية.

وعدت الى باريس حاملا ذلك الفوز مفاخرا به فقيل لي ان صاحب السمو تحدث من جنيف تليفونيا وسأل عن موعد عودتي من لندن واعلن انه سيتحدث لي في المساء . وفي المساء تحدث سموه وطلب الى ان ألحق به في « ديفون » على عجل اذ لدى سموه اعمال هامة تستدعي وجودي ووعدت بالسفر في اليوم التالي على ان اكون « بجنيف فديفون في المساء » وأكد سموه بقوله « دون نسيان » أو « دون اهمال » ورحت اسائل نفسي عن ذلك العمل الهام الذي يستدعي هذا التأكيد بهذه العبارة والمفروض بطبيعة الحال ان البي الطلب وان البيه على عجل وان أصدق في وعدي لسموه . لكن لم ألبث ان تركت تعرف الامر الى غد وأقبلت أتلو على زوجي قطعة « كليوباترا » التمثيلية لشوقي ؛ واعجبت زوجي ببيت من أبياتها راحت تكرره لتحفظه عن ظهر قلب وكان هو البيت الذي تقول فيه « كليوباترا » وقد تركت الافعى المسمومة تلدغها :

فرمت الموت لم أجبن ولكن   لعل جلاله يحمى جلالى

وفى منتصف الساعة العاشرة من مساء الغد السابع عشر من شهر ابريل سنة ١٩٣١ تشرفت بالمثول بين يدى صاحب السمو بفندق « ديفون » وكان سموه قد تناول العشاء ولم اكن قد تناولته فتفضل وجالسنى الى المائدة مسائلا عن « دعوى الاذن بالخصومة » وعن حالة بحر المانش حين عبرته وعن اثر الطريق بين « جنيف وديفون » فى نفسى وكنت اجتازه لاول مرة ونما الى ذلك من شئون . ثم انتقلنا الى ركن من اركان بهو الفندق ؛ وهناك اخبرنى صاحب السمو بعد مقدمة خاصة بالامة المصرية وبالسبع عشرة سنة التى انقضت على خروجه من مصر ولسمو الوالدة وبالامير عبدالمنعم - وكنت لا اتبين خلال هذه المقدمة الغرض الذى يرمى اليه سموه منها - اخبرنى صاحب السمو بعد تلك المقدمة بان مسعى قد بذل فى سبيل التفاهم بين سموه والحكومة المصرية ، وان مجلس الوزراء المصرى قد انتدب اثنين لمفاوضة سموه فى صيغة اعلان وصيغة اتفاق ، وان هذين المندوبين ، هما انيس باشا ومسيو بنسى وقد وصلا منذ يومين ومقيمان فى « لوزان » وفى انتظار التشرف بمقابلة سموه وان سموه استدعانى ليعرض على مشروع الاعلان ومشروع الاتفاق لابدى عليهما ملاحظاتى قبل ان تبدأ بشأنهما المفاوضات ودفع الى سموه بمظروف اصفر كبير من مظاريف الحكومة المصرية كانت المستندات المذكورة داخله وكانت تلك هى المرة الاولى التى يتصل فيها بعلمى شىء عن تفاهم بين سموه والحكومة المصرية وعن مسعى بشأن هذا التفاهم . تناولت المظروف واطلعت على ماكان بداخله من مستندات وأنا يتولانى ما يتولانى من احساس بل احساسات وابديت فى الحال ملاحظة عامة لم تكن لتروق قسوتها صاحب السمو فربت على وقال « انك متعب من السفر فاصعد الى غرفتك ونم ولنتحدث فى الامر غدا . »

وفى الصباح الباكر نزلت الى البهو فوجدت سموه يبادرنى بقوله « لا تحسب ابتسامى دليل غبطه » وانما قد تعلمت فى مدرسة « كرومر » كيف ابسم للحادثات !! »

وبدات ادلى لسموه بملاحظاتى وكانت تسعا بينها ان حرمان سموه من حق التقاضى فى مصر يفقد الاتفاق الضمان الطبيعى لكل تعاقد وحق الالتجاء الى القضاء واذا ما خالف احد المتعاقدين شروط الاتفاق . واذن فلا سبيل لسموه على الحكومه المصريه اذا ما فكرت يوما فى انقاص المرتب او الغائه . وما دام سموه سيعترف بقوانين البلاد فانه سيصبح بحكم قانون الجنسيه « مصريا » واذن فلن يجوز الالتجاء الى اجراء من الاجراءات التى تتخذ قبل محكمة « لاهاى » مثلا .

واراد صاحب السمو ان امثل سموه فى المفاوضة لكنى اعتذرت لاننى لمحت ان سموه معتزم الانتهاء الى التوقيع دون كبير عناء . وانما لمحت ذلك عن طريق رد سموه على اعتراضى على بعض النصوص بقوله « ولكن ورود هذا النص فى نظر الحكومة المصرية شرط لا بد منه » على انى حاولت ان اتغلب على هذه الصعوبة عن طريق آخر هو طريق ادخال انجلترا فى ضمان تنفيذ الاتفاق او العلم به علما رسميا وكان الاتفاق يقضى على صاحب السمو بشطب الدعوى المرفوعة منه على الحكومة الانجليزية فذهب تفكيرنا الى النص فى الصيغة التى يتقدم وكلاء سموه ووكلاء وزارة الخارجية البريطانية على الاتفاق وعلى ان هذا الشطب انما هو مقابل ما جاء فى هذا الاتفاق من تفاهم على دفع مبلغ الثلاثين الفا من الجنيهات . لكن قلم قضايا وزارة الخارجية البريطانية لم يقبل النص على هذا المقابل مشيرا بوضوح الى انه مرتبط بالحكومه المصريه دون سواها وكل ما استطعنا الوصول اليه انما هو النص على ان « ظروف الشطب وشروطه واردة — هى وامور اخرى — فى ميثاق موقع عليه بمدينة لوزان فى الثانى عشر من شهر مايو سنة ١٩٣١ » لكن حدث بعد هذا ان قصد سمو

الخديوى السابق الى سوريا وفلسطين وان صحبته فيهما اشاعة الاتجاه الى تتويج سموه ملكا على الشام فلما عاد سموه من رحلته الى «جنيف» وكان مؤتمر انقاص السلاح منعقدا فيها ـ تقدم الى سموه حضرة صاحب المعالى محمود فخرى باشا وزير مصر المفوض فى باريس ومندوبها فى المؤتمر ولاحظ ان رحلة سموه تصحبها تلك الاشاعة انما تعتبر مخالفة صريحة لتعهد سموه بعدم الاشتغال بالسياسة بتاتا فرد سموه على فخرى باشا بأنه لا يذكر ان هناك تعهدا بهذا المعنى وان سموه على اى حال سيدرس المسألة ويكلف بعض فقهاء القانون الدولى بدرسها أيضا ووقع اختياره على الاستاذ « جيدل » الاستاذ بكلية الحقوق بباريس واحد مستشارى وزارة الخارجية الفرنسية كما وقع على سر « وليم جديث » المحامى الانجليزى المشهور الذى كان قد أعد عريضة الدعوى الاولى على الحكومة البريطانية ثم اصبح مدعيا عاما ثم عاد الى المحاماة بعد ان سقطت وزارة العمال .

وقصدت الى باريس احمل لفخرى باشا فتوى الاستاذين الكبيرين وهما مجمعان على انه ليس فى الاتفاق ما يمنع سمو الخديو السابق من الاشتغال بالشئون السياسية الا ما تعلق منها بالسياسة المصرية وجرى فى تلك الجلسة الطريفة التى خلوت فيها بصاحب المعالى وزير مصر المفوض بباريس حديث طريف ، ذلك بان معالى فخرى باشا وقد رأى احكام التدليلين الفرنسى والانجليزى لم يسعه الا ان يقول « ولكن الاشتغال بشئون الشام السياسية اشتغال بالسياسة المصرية » فلما سألته ايضاحا لهذا « اللغز » الذى لم استطع فهمه اجاب : « نعم ان سوريا منطقة نفوذ مصرى !» . فاستزدت معاليه ايضاحا والدهشة تعلو اسارير وجهى فقال وزير مصر المفوض بباريس « نعم ان « الاهرام والمقطم » وهما اكبر جريدتين فى مصر يملكهما « شوام » والجرائد كلها تقرأ بانتظام فى الشام و « خديل

مطران » يسمى شاعر «القطرين» وظننت فخرى باشا يمزح لكنه أكد لى انه جاد فيما يدلى به من تدليل .

وأبلغت الفتاوى للحكومة المصرية وحاول صدقى باشا ان يظفر من سمو الخديوى السابق بوثيقة جديدة يتعهد فيها بعدم الاشتغال بالمسائل السياسية اوبمسائل عروش دون الاستئناس السابق برأى الحكومة المصريةلكن دولته فشل فيما حاوله وباء رسوله بمذكرة من خط الرسول نفسه فيها « تبكيت وعتاب ! ! » لكن حدث بعد هذاان طبق على مرتب حضرة صاحب السمو الخديوى السابق مبدأالدمغة والعشرة فى المائة التى تحجز من مرتبات الموظفين فنقصت الالفان والخمسمائة جنيه الشهريه مائتين وخمسين على التمام .

قد تم هذا المصرف على التفكير فى تدعيم الاتفاق ووصل التفكير باصحابه الى تسجيله فى عصبة الامم . ودارت مفاوضات مع سكرتيرية العصبة وكان سير « اريك دراموند » هو السكرتير العام فى ذلك الحين وانتهى الامر الى قبول الاتفاق وتسجيله « من باب الاحاطة » وهذا التسجيل طبعا هو الذى يشير اليه « المصور » لكنه تسجيل لا علاقة له البتة بتركيا ورعوية سمو الخديو السابق لانه تم بعدالاتفاق وقد اعترف سموه بمجرد التوقيع على الاتفاق بقانون الجنسية المصرية وهو يقضى بان اعضاء الاسرة المالكة مصريون ولا يجوز تغيير جنسيتهم المصرية بحال .

الدعوه للدين على الطراز الحديث

احتفاء الازهر

كان حادث الاسبوع الاول من يوليو سنة ١٩٣٥ هو بلا ريب حادث احتفاء الازهر بشيخه الاكبر لا من حيث الاحتفاء فى ذاته فهو شنشنة نعرفها من المصريين جميعا بل من حيث المظاهر التى تجلت خلاله وقد كانت فى مجموعها مظاهر خروج عن مألوف التقليد العتيق الى اخذ باساليب الحياة الاجتماعية عند سائر المتدينين من الناس وكان من شأن الخروج على مالوف التقليد العتيق كما كان من شأن اقوال بعض الخطباء عن الازهر والازهريين واصلاح المعهد وتطور رجاله كان من شأن ذلك كله ان يثير عندى بعض الذكريات المتصلة بمثل ما صدر عن الازهريين فى مثل ذلك اليوم. وبمثل ما يتجلى بعض الاحايين من المواقف ازاء اصلاح الازهر والمطالبة به وهذا البعض من الذكريات هو الذى اود ان اتقدم به .

كاتبة انجليزية

يوما من ايام لا ادرى الان على التحقيق اى شهر من اشهر سنة ١٩٣٢ ، تسلمت من مستر « هندل » رئيس تحرير مجلة المجلات الانجليزية كتاب توصية يقدم به آنسة تساهم فى تحرير مجلته وتعرض ان تساهم فى تحرير مجله العالم العربى التى كنت اصدرها حينذاك بلندن على ان تكون مساهمتها عن طريق تلخيص الكتب التى ترد الى من الناشرين للتعليق عليها والتى

تتصل مواضيع بحثها بطبيعة الحال ببلاد الشرق والاسلام والعربيه واتصلت بمس « بيجى ويليمز » ودفعت اليها بكتاب القاضى « بنتوتيش عن فلسطين وبكتاب آخر عن « جوردون » والسودان فأسرعت بقراءتها واجادت تلخيصهما واحسنت المعاونة فى سبيل التعليق عليهما بما يتفق ووجهات نظر « العالم العربى »

ثورة اتحاد اكسفورد

وكانت جامعة اكسفورد فى ذلك الحين مشخص ابصار اهل الراى من الانجليز فقد كان اتحادها ثائرا على تقاليدها وتقاليد المملكة البريطانية كلها وكان يدعو اعضاءه جميعا الى ان يقرروا عدم الرضوخ لقسم البذل والتضحية بالحرب فى سبيل الملك والوطن لانه يمقت الحرب ولا يراها وسيلة خير اصلا وكانت الصحف الانجليزية تعنى بتلك الظاهره عناية عظيمة وكان بعضها يذهب الى حد ان يرى فيها تهجما من المبادىء الاشتراكية بل الشيوعية على حصن من حصون « المحافظة » بل ركن من ركنية الثقافة التقليدية فى انجلترا وكان العمليون من اهل الراى يستودعون الله تلك الجامعة التى يكونها وينادون بتوجيه الهمة كل الهمة فى سبيل احاطة اختها جامعة «كمبردج» بسياج يقيها شر مثل التطور الذى قضى على «اكسفورد» بالرضوخ له وكانت كلمة اتحاد « اكسفورد » تجرى على السنة كل متعلم وكل نابه وتشغل بال كل من يعين مستواهم العقلى على تفهم مثل ماتنطوى عليه حركة ذلك الاتحاد وكانت الكلمتان تجريان على السنة الكثيرين من المتحدثين فى الاندية وفى القطر والسيارات العامة وان كان تحدث الانجليز لايخرج عادة عن حدود التهامس غير المسمو

دقة تليفون

وظهر يوم دق بمكتبى التليفون وكانت مس « بيجى ويليمز »

هى التى تريد ان تتحدث الى وقد بادرتنى فسألتنى هل سمعت عن جامعة « اكسفورد » فاجبت على الفور نعم فقالت وهل تريد ان تحضر لهم اجتماعا اجبت بكل سرور قالت اذن الليلة فى منتصف الساعة التاسعة بالبهو الاكبر فى فندق متربول وبملابس السهرة وسررت بهذه المفاجأة سرورا عظيما اذ تهيأت لى فرصة الاجتماع باولئك الانجليز الثائرين والثائرين على التقاليد « وانجليزى ثائر » اعجوبة من الاعاجيب فما بالك به ثائر على التقاليد التى لايمكن ان يتصور انجليزى بغيرها وثائر على التقاليد المتصلة ببعض الشعائر السياسية المقدسة هناك واذن فقد كانت « لقيا » تلك الفرصة التى هيأها لى ظرف « مس بيجى ويليمز » وكان تصورى ماسألقاه فى اجتماع المساء محل بعض تفكيرى بعد الظهر .

جماعة اكسفورد

وفى منتصف الساعة التاسعة مساء وصلت مرتديا ملابس السهرة الى فندق متربول وهو من فنادق الطبقة الاولى فى لندن غير فنادق الترف الممتازة طبعا ووجدت مس « بيجى ويليمز » فى انتظارى ووجدت الى جانبها ثلاثة أو اربعة من الرجال قدمتنى اليهم فاحتفوا بمقدمى احتفاء وسألونى عن مصر والشرق والقاهرة والخرطوم والقدس وبغداد ثم ذهب بى اثنان منهم الى البهو الاكبر الذى تقام فيه عادة حفلات حافلة وكنت قد حضرت فيه من قبل حفلة للمولد النبوى اقامتها الجالية الشرقية فى لندن وكان خطيبها الاصلى هو الاستاذ مكرم عبيد فوجدته غص بالحاضرين الذين يجاوز عددهم الالف وافسح لى المكلفان بمرافقتى مكانا الى جانب المنصة وقدمانى الى اثنين آخرين يجيدان اللغة الفرنسية اجادة .

وجلست اتفرس الحاضرين واتعرف طبقاتهم فوجدتهم خليطا من الرجال والنساء من الشيوخ والشباب والسيدات والآنسات

يرتدون جميعا ملابس السهرة التى تقضى التقاليد الانجليزية بارتدائها فى مثل تلك الحفلات وانتظرت فى تشوق ان تبدأ الخطب أو تبدأ الثورة وتعلن الاحتجاجات

مدهشات

ودخل الرؤساء والزعماء وجلسوا فوق المنصة ثم بدأت الحفلة فقام احد هؤلاء يعلن ان جماعة « اكسفورد » قد قررت أن تقيم لها فى لندن أسبوعين تنتقل اجتماعاتها خلالها بين أبهاء فنادقها الفخمة ودور العظيمات والنبلاء وان كل اجتماع ستتخلله ادلاءات بحوادث مادية وقعت لاصحابها الذين جاءوا يدلون بها خصيصا وستعقبه سهرات تقدم فيها المرطبات ويستمع فيها الى بعض الاغنيات ، عندئذ بدأت اسائل نفسى اى اكسفوردية هذه التى جئت اليها وهل هناك اتحاد لاكسفورد غير ذلك الذى تملأ اخباره الاسماع ثم اخذت ارقب ما سيفوه به الخطباء ويدلى به المدلون

ادلاءات

وتوالى المتكلمون على المنصة شيوخا وقورين وسيدات جليلات وآنسات متأنقات وشبانا متحفزين واخذوا يقصون علينا « نوادرهم » فتلك آنسة غادرت امريكا وجاءت الى لندن تبحث لها عن عمل فلم تجد واحتملت الضيق ما احتملت وكادت لاتجد من المال ما يوفر لها قوت يومها فخطر لها خاطر « التفكير فى المسيح » ففكرت ونامت ليلتها ثم استيقظت فاذا بها تتسلم فى البريد صكا بسبعين جنيها لاتدرى حتى ادلائها بالحادث من اين جاءت . وذلك شيخ من اصحاب المكانة السياسية الامبراطورية كان فى كندا مع صديق له حميم واذا به يتسلم برقية من بعض اصدقائه السياسيين فى جنوب افريقيا يلحون فى رجائه ويستحلفونه بكل عزيز ان يقصد اليهم على عجل حتى يوفق بين مختلف تياراتهم التى كاد اختلافها

يودى بمصلحة افريقيا الجنوبية الوطنية كلها فتردد فى الرحيل من كندا ثم استخار الله وعبر المحيط الى انجلترا ووصل الى لندن يمضى فيها ثلاثة ايام ثم يبحر بعدها الى مدينة الكاب وبشاء من يشاء ان يلقى الشيخ بارحة ابحاره سيدة من العظيمات تسائله عن جماعة اكسفورد فيقول انه لايعرف عنها شيئا فتأخذه السيدة الى اكسفورد ويحضر واياها اجتماعا من اجتماعاتها ترفرف عليه « روح المسيح » ويسوده سره ثم ينصرف فى ساعة متأخرة من الليل ويطلب الى اعضاء الجماعة أن يدعوا له ويقصد الى ميناء « ساوتمبتون » يركب فيها الباخرة تمخر به اعباب المحيط والبحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الهندى وتصل به الى ثغر افريقيا الجنوبية فيجد فى انتظاره على افريز الميناء عديدين من رجال السياسة يحيونه ويناجونه فيذهب بهم على الفور الى احد الفنادق الكبرى ويجتمع بهم فى أحد ابهائه ولا ينفض اجتماعهم الا والاخاء مستقر فى قلوبهم والمصلحة القومية منقذة مما كان يهددها من المخاطر وكل ذلك بفضل « تفكيره فى المسيح » والتماسه الى « جماعة اكسفورد » ليلة سفره ان تدعو له .

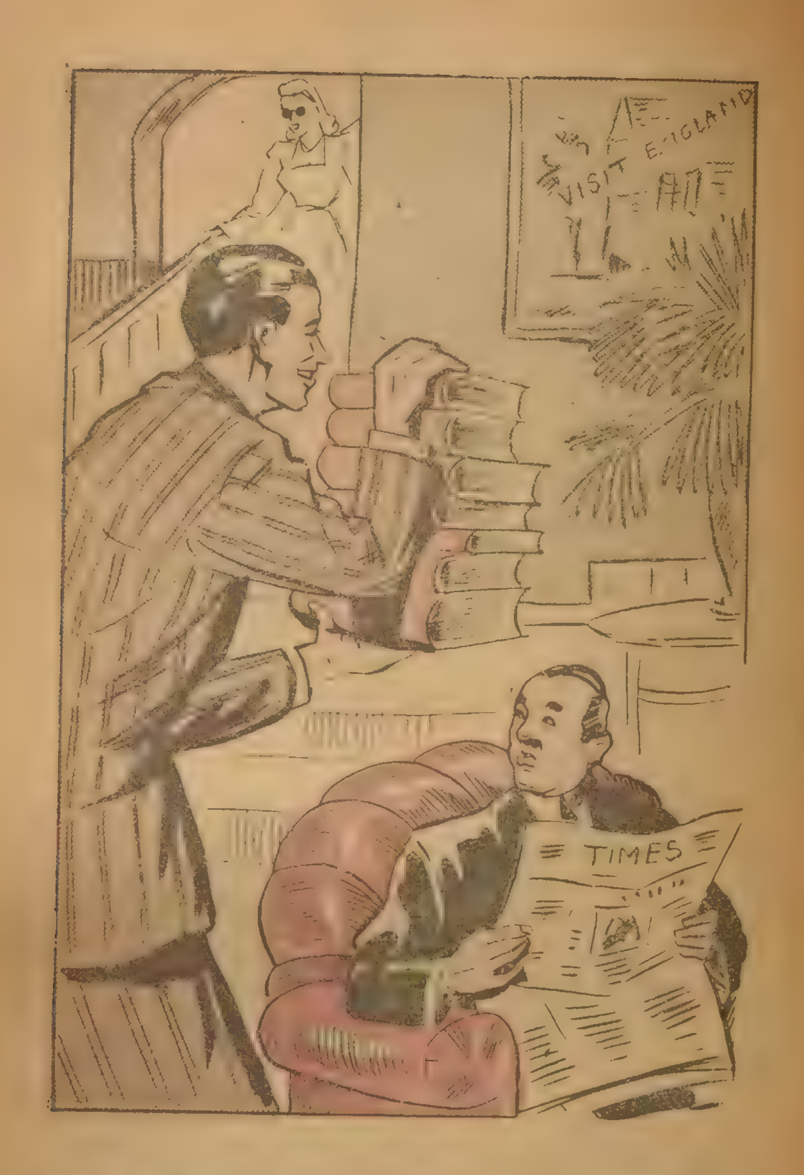
وهذا شاب من طلبة جامعة اكسفورد - وكان لا يعنى بالتفكير الدينى عناية خاصة فظل سنة كاملة لم تصل اليه خلالها من والده غير بطاقتين اثنتين فيهما تحيتان قصيرتان ثم اخذه احد اصدقائه الى جماعة « اكسفورد » وحضر بعض اجتماعاتها فاستحالت العلاقات بينه وبين والده واصبحت تصل اليه كتب طويلة كل اسبوع يبثه فيها بوده وعطفه ويسدى اليه خلالها نصحه وكل ذلك بفضل حضوره جماعة « اكسفورد » وتفكيره فى المسيح .

وهذا رجل ساءت علاقته بزوجته سوءا استماح الحاضرين عفوا فأخذ يسرد تفصيلاته سردا ثم كتب له ان يتعرف بجماعة

« اكسفورد » ويصبح عضوا من اعضائها فانقلبت شروره خيرا كل الخير وانقلبت شقاوته الزوجية هناء كل الهناء وذلك طبعا بفضل تفكيره في المسيح وعلى هذا المنوال من الادلاء سار الخطباء والمتكلمون ثم أعلن الرئيس ان الاجتماع المقبل سيكون في دار احدى العظيمات النبيلات واخذ الجمع الحاشد يتناثر فئات فئات ...

ماهذا الكلام

واقبل على الستة الذين عرفت اليهم واقبلت على مس « بيجى ويليمز » واخذوا يسألونني عن الاثر الذى تركه الاجتماع في نفسي اما « مس بيجى ويليمز » فخصصتها بنظرة وابتسامة تدلان على انى اكثر تعقدا مما تتصور واما الستة رجال فقلت لهم ان الاجتماع قد كان له في نفسي اثر عميق فتهللوا وطلبوا الى مزيدا من الايضاح فقلت افهم ان جماعتكم دينية وانها دينية مسيحية وانها تسعى الى ادخال المسيحية في كل مظاهر الحياة الاجتماعية الحديثة وان تسعى لحل مشاكل الخاصة والعامة وتسود السلام في العالم كله وتنشر الطمأنينة على العلاقات كلها عن طريق المسيحية فأجابوا نعم قلت هذا جميل لكن الذى كنت افكر فيه خلال استماعى الى اقوال المتكلمين طوال الاجتماع هو أن في البشرية ارباب اديان اخرى وفيها كذلك ملحدين يريدون جميعا ماتريده جماعتكم من نشر الطمأنينة وتخليد للسلام ومن مصلحة الهناء العام والسلام الدائم ان تتضافر الجهود كلها حتى يزيد الانتاج ويقصدان تحقيق الاصلاح فكيف الوصول الى ميدان يتقابل فيه اولئك المتفقون في الغرض وان اختلفوا في الدين او العقيدة انكم تقولون ان جماعتكم مسيحية وهى بهذه الصفة انما تحصر الجهود داخل نطاق محدود وانها تحرم الفكر السامية جهودا اخرى يتوقع بذلها متدينون آخرون وغير متدينين ايضا فما السبيل اذن الى توحيد الصفوف .



وعاد يحمل اسفارا فى جماعة اكسفورد ونشاطها وفضائلها !ه

قلت ذلك وانا اتفرس فى وجوه اسيعة المستمعين الى فعلت وجه الآنسة حمرة ولم يعل وجوه الاخرين شىء يكشف عن اتجاه الاثر وقال واحد منهم الحل ان يصبح الجميع مسيحيين واراد ان يمضى فى التدليل بدليل ايمانه على فضل المسيحية فوقفته باستدراك سائلا اياه وماذا عسى ان يقول لاقناع الملحدين . قال احد زملائه فى غير تردد : الامر هين فقد كنت انا ملحدا الى حين ؛ قلت وانه ليلذ لى ان استمع الى قصة ردك الى الدين بعد الالحاد ، دعانى الى الانتحاء ناحية فذهبنا الى حيث جلسنا الى مائدة فى بهو اخر من ابهاء الفندق والى حيث نتناول فنجان البرتقال المعصور واخذ يحدثنى عن الكهرباء وتيارها ومظاهر قوتها وعدم الوصول رغم هذه المظاهر الى تعرف ماهيتها كما اخذ يحدث عن بعض النظريات العلمية وتطورها وحس ان شيئا من حديثه الممتع لاينال من مناعتى فهرول الى المنضدة وعاد يحمل الى اسفارا وضعها الواضعون فى جماعة اكسفورد ونشاطها وفضائلها واكتفى منى بوعد قراءتها وتدبرها وحضر حديثنا زميل آخر عرف انى من مصر وسمعنى اذكر المسلمين ضمن المتدينين وغير المسيحيين الذين يرغبون رغبة اكيدة فى استقرار السلام وتمكن الخلق الطيب ولمح ان حديث صديقى المدنى لم يصل منى الى الاعماق فاثر ان يحدثنى على طريقة اخرى حسبها مجدية فقال انه استاذ باحدى مدارس طهران وان له فى مدرسته هناك تلاميذ مسلمين وآخرين مسيحيين وقد حدث له فيما حدث ان جاءه يوما تلميذ اسمه مصطفى شكا اليه مايصيبه من اغتمام وما يناله من ضيق فى حين ان صديقه التلميذ « حنا » لايشعر الا بغبطة ولا يفيض الا بانشراح فنصحه الاستاذ أن كلما أحسست يا مصطفى ضيقا او اصابك اغتمام فكر فى المسيح فانه منقذك ولم يمض أسبوع على هذه النصيحة حتى جاءه مصطفى منشرحا يشكره ويبلغه أنه فكر فى المسيح وأنه أصبح فى هناءة .

سألت محدثي : وكم كان عمر مصطفى ؟ فأجاب احدى عشرة سنة قلت : وما عمر من تحدثه الان ؟قال : نيف وأربعون سنة قلت : وهل ترى ان نفس التدليل يصلح لاقناع الاثنين ؟ فسكت وأرجو أن يكون قد بهت .

تبشير على الطراز الحديث

واذن فقد كانت جماعة « اكسفورد » تلك جماعة تبشيرية لها فروع عدة فى انحاء الارض وقد رأت ان النظر الدينى والزى الدينى والتقليد الدينى قد يحول ذلك كله فى هذا العصر المدنى دون القيام بواجب التبشير وبواجب الاحتفاظ بالكيان المسيحى فراحت الجماعة تخلع عن اعضائها الرداء الرسمى وتستبدل به لباس الاجتماعات المدنية ولباس الحفلات والسهرات الذى يلبسه كافة الناس وراحوا لا يعقدون اجتماعاتهم فى الكنائس بل فى ابهاء الفنادق التى يجتمع فيها المدينون من الناس فيقدمون فيها للناس ما يقدم لهم عادة فى مثل تلك الابهاء يتحدثون اليهم فى المواضيع التى تشغل بالهم على اعتبار انهم ناس وكفى فى العمل والتعطل عنه فى السياسة ومشاكلها فى عصبة الامم وفضائلها . وفى الكليات وحياة الدراسة فيها . فى العلاقات الاجتماعية وما يتخللها عادة من تفاهم وتنافر . ويتلمسون خلال ذلك كله مواطن الضعف فيدلون على اصلاحها عن طريق الايمان والمسيحية .

• الظهور بمظاهر الناس

« الظهور بمظهر الناس » هى اذن النغمة الجديدة التى ترددها الجماعات الدينية الجديدة كى تستطيع ان تنفذ الى اعماق الناس تبث فيهم دعايتها وتدخل الى نفوسهم تعاليمها دون ان تدعهم يستوحشونها ويستوحشون رجالها فتنساب فيهم انسيابا طبيعيا لا يقف فى طريقها احساس بتباين يستند الى مظهر من مظاهر الزى الخاص او المكان الخاص او اسلوب التحدث الخاص ذلك بان اهل تلك الطريقة قد فقهوا ان ذلك التخصص كله اذ كان مستساغا وسيلة للتمييز فى عصر من العصور فان روح العصر الحاضر تنافيه منافاة وتتجافاه تجافيا وهذا هو الذى تبينته خلال ذلك

الاجتماع الفذ الذى حضرته عن سوء فهم اذ خلطت بين جماعة «اكسفورد» واتحاد «اكسفورد» وهذا هو الذى تبادلت الراى عليه مع مس « بيجى ويليمز »وان اصحبها حتى دارها بعد انتهاء حديثى مع من ارادت عمدا وبسبق اصرار ان يتحدثوا الى متلمسه هدايتى عن طريقهم الى المسيحية فلم تفز بما تلمسته وباءت بتهديدى اياها فى مداعبة طبعا بانى انا الذى سأفوز اخر الامر بثواب هدايتها الى الاسلام او احتمل وزر تشكيكها .

ولنعد الى الازهر

ولنعد الآن الى اجتماع الازهر واحتفائه بشيخه الاكبر الذى كان من شأنه ان يثير فى ما اثار من ذكرياتى . لقد كان ذلك الاجتماع هو الاول من نوعه فى نظرى وعند حد علمى فقد كانت الاجتماعات الازهرية تعقد عادة فى الجامع الازهر وبالقرب من محرابه يجلس المجتمعون فيها جلسة المصلين ويتناوب الخطباء منهم القاء خطبهم من أعلى المنبر وكانت تلك الاجتماعات من جراء ذلك الطابع الدينى الخاص لا يشترك فيها غير رجال الدين ورجال الازهر فليس ميسورا لغيرهم ان يقصدوا الى حيهم وليس يسيرا عليهم اذا هم استطاعوا الوصول الى الحى اللاتينى القاهرى ان يخلعوا نعالهم لغير واجب الصلاة وان يقعدوا القرفصاء ثلاث ساعات يستمعون لى خطب وقصائد وليس يسيرا عليهم أن يحرجوا انفسهم ذلك الاحراج ويحبسوها ذلك الحبس فى فترة من فترات النهار التى اعتادوا ان يجتمعوا فيها الى اصدقاء او اخوان يتقاربون واياهم فهما ليتبادلوا الحديث هادئا ويتناولوا المرطبات شهية ولذلك فقد رحبنا بذلك المظهر الجديد الذى ظهر به الازهر فى ذلك اليوم والذى نرجو ان يكون له تقليدا يسير عليه فى الاجتماعات المقبلة فيجعلها دائما يسر ذويصبغها بالصبغة المدنية يتذوقها الناس كافة فلا يرون فيها كلفة ولا امتيازا ولا ظهورا بمظهر عسر أو شذوذ أو تعاظم لاسيما انهم يعلمون جميعا أن دينهم (دين) يسر لا دين عسر وانه دين ديمقراطية ومساواة

واخاء وانه دين كافة لا دين خاصة وانه الدين الذى يتميز عن سائر الاديان بانعدام الوساطة بين العبد والرب وان رجاله انما هم مرشدون ومعلمون ليس غير وان خالفنا فى هذا التقدير فضيلة رئيس لجنة الاحتفال الذى ابى الا ان يعيد على الاسماع نغمة دخيلة على الاسلام ونظامه وهى نغمة الرياسة الدينية العليا يريد ان يسندها لمشيخة الازهر ومامشيخة الازهر وهيئة كبار العلماء الا مجلس ادارة الجامعة الازهرية التعليمية يرأسها الشيخ الاكبر كما يرأس مجلس ادارة الجامعة المصرية أستاذها الاعظم

في سبيل التحرير

دخولا اذن فى سبيل التجديد والاخذ باساليب الاجتماع الحديثة وظهور بمظهر الناس كافة ذلك هو الذى نحبه فى الازهر وانه هو الذى نضمن له عن طريق الامتزاج بالجماعة كما يفعل حملة لواء الدين فى غير مصر هذه الايام وتضييق مسافة الخلف بين عقليته وعقليتها واذن فالفوز بمعاونة قادة الرأى فيها فى سبيل نشر الفضيلة الكبرى

المفتى والامام

وكان صاحب الفضيلة الشيخ عبد المجيد سليم المفتى الى يمين الاستاذ الاكبر الشيخ المراغى وكنت انظر اليهما وانفرس تأملاتهما طوال الاجتماع وكانت حضرنى فى تلك الاثناء ذكرى قصة سمعتها من حضرة صاحب السمو الخديو السابق عن الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده وموقف القصر والعلماء من مشروعات اصلاحات ؟ سمعت الخديو السابق يقول: كان الشيخ عبده يتقدم الى بمشروعاته الخاصة بالازهر والقضاء الشرعى فكنت اطلب اليه ان يعود لعرضها على بعد يومين او ثلاثة ايام وكنت ابعث الى ستة أو ثمانية من العلماء اجمعهم حولى واقول لهم غدا او بعد غد سيحضر الشيخ عبده ليعرض على مشروعاته وها انا ادفع بها اليكم الآن لتدرسوها وتحفظوا ملاحظاتكم عليها وسأجمعكم به غدا أو بعد غد وسأرى من الذى سيغلب هو أو أنتم ثم كانوا يحضرون عرض الشيخ عبده

لمشروعاته ، فأقول ما رأيكم يامشايخ فينبرى له المشايخ يعارضونه ويناقشونه وكان امعنهم فى المعارضة والمناقشة الشيخ بخيت وكان من وجوه امعانه وضروب استفزازه الا يخاطب الشيخ عبده الا بقوله لا لا ياشيخ محمد مش كدة ياشيخ محمد ظنا منه ان التوجه بياشيخ محمد تنال من شخصية الشيخ عبده واعتزازه بنفسه سمعت هذا وذكرته وانا اتأمل الشيخين الكبيرين وذكرته والاستاذ الاكبر يشير فى خطابه الى الاستاذ الامام واصلاحاته فى الازهر وفى القضاء الشرعى وذكرت جانبا مما يعانيه المصلحون من اقرب الناس اليهم واكثرهم افادة من اصلاحهم وكل ذلك مدعاة للتأمل ، أليس كذلك ؟

فى حضرة ابن السعود

فى الثالث عشر من شهر مايو لسنة ١٩٣٤ وصلت الى « جده » فى طريقى الى ميدان القتال « السعودى اليمنى » او الى ميدان « الصلح الحربى موفدا من قبل جريدة » ديلى اكسبريس وكان رئيس تحرير قسمها الخارجى قد اخبرنى قبل مغادرتى لندن انه سيستندما سأبعث به من انباء الى مراسل الجريدة « الحربى » فاستدركت قائلا او مراسلها « السلمى » فقد تكون الحرب وقفت رحاها عند وصولى وتكون مفاوضات الصلح قد بدأت بين العاهلين العربيين

وقدكان بالفعل ماكنت ارجونى ان يكون .

فما ان انتقلت من الباخرة « الطائف » وهى احدى بواخر الشركة الخديوية الى الشاطىء مع زميلى المعروف فى القاهرة مسيو « جاستون برتى » مراسل جريدة « الجورنال » الباريسية واوصلته الى القنصلية الفرنسية العامة ووصلت انا الى القنصلية المصرية حتى اتصلت تليفونيا بصديقى فؤاد حمزه بك وكيل الخارجية السعودية وسألته اخبار الحرب وطريقة وصولى الى ميدانها فاجانى مفاجأة سارة اذ اعلن ان الحرب قد وقفت رحاها وانه كان ضحى اليوم ذاته بجده يوقع فيها مع مندوبى الامام يحى على شروط الهدنة وبدء المفاوضة فى سبيل الصلح ومعاهدة .

فى مكة

وتفاهمت وفؤاد بك على ان اقصد الى « الطائف » حيث

يصطاف الملك وتصطاف حكومته وحيث يقيم الوفد اليمنى وحيث ينزل وفد المؤتمر الاسلامى المجاهد فى سبيل اقرار السلام فى شبه الجزيرة وتوطيد دعائم الصلح بين العاهلين العربيين .

وعصر اليوم التالى قصدت الى مكة فى سيارة تفضلت الحكومة السعودية العربية « بوضعها تحت تصرفى » وبعد ان اديت بارشاد صديقى النقى الورع فنصل مصر ذلك الحين — شعائر الاستعداد للقيام بفريضتى العمرة والسعى ووصلت الى عاصمة الاسلام الكبرى بعد الغروب وقبل العشاء واعتمرت وسعيت . ثم ارتديت بعد حمام فى السكية المصرية — الملابس العربية — الفضفاضة الرجراجة — وبت الليل فى فندق الحكومة ضيفا عليها ثم زرت فى الضحى ادارة جريدتى « ام القرى » و« صوت الحجاز » وتعرفت الى المشرفين على تحريرهما .

فى الطائف

وبين الساعة الثامنة ومنتصف الساعة العاشرة — ساعات عربية — من النهار تحركت بى السيارة من جديد قاصدة بى الى « الطائف » وانما قلت بين الثامنة والعاشرة لاننى تفاهمت مع السائق على ان نغادر مكة فى تمام الثامنة لكنه لم يحضر الى الفندق بسيارته الاحين انتصفت الساعة العاشرة وقطعنا المسافة بين مكة والطائف فى خمس ساعات جاورنا فى جزء منها الجبال الصلدة الجرداء مجاورة فكان « الصهد » يصدر عنها لهيبا ويصل الى الوجه فيصلى بشرته سعيرا ويدلنى على فضل « الكوفية » وتمام اتفاقها مع طبيعة ذلك الجو المحرق اذ كنت اسحب جانبيها على وجهى فتقيه شر اللهيب الصادر من جمر الجبال حقا .

ومررنا فى الطريق بعد الغروب بمكان قال لى السائق انه مأهول بالقردة والذئاب واصاب سيارتنا فيه عطل فوقفنا قليلا

حتى نصلحه فشاهدت اثناء وقوفنا على مقربة منا بعض القردة من ناحية وبعض الذئاب من ناحية اخرى فعلا

واخيرا وصلنا الى « الطائف » بعد العشاء ودخلناها من احد ابوابها الثلاثة او الاربعة وكان ينتظرنا فى المخفر عنده من كان مكلفا بأن يدلنا على الطريق الى المنزل الذى تقرر أن أنزل فيه .

اين نزلت هنـــاك

وكان هو منزل رئيس بلدية الطائف « سابقا » اى عند ما دخلها الوهابيون واعمل فيها « الاخوان » ما عملوا واعد لى فى هذا المنزل « جناح » على حد التعبير الحديث هو « ديوان الاستقبال وملحقات » « الترويح الطبيعى » والديوان فناء مستطيل يزيد طوله على العشرة امتار ويبلغ عرضه السبعة تغطى ثلثه وثلثيه منسزفا الى السماء وفرش السان بالبسط ومدت حوالى حوائطهما الارائك وغطيت « أرضــــية » الثلث المكشوف بالرخام وتوسطه نافورة تحيط بها اشجار ليمون وفى احد أركانه مكان للوضوء .

وحينما وصلت الى المنزل استقبلنى الى بابه صاحبه وولده وخادمه وتقدمنا الولد وتبعنا الخادم يحمل كلاهما مصباحا مضاء بالزيت المضغوط وحللنا بالديوان فوجدناه مضاء كذلك بمصباح زيتى من الطراز عينه كما وجدنا « سريرا » قد نصب فى أحد أركانه .

وتبادلنا تحيات القدوم والترحيب . ثم مدت المائدة ووصل « الشيخ عبد السلام » محييا باسم وكيل الخارجية وحاملا تحية « وفد المؤتمر الاسلامى » ومحددا موعدا للتشرف بمقابلة حضرة صاحب الجلالة الملك ابن السعود فى الغداة .

الشيخ عبد السلام

والشيخ عبد السلام شخصية من الشخصيات البارزة فى المملكة العربية السعودية وهو مصرى من قرية من قرى مركز بلبيس

قصد الى الحجاز ايام كان الشيخ حافظ وهبه يشرف على شئون التعليم فيها وعمل فى التدريس ثم عين « مديرا لادارة الضيافة» واحسبه قائما بمهمته خير قيام فلديه من الظرف والكياسة ما يمكنه من اكتساب قلوب من يعرفونه من « الاغراب » وما يمكنه كذلك من تذليل ما قد يقوم من صعب ومحو ما قد يكون لتعرف ما من اثر غير مستحب.

فى القصر الملكى

وقبيل غروب اليوم التالى مساء وصولى الى الطائف قصدت بى السيارة الى قصر « شبرا » للتشرف بمقابلة حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود والقصر على مسافة بضعة كيلو مترات من « الطائف » وكان يصحبنى اليه « الشيخ عبد السلام »

استقبلنا عند مدخله احد رجال « التشريفات » وتقدمنا الى الطابق العلوى فاستقبلنا فى البهو رائحة زكية هى رائحة « بخور » صحبتنا طوال طريقنا الى القلعة الملكية الكبرى وقد ادخلنى فيها « الشيخ يوسف »وهو كبير امناء صاحب الجلالة وأحد مستشاريه النافذتين

والقلعة مستطيلة فسيحة يبلغ طولها نحو اثنى عشر مترا ويقرب عرضها من الثمانية. وقدمدت الى حوائطها الارائك ولها « خارجة » على مثال ماكان فى بيوت القاهرة منذ سنوات . وقد احتلت هذه « الخارجة » أريكة صفت عليها المساند مغطاة بقماش فيه خضرة واليها آلة تليفونية وزرار كهربائية وفى وسط سقف الغرفة والى حوافه ثريات كهربائية كذلك وارضيتها مغطاة بطنافس عجمية نفيسة .

ابن السعود

وبعد لحظات اقبل ابن السعود يتبعه اثنان من الحجاب وكان قد قيل ان تقاليد التحية « التقبيل » وللمقبل الخيار بين يدى الملك

وانفه فاخترت انا تقبيل اليـــدوتقدمت للقائه حين دخل غرفته الكبرى وصافحتــه وقبلت يدهوقصد الى الخارجة وجلس على اريكتها ودعانى الى الجلوس على مقربة منه ففعلت واخذ جلالتــه يتحدث ولم يحضر الحـديث فى اوله غير « الشيخ يوسف يس » ثم حضر اثناءه شقيق الملك وبعض المقربين كما حضره دون سـابق اعلان الحاج « عبد الله فلبى » المعروف .

وما آفة الاخبـار

وبعد تبادل التحية وتقـدمى الى جلالته بالتهنئة على وقف رحى الحرب والبدء فى مفاوضات الصلح بدا حديثه بقوله «وما آفة الاخبار الا رواتها »واخذ يشرح موقفه من الامام يحى وما بذله لديه من المساعى وما يرغب فيه رغبــةصادقة من اقرار السـلام بينه وبين اليمن ويذكر للعالم الاسلامى اهتمامه بالجزيرة العـربية وان جاء هذا الاهتمام متأخرا اذ كانت المناوشات قد وقعت بين الفريقين بالفعـل .

ابن السعود ومصر

وعرج ابن السعود على مصر واهلها وذكرهم بالخير ورجا ان يزول ما يعكر علاقاتهم الرسمية من كدورة وقال انه لا يرغب الا فى ان يكون مع المصريين وحكامهم على اتم وئام واحسن تفاهم .

أنا ملك العـرب

ومما استـرعى سـمعى بين عبارته قوله « انني لست ملـكا بمشيئة اجنبية بل ملك بمشيئة الله ومشيئة العـــرب الذين اختاروني وبايعوني على نعرت واسمه ليس غير انا عبد العزيز قال العرب انى ملك فرضــت قولهم شكرا لهم تفهم وحسن ظنهم وفي اليوم الذي يتخلى عنى العرب ولا يريدونني زعيما لهم فانى عائد الى النســف واحارب معهم بسيفى كاصغر واحد فيهم دون ان ينـــال نفسي شيء من الغضاضة ..

« وانا بنيت الان لافيهم حـكم القرآن والسنة واحكم بالعـدل والقسـطاس المبين »



واخترت تقبيل اليد فصافحته وقبلت يده

يجب ان يبقى شباننا مسلمين

وتحدث عن ذهاب الشبان الى اوروبا وتلقى العلوم فى جامعاتها فقال « انى اريد ان يحصل ابناءنا العلم المادى فى اوروبا فيدرسوا الهندسة والطيران وفنون المدافع وما اليها لكنى اريد ان يظل اولادنا متمسكين باهداب عروبتهم وباهداب اسلامهم اذ لا حياة لنا الا بهما »

قهوة وليمون وبخور

وقدمت الينا القهوة اكثر من مرة ثم ضغط ابن السعود على زر من الازرار الكهربائية المجاورة له فجاء اليه حاجب أسر اليه الملك بما لم نسمعه ولم تمض لحظات حتى عاد الحاجب يحمل « صينية » عليها أكواب من « الليمون المعصور المحلى » يتوسطها كوب ضخم ممتاز وتقدم الحاجب من ابن السعود فتناول الكوب الضخم لنفسه ثم مرت بنا الاكواب العادية الاخرى فتناولناها .

ثم دخل حاجب يحمل بخورا ومر به على الحاضرين فتعبقوا به وكان هذا الاجراء وما اليه من تقديم القهوة ايذانا بانتهاء الجلسة فاستأذنت فى الانصراف

كانت ستقوم فتنة

وحدثنى فى اليوم التالى لتشرفى بمقابلة جلالة الملك ابن السعود من تحدث من رجال الحكم السعودى فقال ان زيارتى للقصر الملكى كانت ستثير فتنة ذلك ان بعض « الاخوان » من النجديين كانوا محاصرين رجالهم حول القصر وقباله فلما وصلت اليه فى السيارة واستقبلنى من استقبل من رجال البلاط ولم تكن سحنتى من السحن المعروفة سأل سائل من هذا الضيف فقيل له « محمود عزمى من مصر » وانتقل نبأ السؤال والجواب الى مضارب « الاخوان » قبال القصر وكان هؤلاء (الاخوان) هم بذاتهم الذين التحموا مع الجنود المصريين الذين رافقوا المحمل فى المرة الاخيرة فى تلك السنة التى يسمونها الآن فى الحجاز وفى نجد « سنة الرمى » وكان امير الحج اذذاك « محمود عزمى باشا » فظن الاخوان ان الذى دخل القصر هو محمود عزمى باشا فهاجوا

وارادوا ان يقابلوه بشيء من خشونتهم وهو خارج ووصل الخبر الى القصر وانا فى حضرة ابن السعود فهرول اليهم من هرول من رجاله ينبئهم حقيقة الامر ويميز لهم بين « محمود عزمى السيف » .. و « محمود عزمى القلم » وقلت انا لمحدثى « الحمد لله الذى نجانا »

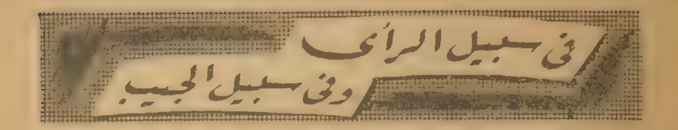
مادبة ملكية

ودعينا الى مادبة ملكية حضرها نحو خمسين مدعوا بينهم رجال الوفد اليمنى ووفد المؤتمر الاسلامى والبعثة السورية ومدت الموائد بشكل « الحدوة » وتناثرت عليها « الاطباق الكبيرة » بحمل كل واحد منها « خروف كامل » وانتشر الخدم وراء الجالسين يوزعون عليهم الطعام على الطريقة الاوروبية تماما وكان ابن السعود يحادث مدعويه بصوته الجهورى وتتخلل حديثه مداعبات وملح لا يظن مستمعوها انها تصدر حقا عن شخصه الرهيب

العرضة

والعرضة هنا ما نسميه هنا « بالعرض العسكرى » وقد حضرناها مرة امام القصر وقد وقف ابن السعود والى جنبه حاجبان ضخمان مدا ايديهما الى قبضتى سيفهما ومن حوله المدعوون ورجال القصر والحكومة ومر الجيش على ظهور الخيل وعلى ظهور الجمال وراجلين اما الفرسان فيروحون ويغدون مسرعين مطلقين « بنادقهم » فى الهواء مرددين اذا مروا امام ابن السعود قولهم « انا خيال التوحيد اخ من طاع الله » فيجيبهم ابن السعود « والنعم او النعم » مصوبا اليهم بسبابته ولما انتهى « المنشاد » اقبلوا شاهرين سيوفهم تتقدمهم دفعة يهتز ذات اليمين وذات الشمال وبايدى بعضهم آلات يدقون عليها ويوقعون . فلما اقتربوا من ابن السعود نزع عباءته وخلع نعليه واستل سيفه وتوسطهم هو الاخر ويهتز ذات اليمين وذات الشمال وهم يحيطون به مضيقين الدائرة حينا وموسعينها حينا آخر .

وكان هذا المنظر الديموقراطى الفذ منظرا اخاذا كما كان منظر احد انجال ابن السعود الفيصل واحد احفاده وهما يحكمان قيادة جواديهما ويطلقان مسدسيهما فى الهواء طلقات متتابعة .



فى صيف ١٩٢٨ كنت أعمل فى جريدة السياسة وقد بدأ اتصالى بها فى آخر اكتوبر من ١٩٢٢ مندوبا لدى مؤتمر لوزان حتى فبراير سنة ١٩٢٣ ثم استأنفت الاتصال مراسلا برلمانيا بعد افتتاح البرلمان فى مارس سنة ١٩٢٤ ثم عملت سكرتيرا لتحريرها وكاتبا لافتتاحيتها التى كانت عليها دائما مسحة البحث والتحليل بينما كان صديقى الدكتور هيكل (باشا) رئيسا للتحرير يديج براعة «حديث اليوم» وهو المقال الحزبى المعبر عن اتجاه « الاحرار الدستوريين » وبينما كان صديقنا توفيق دياب معهودا اليه بالحملات وما تستدعيه من مهاجمات وما الى المهاجمات .

ولظرف مادى رات ادارة الجريدة ان تعرض على محرر الحملات اضطرارها لانقاص مرتبه فرفض واستقال لكن ظلت علاقته مستمرة مع الاحرار الدستوريين وان كان قد طرأ عليها شيء من الفتور . ثم وليت احدى الوزارات الحكم وكان على ماهر باشا وزيرا للمعارف فيها وكان لطفى بك السيد مديرا للجامعة فتدخل الدكتور حافظ عفيفى باشا لدى ماهر باشا لاسناد منصب فى وزارته للاستاذ توفيق دياب وانتهى الامر بتعيينه مساعدا لامين مكتبة الجامعة بمرتب قدره خمسة وثلاثون جنيها فى الشهر . فى ذلك الصيف من ١٩٢٨ اذن كان محمد محمود باشا متوليا الحكم وقد تولاه بعد الوزارة الائتلافية الثالثة التى كان يراسها مصطفى النحاس باشا حين « تصدعت

اركان الائتلاف وكان البرلمان قد اجل انعقاده شهرا وكان الدكتور هيكل بك متهيئا لتمضية اجازته السنوية باوروبا وكنت احل محله فى غيابه واشتممت رائحة اعتزام اعتداء على الدستور .

فاعلنت اصحاب النفوذ فى الحزب انى لن اطيق هذا الاعتداء اذا وقع لانى لابد مستقيل بمجرد حلول الكارثة وطلبت اليهم فى اخلاص - اذا كان ما شممت صحيحا - ان يتخذوا عدتهم لايجاد من يشرف على تحرير « السياسة » فى غياب الدكتور هيكل بك فأكد لى من تحدثت اليهم جميعا ان شيئا من مخاوفى لن يكون وكان مرتبى فى ذلك الحين من السياستين اليومية والاسبوعية سبعين جنيها، وكنت اقطن بضاحية الزيتون وكنت دائم الاختلاط بالصديق توفيق دياب وكانت اسرة صديقى قد قصدت الى الريف لتمضية فصل الصيف وكان توفيق يعيش بمنزله منفردا فدعوته الى ان ينزل معى بالزيتون وتفضل هو بالقبول . وكنت بطبيعة الحال افضى اليه بما المحه فى الافق الدستورى وبما اخشاه من حلول الكارثة وبما هو مستقر فى نفسى من استقالتى من « السياسة » بمجرد حدوث الاعتداء على الدستور ، وكان وهو يفضى الى فى الوقت نفسه بمتاعبه فى الجامعة اذ مرتبه ضئيل واذ يعامله على عمر بك السكرتير العام معاملة غير هينة فيحاسبه على تأخره فى الحضور وفى انجاز ما يكلفه به من عمل غير داخل فى الواقع ضمن حدود وظيفته .

وصباح يوم دخل على توفيق فى غرفتى قبل ان نلتقى الى المائدة كعادتنا وقال لى فى شيء من الرسمية والخطورة « انك اذا صممت على ترك « السياسة » فانى سأترك الجامعة بدورى ونخرج لنصدر صحيفة يومية معا » ولم تكن فكرة اصدار صحيفة - قد مرت بخاطرى لحظة وكل ما كان يشغل بالى انما هو استحالة استمرارى فى العمل فى جريدة يتولى حزبها الحكم ويلحق بالدستور سوءا . وهكذا كانت مواقفى دائما بعيدة عن ان يتخللها الاعتبار المادى الى جانب التقدير المبدئى

والمعنوى نسابقا استقلت من مدرسة التجارة فى الشهر الذى تقررت فيه للموظفين « علاوة الحرب » ولم اكن لاملك غير مرتبى الشهرى ولاحقا تركت خدمة « الخديو » دون ان احتكم على شىء وكل ماكان فى الاولى هو كل ماكان فى الثانية هو كل ماكان حين فكرت فى ترك السياسة وهو انى فى حالة لا يطاوعنى ضميرى على الاستمرار فيها وليكن بعد ذلك ما يكون كان تحدث توفيق الى فى شأن اصدار جريدة مفاجأة اذن كما كان تحدثه الى فى استقالته من الجامعة فقلت له « اى توفيق اما انا فاعمل فى جريدة سياسية هى لسان حال حزب سياسى تقدم حكومته على عمل لا ارضاه فاستقيل من الجريدة ومن الحزب اما انت فموظف بالجامعة وليست الجامعة مؤسسة سياسية ولا حزبية فمالك والاستقالة منها انى انصحك بالتريث .

فأجاب « لقد وزنت كل شىء طول هذه الليلة ووجدت ان الفائدة كل الفائدة فى الاستقالة واخراج صحيفة اذا وعدتنى بأن نعمل معا قلت فليكن لكن لا ترفع استقالتك قبل ان نتحدث فيها من جديد . ووقعت الواقعة ويالها من آونة تلك التى قرأت فيها وانا جالس الى « سبلندد بار » جريدة « الاتحاد » وجريدة « لابورص » وفيهما اشارة الى امر ملكى ينزل عن طريقه بالدستور ماينزل ويالها من لحظة هرولت فيها الى جريدة « السياسة » واطلعت على « الامر الملكى » بل استمعت اليه استماعا اذ اهتزت يداى وانا ابدأ تلاوته اهتزازا حال دون تبينى الحروف فى هداءة فطلبت الى احد الزملاء ان يقرأه لى ويالها من ساعة امضيتها فى الجريدة التى اتصلت بها منذ تأسيسها مسائلا نفسى « هل انا اجير او انا عامل لمبدأ اما اذا كنت اجيرا فلاستمر فى العمل اجيرا اما اذا كنت اعمل لمبدأ — وهو مبدأ الدستور والحكم البرلمانى الديمقراطى فمحال ان اظل بعد الساعة لحظة والجريدة مضطرة للدفاع عن اجراء فيه

اعتداء صارخ على الدستور واذن فالامر بين ، واذن فلا لبس - والاستقالة وهذا هو الذى تم فى ساعتها . والتقيت مساء بتوفيق فى « سولت » واخبرته الخبر وكان بيده احد الملاحق « متضمنا الامر الملكى » فافضى لى بتصميمه على الاستقالة فى الغداة وكان واخذنا نستنشق معا هواء الانطلاق ونسيم الحرية وننتظر ماقد يجىء به الغد وذات مساء - ونحن عائدان الى الزيتون حدثنى توفيق بشأن « الانضمام الى الوفد » فاعترضت على حديثه وقلت انا لم نترك حزبا لننضم الى حزب ولم نخرج من فئة لننضم الى فئة وانما تركنا جماعتنا لانها تصرفت تصرفا لانرضى عنه فلنقف عند حدنا وسيكون عملنا بطبيعته متفقا مع عمل الوفد لاننا جميعا نكافح فى سبيل الدستور واعادة البرلمان لكن ليس من الضرورى أن نندمج . فلم يقتنع توفيق بهذه النظرية وقال انك تريد أن تكون قاضيا تقول لهذا اصبت ولذلك اخطأت لكنك تنسى ان القاضى لايشهد جلسته الا بعض عشرات من الناس فى حين ان الجندى السائر فى الصف يشهده الوف الناس فى الشوارع . قلت : هذا صحيح لكنى مطمئن الى موقف القاضى مكتف بعشرات مشاهديه اذا كان لابد من الاعتزاز بالمشاهدين - لكن صديقى لم يقتنع فسألته هل يرضيه ان نحتكم فى خلافنا الى حمد باشا الباسل وهو وكيل الوفد فرضى وذهبنا لمقابلته بفندق « مينا هاوس » وعرضنا عليه الامر فوافقنى انا على رأيى ونصح ببقائنا مستقلين واقتنع توفيق بتدليلات حمد باشا ولا سيما حين قال له « انك ستظل دائما دخيلا فى نظر القوم » ..

وانتهينا على هذا وكتب لنا بعد ذلك ان اصدرنا جريدة « وادى النيل » مع صاحبها الاستاذ « الكزة » وكانت - الاشاعات كعادتها فى هذا البلد - قد ملات الدنيا بان الوفد هو الذى سيصرف على الجريدة التى نخرجها واجتمعنا بقهوة « سبلندد بار » - فى قاعة من قاعاتها العليا - لكتابة العقد وقال الكزة نقول ان الجريدة تسير على مبادىء الوفد طبعا فوافق توفيق دياب لكنى نصحت بالنص على أن مبدأ

الجريدة « العمل على استرداد الدستور واستكمال الاستقلال » دون ذكر هيئة من الهيئات وكان هذا هو الذى نص عليه فى العقد وتفاهمنا على ان يظل توفيق فى القاهرة واقصد انا الى الاسكندرية اشرف على اصدار الجريدة فى مقرها وتفاهمنا على عدم تناول تصرفات « الاحرار الدستوريين » فى مقالاتنا الا فيما صدر عنهم ويصدر بعد ١٩ يوليو سنة ١٩٢٨ وهو تاريخ « الاعتداء على الدستور » دون تعرض لمواقفهم السابقة اذ كنا متضامنين واياهم فيها لكن لم يمض على عملنا فى وادى النيل اسبوعان حتى اخذت المح فى مقالات توفيق التى يبعث بها الى فى الاسكندرية تعرضا لحلفاء الامس فى تصرفاتهم السابقة لذلك التاريخ المعهود بل تعرضا لمبدأ تأليفهم الحزب الذى اذكر انه كان هو بالذات الموزع لاوراق الانتخاب فى اجتماعه التأسيسى فكنت الاحظ عليه مخالفته لتفاهمنا السابق وكنت احذف من مقالاته العبارات التى تتجلى فيها هذه المخالفة وكان هو يحتج ويلح وكنت انا عند التنفيذ الدقيق لما عاهدنا انفسينا عليه .

وضحى اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر ١٩٢٨ قدم لى احد الزملاء المحررين بوادى النيل جريدة الاهرام التى كانت قد وصلت الى الاسكندرية فى تلك اللحظة ودلنى فيها على موضع اعلن فيه توفيق دياب انضمامه الى الوفد خلال احتفال البارحة بعيد الجهاد القومى والحق إن الدهشة تولتنى توليا عظيما حين قرأت ذلك النبأ على ارغم من كل ما اعرفه عن صديقى من الاندفاع وراء احساس الساعة بل اللحظة وتناولت التليفون وتحدثت اليه فى القاهرة وسألته ما الخبر فاجابنى انه نفسه لا يدرى كيف حدث ماحدث فقد حضر الاحتفال وهو يعتزم مجرد حضور العيد القومى لكن الحاضرين طلبوا اليه ان يخطبهم والحو فى طلبهم فلباه وخطب وجره حماس الجمهور فاندفع فى تياره متأثرا به فاعلن ما اعلن فلاحظت عليه غرابة الامر والمفهوم انه يؤثر الخطيب فى الجماهير لا ان تؤثر الجماهير فى الخطيب وان يجرفهم هو فى تياره لا ان يجرفوه هم فى تيارهم وسألته وما مصير الجريدة التى نحررها الآن فقال « أمامى فى هذه اللحظة معاون قسم عابدين وقد جاء لالقاء القبض على

لمناسبة خطبتى امس » فقلت لا محل للتحدث فيما كنا نتحدث فيه وسأحضر الى القاهرة هذا المساء . وحضرت الى القاهرة وبقيت بها اياما حتى تم فى خلالها الافراج عن توفيق دياب بمقتضى امر اصدره القاضى حمدى محجوب مدير الامن العام فما بعد - واجتمعت بتوفيق غداة الافراج فى منزله بشارع توفيق وتناولنا معا غداء « ملوخية » وجاء بطبيعة الحال دور التحدث فيما كان وما سيكون وعرضت مخرجا من المأزق ان اكتب مقالا اشير فيه الى الائتلاف فى العمل وانتاج هذا الائتلاف ماقام على الاخلاص المتبادل واقرب لذلك مثلا جريدة وادى النيل التى يعمل فيها « توفيق فى وفديته وان كنت بنت اربعة أيام وأنا فى استقلالى عن الهيئات والاحزاب السياسية جميعا » وهكذا كان وسجلت هذا الاستدراك وظللنا نعمل فى وادى النيل من منتصف سبتمبر ١٩٢٨ الى اليوم السادس لشهر ديسمبر بعده اذ صدر قرار من مجلس الوزراء بالغاء الجريدة لنشرها مقالا لى رأى فيه مجلس وزراء ذلك الزمان مارأى من اعتبارات . واصدرنا من بعد جريدة «الشرق الجديد» ودامت بضعة اسابيع الغاها مجلس الوزراء بعدها كذلك الغاء . وفكرت انا فى الرحيل عن مصر والاقامة بباريس واردت الاستناد الى بعض مورد يجيئنى عن طريق مراسلة بعض الصحف المصرية وتحدثت فى هذا الشأن الى « كوكب الشرق » والى «البلاغ» الوفديتين فلم تر ادارتهما ان حالتهما المالية تسمح بالتوسع فى صفوف محرريها وعلم صديقى احمد بك عبد الغفار وكان له معى فى أزمة الدستور موقف تضامن لم يحققه - من أمرى ماعلم فاقترح ان أرسل « السياسة » فرفضت لما بينى وبينها من فتور فى الرأى ولكنى رضيت ان أراسل السياسة الاسبوعية ولم تكن لها صفة سياسية ولم تكن لها صبغة حزبية بل كان المقرر المعروف وهى لم تكن ملك الحزب كما كانت السياسة بل ملك الدكتور حافظ عفيفى باشا - انها مجلة ثقافة عالية وكفى

وسافرت الى أوروبا وتبعتنى كلمة كتبها الاستاذ توفيق دياب

فى « البلاغ » على ما اذكر يقول فيها انى لم اخبره انى سأراسل « السياسة الاسبوعية » - التى يعرف كما أعرف أنها غير حزبية ويعلق على هذا باستشهاده - « قل كل يعمل على شاكلته »

ومضت أيام عدت بعدها الى مصر وسقطت وزارة محمد محمود باشا وتلتها وزارة عدلى باشا « الانتقالية » وجرت انتخابات تقدم فيها توفيق وفديا ونجح حيث كان قد فشل منذ سنوات وفكر فى اصدار جريدة « اليوم » وكنت ايامها أساهم فى تحرير جريدة « كوكب الشرق » فتقدم منى توفيق ان اشاركه فى « اليوم » مشاركة على أن يكون لى ثلث الارباح مع حد شهرى ادنى فقبلت بعد تردد من جانبى والحاح شديد من جانبه وجاءت المفاوضات وسافرت فى سبيلها مندوبا عن « اليوم » وكنت قد تقدمت قبل سفرى للنحاس باشا بمذكرة عن آرائى فى المفاوضات وما ينبغى ان تدخله على مشروع « محمد محمود - هندوسون » من تعديلات فكانت هذه المذكرة وما اكتنفها فى لندن الى جانب نشاطى الخاص من العوامل التى اعانت على ان تكون برقيات « اليوم » من أدق البرقيات التى كانت ترد على الجرائد فى مصر

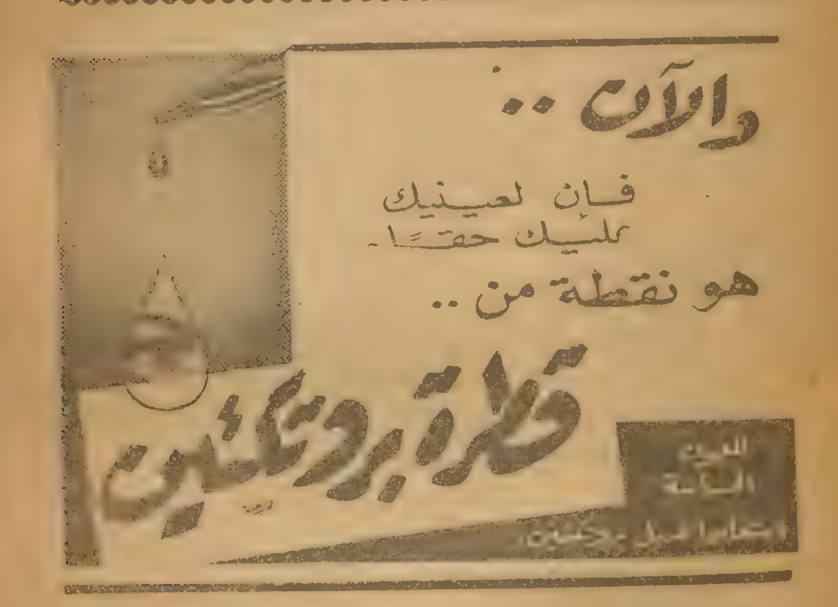
وانتهت المفاوضات واحسست على اثرها بهجوم داء السكر على هجوما شديدا فقصدت الى « لوزان » للمعالجة ولم اعد الى مصر مع « الوفد الرسمى » كما كنت قد غادرتها معه ثم آثرت البقاء بأوروبا وقد حل بمصر عهد صدقى باشا وحلت معه الكارثة الدستورية العظمى ويتصل بى بعد ذلك ان النحاس باشا هنأ « اليوم » بمندوبه فى لندن حين استقبل الاستاذ دياب وبعض محرريه عقب عودته من لندن وانه اعلن ان عزمى قام للوفد وللمفاوضات بما يعرف له ويقدر ويتصل بى أن أحد المحررين الذين كانوا حاضرين ذلك التصريح اقترح على توفيق وهما يمرقان

من بيت الامة الى دار « اليوم » انشر ذلك التصريح الذى فاه به النحاس باشا فرفض توفيق ويخبرنى ذلك الزميل المحرر بالذات انه أحسن فى رفض توفيق رغبة عن تسجيل حسنة لعزمى

ثم تمضى بعد ذلك ايام وشهور وسنوات اعمل خلالها الى جانب « الخديو » بأوروبا بمرتب شهرى قدره مائة جنيه تضاف الى مصاريف الاقامة فى غير باريس فتجعله قريبا من المائة والخمسين ثم احس انى لا ارتاح لاستمرارى فاستقيل واقصد الى لندن اقوم فيها بعمل صحفى متصل بمصر والبلاد العربية واكتب الى صديقى توفيق اعرض عليه مراسلتى « الجهاد » بأجر شهرى أقدره بعشرين جنيها . فتكون مأساة ومأساة ابعد ذكراها وذكرى ماتلاها عن ذاكرتى لانى اشفق على البشرية من كل مايتلاقى خلالها ثم امر بمصر فى طريقى الى الحجاز واعود من بلاد العرب فى طريقى الى أوروبا فيلح على الصديق توفيق فى البقاء والعمل معه فى « الجهاد » والمح بارقة أمل فى اثير الحال السياسية فى مصر فارضى البقاء واعمل فى « الجهاد » محررا « دبلوماتيا » وأبذل من الجهود ماكان يهلل له الصديق توفيق ويخبرنى — وانا بالاسكندرية — ان بيع الجريدة قد زاد بفضله آلافا وآلافا ... وتتكلل تلك الجهود بما كنت ارمى اليه فى حملتى من قضاء على العهد البائد وتوليه لتوفيق نسيم باشا .. ثم يجىء دور العمل الانشائى فاكتب عن بعض اعمال الحكومة واعالج مسألة معينة منها بنفس الروح التى كنت اعالجها بها ايام الوزارة السابقة — وهى الروح التى كان « الجهاد » ذاته قد عالج المسألة ذاتها قبل ان اعود الى مصر وقبل ان اعمل فى تحريره فلا ترضى المعالجة وزيرا من الوزارة فيمتعض منها توفيق دياب ... ويطلب الى ان استريح باجازة شهرا أو شهرين وقد يكونان هما

اللذان قدرطولهاالانتهاء الحكومةمن معالجة المسألة الدقيقة على هـواها . . . فـلا اجـــدمجـالا لمقـابلة هـذا العـرض الا باسـتقالة مـن « الجهـاد »والبحث عن جريدة اكتب فيهـا ما أومن به من الآراء دونالوقوفعند أى اعتبار شخصى أو مادى

وبعد ففى هذهالذكريات عبرةلمن يريد ان يعتبر وآية هـذه الذكريات ان للمرء ان يختار بين سبيل المبدأ والرأى يحتمل من جرائهمـا مايحتمل من ضـنك وشظفعيش، وبين سبيل الوصول والجيب ينيم لاجل التنعم بهما جوانب البشرية السامية والمثـل العليا . على أن لسبيل الاولى هى الوحيدةامام أولى الخلق العظيم . ولكل وجهة هو موليها ـ



رؤساء الوزارات والصحافة

كتب لى ان اتصلت اتصـــالا صحفيا برؤساء الوزارات التى تعاقبت الحـكم منـذ النهضـة الوطنية فى اخريات سنة ١٩١٨ حتى اليوم مع استثناء أصحاب الدولة توفيق نسيم باشـا فى وزارته الاولى ويوسف وهبـه باشا ويحيى ابراهيم باشـا فى عمومهم واسماعيل صدقى باشا أيام تولية الرياسة بالذات وكان لابد بطبيعة الحـال ان تكـون لى معهم حوادث اتبين خلالها نـوع نظرهم الى الصحافة واعتبارهم الصحفيين وقد آثرت ان اروى بعض تلك الحوادث ذات الدلالة لعل فى روايتها عبرة لمن يريد ان يعتبر .

علم بالنفسيات

على انى قبـل الاخذ بالرواية اريد ان اتقدم بملاحظة عامة هى ان رجال الحكم جميعـــا فى حاجة قصوى لان يكونوا عـلى شىء من العلم بالمباحث النفسية وعلى شىء من ممارسة النفسيات بالفعل وما الحكم وما السياســة الا فن توجيه الشئون العـامة عن طريق الاشخاص ولا يحسـن التوجيه طبعا الا من خبر طبائع الناس وعرف جوانب الخـير وجوانب الشر ومواطن القـوة منها ومواطن الضـعف وعرف كيف يستغل كل واحدة عنـد من يضعه القدر فى طريقه ويؤثر بها جميعا فى الراى العام وهــو المحور الذى يجب أن يدور حوله نشاط رجال الحكم تأثيرا فيـه اوتأثيرا منـه

رشدى باشــا

واول من وجدته رئيسا للوزراء وسأقص قصصهم بترتيب توليهم الحكم وانا اعمل فى الصحافة متوليا تحرير جريدة «المحروسه» بعدئذ استقلت من مدرسة التجارة معتزما « الاشتغال بالسياسة المصرية » على حد ما ذكرت فى كتاب استقالتى — هو حسين رشدى باشا وعلى الرغم من دقة الظروف الصحفية التى كانت تجتازها البلاد فى عهده اذ كانت الاحكام العرفية الانجليزية معلنة وكانت الرقابة العسكرية على الصحف مفروضة فان رشدى باشا كان يفقه الاتصال بالصحفيين ومحاولة جعل الجو الذى يسود علاقاتهم به جو صفاء ومودة وكان يعاونه فى مهمته ان الصحف اليومية لم تكن فى ذلك الحين عديدة وكان رشدى باشا مصادقا لكثيرين من مديرى الصحف ورؤساء تحريرها فكان يستعين بهذه الصداقة خلال زيارات يؤديها شخصيا لهؤلاء المديرين والرؤساء فى منازلهم كما كان يدعوهم الى مقابلات فى داره او فى ديوانه يتبادل واياهم الراى فى صراحة .



وجلاء ويفقههم بصفة خاصة على ما لديه من اسرار الدولة واسرار علاقتها بالسلطات الانجليزية المتعددة حتى يكونوا على بينة من الامر كله حين يكتبون وليس ادل على هذا الذى نقول من ان الاجتماعات التى كان يعقدها فى داره بمصر الجديدة عند نشوب الحرب وقبيل قطع مصر علاقتها بالدولة العثمانية واعلان انجلترا الحماية البريتانية عليها كان يحضرها معه اربعة من اصدقائه هم سعد زغلول واحمد عبد اللطيف وعبد العزيز فهمى واحمد لطفى

السيد وكان لطفى السيد فى ذلك العهد صحفيا يتولى سياسة « الجريدة » ويراس تحريرها ويكتب المقالات يضمنها توجيهات كان الاصدقاء الخمسة يتفقون على ضرورتها .

سعيد باشا

وكذلك كان سعيد باشا شديد الاتصال بالصحفيين يفتح لهم ابواب ديوانه وابواب منزله ايضا وكثيرا ما كان يدعو بعضهم الى تناول الغذاء على مائدته ويناقش واياهم حول المائدة كثيرا من شئون الدولة وما يخطر له فى صددها من تصرفات واذكر لمناسبة لا ادرى الان اى مقال من المقالات استدعيت لمقابلته فى الاسكندرية وفى داره بالرمل فلما قصدت الى الدار وجدتها غاصة ببعض اصحاب المنزلة من اهل الثغر يتوسطهم سعيد باشا ويتجاذبون واياه اطراف الحديث كابناء اسرة واحدة .



وكان من دلائل وقوفه على غير قليل من طبائع الناس ان اراد — وكانت تلك هى المقابلة الاولى التى جرت لى معه — ان يخلق قبل ان يحدثنى فيما استدعانى من اجله جوا من الاتصال ورفع الكلفه وكان يسمع بطبيعة الحال [illegible] من آرائى الاجتماعية فبدا حديثه [illegible] والاديان [illegible] فى المعتقدات وقص علينا [illegible] يحضر دروسه [illegible] [illegible] المقدس [illegible] وغير قليل من [illegible] المسيحية [illegible] من ذلك لم يؤثر فى [illegible] الذى [illegible] اسلاميا ودار بيننا نقاش حول مسالة العقائد [illegible] خلق بيننا شيئا من العلاقة الفكرية

التى يؤثرها « المفكر » الصحيح على اية علاقة اخرى واذن فشيئا من الجو المعين على الاستماع فى حسن ظنى على ملاحظته على المقال الذى استدعانى من اجله ولم ينس سعيد باشا ان يزودنى ببعض الانباء التى تهمنى وسرنى ان اقدمها قبل غيرى لقراء صحيفتى وأن يهمس فى أذنى ببعض الاجراءات التى تتجه النية الى اتخاذها طالبا الى ان ابقيها سرا فيما بينى وبينه فخرجت وانا اشعر ان بيننا علاقة تفكير وعلاقة ثقة وهما اقصى ما يطمع فيه صحفى من طراز المفكرين وهو يشعر انه قد فاز باقناعى او باكتسابى دون ان يتكلف غير مشقة حسن الاستقبال وحسن الاخذ بما يعرفه من مواطن عن المفكرين .

عدلى باشا

كنت احسب عدلى باشا قبل ان اعرفه من طراز «اولاد الذوات» الذين تصورهم لنا الإساطير فى صور محدودة وكنت احسبه بطبيعة الحال ممن لا يقراون الصحف او ممن يكتفون بقراءة الصحف الافرنجية الاجنبية والمحلية ولذلك فقد كانت تنولانى الدهشة كلما اجتمعت به فوجدته يحدثنى فى تفصيل مقال لى وعن مقال لامين الرافعى ولاخر تنشره جريدة « النظام » ثم يقارن بين التدليلات التى يلجأ اليها الكتاب ويحلل ما تضمنته المقالات من اراء ويعقب عليها تعقيبا . ثم كان يدهشنى ان اراه عارفا للصحفيين البارزين معرفة شخصية محللا لنفسياتهم تحليلا عميقا ذاهبا فى ملاحظاته عنهم الى حد لم يكن ليخطر على بال اكثر الناس اتصالا بهم واشدهم اختلاطا على انه « ينتقى » من



يوليهم ثقته ويفسح لنفسه مجال التحدث اليهم فيخرج عن ذلك المظهر الذى كان يحسبه غير عارفيه انه دال على نفسية متكبرة ولكنه كان يترك امر الاتصال بغير من « ينتقيهم » لزميل كبير من زملائه الوزراء كان هو ثروت باشا لا لموظف من موظفى رياسة مجلس الوزراء او لمدير من مديرى مكاتبه وكان فى تحدثه الى الصحفيين لايوارى ولا يدور فاذا كان يحكم ان فى استطاعة الظروف ان تسمح له بالاجابة الصريحة على ما يتوجه به اليه الصحفيون من اسئلة تقدم بهاجلية مستقيمة واذا كان يرى ان الظروف لا تطاوعه على الاجابة الصريحة اعتذر عنها فى صراحة وقال ان الوقت لم يحن بعد لبحث هذا الموضوع واذكر ان جاء يوما صحفى كبير من صحفيى فرنسا بعث الى ببطاقة من صديق لى بباريس يوصينى بتسهيل مهمته وكانت مهمة تحقيق فى المسألة المصرية من الوجهة الدولية وكان عدلى باشا اذ ذاك رئيسا لوزارة الائتلاف الاولى وطلب الصحفى الفرنسى ان اقدمه لعدلى باشا وقصدنا الى مجلس النواب لهذا الغرض وفى انتظار خروج عدلى باشا من الجلسة الى غرفة رئيس الوزراء بالمجلس جلست وصاحبى فى غرفة الوزراء فجاء ثروت باشا فقدمت الرجل له واخبرته بمهمته فسأل الصحفى الفرنسى ثروت باشا « لم لاتدخل مصر عصبة الامم » وهل تعتزم الوزارة القائمة اجراء مفاوضات جديدة مع انجلترا ؟ « فأجابه ثروت باشا » انك حاضر لمقابلة الرئيس فهلا توجهت له هو بسؤالك « وفر ثروت باشا هكذا من الاجابة وانقذه من مكر الصحفى ان اعلن وصول عدلى باشا الى مكتبه فقمنا لمقابلته . وهناك اخبرته انا انتظرناه دقائق فى غرفة الوزراء وانى قدمت صاحبى هناك لثروت باشا وسأله الصحفى نفس السؤال الذى وجهه الى ثروت باشا فاجابه عدلى باشا « لقد عرفت ثروت باشا فهلا تقدمت بسؤالك لوزير الخارجية » فضحكت وقصصت قصة ثروت

باشاواحالة الرجل على «الرئيس» الذى يحيله الان بدوره على وزير الخارجية . وكانت لطيفة انطلق بعدها عدلى باشا انطلاقا يحدث الرجل فى صراحة عن كل ما ارادمعرفته منه وخرج الرجل يقول انه « من عيار اكبر رجال الحكم فى اوروبا » ذلك بأن عدلى باشا قد عرف كيف يخلق الجو الملائم بينه وبين الصحفى وقد عرف نوعه وطرازه .

سعد باشا

اما سعد باشا فقدكان صحفيا وهذا ادق ما يمكن الالتجاء اليه من تعبير يراد به وصف علاقةرجل حكم بالصحافة ورجالها فقد كان سعد باشا يحب الصحفيين ويجالسهم وكثيرا ما كان يتبادل الرأى معهم فى ادق المواقف واخطر الامور وكثيرا ما كان يتبادل الراى معهم مع انصاره ومع خصومه على السواء بل كثيرا ما كانت تغلب عليه النزعة الصحفية الاولى فيكتب



بقلمه المقالات او يمليها ويمضيها بامضاء مستعار وكان احيانا يتبرع ببعض مقالاته لمن املاها عليه فيسمح له بالتوقيع عليها ونشرها مسندة اليه دون موحيها . وتقدمت لسعد باشا غداة اجتماع البرلمان الائتلافى وتحدثت اليه فى امر من الامور التى كنت اجد ضرورة الالتجاء اليها تدعيما للدستور ومنعا لتكرر الاعتداء عليه وعلى الرغم من انى لم اكن منتميا الى الوفد وعلى الرغم من ان سعد باشا كان يعرف انى لم اكن من محسنى الظن باستمرار الائتلاف فانه لم يتردد لحظة فى الافضاء الى بسر من اسراره التى كان يحتفظ بها للالتجاء اليها وسيلة فعالة فى سبيل تدعيم الدستور ومنع تكرر الاعتداء عليه وكل ما

أحاط به ادلاءه طلب الى أن يبقى هذا الذى افضى به سرا اذ لم يحن بعد وقت اذاعته ونشره وهذا هو الذى كان حتى اليوم

ثروت باشا

داهية من حيث علاقته بالصحافة والصحفيين وهو من اعمق من عرفت من رؤساء الوزارات تحليلا للنفسيات ووقوفا على مواطن القوة والضعف عند بنى الانسان واقدرهم على اخذ الصحفيين بما يهون دون ان يظفروا منه باكثر مما يريد هو أن يقول حلو المقابلة وحلو الحديث وحلو الوديع ينسيك بهذه المظاهرة احيانا بعض ما انت ذاهب اليه من اجل السؤال عنه والاستيضاح اذكر انى ذهبت اليه يوما - ولم يكن بعد رئيسا للوزارة ولم يكن متوليا وقتها الحكم - وكان ذلك ايام وجود لجنة ملنر فى مصر وايام اشاعات اتصالها ببعض الوزراء والكبراء وقصدت اليه اسأله علاقته باللجنة ورايه فى الاتصال بها ورايه فى القضية المصرية فى عمومها وقصدت اليه فى دار الجامعة المصرية بشارع الفلكى حيث كان قد حدد لى موعدا لمقابلته وتقابلنا واحسن الاستقبال



ما احسن واحسن الحديث ما احسن والقيت عليه اسئلتى وكانت مكتوبة فى ورقة فتناولها منى وقال « انى فى الواقع لم استقبلك صحفيا وسأحدثك فى اسئلتك لكنى اريد الا احدثك صحفيا بل اريد ان احدثك منطلقا من هذا القيد الذى يدعونى بطبيعة الحال الى التحفظ فيما اقول انما اريد ان اتحدث اليك « زميلا » فى دراسة الحقوق وفى تكيف دماغنا بالمنطق القانونى وهو منطق الذوق السليم واحس بطبيعة فراسته

انه اصاب منى موطن اعتزاز بالمزاملة فاطمأن وحدثنى ، وحدثنى فى عموم واجمال وابهام بعض الاحايين وختم حديثه فى انه انما افاض بما افاض نزولا عند واجب الزمالة وهو لا يشك انى سأحتفظ لنفسى بكل مادلى لى به من معلومات. وانتهت المقابلة وخرجت مأسورا باعتبار « الزمالة » ولم أنشر حرفا من حديثه احتراما لاعتبار «الزمالة» بل لم احلل فى نفسى ذلك الحديث فاجده غير منطو على شيء صريح ولا خطير .

النحاس باشا

يقابل الصحفيين ويتحدث اليهم فى صراحته المعهودة او يعتذر فى صراحته المعهودة ايضا عن الاجابة عما يوجه اليه من اسئلة لا يريد الاجابة عنها وهو حين يتولى الحكم يحس انه متصل عن طريقه بمختلف التيارات الفكرية فيتسع صدره لمؤيديه من الصحفيين واغير مؤيديه . قصدت اليه فى وزارته الاولى مرة وفى وزارته الثانية مرة اخرى وتحدثت اليه فى المرة الاولى لمناسبة ازمة قانون الاجتماعات وفى المرة الثانية



لمناسبة « المفاوضات » التى كان يستعد للسفر لاجرائها وقال لى فى المرة الاولى انه لا يريد الافضاء بمعلومات قبل انقضاء يومين وقال لى فى الثانية انه يفضى الى بمعلوماته على انها ليست للنشر وقد بر بوعده فى الاولى وبررت بوعدى فى الثانية اماقى مفاوضات لندن التى جرت برياسته سنة ١٩٣٠ فكان حريصا كل الحرص كله على سرية ما يدور فيها من مفاوضات لكنه ليلة تم التفاهم بينه وبين مستر هندرسون على مشروع المعاهدة — وكان يحسبه

تفاهما نهائيا ولم يكن ينتظر عدول الجانب الانجليزى عنه فى الغداة ـ وقد اجتمعت به عقب عودته من وزارة الخارجية عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل انطلق يتحدث عن ادوار المفاوضة فى تفصيل وعن العقبات التى كانت تقف فى طريقها وعن الرسائل التى استطاع ان يتغلب عليها فى هذه العقبات . على انه كلما كانت المفاوضات تقف موقفا دقيقا كان يحرص على تعرف راى كبار الصحفيين الملازمين للوفد ويناقشهم موقفه فى صراحة وافصاح تامين .

محمد محمود باشا

يميل الى الاتصال بالصحفيين وله بينهم اصدقاء يترددون عليه او يبعث هو فى اثرهم وكثيرا ماكان يتصل بداود بركات اتصالا مباشرا او غير مباشر عن طريق الاستاذ انطون بك الجميل حينما كان يعمل سكرتيرا للجنة المالية ويود محمد باشا ان يستأنس براى الصحفيين مختلفى النزعات فيما هو مقدم عليه من امور ويحسن مقابلة الصحفيين ويعرف اذ يتحدث اليهم كيف يقرب المسافة بينه وبينهم فيشعر بضرورتهم له وباعتماده عليهم



صدقى باشا

اذا كان ثروت باشا من اعمق من عرفت من رؤساء الوزارات تحليلا لطباع نفوس الصحفيين فان اسماعيل صدقى باشا من انشط من عرفت منهم فى حيلة الاتصال بالصحفيين ـ كان امين الرافعى يصدر « الاخبار » فى سنة ١٩٢٠ فكان صدقى باشا

يمضى الاصبوحة فى مكتب امين يتحـــدث فى مختلف الشـئون ويعـرف كيف « يزلق » خلال حديثه حـكاية طـريفة تتضمن الموضوع الذى يود ان يعالجه امين فى مقاله والراى الذى يريد ان يأخذ بـه امين فى معالجتـه . وكان يـدق التليفون لجـريدة الافكار كل صباح تقريبا ليسأل عن الاخبار ويدلى بما يراه جديرا بالبحث « لو استحسنت الجريدة ما يراه » ثم يدعو محـررا من المحررين الى تناول الغداء معه . فى نادى محمـد على ويلح فى ان يقدم له ما يميل الى تناوله من الطعام من « نبيذ » ويحرص ان يزور جريدة السياسة ليتحدث اليك ـ « وانت الاقتصادى الذى تحسن تفهم الموضـوع » ـ فى موضوع يود ان تتناوله الصحف لينشر له فيه رايا بعد يوم او يومين . ثم اذا جاء الحكم انقلبت ادارة مـكتبه قلمـا من اقـلام التحرير فى الصحف «وصالون» من صالونات اجتماع الصحفيين يلاين هذا ويلاطفه ويداعب ذاك ويظارفه ويهـدى ذلك لمناسبة زواجه ويقربه وان كان فى ذلك كله لا يعنى الا بظـرف الساعة وحاجته .



عبد الفتاح يحى باشا



احسبه لا يقدر قوة الصحافة قـدرها الصحيح وتجربتى معه تدلنى على انه يغـلو فى الاعتماد على « التـكذيبات » ويحسبها كافية لاقناع الناس بان ما تنشره الصحف عنه وعن « التبليغات »

البريتانية » التى ترد عليه ليس صحيحا حتى بعد ان يثبت العكس ويتضح ؛ وقد قصدنااليه يوما فى وفد صحفى الاستاذ انطون الجميل بك والدكتور هيكل بك وانا فاحسن استقبالنا وكان حوله من زملائه الوزراء اربعة واحسن ادارة ؛ مناقشة بيننا وبينهم ونحسبه قد اقتنع بوجهة نظرنا فى اشياء وان يستطيع ان يقتنع بها فى شيءدقيق .

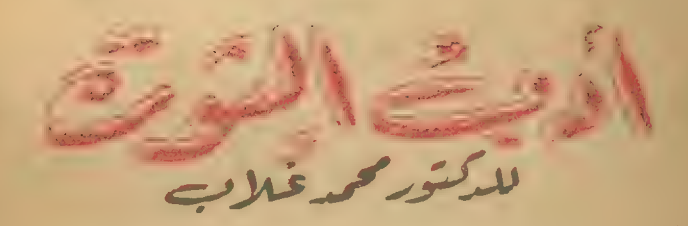
نسيم باشا

عالجنا بعض الاحايين بعض جوانب دولته فيما يتصل بالصحافة والصحفيين ولدينا عن دولته ذكريات لم يحن وقت نشرها بعد ونرجو ان يحين قريبا




أعظم نجاح
لأول حدث فني في مصر
وفي الشرق بأجمعه
فرقة الاستعراض الثلجي
العالمي لعام ١٩٥٠
بسراي الشروح بالجمعية الزراعية الملكية بالجزيرة
بادروا بحجز تذاكركم مقدما
من
• شباك تذاكر الجمعية الزراعية الملكية أمام مدخل النادي الأهلي ت ٤٣٨٠٨-٤٤٨١٤
• ميدان الأوبرا بمحلات اسماعيل بك على السجاد ت ٥٢٩٤٠
الأسعار

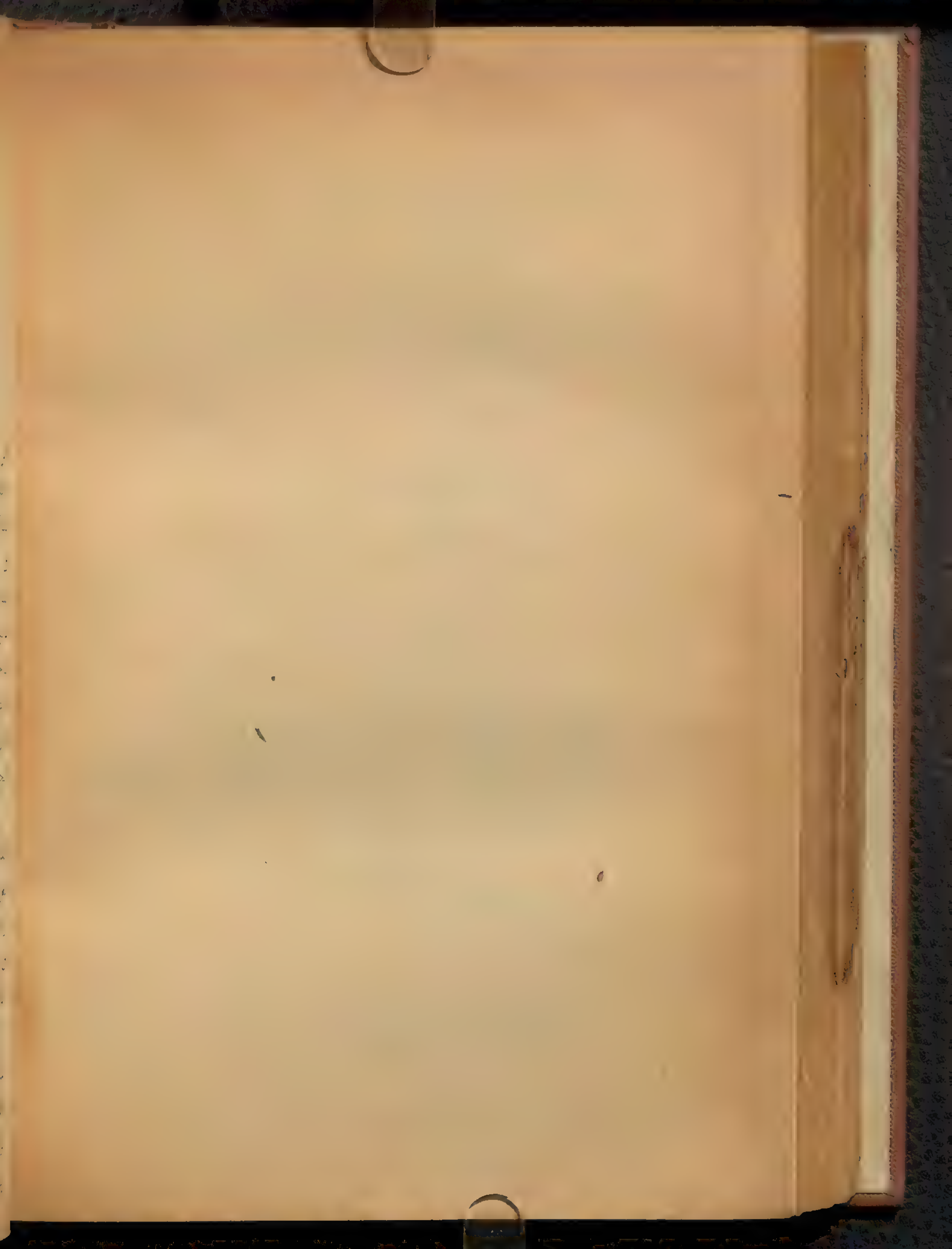

أدب
الثورة
بقلم
الدكتور محمد غلاب
٦
كتب للجميع





٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة

طبع بمطابع جريدة «المصرى»



مقدمة

تواضع مؤرخو الحركة الادبية فى اوروبا على وضع اسم المدرسة الرومانتيكية لطائفة من الكتاب الذين ترتبط منتجاتهم بالنهضة الكبرى التى نشأت فى فجر الثورة الفرنسية ، فكانت كأنها احدى نتائجها المباشرة ، والتى كانت تهدف الى احداث تجديد جدى فى الادب والفن ، والتى ظهرت فى مختلف الاصقاع الاوروبيــة فى نهاية القرن الثامن عشر ، وفى اوائل القرن التاسع عشر ،وكان تأثيرها على الاخص واضحا فى الشعر وفى الروايات والمسرحيات فأحدث فيها تطورا بالغـا ، بل انقلابا خطيرا . ولما كان السواد الاعظم فى كل امة يتلقى ثقافته عن طريق هذه المنتجات ، فقد كان من الطبيعى ان يحدث هذ التطور تغييرا اساسيا فى اخلاق الجماهير وطباعها .

ولا جرم انك ترى من هذا الاطلاق الشامل الواسع النطاق الذى تواضـع عليـه المؤرخون والنقاد انه لم يوضع لهذه المدرسة تعريف دقيق يحدد موضوعهـا واهدافها تحديدا جامعا مانعـا ، وانما هى حركة واسعة نشأت من رد الفعل الناجم عن المغالاة فى اخضاع كـل شيء للموازين العقلية كما كانت الحال فى النصف الاول من القرن الثامن عشر ؛

كانت الثورة الفرنســية ـ بسبب مااستحدثته من افكار سياسية جديدة ، وانقلابات اجتماعية خطيرة ـ قـد اعدت النفوس اعدادا قويا للتمرد على اغلال الماضى والنشاط فى تحطيمها والشعور بالحاجة الى الانفلات منها ، فلم يسعها الا ان تناضل بدافع تنازع البقاء عن الاحتفاظ بحياتها .

والخطوة الاولى فى طريق هذا النضال هى مجاراة الثورة فى الدعوة الى التحرر والانطلاق من كل قيود الماضى بلا استثناء ، والقفز من هذه الدائرة الضيقة الى رحب الحياة البهيجة المستمتعة بنعمة الحرية ، والتصميم على منح الخيال والحساسية مكانا فسيحا فى المنتجات الادبية ، فتضافرت هذه العوامل بها على التحرر من قواعد الادب القديم وعلى ادراك كل اديب مكانته واحساسه بوجوب ابراز شخصيته فى القصيدة او فى الرواية او فى المسرحية واضحة جلية ، وشعوره بالامتعاض من انكار الذات ، وهجران الشخصية ، ومن الوقوف على الحياد فى منتجاته كأنه لاعلم له بشىء منها كما كانت التقاليد تقضى فى عهد المدرسة الكلاسيكية .

ويتحتم علينا هنا أن نسجل أننا مدينون للكاتب الفرنسى الكبير ، والمحلل النفسى الخطر استاندال Standhals (١) بذلك التعريف الشامل الدقيق الذى وضعه للرومانتيكية والذى وسع نطاقها حتى سمح للنقاد بأن يدخلوا فى اطارها ألوانا من المنتجات الادبية لم تكن تنتظم فى عقدها لولا تعرف استاندال الذى نستطيع أن نجمله فيما يلى :

ان الرومانتيكية هى الفن الذى يقدم الى الشعوب ثمارا أدبية جديرة بأن ترضيها وتروقها فى كل ما يتعلق بتاريخها وتقاليدها وعاداتها وعقائدها ، ولكن فى أوضاعها الراهنة . أما الكلاسيكية فهى تقدم الى هذه الشعوب منتجات خليقة بأن تروق أجدادها الاقدمين ،

---

(١) استاندال هو الاسم الذى اشتهر به فى عالم الادب ، واسمه الحقيقى : «هانرى بيل» وقد ولد فى مدينة جرينوبل فى سنة ١٧٨٣ وقد عاش أكثر حياته فى ايتاليا ، وهذا هو سر عدم اشتهاره بالمساهمة فى الحركة الرومانتيكية ، وقد تخصص فى تأليف الروايات النفسية التى تعنى بالخواطر الدفينة فى أعماق القلوب . وأخيرا توفى فى سنة ١٨٤٢

وهو يضيف الى ذلك قوله :وينبغي لاولئك الرومانتيكيين من الشجاعة ليقدموا على ما هم سائرون اليه مثل ما ينبغي للمحاربين ، فلا يصح لهم أن يفكروا في النقد أو في الحملات الصحفية كما لا يصح للجنود في وسط المعمعة التفكير في المستشفيات ، بينما نرى الكلاسيكي متبصرا حذرا لا يتقدم خطوة قبل أن يوقن بأن لديه من شعر ((هوميروس)) أو من حكم ((شيشيرون)) الفلسفية سندا يؤيده •

فاذا نظرنا الى الرومانتيكي بهذه العين وأدركنا أنه هو الذي يعرف كيف يكون مرآة عصره يلبي أحاسيس بيئته وكيف برسم ميولها ورغباتها ، ويصور احنها وآلامها ، ويسجل في منتجاته آمالها وأحلامها • اذا نظرنا هذه النظرة الى الرومانتيكي أغضينا عن الزمان والمكان اللذين نشأ فيهما ، وهذا هو الذي فعله استاندال ، فاعتبر ((دانت)) الشاعر الحماسي الايطالي رومانتيكيا رغم أنه سبق الرومانتيكية بخمسة قرون ، وانه كان مفتونا بـ «فيرجيليوس» الشاعر الروماني الكلاسيكي الى أبعد حدود الفتنة• والسبب الذي حمل استاندال على اعتباره رومانتيكيا هو أن ((دانت)) حينما ألفى أن أمته قد غرقت في بحر من المحن والاحن بسبب الحروب الداخلية التي اشتعل أوارها بين المدن الايطالية ، وان هذه المحن قد قذفت الى نفوس أفراد الشعب بشدة الخوف من الجحيم لم يسعه الا أن يجعل منتجاته صدى أمينا لاحاسيس بيئته ، فأنشأ فريدته البهية الخالدة المهزلة الالهية La Divine Comedie وهي تحتوي على مقطوعات تعتبر أبعد ماتكون عن الشعر الكلاسيكي عامة ، وشعر فيرجيليوس خاصة، وذلك مثل عذاب الكونت أوجولان في الجحيم •

ولم يكتف استاندال بدانت، بل نظم ((شكسبير)) أيضا في عقد الرومانتيكية لانه عرف كيف يقدم أولا الى الامة الانجليزية في أواخر القرن السادس عشر صورة صادقة لتلك الكوارث والمحن التي نزلت

بها عن طريق الحروب الداخلية التى احتدم لهيبها فى ذلك العهد .
ثم ثنى شكسبير برسم لوحة دقيقة لاهل عصره وما تضطرم به قلوبهم من أهواء عنيفة ، وعواطف رقيقة حينا ، وقاسية أحيانا .
ولا جرم أن هذه الحروب الطويلة الطاحنة وما تبعها من الفتن والاضطرابات ، ومن أنواع التضحية والانانية ، والوفاء والغدر ، والامانة والخيانة قد أعدت رعايا ((ايليزابيت)) الاولى لتذوق هذا اللون من الفواجع الشكسبيرية ، فطفق الانجليز فى ذلك الزمن يتدافعون الى المسارح ليشاهدوا صور تلك الالام التى طالما أحدقت بهم احداق السوار بالمعصم ، والتى استطاعت ملكتهم العظيمة - بفضل ارادتها الحازمة وطباعها السليمة - أن تمحوها من الحياة العملية ، ولم يبق لها سوى صورها الادبية فى شعر شيكسبير ومسرحياته على النحو الذى مثلنا له .

وعندما أحدثت الثورة الفرنسية ذلك الانقلاب الهائل فى السياسة والاجتماع والاخلاق والتقاليد وأنواع اللذائذ وألوان المسرات ، بادر أدباء الرومانتيكية الاوروبية الى رسم كل هذا فى منتجاتهم وجعله صورا حية تنطق على المسارح وتبدو فى صفحات الكتب واضحة جلية . وليس أدل على ذلك من أن تلقى نظرة فاحصة فى منتجات ((اسكندر دوماس الكبير)) لترى فيها مآسى القصور الملكية مجسمة ناطقة بالآلام والارزاء ، راسمة للفتن والاراجيف ، مصورة للدسائس والمؤامرات ، شاهدة بالمطامع والاهواء ، أو أن تلقى مثل هذه النظرة على مسرحيات :((فيكتور هوجو)) و ((ألفريد دى موسيه)) أو على فرائد ((لامارتين)) وخرائد ((ألفريد دى فينى)) فعند ذلك ستتضح لك صحة ما نقول من تجاوب منتجات الرومانتيكيين مع مشاعر أممهم وأحاسيس بيئاتهم أصدق التجاوب وأشده دقة وأمانة

وكانت الطليعة الحقة لهذه الحركة التجديدية الهائلة هو ((جوت))
بطريرك الادب الجديد كما يدعوه ((ألفريد دى موسيه)) وهو

سيد ادباء المانيا على الاطلاق ، كما يسميه فريق من النقـــاد المحدثين ولا غرو فقد صور هذا الكاتب الموهوب فى « آلام فرتر » الهوى الانسانى حين ينحـــل عقاله ، والالم البشرى فى اعنف احواله . كما رسم فى رواية « فاوست » أشـــد صور الحياة ظلمة ، واقساها حلوكة وامتلاء بالالم والشر ، والتعاسة والشقاء ولكن « آلام فرتر » بآلامهـــا العنيفـــة ، ودعايتها الحارة الى الانتحار ـ هى التى حملت لواء الرومانتيكيـــة ، وبذرت بذورها الاولى دون قصد من مؤلفها ولا اختيار .



جـــوت

على انه لما كان اجماع مؤرخى الادب منعقـــدا على ان جوت شخصيا ليس احد الرومانتيكيين قطعا ، بل لم يكن طليعـــة من طلائعهم الا برواية « آلام فرتر » وحدها من جهة ، ولم يكن يهدف الى الرومانتيكية البتة من جهة اخرى ، فان من الخطأ ان نفرد له فى هذه الصفحات مكانا نتحدث فيه عن حياته الخاصـــة كما فعلنا ازاء غيره من اولئك الزعماء الذين سنتعقب شخصياتهم ونزعاتهم وتصرفاتهم بالبحث والتحليل . وانما سنقتصر هنا على » آلام فرتر « لنقدم اليك عنها صورة امينة بقدر المستطاع ، وهـــاك

نشرت هذه الرواية فى المانيافى سنة ١٧٧٤ فكان اثرها باهرا يأخذ بمجامع القلوب ، ويستهوى جوانح الافئدة ، اما نجاحها فهو اجل من ان يوصف واكبر من ان تتسع له هذه الصفحات الوجيزة .

بيد انه حسبنا ان نقول فى هذا الشأن: انها كانت احدى الروايات الثلاث التى صبغت القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بصبغتها ، وطبعتهما بطابعهما ، وهى : «كلاريس هرلوف» لـ (ريشارد سون) و « هيلوئيز الجديدة » لـ (جان جاك روسو) و « آلام فرتر » لـ (جوت) .

وتمتاز هذه الرواية الاخيرة بأنها طالما استمطرت العبرات من العيون ، واستخرجت التنهدات من القلوب ، وانها حين ظهرت مختتمة بحادث الانتحار المرعب ، حببت هذه الخطة الى الشباب حتى انتحر منهم عدد كبير فى اوروبا فى مبدا ظهورها وان الالمان الى الآن يذهبون الى قبر « جوت » فى كل عام يحمل كل منهم نسخة من هذه الرواية كأنما يحمل الكتاب المقدس فى ايام الاعياد الدينية .

ومن محاسن هذه الرواية ايضا انها تصوير صادق لحياة مؤلفها الخاصة ، وان الاحداث المنسوبة فيها الى « فرتر » قد وقع كثيرها لـ « جوت » نفسه ويجزم بعض الكتاب بأن « جوت » لم يزد على حادثات شبابه الغرامية الا حادثة الانتحار .

ويعتبر « جوت » فى رأى كثير من النقاد اول الكتاب الذين نحوا هذا المنحى الجديد ، وقد اوحته اليه حادثة انتحار سمع بها بعد افتراقه من حبيبته .

وملخص هذه الرواية الصحيحة التى وقعت ، هو أن « جوت » حين كان طالبا فى مدينة «ويتزلار » وكانت سنه خمسا وعشرين

سنة ، نزل فى اسرة « بوف » وهى مكونة من اب ماتت زوجته ومن احد عشر طفلا اكبرهم « شارلوت بوف » وكانت فى الثامنة عشرة ، وهى فتاة جميلة الوجه ، متناسقة الملامح جذابة الروح ، خفيفة الظل ، متفائلة كثيرة الابتسام . وفوق ذلك فهى طيبة القلب ذكية الفؤاد ، وكانت بعد وفاة امها تقوم على تربية هؤلاء طفال جميعا ، وكانت مخطوبة لـ « بستينيه وهو احد الشبان العاديين . ولما كان جوت مستقيما حميد الاخلاق ، فقد رحب به الخطيبان وانزلاه بينهما منزلة الصديق المحترم ، ثم لم تلبث ايام اقامة « جوت » فى هذه المدينة ان انتهت فغادرها الى بلده . وعلى اثر ذلك الفراق الممض كتب الجزء الاول من رواية « آلام فرتر » التى صور فيها حبه الصامت الذى كان ولا يزال يشعر به نحو « شارلوت » . وبعد ذلك بقليل سمع بانتحار أحد شبان « ويتزلار » فتأثر بهذا النبأ تأثرا شديدا ثم سرح فيه خياله الخصب حتى خلق منه صوت مأساة فاجعة اضافها الى ماكان قد كتبه من ذكريات حبه لـ « شارلوت » فاكملت له بذلك تلك الرواية الخالدة فى حوادثها واسلوبها ، وفى سحر بيانها ، وفى طريقتها ، وفى جمال خيالها .

ومن الغريب اللافت للانظار فى هذه الرواية ، ان «جوت» رسم لنا فى القسم الاول منها زوج شارلوت جذابا طيب القلب ، حميد الاخلاق ، وصوره فى القسم الاخير ثقيل الظل خاضعا لعاطفة الغيرة بهيئة متنطعة نابية عن الذوق واللياقة ، اما الحقيقة فان الصورة الاولى هى الصحيحة واما الثانية فقد أوحاها الى جوت زوج سيدة أخرى كان قد اتصل بها بعد عودته الى مسقط راسه ، وكان زوجها غيورا عليها من جوت فضايقته منه هذه الغيرة فصورها فى آلام فرتر .

ومما ينبغى ملاحظته هنا هو ان اثر « ريشاردسون » الانجليزى على هذه الروايه بارز للعيان ، اذ هى مكتوبة على هيئة

وسائل كما كتبت روايتا «هارلوف» و« هيلوئيزا الجديدة»
تختلف رواية « آلام فرتر »عن حادثتها الواقعية التى لخصناها لك آنفا فى ختامها ، اذ تحدثنا الرواية الخيالية ان » شارلوت » قد تزوجت . وانها بعد زواجها قد خضعت لعاطفة الغرام، فمنحت حبيبها قبلة ، ثم احست على اثر ذلك بجريمة الخيانة الزوجية فتوارت خجلا من نفسها ، واعتزمت الا ترى « فرتر » بعد الآن ، فلما راى هو هذا المصير السيىء صمم على الانتحار ، وكتب اليها خطابه الشهير الذى اعقبه الموت ، والذى سنترجمه لك هنا نقلا عن كتاب « رسائل الغرام » الفرنسى ، لترى فيه هذه الصورة الفاتنة للحب القابض على زمام الفؤاد بيد من حديد ، وهاك هذه الترجمة :

لقد صممت على ان اموت يا شارلوت ، واننى اكتب هذا الخطاب ولا اثر للخيال فى نفسى ولا سيطرة للتصورات الشعرية على عواطفى .

فى الوقت الذى تتسلمين فيه هذه الرسالة سيكون القبر البارد قد غطى تلك البقية الباقية من عظام ذلك البائس المعذب الذى لم يبق له من لذائذ الحياة الاذكريات تلك اللذة العذبة التى كان يتذوقها حين كان يتحدث اليك .

لقد أمضيت ليلة مزعجة ، ولكنها فى نفس الوقت حسنة ، لانها اكدت عزمى ، وحددت تصميمى تحديدا تاما وهو انى اريد ان اموت .

فى اى ذهول ملك على جميع مشاعرى افترقت عنك امس ؟ وكم كان خيال مصيرى محزوما يائسا وبدون امل فى لقائك يهصر قلبى .

لم اكد اصل الى غرفتى حتى ركعت وهتفت قائلا : ايها الاله . لقد اعفيتنى من التعزية الاخيرة وهى لوعة الدموع

لقد كان الف تصميم والف مشروع يضطرم فى نفسى ، وفجأة

انبثقت فكرة وحيدة ، وهي انى اريد ان اموت ، فتمددت على سريرى ، وفى الغد عند استيقاظى كانت هذه الفكرة لاتزال تحتل قلبى وحدها : انى اريد ان اموت .

ليس هذا نوعا من اليأس ياشارلوت ، وانما هو اقتناع احمله فى نفسى وهو انى اريد ان اضحى بحياتى لاجلك .

نعم ياشارلوت .. لماذا لا اصرح بهذه الحقيقة المرة ؟ نحن ثلاثة فيجب ان يموت واحد منا ليستمتع الاثنان الآخران بالحياة وسأكون هذا الراحل .

ايتها العزيزة ، ان فى هذا القلب الممزق منذ زمن بعيد فكرة طالما انزلقت بين جوانبه ، وهى اما ان اقتل زوجك ، او اقتلك او اقتل نفسى ، فليكن هذا الاخير اذن وسأفعله .

حينما تتسلقين الجبل مع زوجك فى احدى امسيات الصيف الجميلة ، فكرى فى ، انا الذى كنت اصعد اليك من الوادى والقى نظرة على قبرى حيث الهواء يداعب الاعشاب فيحنيها فى تموجات ذهبية من انعكاس الاصيل .

لقد كنت هادئا حين بدأت اكتب هذه الرسالة ، اما الآن ، فاننى ابكى بكاء الطفل بقدر ماتمثل فى نفسى هذه الاشياء ، اتحسبين انى سأطيعك ، وانى لن اراك الا بعد عيد الميلاد كما تأمرين ؟ كلا ياشارلوت ، اما اليوم واما لا ، فالى الابد ، اما فى يوم عيد الميلاد فستتسلمين هذه الورقة بيديك المضطربتين ، وستبللينها بدموعك .

انى اريد ، وانه يجب على ان افعل ، ولكن اشد ما ترزح نفسى تحت هذا التصميم .

تلك هى آخر رسالة من « فرتر » الى حبيبته « شارلوت » وتعتبر اخطر رسالة من نوعها فى القرن الثامن عشر .

هذه لمحة خاطفة عن رواية « آلام فرتر » التى كانت القبس الاول الذى بدا فى وسط حنادس لاضطرابات الفكرية التى احدثتها

القرن الثامن عشر بروحه التجريبية المرتابة وأدبه الوضعى الجاف وحربه الشعواء التى اعلنها على العاطفة ، وسهامه الحادة التى سددها صوب الخيال، فلما نشرت هذه الرواية كانت بمثابة نقطة انفجار لرد الفعل الذى ظل ينمو ويتزايد حتى نشأت منه المدرسة الرومانتيكية المفرطة فى العاطفة ، اذ انها لم تكد تظهر فى سنة ١٧٧٤ حتى ترجمت الى كل اللغات الحية اذ ذاك . ولم يكن تأثيرها ضعيفا ولا متباطئا، اذ لم يمض على ظهورها خمسة عشر عاما حتى بدات بوادر الحركة الرومانتيكية فى انجلترا فى سنة ١٧٨٩ ، وظلت تنمو ويتسع نطاقها الى ان لمع بريقها، وسطعت انوارها فى منتجات « بيرون » و « ولتر سكوت » و « شيلى » و « كتس » و « وردورث » و « كلردج » .

ولما كانت سنة الطبيعة قد جرت بأن يتأثر الاجانب بالعبقرى قبل مواطنيه ، فلم تبدا الحركة الرومانتيكية فى المانيا الا بعد ظهورها فى انجلترا بنحو ستة اعوام ، اى فى سنة ١٧٩٥ عن طريق مؤلفات الاخوين ماكير » . وقد ظهرت هذه الحركة وشيلنج وارنيم وبرنتانو وشلير « شليجيل ونوفاليس وفشت فى ايتاليا فى سنة ١٨١٦ فى منتجات « منزونى » الذى تأثر بولتر سكوت .

وأخيرا ظهرت فى فرنسا سنة ١٨٢٠ بصورة هامة تفوق هذه الصور جميعها بروزا وتلألؤا ووفرة فى الانتاج . واعلامها فى تلك البلاد هم أولئك الكتاب والشعراء العالميون الافذاذ : « فكتور هوجو » و « لامرتين » و « ألفريد دى موسيه » و « ألفريد دى فينى » و « السكندر دوماس الاكبر » و « جتييه » و « نرفال »

ولما كان الفن الرومانتيكى - فيما يرى استاندال ونحن معه فى هذا الرأى - هو ما يدرس العالم الذى يحيا فيه ويعرف كيف يقدم الى معاصريه صورا صادقة ولوحات أمينة لكل ما يحتاجون اليه فى حياتهم العامة من جميع نواحيها مرسومة فى قصائد أو

قصص أو مسرحيات أو روايات، فقد أمكن أن يكون للشرق - كما كان للغرب - رومانتيكيون ، اذأن لنا نحن أيضا ثورات وطنية واجتماعية وادبية كانت نتيجة طبيعية لما تقاسيه مصر من آلام ، وما ترزح تحت نيره من أرزاء ونكبات ، وكانت أصداء أمينة لما يهتف به وجدانها الجماعي منذ سنة ١٨٨٢

ولقد حدث عندنا كذلك أحداث جسام ووقائع عنيفة ، واعتداءات مريرة ، وخيانات مخجلة ، ومؤامرات وضيعة ، ومواقف مشرفة ، وتضحيات سامية، وصور من الاخلاص والوفاء هي من المثل العليا قاب قوسين أو أدنى، ولدينا من الادباء من صوروا لنا كل هذا أو أكثره تصويرا جعل منتجاتهم مرايا صافية يستطيع الشعب أن يرى فيها ميوله ورغباته، وحركاته التحريرية ، ونهضاته الاجتماعية ماثلة للعيان • ولا ريب ان هذا كله خليق بأن يضعهم في صف الرومانتيكيين الخالدين • وكان على رأسهم محمود سامي البارودي وأمير الشعراء احمد شوقي ، والسيد مصطفى لطفى المنفلوطي

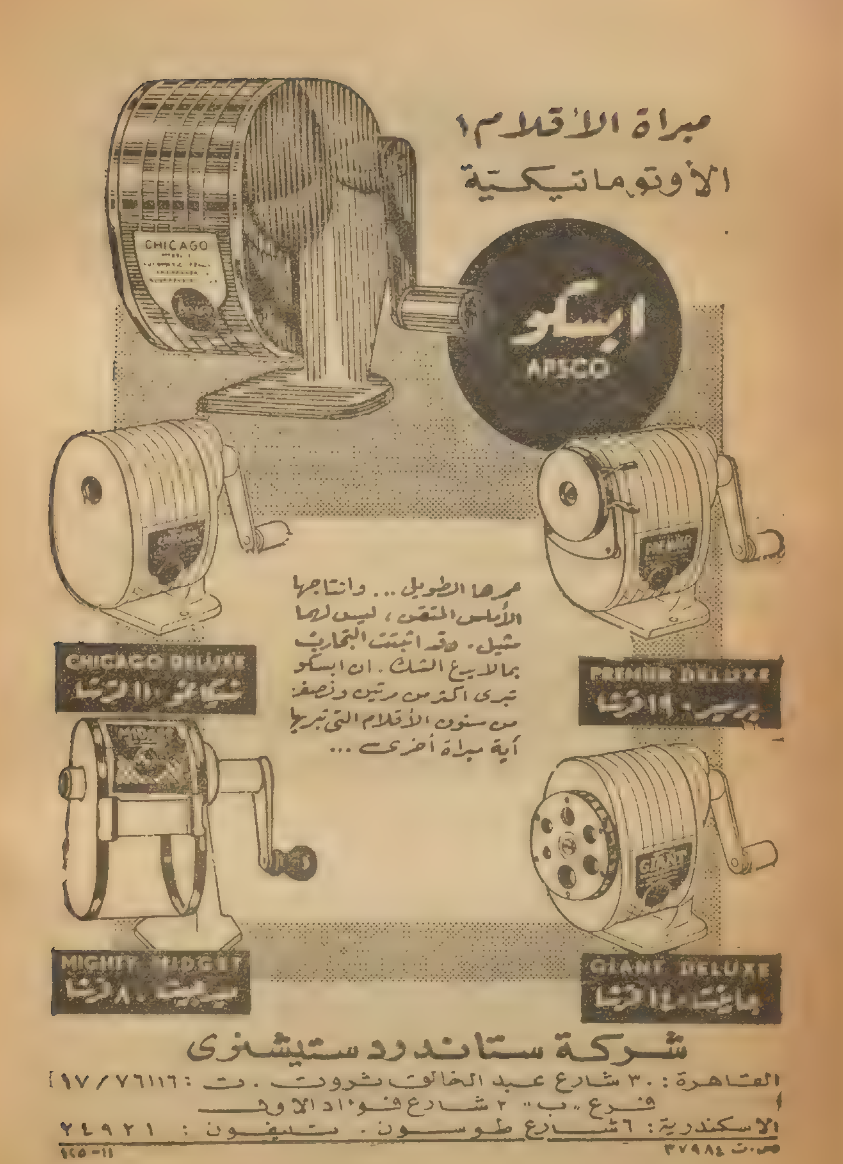
دكتور محمد غلاب

تفتيش توليد الكهرباء من خزان اسوان

« بريد خزان اسوان »

تقبل العطاءات بتفتيش توليد الكهرباء من خزان اسوان « بريد خزان اسوان » برسم حضرة المحترم مفتش رى السد العالى لغاية ظهر يوم ٩٥٣/٧/١٦ عن بناء جراج ومخازن ملحقة به ومخزن بنزين تحت سطح الارض بالبر الشرقى للنيل امام خزان اسوان وتطلب الشروط والمواصفات من التفتيش المذكور على ورقة تمغة فئة ٥٠ مليما مقابل دفع ٢٥٠ مليما و٧٥ مليما اجرة للبريد

٤٨٥٥


مبراة الأقلام
الأوتوماتيكية
ابسكو
APSCO
CHICAGO
عمرها الطويل ... وانتاجها
الأملس المتقن، ليس لها
مثيل. وقد اثبتت التجارب
بما لا يدع الشك. ان ابسكو
تبرى أكثر من مرتين ونصف
من سنون الأقلام التى تبريها
أية مبراة أخرى ...
CHICAGO DELUXE
PREMIER DELUXE
GIANT DELUXE
شركة ستاندرد ستيشنرى
القاهرة: ٣٠ شارع عبد الخالق ثروت . ت: ٧٦١١٦ / ٩٧
فرع "ب" ٢ شارع فؤاد الاول
الاسكندرية: ٦ شارع طوسون . تليفون: ٢٤٩٢١
ص.ت ٣٧٩٨٤
١٢٥-١١



يستمع بعض من له دراسة وهو كاتب تشبه حياته الشخصية أو الادبية حياة «شاتو بريان» لانها حياة مفعمة بالغرائب والمدهشات التى لانظير لها فى حياة الكتاب الآخرين . ويمتاز تاريخ هذا الكاتب بأنه وصل الينا كاملا غير منقوص لان شاتوبريان كفانا مئونة البحث والتنقيب ، وأعفانا من مهمة التفسير والتأويل اذ كتب بخطه مذكرات ثبت فيها كل خطوة من خطوات حياته ، ولم يغادر كبيرة ولا صغيرة من حوادثه الا أحصاها فى صراحة ووضوح وبدقة واتقان يصلان الى حد الاعجاز ، بيد انه ينبغى للمؤرخ المحايد ان يكون قوى التمييز ، سليم الذوق ، مستقيم النطق ، دقيق الملاحظة حتى يستطيع ابعاد ماعسى ان يكون الكبرياء او الخيال ادخله فى حياته رغم ارادته وقسر رغبته ، لان بعض خبثاء العصر كانوا يطلقون عليه اسم الكاذب المخلص ، فأما كذبه فقد أتى من انه كان يخالف الواقع احيانا حين يتحدث عن نفسه مدفوعا بالكبرياء اوالخيال . وأما اخلاصه فمنشؤه انه كان لا يتعمد الكذب ولا يرمى اليه .

على ان هناك شواهد ومستندات اخر يستطيع المؤرخ ـ اذا رجع اليها ـ ان يهتدى فى حياة هذا الكاتب الى أوثق الاخبار واصدق الانباء . وسنحاول ـ بقدر المستطاع ـ استخراج تاريخ شاتو بريان الصحيح من مذكراته الشاملة الفاتنة .

ولد شاتو بريان فى ليلة ليلاء اشتد فيها هوج العواصف ، وعلا صخب الرياح من ليالى سنة ١٧٦٨ فى قصر كومبور العظيم مهد هذه الاسرة العريقة المجد ، البعيدة فى اغوار الماضى نبلا وفخارا وكان والده الكونت دى شاتوبريان من طبقة الاشراف الجانتيوم

وكان يميلَ الى التمسك بالتقاليد القديمة ، لعز عليه مع اقلاله واحتياجه الى المال ان يترك قصر الاسرة ومحط مجدها الغابر . يتسرب الى ايدى الدائنين اوالمرتهنين ، فافتداه بأكثر ماملكت يداه وظل بعد ذلك فقيرا معدما يعيش فى هذا القصر الذى كان سبب ابتئاسه ، هادىء البال مستريح الضمير يرفرف عليه السكون ويحوطه الهدوء من كل جانب .

اما زوجته فقد ظلت حزينة متشائمة لاتكاد البسمة تجد الى تغرها سبيلا كما يقول شاتوبريان وكأنها كانت متعهدة توريد الآهات والتنهدات بكمية وافرة .

نشأ شاتو بريان فى هذا القصر المظلم الموحش الذى لايرى فيه الا والديه وأخته لوسيل وخادمته ،فكان لهذه النشأة المحزونة أثر عميق فى حياته .. قصر عظيم كثير الاجنحة،متعدد الغرف والردهات متشعب المسالك والطرقات ،مظلم الممرات والمنعرجات ،يخيل الى الجالس فيه من فرط السكون انه يسمع دقات القلوب ونبضات الافئدة ، ويحس قاطنه كأنه فى مقبرة يناجى الاموات ويخاطب اهل الحياة الاخرى .

هذا هو مسقط راس شاتوبريان وممر طفولته ، وهو لذلك ذو أثر بارز فى كتابته ، بل لا يستطيع المؤرخ ان يفهم حياته ومزاجه دون ان يحيط بوصف هذا القصر الرهيب الذى لايقدر على تصوير رهبته ووحشته وظلامه غير شاتو بريان نفسه .

بادر الكونت شاتو بريان الى ادخال ابنه فى مدرسة دينية ، وهو لايزال فى نعومة اظفاره فدرس فيها دراسة عادية ، لا يمتاز فيها بشيء سوى شهرته بين زملائه الصغار ببراعته فى الانشاء ، وتفرد جمله ، وعباراته بالجمال الفائق والحسن الرائع .

وكانت اولى امانى رينيه شاتوريان أن يكون أسقفا أو كاردينالا ولكن الظروف لم توفقه الى نيل هذه الامنية فاقتلعها من نفسه وانعطف الى غيرها من شئون الحياة ، وظل يدرس فى المدرسة نهارا ويستمتع بالجلوس مع اخته والتحدث اليها ليلا ، وقد كتب فى مذكراته ان اعذب ايام حياته على الاطلاق هى التى قضاها الى

جانب هذه الاخت العطوف التي كانت تبدد بحنانها سوداوية مزاج الوالد وتشاؤم الام ، ولولا ضيق المجال لترجمنا لك هنا شيئا من هذه المذكرات الشيقة التي يصور فيها باسلوب فاتن وجمل اخاذة وعبارات ساحرة تلك الليالي العذاب التي قضاها في قصر كومبور المظلم الى جانب لوسيل شقيقته المحبوبة .

ولما بلغ سن الرجولة التحق بالحرس الملكي ومازال يترقى في هذا السلك حتى اصبح قائدا مشهورا ؛ كان اسمه في اول الامر يقترن باسم نابليون ، ثم التقيا اثناء الثورة التقاء الخصمين العنيدين

وفي أثناء عمله في حرس الملك لويس السادس عشر لحقته من جلالته كلمة جارحة فنزعت من نفسه الميل الى مرافقته اياه وان كان ظل وفيا مخلصا محتفظا بولائه له حتى النهاية .

ولما انفجر بركان الثورة الفرنسية ايقن شاتو بريان بأن الملك هالك لامحالة ، ولكنه ظل على ولائه الاول له ووفائه القديم الا انه كان اعقل من ان يعرض نفسه للمقصلة فسافر الى امريكا وانقطع في هذه الدنيا الجديدة عن فرنسا واحداثها وكان ذلك في سنة ١٧٩١ فكان لهذه الرحلة اثر ضخم على خياله ظهر في المستقبل في شعره الرائع ونثره الساحر ، لان ليالي الدنيا الجديدة وسكونها الشامل لاسيما في البلاد القريبة من الشواطىء أنتجت في مؤلفاته فكرا قوية تشبه مناخ تلك البلاد وبيئتها ، وهذا شيء طبيعي لان مجرد مرور الخيال بذهن شاتو بريان كاف في ان يدفعه الى وصف مالا يعرف في شيء من الدقة لايكاد يختلف عن الحقيقة .

عاد (شاتوبريان) اذن من أمريكا كاتبا عظيما بوساطة ماطرق ذهنه من اخيلة غريبة ، وتصورات عجيبة ، وقد ظلت هذه الاخيلة مستولية على نفسه ، مؤثرة تأثيرا قويا في جميع مؤلفاته ومقالاته على اختلاف انواعها .وتباين الوانها . فأسلوبه رصين وجمله قوية ، وتعبيراته فاتنه .وقد رافق هذا الاسلوب كاتبنا طول حياته ، فمثل كتابته على اثر عودته من امريكا كمثلها في

آخر حياته ، واسلوبه حين كان كاتبا عاديا كأسلوبه حين أصبح احد رجال السياسة فسفيرا ثم وزيرا . ولما هدأت الثورة بعض الشيء وقبض على لويس السادس عشر وزوجته عاد شاتوبريان الى فرنسا فعرف فتاة من أسر الاشراف على جانب عظيم من الثقافة والتهذيب فراقت فى نظره وراق فى نظرها ، وافتتن كل منهما بعقلية صاحبه ففتحها فى امر الزواج بها فوافقت ، ولكن عمها — وكان وصيا على ثروتها الواسعة — عارض فى هذه المصاهرة فجرحت كبرياء — شاتوبريان — وان كان فى نفسه ساخرا من هذا الزواج لا يعنيه منه الا رجحان عقلية الفتاة ، لانها لم تكن ممتازة فى غير ذلك بشيء ، فثروتها مهما عظمت لا قيمة لها البتة فى نظر هذا الكاتب الخيالى ، وشكلها الظاهرى لم يكن فاتنا الى حد أسر — شاتوبريان — . وقلبه لم يكن خاليا لاستقبال حبها ، لانه كان محتلا بمعبودة روحه ومليكة قلبه التى وضع لها فى لوحة ذهنه منذ الطفولة صورة افلاطونية ونقش لها فوق صفحة خياله رسما ملائكيا ، وملأ بها كل نفسه منذ فجر شبابه ، وابتدع لها اسما يشبه اسم معبودة — دانتى — شاعر ايتاليا العظيم الذى تخيل انها حملته بجناحيها النورانيين الى حظيرة مالك السموات والارض وهكذا كان — شاتوبريان — فى كل ايامه التى قضاها مع زوجته يتغنى فى قصائده الشعرية وقطعه النثرية بحب هذا المثل الاعلى المقدس .

ولما صمم هذا العم على رفض زواج ابنة أخيه من — شاتوبريان — عاند الخطيبان واعتزما تنفيذ رغبتهما قسر ارادة هذا العم الشره المتنطع . وبالفعل تم زواجهما دون تدخل اى احد من اقاربها ..

أصيبت ثورة هذه السيدة على اثر اقترانها بشاتوبريان بضربة من ضربات الثورة فأتت عليها جميعها فقابل — شاتوبريان — هذا النبأ بالسخرية كما هى عادته ثم لم يلبث ان اضطرته الظروف السياسية والاجتماعية الى مغادرة فرنسا فى سرعة واستعجال فغادرها الى بلجيكا ثم الى انجلترا وقد ظل بعيدا عن وطنه عشرة

اعوام كاملة لاقى فيها كل صنوف المحن والاحن ، وذاق مرارة الفاقة الى حد انه كان يقتات من الحشائش النابتة فى الحدائق العامة ، ومن الغريب انه لم يؤثر عنه فى هذا العهد كتاب شوق او رسالة حب ولو مجاملة الى زوجته .

ولما عضه الفقر بنابه فكر فى أن يعيش من مهنة تدريس اللغة الفرنسية فى انجلترا فنجح نجاحا باهرا واكتسب من المال ما يكفيه ويقوته . فنزل على اسرة انجليزية كما ينزل الشاب الاجنبى فى - البنسيون - عادة وكان لصاحبة - البنسيون - ابنة فى الخامسة عشرة من عمرها فافتتنت بهذا الشاب العبقرى ، لانها كانت فتاة ممتازة تقرض الشعر ، وتجيد الكتابة النثرية ، ولا يمكن ان تكون فتاة هذا شأنها الا وتغرم بشاتوبريان الذى ترى من سحر بيانه ، وفتنة منتجاته فى كل صباح المعجزات الباهرة .

احبت هذه الفتاة - شاتوبريان - حبا ساذجا نقيا أساسه الذكاء والعبقرية ، وغايته الزواج والاجتماع الابدى ، لان شاتوبريان لم يكن قد أنبأها بأنه متزوج ، ولكن امها كانت تريد لابنتها زوجا لا حبيبا . ففاتحته فى امر زواجها فاعترف لها بكل شىء فسقطتا بين براثن البأس القاتل ؛ فلم يحتمل منظرهما على هذه الحالة فغادر انجلترا لاعنا نفسه ، لانه سبب الشقاء لهاتين السيدتين البريئتين ، وقبل مغادرته انجلترا تسلم رسالة تنبئه بوفاة امه وتسلم مع هذه الرسالة وصية حارة منها تنبئه فيها من وراء الموت بانها لا تريد منه شيئا أكثر من عودته الى حظيرة الدين التى كان قد خرج منها متمردا على عقيدته وتعاليمه ؛ فتأثر تأثرا شديدا وعاد بعاطفته الى المسيحية فكتب عنها ما يعلى من شأنها ارضاء لروح أمه . أما عقله فقد ظل لادينيا ، لان المسيحية لاتتفق مع المنطق فى رأيه

ولما استولى - نابليون - على عرش فرنسا كان «لشاتوبريان» صديق مخلص ، وفى من ذوى الحظوة فى القصر ، فطلب الاذن بعودة صديقه المنفى الى فرنسا فسمح له - نابليون - بالعودة فى سنة ١٨٠٠ فعاد مرضيا عنه مغفورا له ما تقدم من اثامه السياسية . ولما استقر به المقام فى فرنسا اخذ يتردد على المنتديات الادبية الراقية يسحر المجتمعين فيها بشعره ونثره ، ويملك عليهم انفسهم بخياله الرائع ، وتصويره الفاتن . وفى

احد هذه المنتديات الارستقراطية قدمه احد اصدقائه الى السيدة - بولين - وهى شابة فى مقتبل عمرها ، بارعة الجمال ، طلقة اللسان . ذكية الجنان . واسعة الثقافة . ممتدة الخيال فراقها ادب - شاتوبريان - وفتنتها عقليته الممتازة . فطلبت اليه ان يختلف الى ناديها كلما استطاع الى ذلك سبيلا . ثم اخذ هيامها به يزداد شيئا فشيئا حتى أصبحت لا ترضى منه بغير انفرادها انفرادها به واستقلالها بقلبه ، فتوسلت اليه باسم العواطف الحادة والشعور الملتهب أن يرافقها الى القرى ليقيما معا بضعة أسابيع على انفراد لا يريان أحدا من العذال الذين يصرفون قلبه عنها . ولما كان - شاتوبريان - يشفق عليها من انياب المرض التى كانت تعض صحتها من ناحية ويرى فيها وفاء واخلاصا وثقافة عالية من ناحيه أخرى فقد أجاب سؤلها ورافقها الى الحقول ، فأقام بها الى جانبها ستة شهور كاملة لم تقع أثناءها اعينهما على احد ممن يكدرون صفوهما او ينغصون حياتهما . ولم يكن الغرام هو الذى دفع - شاتوبريان - الى سلوكه هذه الخطة مع السيده - بولين - لان مجده كان قد وصل الى حد ان ضربت حوله جميلات العصر وارستقراطياته فى باريس نطاقا من العبادة والتقديس . وغمرنه بموج هائل من الغزل والنسيب والوان الغرام . فكان يستطيع ان يستولى على قلب احدى الاميرات او - المركيزات - ولكن الرحمه هى التى الجأته الى اجابة سؤل - بولين - لاسيما وان المرض قد خلق منها شابة وديعة اشبه شيء بالبلبل الصداح على أفنان دوحات الحدائق الهادئة فى سكون الليل لم يضع - شاتوبريان - فى اللهو والمجون تلك الشهور الستة التى قضاها فى الريف مع - بولين - وانما اشتغل فيها بجد ونشاط فالف كتابه القيم - اتالا - الذى لم يكد يظهر حتى شغف به - نابليون - وبدأ يبحث عن مؤلفه فى جد . فلما عثر عليه فى احدى الحفلات العامة بدأه بالتحية والحديث . ثم حدثه عن هذا الكتاب ولم يخف عنه انه مفتون به للغاية . وبعد زمن وجيز عرض عليه - سكرتيرية - السفارة الفرنسية فى روما ولكن

- بولين - افهمته انه اذا سافر الى روما فانها ستموت فى الحال لان مرض الصدر اوشك ان يأتى على حياتها . فرفض السفر واعتذر لنابليون عن قبول هذه الوظيفة فى اول الامر . ولكنه حين فاوض - بولين - فى السفر معه قبلت اصطحابه الى روما فسافرا معا ثم كتب الى زوجته ان تلحق به بيد انه لم يكد يستقر فى منصبه الجديد حتى غادرت - بولين - الحياة متأثرة بذلك المرض الفتاك الذى كان يأكل فى صدرها منذ حين فحنا عليها فى ساعاتها الاخيرة حنوا فائقا جعلها تشعر بالسعادة التى لاحد لها . ولما انشبت المنيه اظفارها فى - بولين - كتب شاتوبريان - الى زوجته يستدعيها الى روما فبادرت اليه تحدوها الغبطة ويحوطها السرور . ولكنها لم تكن سعيدة كل السعاده . لان الرسائل التى كانت ترد الى زوجها من السيدة - ديلفين - المغرمة الجديدة بالكاتب العبقرى وردوده عليها كانت تنغصها لانها كانت تتصور انها اخر من يفكر فيها من النساء ولو انها وثقت من قربها من قلبه ولو لم تكن فى الدرجة الاولى لاسعدها ذلك منه كما صرحت بهذا فى رسائلها الى صديقاتها . وبعد زمن عاد - شاتوبريان - الى باريس طلبا للراحة والهدوء . وانه لكذلك اذ حدثت تلك الحادثة السياسية التى قلبت اسلوب حياته الاجتماعية راسا على عقب . وهى ان - نابليون - حكم على احد الدوقات بالاعدام وهو من سلالة الاسرة المالكة التى كان - شاتوبريان - يحبها ويدين لها بالولاء . فلما رأى هذا العسف من جانب - نابليون - سخط عليه وعلى حكومته سخطا شديدا وكان الامبراطور قد اعتزم تقليده منصبا جديدا ارقى من الاول فرفضه وقدم استقالته من وظيفته القديمة فى اسلوب كله شمم واباء . ولم يكتف بهذا . بل وقف قلمه على التشهير بـ - نابليون - والمناداة بانه مجرم فى هذه الحادثة وأخذ يجابهه وجها لوجه وكان سلوك هذه الخطه من جانبه غريبا فى فرنسا فى ذلك الحين . فدهش الناس جميعا من هذه المعاملة النادرة المثال منذ بدء عهد القنصلة الى ذلك الحين . ولكن - شاتوبريان - لم يفكر فى نتائج هذه الخطه التى

هــدمت كل أمله فى مستقبله السياسى الذى كان ساطعا متلألئا فانطفأوا ولو الى حين . بيدان - نابليون - كان معه مثال الرحمة والعفو بل مثال التغاضى والصفح فتركه يكتب مايريد . ويشن الغارة كما يشاء واكثر من ذلك انه سوى له معاشه على النحو الممكن الذى يرضيه فهيأ له بهذه الرحمة سبيل مناضلته والوقوف امامه وجها لوجه ورأسا لرأس .

ولما أصبح - شاتوبريان - لا يملك من المال ما يستطيع ان يقيم به فى باريس فقد سافر الى احدى القرى واقام فيها مع زوجته الطيبة القلب تقاسى الى جانبه ألوان الالم الناشىء من الضنك والضيق . وفى هذه الاثناء تعلقت به سيده اخرى تدعى - ناتالى - وكانت طويلة القامة . شديدة البياض . سوداء الشعر فاحبته وحلت فى داره محل السيدة ديلفين - وقد استقبلها هو حسب عادته ببشاشة وطلاقة بل بوداعة لدنة تشبه الهوى حتى لقد وصفه معاصروه من اجل هذه المرونة بانه كان متلونا فى الحب لا قلب له ولا عاطفه ولكن هذه التهمة - فيما نرى - غير صحيحة وكل من يدقق النظر فى ظروف - شاتوبريان - وظروف السيدات اللواتى شغفن به يتضح له جليا ان الرجل لم يكن متلونا ولا خداعا .

بينما كان - شاتوبريان - على هذه الحال فى قريته وبين أيدى زوجته وعاشقته الجديدة اذ انقضت عليه صاعقة من الحزن المبرح والاكتئاب القاتل فقلبت كيان حياته راسا على عقب وهدت قوته وذهبت بمرحه وسروره . تلك الصاعقة هى موت شقيقته المحبوبة التى كانت له كل شىء هام فى هذه الحياة .

تغير وجه العالم اذن فى نظر - شاتوبريان - منذ الان واصبح بعد وفاة اخته - لوسيل - شقيقة الروح ووحيدة الفؤاد ورفيقة الطفولة البريئة وصورة الحب الملائكى . ومثال النقاء والصفاء وروح التضحية والوفاء ... « لوسيل » التى حين وقف - شاتوبريان - فى كفة وكل اسرتها فى كفة . رجحت الاولى على الثانيه فى غير تردد ولا ارتباك بل فى سرور وسعادة والتى وقفت

كل حياتها على اسعاده وتحقيق هدوئه وابتسامه للحياة وابتسام الحياة له .

فلما صدع هذا الحادث رأسه والهب مخه وقلب نظام اعصابه وبالاجمال كان هو الاول الذى زعزع رزانته ووقفه موقف الخفة والضعف لم يقو على البقاء فى فرنسا . بل فى اوروبا كلها بعد نزول هذه الكارثة على حياته فارتحل الى - اورشليم - مارا ببلاد الاغريق ثم بمصر . ولما عاد من هذه الرحلة كتب كتابا شيقا سماه : - من باريس الى اورشليم - وصف فيه كل البقاع التى مر بها وصفا دقيقا لان الحادثة الاخيرة كانت قد شحذت ذهنه والهبت قريحته .

اخذ - شاتوبريان - بعد وفاة - لوسيل - شقيقته ينظر الى كل شىء فى الحياة بمنظار اسود فبدل ان يعد تسامح - نابليون - معه نبلا ووداعة اعتبره اهانة واحتقارا فاغتاظ من هذا الخيال الذى سكبه التشاؤم الجديد فى رأسه وبدأ ينشر سلسلة مقالات جارحة لا عهد للناس بمثلها فى فرنسا فى ذلك الحين يشبه فيها - نابليون - ب - نيرون - طاغية روما ودكتاتوريا المجرم السفاك .

فلما رأى الامبراطور انه خرج على حد المألوف اصدر امرا بنفيه من باريس وكان فى استطاعته ان يصدر امرا بوقوفه تحت المقصلة ولكنه كان معه رحيما الى حد غريب يتنافى مع قسوة - نابليون - وصلابته ولكن اصدقاء - شاتوبريان - والمغرمين بادبه قد اعتبروا هذا الامر من - نابليون - قاسيا اشد القسوة بل عدوه جناية على الادب لا يغفرها التاريخ مهما طال بها المدى . لان معنى نفى الكاتب من باريس هو القضاء المبرم على حياته الادبية كلها والحيلولة بينه وبين الانتاج النافع المفيد وهذه جريمة لا تعدلها جريمة

ومهما يكن من شىء . فقد غادر - شاتوبريان - باريس ترافقه زوجته الى احدى القرى الصغيرة وهناك اقاما معا عشرة اعوام كاملة لانه لم يستطع العودة الى باريس الا بعد سقوط - نابليون - وكانت هذه الاعوام العشرة التى قضاها - شاتوبريان -

فى المنفى اخصب سنى حياته التاليفية اذ فيها كتب (١) - من باريس الى اورشليم - (٢) - التعذيب - (٣) - مذكرات كاملة لتاريخ حياته - وهو الكتاب الذى قلنا : انه ينبغى الحذر مما فيه لان يدى الخيال والكبرياء قد عبثتا بكثير من انبائه وحوادثه (٤) مؤلفات أخرى ومقالات سياسية كثيرة .

وقبل أن نغادر منفى « شاتوبريان » يجب ان نشير الى السيدة « دى دوراس » التى كانت صاحبة الفضل الاكبر على هذا الكاتب فى أعوام محنته ، وهى سيدة حكيمة رزينة مثقفة واسعة الاطلاع ، غزيرة المعارف قدمت الى شاتوبريان فتوثقت بينهما اواصر الصداقة التى لا تكاد تختلف عن صداقة الرجال فى شىء والتى أجمع مؤرخو الادب ووافقهم شاتوبريان نفسه فى كتبه على أن علاقتهما لم تخط بعد الصداقة خطوة واحدة نحو رجولته أو انوثتها ، ولم تزد مهمتها معه على انها كانت ترشده بنصائحها الغالية ، وتهديه بحكمتها النادرة ، وتقوده الى أسباب العظمة ووسائل الرفعة والمجد ، وانها لم تأل جهدا فى هذا العمل البرىء الذى دفعتها اليه الصداقة وحدها دون أية علة من علل الحياة .

ولكن لما كانت السيدة «ناتالى» لا تزال تتردد على شاتوبريان فى ابهى ضروب الزينة والفتنة ، لتجذب اليها قلبه الذى تعتقد انه أصبح ملكا لمدام دى دوراس الصديقة المتقدمة وان الغيرة كانت تأكل قلبها من أجل هذا التصور فقد اخذت تناضل عدوتها اللدود ، وتتباهى بأنها هى وحدها المعشوقة ، وقد اقتنعت مدام دى دوراس بهذه العقيدة فكتبت فى احدى مذكراتها ما يأتى : « الحب لناتالى والصداقة لى »

وقد اتخذ بعض المؤرخين هذه الجملة من جانب مدام دى دوراس برهان غيرة من عدوتها « ناتالى » وألم من صديقها شاتوبريان .

أما نحن فنستبعد هذا على مدام دى دوراس ، ونعتقد انها ارفع من أن تغار من خليلة مثل «ناتالى» وانها - فى رأينا - لم تكتب هذه الجملة الا فى موطن الفخر والتباهى بمنزلة الصداقة البريئة التى لم يشبها شىء من أغراض الحياة المادية .



وفى سنة١٨١٧ أصيبت «ناتالى» بالجنون فتألم لها كاتبنا العاطفى ألما شديدا واخذ يبكى عليها بدموع لايليق انهمالها بعظيم مثله ، ولولا ان صديقته الوفية « مدام دى دوراس » سرت عنه كثيرا مما كان يجد لكان لهذا الحزن أثر سيىء فى حياته .

ونحن نرى انه تأثر من الحادثة فى ذاتها أكثر من تأثره على هذه العشيقة .

وبالرغم من هذه العاطفة النبيلة فلم يلبث كر الغداة ومر العشى أن طويا تحت أجنحتهما هذه الحادثة كما طويا غيرها من قبل وعرضت سيدة اخرى تدعى : « جوليت ريكامييه » نفسها على كاتبنا العبقرى ، وكانت سيدة حادة الطبع ، نارية المزاج كأنها كمية من اقباس ملتهبة او كتلة من صواعق محتكة ، ولكن الغريب المدهش ان هذه السيدة بقدر ماكانت نارية المزاج، كانت باردة فى الناحية النسوية الى حد لايكاد يعرف له نظير . ويظهر ان هذا يرجع الى اسباب صحية او الى التربية الخاصة التى تلقتها منذ طفولتها . وسواء اكانت الاولى ام الثانية فان الذى لاشك فيه ان هذه السيدة لم تخضع فى يوم ما من ايام حياتها الماضية للرغبات الحيوانية وانه لم يستطع واحد من الاشخاص الكثيرين الذين هاموا بها ان ينال من شرفها شيئا مع ان هؤلاء المحبين كان من بينهم الامراء الفاتنون ، والادباء البارزون ، والعلماء الجهابذة . ولكنها ابت ان تنحنى امام شيء من هذه الاعتبارات . عرفت السيدة جوليت هذه « شاتوبربان » فى سنة ١٨١٨ وكانت فى الاربعين من عمرها ، وكان هو فى الخمسين فاقترحت هى ان تقف صلتهما عند حد الصداقة البريئة ، ولكنه هو طمع منها فى اكثر من هذا فلم تسلم له بما اراد فاغضى عنها ، واذ ذاك شعرت بشعلة الحب تتقد فى قلبها فاخذت تتنقل من مدينة الى مدينة لتسرى عن نفسها وهو مغض ، معرض لايعيرها نظرة ولا لفتة ، لانه كان مفتونا بمجده . لاهيا بكوكبه الآخذ فى اسباب الصعود حتى اتى الغرام الحاد على فؤاد

هذه المسكينة فكادت تخر جثة هامدة صريعة غرامه القاسى الذى لاتعرف الرحمة اليه سبيلا ؛ ولولا ان عطف الله قلبه عليها لاصبحت فى عداد الاموات منذ سنة ١٩٢٨.

حياته السياسية

كنا قد تركنا : « شاتوبريان » فى منفاه بائسا مضطربا لايدرى اين يذهب ولا كيف يجىء لولامدام دى دوراس التى كانت تعينه بحكمتها كما قدمنا . والآن نقول : انه لم يكد نجم « نابليون » يهوى حتى عاد الملك لويس الثامن عشر الى العرش ، وكانت « مدام دى دوراس » وزوجها من احب الرعية الى هذا الملك واكثرها ولاء له ، وكان لزوجها فى البلاط منزلة سامية . فكان اول عمل قام به بعد عودة الملك الى العرش هو استصدار الاذن بعودة « شاتوبريان » الى باريس ثم تقليده سفارة فرنسا فى السويد ثم لم يلبث ان استصغر عليه هذا المنصب فعينه سفيرا فى المانيا ولكن سرعان ما ضجر « شاتوبريان » من هذه الوظيفة ومل الثواء فى المانيا فكتب الى مدام دى دوراس يرجوها ان تحصل له على منصب فى باريس نفسها فلم توفق الى طلبه ، ولكنها استطاعت ان تنقله الى لندن . فسر من هذا النقل فى اول الامر سرورا عظيما لانه كان يحب هذه العاصمة التى قضى فيها ابان الثورة بضعة اعوام من اعز ايام شبابه . ولكن هذا الخيال لم يلبث ان تبخر فى راس كاتبنا المتنقل الطيار . فسئم لندن واعاد الكتابة الى صديقته الخيرة . لتطلب الى القصر امرا بنقله . وما زال يلح عليها فى الكتابة . وهى تلح على رجال القصر الفعالين حتى وصلت بعد حيلة الى تعيينه وزيرا للخارجية ثم كانت منه بعد ذلك تصرفات احنقت عليه الجالس على العرش حنقا كان له نتائج عملية قاسية فاسر « شاتوبريان » فى نفسه حفيظة ملتهبة لاسرة « بوربون » وان كان قد ظل وفيا للملكية فى ذاتها . ولما ثار الشعب بهذه الاسرة . كان « شاتوبريان » فى طليعة الحاقدين عليها المنتقمين منها . الا انها حين دعته لمناصرتها بعد طردها من فرنسا لبى دعاءها واسرع الى مناصرتها . وهكذا

برهن بهذا العمل على شهامته ومروءته . لانه عاد الى النضال في ميدان السياسة بعد ان هجرها واراح نفسه منها على اثر سقوط اسرة « بوربون » ولما ادى واجبه نحو هذه الاسرة بقدر المستطاع عاد الى اعتزال السياسة وقبع في داره يكتب ويؤلف ويتمم مذكراته التى سرد فيها تاريخ حياته ولا يرى من النساء الا مدام « ريكامييه » التى كان يقضى الى جانبها اوقات فراغه من كل يوم . لان زوجته قد وصلت الى حد من الضجر لا زيادة بعده لمستزيد واذ كانت تعرفه حق المعرفة ولا امل لها في الاستيلاء على قلبه الذى كانت تسميه هي القلب النسائى . فقد اكتفت بما احتملت منه كل هذا الوقت الطويل الذى يشارف الاربعين عاما من ضروب الالم وصنوف التنغيص . فغادرته الى حيث الهدوء والسكون فى زاوية منقطعة من زوايا التناسى والهجران . فارتحل اليها مجاملة لها وارضاء لشعورها وأقام معها ردحا من الزمن ثم عاد وعاش سعيدا مع مدام « ريكامييه » بعيدا عن اعين الرقابة التى كانت تضايقه بها زوجته . وظل على هذه الحال زهاء سبعة عشر عاما لا يكاد يومه اثناءها يختلف عن امسه وغده . وفى سنة ١٨٤٧ توفيت تلك الزوجة الخيرة الصبور ثم لحق بها هو فى سنة ١٨٤٨ بعد ان حزن عليها حزنا شديدا وهكذا انتهت حياة هذا الكاتب الشاذ فى ذكائه وفى أسلوبه وفى اخلاقه وفى غرامه . فخبا بموته كوكب من كواكب الادب الساطعة فى اوربا فى القرن التاسع عشر بعد ان اثر فى عصره تأثيرا بارزا ظهر للعيان فى الشباب الذى حمل بعد موته اعلام المدرسة « الرومانتيكية » مثل « فيكتور هوجو » ومن نحا نحوه من اعلام « الرومانتيكيين » .

مؤلفاته

تمتاز مؤلفات « شاتوبريان » بالعمق . والتحليل النفسى . والتصوير العاطفى . وبأنها كانت اولى الكتب التى وضعت ايدى القراء على مساوىء العصر . وبان حب الطبيعة وتذوق جمالها بارزان فيها بروزا واضحا . وهذه الظاهرة الاخيرة لم تنضج

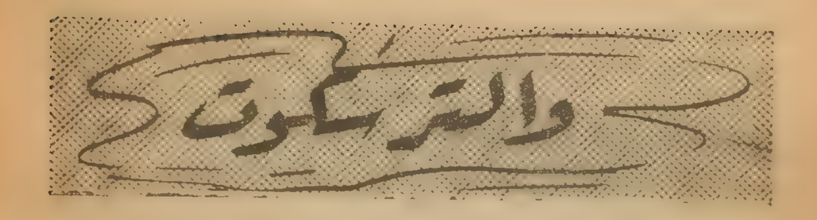
الا فى كتب « روسو »و«برناردان‌دى ســان بيير » مؤلف رواية « بول » و « فيرجينى » التى‌نقلها الى العربية المغفور له‌السيد المنفلوطى‌تحت عنوان «الفضيلة»

وقد أنشأ «شاتوبريان» أثناءنفيه‌فى‌انجلترا مؤلفا ضخمايقرب من ألفى صــفحة • وعنــوانه« الناتشيز » وهم سكان احدى ولايات نهر «المسيسبى» • وبعدأن أتم نسخ‌هذا الكتاب فقدت‌منه النسخة الوحيدةالتى كان يملكهاوظلت مفقودة عدة سنين ثم عثر عليها وفى أثناء فقدها اقتبس من‌حوادثها ماجعله‌موضوعا لروايتيه الفخمتين « اتالا » التى نشرهافى‌سنة ١٨٠٧ و « رينيــه » التى سنة ١٨٠٧ و « رينيه » التى ظهرت فى سنة ١٩٠٢ • واليك نبذة وجيزة عن كل منهما :

((اتالا)) و ((رينيه))

فاما « اتالا » فتتلخص فى ان‌شيخا مسنا يقص على‌الحاضرين الجالسين تحت نور القمــر فى‌احدى الامسيات الجميلة‌حوادث شبابه التى وقعت له فى‌اسفاره‌الطويلة الماضية • ومن هــذه الحــوادث انه كان عائدا الــى‌قبيلته بعد فراره منها على اثر هزيمة حربية وقعت لهــا • اذسقط فى قبضة الاعداء فصمموا على احراقه • ولما ارادوا التنفيذحالت دون ذلك احدى الفتيات الموجودات فى هذه القبيلة المعادية‌وتدعى « اتالا » لانها كانت قد احبت هذا الشاب وكلفت به‌كلفاشديدا فنجته من مخالب الموت بأعجوبة كما يقولون • ثم فرت‌به مخترقة الغابات السميكة‌حتى وصلت معــــه فى النهــاية الى‌قسيس مسيحى • واذ ذاك‌طلب منه الشاب ان يلقنه تعاليم‌دينه• وان يجمع بينه وبين محبوبتــه « اتالا » ولكنهـــا مع هــــذاالدله المبرح الذى تحس به نحو ذلك الفتى قد رفضــت الزواج‌منه رفضا تاما • لان والدتهــا كانت قبل موتها قد وهبتهـــاالخدمة الكنيسة • فلم تشأ ان تخرج على تلك الوصية • وظلت‌تعانى هذه الآلام النفسية حتى ماتت بسم‌تناولته‌بيدها لتتخلص‌من ذلك الشقاء

واما رينيه فانه يقص عــلى‌الشيخ المسن بطل‌الرواية‌السابقة حوادثه ويسرد البــواعث التى‌حدته الى السفر



حياته

ولد « والترسكوت » فى « ايدام بورج » فى ١٥ اغسطس سنة ١٧٧١ من اسرة عريقة المجد قديمة العنصر عرفت بالمحافظة على التقاليد الموروثة ، والعادات المألوفة ، كما ظهر ذلك فيما بعد كثيرا فى مؤلفات « والترسكوت » وكان الثالث بين اخوة سبعة ، وكانت صحته ضعيفة منذ الطفولة ، فاعتنت به اسرته وجعلته يمضى شطرا كبيرا من صباه فى احدى ضياع والده ليستمتع بهواء الحقول النقى وجوها الصافى

كانت امه قوية الذكاء ، غزيرة الاطلاع ، واسعة الثقافة خصبة الخيال ، فنقشت فى ذهنه منذ نعومة أظفاره حب الاستطلاع الادبى والعلمى ، وقادت فؤاده الناشىء الى الشغف بالشعر السامى المفعم بتصوير الطبيعة وجلال الكون العام ، وغرست فى نفسه الشابة الهيام بكتب التاريخ وما فيها من حوادث هائلة ، ومفاجآت مرعبة ، فشب هذا الطفل وقد رسمت فى صحائف ذهنه وقلبه ونفسه كل هذه الصور الفاتنة الساحرة التى قذف بها فيما بعد الى القراء عن طريق رواياته المعجزة ، فاستولت على النفوس ، واخذت بمجامع الالباب ، وسرت منها تيارات كهربائية الى الافئدة ، ففصمت ما بينها وبين هذا العالم المادى من صلات ، وغمرتها فى عالم الفيض والنور الذى لا حقد فيه ولا حنق ولا بغضاء ، ولاريب أن هذا هو الاحساس الذى مازج نفسى حين اطلعت على روايات هذا الكاتب باللغة الفرنسية

مرض « والترسكوت » فى طليعة شبابه مرضا شديدا روع اسرته وجعلها تخشى على صحته مغبة العمل المتواصل . ودفعها

الى ان تحظر عليه الانهماك فى الشواغل الادبية ، وحملها على مراقبته والحد من نشاطه بقدر المستطاع ، بل الجاهـا الى ان تحول بينه وبين الكتب الجدية وان تقصر مطالعته على الروايات والاساطير فهيأ له ذلك فرصة اشباع رغبته التى غرستها امه فى نفسه فاخذ منذ ربيع حياته يقص على رفاقه كثيرا من القصص والخرافات التى لا يعرفها احد منهم سواه ، وقد زاد شغفه بهذا النوع من الاساطير فجعل يلتقى بشيوخ مقاطعته من القرويين العوام ويستقصهم ما حدث لهم فى شبابهم أو ما سمعوه من ابائهم واجدادهم من قصص وروايات ووقائع محلية وتقاليد أسرية حتى ألم بثقافة لا يوجد نوعها فى بطون الكتب والمؤلفات .

لم يمنع « والترسكوت » انحراف صحته ولا حبه للشعر والخيال من أن يشتغل بدراسة القانون اشتغالا جديا حتى اتمها وعين قاضيا فى سنة ١٧٩٩ أى حين كانت سنه تناهز السنة الثامنة والعشرين وكان قد تزوج قبل تعيينه قاضيا بعامين زواجا سعيدا جعل حياته الخاصة تنساب فى هدوء وسكون انسياب الماء الصافى فى القناة المرصوفة

وفى اوائل القرن التاسع عشر اى فى سنة ١٨٠٢ بدا يكتب سلسلة كتبه الجيدة التى لم يمض عليها اكثر من ثلاثة اعوام حتى احاطت اسمه بهالة من الشهرة فى عالم الادب . وحتى سكبت عليه ثروة طائلة مكنته من ان يشترى قصرا فخما يشبه قصور الامراء والنبلاء . وفى سنة ١٨٠٦ عين فى وظيفة عالية فى سلك القضاء تدر عليه مبلغا ضخما فى كل عام . واخذ يكتب بعد ذلك سلسلة من المؤلفات الشعرية فيتلقفها الجمهور فى شغف عظيم . وما زال يكتب حتى نشر « بيرون » كتابه الشهير « شيلد هارولد » فى سنة ١٨١٢ فلم يكد « والتر سكوت » يتصفحه حتى احس احساسا قويا بان شعر « بيرون » يسمو على شعره . فصمم فى الحال على ان ينبذ الشعر نهائيا . وان ينعطف نحو النثر انعطافا تاما . وجعل منذ هذا اليوم يتجه نحو

النثر اتجاها جديدا . فانشأ به عددا ضخما من الروايات والكتب التاريخية مثل « افانويه » و « وافيرليه » و « كانتان دوروارد » و «روب روى» وكان« والتر سكوت » فى اول الامر لايوقع على هذه الكتب بامضائه . وكانت مع ذلك ايدى الجماهير تتلقفها بمجرد ظهورها تلقفا يدفعها اليه حينا جمال الكتب واتقانها . وحينا آخر خفاء اسم المؤلف الذى يشوق القارىء الى البحث عنه فى عناية واهتمام وانه لعلى هذه الحال السعيدة ماديا وأدبيا ينعم بمجد شهرته الادبية ويستمتع بنعماء ثروته الواسعة اذ وقعت عليه تلك المصيبة الداهمة التى هزت كيان حياته ونغصت عليه سعادته . وسبب هذه الكارثة ان صديقه الناشر قد افلس فجأة

وكان كاتبنا النبيل قد ضمنه فى مبلغ ضخم من المال والتزم بدفعه فألجأه الدائنون الى ان يبيع كل ثروته ولم يبقوا له الا قصره الذى يعيش فيه وقد بقى عليه بعد كل هذا مائة وثلاثون الفا من الجنيهات فلما خاطبه الدائنون فى هذا اجاب فى هدوء وابتسام بانه سيدفعها راضيا مغتبطا اذا هم تركوا له الوقت الكافى لذلك . فلما راوا منه هذا النبل اتفقوا جميعا على اعفائه من بيع القصر وعلى امهاله الى ان يتمكن من الوفاء . وبهذا بدا يدفع هذه الديون واستأنف الكتابة والتأليف فكتب ما بين سنتى ١٨٢٦ و ١٨٣٠ كتابى « تاريخ نابليون » و « تاريخ الايكوسيين » ولما حلت هذه السنة الاخيرة كان قد دفع نصف الديون . ولكنه فى اثناء قيامه بدفع النصف الثانى أحس بأن صحته تنحرف شيئا فشيئا كان العمل المتواصل كان ينحت منها ؛ واخيرا اصيب بضربة شلل قاسية بقى بعدها فى الحياة زهاء سنتين يتراوح بين المرض والشفاء حتى فاجأته لمنية فى سنة ١٨٣٢ عن واحد وستين عاما مليئة بالوان المجد والعظمة واصناف الجلال والخلود

ويروى التاريخ الادبى أن ـ والتر سكوت ـ كان يكتب فى

كل يوم عشرين صفحة ، وانه كان يعنى فى كتبه التاريخية بتحقيق الحوادث ولا يعتمد الا على المصادر الصحيحة والمراجع المضبوطة . اما كتبه الروائية ، فقد كان يطلق فيها العنان لخياله اطلاقا تاما ، وهذا هو الذى جعل كتبه تنتشر وتعم كل البيئات العلمية والادبية وتترجم بعناية الى كل اللغات الحية ، وهذه الميزات ايضا هى التى جعلت هذه الكتب تقود زعماء المدرسة - الرومانتيكية - فى فرنسا فى الطريق الذى انتهى بهم الى رفع لواء هذه المدرسة الجديدة فى ميدان الادب ، ومن يقرأ روايات وكتب : - فيكتور هوجو - و - لامارتين - و - الفريد دى فينى - يجد فيها تأثير - سكوت - واضحا ملموسا كما سنشير الى ذلك فيما بعد ، وفوق ذلك فان كتب هذا الاديب النابه هى التى الهمت - اوجوستان تيرى - خطته الجديدة ، التى سلكها فى تأليفه التاريخى والتى لم يسبقه اليها احد والتى غيرت اراء الناس فى كيفية تأليف التاريخ بيد ان النقاد المحدثين يلاحظون ان القيمة الادبية لكتب - والتر سكوت - قد بدأت تنحط فى هذا العصر ، ولست ادرى علام استند النقاد فى هذا الحكم ؟ فاذا كانوا قد بنوه على ملاحظة انصراف الجماهير الانجليزية عن هذه الكتب . فهو حكم خاطىء ، لان هذه الكتب مفعمة بالنبل والسمو ، وان افكار الجماهير الان اصبحت منصرفة عن هذه العواطف العالية فمن العبث أن يؤخذ حكم الادنى برهانا على هبوط قيمة الاعلى . وهذا هو الذى تنبه اليه المثل القائل : - ان العناقيد العالية فجاة فى شرع بنات اوى -

واذا كان هذا الحكم قد بناه النقاد على عدم ملاءمة هذه الكتب الواقعية القرن العشرين المغالية فاننا نقول : ان هذه الواقعية المغرقة فى المادية خطرة على اوربا وربما كانت منشأ انهيارها المتوقع فى المستقبل القريب ، لان العالم استطاع ان يعيش الاف السنين بدون هذا الاغراق البغيض فى المادة ، ولكنه لم يستطع ان يعيش بدون النبل والسمو يوما واحدا وليس ادل على خطأ هذا الحكم المتسرع على مؤلفات والتر سكوت من ان قيمة هذه الكتب فى فرنسا ارفع منها فى انجلترا ، وهذا لان الشعب الاول لم يغرقه فى العملية

المغالية اغراق الشعب الثاني فيها . ومهما يكن الباعث على ذلك فان الذي لاريب فيه ان القراء اليوم اقل اقبالا على هذه المؤلفات منهم بالامس ، وهذا مع استثناء روايتي - افانويه - و - كانتان دور وارد - وذلك في فرنسا اما في انجلترا فلم يبق محبوبا من هذه الكتب الا ما اشتمل منها على التصوير الصحيح لاخلاق - الايكوسيين - وعاداتهم وتقاليدهم مثل - وافيرليه - و - روب - روى - وليس هذا طبعا الا لما احتوت عليه هذه الكتب من فائدة عملية للقراء .

ومع ذلك كله فاننا نستطيع ان نؤكد ان اسم - والترسكوت - كان ولا يزال وسيظل مقترنا باسمى المجد والخلود مادام على الارض أدب يقرأ ، وفن يتذوق ، وعقول تدرك ، وقلوب تحس وتشعر .

هذا ، وسنلخص لك هنا بعض تلك الروايات النفائس تلخيصا موجزا مع ابداء رأينا في كل واحدة منها .

١ - افانوية

تعتبر هذه الرواية احدى روايات الدنيا الفخمة في القرن التاسع عشر ، فهي من الناحية التاريخية فاقت كتب المؤرخين المؤلفة خصيصا لهذا الغرض لانها رسمت الحرب التي دارت رحاها في القرن الثاني عشر بين العنصر - النورماندي - الفاتح والعنصر السكسوني المغلوب على امره رسما دقيقا عجزت عنه كل كتب التاريخ ، بل قد اكد المشتغلون بالحركة الادبية في اوروبا ان - اوجوستان تييرى - لم يؤلف كتابه - احتلال النورمانديين لانجلترا - الا على ضوء معلومات رواية - افانوية - الصحيحة التي لولاها لما استطاع هذا المؤرخ الكبير أن يخطو في كتابه خطوات موفقة ، ولجاء هذا السفر ضعيفا واهنا قاصرا في الحوادث والتفصيلات ، وهذا هو ملخص تلك الرواية الفاتنة

كان - سيدريك - وهو المثل الاعلى للعنصر السكسوني القديم المحافظ - يعيش في قصره العظيم مع مرعيته الانسة روينا

وهى، مثل وصبها من دم ملكى سكسونى عريق ، ولما كان هذا الشيخ العصى مغاليا فى المحافظة على التقاليد الرجعية فقد ابعد ابنه الفارس الشهم النبيل من القصر لانه احس انه يحب هذه الانسة التى هى فى كنفه ، والتى تشترك معه فى الدم الملكى ، فلم يسع هذا الشاب النبيل الا ان يلتحق بمعيـة الملك الحالى - ريشار قلب الاسد - الذى لم يلبث ان قدر قيمتـه وجعله مختـاره ومصطفاه ، فلما علم والده المحافظ بهذا النبأ خيل اليه ان ابنه قد دنس بهذا العمل اسرته السكسونية العريقة ، فاستشاط غضبا وأصدر فى الحال امرا بجحد بنوة هذا الشاب الذى اهان عنصره بهذا العمل المزرى ولكن افانويه لم يعبأ بهذا الجحد كثيرا ولا قليلا ، واستمر فى تنفيذ فكرته فرافق الملك مسـرورا مغتبطا الى الشرق ، لشترك معه فى الحروب الصليبية - هذا من ناحية - سيدريك السكسونى - وابنه ومرعيته ، اما من ناحية الملك قلب الاسد فى دنفاء النبل والسمو المجتمعة فيه والتى حدثنا عنها تاريخ الحـروب الصليبية فى شىء من التفصيل وبينما كانت هذه الدسائس وتلك المؤامرات تسير فى الخفاء ، اذ بالملك النبيل يعود الى انجلترا متخفيا ويرأس عصابة من الجنود ليتمكن بمعونتها من انقاذ العرش والقضاء على المتامرين ، وقد عاد معه - افانويه - متخفيا كذلك وأبلى بلاء حسنا فى مسـاعدة الفضيلة ومنازلة الانذال ، وقد انتصر على خصومه فى احد الميادين العامة على مرأى ومسمع من - روينا - محبوبته القديمة . وكان من بين خصومه شاب عنيف الطبع ، حديدى الارادة ، ولكنه منحل الخلق ، مغرق فى المجون ، وهو - روبان هود - الذى بذل مجهودا كبيرا كلل بالنجاح فى اسر - سيدريك - والد - افانويه - وفى الاستيلاء على مرعيته - روينا - بعد ان جرح افانويه جرحا خطيرا ، فلما استولى هذا الشاب وأصدقاؤه الماجنون على هذا الشيخ السكسونى وفتاته - روينا - وفتاة يهودية تدعى - ربيكا - ارادوا ان يقتسـموا هذه الغنيمة ، فأما احدهم فقد أحب الفتـاة اليهـودية وأراد أن يملكها لنفسه خاصة ، واما الثانى فقد كان كل همه ان يهدد والدهذه الفتاة اليهودية ، ليستولى

على ثروته الضخمة ، واما الثالث فقد كلف بالفتاة السكسونية ورغب فى الاستمتاع بها ، واهم لعلى هذه الحالة السيئة التى يتأمرون فيها بقهر الابرياء وهدم الفضيلة فى أشخاصهم اذفاجأهم الملك النبيل : ـ قلب الاسد ـ ملثما ، وعلى رأس عصابة، فشتت شمل دسائسهم ونجى من شرورهم هذه النفوس البريئة ، وهنا وفى هذا الفصل يصور لنا ـ والتر سكوت ـ موقفا من اروع المواقف التى عرفها التاريخ فى السمو والعظمة والمروءة

بيد ان ـ ربيكا ـ الفتاة اليهودية هى وحدها بقيت لامر ما فى يد هذا الشاب الماجن فلما راى رؤساء المذهب الدينى الذى ينتسب اليه هذا الشاب انه مغرم بهذه الفتاة ، صمموا على احراقها حية بتهمة السحر الذى تصوروا او ارادوا ان يتصوروا انها استولت به على عقل فتاهم ـ روبان هود ـ وانهم لفى طريق تنفيذ هذه الجريمة اذ قام فارس شجاع يدافع عن هذه الفتاة المظلومة ولما أحس ذلك الشاب الماجن بان كل هذه الفتنة المندلعه نشأت من تصرفه من ناحية وراى ان خصمه ـ افانويه ـ قد شفى من جرحه وجاء يتطوع بالدفاع عن هذه الفتاة من ناحية ثانية ، احتدم فى صدره مرجل الحقد والغيظ والندم والاسف ثم لم يلبث ان قتل فى هذه المعركة ونجت الفتاة . ولما راى ـ سيدريك والد افانوبه ـ كل هذا المجد الذى يحوط ابنه الشهم من جهة ، وأيقن بأنه لن يجد لمرعيته الشاب السكسونى العريق الذى تتوفر فيه الشروط من جهة ثانية ، وشاهد نبل الملك

قلب الاسد ـ ومروءته وكرم خلقه من جهة ثالثة ، اعتزم العدول عن خطته الاولى بحذافيرها وزوج ابنه الشهم النبيل من مرعيته الجميلة المصونة واعلن انه يتيه مباهاة وفخرا بهذا الابن العظيم . وقد قوبل هذا النبأ بفرح شامل الا من الفتاة اليهودية فانه هوى على فؤادها فحطمه واذاب حياته ، لانها كانت تعبد ـ افانوبه ـ فيما بينها وبين نفسها ، ولكنها كتمت هذه العاطفة فى صدرها احتفاظا بكرامتها وهنا انتهت هذه الرواية الشيقة النادرة المثال ، واهم ما فيها من مميزات هو



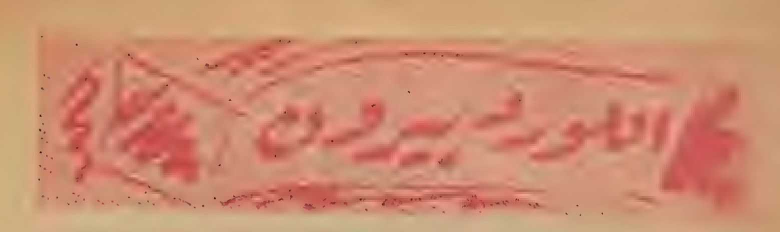
الوصف الدقيق والتصوير الامين للعناصر الانجليزية السكسونية والنورماندية الفرنسية والعربية المسلمة . واليهودية المحافظة فى القرن الثانى عشر ، اى ابان اندلاع لهيب الحروب الصليبية وهذا هو الذى جعلها مرجعا محترما من مراجع التاريخ الصحيح ووضعها فى مصاف عمد الكتب الحقيقية ومنحها الجلال والخلود . على ان هذه الميزة فى رأينا تتلاشى بالقياس الى ما فى الرواية من تصوير السمو والنبل باحرف بارزة قد صنعت من عناصر النور الذى يبهر الالباب ويسحر العقول .

٢ — كنتان دور وارد

عد هذه الرواية ايضا فى صفوف الروايات الخالدة التى كانت مبعث مجد وفخار لمؤلفها كسابقتها — افانويه — لـ — والترسكوت — وك — هارلوف — لـ شاودسوندو — هيلويز الجديدة — ا — روسو — و — الام فرتر — لـ — جوت — وغير ذلك من المؤلفات التى رفعت كتابها واعلنت اسماءهم الى مسابح الافلاك .

وتتلخص هذه الرواية فى أن لويس الحادى عشر — ملك فرنسا كان له حرس — ايكوسى — وكل رياسته الى ضابط نشيط شجاع يدعى — كانتان دوروارد — وبينما هو قائم بأمور مهمته ، اذ لجأت الى بلاط الملك سيدة شابة جميلة ، لتستغيث بحمايته من — دوق دى بورجونى — الذى أراد الاعتداء عليها اعتمادا على طغيانه وجبروته . وطلبت من الملك ان يرسلها فى حمايته الى — لييج — بلجيكا فقبل الملك لعلة سياسية لانه كان يريد ان يتذرع بهذه الحادثة الى تأليب بعض المقاطعات على هذا الدوق ثم ارسل هذه السيدة مع ضابطنا الشجاع رئيس الحرس الى تلك الجهة التى عينتها لك آنفا ، وفى نفس الوقت عقد عهدا مع — جيوم دى لامارك — احد حكام الشمال التزم فيه هذا الحاكم بان يؤلب المقاطعة على الدوق المقصود والتزم فيه الملك بان يسلم تلك السيدة المسكينة الى هذا الحاكم فلما علم « كنتان » الضابط بهذا الاتفاق رفض تسليم السيدة واعتبر الملك فى هذه المسألة جائرا على بريئة جورا لامبرر له الا الاغراض السياسية ، وبدل

ان يحمى هذه السيدة ضد الدوق لجأ اليه واشترك معه فى محاربة الملك واتباه بكثير من اسرراه ؛ وقد تمكن الدوق بهذه الطريقة من القبض على الملك واراد قتله . ولكنه عاد فامتلك زمام نفسه وعفا عنه بعد ان اخذ منه توقيعا على اوراق مهينة لكرامة وشرف المملكة والتزامات قاسية ؛ بيد ان هذا الملك لم يكد يصل الى مملكته حتى احتقر هذه المعاهدة احتقارا تاما واعتبرها حبرا على ورق لا اكثر ولا اقل ثم اعاد الكرة على الدوق فاسره بدوره فى حالة بائسة . وتحدثنا هذه الرواية كذلك ان - جيوم دى لامارك - الذى كان يريد الاستيلاء على تلك السيدة واتفق مع الملك على ذلك قتل فى احدى معارك الثورة الاقليمية ، وبهذا خلا الجو لضابطنا الشهم - كانتان دوروارد - فتزوج بتلك السيدة الفاتنة وبهذا انتهت تلك الرواية المعقدة ، واهم ما يسترعى الانتباه فيها ان ما اشتملت عليه من الحوادث كله حق تاريخى ؛ وان المؤلف لم يزد عليه الا الوضع الروائى المتفق ، والتصوير الفنى المحكم ، والاسلوب الادبى الرشيق ، وأن أبطالها من النوع المعقد الذى تكتنف حياتهم الدسائس السياسية من كل مكان ، وأن أحداثها مأساوية بالفطرة لا بتنسيق المؤلف ، وان « لويس الحادى عشر » لا تهمه لنجدة فى ذاتها ، وانما يقصد - بتوطيد سلطانه ومد نفوذه - الى اضعاف خصمه . وهو لهذا يسلم عن طيب خاطر تلك السيدة اللاجئة الى كنفه الى حاكم الشمال الطامع فيها - بعد أن تظاهر بحمايتها ضد الدوق ، وفوق ذلك فان المؤلف يصور لنا هذا الملك ماكرا محتالا يتظاهر بالاغتباط بتوقيع التعهد حين يهدده الدوق بالقتل ، ثم هو يستهين بهذه المعاهدة اذا أصبح فى قصره ، وهو يصور لنا كذلك بقية الابطال تصويرا غريبا يقوم فيه كل واحد منهم بدوره المعقد خير قيام .



ولد « جورج بيرون » فى احدى المدن الصغيرة ببريتانيا فى شهر يناير سنة ١٧٨٨ من اسرة ماجدة عريقة النسب بعيدة الصيت ، اذ كان ابوه من اسرة « بيرون » المستمتعة بلقب « اللوردية » وليس هذا فى انجلترا بالشيء الهين او اليسير ، اما والدته ، فقد كانت من اسرة « اكوسية » نالت هى ايضا من الشرف والنبل حظا جعلها جديرة بالاقتران بأحد اعضاء اسرة اللورد « بيرون » التى بلغت من السمو الى حد ان كان الملك نفسه يعرف رئيسها معرفة تامة ، بل قد اهداه ضيعة واسعة برهن بها على حبه اياه وعطفه عليه .

تزوج والد « بيرون » قبل بنائه بوالدته سيدة اعقب منها فتاة سماها « أجوستا » ثم توفيت هذه السيدة فلم يلبث زوجها ان خطب والدة «بيرون» ثم بنى بها فولدت شاعرنا العبقرى الذى لم يسم الى مثل منزلته ـ فى انجلترا ـ حتى « شكسبير » نفسه بالرغم من ذلك الضجيج وتلك الطنطنة اللذين احكمت الجماهير نطاقهما حول اسمه حتى اوصلته الى مرتبة الاعجاز والوحدانية فى غير جدارة ولا استحقاق ، بل فى الوقت الذى يصرح فيه الفرنسيون بان ادبهم لم يصب بشيء ، ولم تنحط قيمته الا من جراء تأثره بأدب « شكسبير » الذى كثيرا ماينزل فى احرج المواقف واكثرها حزنا الى النكت السوقية الباردة او الى مايدعونه « بالتريفياليتيه »

لم يكد « بيرون » يبلغ الرابعة من عمره حتى كان ابوه قد بدد كل ثروته ثم كل ثروة زوجته ـ وكانت ثرية ورثت من اسرتها

ثروة طائلة فأثقلها بالديون، واضاع منها الشيء الكثير ولولا انها لم تستسلم له لاتى عليها جميعا ، ولكنها وقفته عند الحد الاول الذى شعرت معه بانها آيلة الى الخراب اذا سارت فى تياره الاحمق المبذر .

ولما انهالت عليه رسائل الدائنين وانذارات نزع الملكية ، فر من انجلترا الى فرنسا بمقدار ضئيل من المال ظل ينفق منه حتى مات بعد زمن وجيز ميتة خافتة لاتليق بمقام اسرته العالية ، وكان ذلك فى سنة ١٧٩١ ولم تكن حيلولة هذه السيدة بين زوجها وبين تبذير ثروتها ناشئة من شرهها فى المال أو مدفوعة اليها بباعث الشح او الضن على زوجها بما تملك ، كلا ، فان هذه السيدة ظلت محبة لزوجها ووفيه له حتى غادر الحياة ، وانما السبب الذى حداها الى سلوك هذه الخطة الايجابية ، بل العنيفة فى منعه من التصرف فيما بقى من ثروتها هو حبها لابنها الصغير ، وتفكيرها فى مآله السىء ومستقبله المظلم لو أنها سلمت اليه ثروتها كما كان يريد .

ومهما يكن من شيء ، فان « اللادى بيرون » قد انسحبت على اثر موت زوجها من تلك البيئات العالية التى كانت تعيش فيها ايام عزها وسعادتها ، لانها اصبحت تكلفها من الانفاق مالا طاقة لها باحتماله ، فانتقلت لها مسكنا صغيرا ذنيه باثاث متواضع وقطنت فيه مع طفلها الذى لم يتجاوز بعد العام الرابع ، ولما كانت « اكوسية » ميالة بفطرتها الى الاقتصاد ، بل الى الشح والتقتير فقد استطاعت ان تعيش بهذه الصبابة الضئيلة التى ابقتها لها الاحن والارزاء . بيد ان هذه السيدة على ماكان بها من اقتصاد وتصرف حسن فى تدبير المنزل والاحتفاظ بالمال كان بها عيب فى طباعها ذو اثر سىء فى تربية « بيرون » وهو انها كانت حمقاء سريعة الغضب ، تهتاج لابسط الدواعى ، وتصيح وتركل الارض بقدميها لاوهى الاسباب ، وتهين الغلام وتوسعه ضربا ولكما اذا اتى من العبث مالا مندوحة للاطفال عنه اثرت هذه المعاملة القاسية ، بل الهوجاء فى حياة الطفل ، فحولته الى شعلة من

نار ، وجعلته حاد الطبع سوداوى المزاج ؟ يغضب من لفتة ، ويثور من لفظة ولكنه لم يفقد ألبتة شيئا من كرم طبعه وحبه للاحسان ، وعطفه على المنكوبين والاشقياء ، وان كان شديد الكبرياء الى حد الانسام بالعجرفة والغرور فى نظر كثير من عارفيه الذين لم ينظروا فى تقديره الا الى ناحية واحدة وهى ان « بيرون » متكبر يحتقر الناس جميعا ،ولو انهم انصفوا لعذروه ، لانه كان - فى القرن التاسع عشر فى انجلترا - فريدة العقد ونسيج وحده لا يدانيه فى خياله كاتب ولا شاعر ، ولا يتطاول الى مثل مجده فى بريطانيا غابر ولا معاصر ، وبالاجمال كان «بيرون» ابن الجيل ووحيد العصر ، واختبار السماء فى ذلك العهد . واذا ، فهو فى ترفعه غير ملوم او له العذر على أقل تقدير .

كان « بيرون » جميلا الى حد الفتنة والسحر ؟ ولكنه لسوء الحظ كان مصابا بالضعف ونحف شديدين فى عقبيه حتى اصبحتا غير قادرتين على حمله ، فنشأ لا يستطيع المشى الا اعرج ، وقد نالت هذه العاهة من نفسه منالا شديدا ، فحولت ايامه الى ظلام قاتم ، وكسرت قلبه وجعلته يتصور ان كل فتاة تنظر اليه تستهزىء به وتسخر من عاهته . وقد ايد هذه العقيدة فى نفسه انه كان فى احد الايام مارا امام باب حجرة ابنة عمه ، وكان يحبها حبا شديدا فسمعها تقول لخادمتها هذه الجملة القاسية : « قبحك الله ! أأتزوج من هذا الغلام الاعرج ؟ » فلم تكد هذه الجملة تطرق مسمع « بيرون » حتى هوت على فؤاده فحطمته ومحت منه كل امل فى اكتساب قلوب الفتيات .

أدخلت السيدة الايم ابنها المدرسة وعنيت بتثقيفه عناية فائقة حتى اضحى من خيرة الشبان المهذبين فأتاحت هذه التربية العالية الفرص السعيدة لظهور تلك العبقرية الفذة ، فظهرت بهيئة لم تبهر انجلترا وحدها ، وانما بهرت كل اوربا فى ذلك الحين حتى ان مؤلفاته قد ترجمت الى كثير من اللغات الحية آنئذ ؛ فاخذ الشباب المتعطش الى الادب الراقى ، والمفتون بالاساليب الساحرة يلتهمها فى شراهة وَنهم لا نظير لهما .

وفى سنة ١٧٩٤ توفى مورث لقب « اللوردية وثروتها فى اسرة « بيرون » ولم يترك وارثا لكل هذا غير ذلك الطفل اليتيم: فآلت اليه رياسة هذه الاسرة ولقب نبلها كما آلت اليه ثروتها وان كانت قليلة ؛ ولم تكد امه تسمع هذا النبأ حتى استطارت فرحا ، وتاهت عجبا وفخرا واسرعت الى اخراج طفلها من مدارس الشعب والحقته باحدى المدارس « الارستقراطية » فأتم بها دراسته فى تفوق وامتياز

زاد نشاطه فى هذا العهد الذى قضاه فى مدرسة الاشراف، وشغف بالفوز ، واغرم بالنجاح، ومالت نفسه الى الاستيلاء على كل شىء ، ونشأت بينه وبين بعض الفتيان المهذبين علائق حسنة منذ تلك السن المبكرة ، وتأسست بينه وبين الكثيرين منهم صداقات وفية واخوات مخلصة .

ولما بلغ « بيرون » سن الرجولة اندفع وراء شبابه الاهوج فى تيار العهر والمجون . وهذا هو كل ما اخذه عليه التاريخ نقلا عن اصدقائه الاقربين

وفى سنة ١٨٠٣ وكان « بيرون » اذ ذاك فى الخامسة عشرة من عمره ، دعيت اسرته الى بيت احد معارفهم ، وكان الشاب قد انهى السنة الدراسية فرافق امه الى هذه الدار وهناك وقعت عينه على أجمل الفتيات وجها وارشقهن قدا ، واخفهن روحا واعذبهن منطقا وهى «مارى ان» ابنة الداعى ، وهى فتاة فى السابعة عشرة من عمرها وكانت مخطوبة لاحد ابناء الاشراف . فسقط فؤاده اسيرا فى فخ غرامها سقطة لم ينهض منها حتى آخر لحظة فى حياته . ويعتبر هذا الحب اول احداث « بيرون » العاطفية الجدية وهو الذى منح الحرية لكل شياطين روحه فهاجوا وماجوا وحطموا جميع اغلال التقاليد والعادات ، ورفعوا عقائر الشعر الخالد نقشوه على صفحات الكتب بعد ان الهبوه بنيران فطرهم الشيطانية ، فخرج للناس سحرا فاتنا ، وبيانا آسرا ، وغراما مجسما ، ودلها مصورا .

اما الفتاة فقد كانت تنظر الى حب «بيرون» اياها نظرة العابث

الساخر ، لانها كانت تعتبره غلاما يلهو ، فاتخذته - بما كان ينشد فيها من شعر - اداة مرح وسرور . وبرهان جمال وفتنة الى آخر العطلة الصيفية اى زهاء شهرين ثم انتهى كل شيء من ناحيتها واصبحت تنظر الى عواطف هذا الغلام نحوها نظرها الى فصل من رواية تمثيلية شاهدت على مسرحها حادثة حب من جانب واحد ثم انسدلت عليها الستار فأصبحت فى خبر كان . وقد تأكد « بيرون » قبل افتراقهم . ان هذه الفتاة لم تتأثر بحبه ساعة واحدة تدفعها له فى مقابل تلك الليالى الطوال التى قضاها فى التفكير فيها وفى الامل فى حبها . فاندك صرح نفسه ؟ وانجرحت كبرياؤه ، واصيب فؤاده بطعنة نجلاء لم يندمل جرحها حتى آخر ساعة فى حياته ، ولكنه كظم اهانته فى نفسه ، وكبت غرامه فى قلبه ، وتلقى من هذه الحادثة درسا قاسيا ؟ فاعتزم ان يهجر منذ اليوم تلك الطفولة البريئة التى كانت تدفعه بالامس الى حب من لا يحبه والانخداع بسراب الآمال ، وبروق الاحلام ، ومنح عواطفه النبيلة رخيصة مبتذلة لمن لا يقدرها ولا يقابلها بمثلها . ومنذ هذا اليوم اصبح رجلا قوى المراس ، صلب الارادة لا يضعف امام المرأة ولا ينهزم فى ميدان العواطف الغرامية الافلاطونية . وليس معنى هذا ان « بيرون » قد انصرف عن حب المرأة العاطفى واصبح يستمتع بجسمها فحسب ، كما يتبادر الى الذهن للوهلة الاولى : كلا وانما احب بعد هذه الحادثة عدة مرات محبات قلبية ظهرت صورها فى شعره مثل حبه لابنة وكيل قنصلية انجلترا فى « اثينا » التى قال فيها القصيدة الرائعة الخالدة التى ترجمها الى العربية فقيد الادب المغفور له الاستاذ محمد السباعى تحت عنوان « غادة اثينا » والتى سننقل اليك هنا شيئا منها لترى نموذجا من رشاقة اسلوبى المؤلف والمعرب معا ، وهاك هذا النموذج :

غادة اثينا قد حان الفراق فردى على فؤادى والا ، فأبقيه وخذى سائرى ، واسمعى منى قبل الرحيل كلمة الميثاق يامنية الروح شد ما اهواك

بما بعينيك من سحر ، ومابفيك من خمر،وبشقيق الوجنتين، وعقيق الشفتين ، وفاحم غريب يلثم مواطىء قدميك ، ومقلتين قتالين تديران اكؤس العقار ،وغدائر تلاعب نسمات الاصائل والاسحار ، انى يامنيـة الروح شد ما اهواك

بخندريس ثغرك الوضاح ،ومنضودان كاللؤلؤ بل البـرد بن الاقاح . باناء ذلك الرضاب الذى تظمأ اليه الروح ، وكـوثر الريق الذى ليس الا به يشـفى الغليل والنوح ، وحجل مشبع ونطاق غرثال ، وقمر وكثيب ،يفصلهما غصن بان ، وثدى ناهد وردف رجراج . وكشـح ضامرواحشاء تضيع من الوشاح .انى يامنية الروح شد ما أهواك !

برموز المحبـين ، وآيات المغرمين ، بلسان اهل الهوى . ولغـات أولى الجوى ، من نوروريحان وورق وأغصـان ، مما يترجم عن القلوب والالحاظ ،مالاتفسره الكلم والالفاظ . من نلج وفرحة ، وكمد وقرحة وألم وأمل ، وردح وجـدل ، وخفـر وخجل ، وفرق ووجل . انى :يامنية الروح شد ما اهواك !

غادة انينا لقد نزعتنى منـك يد النوى ، ورهنتنى لديك كف الهوى ، فأنا راحل مقيم ، موجود معدوم .

انا على البعـاد والتفرق لنلتقى بالذكر ان لم نلتق

بنواظر الاوهام اراك . وفى عوالم الاحلام القاك ، ولكن من لهاتين المقلتين برؤياك ، فهل انت حافظة الود ؟ وهل برأك الله راعيـة العهد ؟ وهل اذا نأت الدار وشطبى وبك المزاروحالت بينى وبينك تلال وبحار ، أجرى لك البال ،أو أهيج منك البلبال ؟

اذكرونا مثـل ذكرانا لكم رب ذكرى قربت من نزحا

اذكروا صبا لايزال حبكم بين جنبيه ، وشـبحكم ماثلا أمام عينيه ، انتم شغله الشـاغل فى اليقظة والوسن ، وحديث امانيه فى السر والعلن ، ان لسان قلبه يناديكم : يامنية الروح شـد ما أهواك «١»

«١» انظر صفحة ٢٩ ومابعدهامن كتاب « ابطال العالم » تعريب المغفور له الاستاذ محمد السباعى

ولكن هذا الحب العذرى بالرغم من تسجيله فى هذه القطعة الادبية الادبية الساحرة لم يسم فى نفس (بيرون) ولا فى مؤلفاته سمو حبه الاول لـ (مارى انا) التى طالما عبدها فى عدة مواضع من كتبه تحت اسم (نجمة الصباح) وليست هاتان الحادثتان الغراميتان هما كل ما « لبيرون » من وقائع اشتبك فيها قلبه بحب المرأة ، بل قد وقع له فيما بين هذين العهدين كثير من هذه الحوادث الغرامية بعضها جدى اثر فى قلبه ونال من فؤاده والبعض الآخر كان فيه عابثا لاهيا . فأما مثال النوع الاول فهو كثير سجله « بيرون » فى كتبه وذلك مثل حادثة غرامه الشهيرة التى وقعت له مع السيدة الاسبانية حين ارتحل الى تلك البلاد فأحبها حبا قلبيا صحيحا وقال فيها شعرا قويا حادا يدل على انه لم يكن فى هذه المرة عابثا ولا لاهيا؛ واما النوع الثانى فمثل عبثه ولهوه بقلوب اولئك الفتيات الكثيرات اللاتى سقطن فى قبضة غرامه حين اندمج فى المجتمعات العالية التى كانت تنعقد فى منتديات الاشراف والاعيان فى المدينة الصغيرة التى كانت فيها مدرسته ؛ اذ تزاحمت على حبه الكثيرات منهن ، تحسب كل واحدة انه لها وحدها دون سواها ؛ وهو فى الواقع لم يكن لاية واحدة منهن، وانما كان يتلهى بجمالهن ويعبث بمهجهن لا أكثر ولا اقل . لانه كان فى هذا العهد لا قلب له ولا عاطفة عنده وان كان قد قال فى بعض هؤلاء الفتيان شعرا اثبته فى مؤلفه الاول الذى اخرجه للناس وهو فى التاسعة عشرة من عمره تحت عنوان : « ساعات البطالة » والذى لم يكد يظهر حتى اسرع كثير من الاشراف الى اقتنائه . مدفوعين بغريزة حب الاطلاع ليروا منتجات هذا الشاعر « اللورد » بيد انه حين تناولته الايدى؛ قراته الاعين هاجت به عاصفة شديدة من النقد ، فلم يحتمل « بيرون » هذه الحملة الشعواء التى وجهت الى اول منتجاته الادبية فغادر لندن الى القرية التى فيها املاكه حيث اقام مع امه التى اخذت الشراهة فى المال تزداد فى نفسها شيئا فشيئا حتى اصبحت لا تكف عن

مناضلته بسبب ماينفقه على ملاذه من المال . وبينما هما على هذه الحال المريرة اذ دعى « بيرون » لتمثيل اسرته فى مجلس « اللوردات » فلبى الدعوة ولكنه لفرط اهماله وتهاونه فى القيام بهذه المهمة كان مضرب المثل لجلب الخجل والعار الى طبقة « اللوردات » الجديين المحافظين الذين لايلهون الا تحت ستار الخفاء واخيرا ضاق صدره من البقاء فى انجلترا وانقبضت نفسه عن سكانها فأصبح لايطيق المقام فوق ارضها فغادرها الى اسبانيا ثم الى البانيا ثم الى أثينا ثم الى القسطنطينية . وقد امضى فى هذه الرحلة زمنا كان يود ان يكون اطول مما كان لولا ان وكيله قطع عنه المال فاضطر الى العودة سريعا فرجع على مضض . ولكنه عاد بثروة أدبية ضخمة اوحتها اليه هذه الرحلة الطويلة الشيقة التى غمسته فى بحر خضم من الحوادث ذوات الاثر الفعال . فمن ذلك مثلا حادثة الفتاة الاسبانية التى اشرنا الى علاقته بها آنفا وحادثة غرامه بابنة وكيل القنصلية التى خلدها بقصيدة « غادة اثينا » الفاخرة التى نقلناها اليك . ومن ذلك ايضا مشاهدته تلك الحالة المهينة التى كانت فيها بلاد الاغريق من مقاساة الذل والهوان والاستعباد مما هاج ببال « بيرون » واطلق لسانه بتلك القطعة الملتهبة التى تندلع النار من كلماتها ضد الاستبداد والمستبدين كما يتطاير من جملها الاحتقار للاستكانة والمستكينين . وقد اثبت « بيرون » هذه الفرائد الخالدة فى كتابه : « رحلة شيلد هارولد » الذى اصدره بعد عودته فى غير امل . وانما دفعه الى ذلك احد اصدقائه المخلصين العارفين بفضله . المتحمسين لادبه . فكانت نصيحته حكيمة لان الكتاب قد نجح نجاحا عظيما بل دوى فى لندن من اقصاها الى اقصاها دوى القنبلة . ولمع فى جوانبها لمعان البرق . فعلا اسمه . وذاع صيته . وعمت شهرته . وعرفت انجلترا كافة ان السماء

---

(١) انظر صفحة ٢٩ ومابعدها من كتاب « ابطال العالم » تعريب المغفور له الاستاذ محمد السباعى

قد منحتها شــاعرا من اقدرشعراء الدنيا اخلدهم على الزمن

ولم يكد ذكر « بيرون » يذيع حتى افتتن بمجده من السيدات والاوانس اضــعاف مــن افتتن بجماله بالامس فاخذت الكثيرات من نساء الطبقات العالية يتهافتن على حبه ويتنافسن فى ارضائه والوقوع من نفسه موقعا حسنا وكان كل ذلك يمر و « بيرون » تائه فى بيداء العجب والدلال . ثمل بخمرة المجد والانتصــار توجه اليه البسمات من اجمـل الثغور . والقبـلات من احـلى الشفاه . وهو عن كل ذلك لاه بتلك الافواج التى كانت تغمره فى كل يوم من رسائل الاعجاب والتقدير . ومن عبارات الثنــاء والاجلال . ومن هؤلاء السيدات اللواتى تدلهن بحبه : « الليـدى كاترين لامب » وكانت صاحبـة ارقـى المنتــديات الادبيــة والاجتماعيــة فى لندن . وكانت محبــوبة . بل معبــودة لامن زوجها فحسب . ولكن من كـل من تقع عليهــا عينــه من غير استثناء . فصرفت النظر عن كل اولئك المتفــانين فى حبهــا . وشغفت بذلك الكوكب الذى بدأ يتلالا فى سماء لنــدن فاعارها لفتة قصيرة فى مبدأ الامر . ثم لم يلبث ان اغضى عنها وتركهــا تقاسى الآلام والاحزان من جراء هجره وجفــائه . ومن هــؤلاء السيدات اللواتى اغرمن ببيرون « الليدى اكســفورد » التى ان كانت تكبره بعشرة اعوام . فانها كانت رشيقة ذات محيا جميــل وطلعة بهية وقوام فاتن . وفوق ذلك . فقد كانت تشتمل عــلى انوثة نادرة وخفة روح معدومة النظير . وهذه الميزة هى التى حببتهــا الى قلب « بيرون » وجعلته لايسلك معهــا سبيله الاعتيادية من التنقل بازاء النساء تنقل النحلة من زهرة الى زهرة

ومنهن ايضا السيدة « كارولين » التى بلغ بها الوله والدله فى حبه حدا يوشــك ان يكون جنونا . فخشيت احدى قريباتها عاقبة هذا الهوى والاندفاع فى تيــار العاطفة الهوجاء . فاشارت على « بيرون » بالزواج من الانسه « ايزابيل ميلبنك » وهى فتــاة ذكية . مستنيرة على جانب من الثراء لابأس به . فطلب يدها . فرفضت زواجها منه . بالرغـم من انها كانت تحبه من اعمــاق



قلبها حبا شديدا · لانها كانت متخـوفة من عناده وقسوته وصراحته وطيشه وكبريائه · فانجرحت عزته · وكبر عليه ان ترفض سؤله فتاة عادية كهذه الآنسة فاغضى عنها اغضاءا تاما · وفى هذا الوقت كانت اخته « اوجوستا » قد غضبت من زوجها · فلجأت اليه ونزلت فى منزله بلندن فزادت علاقتها باخيها متانة وقوة · ولكنها أشارت عليه بأن يتزوج وأعادت الى نفسه هذه الرغبة بعد تناسيها واستنصح صديقته المسنة التى اشارت عليه بالزواج فى المرة الاولى · فنصحت له ان يعيد الكرة على الفتاة التى رفضت يده ففعل · فقبلت وتم الزواج · ولكنه لم يكن زواجا سعيدا ولا موفقا · اذ لم يلبث الشاعر ان ارخى العنان لخياله وعناده وطفولته وكبريائه · فثارت ثائرة الزوجة وهاجت عواطفها ولم تقو على احتمال شياطينه الكثيرة المتنوعة · فلما رآها على هذه الحال من الثورة والهياج · زاد فى عناده وضاعف اغاظتها · فسقطت بين براثن المرض وعجزت عن القيام بواجب المنزل · فاقترحت على زوجها ان يدعو اخته · لتشرف على ادارة شئونه ولكن هذه الاخت لم تكد تنزل عند اخيها حتى رات الزوجة دلائل محبتهما النادرة وعلائم وفائهما المنقطع النظير ماثلة للعيان · فهاجمت الغيرة صدرها مهاجمة عنيفة · فلما رأى « بيرون » ذلك منها افرط فى ابداء عواطف المحبة نحو اخته · وهو يعلم انها تغيظها وتحنقها · فجن جنونها · وطار طائر الصواب من راسها · فغادرت المنزل الى بيت أسرتها · وهناك شنت عليه الغارة ورمت حبه لاخته بما يتناقض مع الاخوية تمام التناقض وهكذا شأن المراة اذا اهينت فى غرورها · انقلبت وحشا ضاريا لاوفاء عندها ولا اخلاص · بل لاخلق ولا نزاهة

ومهما يكن من الامر · فقد شوهت هذه السيدة المحنقة سمعة هذين الاخوين الا فى نظر العقلاء المهذبين الذين لفظوا هذا النبأ فى شيء عظيم من الاهانة والاحتقار · وحملوا على مذيعيه حملة قاسية ورموهم بالتسفل والنذالة اللذين لاحد لهما · اما الحقيقة التى لاجدل فيها ولانزاع · فهى ان هذا الحب الاخوى كان نبيلا غاية النبل · مقدسا اعظم التقديس · بل كان

يعد المثل الاعلى للحب الافلاطونى كما شهد بذلك كل العقلاء النزهاء من معاصرى « بيرون » وقد صور الشاعر حبه لاخته فى تلك القطعة الخطيرة . المعنونة « عروس عبدون » وهى قصة شعرية فاتنة . بطلاها اخوان كانهما ملكان . يحب كل اخاه حبا نبيلا طاهرا لاعهد للبشرية به الا فى النزر اليسير من الحالات السامية . ومنشأ الواقعة التى صورتها هذه المقطوعة الشعرية الساحرة هو ان والد هذين الاخوين سليم وزليخة قد انب الشاب تانيبا عنيفا قذف الى نفسه بالانقباض والتشاؤم . وقد شاءت المصادفة ان يتقدم الى الفتاة فى ذلك اليوم خطيب يطلب يدها . فحسبت ان هذه الخطبة هى مأتى انقباض اخيها فأرادت ان تطمئنه برفضها فراقه وقد جاء فيها مايلى :

« الى سليم ضع رأسك على صدرى ابرد بالقبل جبهتك . واطفىء بالعناق لوعتك حتى اتلج صدرك عناقا وضما . وانيم عينك تقبيلا ولثما . اذن خابت لديك شفاعة الكلم المعسول . واخفقت عندك ذريعة اللفظ المصقول . انى اعلم ان لابى آونة فلظة وجفوة . وفيه تارة شدة وقسوة . ولكنك خليق ان تذكر ان لاختك عليك يد الدهر قلبا خفاقا . وحشا عليك طول الابد مقلاقا » الى ان قال « اتحسب ياسليم انى اطيق بعدا عنك او انى اقسم مهجتى بينك وبين غيرك او اشرك فى محبتى اياك سواك ؟ لاكان وقت يفرق بينى وبينك . وساعة تصرف فيه اعنة المطى عن كنفك . ولا والله ماكان عزر بل ليفرق بين روحى وروحك . وما كان ملك الموت ليقبضك دونى او ليقبضنى دونك . بل مثلما نحن الآن على ظاهر الارض ممتزجان فكذلك تحت التراب يمتزج منى ومنك الفؤادان . وفى الجنة او فى الجحيم يلتئم منا الروحان(١) ! »

بيد ان هذه الاشاعة السيئة التى اذاعتها عن الاخوين تلك الزوجة السافلة قد وجدت لها - بالرغم من افلاطونية حبهما وملائكيته - انصارا ومروجين من اعداء « بيرون » والحاقدين عليه . فنقزز هذا الشاعر العبقرى من انجلترا جميعها

---

(١) انظر صفحتى ١٥٨ و ١٥٩ من كتاب « ابطال العالم ترجمة المرحوم الاستاذ محمد السباعى »

وغادرها سريعا الى فرنسا ثم الى ايتاليا • واخيرا عاد الى افريقيا ، ليدافع بكل ما أوتى من قوة عن حريتها المفقودة واستقلالها المسلوب • وليوفى بعض الشىء لبلاد « هوميروس » و « سوفوكليس » و « اوريبيديس » التى طالما احبها وكلف بها • فظل يناضل فى صفها حتى ثار به المستعمرون فغادر بلاد الاغريق الى احدى الجزر النائية واختفى فيها ريثما يستعد لاستئناف الهجوم من جديد للدفاع عن الحرية • المعنوية مجسمة فى ارض « يونان » ولكن المنية لم تمهله حتى ينفذ بغيته • اذ لم يلبث ان هوى بين انياب المرض الفتاك الذى انتهى بالقضاء عليه فى شهر ابريل سنة ١٨٢٤ وكانت سنه اذ ذاك خمسا وثلاثين سنة فانطفأ بموته أعظم السرج نورا واكثر المصابيح اشعاعا وبريقا • وقبل ان يغادر « بيرون » الحياة أوصى بالاكثرية الساحقة من ثروته لاخته « اوجستا »

واخيرا ينبغى الا نغادر هذا المقام الا بعد ان نعلن فى وضوح ان « بيرون » كان القبس العلوى الذى قذفت به السماء لتضىء بسناه البيئة الادبية فى القرن التاسع عشر فى اوربا • وان « فيكتور هوهو » زعيم المدرسة « الرومانتيكية » تأثر فى خياله واسلوبه بهذا العبقرى العظيم تأثرا ملموسا لايقبل الشك ولا يحتمل الارتياب •



ان حياة « فيكتور هوجو » قدتجاوزت كل الحدود المألوفة لبنى الانسان فى جميع نواحيهـــا ، وهذا شيء طبيعى لان « فيكتور هوجو » نفسه ليس شـــخصاعاديا ولـكن ناحيتين من هـذه الحيـاة الغريبة الشاذة تستحقان الدرس والعنـاية بنوع خاص : فأما الاولى ، فهى النـاحيـةالسياسية ، وأما الثـانية ، فهى النـاحية الغـــرامية وهى التى ستكون موضوع حديثنا فى هذه العجالة ، والتى ســـنحاول أن نطوف بها مسرعين دون أن نهمل منهـا شـيئا يسـتحق العنـايةوالالتفات

كانت حياة « فيكتور هوجو » الغرامية حادة أعظم الحدة ، عميقة أبعد العمق ، ولكن ميزتها العظمى التى تحدو كل أديب الى الاهتمام بهاـ هى : انهـا كان لها عـلى منتجاته النثرية والشـعرية أثر بعيد ، وأنها مكنت هذه العبقرية النـادرة من الظهور عـلى مسرح الوجود فى ذلك الثوب القشيب الذى طالما بهر أنظار المعاصرين ، وخلب ألبابهم

يرجع ميل « فيكتور هوجو » الى جمال المرأة وافتتانه بهـا ، وانعطافه نحوها الى عهد الطفولة أو المراهقة حين سافر الى اسبانيا للمرة الاولى فى حياته وأقام بهازمنا مع والده الذى كان يقاتل اذ ذاك فى تلك البلاد ، فكان كلما دعاه أخوته الى اللعب معهم رفض سؤلهم ، وفضل الاقامة الى جانب شابة اسبانية جميلة كانت هناك على الاشتراك مع اخوته فى هـذا اللعب اللذيذ المحبب الى قلـوب الاطفال جميعا الا الشاذين منهم أمثـال هـذا العبقرى العظيم ، ولـكن الذى لا شك فيـه هو أن الرغبات الحيوانية والميول المادية لم يكن لها أى أثر فى هذا القلب الشاب الطاهر المتكبر الذى أوحى

انيه كبرياؤه ألا يمنح الحب الاول الا لزوجته ، فصمم منذ حداثة سنه على أن يكون حبه واحداوأن تكون الفتاة الاولى التى يعلق بها قلبه هي زوجته الشرعية المستقبلة . وبالفعل لم يكد يختلط بالآنسة « أديل فوشيه » ابنة أحد أصدقاء أسرة « هوجو » حتى أحبها وكلف بها كلفا شديدا ، لانها كانت فى سن يماثل سنه ، وعلى أخلاق تشابه أخلاقه ، فامتزجت روحه بروحها واتصل قلبه بقلبها منذ بلوغهما العام الثانى عشر حين كانا فى أول الامر يجتمعان للتلهي واللعب ، ثم لم يلبث هذا اللهو أن تحول الى نزهات خلوية طويلة ثم الى غرام حاد عنيف ، ولكنهما لم يعرفا هذا الغرام ولم يشعرا به الا فى السادسة عشرة من عمرهما حين أصبحت هذه الفتاة شابة ناضجة ، حلوة التقاسيم ، وسيمة الوجه ، سوداء الشعر ، عريضة الجبهة ترتسم على وجهها الطهارة والصفاء بأوسع ما فى هاتين الكلمتين من معان . أما عيناها السوداوان ، فقد كانتا مثلين من أمثلة الوداعة والسحر ، وان كان الجد والعفاف لا يفارقانهما لحظة واحدة . اما فمها فقد كان من تلك الافواه التى ان غادرتها الضحكة الفاتنة خلفتها البسمة الساحرة ، وكان محوطا بشفتين عنابيتين تغريان كل ناظر اليهما باللثم والتقبيل !

ولكن هذا الحب قد ظل مكتوما الى ان صرح به « فيكتور هوجو » فجأة لحبيبته فى رسائله اليها ؛ اذ اصبح يوقعها بهذا الامضاء « زوجك » ولكن عقبات كأداء قاسية قد اعترضت سبيل هذا الزواج المتمنى من الشابين . وأولى هذه العقبات الجدية هى رفض « والدة هوجو » زواج ابنها من فتاة عادية لانها كانت تتوقع فى شى من الايمان ان نجمه سيتلألأ يوما فى سماء فرنسا ، بل فى سماء اوربا كلها ؛ ففترت العلاقة بين الاسرتين ثم توترت واصبح الحبيبان لا يلتقيان الا تحت ستار الخفاء ، فآلمت هذه الحالة شاعرنا الشاب ايلاما شديدا .

ولما توفيت والدته واصبح فقيرا ، رات اسرة الفتاة انه غير جدير بابنتها ، بيد ان « فيكتور هوجو » لم يكن يعرف اليأس

ولا القنوط . فظل يرى حبيبته او زوجته كما كان يسميها رغم انف الحوادث الفينة بعد الفينة، وما زال يغالب الظروف ويقاوم الايام حتى فاز فى النهاية بارغام والديها على قبوله لابنتهما زوجا موفور العزة ، مرفوع الكرامة فى ١٢ اكتوبر سنة ١٨٢٢ وكانت « اديل » من فضليات الزوجات الجليلات ، المعينات لازواجهن فى ظروف الالم والشقاء . واحسن ما كانت تمتاز به هذه الزوجة الوفية هو ثباتها امام عواصف الحوادث ومغالبتها كوارث الايام مثل زوجها الذى كان مثلا اعلى فى هذه المحمدة السامية .

لم يكد هذان الحبيبان ينعمان بالحياة الزوجية حتى فاجأهما الدهر القاسى بأرزائه — وما اكثر مفاجآته لهما — ورماهما بما حطم سعادتهما تحطيما شديدا، وقلب كيان هدوئهما وغبطتهما . أتدرى ايها القارىء ما الذى اصيب به هذان الشابان فى طليعة حياتهما العائلية ؟ كان لـ «فيكتور» أخ يدعى «أوجين» لا يقل عنه فى ذكائه وموهبته الشعرية، وكان قد أحب «أديل» زوجة اخيه من عهد طفولتها أيضا ، واغرم بها غراما يزيد على غرام أخيه : ولكنه قبر عاطفته فى عمق فؤاده ، وطوى كشح نفسه على ما يندلع فى داخلها من لهيب الوله الخالد الذى لا يستطيع كل ما فى الحياة من مناظر وملاه ان يأتى على شىء منه ، وانما تستطيع هذه العوامل الخارجية أن تقيم دونه ستارا يختلف كثافة ولطافة باختلاف الظروف المحيطة به ، فيخيل الى الناس ان هذا المغرم الموله قد سلا محبوبه ولفظه من قلبه . ولكن ما أشد ما تكون سطحية الناس فى هذه الحالة ، لانهم لا يعلمون ان نارا قوية تأكل ذبالة الفؤاد فى بطء وهدوء ، وسيظهر أثرها عند ما ينفد وقودها فتنتهى بانتهائه الحياة حينا ، ويختل ميزان العقل حينا اخر . وهذا الاخير هو الذى حدث «لاوجين» المسكين ؛ لانه حين علم بحب أخيه « فيكتور » لهذه الانسة وبخطبته اياها ، صمم على انه يمحو شخصيته أمام أخيه محوا تاما فانسحب من الميدان دون ان يعلم به احد ثم جمع ذكرياته المريرة وآماله الخائبة ، وآلامه المبرحة وخزنها جميعا فى علبة

رأسه المصدع تصول فيه وتجول وتغلى وتقذف بالشرر على مخه الناشىء حتى احرقته وافقدته قوة التعقل والتفكير وطار لبه وسقط بين براثن الخبل والجنون وهنا تحطم قفل العلبة وفتح غطاؤها على مصراعيه ، وظهر ماكان مكبونا واتضح أمر هذا الحب الغريب الذى تجلت فيه التضحية بأوسع معانيها ؛ فلم يقو الزوجان على احتمال هذه الحادثة التى نغصت عليهما سعادتهما واحالتها الى لون قاتم من الوان التعاسة والشقاء ولكن الزمن بطبيعته يتتبع الاحزان والالام ويتحداها حتى يمحوها من صفحة الوجود ؛ وهذا هو الذى فعله بازاء تلك الحادثة المروعة : فمازال يخفف وقعها على هذين القلبين الشابين حتى اتى عليها تماما وسترها بمخلفات الذكريات المحفوظة فى خبر كان ؛ فلم يلبث بعد الزوجان ان استردا سعادتهما الاولى وسارا فى طريق الحياة الهادئة المرحة الفائضة بأنواع الفرح والهناء . فأما هى فكانت تتلمس فى بنيه الطفل لتبين كل غبطتها وسرورها . اما هو فكان يستلهم من نظرتها الوديعة الساحرة التى تفيض بالطهر بطولة بدائع قصائده وروائع مقطوعاته

وهكذا أخذ المستقبل يبتسم لشاعرنا العبقرى منذ ذلك الحين الذى جعل يعمل فيه بجد مستعينا بزوجته النشيطة المثقفة فنشر أول مجموعة من قصائده فى سنة ١٨٢٦ وهو الوقت الذى بدأت فيه المدرسة « الرومانتيكية » تستعد للهجوم على المدرسة « الكلاسيكية » فاختار الشعراء المحدثون الذين يناصرون المدرسة الجديدة « فيكتور » زعيما لهم فى حركتهم الهادمة فتولى قيادة الحملة بقوة وشجاعة ، وأعلن هجومه فى مقدمة المعادين المدرسة « الكلاسيكية » ومنذ ذلك أصبح منزله كعبة يؤمها كل الكتاب والشعراء والفنانين المحدثين . وقد شاء له الحظ السعيد أن يكون انهدام المدرسة القديمة واعلان انتصار المدرسة « الرومانتيكية » على يديه بل بتأثير مسرحياته العنيفة ، فلم تكد مسرحية « هرنانى » تمثل فى سنة ١٨٣٠ حتى رفعت

المدرسة الجديدة أعلامها رسميا فوق ربوع فرنسا . واذ ذاك تمت « لفيكتور هوجو » زعامة الادب الحديث وتوج اميرا للتجديد فى القرن التاسع عشر ، وشجعته على المضى فى الكتابة والتأليف فى جد ونشاط زوجته الثملة بخمرة الفوز والفخار على اترابها ونظيراتها اللواتى لم يقدر لهن ان يكن زوجات لمثل هذا العبقرى العظيم ، ولكن حنق الزمان على بنى الانسان وكيده لهم يحولان بينه وبين تركهم فى سعادة صافية دون ان ينغصها عليهم وان يبذل جهده فى تحويلها الى شقاء شامل وبؤس عميق وقد رأيت ان الدهر قد وجه سهامه المسممة الى هذه الاسرة وهى لا تزال فى ربيع حياتها الزوجية بسبب حادثة «اوجين» الشاب الذى جن غراما بتلك الفتاة الجميلة دون ان يدور له بخلد انها ستصبح زوجة شقيقه فى هذه المرة ، فسهامها أحد واقسى وابعد مدى واعظم نتيجة واقدر من كل حوادث الحياة على ايلام الزوجين والقائهما فى حضيض التعاسة والشقاء .

ومجمل هذه القصة هو ان « سانت بوف » الناقد العبقرى النادر المثال فى عصره كان يسكن بالقرب من هذه الاسرة السعيدة ، فلما أن ظهرت الكتب الاولى « لفيكتور هوجو » كان « سانت بوف » أول من قدمها الى الناس وأبان لهم قدرها ورفع من شأنها فى مقالات حارة قوية ، فكان من واجب « هوجو » ان يشكر له هذا التقدير العظيم فدعاه الى منزله فلبى الدعوة واخذ بعدها كل منهما يتردد على منزل صاحبه ، ولا يكاد نظره يقع على « مدام هوجو » ويفاتحها الحديث حتى يحس فى داخل نفسه انه معجب بها . ولا يزيد فى أول الامر على ذاك شيئا ، ولما توطدت دعائم الصداقة بين هذا الناقد وبين الزوجين ، واستحكمت أواصر الصلة بينهم لم ينتبه « سانت بوف » الا على صوت قلبه الذى يعلن انه قد وقع اسيرا فى حبائل غرام هذه السيدة الشابة التى فتنته عن كل ما عداها فى هذه الحياة . أما هى فلم تكن تحس بشىء من هذا كله ، وانما كانت تحمل له فى قلبها صداقة بريئة طاهرة . ولما تبينت دخيلة قلبه ، اجتهدت

فى أن تعزيه فى مصيبته وتصرفه عن بغيته ، ولكنها سلكت الى هذه التعزية وسيلة مصوغة من اساليب العواطف الراقية ، وافانين الرحمة العالية ، واعلنت اليه ان هذا هو اقصى ماتستطيع ان تمنحه اياه . بيد ان قوة «سانت بوف» اخذت تتضعضع امام سلطان الحب القاهر شيئا فشيئا حتى رأى انه لا مناص له من الاعتراف بهذا الحب لفيكتور هوجو نفسه ، فاعترف له بكل ما يعتلج فى فؤاده من هيام وده له « بمدام هوجو » وكان المنتظر ان يثور « فيكتور هوجو » من هذا الاعتراف وان يفصم عرى الصداقة الوثيقة بينه وبين « سانت بوف » ولكنه لم يفعل شيئا من هذا ، بل تلقى ذلك النبأ بشىء من الحزن الممض والالم الصامت ، واكتفى بان يطلب الى صديقه الابتعاد عن زوجته حتى لا تتجدد هذه العاطفة غير النبيلة التى تفيض بالخطر على سعادتهم جميعا . فصمم « سانت بوف » على الانزواء فى مكان سحيق يحاول فيه دفن هذا الحب المجرم فى نظره هو قبل كل انسان ، ولكن زمام فؤاده ليس بيده ، فلم يلبث هذا الفؤاد الدامى ان جمح فجأة وحطم كل سلاسل المنطق والتفكير والوفاء لصديقه العزيز وظل يكاشف « مدام هوجو » بما يضطرم فى قلبه من لهيب حبها القوى الحاد الذى سيقضى على شبابه فى القريب العاجل ، فعز عليها ان يهلك هذا الشاب بسببها ، ولكنها امينة وفية لزوجها ، محافظة على عفافها ؛ فماذا تصنع اذن ، فى هذا الامر الذى هو اعقد من ذنب الضب كما يقول العرب ، واخيرا ، وبعد لاى مضن ونزاع داخلى قاس ، اعتزمت ان تكتب اليه رسائل ولكنها مفعمة بالهدوء والتعزية والنصائح النبيلة والعظات الغالية ، والتذكير بالامانة والوفاء لا اكثر ولا أقل ، بيد ان زوجها لم يلبث أن تحول حزنه الاول الى غيرة عنيفة ذات أنياب حادة قادرة على تمزيق نياط الفؤاد فى سرعة وسهولة ، ففكر فى هذه الحالة السيئة التى لا يمكن ان تدوم فلم يجد حلا أحسن من الحيلولة التامة بين « سانت بوف » واسرة « هوجو » كلها وقد فعل ، فلم يعد هذا الحب الوامق يلقى حبيبته البتة .

ولما علمت هى بان هذا الشاب المسكين سائر الى الفناء بخطوات واسعة من جراء غرامه بها من ناحية ، وان زوجها من ناحية اخرى قد بلغ من الغيرة حدا لايحتمل معه ان تكتب زوجته كلمة واحدة الى شاب يهواها وبفتتن بها ، سقطت هذه السيدة النبيلة بين براثن الحيرة والارتباك ، فواجبها يحتم عليها الا تكتب الى شاب يسوء زوجها أن تكتب اليه ، وعاطفتها تدفعها الى عمل تظن انه انسانى ، وهو التسرية عن هذا الشاب الذى يموت بلا ذنب جناه . وفى النهاية خرجت منهزمة امام سلطان العاطفة التى انتصرت فى قلبها على الواجب المقدس ، فاستأنفت الكتابة الى هذا المحب المفتون ثم راق فى نظرها موقفها كريمة ، عطوفة ، معزية . فتمادت فى الكتابة اليه ، ولكن ما تكتبه كان دائما من النوع الذى قدمناه والذى لا تشوبه أية شائبة مخجلة ورات انها ما دامت طاهرة وفية ، فان غيرة زوجها اصبحت غير شرعية ولا مبرر لها بالمرة ، ولكنه لن يقلع عنها كما أنها هى أيضا لا تستطيع ان تعدل عن تعزية هذا الشاب وابعاد الموت عنه بثمن لا يكلفها تضحية شىء من وفائها لزوجها ، فرات ان اسلم الحلول لهذه المعضلة ان تكتب الى هذا المحب المسكين تحت ستار الخفاء .

ما زالت السيدة « أديل » - كما قدمنا - سائرة على نهج الخفاء الذى سلكته مع زوجها ، وظلت تكاتب « سانت بوف » مكاتبة ملؤها العطف والصداقة والنصيحة وتتلقى منه رسائل مفعمة بالحب والوله حتى شعرت يوما فى داخل نفسها بسرور عميق لا تستطيع ان تعلله باكثر من انه نشأ فى فؤادها من أثر هذا الحب «الافلاطونى» الذى تقرأ قداسته صباح مساء فى رسائل « سانت بوف » الروائية الفاتنة واذذاك أحست أيضا بثقل الظلم والاستبداد اللذين يبدوان من زوجها دون داع ولا مبرر ، فشعرت بان هذا اضطهاد لها من جانبه ، وان العدالة والنزاهة تحتمان عليه أن يهجر هذا المسلك الاعوج الذى يصوره امامها وامام كل عاقل فى صورة الطاغية المتعسف ، وليس معنى هذا ان

« فيكتور هوجو » كان يرتاب في عفافها واخلاصها . كلا ، وانما هي الغيرة التي غلبته على أمره، وحالت بينه وبين التعقل المنطقي في هذه الحادثة ، فظل يقاسي الوان الالم واصناف العذاب من جراء تخيلاته المزعجة التي كان يتمثلها في هذه الصلة طائرة في عالم الشعر والاحلام ، وقد لبث على هذه الحال لا يهدأ له قلب ولا تقر له عين حتى عين « سانت بوف » أستاذا في « بروكسل » واذذاك فقط تنفس « فيكتور هوجو » الصعداء وأحس بان العبء الثقيل الذي كان على صدره قد بدأ يتزحزح بعض الشيء ولكن الانقباض الذي كان يستولي على نفسه منذ بدأت هذه العلاقة المؤلمة لم ينمسح انمحاء تاما ؛ لانه كان لا يزال يتخيل ان « سانت بوف » سيخاطب زوجته من « بروكسل » وكان هذا الخيال ينغص عليه عيشه قليلا . والذي زاد الجو حلوكة والخطب ادلهماما ان « سانت بوف » رفض السفر الى « بروكسل » لانه قد بدأ يشعر بالانتصار في حبه ، بيد ان « فيكتور هوجو » قد ثار ثائره من هذا الرفض الارعن الذي نصب حول زوجته سياجا من الشكوك والاوهام ، فقر رأيه على ألا تقع عين « سانت بوف » على زوجته بعد اليوم ولو في مركبة مارة في الطريق ، وانذر بذلك المحب والمحبوبة في لغة صريحة قاسية لا تعرف هوادة ولا لينا . واذذاك أحس « سانت بوف » بمراجل الحقد والحنق تغلي في صدره على صديقه القديم لانه بهذا التصريح صدمه صدمتين قاسيتين :

صدمة الاهانة بطرده من منزله ؛ وصدمة الحيلولة بينه وبين حبيبته ، ولكنه مع كل ذلك لم ييأس من لقاء تلك الحبيبة ، واخذ يتحين الفرص لرؤيتها حتى كان يفوز منها ببضع لحظات يقضيها في التحدث اليها عن غرامه بها في احدى الكنائس من حين الى حين . وهذا هو أقصى ما ناله من هذه السيدة الوفية الامينة ، او بعبارة أدق : هذه هي قصوى نتائج ذلك الحب العذري « الافلاطوني » كما يسميه مؤرخو الاداب الفرنسية

***

ليعذرنا القارىء اذا كنا قد افضنا في الحديث عن غرام

«سانت بوف» و «مدام هوجو» فليست هذه الافاضة جمجمة من القلم ولا نبوة من الكاتب ، وانمادفعته اليهـا الضـرورة الملحة ، لان هذه الحادثة تتصل اتصالا وثيقا بما عاصرها وجاء بعدها فى حياة « فيكتور هوجو الغرامية» ولكننا سنقف بك عند هذا الحد من قصة « اديل » مع « سانت بوف » وســتحدثك عن غرام «فيكتور هوجو» بـ «جولييت» الممثلة وأدواره معها فيما يلى :

فى اليوم الثانى من شهر يناير سنة ١٨٣٣ التقى « فيكتــور هوجو » فى احد مراقص الفنانين بـ « جولييت » وهى شــابة ممثلة فى السابعة والعشرين من عمرها حلوة التقاسـيم ، نبيلة الملامح : لا تفارق البسمة ثغرها ولا تغادر الطلاقة محيــاها . وكانت تقوم بدورها على المسرح فى نشاط وحماس يحببانها الى كل من يراها . وكانت قـــد التحقت بهذه المهنة تلبية لداعى الضرورة القاهرة . لانها تيتمت وهى لا تزال فى ربيــع الحياة ، وكانت تريد ان تعيش فهوت اثناء بحثها عن هذا القوت الى حضيض النخاسة واصـــبحت خليلة لاحد مشاهير الفنانين فى باريس ثم لشاب اخر من بعــده واخيرا صممت بعد ان احترفت مهنــة التمثيل تستسلم للتنفل الذى لم يكن يروق ميولها الفطرية النبيلة التى ارغمتها الصـــدمة الاولى على عصيانها . ولما كان المسرح الذى تعمل فيه قد عهد اليهــا تمثيــل بعض الادوار فى احدى روايات « فيكتور هوجو» فقد رآها شاعرنا العبقرى تقوم خير قيام بفصوله ومناظره التى تعب فى تنسيق مبانيها ، واحكام معانيها وتمنى من كل قلبه ان يكلف المسرح من يجيد تمثيلها . كما أجاد هو تأليفها . وقد وجدهــذه الضالة المنشــودة فى « جولييت » الرشيقة القد ، المشوقة القوام ، الخفيفة الروح . فسرعان ما حلت من فؤاده فى مكان مكين اخذ ينمو مع الزمــن حتى ملك عليه المسلك والزمام . أما هى ، فقد جذبتها فى الشاعر عبقريته وشهامته وكبرياؤه ، فسقط فؤادها أسيرا فى قبضة حبه ، لانها رأت فيه تحقيق خيالها الذى طالما حلمت به فى منامهــا

ويقظتها منذ زمن بعيد . والذى شجع « فيكتور هوجو » على اقتحامه ميدان هذا الحب الشاق المضنى، هـو انه كان يحس ان فؤاده لايزال يقطر دما من جراء عطف زوجته على محبها ـ سانت بوف ـ ورميهـا ـ فيكتور ـ بالوحشية والاستبداد ، فاحب ان يسرى عن هذا الفؤاد الكليم فأصغى الى صوت هذه الشابة التى تحوم حوله فى خفر واستحياء واجاب على عاطفتهـا الحادة بعاطفة اكثر منها حدة وحماسا لانه قال فى نفسه : ان قلب زوجتى قد انفصـل من قلبى وتركنى وحيدا دائما فى صحراء الحياة ، وما دام فؤادى عاجـزا عن ان يحيا وحيدا ، فما الذى يمنعنى من أن أرحب بهذا القلب المغرم الذى يعرض نفسه على عرضا ؟

ثم لبى دعاء هذه الشابة ومنحها من قلبه كـل ما يتطلبه سلطان الغرام من الحب الموتور للحبيب البرىء الجديد . وهكذا اصبحا حبيبين بكل ما تحمل هذه الكلمة الخطيرة من معان ودلالات. فسلمته هذه الشابة المسكينة حياتهـا وعقلهـا وعواطفهـا وفؤادها وجسمهـا واصبحت عن طيب خاطر لاتحس الا باحساسه ،ولا تشعر الا بشعوره ، ولا تفكر الا بمنطقه ، ولا تسير الا بارادته ، واعترفت له بما لحق بعفافها فى المـاضى من مخاز ومخجلات آملة أن يحمد لها صراحتها ، ويغفر لها زلتها ، ولكنه لم يفعل ، لانه شاعر لا يطلب بخياله ما هو دون المثل الاعلى سموا وارتفاعا .
فكان ماضى ـ جولييت ـ المخجل الحزين يمر من حين الى آخـر فى صورة سوداء قاتمـة امام نور حبهما فيحول بين اشعته الخالدة المتلالئة وقلب الشاعر المتوثب الطموح فيرمى حبيتـه بالفاظ جارحة وعبارات مهينة ينفطـر لها قلبها البائس ، وتذوب منها حبات فؤادها المحزون فلا تجد هذه المسكينة امامها الا الدموع تذرفها حارة سخينة ، والزفرات تصعدها ملتاعة مكتئبة ؟ وهذا هو كل ما تملك المرأة الضعيفة من اسلحة النضال ، واخيرا وبعد لاى شـديد عفا شاعرنا عن سقطات عشيقته ، وغفر لها كل ما يتعلق بماضيهـا . واذ ذاك اصبح حبهما رباطا مقـدسا لا تشوبه شائبة ، ولا تعكر صفوه اهانة ولا تأنيب ، وقد اصبحت منذ ذلك الحين ـ امبراطورة ـ قلبه ومعزيته الوحيدة على نكبات

الدهر وكوارث الايام ، واخــذا يتساقيان - اذا اجتمعا- كؤوس الحب مترعة صافية ،ويتبادلان - اذا افترقا - رسائل الوجـد حادة ملتهبة ، وفى ذلك الوقت كتب - فيكتور هوجو - اجمل ماله من قصائد ومقطوعات . وكان يقسم ايامه الى شطرين يقضى أحــدهما فى منزلة الشرعى بين زوجته واولاده الودعاء الهادئين ويمضى الثانى بين ذراعى هذه العشيقة المغرمة الوالهة

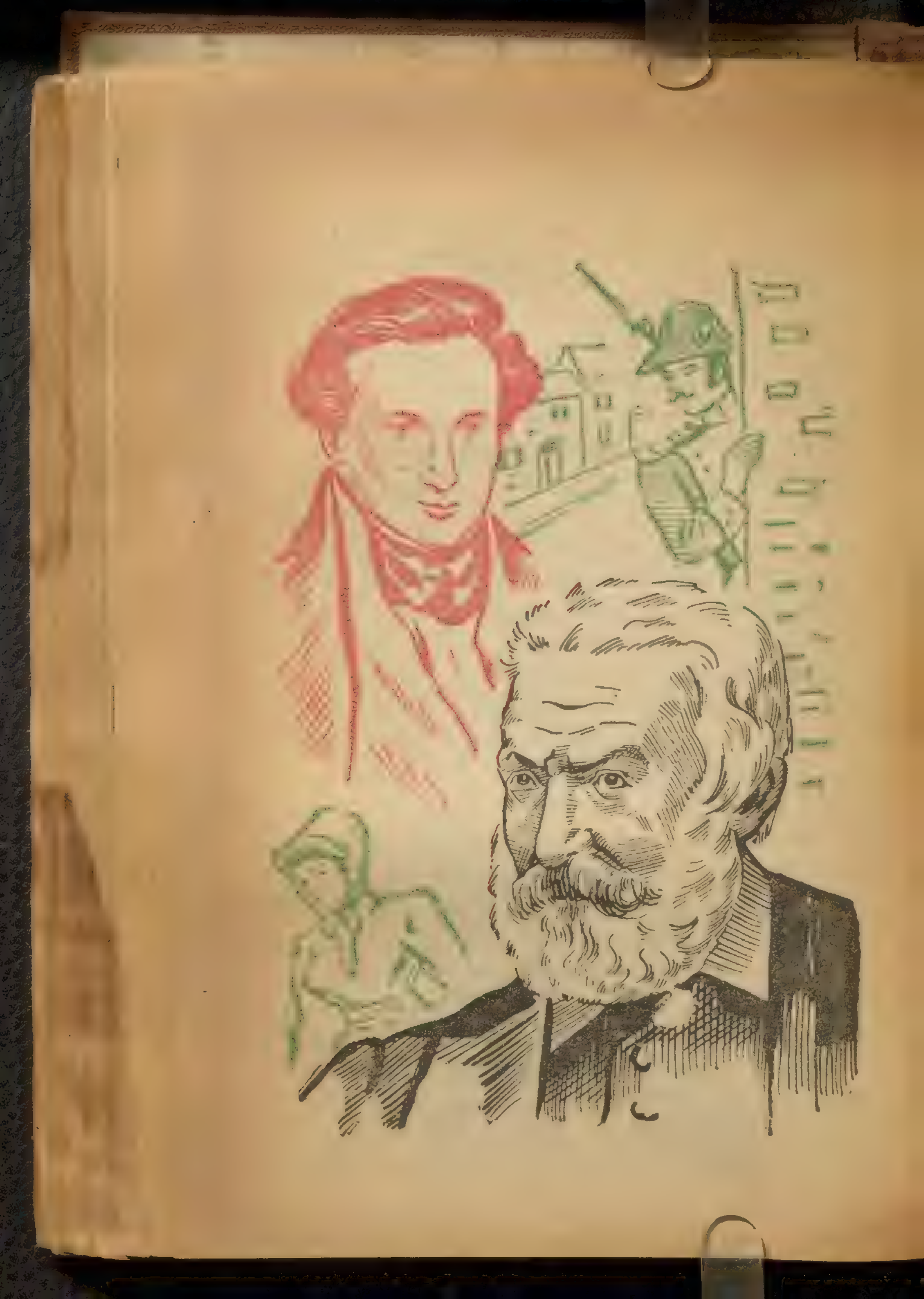
ولما علمت زوجته بنبأ هــذه الصلة المخجلة ، انكسر قلبهــا وتملكتها الخيبة ، واستولى عليها اليأس المضنى ، ولكنها احتملت ذلك صابرة مســتكينة ، وظلت عاكفة على تربية ابنائها فى هدوء يشبه سكون اهل القبور ،وهبت تحمل فى قلبها لهذا الزوج الخائن آيات الوفاء والاخلاص : اما هو فقد انطفأ سراج حبها من قلبه ولم يعد يحمل لها غير نوع من المجامله العادية التى توجد فى قلوب الاصدقاء الثانويين

ولما جرحت هذه السيدة فى عزتها بخيانة زوجها اياها ،فقد سمحت لـ - سانت بوف - أن يراها علنــا من حين الى حين ، واخذت تصغى الى صوت قلبه المغـــرم وتعطف على دموعه السخينة وتعمل بنصائحــــه المطلقة لآلامها ولم يتعد ذلك عند الاغلبية الســاحقة من مؤرخى الادب الفرنسى ، اما الاقليــــة الضــئيلة منهم فانها ترى ان الســـيدة - اديل - قد سلمت جسمها الى - سانت بوف - فى ايام محنتها . ويســتندون فى ذلك الى تلميحــــات وردت فى صحائف كتبها - سانت بوف - نفسه وان كان حين ســئل عن ذلك نفاه نفيا باتا ، واقسم بكل محرجة من الايمان ، وأكد بكل مقنعة من الحجج انه لايقصـــد بهذه الصحائف - مدام هوجو - وانما يقصد غانية اخرى . وهكذا ترك الناس بين مصدق ومكذب

ومهمـــا يكن من الامر ، فان - مدام هوجو - بالرغم من خيانة زوجها اياها ظلت ساعده الايمن الذى يعتمد عليه اعتمادا عظيما فى حياته الادبيــة ، وبقيت كلفة كما كانت بمجده وفخاره تتباهى تيها وعجبا بكوكب عظمته الذى اخذ يتألق فى سماء فرنسا

واما ـ جولييت ـ فقد اثرت ان تعيش فى الظلام ، لانها كانت تريد ان تتجنب الاختلاط بالناس خوفا من ان يجرحوها فى شعورها بذكر شيء من ماضيها أو حاضرها ، فرغبت فى العزلة وفضلت ان تكتفى برؤية حبيبها الشاعر وبالسفر معا الى بعض المدن والقرى الفرنسية للنزهة والهدوء فيها روحا من الزمن من حين الى حين . وكانت ـ اديل ـ كلما علمت بنبأ هذه الاسفار السعيدة المحسودة ، امضتها الغيرة واقضت مضجعها هذه الاهانة الصريحة الموجهة اليها من زوجها ، اما هو فكان سعيدا بهذه الرحلات التى كانت تمكنه من الاختلاء بحبيبته الفاتنة . ولكنه بينما كان ناعما باحدى تلك النزهات ، فاجأه نبأ وفاة ابنته الكبرى غريقة مع زوجها وكانت أحب أبنائه الى قلبه وأعزهم على نفسه ، فترك موتها فى فؤاده جرحا لا يندمل ، وفى مزاجه حزنا لا تخف وطأته . وبالرغم من ان حبه لـ ـ جولييت ـ كان لا يزال فى عنفوانه ، فقد وقعت له حادثة غرام جديد مع سيدة اخرى تدعى : ـ مدام بيار ـ ولكن صلته بها لم تدم طويلا ، لانه لم يلبث ان هجرها وعاد الى حبيبته ـ جولييت ـ

وفى سنة ١٨٥١ كان الحبيبان على أتم ما يكونان صفاء ووئاما ، بل كانت عواطفهما الغرامية فى قوة لم يريا لها نظيرا . وفى هذا التاريخ عينه استولى ـ نابليون ـ الثالث على الحكم واذ ذاك ذهب ـ فيكتور هوجو ـ مدافعا عن الحرية ولم يقف فى صفوف الشعب فحسب ، بل كان فى طليعة الداعين علنا الى الثورة والهياج وامر ـ نابليون ـ بقتله و وكل السائرين على خطته الثورية ، ولما علمت ـ جولييت ـ بهذا النبأ طار من رأسها طائر التعقل والاتزان ، فخرجت هائمة على وجهها تذرع شوارع باريس طولا وعرضا مدى ثلاثة أيام كاملة والغم والحزن يعسكران فى انحاء قلبها المناع ، وفى نهاية اليوم الثالث ظفرت بهذا الحبيب العزيز فاخفته عن اعين الناس جميعا ، ونجته من الموت المحقق فكان مدينا لها بحياته كما كان الادب الفرنسى مدينا لها بتلك المؤلفات الخالدة التى انشأها ـ فيكتو هوجو ـ بعد هذه



الحادثة ، ولولانشاط ـ جوليت ـ ووفاؤها لحبيبهـــا ، لما نعمت
ولقـــد سـجل ـ فيكتـورالنفيسة .

ولقـــد سجل « فيكتور هوجو » نفسه فى أحد كتبه هذه اليد البيضاء التى انقذته من ذلك الخطر المحقق فقال : ـ اذا كان لاحد فضل على فى انقاذ حياتى من الاعدام فانما هو للســيدة ـ جولييت ـ التى شقيت شقاء مضنيا فى سبيل الوصول الى ، وانا فى معمعان المعركة الثورية ولم يكن من السهل الاهتداء الى مكانى ولكن هذه السيدة قد استعملت كل الوسائل الممـــكنة وخدعت المخبرين والجواسيس ومكنتنى من الاختفاء عن اعينهم اليقظـــة الحريصة .

وفى سنة ١٨٥٢ اســـتقر ـ فيكتور هوجـــو ـ فى منفاه ولحقت به اسرته ، واتخذوالهم مسكنا متواضعا فى تلك الجزيرة النائية ، وعلى القرب من هـــذا المنزل الاسرى ، كانت السيدة ـ جولييت ـ تقيم فى ـ فلتها ـ الصغيرة ، تســتطيع ان ترى حبيبها على بعد فى كل صباح وهو يشتغل فى غرفته الزجاجية التى كانت فى اعلى منزله ، اما فى المساء فكان يذهب الى منزلها ، ليقضى عندها طرفا من الليل وحده حينا وفى جمع من اصدقائه وابنائه حينا اخر . وكان كثيرا مايخرجان الى النزهة منفردين ، فاذا عاد الى المنـزل جلسا يقـرآن تارة ويملى عليهـــا شعره او نثره ، لتنسخه له تارة اخرى

وهكذا كان لـ ـ جولييت ـ او الملاك الوديع كما كان يسميها الفضل الاكبر والمعونة العظمى فى اعـداد كثير من الكتب الرائعـة التى ظهرت فى المنفى . وبالرغم من ان المنزلين كانا متجاورين فان السيدة . ـ جولييت ـ لم تذهب مرة واحدة الى منزل الاسرة ، لانها كانت تشعر بشىء من الخجل يمازج نفسها من هذه الجريمة وقد دعتها الســـيدة ـ اديل هوجو ـ فى احد الايام بخطاب مؤثر ، لتزورها فى منزلها فرفضت لانها لم تجرؤ على الذهاب

ولما عاد ـ فيكتور ـ الى فرنسا سنة ١٨٧١ كانت الشيخوخـة والحزن قد اثقلا كاهله وحطما قوته ، لان زوجته كانت قدماتت

منذ سنة ١٨٦٨ وكذلك اولاده الكبار فلم يبق له الا طفلان صغيران من انتاج الشيخوخة فظل يساكن السيدة جولييت المقيمة على حبه والوفا له حتى قضيا نحبهما فى سنة ١٨٨٢ وكأنما كانا على موعد ، فقد سبقته الى العالم الاخر بعشرين يوما حيث غادرت - جولييت - الحياة فى اليوم الحادى عشر من شهر مايو ، ولحقها هو فى اليوم الثلاثين من ذلك الشهر

مسرحيات فيكتور هوجو

ليست محاولتنا بسط الناحية المسرحية من نواحى - هوجو - فى هذا الفصل ناشئة عن كون هذه الناحية اقوى نواحى ذلك الكاتب العبقرى والشاعر المبدع كلا ، فهى اضعف نواحيه وابعدها عن مواطن العبقرية والخلود . وانما اردنا ان نمر هنا بهذا الجانب لاننا نعالج المدرسة الرومانتيكية التى يعتبر ادب هوجو المسرحى فى طليعة منتجاتها ولهذا نحن سنقتصر على نقد ذلك الجانب من جوانبه المترامية الاطراف .

تتلخص هذه الدرامة فى أن الشاب ديديه يحب الفتاة « ماريون ديلورم » على غير علم منه انها خليلة « ريشيليو » . وبعد ذلك يدخل هذا الشاب فى مبارزة مع احد خصومه على الرغم من امر « ريشيليو » بتحريم المبارزة فيأمر هذا « الديكتاتور » بالقبض عليه ، ولكن حبيبته تسهل له طريق الخروج ؟ فاذا خرج من السجن علم ان هذه المحبوبة تخدعه وانها خليلة لـ « ريشيليو » فلا تقبل نفسه ان تنجيه من السجن امراة ساقطة ، فيسارع الى تسليم نفسه للقضاة ، بيد ان هذه المحبوبة تسعى حتى تستصدر أمرا من الملك « لويس الثالث عشر » بالعفو عنه ، ولكن « ريشيليو » يعود فيستعمل سلطته التى لا تحد ، ويستصدر امرا اخر من الملك باعدامه ثم ينفذ فيه هذا الحكم بعد ان يغفر لـ « ماريون ديلورم » خديعتها

واهم ما تمتاز به هذه الدرامة هو ان بعض فصولها مؤثر كل التاثير : والبعض الاخر غاية فى الفصاحة والبلاغة ، وانها تحوى

صورا فاتنة ، ولوحات ساحرة ،أما الحقيقة التاريخية فقدخنقت فيها خنقا قاسيا لا رحمة فيه ولا اشفاق ، على ان « فيكتور هوجو »ليس هو الوحيد الذى اساء الى الحقائق التاريخيةعامة، والى « ريشيليو » خاصة ، بل ان كثيرا من كتاب هذا العصر قد نهجوا هذا المنهج المعيب كما سنوضح ذلك فيما بعد عند حديثنا عن بقية زعماء المدرسةالرومانتيكية .

هيرنانى

ظهرت هذه الدرامة على مسارح باريس للمرة الاولى فى ٢٥ فبراير سنة ١٨٣٠ وكان يوم ظهورها يوما مشهودا ، لان المعركة الفاصلة التى انتصرت فيها « الرومانتيكية » على «الكلاسيكية» قد حمى وطيسها.واشتعل لهيبها المدمر منذ هذا اليوم

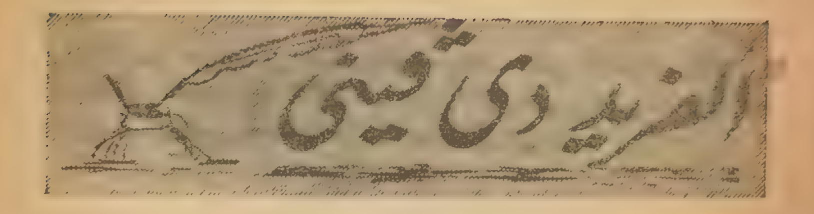
ومن أراد أن يرى هذه المعركة فى صورتها الفاتنة فليقرأ ما كتبه عنها « تيوفيل جوتييه » فى كتابه « تاريخ الرومانتيكية »

لهذا كله كان تاريخ ظهور « هيرنانى » يوما مشهودا ، لانها كانت اولى الدرامات التى فازت برضا المسارح والجماهير فى ذلك العهد . وتتلخص هذه الدرامة فى ان « هيرنانى » وهو احد امراء اسبانيا فى القرن الثامن يلتحق بعصابة شريرة ليتمكن من تنفيذ رغبته فى الانتقام من الملك وكان هذا الامير الشاب يحب فتاة تدعى « دوناسول » وكانت مخطوبة لدوق شيخ ، فيتخفى هذا الشاب ويذهب فى صورة احد الغرباء ليرى حبيبته ، وبعد ان يتم له ما يريد يظهر شخصيته للدوق ، فينجيه هذا الاخير من الملك ، ولكن بعد أن يأخذ منه وعدا بأنه لا يتأخر عن الانتحار فى اليوم نفسه الذى يأمره فيه « الدوق » بمفارقة الحياة ، وبعد ذلك يعفو عنه الملك ويرد اليه جميع القابه وحقوقه التى سلبه اياها ، وليس هذا فحسب ، بل يأمر بأن تسلم اليه حبيبته ليتزوجها فيفعل ، ولكن الغيرة تأكل قلب « الدوق » فيصمم على ان يأمر الشاب بالموت فى يوم الزواج نفسه ، ولا يتطلب ذلك منه اكثر من ان ينفخ فى الصور ، فلا يسع « هيرنانى » حين يسمع صوت

الصور الا أن يوفى بوعده ويبادر الى شرب السم وتتبعه زوجته فى ذلك فيموتان لساعتهما ، ثم يجىء « الدوق » فينتحر بدوره الى جانبهما . وتمتاز هذه الدرامة ببعض فصولها القوية الفاتنة كما تمتاز بان الملك فيها يشبه فى خيريته وتسامحه « اوجوست » فى ماساة « سينا » لـ (كورنى)

الملك يلهـو

تتلخص هذه « الدرامة » فى ان احد ملوك فرنسا - وكان ماجنا فاجرا لا خلق له ولا ضمير ولا يعرف من امور الدنيا اكثر من ارضاء رغباته واشباع شهوته - له نديم من النوع المسف ، ولهذا النديم ابنة جميلة فاتنة فيحبها الملك ويحاول الاستيلاء عليها ، ويساعده ابوها على ذلك دون ان يقصد هذا العمل او يتنبه اليه ، وبعد أن يتم كل شىء وتصبح الفتاة بين ذراعى الملك يفيق الرجل من غفلته ، ويصمم على الانتقام لشرفه من هذا الملك المعتدى ولكن الفتاة تكون قد هوت فى فخاخ حبه فتتبهه الى ما يريده به أبوها من شر ، ولا تكتفى بهذا . بل تتزيا بزيه وتجلس فى مكانه لتتلقى طعنة والدها بالنيابة عن حبيبها ، ويحدث ذلك بالفعل . فتقتل هذه الفتاة المسكينة بدل عشيقها الماجن المعتدى ، وبطعنة من والدها الغافل الابله . فتكون صورة الفتاة فى الدرامة مثلا من التضحية . وصورة والدها نموذجا من نماذج الغفلة المسفة المضحكة ، وصورة الملك رسما من رسوم الانانية البغيضة . ويرى النقد البرىء ان هذه الدرامة قد اشتملت على شىء غير قليل من التكلف المذهبى الذى حال بينها وبين ارضاء الفن فى عدة مواقف



سوف لا احدثك هنا عن شاعر عادى كل ماله من ميزة انه يصوغ القريض فى عبارات عذبة ومعان رصينة ونظم موسيقى أخاذ كما هى ميزة الشعراء الموهوبين ، ولكنى سأمر معك بشاعر امتاز بأفكاره الفلسفية امتيازا لا يقل عن امتيازه فى الشعر الفنى . ذلك هو « الفريددى فينيى » الذى لم تعرف فرنسا مثله شاعرا منح من المواهب الشعرية ما يمكنه من ان يمزج بها الافكار الفلسفية العويصة مع الاحتفاظ بطابعها الشعرى وجمالها الفنى ، ورنينها الموسيقى . « الفريد دى فينيى » الذى جمع قوة المعانى الى متانة المبانى ، وضم عمق التفكير الى سحر الاسلوب وفتنه التركيب . ألفريددى فينيى الذى كان اسمى من ان ينحصر فى دائرة مذهب من المذاهب الشعرية واكبر من ان يقيد نفسه بغلال « الكلاسيكية » وارفع من ان يضع شعره الى أنانية « الرومانتيكية » ألفريددى فينيى الذى انتقى من كل شىء اصفاه وارقاه واتخذه له شرعة ومنهاجا يصوغ شعره على نسقهما . « الفريددى فينيى » الذى اغتذى بأدب الهيلين ، فعلا لفكره وسما خياله وصفت روحه حتى صارت ترى ان الارض لم تعد جديرة بسكناها ، فطارت الى جبل « الاولامب » لتقيم على قمته الى جانب « أبولون » ، و « اتينيه » و « أرتيمس » ، وارواح : هومير وهيزيود ، وسوفوكل و « أوربيد » حيث عالم الصفاء والنقاء والخلود

حيـاته :

ولد « الفريد دى ڤينيى » فى ٧ مارس سنة ١٧٩٧ من أسرة مستمتعة بلقب النبيل . وكانت امه قد وهبت ميزات جسمية وخلقية لافتة للنظر ، فورث منها هذا الغلام جمال ذلك الوجه الذى كان الناس فى عصره يسمونه بالوجه الملائكى كما ورث منها ذلك الخلق النبيل وتلك الشيم الوديعة .

ولما آنست منه اسرته الاستعداد الى بدء الدراسة المنظمة ألحقته باحدى المدارس فى باريس ، فاشتهر وهو فى دور التعليم الابتدائى بالنشاط والاجتهاد والصبر على العمل ؛ ولكنه قد رمى ايضا بالتشاؤم والانقباض من مبدا حياته ، ولعل علة هذا هى الحساسية المغالية التى كانت مستولية من نفسه على كل شىء حتى انه كان يخيل اليه ان كل ما حوله جارح لعزته مهين لكرامته .

بيد ان هذه الحساسية لم تيئسه من الحياة العملية ولم تقعد به عن الاشتغال بما يضمن له مكانته الاجتماعيه ، ففى السنة السادسة عشرة من سنه التحق بالجندية كما هى عادة الاشراف ثم لم يلبث ان اصبح ضابطا فى الجيش الامبراطورى ولكن شاعرنا لم يدم طويلا فى هذه الخدمة العسكرية ؛ لانه لم يكد يعلم بنبأ سقوط « نابليون » حتى فقد كل امله فى هذا السلك لانه كان لا يقبل ان يعيش ضابطا خملا كبقية ضباط الجيش ، وانما كان يريد ان يكون ضابطا ممتازا يسمو به نشاطه وأخلاقه الى اعلى المراتب وارقى الدرجات . ولما كان هذا التقدير فى رأيه قد اندثر بهزيمة « نابليون » فقد اسقط فى يده واخفقت اماله وصوب نظراته نحو الادب ولاسيما الناحية الشعرية منه .

وفى سنة ١٨٢٢ نشر اول مجموعة من شعره ، فكان حظها الخفوت والاخفاق : بل قد قيل عنها انها مرت بالبيئة الادبية مرورا لم يلمحها فيه أحد ثم اختفت كأنها لم تكن فلم يقنط الشاعر الشاب من هذه النتيجة السيئة وظل يعمل فى جد ونشاط على تحسين شعره ، غير وجل ولا هياب . وفى هذه السنة عينها اتصل اتصالا ادبيا بـ « فكتور هوجو » فكان ذلك عاملا من عوامل شهرته ورفع

اسمه ؛ اذ عرف منذ هذا الوقت لدى كثير من الاوساط الادبية بل اعلن بعضهم ان الاقدار قد اتت حديثا بعضو نافع للمدرسة « الرومانتيكية »

في سنة ١٨٢٣ سافر الى اسبانيا مع الجيش الذى كان قد بعث الى تلك البلاد ٠ ليعيد ملكها الى عرشه وليهدىء تلك الثورة العنيفة التى كانت قد اشتعل اوارها هناك كما اخذ ذلك لويس الثامن عشر على نفسه فلما وصل الى وادى « رونسوفو » علم ان مهمة الجيش قد انتهت وان الملك قد عاد الى عرشه فلم يجد صاحبنا ما يعمله فتلهى بتأليف قصيدة ذكر فيها حادثة قتل « رولان » ابن شقيق « شالمانى » الذى قتل فى هذا الموضع عينه ٠ بوساطة خيانة احد ضباط جيشه فجاءت هذه القصيدة غاية فى السحر والفتنة وظلت تعد من اعيان منتجات « الفريد دى فينيى » الى وقتنا هذا ٠ وعنوان هذه القطعة « الصور » ـ « النفير » ، وقد لحنت فى قطعة موسيقية لا تزال الى الان تجرى على اعذب الالسنة كما يجرى بها افتن الآلات والاوتار

وفى سنة ١٨٢٦ ، نشر كتاب « القصائد الاثرية والعصرية » ، وهو يحتوى على عدد غير قليل من القصائد الفاتنة مثل قصيدة « موسى » وهى تحتوى فكرة قيمة من الافكار الاجتماعية ، ملخصها : ان العبقرية تهيىء صاحبها دائما الى العزلة والالم ٠ وقصيدة « الوز » والفكرة التى ترمى اليها هى : ينبغى الاشفاق على الاثمين ٠ وكقصيدة اخرى اشاد فيها بالادب الاغريقى اشادة عظيمة وعنوانها « هيلينا » وقد نشر ايضا فى هذا الكتاب قصيدة النفير التى حدثتك عنها

وفى نفس السنة نشر رواية تاريخية قيمة على نهج مؤلفات الكاتب الانجليزى الشهير « والتر اسكوت » مؤلف رواية « ايفانويه » وهى من احسن ما انتجت الاقلام الانجليزية وقد تناول « الفريد دى فينيى » فى هذه الرواية تاريخ احدى المؤامرات الخطيرة التى وقعت فى عهد « لويس الثالث عشر » وكانت ترمى الى خلع « ريشيليو » الوزير الطاغية المعروف ومن مميزات هذه



الرواية انها كتبت بأسلوب نقي رصين . ولكنها من الناحية التاريخية لم تكن نزيهة كل النزاهة لان مؤلفها قد صور «سان مارس» المتآمر بصورة ملائكية لا تتفق مع الواقع كثيرا . وكان ذلك على حساب « ريشيليو »

وفي سنة ١٨٢٧ اصبح شاعرنا الشاب من اشهر اعلام المدرسة الناشئة واستقال من الجندية وفي هذا العام نفسه قد وقعت له حادثة غرامية قصيرة . موجزها انه اتصل بسيدة من كبريات اديبات فرنسا في ذلك العهد وهي السيدة « ديلفين جيه » التي اشتهرت بعبقريتها وجمالها .. وسرعة خاطرها وكانت تلقب بـ « ملهمة الوطن » وكانت هذه السيدة قد احبت احد كتاب العصر المعروفين وهو « اميل دي جراردان » فلم تصغ الى عواطف « الفريد دي فيني » واهملته اهمالا تاما فلم يضعف وعمل على نزع هواها من قلبه فوصل الى نسيانها نهائيا

وفي سنة ١٨٢٨ تزوج بفتاة انجليزية تدعى « ليديا بون برى » وهي من اسرة ماجدة نبيلة وظلت معه حتى الموت ولكن هذا الزواج لم يكن موفقا ولا سعيدا . لان الزوجين لم يكونا متفقين في الميول والاهواء من ناحية ولان « الفريد دي فيني » لم يكن امينا لزوجته من ناحية اخرى . والذي ضاعف مجد شاعرنا هو انه في الوقت الذي نشر فيه قصيدته الشهيرة « موسى على الجبل » التي حدثناك عنها نشر « فيكتور هوجو » قصيدة تحت عنوان « موسى على النيل » وكانت الثانية الى جانب الاولى كالنجم الى جانب القمر في ليلة تمه ؛ فظهر الفرق واضحا بين العبقريتين الناضجة والناشئة .

ومنذ ذلك التاريخ سما « الفريد » الى اعلى المنازل الادبية في نفوس الجميع واستحق الاجلال من الكبير والصغير الى حد ان « سانت بوف » الناقد العظيم كان يدعوه « الالهى او الطائر النقى » . وفي هذا العهد عينه بدأ اوار الحرب يشتعل بين المدرستين « الكلاسيكية » و « الرومانتيكية » وكان طليعة

جيش الثانية « فيكتور هوجو » و « الفريد دى فينيى » فنشر الاول فى سنة ١٨٢٧ مقدمة « كروموبل » التى سحب فيها « راسين » و « كورنى » و « بوالو » على وجوههم فى التراب كما يعبر الفرنسيون وفى سنة ١٨٢٩ ترجم « الفريد دى فينيى » رواية « عطيل » لشكسبير وقدمها الى فرقة « الكوميدى فرانسيز » فكان ذلك بمثابة طعنة نجلاء صوبها الى قلب المدرسة « الكلاسيكية » لان ترجمة اسفافات « شيكسبير » الى الادب الفرنسى كانت اول نقطة سوداء التصقت به . وقد اعتبر النقاد الفرنسيون ان طليعة ما اصاب ادبهم من انحطاط كان من تأثير ادب « شيكسبير » وفى سنة ١٨٣١ قدم رواية ثانية تاريخية ولكنها لم تحظ بالنجاح . وفى سنة ١٨٣٥ نشر رواية « شاتيرتون » التى نالت من النجاح مثل ما نالت مسرحية « كورنى » ليسيد التى سنحدثك عنها حين نعرض لـ « كورنى »

وقد استقى شاعرنا هذه الرواية من كتاب ترجمه هو عن الانجليزية يسمى « ستلو » أو « الشيطان الازرق » وتعتبر هذه الرواية مجموعة من التاريخ والفن القصصى والحزن العميق . وقد صور لنا الشاعر فى هذه الرواية بطله « شاتيرتون » مسحوقا باقدام المادية الدنيوية بل مثال الشخص المعذب عذابا دائما . وتمتاز هذه المسرحية بمحاوراتها العالية بين الضمير والقوى النفسية الاخرى وهذه ميزة لا يستهان بها ، بل هى التى جعلت رواية « شاتيرتون » لا تقل قيمة عن رواية آلام « فرتر »

بيد أن هذا المجد المؤثل لم يدم طويلا لان الشاعر لم يلبث ان ختم حياته التأليفية الادبية بكتاب نثرى عنوانه « العظمة والخدمة العسكرية »

وظل بعد ذلك ثمانية وعشرين عاما لم ينشر أثناءها الا بضع قصائد قليلة مثل : « جبل الزيتون » و « منزل الراعى » فأذاع أعداؤه ان انتاجه قد نفد ، وان رأسه اصبح قاحلا مجدبا ، وظل الناس على هذه العقيدة حتى مات « الفريد دى فينيى » فانكشف بموته القناع وايقن الجميع انهم كانوا على خطأ وضلال فى رميهم اياه بالجدب والاقحال وتبينوا أن قول « سانت بوف »

« ان الملاك الطاهر » يعنى ألفريددى فينيى » قد شرب خلا ؛ فأصبح رأسه عقيما » . كان قولاغير صحيح فوق انه كان مبعوثا بباعث الحسد والشمانة . وليس هذا غريبا اذ قد تبين لهذا الشاعر التعس بفضل المصائب - وهى خير محك - ان اكثر اصدقائه كانوا خونة او على الافل غير اوفياء . اما السبب الذى حداه الى هجران النشر فى هذه الثمانية والعشرين عاما الاخيرة من حياته ، فهو انه أحب حوالى سنة ١٨٣٥ ممثله تدعى السيدة «دورفال» كانت قد قامت بتمثيل أحد المناظر فى روايته الاخيرة « شاتيرتون » فافتتن بها افتتانا ملك عليه كل نواحى حياته حتى أصبح غير متصرف فى نفسه امام هذا الحب القاهر ، لكن هذا الغرام الفتى القوى لم يلبث ان تحطم امام خيانة من جانب تلك الممثلة اللعوب : فلم يكن من شاعرنا الا ان كبت عواطفه فى قلبه المتصدع واضحى لا يحتمل منظر الناس ولا يطيق أن يرى من بنى البشر الا زوجته الهادئة الطيبة القلب ، وليس هذا هو كل شيء فى تلك الحادثة ، وانما هو قد أبغض النشر وصار لايكترث بالشهرة ولا بالمجد ولكنه كان فى كل هذه المدة يكتب وينتج خير ما فى مكنة القرائح البشرية ان تنتجه . فمن مؤلفات هذا العهد كتاب الاقدار الذى نشر بعد موته وهو يحتوى على ادق واعمق المسائل الفلسفية التى بدأ الشاعر بالتفكير فيها فى قصيدتى : - موسى - و - ايلوا - وظهر نضوجها وسطوعها فى هذا الكتاب ومن مؤلفات هذا العصر الخطيرة مذكراته اليومية التى ظل اربعين عاما يدون فيها كل احداثه يوما بعد يوم ، ولكن هذه المذكرات لم ينشر منها تنفيذا لوصيته الا بضع قطع اجاز نشرها ومما يلفت النظر فى هذا القسم من حياة - دى فينيى - هو أنه كان يعيش عيشة المتنسكين الروحيين حتى قال عنه - اسكندر دوماس - الاكبر انه يعد من الغرائب مشاهدته - الفريد دى فينيى - يأكل لانه يتصوره ملكا سمت به ملائكيته عن المادية .

واخيرا وبعد كل هذا اصيب شاعرنا بسرطان فى المعدة قضى عليه وهو فى احدى رحلاته الى باريس فى سنة ١٨٦٣ فانطفأ منذ هذا التاريخ ذلك المصباح الذى كان ينير عالم الكتابة والتأليف

منتجاته :

قبل ان نعرض لهذا الجانب من جوانب حياة - ألفريد دى فينيى - يجب أن نشير الى انه كان اول من خلق ذوق صوغ الافكار الفلسفية فى شعره . وانه اعلن ان الشاعر لا يجدر بهذا الاسم الا اذا كان فى شعره مبتدعات خاصة به ، وافكار وانفعالات مستقلة ، لانه حين ذلك يكون قد برهن على انه يستطيع ان يهضم العالم كما هى مهنة الشاعر الحقيقى ، ولكن لا ينبغى ان تتصور ايها القارىء اننا سنجد لدى - الفريد دى فينيى - مذهبا فلسفيا محددا ، وانما كل ما هنالك هو انه كان يأتى بافكاره فلسفية يصوغها فى اسلوب شعرى رائع ثم يخرجها للناس ليستفيدوا بما فيها من معارف نافعة وعنده ان المعنى مقدم على الاسلوب ، وهو لهذا لم يثبت عنه انه ضحى مرة واحدة بالمعنى وحده ان وقع بين منتجاته شعر ضعيف ، لانه كان يرى ويقول دائما - ان الفيلسوف خير من النظام - ومما لاشك فيه ان مجده لم يلحق فى عالم الشعر مجد - هوجو - او - لامارتين - وان كان شعره اعمق وابعد نظرا من شعرهما . واليك نماذج من هذا الشعر القوى الرصين .

القصائد الاثرية والعصرية :

احتوى هذا السفر على افكار فلسفية قيمة نتجت للشاعر من حوادثه الخاصة ، فمثلا : لما كان مؤملا فى المجد والعظمة ثم اخفقت اماله ، استنتج من هذا ان العبقرى الموهوب مقضى عليه بالعزلة والالم ، لانه فوق البشرية فيجب أن يمتاز عنها بمرافقة الالم بيد ان هذا الالم مهما عظم شأنه لا ينبغى ان يعوق الانسان عن اداء واجبه . وقد تمثلت هذه الفكرة العظيمه باجلى مظاهرها فى - قصيدة - موسى على الجبل التى نترجم لك منها مايلى : -
ان موسى النبى المئوى والمحاط بهالة من الشرف قد صعد على الجبل ليكلم ربه بينما كان الجيش كله واقفا ينتظر ، فلما مثل بين يديه قال له مولاى الم تنته مهمتى بعد ؟ اين تريد ان اذهب بعد الان هل سأعيش طول حياتى منعزلا ، دعنى انم نوم اهل الارض ، ان

ملائكك يغبطونني ويعجبون بي فيما بينهم ؛ ومع ذلك يامولاى انا لا اشعر بالسعادة ؛ انك حين اخترتني نطق الذين حولي قائلين: أن هذا الشخص لا يشبهنا في شيء ثم لم يلبثوا أن خفضوا أعينهم أمام عيني اللامعتين ،لانهم كانوا يقرأون فيهما أكثر مما تحتمله طبيعة الانسان • ولهذا فقد رأيت حبهم اياى بدا ينطفيء وصداقتهم لى أخذت تجف لاني أصبحت أغايرهم كل المغايرة ، فياموﻻى دعني أنم نوم أهل الارض الهاديء ! »

فأجاب الاله دعاءه ثم رفعه من فوق الجبل الى حيث لايعلم الا الله مستقره وقد استخلف على الناس واحدا غيره ؛ ليكون بعده على الجيش العبري وهو النبي يوشع • فلما وقف الزعيم الجديد في ذلك الموقف الحرج المفعم بالمخاطر والاهوال ورأى نفسه وجها لوجه امام الواجب القاسي • احس بنفس المسئولية التي كان سلفه موسى يحس بها. فتقدم الجيش ممتقع اللون ، مشغول البال ؟ حزين القلب لهول التبعة الملقاة على كاهله والناس من حوله يعتقدون انه سعيد بمنصب الرياسة الجديد»

وهكذا استطاع « الفريد دي فينيي » أن يرسم في هذه القصيدة صعوبة الواجب ومسئولية القائمين به • ولا ريب ان هذا التصوير الدقيق يذكرنا بقول « كانت » الفيلسوف الالماني العظيم : « ايه ايها الواجب ،انت لاتقدم الى الانسان سرورا ولا لذة ، بل بالعكس ؛ انت تتعبه وتشقيه ؛ ولكنك في مقابل ذلك تعلمه الاستمتاع بحريته والمحافظة على كرامته » واذا تركنا هذه القصيدة جانبا وعرجنا على قصيدة (ايلوا) وجدنا بين سطورها من الافكار الفلسفية المصوغة في الاساطير والخرافات ماهو جدير بالدرس والتحليل؛ ونتلخص هذه القصيدة فيما يلي : لما رأى المسيح صديقه ميتا ، بكى وسكب على جثته دمعتين حارتين فخلقت منهما ملكة جميلة طاهرة ثم صعدت الى السماء العليا ؛ وهناك سمعت بقصة ابليس وما ناله من الطرد والحرمان فأخذتها الشفقة عليه الى حد ان استولت على قلبها الكآبة ، وخيم عليها الحزن والاسى ؛ فضاق صدرها

بالبقاء فى السماء فنشرت جناحيها وألقت بنفسها فى الفضاء فهوت الى السماء الدنيا ، وهناك التقت بشخص على صورة ملك جميل فسألتـه عن سبب وجـوده فى هذا المكان فاجاب قائلا : انى من اعظم الملائكة شأنا واجلهم منزلة، ولكنى احب الانسانية حبا دفعنى الى الاشفاق عليها مما تقاسيه من الآلام والاحزان ، وقد اعلنت هذا ، فغضب الاله على من اجل هذه العاطفة وحكم على بالبقـاء فى السماء الدنيا ثم اخذ يستعطفها ويرجوها ان تسرى عنه شيئـا مما يقاسيه ، فرق قلبهـا له واعتزمت ان تقيم معـه لتخفف من فؤاده بعض ما فيه فلما انس منها ذلك اشار اليها ان تتبعـه ففعلت • فلما بدآ فى المسـير سألته قائلة : الى اين تقـودنى ايها الملك الجميل : فقال بصوت متهـدج • تعـالى ؟ استمرى فقالت : اى صـوت حزين ؟ !وأيه حال مكتبئة ! ؟ انى ظننت انى ببقائى معك قد انقذتك من مخالب هذا الحزن فلماذا انت حزين ؟ فقال فى صـوت جاف حزين قاس : كلا كلا ، انت لم تنقذينى ، ولكنى انا الذى اغويتك وهويت بك الى ما اريد ، والآن لم يبق على الا ان آخذ ضحيتى فقالت : ويلاه ! لقد كنت أتخيل انك خير طيب القلب ، فماذا انا فعلت ياترى ؟ فقال : لقد فعلت جريمة • قالت جريمة ؟ ! ولكن هل استطعت ان اصيرك سعيدا ليعزينى ذلك عما سقطت فيـه من اثم لم اكن اقصد من ورائه الا اسعادك فقال : انا الآن اكثر حزنا من ذى قبل قالت : من انت اذا ؟ قال انا ابليس ! » ولما وقعت لشاعرنا تلك الحادثة الغراميـة التى اسلفنا لك الحـديث عنها تضـاعف حزنه وزاد اكتئـابه وحمل اقسى انواع الحقد واشنع الوان الحفيظـة للاقدار والحب والانسانية واخذ يطعن عـلى الجميع فيرمى الانسانية بالضعف والاقـدار بالعمى والصـمم ، ويصف الحب بانه خدعة زائفة لاحقيقة لها ولا ثبات ولا قاعدة، واخذ ينفث احقاده هـذه فى قصائده ولا سيما منها الاخيرة التى نشرت بعد موته • وممـا جاء فى قصيدته التى عنوانهـا (الاقدار) والتى حمل فيهـا حملة شعواء قاسية على عقيدة القضاء والقدر فى الكاثوليكيـة ،

وتهكم بقول المسيحية « ان الانسان حر ، خاضع لقدر الله »
وهو يقول : ان هاتين الجملتين مختصمتان خصومة لايمكن
التغلب عليها اما هذا الانتحال الذى يخلفونه ليوفقوا به بينهما
وهو قولهم : ان الانسان حرحرية محدودة ، فمثله فى رايى
كمثل من يربط انسانا بحبل ثم يقبض طرف الحبل ويرسل هذا
المربوط التعس ، ليسير كمايشاء ، ولكن فى حدود طول
الحبل لا أكثر . فهل يقال لهذا المسكين انه حر ؟ طبعا : لا ، ولكن
ما اشقى بنى الانسان وما اجهلهم وما اشبه حاضرهم بماضيهم ،
بل ان حاضرهم أتعس وأكثر ظلاما من الماضى لان المسألة لم
تعد ان ورثت اوربا فى خضوعها لقدر المسيح - الشرق فى خضوعه
لقدر الاله (١) فالامر فى باطنه واحد ، وفى ظاهره زاد ضعفا
وسخطا وبعدا عن المنطق . فالرجل العاقل لاينبغى ان يعتمد
على تلك الاسطورة الفارغة السخيفه التى تزعم الكاثوليكية
انها خالدة الا وهى : « كل شىء مكتوب منذ الابد » دافع « دى
فينيى » دفاعاً قويا عن الكرامة الانسانية وصورها تصويرا
مشرفا فى قصيدة «موت الذئب» اذ يرسم فيها ذئبا مائتا ووضع
على وجهه كل علائم العظمة والاحتفاظ بالكرامة الى درجة
ان الدم كان يسيل من فمه وهو ينظر باحتقار الى الصياد الذى
قتله والى بقية الحاضرين . والفكرة الجوهرية التى يرمى
اليها الشاعر فى هذه القصيدة هى ان التأوه والشكوى والبكاء
والرجاء براهين الوضاعة والسفالة . وتمتاز هذه القصيدة
بالرهبة والحزن العميق

ومما يلفت النظر عند (الفريد دى فينيى) فكرة التفاؤل والامل

---

(١) يقصد «الفريد دى فينيى» بكلمة الاله هنا اله اليهود الذى
صوروه فى كتابهم شريرا ، بل لصا ممقوتا يأمر نساء اليهود
أن يستعرن حلى المصريات بحجة حضور احداعيادهن ، ثم يأخذن
ذلك الحلى ويهربن به ليلا الى غير ذلك من النعوت التى تعالى
عنها الاله الحق علوا كبيرا . راجع سفر الخروج من التوراة

فى المستقبل الكونى والايمان بان الانسان سيتغلب على ما فى هذا العالم من شرور وسيئات وسيأتى حتما ذلك اليوم الذى تطهر فيه الحياة من الآلام والشقاء ، والذى ستسود فيه مملكة الروح وحدها . وهذه الافكار كلها تتمثل فى قصيدة «منزل الراعى» وهى احدى قصائده الفاتنة التى حوت مجموعة عظيمة من افكاره الفلسفية مثل اجلاله للشعر وتسميته اياه بـ « المأساة » التى تضىء نارها تلك الخطوات المتمهلة التى يخطوها العقل البشرى . واهم من ذلك عند « دى فينيى » ، وتقديسه للعلم الذى صوره لنا فى قصيدته الفاتنة « الزجاجة فى البحر » وملخصها ان ضابطا غرقت به السفينة فى البحر ، فلم يأسف على اكثر من معارفه التي كانت فى راسه ، فلخصها فى ورق قليل وضعه فى زجاجة محكمة الاغلاق فلما طغى البحر ، ابتلع كل ما فى السفينة من اناس وامتعة، ولكنه اجل الزجاجة فابقى عليها وتركها تتهادى فوق الماء حتى وقعت ذات يوم فى يدى صياد فاخرجها وهنا اخذ شاعرنا يناجى الصياد قائلا :

ايها الصياد ان هذه الزجاجة تحتوى على اكسير الحياة الذى تشربه الارواح ، فلو أن شبكتك اخرجت لك يوما كل ما فى المكسيك من ذهب ، وما فى الهند من ماس ، وما فى افريقيا من جواهر لكان عملك فى ذلك اليوم اقل قيمة منه الآن



أما هنا فسأحدثك عن كاتب فذ ، وشاعر ممتاز ، وهو ألفريد دى موسيه شاعر الحزن والالم ، شاعر العبرات والتنهدات ، شاعر الانات والتأوهات الذى يحس بدقات القلوب ، وخفقات الافئدة ، شاعر الحب والغرام ، شاعر الجمال والانسجام الذى يعرف كيف يصف اللقاء ولذته ، والفراق ولوعته ، شاعر الشباب الذى يستطيع أن يرسم العواطف الحادة ، والاحساسات الملتهبة ... ألفريد دى موسيه الذى اذا عرض لاى شأن من شئون الحياة صوره على لوحات قصائده الفاخرة ، ومقطوعاته الباهرة ، تصويرا لا يقل وضوحا عن تصوير ريشة رفائيل ، ولولا أن المجال لايتسع لترجمنا لك هنا نموذجا من هذه القصائد الفاتنة مثل (ليلة ديسمبر) أو (ليلة اكتوبر) اللتين صور فيهما للقارىء أعوام طفولته ، وسنى مراهقته ، وعهد شبابه ، ومبدأ رجولته ، وكثيرا من عواطفه ومشاعره ، وطرفا من أحداثه ومواقفه ، تصويرا يسحر القارىء ويفتنه عن نفسه ، ويذهله عن مصالحه الخاصه ومشاغله الضرورية ، ولكننا سنكتفى الان بأن نمر معك بحياته الاجتماعية والادبية مرورا سريعا ، لنضع بين يديك صورة صادقة لاحد أعلام القرن التاسع عشر ، لا فى فرنسا وحدها ، بل فى العالم كله ، واليك هذه الصورة :

انبثق ألفريد دى موسيه من أسرة عريقة المجد ، كريمة المحتد ، عالية العنصر ، متغلغلة فى غيابات الماضى البعيد نبلا وشرفا ، اذ قد بقى من آثارها المحققة ما يرجع تاريخه الى سنة ١٤٦٠ وقد كان فيها أصحاب الالقاب السامية ، وذوو المناصب الرفيعة ، فتنقل

مشاهير أعضائها بين وظائف القضاء ، ومناصب القيادات العليا للجيوش ، وتولى الكثيرون منهم بعض المراتب فى القصور الملكية والدوقية المختلفة • وقد كان أفراد هذه الاسرة البارزون معروفين شخصيا لملوك فرنسا ووزرائها من عهد بعيد • وقد تزوج أحد أجداد ألفريد دى موسيه بابنة شقيق «جان دارك» بعد صعودها الى أوج عظمتها ، وليس هذا بالشىء الهين أو اليسير ، على أن هذا الجد الذى تزوج ابنة شقيق «جان دارك» لم يكن صغير الشأن ولا خفيض القيمة ، وانما كان مستشارا لدوق (أورليان) •

لما التهبت الثورة الفرنسية كان عميد أسرة دى موسيه وفيا للملك والملكية ، فلم يسعه حين أعلنت الثورة الا أن يغادر فرنسا ففعل • وأما شقيقه الاصغر فقد ظل حيث هو لانه لم يكن من ذوى الشخصيات البارزة حتى يتوقع لنفسه الاضطهاد من الثائرين • وبما أنه لم يكن من كبار الاثرياء ، فقد اقترن بابنة أحد النواب المتوسطين المشهورين بذكائهم • وقد قطنت هذه الاسرة الصغيرة فى شارع متواضع الى جانب السوربون • وهناك ولد ألفريد دى موسيه فى سنة ١٨١٠ ، وكان طفلا جميل الطلعة حلو التقاسيم ، جذابا ، خفيف الروح يحبه كل من تقع عليه عيناه ، ويعتقد من يراه انه من سلالة الملوك والاباطرة ، وليس هذا خيالا من الكتاب والمؤرخين ، بل قد حدث بالفعل فى سنة ١٨١٤ حين كان ألفريد مع والديه فى مركبة فاخرة يقصدان السفر بها الى شرق فرنسا ، وكانت سن الغلام لاتزيد على أربعة أعوام ، فلم يكد القرويون يرونه حتى توهموا انه نابليون «الثانى» ابن الامبراطور نابليون الاول والامبراطورة «مارى لويز» كريمة امبراطور النمسا ، وهتفوا صائحين يدعون اخوانهم ومعارفهم لرؤية «النسر الصغير» ولى عهد فرنسا ، ولم يكن ذلك من القرويين عبثا ولا هوسا ، وانما حداهم اليه جمال طلعته ، واتساق تقاطيعه ، وانسجام تقاسيمه ، وسحر عينيه وفيضانهما بالنبل والوداعة •

ظلت والدته المثقفة الحكيمة هى أستاذته الوحيدة التى تلقنه كل شىء الى أن بلغ من السن سبعة أعوام ، وبعد هذا التاريخ أدخله

والده مع شقيقه الاكبر « بول دى موسيه » بنسيونا مدة سنة واحدة تلقيا أثناءها فيه التربية الخلقية والعقليه والجسمية على أستاذ ماهر • وبعد هذا العام ذهب الاخوان معا لزيارة عمهما وعميد أسرتهما الذى عاد الى فرنسا بعد أن وضعت الثورة أوزارها وهوى نجم نابليون ورجعت الملكية الى فرنسا • وكان لهما فى موطن أسرتهما عمة حادة الخلق شاذة الطباع ، جافة المعاملة تقيم مع أخيها فى المنزل الذى ذهب الغلامان لزيارة عمهما فيه • وكانت هذه العمة أول سيدة جافة الطبع وقعت عليها عينا (ألفريد دى موسيه) فأثر فى نفسه شذوذها تأثيرا عميقا ظهرت نقمته عليه فى قصائده فيما بعد •

وفى سنة ١٨٢٤ ألف ألفريد أولى قصائده فى الثناء على والدته العزيزة ، وأستاذته الجليلة • وفى سنه ١٨٢٦ أتم دراسته الثانوية وكانت سنه لا تزيد على السادسة عشرة ، وليس هذا هو كل شىء ، بل كان أحد طلائع المتفوقين فى المدرسة الثانوية الذين نالوا مكافأة الامتياز •

ولما أتم دراسته الثانوية صمم والده على أن يستمر فى السلك العلمى حتى ينال شهادة عالية كما يفعل أخوه الاكبر ، فلم يدر الفريد ماذا يختار من الكليات العالية ، وأخيرا قر رأيه على أن يدرس الحقوق فالتحق بكليتها ، ولكن هذه المواد العلمية التى يشوب بعض نواحيها شىء من الجفاف لا تتفق فى طبيعتها مع ميول شاب ملتهب العواطف ، حاد المزاج ، دقيق الشعور ، مفتون بالادب ، مغرم بالجمال ، مسحور بالغانيات قبل أن يختلط بهن أو يعرف من أمرهن كثيرا ولا قليلا ، فلم يكد يرى فى الحقوق تلك المواد التى تصدع الرءوس الشعرية الرقيقة حتى هجر الكلية بجسمه بعد أن هجرها بقلبه منذ اليوم الاول الذى التحق فيه بها ، ولكنه حين غادر دراسة الحقوق ، هوى فيما هو أكثر منها جفافا وبعدا عن طبيعته وتكوينه ، لانه التحق بكلية الطب ، فلما رأى للمرة الاولى فى حياته جثة آدمية فوق المشرحة لم يسعه الا أن يفر فى الحال مذعورا صائحا • ويا ليت الامر وقف عند هذا الحد ، بل ظل

بعد ذلك ليلتين كاملتين لا ينام ساعة واحدة الا ممتلئة بأحلام هذه الجنة المزعجة ، وكان ذلك طبعا آخر عهده بكلية الطب، وقد نشر أحلام هاتين الليلتين فى الصحف ، وسجلها فى القصائد والمقطوعات تسجيلا يدل على قدرته فى الادب ، وامتلاكه أعنة الجمل والعبارات .

هجر شاعرنا الشاب المدارس على اختلاف أنواعها وأخذ يختلف الى مجالس مشاهير الادباء فيسمع مناقشاتهم ويأخذ بحظ صغير أو كبير من آرائهم ، ويدلى فى منتدياتهم بشيء من أفكاره ، ويسمعهم طرفا من شعره ، فيظهرون اعجابهم به ويعلنون تنبؤاتهم بأنه سيكون من كبار شعراء فرنسا . ومن حسن حظه أنه كان صديقا عزيزا لـ«فوشيه» صهر «فكتور هوجو» فقدمه اليه والى تلك الجماعة المحدثة التى كان همها هدم المدرسة الكلاسيكية وتشييد الرومانتيكية على أنقاضها

لم تكن والدة ألفريد محزونة لمصيرة ، ولا آسفة على مستقبله، بل كانت سعيدة لاتصاله بأفذاذ الشخصيات المعروفة فى فرنسا من الادباء مثل « فكتور هوجو »و« سانت بوف » و « ألفريد دى فينيى » وغيرهم من ذوى الالقاب العالية فى الدولة مثل الامير « بيلجيوزو » و«الكونت دالتون سهيه » وقبل هؤلاء جميعا يعرف أحد الادواق الذين سيكون من بينهم ملوك فرنسا المنتظرون . وبالفعل قد جلس صديقه هذا على عرش فرنسا فى سنة ١٨٤٨ فدعا ألفريد وأسرته لمشاهدة حفلة تتويجه ، فكانت هذه الدعوة موضع فخار ومباهاة لدى تلك الام المفتونة بابنها الشاعر النابغ . وأما والده فقد كان ساخرا جهد طاقته من هذه المظاهر الخداعة التى لا تساوى أضعافها فى رأيه نجاح آنتقال بسيط من سنة دراسية الى السنة التى تليها ، وهو فى هذا كان ناقما على هذه الحياة الفارغة المترفة التى كان يحياها ابنه دون عمل منتج ولا شغل مفيد ، وكان يعلن دائما انه لا يرضيه من ابنه الا أن يعمل عملا نافعا فى الحياة ، فلما استيأس من سيره فى السلك

الدراسى ، صمم على أن يلحقه بالجندية ، وقد فعل ، فلم يسع ألفريد دى موسيه الا أن يذعن أذعن لامر والده ، ونزل عند ارادته آسفا محزونا ، لان هذا الامر الجديد كان بمثابه قفص حكم فيه بالسجن على بلبل شعره الصداح، وان كان لم يكلف فى حياته الجديدة بأعمال شاقة وتمارين متعبة ،وبالرغم من هذا فقد ضجر أديبنا الشاب ضجرا شديدا لانه أحس بأنه لم يخلق الا للكتابة والشعر وحدهما ، ولكن أباه لن يعفيه من الجندية الا اذا ظهرت له نتائج جيدة فى هاتين الصناعتين، فنشر أولى مجموعات شعره تحت عنوان «ماردوش» فى سنة ١٨٣٠، فلما ظهرت هذه المجموعة ، وجد النقد أنها غريبة فى بابها ، لانها قيمة المعانى ، محكمة البناء ، متينة التركيب ، ولكنها تحوى شيئا لا يستهان به من المجون والاباحية كما تضم بين صفحاتها عددا عظيما من براهين الموهبة النادرة ، والعبقرية الفائقة ، بيد انه ينبغى لنا أن نصرح بأن النقد لم ينل منها كثيرا ، لانها لم تكن كلاسيكية صريحة ، ولا رومانتيكية واضحة وهذا هو أهم أسباب عدم الحمل عليها ، بل نيلها الحظوة العليا من أنصار المدرستين

وفى سنة ١٨٣٢ نشر ألفريد قطعا تحت عنوان

Les Contes d'Espagne et d'Italie

فشجع ذلك بعض أصحاب المسارح فطلبوا اليه أن يكتب لهم قصصا تمثيليه ففعل ، وقدم قصتين لاحد أصحاب المسارح ، ولكنه أخفق فيهما كل الاخفاق لان الجمهور كان بازائهما كأنه يشاهد حوادث وقعت فى المريخ فلم يفهم منها شيئا ، ولم يتذوقها البتة ، فلم يسع مؤلفنا المسرحى الناشىء الا أن تخلى بتاتا عن هذا النوع من الكتابة ، وهذا مؤسف أشد الاسف ، لان قصصه فيما نرى كانت وشيقة فاتنة ، وفنية بارعة ، وكل ما كان فيها من عيب هو أنها كانت فيما نعتقد تفوق مدارك النظارة ومسارح باريس فى ذلك العهد .

ومهما يكن من الامر ، فان ألفريد دى موسيه قد تخلى عن القصص المسرحية المراد تقديمها الى أصحاب المسارح ، ولكنه ظل يكتب لنفسه ولقرائه ، وظل كذلك النقد ينهال عليه من كل

جانب ، وهو يوالى الكتابة والنشر دون اكتراث ولا مبالاة ، ودون صعود ولا هوى حتى نشر «سانت بوف» فى نقده وتقريظه مقالا فخما فى مجلة العالمين تناول فيه بعض منتجات الفريد دى موسيه، لكن ذلك المقال حدا فاصلا بين ماضى كاتبنا الشاب ومستقبله ؛ لان جريان اسم الفريد دى موسيه على لسان «سانت بوف» أو ذكر اسم هذا الكاتب الناشىء فى مقال ذيل بتوقيع هذا الناقد الجليل مجد مستقل وفخار عظيم ، ولم لا ؟ أليس مجرد النطق باسم «سانت بوف» معناه النقد الحاد والتحليل العميق ، بل أليست كلمه نقد فى ذلك العهد كانت مرادفه لاسم (سانت بوف) تمام المرادفة • واذن فتناول مجلة العالمين منتجات ألفريد بقلم سانت بوف معناه ان هذا الكاتب الشاب قد أصبح ممن يؤبه لهم فى باريس ، وهذا السبب هو الذى حدا بوالده الى السماح له بترك عمله فى الجندية، والتفرغ للكتابة والشعر ، فسر بعودة الحرية اليه سرورا عظيما ،وطفق يكتب وينشر ويتلقى من كل فج ضروب النقد وألوان التقريظ •

بدأ ألفريد دى موسيه منذ ذلك العهد يكتب فى مجلة العالمين مقالات مستفيضة فى موضوعات مختلفة ، وعن طريق هذه المجلة عرف السيدة « جورج صاند »الكاتبه المعروفة ، وكانت سيدة متزوجة تكبره بستة أعوام ،فاتسقت بينهما صلة المودة، وجمع قلبيهما رباط الالفة الادبية التى مازالت تقوى عند الطرفين حتى صارت حبا ولو من جانب السيدة جورج صاند على أقل تقدير ، وذلك فى آخر عهدهما الاول ،أما حين تعارفا فقد كانت عاطفته نحوها منصبه بالحب الحاد والغرام العنيف ، ولكنه لفرط حيائه الطبيعى كان يعلن اليها انه لايريد منها أكثر من الصداقة البريئة• ولما كانت هذه السيدة حادة المزاج ، قوية الروح ، وفيرة الذكاء ، واسعه الخيال من ناحية، ورأت فيه شابا ممتاز العقلية ، قوى الشاعرية ، نادر العبقرية من ناحية أخرى • وفوق ذلك فانه كان جميل الطلعة ، شيق المحيا ، خفيف الروح ، منظم الهندام كما قدمنا ، فقد أحبته هى كذلك وافتتنت به وكتبت الى صديقها سانت بوف أن صلتها بـ «الفريد دى موسيه» لا زيادة

بعدها لمستزيد • ولم تكن جوزج صاند اذذاك سيدة ساذجة عذراء القلب ، لانها بعد انفصالها من زوجها قد أحبت «جول صاندو» الذى لم يلبث أن هجرها واجتواها وتركها تهوى فى حضيض الالم والشقاء وأفهمها كيف يكون الجوى وعذاب البعاد، ثم اتصلت بعد ذلك بالكاتب الشهير «مريميه» الذى لم يفهم حقيقتها على ما هى عليه فكانت القطيعة بينهما سريعة سهلة غير مأسوف عليها• وكذلك شاعرنا الشاب لم يكن خالى القلب من ذكريات الغرام لانه كان قد أحب قبل هذه السيدة اثنتين ،فأما الاولى فهى ابنه عمه ، وكانت فتاة جميلة ساحرة ، فتعلق قلبه بها سنتين ، وهو فى آخر أدوار دراسته الثانوية ولم يعرف عن هذا الفؤاد الناشىء الهيام بها ، والوله فى حبها الا حين علم انها تزوجت • وأما الثانية فهى سيدة متزوجة من أحد ذوى الالقاب الضخمة والمراكز العالية ، وقد خدعته فى حبه واعتبرته طفلا يلهو فلا يصح الاكتراث به ، فلما رأى سخريتها منه ، انجرحت كبرياؤه ، وصدم فؤاده الشامخ صدمة عنيفة ظل أثرها عالقا به حتى آخر حياته كما أنبأنا هو فى « اعترافات أحد أطفال العصر »

زادت صلته بجورج صاند زيادة مطردة وأخذا يقضيان معاً أكثر أوقات الفراغ ، بل وأوقات العمل ، فيقرآن ويكتبان ويتنزهان معا ، ويرتحلان فى نزهات طويلة الى القرى المختلفه والحقول المتباينة ، فلما رآها قد انسحبت فى تيار حبه الى حد لا تمكن معه المقاومة أعلن ان صلته بها لم تقف عند حد الصداقة ، وانما قد وصلت الى أسمى ضروب الحب ،ولكن الصداقة كانت ستارا أخفى تحته ما لم يكن يجرؤ على اعلانه فى ذلك العهد الماضى •

ولما أعلن الحب من الجانبين رأى الحبيبان أن يرتحلا الى ايطاليا ليقيما بها بضعة شهور بعيدين عن العذال والرقباء • وقد عرضا هذه الفكرة على والدة ألفريد فلم توافق عليها فى أول الامر ،ولكن ابنها وحبيبته ظلا يتضرعان اليها حتى قبلت فسافرا الى فلورنسا ثم الى البندقية ، وهناك مرض شاعرنا بالحمى ، فأحضر أحد الاطباء الايطاليين لمعالجته ، وكان شابا ممتازا بهى الطلعة حلو الحديث، فأخذ يتودد الى هذه السيدة والشاب الشاعر فى ذهول الحمى

وهذيانها حتى بادلته حبابحب
وغراما بغرام . ولما بدا الفريد
دى موسيه السير فى طريق
النقاهة اخذ يحس بوله حبيبته
الآثمة بهذا الطبيب . فتألم
لتلك الخيانة ألما شديدا . وسألها
عن ذلك الغرام . فاعترفت له
بكل شيء . فلم يحتمل منها
هذه الصدمة القاسية ، وصمم
على ان يعود الى باريس منفردا
لانه اصبح لايطيق مرافقة هذه
السيدة الخائنة ، فظلت تقاومه
فى هذه الفكرة محتجة بانه لايزال
ضعيف الصحة لايقوى على
السفر وحده ، ولكنه انتهز
فرصة تغافلها عنه بحبيبها
الجديد وسافر فجأة فى أحد
الايام دون ان تعلم من امره
شيئا . ولما وصل الى باريس
كان التعب قد انهك صحته
المضعضعة ، والم صدمة خيانة
هذه الحبيبة قد نال منه .
وعودته فاشلا منهزما قدكسرت
قلبه ، فانتكس فى المرض انتكاسا
شديدا كاد يقضى عليه القضاء
الاخير . فاستقبلته أمه وأخته
بصدرين رحبين . وقلبين
عطوفين . وجعلتا تهدئانه
وتخففان عليه وقع الحادثة حتى
انطفأ من راسه لهيب الثورة

بعض الشيء • وقد جعلت جورج صاند تكتب اليه من البندقية
رسائل تنبئه فيها بان صلتهـا بهذا الطبيب لاتزيد على صلة
الاخ باخيه • فخفف حقده عليها واستراح قليلا واخذ يكتب اليها
كتبا ملؤها الحب والحنان والصداقة والوفاء • وما زال
على هذه الحال حتى حضرت الى باريس يصحبها هذا الحبيب
الجديد • وهنا رأى الفريد دي موسيه بعيني راسه ظل تلك
الذكريات المزعجة التى كان يراها فى البندقية اثناء مرضه •
فتضاعف حنقه عليها واحتقاره اياها • وهب يكتب اليها رسائل
ملتهبة يرميها فيها بالعهر والفجور وبأنها حين كانت تساكنه لم تزد
على انها كانت احدى المومسات اللواتى يهبن اجسامهن لكل من
هب ودب اجابة لداعى الشهوات الحيوانية لا اكثر ولا اقل • ولم
يكتف بهذه التهمة الشنعاء • بل أراد أن يغيظها فى نسويتها
ويجرحها فى غرورها • فوصفها بانها لم تكن ذات احساس ولا
شعور • وانما كانت باردة الدم متكلسة العاطفة • ميتة الاحساس
حتى لتكاد تشبه الاموات والجمادات • وهذه الصفة هى
احط ماتهوى اليه المرأة من الدركات المقززة للرجال • فلما
تسلمت الكتاب الذى حمل اليها هذه الاهانة ردت عليه برسالة
تشعر القارىء بانكسار قلبها • وتحطم فؤادها مما رماها به
هذا الحبيب الذى كان بالامس يتفانى فى حبها • ويسعد بالقرب
منها • وقد شئنا ان نترجم لك هذه الرسالة التى ردت بها على
ذلك الكتاب الجارح المهين لنضع بين يديك نموذجا امينا لقلب
المرأة اذا تحطم • ونفسها اذا انكسرت • واليك ترجمة هذه
الرسالة :

من « جورج صاند » الى « الفريد دى موسيه »

« انت محق ياصديقى • ان معانقاتنا الماضية كانت فحشا
وعهرا • ولكن عذرنا فى ذلك اننا كنا نجهل هذا العهر كل الجهل •
اذ كان كل منا يلقى نفسه بين ذراعى صاحبه فى اخلاص
وسذاجة • بل فى طهر وقداسة • ومع ذلك فهل لديك او لدى انا
تذكار واحد من تلك المعانقات يدل على ان شيئا منها لم يكن فى
رأينا طاهرا ولا مقدسا فى ذلك العهد على الاقل ؟ لقد أنبتنى

فى احد ايام هذيانك حين كنت مريضا بالحمى تأنيبا شديدا . لانى كنت دائما معك فاترة ولم اشعرك مرة واحدة بتلك السعادة التى يشعر بها المحب من حبيبته الملتهبة الشعور . فبكيت ! اذ ذاك من هذه التهمة التى جرحت كبريائى حين وصفتنى بالفتور والجمود بكاء مرا . أما اليوم فانى سعيدة كل السعادة بأن اكون كما وصفتنى . وسبب هذا هو انى احب الا اتذكر ايامى بشيء من الأسى . وهذا لا يتيسر الا اذا ذقت السعادة بين ذراعى غيرى انا الفاترة . ولكنى لو كنت شديدة الحيوية ووجدت نفسك بين ذراعى غيرى اقل سعادة منك بين ذراعى لاسفت على فراقنا وعذبت نفسك بذكرى هذا الاجتماع البائد . وهذا اكبر ما يؤسفنى لو حدث ولكنه لن يحدث مادمت انا فى رأيك فاترة

انا سعيدة الآن لانك لن تذكرنى بين اذرعة النساء اللواتى ستتصل بهن . ولكنى واثقة من انك حين تخلو الى نفسك وتصبح فى حاجة الى البكاء والى الصلوات والى اعتزال صخب الحياة المادية . ستذكر من غير شك فى جورج صاند صديقتك المخلصة ومعينتك الوفية . وممرضتك الشفيقة . وفى شيء آخر هو ارفع وانقى من كل هذا . لان العواطف التى جمعتنا مكونة من عناصر لا يمكن تشبيهها ولا موازنتها بأى شيء آخر فى هذا الوجود لرفعتها وسموها . اما هذه الجموع الحاشدة التى تموج بها المحافل والمنتديات من حولنا فلن تستطيع ان تفهم شيئا من هذه العواطف . لانها فوق مداركها »

صديقتك القديمة جورج صاند

ليست هذه هى الرسالة الوحيدة التى تبادلها المحبان . وانما تكررت بينهما عدة رسائل من هذا النوع الذى قدمناه . واخيرا صمم الفريد على ان يسافر الى المانيا . لينسى هناك اثر تلك الصدمة التى الحقتها به حبيبته الخائنة . وقد فعل فسافر الى تلك البلاد . واخذ يكتب اليها من هناك كتبا قاسية يطعن فيها على شرفها وعفافها . اما هى فقد اعتزلت الناس

جميعا وانسحبت الى قصرها فاقامت فيه وحيدة بعيدة عن جميع المحافل والمجتمعات • ولما انهالت عليها رسائله الجارحة المهينة فى اسلوبها الحاد وجملها الملتهبة النابعة من صدر ملؤه الحقد والحفيظة ، فقد استغاثت ببعض اصدقائها القدماء وتوسلت اليهم أن يردوا عليه بما يشبه اسلوبه على لسانها • فجعلوا يكتبون اليه بقلمها انه لايحفظ الجميل • ولا يقدر الشعور النبيل • اذ لو كان كذلك لذكر انها هجرت ولديها واقاربها وتركت واجبها • وفارقت وطنها وضحت بسمعتها وكرامتها • كل ذلك فى سبيل ارضائه واسعاده بثوائها معه على انفراد فى ايتاليا حين ارتحل الى مدينة البندقية وانه طالما ابكاها واهانها فى تلك البلاد الاجنبية من اجل غيرة بناها على الخيال والشعر اللذين لااثر لهما فى عالم الحقيقة الى آخر ماكتبوه اليه على لسانها • ورد هو عليه فى شىء من الحدة والقسوة .

ولما بدا فصل الخريف وعاد الفريد الى فرنسا تفاوض الصديقان فى امر مقابلتهما • فتقابلا وتعاتبا عتابا طويلا • وبرهنا للناس جميعا على أن كلا منهما لايزال يحفظ لصاحبه فى قلبه شيئا من المحبة والحنان فلما انكشفت هذه الحقيقة للطبيب الايتالى لم يسعه الى أن يودع جورج صاند وداعا ملؤه الكرامة والعزة • وان يعود توا الى بلاده عودة حاسمة • تلتها قطيعة قاصمة لم يسمع فيها الطبيب بعد ذلك بأى نبأ عمن فتنته بالامس عن نفسه واسرته وبلاده •

اخذت الصلة بين الحبيبين منذ ذلك العهد تتجدد شيئا فشيئا حتى عادت الى ماكانت عليه قبلا • ورجعت المياه الى مجاريها • وظلا مؤتلفين ردحا من الزمن استردا فيه سعادة الماضى اللذيذ وذكريات القطيعة المؤلمة • ثم عودة القلبين المتحابين الى الوئام والوفاء • ولكنهما لم يلبثا ان اختصما فساد بينهما الشقاق وسوء التفاهم فانفصلا • ولكن جورج صائد فى هذه المرة هى التى كانت مشغوفة بالاجتماع ، آسفة محزونة لهذه الفرقة • وقد عملت على انهاء ايامها حتى انهتها وعاد الحبيبان الى صفاء• وانهما لكذلك اذ تنافر قلباهما المرة الثالثة • فلم يكن من جورج



صاند الا إن غادرت باريس وقذفت بنفسها فى بيئات الهوى متعمدة ان تجرفها العواصف الهوجاء • لتسلو ذلك العهد الذى طالما أذاقها فيه (الفريد دى موسيه) العلقم والصاب • وقد أحس الشاعر بهذه النية فحزن حزنا شديدا وسمى نفسه منذ الآن (شاعر الالم والعبرات) واخذ ينشىء قصائد عامرة تفيض بصنوف الحزن • وتطفح بضروب الاسف والشقاء • وسنترجم لك هنا نبذة من هذه القصائد المحزونة لنعطيك فكرة عن شعره فى ذلك العهد • واليك ترجمة هذه النبذة :

« فقدت قوتى وحياتى ، فقدت أصدقائى ومسراتى • فقدت حتى عزة النفس التى كانت تدفعنى الى الايمان بعبقريتى • انى حين فكرت فى الحقيقة • حسبتٍ انها صديقة ولكنى لم أكد أفهمها وأحس بها حتى تقززت منها • ومع ذلك فالاله يتكلم بها • ويجب علينا أن نجيبه بها كذلك • واخيرا ان الشىء الحسن الوحيد الباقى فى هذه الحياة • اننى املك البكاء احيانا »

ولعل معنى هذه الجملة الاخيرة هو الذى اخذه المرحوم حافظ بك ابراهيم وصاغه فى هذا البيت العربى الرشيق

لم يبق شىء من الدنيا بأيدينا   الا بقية دمع فى مآقينا

خرج موسيه من هذه الحوادث كلها رجلا متبصرا حكيما دقيق الملاحظة • ناضج الفكر • قاسى القلب • خلع منذ هذا التاريخ ثوب الشاعر الطائش الغزل المتشبب • وارتدى ثوب الكاتب المتعقل الرزين • بل الجاف المتوحش • والشاعر الفيلسوف الذى يفعم قصائده بذكريات الماضى • وتصوير الحاضر • والتنبؤ بالمستقبل • ودعوة الشباب الى الالتفات الى الجد من الامور وتحذيرهم من غدر الزمن • ودفعهم الى اساءة الظن بكل ما يسمى اخلاصا ووفاء الى غير ذلك من اساليب الحكمة والرشاد وفى هذا التاريخ عينه نشر الفريد دى موسيه قصيدتيه الخالدتين « ليلة ديسمبر » و « ليلة اغسطس » وقد اشار فى الاولى الى بعض ذكريات « جورج صاند » فى شىء من الرقة اللفظية والقسوة المعنوية

اخذ الفريد دى موسيه منذذلك العهـد يختلف الى ارقى المنتديات العاليـة التى تحوى رجال الادب والسياسة فى فرنسا فى ذلك الحين وهناك عرف ذلك الشاعر الابدى ، والكاتب العالمى الخالد « لامارتين » الذى حدثناك عنه فى احد الفصول السالفة

وحوالى سـنة ١٨٣٧ بدا الفريد دى موسيه يتردد على منتدى (مدام جوبير) وهو من اعاظم المنتديات الادبية فى باريس اذ ذاك . فلمح فيـه الآنسـة (ايميه دالتون) وهى فتاة جميلة مثقفة فتعـارفا وتصـادقا ثـم تحابا . ولكن شاعرنا المتنقل لم يلبث ان شعر بانها لاتملا فراغ نفسه فملها واظهر سأمه منهـا فبادرت الى القطيعة محافظة على كرامتها التى اهانها هذا الشاب الذى يظل يتألم على ماليس فى يده حتى اذا ادركه سـئمه . والذى لايبحث عن السـعادة لايلقيها فى مكان سحيق ثم يشغل نفسه من جديد بالبحث عنها . ولـم تكد تهدأ عاصفة هـذه القطيعة حتى كان هذا الشـاعر النهم قد بدأ ينصب الحبائل فى شىء من الجراة للاميرة « بلجيوزو » ولكنها لعبت معه دورا قاسـيا دوخه وعلمه كيف يحترم قلوب السيدات . ويقل من هذا الوحش الذى يستخدمه فى سحق هـذه القلوب وابادتهـا دون ذنب ولا جريرة . ولم يسعه الا ان يتقهقر امام هذه الاميرة ولو الى حين . وبعد هذه الحادثة بأشهر قلائل ظهرت فى عالم التمثيل نجمـة جديدة قامت فى احد المسـارح الشهيرة بباريس بتمثيـل دور هام فى احدى المآسى الكلاسيكية ونجحت فيـه نجاحا باهرا . فكتب الفريد دى موسيه عنهـا مقالا قيما فى مجلة العالمين رفع من ذكرها . واعلى من شأنها . وجعلها ممن يشار اليهن بالبنان فى البيئات التمثيلية . فـكان هذا المقال الفخم بمشـابة ثمن تسلمته هذه الآنسة من الفريد (فى مقابل صلتها به) فلم تمانع فى هذه الصلة . بل رحبت بها تمام الترحيب . وبعـد ذلك بسنتين سئم هذه الممثلة وعقد صلة جديدة مـع ممثـلة اخرى كانت قد بدأت تسطع فى سـماء باريس . وهكذا ظـل الفـريد يتنقل بين السـيدات والاوانس تنقل النحلة من زهرة الى زهرة غير آبه بتلك الافئدة الكثيرة التى كان يستحقها عـلى مر الشهور والايام بلا مبالاة منه ولااكتراث حتى غادر الحياة فى ٢ مايو سنة ١٨٥٧ بعد ان راى مجده فوق قمة الحياة الادبية فى فرنسا :

وشاهد بعينيه كوكبه يتألق فى سماء اوربا كلها . اذ قد انتخب عضوا فى « الاكاديمى الفرنسية » وهذا مركز من اسمى المراكز الادبية كافة . وفوق ذلك فقد شاهد ان شباب الجيل اخذ يحفظ قصائده عن ظهر قلب . وان مجلة العالمين قد صارت تفتخر بادراج اسمه بين اسماء كتابها . وان المجتمعات والمنتديات الادبية على اختلاف انواعها امست تتباهى بتشريفه اياها فى سهراته الخاصة . وليس هذا كله طبعا بالشيء الهين او اليسير

وليست مسرحيات « ألفريد دى موسيه » عادية كمسرحيات غيره من الكتاب والشعراء . وانما هى مزيج من تأثيرات «راسين» و «ارستوفانيس »و«شكسبير»و « بيرون » و « ماريفو » و « بومارشيه ». ولكنها كلها نمتاز بطابع « الفريد دى موسيه» الخاص الذى لايفارق اى كتاب من كتب هذا النابغة الموهوب . فانت اذا لاحظت ان موسيه متأثر فى هذه المسرحية او فى تلك بفلان او بفلان ، فانك تحس قبل هذه الملاحظة وبعدها انها لـ « موسيه » وان روحه القوية مودعة فيها ، وان عبقريته النادرة تتلالا بين سطورها . ويعرف القارىء هذه الروح حين يجدها ممثلة فيما يقرؤه من خفة ومرح ورشاقة وسخرية وعاطفة رقيقة كما يعرف العبقرية حين يراها ممثلة فيما يلاحظه فى هذه المؤلفات من دراسات نفسية بالغة حد العمق والدقة ، ومن تحليلات اجتماعية وأفية ، ومن صور عمرانية بارزة

* * *

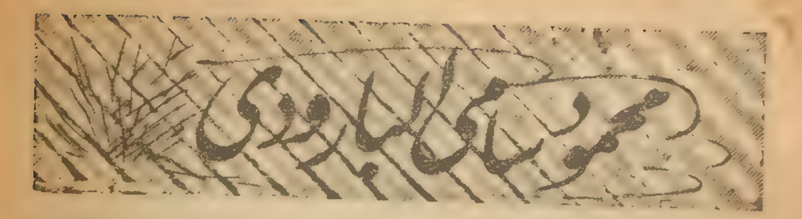
ألف الفريد دى موسيه كثيرا من المسرحيات القيمة : (١) « لا يمزح مع الحب » . (٢) « فيم تحلم الفتيات » . (٣) « اهواء ماريان » . (٤) «الكأس والشفاه » . (٥) « لاينبغى القسم عن شيء »

واكثر هذه المسرحيات لا تزال الى اليوم تمثل بعناية فى ارقى مسارح فرنسا ، ولكن الدرامة الوحيدة التى تحققت فيها اكثر شروط المدرسة الرومانتيكية هى لورانزاسيو التى نستطيع أن نقول عنها بحق انها جمعت بين صفحاتها من العمق والتحليل والنفسيات والاجتماعيات اكثر مما حوته كبريات « درامات

هوجو » . وفوق ذلك فانها رمت الى غاية خلقيه وانسانية ارتقت بها حتى تخطت حدود التاريخ الواقعى ، وهذه الميزة هى التى تتحصن بها المؤلفات ضد الشيخوخة والفناء والتى تسجل اسمها فى صحائف الخلود .

وقعت حوادث هذه الدرامة فى فلورانسا احدى مدن ايتاليا الجميلة ، وتتلخص فى ان الكساندردى ميديس حاكم تلك المدينة الطاغية لم يكن له فى حياته هم الا الظلم والتعذيب والعهر والدعارة وكان له ابن اخ طاهر الروح ، نبيل العواطف ، طيب الخلق . فلم يرقه من عمه هذا السلوك المعيب ، تلك الاخلاق الدنسة فصمم على قتله ، ولكنه راى ان هذا مستحيل ما لم يتودد اليه وينزل معه فى حضيض مجونه ودعارته مجاراة له ليتمكن من القضاء عليه فى سهولة ، بيد انه لم يكد يجاريه فى هذا التيار الخطر حتى اصبح ممقوتا من الناس جميعا ، بل ومن نفسه هو اكثر من عمه الطاغية الداعر . والسبب فى مقته لنفسه هو انه أيقن بسوء مصيره وبأنه لن يقوى على النهوض من هذه الكبوة التى سقط بها فى الدنس . وكان هناك احد كهول انوطنيين العقلاء ، فلما عرف سره وفهم قصده من الانغماس فى هذا الاثم شجعه على الوصول الى غايته واقنعه بان الوقت قد حان لقتل هذا الطاغية الماجن ، فانتصح هذا الشاب بنصيحته . واسرع الى عمه فغمس خنجره فى صدره . ثم حاول بعد ذلك ان يعود الى حياة الطهر والاستقامة فلم يوفق مطلقا لان لذة الدعارة كانت قد تغلغلت فى نفسه ، ورسخت فى قلبه . فلم يطاوعه ضميره على البقاء فى الحياة على هذه الصفات الدنسة التى اتخذها بالامس مبررا لقتل عمه . فلم يسعه الان يسلم نفسه الى عسكر الوالى الجديد ليقتلوه ، وقد فعل

كتب دى موسيه هذه الدرامة فى تلك الايام المرة القاسية التى قضاها فى ايتاليا مع جورج صاند وقد شاء النقاد ان يروا بين سطورها اواخر اعوام شاعر نادى موسيه التى قضاها بين المجون والاستهتار ثم ما كان يحس به فى وسط هذا المجون من لذع ولوعة ، بل من يأس وقنوط جعلا حياته غاية فى الظلم والاكفهرار . ومهما يكن من شيء فان فى هذه المسرحية صورا فاتنة لالوان عدة من نواحى الحياة الخلقية والاجتماعية



نشأ البارودى (1) فى بيت مجد مؤثل ، هو ابن حسن بك حسنى الذى كان من امـــراء المدفعية ثم صار مديرا لدنقلة وبربر على عهد محمد على ، ابن عبد الله بك الجركسى ينتهى نسبه الى المقام السيفى نوروز الاتابكى أخى برسباى قرا المحمدى .

والترك والجركس هم آخـر طبقة من الغرباء وفدوا الى مصر واتخذوها وطنا وتوالدوا فيهـا فأصبحوا مولدين . روى صاحب الهلال ان البارودى كان شديد الحرص على معرفة نسبه ، وانه بذل نحو ٣٠٠٠ جنيه فى سبيل البحث عنه فى انحاء القطر ومراجعة النصوص وغير ذلك .

ولد صاحب الترجمة بسراى باب الخلق لثلاث بقين من رجب سنة ١٢٥٥ هجريه ، وفى سنة ١٢٦٢ توفى والده بناحية دنقلة وكان عمره اذ ذاك سبع سنين ؛ وفى ذلك يقول لما ناهز العشرين

لا فارس اليوم يحمى السرح بالوادى	طاح الردى بشهاب الحرب والنادى
مات الذى ترهب الافران صولتـه	وبتقى بأســه الضرغامة العـادى
مضى وخلفـنى فى سن ســابعة	لا يرهب الخصم ابراقى وارعادى
فان اكن عشـت فـردا بين آصرتى	فهــأنا اليــوم فـرد بين اندادى

وقد علق الدكتور محمد صبرى على هذا بقوله :

---

1 — لما رأينا أن كتاب الاستاذ الفاضل الدكتور محمد صبرى الذى عنوانه : « أدب وتاريخ » قد اعتمد فيما كتبـه من تاريخ البارودى على مذكرات : احمد عرابى ومحمود فهمى ، والشيخ حسين المرصفى، والشيخ محمد عبده ، وخليل مطران ، ومنشىء الهلال ، ولما لم نجد فى هذا الموضوع أدق من تلك المذكرات ولا أجمع لشتاتها من هذا الكتاب ، فقد اعتمدنا عليه ، بل أثبتنا نصـوصا من عباراته وتعليقـات مؤلفه مسنديها اليه ، فليتأمل ذلك .

هذا الشعر كما تراه متين محكم النسج نظمه فى سن صغيرة فما سر هذه القوة التى تجلت قبل الاوان فى عصر مقفر من الشعر الجيد ؟ . أهو فى تربيته القومية أم فى طبعه واستعداده ؟

شرع محمود سامى فى سن الثامنة يتلقى مبادىء العلم على اساتذة كانت تحضر فى منزله . ودخل فى سنة ١٢٦٧ اى فى سن الثانية عشرة مدارس الحربية وتخرج منها برتبه باشجاويش سنة ١٢٧١ فى اوائل تولية سعيد باشا ، وكان عمره اذ ذاك ست عشرة سنة ، ويقال انه كان يتعاطى صناعة الشعر فى اثناء دراسته .

اما تربيته الادبية فاليك ما قاله عنه الشيخ حسين المرصفى فى - الوسيلة الادبية - وكان من اعرف الناس به : - محمود سامى البارودى لم يقرا كتابا فى فن من فنون العربية ، غير انه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلا الى قراءة الشعر وعمله فكان يستمع بعض من له دراسة وهو يقرأ بعض الدواوين او يقرأ وهو بحضرته حتى تصور فى برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية فصار يقرأ ولا يكاد يلحن .. ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة واستثبت جميع معانيها ناقدا شريفها من خسيسها ، ثم جاء من صنعة الشعر اللائق بالامراء -

اما فيما يتعلق بالوراثة فقد قال البارودى :

أنا فى الشعر عريق — لم ارثه عن كلاله
كان ابراهيم خالى — فيه مشهور المقاله
وسما جدى على — يطلب النجم فناله

ويقول الدكتور صبرى تعليقا على هذا :

لا اظن ان خال البارودى كان شاعرا يمتاز عن اهل عصره ، ولكن لعل البارودى وجد فيه مشجعا على قول الشعر كما وجد فى المعالى التى يفخر بها ، وفى معاهد العز والشباب التى درج فيها

ولكن كل هذا لا يكفى لان يبرز شاعرا غض الاهاب على معاصريه ثم يجرى حبله على غاربه حتى يلحق بفحول المتقدمين قبل ان يطوى برد الشباب

اذن كان سر قوة هذا الشاعر فى طبعه ، وكانت فى قرارة نفسه عين كامنة مالبثت ان وجدت منفذا ضئيلا فتفجرت بالسحر الحلال ولم تنضب . روى الاستاذ خليل مطران فى فصل رائع : « لقد تسامحت يومابدالةالود فسألته اية حالة من احوال حياتك كنت فيها اميل الى الشعر واكثر اشتغالا به ؟ فأجابنى ان خطرات الشعر صحبتنى فى ايامى كلها ولم تفارقنى الا فى اقنها -

على ان من يقرأ شعر البارودى يرى ماء الطبع يترقرق فيه ، قال هو عن نفسه فى كلمة افتتح بها ديوانه : - ولقد كنت فى ريعان الفتوة واندفاع القريحة بتيار القوة الهج به لهج الحمام بهديله وآنس به أنس العديل بعديله، لاتذرعا الى وجه انتويه ولا تطلعا الى غنم احتويه وانما هى اغراض حركتنى واباء جمح بى وغرام سال على قلبى ، فلم أتمالك أن أهبت فحركت به جرسى ، أو هتفت فسريت به عن نفسى - ثم روى بيتين قالهما فى هذا المعنى:

تكلمت كالماضين قبلى بما جرت به عادة الانسان ان يتكلما
فلا يعتمدنى بالاساءة غافل فلا بد لابن الايك ان يترنما

الثورة العرابية

اجمع اكثر المؤرخين على القول بان الثورة العرابية كانت ثورة وطنية مصرية ترجع اسبابها الى الظلم الذى اخنى على البلاد فى ايام اسماعيل ، والى تدخل انجلترا وفرنسا فى فروع الادارة المصرية تمهيدا للاحتلال الثنائى الذى تفردت به انجلترا فيما بعد تحت ستار الثورة التى كانت تعمل فى الحقيقة على ازالة اسبابه واجتثاث اصوله

بدأ احرار المصريين فى اواخر حكم اسماعيل واوائل حكم توفيق يطلبون صراحة العدل والدستور لخلاص البلاد مما هى فيه ، وانضم البارودى من اول الامر الى زعماء الحركة ، وكان من مشجعيها سرا . روى المرحوم عرابى باشا فى مذكراته انه فى سنة ١٨٧٩ على أثر حادثة المالية التى دبرها اسماعيل وأراد أن يلصق تبعتها بمحمد بك النادى وعلى الروبى ، واحمد عرابى دعاهم رئيس التشريفات عبد القادر باشا حلمى فتفاهموا معه، ثم دعاهم محمود باشا البارودى وكان وقتئذ مأمور الضبطية

فصارحوه القول ، وهنـــا قال عرابى بالنص عن محمود سامى - وآنست فيه تأففا من الظلم وميلا الى العدل والدستور -

ولما صعد الامير محمد توفيق الى العرش هنأه بقصيدة قال فيها: فيها :

امران ما اجتمعـا لقـائد أمة الا جنى بهـما ثمار السـؤدد
جمع بـكون الامر فيمـا بينهم شـورى وجنـد للعـدو بمرصـد

وهنا يحدثنا الدكتور صبرى بمرمى البارودى من هذا الشعر فيقول :

اراد بالـ - جمع - مجلس النواب ، وبالـ - جند - الجيش وهذا واضح ، فانظر الى شجاعة الشاعر واخلاصه لوطنه كيف دعاه فى ذلك الزمن غير المأمون الى المجاهرة بتلك الحقيقـــة الكبرى وسط التهنئة والمديح ، والبـــارودى هو خير من لخص اغــراض العرابيين فى بيت من الشعر ، وهل هناك دواء انجع من مجلس يحكم البلاد وجيش يحميها ؟ وهل هناك وسيلتان اخريان لتحقيق ثورة الاصلاح التى كانت البلاد بحاجة اليها ؟

عين الخديوى توفيق فى اوائل حكمه محمـــود سامى وزيرا للاوقاف المصرية فسعى جهده فى اصلاحها ، ويقال انه كان فى ذلك الوقت يشجع الحــزب الوطنى سرا مع ان القوة العاملة لهذا الحزب ، كانت فى الجيش حيث اســتحكم العداء بين المصريين والعنصر التركى الشركسى الذى ينتمى اليه البارودى ، وهذا يدل على حب العدل الذى بنى عليه .

ولما حدثت المظاهرة العسكرية الاولى ضد عثمان رفقى الشركسى ناظر الجهـادية وطلب عرابى من الخديوى توفيـق عـزله ، أجابه الخديوى الى طلبه واحال هذه النظارة الى محمود سامى الذى اصبح ناظر الجهاديه والاوقاف معا .

اجتهد البارودى فى اصـلاح - الجهادية - المختلة فطلب الى رئيس الوزارة رياض باشا زيادة مرتبات الضـباط والعساكر وتعـــديل النظامات والقوانين العسكرية ، ووقع الخـديوى توفيق على هـذا الطلب فى ١٢ ابريل سنة ١٨٨١ ففرح الناس واقام محمود سامى احتفالا دعا اليه النظار والمفتشـين ، وكان

يوما عظيما خطب فيه رياض ومحمود سامى واحمد عرابى واثنوا على الخديوى

وفى ٢٥ يولية من هذه السنة بينما كان الخديوى مصيفا فى الاسكندرية صدمت عربة احد التجار جنديا فقتلته لساعته فحمله رفقاؤه الى سراى رأس التين وطلبوا الى الخديوى النظر فى امره ، فهاجه ذلك وامر بعقد مجلس حربى حكم عليهم بالاشغال الشاقة او بالنفى الى السودان فشكا عبد العال حلمى امرالاى السودانية من قسوة الحكم ، وعرض محمود سامى تلك الشكوى على الخديوى فشق ذلك عليه، واعتقد ان محمود سامى كان يعمل باتفاق مع العرابيين ، فدعا فى الحال النظار من القاهرة الى الاسكندرية ، وقدم البارودى استعفاءه ، وعين مكانه داوديكن ابن عم الخديوى .

والراجح ان الذى دفع محمود سامى الى عرض هذه الشكوى هو اعتقاده عدالتها ، ولكن يظهر ان ذوى الاغراض القوا من الدسائس فى حقه عند الخديوى فاشار الى ذلك بقوله :

نقموا على حميتى فتألبوا حربا على وأجمعوا ما أجمعوا
وسعوا بفريتهم فلما صادفوا سمعا يميل الى الملام توسعوا
لا عيب فى سوى حمية ماجد والسيف يغلبه المضاء فيقطع

ويقال : ان هذا مبدأ العداوة بين الخديوى ومحمود سامى ، ومبدأ التحالف بين عرابى ومحمود سامى .

عاد النظار بعد ذلك الى القاهرة وانتظمت الامور فى الظاهر ، وعاد اليها الخديوى فى شهر سبتمبر وسرعان ما اصدر داود يكن امرا الى الاى القلعة بالتوجه الى الاسكندرية ، والاى الاسكندرية بالحضور الى العاصمة ، فتوجس عرابى خيفة وفهم ان المقصود تفريق كلمتهم هو واعوانه . روى محمود فهمى بالنص : — لما استعفى محمود سامى من نظارة الجهادية وتوجه الى منزله فى القاهرة توجه اليه احمد عرابى سرا فى الليل وتعاهد معه على مساعدته ومعاضدته ، هذا قول عرابى لى ، والا فانا ما كنت اعرف هذا ، ولما استوثق عرابى من معاضدة محمود سامى له ، عاد الى منزله وتوجه فى صباح ثانى يوم الى العباسية واتى اليه

طلبة عصمت يبث له ماوقع فيه فخاطب فى الحال عرابى الالايات وطلب منهم ان يستعدوا للحضور فى ميدان عابدين -

هذه رواية من الاهمية بمكان لان هذه الفترة اول عصر الثورة ولابد ان يكون عرابى قد استوثق اولا من تأييد محمود سامى وبعض كبار الوطنيين له قبل كتابته الى الخديوى والى نظارة الجهاديه يخبرهم - ان الجيش سيحضر الى سراى عابدين بخصوص طلبات عادلة تتعلق باصلاح البلاد - فان هذه الطلبات اصبحت قومية لا محدودة كما كان الامر من قبل ، لذلك لقيت تأييدا من الشعب وبدات الثورة التى ترمى الى الاصلاح العام .

اجتمعت الالايات فى عابدين كما هو معلوم فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ وطلب عرابى باسم الجيش الذى هو قوة الامة التنفيذية - اسقاط الوزارة وتشكيل مجلس نواب ، وزيادة عدد الجيش -

---

فتردد الخديوى ثم عين شريفا رئيسا للوزارة مكان رياض الذى كان مكروها ، ولم يقبل شريف الا بعد أن تعهد له رؤساء الحزب العسكرى بطاعة اوامره ، وقدم له عمد البلاد ضمانة ولما دعى محمـــود سامى لتقلد وزارة الجهادية اجاب بـ - انه عقد النية على ان لايتقلد خدمة من خدمات الحكومة مادام لرجال العسكريه سلطان يعلو سلطان القانون - . ولكنه قبل بعد الحاح .

وفى ٢٢ سبتمبر وافق الخديوى على القوانين العسكرية . وفى ٤ اكتوبر اعتمد لائحـــة مجلس النواب الذى تم انتخاب اعضائه فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ وكان مؤلفا من ٨٢ عضوا تحت رياسة سلطان باشا ، وكان من الممكن ان تسير الامور بالنظام لو لم يكن اعداؤنا بمرصد يدسون بين هذا وذاك ، ويحرضون هذا على ذاك ويحركون المطامع والشهوات حتى وجدوا بفضل داء الشخصيات الذى ينغل فى جسم الامة فرجة توصلوا بها الى كبد البـــلاد فطعنوها فى الصميم

وما وافق الخديوى توفيق من مبدأ الحـركة الى منتهاها على جميع الاجراءات والمطالب الا مكرها ، كان للسراى حزب ، وكان العرابيون منقسمين الى متطرفين امثال : عرابى ، وطلبه ، وعبد العال ، وعبد الله نديم ومعتدلين امثال : عبد السلام المويلحى ، ومحمود سامى ، وشريف ، وغيرهم لذلك كان الخصم آمنا مطمئنـا لم يزعجه انعقاد مجلس النواب لعلمه ان فرص الخلاف كثيرة ، وانه سيعرف كيف يخلقهـــا ويستفيد منها ، ويحـول بين المصريين وبين التمتع بمجلس النواب الذى هو عمود الثورة السلمية المنظمة .

ارسلت انجلترا وفرنسا فى ٧ يناير سنة ١٨٨٢ مذكرة ثنائية الى الخديوى تقولان فيها : - أنهـما مواطـدانه ومثبتانه عـلى الاريكة الخديوية - فوقعت هذه المذكرة فى القاهـرة ، كما قال السير مولى ، كالقنبلة ، وكان الغرض منها خلق الفتن وتهيئة جو صالح للتدخل .



وكان شريف باشا قدم فى ٢ يناير سنة ١٨٨٢ الى مجلس النواب اللائحة الاساسية الجديدة التى اعدها له ؛ وبعد فحصها وقع الخلاف بين النواب والنظار بشأن المواد المتعلقة بالميزانيه ؛ وكان سلطان باشا وبعض النواب يؤيدون شريفا فتدخل وكيلا فرنسا وانجلترا معارضين فى حق مجلس النواب فى تقرير الميزانية ؛ فكان تدخلهما مثيرا للشكوك ، داعيا لاستحكام الخلاف ؛ وانتهى الامر باستعفاء شريف باشا وتأليف وزارة برياسة محمود سامى البارودى وتعيين احمد عرابى وزيرا للجهادية ؛ فسر الحزب الوطنى بهذا الانتصار ووردت التهنئات من كل صوب ، واعتبرت هذه اول وزارة وطنية مصرية ينتمى رئيسها الى حزب الثورة

وفى يوم الاربعاء ٨ فبراير ذهب محمود سامى الى مجلس النواب ومعه اللائحة بعد ان وافق عليها مجلس النظار فقوبل بالشكر والتبجيل . ثم وقف محمود سامى خطيبا فى المجلس فقال :

« ايها السادة النواب اننى سعيد الطالع بحضورى بينكم حاملا الى حضراتكم القانون الاساسى .. الا اننى اعلم كما تعلمون ان مجرد وضع القانون على اصول الحرية وقواعد العدالة لا يكفى فى وصولنا الى الغاية المقصودة من اجتماع حضراتكم ، بل لابد ان ينضم الى ذلك خلوص النيه من كل واحد منكم فى المحافظه على حدود هذا القانون ودقة النظر فى الوقوف عندها بحيث تكون جميع الاعمال والافكار منحصرة فى دوائرها . وقد قال عقلاء السياسيين ان الوصول الى هذا النوع من الكمال أعنى حصر جزئيات الاعمال وكلياتها فى دائرة القانون انما ينال بعد العناء وطول التجارب ولكنى لا اعد هذا صعبا عليكم »

« وفى املى انكم ستحققون مايظن احباء البلد فيكم عندما تبتدئون فى الاعمال المهمة التى تهيأتم الان لمباشرتها بان تستعملوا صادق الظن للوقوف على ما فيه خير بلادكم . وتوجهوا الى ذلك ماضى الهمم حتى لا يضيع الزمن الطويل فى الحصول على فائدة قليلة . وهذا لا يكون الا بتخليص الافكار . وتمحيص الظنون من

شوائب النزعات الشخصية بأن نجعل الاعمال وقفا على المصالح العمومية التى نفعها فى الحقيقة عائد عليكم وعلى ابنائكم »

« ان التفات النظر الى الخصوصيات يبعث فى القلب محاسنات ومناظرات تحمل على الخلاف الدائم وانكم تعلمون ان الذين رقوا الى ذروة العز واوج الشرف لم ينالوا ذلك الا باخلاصهم فى طلب النفع العام فاعترف العالم بفضلهم وأجلتهم القلوب وأحلتهم اعلى المنازل فثبتوا فى مكانهم ماداموا بحلية الاخلاص » ثم ختم قائلا :

« واخر ما نتواصى به ان لانجعل التعصب المشربى دخلافى الاعمال الوطنية التى كلفتكم البلاد ان تقوموا بادائها ، وان تكون الوطنية الحقيقية هى الباعث القوى على كل فكر . والغاية القصوى من كل قول وعمل »

ومن تعليق الدكتور صبرى على خطاب البارودى ما يلى :

هذه خطبة اخلق بها ان تكتب بماء الذهب فهى صيحة اخلاص فى ساعة الخطر تشف عن جوباطن وداء دخيل

وسرعان ما سعت انجلترا وفرنسا فى خلق الارتباكات وتعقيد الامور للقضاء على الثورة والاستيلاء على مصر .

بلغ عرابى ان طائفة من ضباط الشركس يعملون على الكيد له فعقد مجلسا حربيا وقرر نفيهم الى الاقطار السودانية ، فعارض الخديوى . وتصلب عرابى . وكان هذا مبدأ دخول الثورة السلمية فى طريق العنف والارتباك والاضطراب التى لعبت انجلترا تحت ستارها دورا كبيرا ختمته بمأساة الاسكندرية ، وسعت انجلترا الخلاف بين الخديوى والعرابيين ، فدعا الخديوى قنصلى انجلترا وفرنسا وقال لهما : ان حياة الاوروبيين فى خطر فانزعج القنصلان وذهبا الى رئيس الوزارة محمود سامى . وناظر الحربية احمد عرابى فأكدا لهما ان لا خوف من ذلك

فى هذه الساعة انفلت «عيار» الثورة وجمحت الحوادث عجلى ، وكثرت المجالس الليلية والاجتماعات وظن الناس الظنون . وبينما

كان بعضهم يعمل على رقع الخرق قبل ان يتسع وردت انباء مجىء الاساطيل الى المياه المصرية وارسال الدولتين بلاغا اخر بالاتحاد مع سلطان باشا رئيس مجلس النواب تطلبان فيه اسقاط الوزارة واخراج عرابى من القطر المصرى ؛ فلم تقبله الوزارة وقبله الخديوى الذى كان جل اعتماده على انجلترا وبناء عليه استعفت الوزارة وكان ذلك فى ٢٦ مايو سنة ١٨٨٢

من هـــذا التـــاريخ الحافل بالاحداث والمصـــادفات ؛ المفعم بأنواع المجـــد وألوان الكوارث والنكبات ، الناطق بالعبر والعظات الصالح لان يكون قبسا يسـير على نبراسه الوزراء والعظمـاء ؛ ونموذجا يحتذيه القادة والرؤساء ودرسا فى الشـــجاعة والاباء ، يستفيد منه الكتاب والشـعراء وسبيلا ممهدة نحو العلياء ؛ تدفع اهل الارض الى التطلع صـــوب السماء .

من هـــذا التاريخ يتبـــين ان البارودى احد « الرومانتيكيين » فى راى استاندال « Stendhal »

وهو الى جانب ذلك شاعر الثورة العرابية فى رأينا

هو « رومانتيكى » لان منتجاته كانت متجاوبة مع حاجات بيئته الى أبعد حدود التجاوب ، وانه استطاع أن يرسم ما ألم بمواطنيه فى عهده من آلام وارزاء ، وبؤس وشقاء • وما عم فى مصر اذ ذاك من اعتلال تبعه اختلال • وانحلال اعقبه احتلال ؛ وطغيان اعتمـد على قوة الغاصبين • ووجد له انصارا من سفلة المتملقين واعوانا من أوغاد الوصوليين فكان حربا على المخلصـين وكارثة صـدمت الوطنيين الفدائيين ووباء اجتاح الاوفياء وبلاء اختص به الشرفاء

وقد اســتطاع البارودى ان يصور هذا كله فى شجاعة لا تعرف الاستخذاء ، وصـرامة لا تألف الانحنـــاء • بل قـد جابه ذوى السلطان بما يكرهون وواجه ارباب الصولجان بذم ما يعملون فاستشار غضبهم واستثار سخطهم وخسر مودتهم ورضاهم ولكنه فاز بمودة الوطن ورضى التاريخ ، وليس أدل على ذلك من تلك اللوحة الخطيرة

التى رسم فيها لمصر فى عهد الخديوى توفيق صوره سوداء قاتمة تنقبض لمرآها النفوس ، وتنهصر من هولها الافئدة وعزا السبب الاساسى فى وجودها الى تلك الشرذمة الفاسدة المفسدة المؤلفة من رجال الحاشية وكبار المسئولين من الوزراء والمستوزرين الذين لا يعفون فى نيل اغراضهم عن ادنى الدنايا واحط المخازى والمخجلات ، وارتكاب أفظع الجرائم والموبقات ولا يبالون بخنق او دين او وطن او تاريخ ، والذين بلغوا من القذاره حدا يجعل حوائط الدواوين - وهى جماد لا يشعر ولا يحس - تتقزز منهم وتكاد تلفظهم الى عرض الطريق وما ابدع قوله فى هذا :

قامت به من رجال السوء طائفة — أدهى على النفس من بؤس على شكل
من كل وغد يكاد الدست يدفعه — بغضا ويلفظه الديوان من ملل
ذلت بهم مصر بعد العزو اضطربت — قواعد الملك حتى ظل فى خلل

ولم يكن البارودى فى هذا الموقف شاعرا محايدا يرسم ما يراه مما هو كائن دون مبالاة ولا اكتراث ، وانما كان وطنيا حساسا وفيا لمصر يحز فى قلبه ما يصيبها • ينخر فى عظامه ما يؤلمها • فتدفعه هذه الحاجة الملحة الصادرة عن قلب الى البحث عن العلاج العملى لهذه العلة التى كانت قد استشرت وعم بلاؤها ، وعز دواؤها فيقول :

فبادروا الامر قبل الفوت وانتزعوا — شكالة الريث فالدنيا مع العجل
وطالبوا بحقوق أصبحت غرضا — لكل منتزع سهما ومختتل
حتى تعود سماء الامن ضاحية — ويرفل العدل فى ضاف من الحلل

ولم يحصر البارودى تبعة هذا التدهور فى أولئك الاوغاد المشائين بنميم ، المفسدين لكل قويم سليم • وانما القى قسطا كبيرا من التبعة ، بل من الاثم على الخديوى • لانه اذن سماع للاكاذيب سهل الانقياد امام الالاعيب ، ولانه لم يقدر على تمييز الحق من الباطل • فانتهى به الامر الى نبذ الرفيع واحتضان السافل ، فكان لهذه التصرفات نتائج محتومة • ونهايات مشئومة

على الوطن والوطنيين والاخلاص والمخلصين ولكن البارودى قد سخر من رضى الخديوى اوسخطه ، واعتذر عن تشهيره بالمفسدين بانه طبيعة فيه لانغيرها تقلبات الزمان . ولا طوارىء الحدثان لانها كطبيعة السيف اذا اشتد مضاؤه ، وقع قضاؤه وفى هذا يقول :

تقموا على حميتى فتألبوا حربا على واجمعوا ما اجمعوا
وسعوا بفريتهم فلما صادفوا سمعا يميل الى الملام توسعوا
لا عيب فى سوى حمية ماجد والسيف يغلبه المضاء فيقطع

ولما تفاقمت العلة وعم الفساد واضطربت الامور ، وكثرت الفتن وانهارت الاخلاق ورانت على القلوب طبقة كثيفة مؤلفة من قتومة الرذائل والاثام ، اهتز صرح الامن وتزلزل عرش النظام واختلط الحابل بالنابل ، ورفع الفرصيون عقيرة الابقاع . ونهش الوصوليون اعراض الكرماء . وطعن الدساسون فى سلوك الفضلاء . وانهارت المبادىء الثابتة ، وزالت معالم الاوضاع المقررة وشمل العسف كل الطبقات واحدق الطغيان بجميع البيئات ، لا يستثنى من ذلك الا الذين فقدوا علائم الانسانية . وطبعت نفوسهم بطوابع الاثرة البغيضة ، والانانية المقيتة ، وتحللوا من جميع القيود واصبحوا لا يجيدون الا الركوع والسجود . وفقدوا كل امارات الاباء . ونبغوا فى الخداع والدهاء وأجادوا لعبات الانكماش والانحناء ، عند ذلك اشتد الظلم . وثبتت اقدام الجور . واندثرت آثار الحقوق المشروعة فتخلى المالك عن ملكيته زهدا فيها وفرارا من المساهمة فى الحياة العامة التى اضحى نتنها يؤذى الانوف

واهمل الزارع الارض بغضا فى سوء الثمار التى ينتجها مجهوده وارتعدت فرائص التاجر الذى وظف ثروته وقذف بها فى سوق لا تؤمن عاقبته . ولا تكبح غائلته فنشط فى استردادها ، ونجم عن ذلك ان اصيبت الحركتان الزراعية والتجارية بشلل كلى خطير ، وامسى الرجل اذا اوى الى منزله ليلا لا يطمئن البقاء فيه حتى يصبح . واذا اصبح لا يثق بالثواء حتى يمسى . وجعل الصديق يحذر صديقه . والزوج يحتاط من زوجته والمحكوم

يمقت الحاكم ويحقد على المقربين منه اشر الوان الحقد واكثرها اندلاعا ، وطفق الحكام يعبسون من دماء الامة حتى ارووا ظمأهم وارضوا جشعهم

ولقد كان فى مصر ابان هذا كله قوم يحسون بفداحة الخطب ويشعرون بهول المصاب، وينوءون بثقل العبء • ويتبرمون بكل هذه الاوضاع • ويتوقعون منها أسوأ النتائج ويجزمون بأن الطغاة يرقصون على بركان لا يلبث ان ينفجر فيبتلعهم وهم فى غمرة ساهون ، وفى ثمل يضحكون ، ان المنقذ من هذه الوهدة هو ان يشهر المتذمرون سيوفهم فى وجوه الطغاة ليردوهم عن غيهم • ويرجعوهم الى صوابهم ، او يلقوا بهم فى هوة العدم السحيقة واذا دق رأس الافعى أصبح ذنابهما سلبيين أو ضئيلى الخطر على اقل تقدير • وقد تجاوب شعر البارودى فى هذه الناحية ايضا مع احاسيس الامة ومشاعرها شأنه فى كل مواقفها ، فلم يقصر شعره على الغزل والنسيب والتدله والتشبيب • والثناء والهجاء • كما فعل قدماء الشعراء وانما تعدى ذلك الى افانين الحياة العصرية ، فسايرت منتجاته حاجات وطنه ومواطنيه • وكان مرآة ارتسمت فيها صورة بيئته خير ارتسام ، ولم يشأ أن يهمل جانبا من جوانب حياة معاصريه دون ان يمنحه حظا من العناية • او يغفل ناحية من نواحى المجتمع الذى عاش فيه دون أن يختصها بقسط من الرعاية ، فتحدث عن سوء الحالة العامة • ورسم عسف الطغاة وملق المستذلين • وحيرة المترفعين • وضيق صدور المخلصين • وتبرم الاشراف بكل ما فوق ارض الوادى وتحت سمائه ، وصور شغفهم بانقلاب ينقذهم مما يكتم انفاسهم ويخنق حريتهم فانشأ فى رسم هذه اللوحة القاتمة القابضة يقول :

كنا نود انقلابا نستريح به	حتى اذا تم ساءتنا مصائره
فالقلب مضطرب فيما يحاوله	والعقل مختبل مما يحاذره
ان دام هذا اضاع الرشد كافله	فيما ارى واضاع الغى زاجره
تنكرت مصر بعد العرف واضطربت	قواعد الملك حتى ريع طائره

فاهمل الارض جر الظلم حارثها واسترجع المال خوف العدم تاجره
واستحكم الهول حتى ما يبيت فتى في جوشن الليل الا وهو ساهره
انى ارى انفسا ضاقت بما حملت وسوف يشهر حد السيف شاهره
شهران او بعض شهر ان هى احتدمت وفى الجديدين ما تغنى فواقره
فان اصبت فعن راى ملكت به علم الغيوب وراى المرء ناظره

وما ادق تصويره لمعمان الحرب الطاحنة التى دارت رحاها فى كريت والتى ساهم فيها شاعرنا بنصيب الاسد لاخضاع الثائرين على سلطان الدولة العلية اذ يقول فى هذا التصوير ما يلى :

ملئوا الفضاء فما يبين لناظر غير التماع البيض والخرسان
فالبدر أكدر والسماء مريضة والبحر اشكل والرماح دوان
والخيل واقفة على ارسانها لطراد يوم كريهة ورهان
وضعوا السلاح الى الصباح واقبلوا يتكلمون بالسن النيران
حتى اذا ما الصبح اسفر وارتمت عيناى بين ربا وبين مجان
فاذا الجبال اسنة ، واذا انوها د اعنة والماء احمر قاني
فتوجست فرط الركاب ولم تكن لتهاب فامتنعت على الارسان
فزعت فرجعت الحنين وانما تحنانها شجن من الاشجان
ذكرت موارها بمصر واين من ماء بمصر منازل الرومان

والان حسبنا هذا عن البارودى لضيق المجال من جهة ، ولمحدودية المصادر عنه من جهة ثانية . ولنتجاوزه الى شاعر اخر هو اوسع افقا واغزر انتاجا والصق بالحياة المصرية العصرية هو المغفور له احمد شوقى بك ؛ فاليه نسوق الحديث .

سمعت (١) ابى رحمه الله يرد أصلنا الى الاكراد فالعرب ويقول : ان والده قدم هذه الديار يافعا يحمل وصاة من احمد باشا الجزار الى والى مصر محمد على باشا ، وكان جدى وانا حامل اسمه ولقبه يحسن كتابه العربية والتركية خطا وانشاء، فأدخله الوالى فى معيته ، ثم تداولت الايام وتعاقبت الولاة ، وهو يتقلد المراتب العالية • ويتقلب فى المناصب السامية الى ان اقامه سعيد باشا امينا للجمارك المصرية • فكانت وفاته فى هذا العمل عن ثروة واضية بددها ابى فى سكرة الشباب ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم وعشت فى ظله وانا واحده اسمع بما كان من سعة رزقه ولا ارانى فى ضيق حتى اندب تلك السعة فكأنه راى لى كما راى لنفسه من قبل الا اقتات من فضلات الموتى الى ان يقول : انا اذن عربى ، تركى يونانى ، جركسى بجدتى لابى : اصول اربعة فى فرع مجتمعة تكفله لها مصر كما كفلت ابويه من قبل ....

اما ولادتى فكانت بمصر القاهرة ، وانا احبو اليوم الى الثلاثين . حدثنى سيد ندماء هذا العصر المرحوم الشيخ على الليثى قال : لقيت اباك وانت حمل لم يوضع بعد ، فقص على حلما رآه فى نومه : فقلت له وانا امازحه .. « ليولدن لك ولد يخرق ـ كما تقول العامة ـ خرقا فى الاسلام »

ثم اتفق انى عدت الشيخ فى مرض الموت وكانت فى نسخة

---

(١) اعتمدنا فى تاريخ المغفور له احمد شوقى بقلمه على رواية الامير شكيب أرسلان فى كتابه « شوقى أو صداقة أربعين سنة » وعلى رواية الدكتور احمد زكى ابو شادى فى العدد الخاص من مجلة « ابولو » الذى ظهر بعد وفاة أمير الشعراء .

من جريدة الاهرام فابتدر خطابى بقول : هذا تأويل رؤيا ابيك ياشوقى ، فوالله ماقالها قبل فى الاسلام احد ، قلت : وما تلك يامولاى ؟ قال قصيدتك فى وصف « البال » التى تقول فى مطلعها :

حف كأسها الحبب فهى فضة ذهب

وها هى فى يدي اقرؤها ، فاستعذت بالله وقلت : الحمد لله الذى جعل هذه هى « الخرق » ولم يضر بى الاسلام فتيلا . اخذتنى جدتى لامى من المهد ، وهى التى ارثيها فى هذه المجموعة وكانت منعمة موسرة فكفلتنى لوالدى ، وكانت تحنو على فوق حنوها ، وترى لى مخايل فى البر مرجوة .

ثم عرض لنشأته الدراسية فذكر انه دخل مكتب الشيخ صالح فى الرابعة من عمره ، واخيرا التحق بمدرسة الحقوق فوجد ممانعة من ناظرها بسبب صغر سنه ، ومكث بها سنتين ثم دخل قسم الترجمة وتخرج فيه بعد سنتين .

وبعد ذلك يروى لنا الدكتور احمد زكى ابو شادى فى العدد الرابع من مجلة « ابولو » ان المغفور له احمد شوقى استمر فى سرد تاريخ حياته فوصف فى ذهابه الى اوروبا لدراسة الاداب الفرنسية والحقوق ، وكيف تقبل دعوة رفاقه الفرنسيين الى مدنهم المتفرقة فى الجنوب وقضى فيها شهرين ، وقد صور مارأى فى هذه الاقاليم الفرنسية من كرم الضيافة فقال :

عرفت الفلاح الفرنسى فى داره وكنت القاه فى مزرعته وأماشيه فى الاسواق ، فيخيل الى انه قد خلف العرب على قرى الضيف واكرام الجار ، وكان اعجب مارايت مدينة « كاركاسون » وجدتها قسمين . والفيت القوم فيها صنفين فمنهم الباقون الى اليوم كما كان آباؤهم عليه فى القرون الوسطى ، بناؤهم ذلك البناء . ولباسهم ذلك اللباس . وعاداتهم واخلاقهم تلك العادات والاخلاق

وبعد انتهائه من السنة الثانية سافر فى صحبة الطلاب المصريين ومدير الارسالية الى انجلترا على نفقة الخديو توفيق ومكث فيها شهرا ولم يلبث هو واخوانه ان سئموها . وفى السنة الثالثة

اصيب بمرض شديد كان فيه بين الحياة والموت. واشار عليه الاطباء ان يقضى اياما تحت سماء افريقيا فوقع اختياره على الجزائر . وكان دليله اليها احد القضاة الفرنسيين الموظفين بها . وهو فى هذا يقول :

أما جو الجزائر فلا يعدله بين الاجواء فى صحوه وطيب نسمته مع توقد شمسه الا جنوب فرنسا ولم اتاثر فيها بشىء كتاثرى من رؤية المصريين فى القهاوى البلدية اذ اكثر اصحابها وغلمانها منهم ...

ولا عيب فى الجزائر سوى انها قد مسخت مسخا ، فقد عهدت مساح الاحذية فيها يستنكف من النطق بالعربية . واذا خاطبته بها لم يجبك الا بالفرنسية !

ثم يحدثنا الكاتب بعد ذلك ان امير الشعراء بعد ان اقام فى الجزائر اربعين يوما عاد الى باريس وحصل على الشهادة النهائية . ورأى الخديو عباس ان يبقى سنة اشهر اخرى وعاد الى مصر على أثرها . وفى سنة ١٨٩٦ ندب لينوب عن مصر فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى جنيف بسويسرا ، فاقام بها شهرا ثم رحل الى بلجيكا وزار المعرض الذى اقيم فى مدينة « انفرس » ثم أصيب بمرض فى عينيه فسافر الى الاستانة ومكث بها اربعين يوما .

ويحدثنا فى مذكراته عن سبب تسميه ديوانه بـ « الشوقيات » فيذكر صلته وهو يطلب العلم فى باريس بالامير شكيب ارسلان وكيف تمنى أن يرى مجموعة شعره بعنوان « الشوقيات » ثم يقول .. كانت وفاة والدى من نحو ثلاث سنوات ، فكان لى عجبا ان وجدت بين اوراقه شيئا كثيرا لى من مشتت منظومى ومنثورى ما نشر منهما وما لم ينشر ، قد كتب بعضه بالحبر . والبعض الاخر بالرصاص والكل بخط يد المرحوم ، وقد لفه فى ورقة كتبت عليها هذه العبارة : « هذا ما تيسر لى جمعه من اقوال ولدى احمد وهو يطلب العلم فى اوروبا ؛ فكنت كأنى اراه ، وانى

آمره ان يجمعه ثم ينشره للناس لانه لا يجد بعدى من يعتنى بشئونه ، وربما لم يوجد بعده من يعنى بالشعر والآداب »

فبينما انا ذات يوم تعب بهذه الاوراق ، حيران لوصية الوالد كيف أجريها ، اذ زارنى صديقى مصطفى بك رفعت فحدثته حدينى فسألنى أن أعيره الاوراق اياما ثم يعيدها الى ففعلت ، ثم لم يمض شهر حتى بعث بها الى واذا هى قد نسخت بقلم سليم يؤيده ذوق صحيح بحيث لم يبق الا ان تدفع الى الطابع فأخذتها ، وبودى لو وفيت صديقى المشار اليه حقه من شكر الصنع ؛ وانا اقول فى نفسى : لئن صدق ابى فى الاولى ، لقد ظلم فى الثانية فان الخير لايزال فى الناس .

ثم يعلق الدكتور احمد زكى ابو شادى على هذه المذكرات بقوله :

الى هنا انتهى ماكتبه الفقيد بقلمه عن حياته ؛ وكان قد بلغ فى ذلك الوقت — وهو ما انقضى عليه اكثر من ثلاثين عاما — قمة الشهرة فكان يدعى : « أمير الشعراء » فى مصر وغيرها من اقطار العالم العربى ، ومازال الزمن يمضى به ، ومجده فى امارته يزداد تألقا ، فان السنين التى قضاها شوقى بعد ذلك كانت حافلة بالعظائم ، اذ قضى حوالى خمسة عشر عاما ينشر عيون القصائد فى شتى الاغراض السياسية والاجتماعية ، وتلقى قصائده من الجمهور فى مصر وغيرها الاعجاب والتقدير . ثم وقعت الحرب العظمى وتغيروجه الحالة السياسية فى مصر وكان حظه من هذا التغيير أن نفى الى الخارج ؛ وقضى من حياته فى المنفى نحو خمسة أعوام لم ينس فيها وطنه واهله فخلد له ولهم وللتاريخ العربى انارة من شعره لاتمحى على ذكر الدهور .

فلما وضعت الحرب أوزارها عاد شوقى فيمن عادوا الى الوطن ونحا منذ ذلك الحين بالشعر والادب منحى جديد غير ما كان ماضيا فيه بنفس الهمه والشغف اللذين كان يحسهما فى صباه وشبيبته ؛ ومازال يعمل لهما حتى اللحظة الاخيرة من حياته

شوقى مرآة عصره

اذا كان استاندال قد عرف الرومانتيكى بأنه من تجاوبت منتجاته مع أحاسيس أمته ، وكانت لوحة لآلامها وأناتها ، وصدى لآمالها ورغباتها ، وبالاجمال كانت مرآة للعصر كله ، فان شوقى كان خير من يصدق عليه هذا التعريف فى مصر ابان نهضتها الحديثة .

تعقب شوقى احداث هذه النهضة وسجل خطوطها الرئيسية وخلد فى شعره كثيرا من معالمها ومميزاتها ، وضرب للشعراء أقوى الامثلة وأصدقها فى المساهمة الفعالة فى كل ما لم بأمته من أفاعيل القدر وأفانين الزمان . ولم يكن يكتفى فى ذلك كده بموقف الرسم والتصوير ، بل كان يشعر القارىء بأن مآسى مصر تجرحه فى قلبه ، وتحز فى نفسه ، وتصيبه فى عزته وكرامته . وما أبدع هذه اللوحة الحزينة التى صور عليها حادثة دنشواى التى لايمحوها مر الازمان ولا كر الدهور من قلوب المصريين مهما تعاقبت الاجيال دوليك أفرعا وأصولا . واليك هذه اللوحة :

يا دنشواى على رباك سلام — ذهبت بأنس ربوعك الايام
شهداء حكمك فى البلاد تفرقوا — هيهات للشمل الشتيت نظام
مرت عليهم فى اللحود أهلة — ومضى عليهم فى القيود العام
كيف الارامل فيك بعد رجالها — وبأى حال اصبح الايتام
عشرون بيتا أقفرت وانتابها — بعد البشاشة وحشة وظلام
ياليت شعرى فى البروج حمائم — أم فى البروج منية وحمام
نيرون لو ادركت عهد كرومر — لعرفت كيف تنفذ الاحكام
نوحى حمائم دنشواى وروعى — شعبا بوادى النيل ليس ينام
ان نامت الاحياء حالت بينه — سحرا وبين فراشه الاحلام
متوجع يتمثل اليوم الذى — ضجت لشدة هوله الاقدام
السوط يعمل والمشانق اربع — متوحدات والجنود قيام
والمستشار الى الفظائع ناظر — تدمى جلود حوله وعظام
فى كل ناحية وكل محلة — جزعا من الملأ الاسيف زحام
وعلى وجوه الثاكلين كآبة — وعلى وجوه الثاكلات رغام

يحدثنا التاريخ انه على اثر تلك الحملة القاسية المخلصة التى اضرم لهيبها ذلك الزعيم النقي الوفى المغفور له مصطفى كامل على اللورد كرومر بسبب حادثة دنشواى اسرعت السياسة الانجليزية المفعمة باللؤم والمكر الى سحب عميدها تنفيذا لمبادئها اللولبية التى تتظاهر بالتقهقر ارضاء للسذج من بسطاء العقول ريثما يخمد اللهب ثم تعود سيرتها الاولى افدح مما كانت لتيئس فريقا ، وتطمع آخر ، وترهب قوما وتحير آخرين .

وقبل ان يغادر كرومر وادي النيل لم يعدم شرذمة من المتملقين تقيم له حفلة وداع تظهر فيها ولاءها للمحتل ، وفى كل زمان وكل مكان يوجد السفلة المارقون ، والخونة الغادرون الذين ماتت ضمائرهم وفقدوا كل معالم العزة والكرامة .

ولما لم تكن انجلترا بغافلة عن تقدير هؤلاء واولئك ، ووضعهم فى الدرك الاسفل الذى يليق بهم ، فقد عنى كرومر فى حفلة الوداع بان يصوب الى قلوب هذا النفر ـ ان كان لهم قلوب ـ اشد السهام تسمما ، والى كراماتهم ـ استغفر الله ، فليس لهم من الكرامة ادنى حظ ـ احط انواع الاهانة والاذلال ، بل لقد وجه الاساءة حتى الى شخصية الخديوى اسماعيل أمام نجله الامير حسين كامل ، وكان من شهود هذه الحفلة التاريخية المخجلة التى ستبقى عارا خالدا فى جباه كل من ساهموا فيها من قريب أو من بعيد . وقد أرسل المغفور له شوقى بك قلمه فى تصوير شعور الامة بازاء زوال كرومر من أرضها ، وفى تخليد مسبة ذلك الفريق الغادر الرعديد فقال طيب الله ثراه :

لما رحلت عن البلاد تشهدت	فكأنك الداء العياء رحيلا
اوسعتنا يوم الوداع اهانة	ادب لعمرك لايصيب مثيلا
فى ملعب للمضحكات مشيد	مثلت فيه المبكيات فصولا
شهد (الحسين) عليه لعن اصوله	وتصدر (الاعمى) به تطفيلا
جبن اقل وحط من قدريهما	والمرء ان يجبن يعش مرذولا
لما ذكرت به البلاد وأهلها	مثلت دور مماتها تمثيلا
انذرتنا رقا يدوم وذلة	تبقى وحالا لاترى تحويلا
احسبت ان الله دونك قدرة	لايملك التغيير والتبديلا

الله يحكم فى الملوك ولم تكن ... دول تنازعه القوى لتدولا
فرعون قبلك كان اعظم سطوة ... واعز بين العالمين قبيلا
اليوم أخلفت الوعود حكومة ... كنا نظن عهودها الانجيلا
دخلت على حكم الوداد وشرعه ... مصرا فكانت كالسلال دخولا
هدمت معالمها ودكت ركنها ... واضاعت استقلالها المأمولا
قالوا: جلبت لنا الرفاهة والغنى ... جحدوا الاله وصنعه والنيلا

جعل شوقى يساهم فى كل حدث من احداث البلاد بنصيب موفور من شعور عميق يسجله فى شعره ، واحساس دقيق يصوره فى نثره ، وعاطفة وطنية يرسمها فى خرائده ، وخلق متين يخلده فى فرائده . وبالاجمال نطفق يرافق الروح القومية فى جميع مواقفها ويلبى دعاء النهضة على اختلاف هواتفها ، ولاسيما بعد ثورتها التحريرية التى اندلع اوارها فى سنة ١٩١٩ والتى كانت ستقتلع الاحتلال الانجليزى من اساسه لولا ان قضت عليها الانانية البغيضة ثم الحزبية المقيتة ، التى كانت بمثابة نكسة انتهت بوفاة المريض بعد ان ابل وظهرت عليه مخايل الصحة والعافية .

ولم يكن شوقى بالشاعر الوجل المحتاط الذى يلمح للاحداث على

بعد ، او يلوح للوقائع فى حذر ، وانما كان يقـذف بنفسه فى معمعانها ؛ شاهرا قلمه كأشجع قواد الجيوش واعظمهم صلابة فى وقت الخطر ، ولم يكن فى أى ظرف من الظروف الجدية يقصر فى نصح او يقعد عن عظة صريحة يقدمها لمن بأيديهم الحل والعقد دون ان يهاب سلطانهم ؛ او يخشى طغيانهم . فمن ذلك مثلا انه عندما انتزع ثروت باشا من انجلترا مشروع ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ قامت حوله فى مصر ضجتان : احداهما تتباهى بان هذا المشروع قد سما الى العلياء ، لانه اخذ لا اعطاء ، ولانه قضى على الحماية البشعة الممقوتة ، ورفع رئيس الدولة من سلطان الى ملك ، واتاح لنا دستورا يكفل الحرية العامة ، ويضمن السلامة التامة الى غير ذلك من الشقشقة التى كان انصار حكومة هذا المشروع يتفيهقون بها ، مانين على الامة بهذا الزبد وذلك الهباء الذى ليس له ادنى قيمة فى نظر العقل السليم مادام الاحتلال يكتم انفاس البلاد

واما الضجة الاخرى فكانت حاقدة على المشروع ومن اتوا به ، ساخطة على جملته وتفصيله ، ناقمة من نصه وروحه ، ناعية على الفاظه ومعانيه ، مقذعة لمغازيه ومراميه ، لا لا انه تافه ضئيل مليء بالظواهر البراقة ، مصوغ فى العبارات المنمقة دون عمق او اشتمال على مايرضى رانبات الامة وينقع غلة البلاد ، ولكن لانه اتى على ايدى غيرهم ، ففوت عليهم الظفر بالتطبيل والتزمير .

وهكذا جعل الفريقان يتراشقان بالسباب ، ويتبادلان انواع الهجاء المقذع ، والوان الاتهام المفزع ، كل ذلك والعدو جاثم على صدر البلاد ، رابض لاولئك الاطفال بالمرصاد ، يبتسم لتناحرهم ساخرا ، ويسعد بتقاتلهم مستهترا ، فروعت هذه الحالة الاسيفة امير الشعراء ، فأحس بان هؤلاء جميعا فى حاجة الى نصيحة قاسية تردهم الى الصواب ، وتلزمهم فى حدود العقل والحكمة ، وتنذرهم بان دعاواهم الطويلة المريضة ليس لها اقل قيمة فى ميزان التاريخ ، وانما هو وحده الحكم الذى ترضى حكومته ؛ وانه لن يعتمد فى حكمه على هذه التشدقات من جانب



انصار حكومة المشروع ، ولا على تلك الاراجيف من جانب خصومها السياسيين ، بل سيؤسس حكمه على نظرته الدقيقة الفاحصة التى لاتضل ولاتنخدع فأنشأ يقول :

ضموا الجهود وخلوها منكرة ... لاتملئوا الشدق من تعريفها عجبا
أفى الوغى ورحى الهيجاء دائرة ... تحصون من مات او تحصون ماسلبا
خلوا الاكاليل للتاريخ ان له ... يدا تؤلفها درا ومخشلبا (١)
امر الرجال اليه لا الى نفر ... من بينكم سبق الانباء والكتبا
املى عليه الهوى والحقد فاندفعت ... يداه ترتجلان الماء واللهبا
اذا رايت الهوى فى امة حكما ... فاحكم هنالك ان العقل قد ذهبا
قالوا الحماية زالت قلت لاعجب ... بل كان باطلها فيكم هو العجبا
راس الحماية مقطوع فلاعدمت ... كنانة الله حزما يقطع الذنبا

على نفس النحو الذى بدت عليه مصر فى مرآة شعر شوقى مرتدية ثيابها السياسية ، بدت كذلك فى هذه المرآة تختال فى حللها الاجتماعية المختلفة الصور والالوان، المتباينة المناظر والمظاهر، فأبرزها على مسرح الحياة تارة تفكر فى حل مشاكلها العويصة او تتأمل فى فتح مغالق معضلاتها المعقدة ، واخرى تحاول استكشاف غوامض الغازها المبهمة ، وحينا تهتف بانها قد عرفت اسرار السيادة والنجاح ،وهى محصورة فى التوسع فى العلم والتعمق فى المعرفة ، وطورا تسرع الخطا لتسير فى طليعة ركب الكون ومقدمة موكب الوجود . كل ذلك يراه الناظر فى منتجات شوقى بارزا ملموسا لايستعصى حتى على اوساط الناس وانصاف المثقفين منهم . وانظر اليه كيف يرافق مصر فى ذلك الطريق المحفوف بالاشواك الذى تسلكه الكنانة لتحرير المراة ولا تزال به حتى تعبده وتمهده . وامير الشعراء لها فى هذا الجهاد خير ناصر ومعين . فهو يبدا دعاءه لتحرير المراة براى الاسلام فيقرر ان نبى المسلمين قد اباح لنسائه وبناته

---

(١) المخشلب هو الخزف ، وهو يقابل فى التاريخ النتائج التافهة كما يقابل الدر الثمار النافعة .

ان يشتغلن بالاعمال الاقتصادية ويعنين بالنواحى السياسية والعلمية والفنية . مشيرا بالاولى الى السيدة خديجة . ملمحا بالثانية والثالثة الى السيدة عائشه . معلما فى الرابعة الى السيدة سكينة بنت الحسين . وتاريخ هؤلاء الفضليات فى الاقتصاد والعلوم السياسية والادب معروف مشهور . فاذا انتهى من ذلك هرع الى اسانيد اخرى تؤيد وجوب تحرير المرأة ومساهمتها فى الشئون العامة . فبين كيف انها اشتغلت بالقضية المصرية فكانت فيها مثال الجد والنشاط . والمثابرة والثبات . وانها كلفت بالاشتراك فى المظاهرات والثورات . فاخذت منهما بنصيب موفور . وانها عنيت بالبر والاحسان فكانت فيهما نموذجا يحتذى . ومثلا ينسج على منواله . وهاك مايقوله فى رسم هذه الصورة النسائية الفاتنة :

هذا رسول الله لم	ينقص حقوق المؤمنات
العلم كان شريعة	لنسائه المتفقهات
رضن التجارة والسيا	سة والشئون الاخريات
ولقد علمت بناته	لجج العلوم الزاخرات
كانت سكينة تملأ الـ	دنيا وتهزأ بالرواة
روت الحديث وفسرت	آى الكتاب البينات
وحضارة الاسلام تنـ	ـطق عن مكان المسلمات
بغداد دار العالما	ت ومنزل المتأدبات
ودمشق تحت امية	ام الجوارى النابغات
ورياض اندلس نميـ	ـن الهاتفات الشاعرات
ادعوا الرجال لينظروا	كيف اتحاد الغانيات
والنفع كيف اخذن فى	اسبابه متعاونات
لما راين ندى الرجا	ل تفاخرا او حب ذات
وراين عندهم الصنا	ئع والفنون مضيعات
والبر عند الاغنيا	ء من الشئون المهملات
اقبلن يبنين المآ	ثر للنجاح موفقات

* * *

للصالحات عقائل الوادى هوى فى الصالحات
اللـه انبتهن فى ... طاعاته خير النبات
فأتين اطيب ما اتى ... زهر المناقب والصفات
الم يكف ان احسن حتى زدن حض المحسنات
يمشين فى سوق الثوا ... ب مساومات رابحات
يابسن ذل السائلا ... ت وما ذكرن البائسات
فوجوههن وماؤها ... ستر على المتجملات
مصر تجدد مجدها ... بنسائها المتجددات
النافرات من الجمو ... د كأنه شبح الممات
هل بينهن جوامدا ... فرق وبين المومياءات
لما حضن لنا القضيـة كن خير الحاضنات
غذينها فى مهدها ... بلبانهن الطاهرات
وسبقن فيها المعلميـن الى الكريهة معلمات
ينفثن فى الفتيان من ... روح الشجاعة والثبات
يهوين تقبيل المهند او معانقة القناة
ويرين حتى فى الكرى ... قبل الرجال محرمات

وكما كان شوقى صدى لاحاسيس امته فى مشكلة المراة كان رجعا امينا لصوتها الخالدالهاتف بالدعاء للعلم والتعليم . واعلن فى صراحة ووضوح ان مصر تسير فى طريق الثقافة اصبعا كلما سارت الامم الاخرى ميلا . وان هذا الخمول فى التقدم . وذلك الركود فى الجهل ليس لهما سوى سبب واحد هو تعاليم دنلوب الذى جاء الى مصر ليفرض ارادته على نظمها الثقافية بعد ان زود من ثعابين الاستعمار فى بلاده بأشأم التعاليم واسوا الخطط واردا المناهج . واستحلفوه بكل عزيز لديه - وليس اعز عليه من مصلحة بلاده - ان يتخذ هذه العبارة ورده الدائم الذى يتعبد به صباح مساء . وهى ان اوثق العوامل لتثبيت قدم الاستعمار هو الجهل . فاذا انتهى من تلاوة هذا الورد حين يصبح بذل كل جهده فى تطبيقه لتبقى مصر رازحة تحت نير الامية فيبقى استعمارهم البغيض ببقاء هذه

الحالة المشئومة على مصر • والهنيئة للانجليز ، ومصائب قوم عند قوم فوائد

ثم يأخذ شوقى بعد ذلك فى الحض على تعميم العلم مذكرا هؤلاء المفرطين فى حقوقهم الاساسية • والغافلين عن مفتاح سجنهم الوحيد وهو المعرفة الصحيحة • والثقافة الواسعة • لاذعا اياهم بوضع الموازنة بينهم وهم لايستطيعون ان يستقلوا بصنع ابرة وبين اجدادهم الذين رفعوا تلك الآثار الشامخة ونبغوا ونبغوا فى العلوم والفنون حتى كانوا قادة أهل الدنيا على الاطلاق • وانظر ماذا يقول امير الشعراء فى تصوير ذلك كله من قصيدة « العلم والتعليم » :

كانت لنا قدم اليه خفيفة … ورمت بدنلوب فكان الفيلا
حتى رأينا مصر تخطو اصبعا … فى العلم ان مشت الممالك ميلا
تلك الكفور وحشوها أمية … من عهد ((خوفو)) لم تر القنديلا
تجد الذين بنى ((المسلة)) جدهم … لا يحسنون لابرة تشكيلا
ويدللون اذا أريد قيادهم … كالبهم تأنس اذ ترى التدليلا
يتلو الرجال عليهمو شهواتهم … فالناجحون ألذهم ترتيلا
الجهل لا تحيا عليه جماعة … كيف الحياة على يدى عزريلا
والله لولا ألسن وقرائح … دارت على فطن الشباب شمولا
وتعهدت من أربعين نفوسهم … تغزو القنوط وتغرس التأميلا
عرفت مواضع جدبهم فتتابعت … كالعين فيضا والغمام مسيلا
تسدى الجميل الى البلاد وتستحى … من أن تكافأ بالثناء جميلا
ماكان دنلوب ولا تعليمه … عند الشدائد يغنيان فتيلا

بمثل هذه العناية التى رأيناه يبذلها فى معالجة المشكلات التى مثلنا لها آنفا ، وبنفس الاخلاص للوطن والتفانى فى مصلحته قد ألم بكثير من جوانب الحياة الاجتماعية ، فحاول اصلاح مافسد ، وتقويم ما اعوج ، وانارة ما أظلم ، ولم يقصر أدنى تقصير فى بذل النصح للمخطئين ، والغض من كبرياء المغرورين ، واهانة الخائنين الغادرين ، والتشهير بالمستعمرين الغاصبين ، ورسم خطط المجد للشبان الاحداث ، وتذكيرهم بعظمة أجدادهم فى الاجداث ، وانبائهم بأن أسلافهم الماجدين ، قد سادوا

الدنيا قبل آلاف السنين ، ولم يكن ذلك من قبيل التباهى المأفون ، كما يتصور المتفيهقون، وانما هو من قبيل العظة البالغة، واثارة الحمية السامية، والتحمس الرفيع فى نفوس الابناء والاحفاد، باظهار جلال الآباء والاجداد ، ليضع الشبان نصب أعينهم دائما هذه الحكمة الخالدة :

نبنى كما كانت أوائلنا ... تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

وفى الحق لقد أفاض شوقى بك فى هذا المعنى وأسهب ، وتفنن فى أساليبه فأنجب ، حتى بسط بين معاصريه من تاريخ أسلافهم العظماء صفحة مغرية ، ووضع أمام مواطنيه لاجدادهم صورة مغوية ، وأنطق آثارهم بأصوات علوية تدعو الابناء الى الشغف بالمجد والتلهف على الخلود . وليس الامر - كما زعم حساد شوقى وهم كثر - من باب التعلق بأذيال الموتى ونبش القبور ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا ، فلقد عرف شوقى أنجع الوسائل لحفز الشباب ودفعه الى المجد بقوة لا تنفد ، وطاقة لا تتلاشى ، فهو اذ يتقن لهم تصوير عظمة أجدادهم كأنه يقول لهم بلسان فصيح : انكم لو قصرتم فى حقوق الوطن وقعدتم عن انهاضه والسمو به الى العلياء، ورضيتم حياة الذل والاستكانة، لكنتم غير جديرين بالانتساب الى أولئك الاماجد ، ولجلبتم لهم الخجل والعار ، وجنيتم على تاريخهم وسمعتهم جناية الفجار على الابرار . ولا ريب ان هذا المعنى يشوك الشباب ويجرح عزته ، ويستثير حميته ، ويستنهض همته . وانظر ماذا يقول فى قصيدة « توت عنخ أمون » :

فكانوا الشهب حين الارض ليل ... وحين الناس جد مضللينا
مشت بمنارهم فى الارض (روما) ... ومن أنوارهم قبست (أثينا)
ملوك الدهر بالوادى أقاموا ... على (وادى الملوك) محجبينا
فرب مصفد منهم وكانت ... تساق له الملوك مصفدينا
تقيد فى التراب بغير قيد ... وحل على جوانبه رهينا
تعالى الله كان السحر فيهم ... أليسوا للحجارة منطقينا
غدوا يبنون مايبقى وراحوا ... وراء الآبدات مخلدينا
اذا عمدوا لمأثرة أعدوا ... لها الاتقان والخلق المتينا

وليس الخلد مرتبة تلقى | وتؤخذ من شفاه الجاهلينا
ولكن منتهى همم كبار | اذا ذهبت مصادرها بقينا
وسر العبقرية حين يسرى | فينتظم الصنائع والفنونا
وآثار الرجال اذا تناهت | الى التاريخ خير الحاكمينا

وفى هذه القصيدة عينها يسجل امير الشعراء ما شاع اذ ذاك وتحدثت به العامة والخاصة من ان الانجليز قد سرقوا من كنوز

اعلان

تقبل العطاءات بمكتب تفتيش مشروعات رى وسط الدلتا بطنطا عن الاعمال الموضحة بعد فى المواعيد المذكورة أمام كل منها وهى :

١ – لغاية الساعة ١٢ ظهر يوم السبت ١٩٥٣/٧/٢٥ عن عملية انشاء شبكة المصارف المغطاة بمنطقة بروى بمديرية المنوفية

٢ – لغاية الساعة ١٢ ظهر يوم الثلاثاء ١٩٥٣/٧/٢٨ عن عملية انشاء شبكة المصارف المغطاة بمنطقة سنتريس بمديرية المنوفيه

٣ – لغاية الساعة ١٢ ظهر يوم الخميس ١٩٥٣/٧/٣٠ عن عملية انشاء شبكة المصارف المغطاة بمنطقة منوف الاعلى بمديرية المنوفية

ويمكن الحصول على الشروط والمواصفات الخاصة بهذه الاعمال من مكتب التفتيش المذكور بطنطا بتقديم طلب على ورقة تمغة من فئة الخمسين مليما عن كل عملية على حده نظير دفع مبلغ ٧٥٠ مليما (سبعمائة وخمسون مليما) بخلاف ١٥٠ (مائة وخمسون مليما) أجرة البريد لكل عملية وعلى المقاولين الاطلاع على الرسومات الخاصة بهذه الاعمال بمكتب التفتيش بطنطا فى أوقات العمل الرسمية

وكل عطاء غير مصحوب بتأمين مؤقت كامل قدره ٢ ٪ (اثنان فى المائة) من قيمة العطاء لا يلتفت اليه اطلاقا

٤٨٧٧

توت عنخ امون احجارا ثمينة ،وتماثيل نفيسة وحليا لا تقدر بثمن ، فأراد شوقى ان يخلد هذه اللصوصية الانجليزية بأبشع مظاهرها لانها خيانة لاموات قد ائتمنوا عليهم ، وكانت الصحف والبرقيات قبل ذلك الحين قد نشرت ان الانجليز قد خطفوا خليفة تركيا واخفوه فى مكان حصين ، فاتخذ شوقى هذا الحادث دليلا على سرقة الانجليز للآثار المصرية فقال مخاطبا رئيس الحفريات :

سبيل الخلد كان عليك سهلا	وعادته تكد السالكينا
رأيت تنكرا وسمعت عتبا	فعذرا للغضاب المحنقينا
ابوتنا واعظمهم تراث	نحاذر ان يئول لآخرينا
ونأبى ان يحل عليه ضيم	ويذهب نهبة للناهبينا
سكت فحام حولك كل ظن	ولو صرحت لم تثر الظنونا
يقول الناس فى سر وجهر	ومالك حيلة فى المرجفينا
أمن سرق الخليفة وهو حى	يعف عن الملوك مكفنينا ؟

وابدع من هذا كله ان شوقى لم يفته - فى ذلك الحين الذى لم يكن الوعى فيه قد استيقظ بعد - ان يسجل شعور الامة بازاء حكم الفرد ، ودعوتها لحريتها ،وتمسكها بحقوقها الطبيعية التى أولها ان الامة هى مصدر السلطات،وان رئيس الدولة يجب ان ينزل عند ارادة الشعب ، وان لا يحاول ان يتجبر او يتغطرس ، فان زمن الطغيان قد فات ، ونظام الحكم المطلق قد ولى الى غير رجعة ، وان الملك فؤادا - رغم خضوع سلطانه ، واحتلال بلاده - اعظم من فرعون على جلاله وعزه وامتلاكه ناصية الشرق ، ولكن لاتحسب ان هذا كان من جانب شوقى ملقا للملك او تزلفا اليه كما يخطر بالبال للوهلة الاولى، كلا بل كان ذلك التصريح عند الذين يعقلون مشتملا على اهانة مصوغة فى انذار اذا لم يسجل له ميزة ذاتية على فرعون ، وانما هى ميزة ناشئة من سببين خارجين عن ذات الملك : اولهما الاسلام ،وثانيهما الدستور الذى يحول بينه وبين الطغيان والجبروت . واليك هذه الحكم الخالدات :

زمان الفرد يا فرعون ولى	ودالت دولة المتجبرينا

واصبحت الرعاة بكل ارض   علـى حكم الرعيـة نازلينـا
« فؤاد » اجل بالدستور ملكا   واشرف منك بالاسلام دينـا

ولنقتصر على هذه العجالات التى اوردناها من ذلك الخضم الهائل من شعر شوقى المترامى الاطراف المتشعب النواحى ، المتسع الجنبات ، اذ لو حاولنا ان نتعقب من شعره ماتجاوب مع حاجات البلاد ، وكان صدى لصوت الامة ورجعا لندائها وترديدا لدعائها ، ومساهمة فى كل ماتزاوله وتحاوله لاستنفد منا ذلك عدة مجلدات ، ونحن هنا فى موقف محدود ، ومقدار من الصفحات معدود ، فلنقف اذن عند هـذا الحد من الشـعر ، مارين مر السحاب بثمار النثر ، ملمعين منهـا الى ما سـاير القريض فى صورته ، وشابهه فى غايته ، فلم يوضـع لتعليم الـكتابة والتمـرين على الانشاء ، وانما أرسل بغية الهدم والبناء ، والقدح والثناء ، شأنه شـأن الشعـر سـواء بسواء ، فعرض فيه للدين وقداسته ، والوطن وحرمته ، وأسباب هويه ورفعتـه ، وقنـاة السـويس وأهميتها السياسية ، ونتائجها الاجتمـاعيـة ، وفـوائـدها الاقتصـادية ، وكل ما يتعلـق بالشئون العامة من قريب أو من بعيد ، كالحقيقة والخير ، والثبات والصبر ، والطغيان والجـور ، والجندى المجهول ، والحـكام الذين يستذلون للمستعمرين ، ويتـلذذون باذلال المواطنـين ، ويمالئون الغاصبين ، ويعاهدونهم على ان يطلقوا أيديهم فى مرافق البلاد ، مقابل منحهم سلطة الاستبداد ، وحرية التصرف فى فى حقـوق الافـراد . ويشبه حـكام هـذا النوع بالخيل التى تسرج وتركب وان كانت لجمهـا من ذهب ، وقيودها من فضة ، وما ابـدع تصـويره لذكريات منفاه التى اشـتملت على وصفه قناة السويس وما مر بوضعها من احداث وتقلبات ، وما بيت فى شأنها من نيات ومحاولات ، وما اختبأ تحتها من أغراض وغايات . ولا يفوته فى هذه الذكريات أن يسجل تصرفات أولئك الحكام المتلمقين الذين نفوه بأمر سادتهم المستعمرين . وهـو فى هـذا يقول :

«تلكما يا ابنى القناة ، لقومكمافيها حيـاة ، طريق التجـارة ، والوسيلة والمنارة ، ومشـــروع الحضارة .

تعبرانها اليـوم على مزجاة كأنها فلك النجاة ، خرجت بنـا بين طوفان الحوادث ، وطغيان الكوارث ، تفارق برا مغتصبه مضرى الغضبة ، قد اخذ الاهبة ،واستجمع كالاسد للوثبة ....

ان للنفى لروعة ، وان للنأى للوعة ؛ وقد جرت أحكام القضاء، بأن نعبر هـذا الماء ، حين الشرمضطـرم ، واليأس محتـدم ، والعدو منتقم ، والخصم محتكم ،وحين الشامت جذلان مبتسم ، يهزأ بالدمع وان لم ينسـجم ،نفاناحكام عجم ؛ وأعوان العدوان والظلم ، خلفناهم يفرحون بذهب اللجم ؛ ويمرحـون فى أرســان يسمونها الحكم .

ضربونا بسيف لم يطبعوه ،ولم يملكوا ان يرفعوه اويضعوه ، سـامحهم فى حقـوق الافراد ،وسامحوه فى حقـوق البـلاد ، وما ذنب السـيف اذا لم يستح الجلاد .

ماذا تهمسان ؟ كأنى أسمعكماتقولان : أى شيء بداله ؛ على هذه الضاحية ؟ وماذا شجا خيـالهمن هذه الناحية ؟ وأى حسن أو طيب ؛ لملح يتصبب فى كثيب؟ماء عكر ، فى رمل كدر ، قنـاة حمئة ؛كأنها قنـاة صـدئة ؛بل كأنهـا وعبريها رمال ؛ بعضهـا متماسك وبعضها منهال ، وكأن راكب البـحر مصحـر ؛ وكأن صاحب البر مبحر .

ويدكما ليس الكتاب بزينةجلده ، وليس السيف بحليـه غمده ، تلك التنائف من تاريخكم صحائف ؛ وهذه القفار ؛ كتب منه وأسفار ، وهذا المجاز هـو حقيقة السيادة ؛ ووثيقة الشقاء أو السعادة ؛ خيط الرقبة ، من اغتصبه اختص بالغلبة ؛ ووقف للاعقاب عقبة ؛ ولو سكت لنطقت العبر ، وأين العيان وأين الخبر ، آنظرا تريا على العبـرين عبـرة الايام : حصون وخيام ، وجنود قعود وقيام ،جيش غيرنا فرسانه وقواده ، ونحن بعرانه وعلينـا أزواده ، ديك على غير جداره ،خلاله الجو فصاح ، وكلب فى غير داره ، انفرد وراء الدار بالنباح.

القنة وما أدراكما ما القناة ؟حظ البـــلاد الاغبر ، من التقاء الابيض بالاحمر ، بيد أنها أحلام الاول ، وأماني الممالك والدول ، الفرعنـــة حاولوها ، والبطالسة زاولوها ، والقياصرة تناولوها ، والعرب لامر ما تجاهلوها ، الى أن جرى القدر لغـايته ، فانفتح البرزخ بعنايته ، والتقى البحران تحت رايته الى أن قال :

وليس احد اولى بالوطن من احد . فما - باستور - والشفاء فى مصبه ، ولا - كمال - والحياة فى نصله أولى بأصـل الوطن وفصله ، من الاجير المحسن الى عياله ، الكاسب على اطفاله ، الفادى الوطن بأشباله ، وهم رأس ماله ، فلا تتحمد على الاوطان بآثار كرم وان حملت عليها الهرم او نقلت اليها ارم ، فانك لم تزد على ان اقمت جدارك وحسنت دارك ، ولا تنس أنها الآلة التى رفعتك والهالة التى اطلعتك ولا تحجب ذات الـــوطن بذاتك او تطرف العيون عن وجهه بقذاتك

والوطن لايتم تمــــامه ، ولا يخلص لاهله زمامه ، ولا يكون الدار المستقلة ، ولا الضيعة الخالصة الغلة ، ولا يقال له البلد السيد المالك ، وان تحلى بالقاب الدول والممالك ، حتى يجيــل العلم فيه يد العمارة ، ويجمعه بين دولاب الصناعة وســـوق التجارة

فياجيل المستقبل ، وقبيل الغد المؤمل ، حاربوا الامية فانها كسح الامم وسرطانها والثغرة التى تؤتى منها أوطانها ، ظلمات يعربد فيها خفاش الاستبداد وقبور كل مافيها لضبعه غنيمة وزاد ، وتذرعوا بذرائع العلم الصحيح ، اطلبوه فى مدارس الزمان وحلقاته وخذوه عن جهابذته وثقـاته ، واعلموا ان انصاف الجهـــال لا الجهل دفعوا ، ولا بقليل العلم انتفعوا ، وبنوا الوطن الواحد اخوة وان ذهب كل فـــريق بكتاب ، ووصلت كل طائفة من باب ، واتبع اناس الانجيل واناس اتبعوا التنزيل .



نسبه وحياته :

ولد السيد مصطفى بن محمدبن محمد بن حسن بن محمد بن لطفى فى مدينة منفلوط من مدن الوجه القبلى فى جنوب مصر سنة ١٨٧٦ ميلادية الموافقة لسنة ١٢٩٣ هجرية من ابوين كريمين ينتهى نسب أولهما الى الحسين ابن على بن أبى طالب . وثانيهما الى أسرة تركية معروفة بالشرف العظيم والمجد المؤثل ، وأسرته لابيه فى مدينة منفلوط اسرة مشهورة بالشرف والتقوى والعلم .. وكثير من أفرادها قضاة شرعيون من نحو مائتى سنه .. ووالده السيد محمد لطفى قاضى منفلوط الشرعى ...

دراسته :

بعد ان حفظ القرآن الكريم فى المكتب كما هى العادة أرسله والده الى الازهر حسبما تقتضى تقاليد أسرته ، فما مرت به سنوات قلائل حتى عرف بين اقرانه بالذكاء والفطنة وسلامة الذوق فى الفهم ، ثم نزعت به نفسه الى مذهب فى التعليم غير المذهب الذى يذهب اليه الازهريون فى دراستهم ، فكان لا يطالع دروسه فى الكتب الازهرية الا على صورة تكفل له فهم جواهر المواضيع والتثبت من حقائقها غير حافل بما تشتمل عليه عادة من المناقشات اللفظية والمنازعات القشرية ، فكان لهذه الخطة فى التعليم اعظم تأثير فى سلامة ذوقه ، وصفاء ذهنه ، وأصبح له متسع من الوقت ينفقه فى دراسته فى كتب الطبيعة والاخلاق والادب والحكمة حتى غلبت عليه تلك العلوم خصوصا

الادب منها ، وشغف بها عماسواها شغفا ملك عليه قلبه ، واستاثر بلبه ، فعلت مداركه ، وصقلت مرآة ذهنه ، وهتف يترنم بالمقاطع الشعرية والجمل النثرية ، وضمنها ما شاء الله ان يضمنها من عيون الشعر وأفانين القول فى الاخلاق والاداب ..

ثم لحق بعد ذلك بالمرحوم الشيخ محمد عبده والتصق به التصاق الولد بأبيه ، واكثر من مصاحبته له وملازمته اياه عشر سنين كاملة ، فكمل من عمله ، واتم من أدبه ما كان غير ناضج وكان الاستاذ - رحمة الله عليه - يعجب به كل الاعجاب ، ويثنى على ذكائه وفطنته الثناء الجميل ، ويعلل نفسه بأنه سيكون من أفضل المنتفعين بعلمه ، والناشرين لمبادئه وتعاليمه ، وما زال هذا شأنه معه حتى لحق الشيخ - رحمه الله عليه - بربه ، فحزن عليه حزنا شديدا حمله على هجر الازهر وسفره من القاهرة وانزوائه فى بلدته منفلوط برهة من الزمان كاد ينساه الناس فيها حتى طلعت طلائع رسائله المشهورة فى جريدة المؤيد سنة ١٩٠٨ فالتفت القارئون لها ، ثم زحفوا اليها ، ثم تزاحموا عليها تزاحم الابل الهيم على وردها ؛ فكانوا يعدون لها ايام الاسبوع يوما بعد يوم ، ويترقبون لرؤيتها ما يترقب الضال فى ظلمة الليل البهيم من الفجر الطالع ، والظامىء فى المهمه القفر من الغيث الهامع ، فكانت ترد عليه الرسائل العديدة عشرات ومئات من ادنى مصر الى اقصاها ، ومن منبع النيل الى مصبه ، ومن كافة الاقطار العربية متضمنة الاسئلة المختلفة فى الحوادث والوقائع والمسائل الاجتماعية والاخلاقية . فاصبحت الامة تعده منارها الذى تهتدى به فى ظلمات الشبهات ، وموئلها الذى تعتمد عليه فى حل المشكلات ، ولا أظن ان الامة العربية شغفت ببيان كاتب ، وجمال أسلوبه ودقة مسلكه فى هذا العصر الاخير ، شغفها برسائل المترجم له ، ولا أظن ان السبب فى ذلك الا انه قد فاجأهم من هذا الاسلوب

العربى الفصيح بما لا عهد لهم بمثله الا فى رسائل بلغاء الكتاب الادبية، ومراسلاتهم الخصوصية بعد ما تلوثت اقلام اكثر الكاتبين فى الصحف باللهجة الافرنجية تارة والصحافية تارة اخرى .

واشتغل المغفور له السيد مصطفى لطفى المنفلوطى بالسياسة فكان مثلا أعلى فى الاخلاص لامته، والوفاء لبلاده . والتفانى فى التضحية وانكار الذات ، وأنتج ادبا كان فى طلائع نماذج العصر ، وروائع الفكر ، تناول به فى أمته كل شاردة وواردة ، وساير فيه بيئته هابطة صاعدة ، ففى هبوطها يندبها ويرثيها ، وفى صعودها يؤيدها ويزكيها ، وفى بأسائها يعزيها ويواسيها ، وفى نعمائها ينبهها ولا يلهيها . وقد وقف قلمه على المطالبة بحريتها ، وصوته على الهتاف بعظمتها ، وعقله على التفكير فى مصيرها ، ووسيلة خلاصها من نيرها ، وأعلن أقصى أنواع العداء لاعدائها ، واستحفز للجهاد همم أبنائها ، ودعاهم الى اقوم السبل للقضاء على الاستعمار ، وهى أن يمقتوا الغاصبين الفجار ، ويناوئوهم اناء الليل واطراف النهار ، وان يتربصوا بهم الدوائر فى الغدو والآصال ، ويقفوا منهم بالمرصاد فى جميع الاحوال ، وان يقاطعوا كل ماله صلة بالانجليز . ويجعلوا حدا محرما يفصم كل عروة بين النيل والتاميز ، من كل ما نشط المستعمرون فى تثبيته وتأييده ، وعمل صنائعهم من المصريين على تأييده وتخليده ، فكان من أوائل الداعين الى المقاطعة السلبية التى تتناول جميع الحياة العملية اذ يقول مخاطبا الانجليز :

« نقسم لكم بالله لقد جعلتمونا نرتاب فيكم ، وفى كل ما تطلع عليه شمسكم ، وتفيء عليه ظلالكم ، وفى الريح التى تهب من ارضكم ، والماء الذى ينحدر من بحركم ، بل وفى العلم الذى تشتمل عليه كتبكم ، والمحور الذى تدور عليه مدنيتكم ، ولقد

مرت بنا أيام كنا لا نتمنى على الله فيها شيئا سوى أن نصل فى المدنية الى الذروة التى وصلتم اليها ، فقد أصبحنا ولا أبغض الينا من التشبه بكم ، والتخلق بأخلاقكم ، والسير على آثاركم ، مخافة ان تصبح مدنيتنا فى مستقبل ايامها مدنية وحشية لا عهد فيها ولا ذمام .

سنأكل الشيخ والقيصوم أن عز الطعام الا من أيديكم ، ونلبس الجلود والفراء ان أقفرت الارض الا من مصانعكم ، ونشرب الملح الاجاج ان أبى العذب الزلال أن ينبع الا فى ارضكم ، ونعيش فى الظلمة الداجية ان أبت الشمس ان تشرق الا من آفاقكم ، وسنخلع عن أرضنا ثوب الخصوبة والجمال ونلبسها ثوب القحط والجدب لنقطع سبيل مطامعكم فيها ، ونكدر عليكم صفاء العيش بين ظلالها وأموالها ، غير شاكين ولا متبرمين ، فلا خير فى نعمة يكدرها الذل ، وبعدا لماء لا يشربه الا ممزوجا بدم (١)

ولما عرضت السياسة الانجليزية الماكرة مشروع ملنر على مصر ونادت صحفها حسب طبيعتها التى لا تعرف اسلوبا غير أسلوب التضليل والتمويه بأن بريطانيا على استعداد لعقد حلف مع مصر تسبقه مفاوضة حرة ، ويعقبه الجلاء الذى يدخل فى دوائر الامكان . هب جماعة من المخدوعين فى مصر يؤيدون حلول الوئام محل الخصام ، مادام انهم سيحصلون على أمنيتهم ، ويظفرون بحريتهم ، وفات هؤلاء السذج انهم امام دهاقين تحار الثعالب فى مكرهم ، وأساطين تعجز الثعابين عن التطاول الى غدرهم ، وشياطين تصرخ الجحيم من ثوائهم فيها ، وأبالسة تستغيث الرذيلة من خبثهم ونفاقهم ، وأنهم سيفاوضون شيوخا محنكين أتقنوا طرق

---

(١) أنظر صفحتى ٢٦٧ و ٢٦٨ من الجزء الثالث من « النظرات » طبعة ثالثه

الدس ، وأجادوا افانين اللؤم ،ونبغوا فى اساليب الحيلة ، وبلغوا أوج التلاعب بالالفاظ الى حدانهم يصوغون المعاهدات معتمدين على اداة تعريف او تنكير ، وعلامة تانيث أو تذكير ، واسم اشارة ، أو تعميم عبارة ، لكى يهدموا ـ فى المستقبل ـ ما بنوا ، وينقضوا ما أبرموا ، ويحلوا ما عقدوا . واذا احتج عليهم حليفهم المفتون ، رفعوا أصواتهم بأنه هو المتجنى المعتدى ، وصاحوا فى منطق ظاهرى قائلين : هيا بنا الى نصوص المعاهدة فهى الحكم الذى ترضى حكومته ، والمرجع الذى لا ترد كلمته . وحينئذ يتبين ذلك الغر المأفون ان موقفه يشبه موقف الايتام عند موائد اللئام ، يطلبون حقوقا فلا يمنحون ويتسولون كفافا فلا يرحمون ، فينتبه هذا الحليف وقد خسر كل شىء حتى الحق فى مطالبة الغاصبين بالنزوح عن بلاده ،لانه هو الذى قدم اليهم الصك باستعباده ، ولهذا يقال فى المثل السائر : غلطة الطبيب نازلة فردية ، وكبوة السياسى مصيبة قومية .

هكذا يكون موقف كل من يعقد مع الانجليز حلفا أو معاهدة ، والى هذا تنبه السيد المنفلوطى منذ نيف وثلاثين عاما ، فنصح لمواطنيه الا ينزلقوا فى هذا الممر الضيق الوعر الملتوى المفعم بالاشواك ، والا يتعاقدوا مع اولئك الذين اتخذوا الكذب تجارة ، والزيف حرفة ، والخداع مهنة ، ونصبوا خطا من النار بينهم وبين الشرف والفضيلة وأعلنوا خصومتهم للنبل ، وعداءهم للخلق القويم ، والذين قال ملنرهم : ان لدينا للشعوب المستعمرة ألفاظا خاصة بهم نثبتها فى معاهدات نبرمها معهم تسكتهم ولا تمنحهم شيئا . وفى هذا يقول المرحوم المنفلوطى مخاطبا مواطنيه :

« تعالوا الينا لنسعد معا ان قدرت لنا السعادة فى مستقبل حياتنا ، أو نشقى معا ان كانت الاخرى ، بل لنعيش سعداء

فى كلتا الحالتين ، فلا سعادة فى الدنيا غير سعادة الحب والسلام، ولا شقاء غير شـــقاء الانقسام والانشقاق .

اننا لانتهمكم بخيانة ولا ممالاة لان الدم المصرى لا يحمـل بين كراته كرة اللؤم والغدر ، ولكننا نعتقـد انكم مخـدوعون وانكم ماأوتيتم من ناحية الخيانة والممالاة بل من ناحية السذاجة والبساطة وضعف القلب وغـرارة النفس ، والثقة العمياء بوعود اولئك القوم الذين ما صدقوا فى وعـد من وعودهم مرة واحدة ، ولا عجزوا عن ان يجدوا من يصدقهم فى كل مرة يكذبون فيها ، فالوعـود سلعتهم التى يتجـرون فيها ، والخلف ربحهـم الذى يربحـونه منها .

ولو أنكم ترويتم فى الامر قليلا ونظرتم الى المسألة بعيونكم لا بعيونهم لعلمتم ان لااستقلال ولاشبه اســتقلال ، ولا شىء مما يعدوننا به ويمنوننا ، وكل ما فى الامر انهم يريدون وضع الحماية

الرومانية موضع الحماية الانكليزية ؛ وهى التى كان يبسطها الرومان فى تاريخهم القديم على الامم الضعيفة باسم المحالفة والمعاهدة ؛ أى انهم يريدون ان نصدق لهم على الحماية التى بسطوها علينا فى سنة ١٩١٤ بعد أن عجزوا عن ذلك سبعة أعوام ، ونحن لا نريد ان يكون حظنا معهم حظ ذلك الرجل الذى انتزع منه بعض المغتصبين آنية فضية فذهب اليه ليستردها منه وهدده برفع امره الى الشرطة ان لم يفعل ، فقال له لا أعطيك اياها حتى تكتب لى صكا بأن الانية هدية منك الى حتى آمن غدرك بى فيما بعد ، فكتب له الصك الذى أراد وأعطاه اياه ، فاحتفظ بالصك ولم يعطه الآنية (١)

ولما أعيت الانجليز الحيلة فى تلك المرة وسقط فى ايديهم ما حاولوه من خداع وغش وتمويه ؛ وعرفوا ان الملاينة النعبانيه مع مصر سلاح مفلول وأسلوب مملول. هرعوا الى ابراز القوة وابداء التهديد ، وملأوا اشداقهم بالانذار والوعيد ، وتظاهروا فى طرقات العاصمة بجيشهم المديد ؛ وعتادهم الفريد وكانت الدنيا بأسرها فى ذلك الحين مقتنعة بان اسطولهم هو عملاق جبار ؛ له السيادة والعمادة على جميع البحار ، ولكن المنفلوطى لم يكترث لهذه الظواهر الكاذبة ؛ ولم يعبأ بتلك المظاهر الخالبة ، وجابههم بأن مصر بحقها أقوى منهم فى باطلهم ؛ وأن ايمانها بعدالة مطالبها ؛ وعقيدتها فى ظفرها باستقلالها. وثقتها بنفسها ، ستتغلب على حديدهم ونارهم ؛ وهو فى هذا يوجه اليهم الخطاب فيقول :

« نعم انكم أقوياء جدا ؛ بل لا توجد قوة فى العالم توازى قوتكم ، ولكننا على ضعفنا وخلو أيدينا من السلاح والعدة أقوى منكم ، —

---

(١) انظر صفحتى ٢٠٥ و ٢٠٦ من الجزء الثالث من «النظرات» طبعة ثالثة .

لانكم حاربتمونا بسلاح الخديعة والمكر الذى ألفتم ان تنتصروا به على الشعوب الشرقية قروناعدة، فانهزمتم أمامنا ؛ واستطاع هذا الشعب الشرقى الصغير حديث العهد بالسياسة وأساليبها والاعيبها ومناوراتها ان يدرك خبايا مقاصدكم ومرامبكم ؛ وان يمزق عن وجوهكم ذلك الستر الكيف الذى كان يجللها ؛ وان يقول لكم بصوته العالى المرتفع : لا أقبل الخدع والالاعيب ، فاما الاستقلال تاما صريحا لا ريبة فيه او لا شيء .

اننا أقوى منكم لانكم لم تستطيعوا ان تخدعونا عن انفسنا، ولا ان تستنزلونا عن عقيدتنا ويقيننا . أما تلك القوة الميكانيكية التى تهرعون بها فى شوارع البلاد وازقتها ، وتملأون بها وجه الارض وجو السماء ، فهى مما لا يفخر به الفاخر ولا يدل بل المدل لانها شيء ؛ والصفات النفسية والمزايا العقلية شيء آخر ...

اذن أنتم ضعفاء ونحن اقوياء،ولنا ان نفخر بهذه القوة التى نعتمد فيها على شرف اخلاقنا .وعزة نفوسنا ، ومتانة عقيدتنا ، وشدة اخلاصنا لوطننا ، وليس لكم ان تفخروا بتلك القوة التى تعتمدون فيها على السيف والنار » (١)

ولم يقف المنفلوطى قلمه على مهاجمة الانجليز واختصاصهم بحملته الشعواء ، وابانة دسائسهم فى صفوف الامة وكشف مؤامراتهم بمصلحة البلاد وانما عرف منذ فجر الحركة الوطنية أن لهم بيننا أذنابا هم صنائع أيديهم ، وثمار غرسهم ، وأن هؤلاء هم أخطر على البلاد من دهاة السياسة وثعالبها ، لان مكر أولئك الثعالب كان سيبقى قاحلا سلبيا لولا هؤلاء الاذناب الذين يتعهدونه فى مصر حتى يترعرع وينمو ويثمر أردأ الثمار وأشدها شرا وسوءا . وفى الحق أنه لولا وجود هؤلاء لما استطاع الانجليز أن يؤلفوا وزارات يتخذونها مطية لتنفيذ أغراضهم

---

(١) أنظر صفحتى ٢٥٩ و ٢٦٠ من الجزء الثالث من «النظرات» طبعة ثالثة

وايصال سهام كيدهم المسممة الى قلب الامة ، ولولاهم لما وجدوا من يحملونه مسئولية ما يفعلون على أيدى حكومات مصر المتعاقبة ، ولولا أولئك الاذناب لما وجد الانجليز قضاة يحكمون على أهل دنشواى أو يدينون الشباب الناهض الذى كان يغامر مخاطرا بحياته فى سبيل تحرير أمته ، ولما جرؤ الانجليز على أن ينفوا زعيما أو يهددوا ملكا .

وعلى جملة من القول : لولاهم لشلت حركة الانجليز فى مصر وفشلت مقاصدهم ، وأسقط فى أيديهم ، وجلوا عن البلاد منذ زمن بعيد .

ولقد اعتبر السيد المنفلوطى الكتاب الذين يؤيدون الاحزاب الممالئة لسياسة الاستعمار ضمن أولئك الاذناب الغادرين فسردهم فيما سرد من أعوان الانجليز وعمالهم الذين يكيدون للوطن ويدسون للبلاد . وما أبدع تصويره لحشد هذه القوى الانجليزية أو المتجلنزة لمقاومة شعور الامة وتغلبها عليهم جميعا وخروجها من المعركة ظافرة منتصرة اذ يقول :

« الآن أمنت على مصر أبد الدهر ، وأيقنت أن الباطل ظل زائل لا ثبات له ، وان الحق صخرة عاتية لا تزعزعها العواصف ولا تعبث بها عاديات الايام .

فقد مرت فى غضون الاشهر الفائته ساعات أعترف أنى خفت فيها على الحق أن يغتاله الباطل ويصرعه عندما أشرفت على ذلك الميدان الواسع الفسيح - ميدان المعركة السياسية المصرية - ورأيت ذلك الجيش اللجب العرمرم جيش الباطل زاحفا بخيله ورجله وفى مقدمته القوة الانجليزية بمدافعها وطياراتها وصواعقها ورجومها ، وفى مؤخرته القوة المصرية ببنادقها وسيوفها وسياطها وعصيها ، وفى جناحيه الوزارة يحيط بها أنصارها وصنائعها وذوو الحاجة اليها .. وفيما بين هذا وذلك الكتاب الكاذبون ، والخطباء الخادعون ، والدعاة الخبثاء ، والجواسيس



الدهاة ، والاحكام العـــرفية ،والمجالس العسكرية ، والقوانين الاستثنائيه والاكاذيب والاراجيف والصور والتهاويل ،وكل مايمكن أن يسمى قوة يهجم بهـا هاجم على خصمه ليسلبه فى آن واحد قوة جسمه ، وقوة قلبـه ، وقوة يقينه ، وقد ذهبت لذلك الجيش فى آفاق السماء جلجلة كجلجلة الرعد القاصف ، وانتشر له فى جميع الانحـــاء بريق يخطف الابصار ، ويعشى الانظار » (١).

لم يحصر السـيد المنفلوطى جهد قلمه فى رسم أولئك الاذناب الذين شايعوا أعـداء الامة عـلى اغتصاب حقهـا ، وناصروهم فى العدوان على كرامتها ، وانمـــا تحدى سادتهم المستعمرين وقذف فى وجوههم بأنهم يستطيعون أن يصبغوا وجه مصر بالدماء ويملأوا بطن أرضها بالاشـلاء ، ولكنهم عاجزون أشـــد العجز عن أن ينتزعـوا من نفوسـهم ايمانهم بحقهم ، وعقيـدتهم فى شرعيـة مطالبهم ، وانهم لن يسـتطيعوا أن يحـولوهم قيـد أنملة عمـا يريدون أو يغـيروا وزن خـردلة مما يبتغون ، وان فى وسعهم أن يتبـاهوا باسـتعمال القوة فى الوصول الى غاياتهم ، واتخـاذ القمع وسيلة لتحقيق أغراضهم، ولكنهم لا يقدرون على دعوى حل المشكلة المصرية بطـريقة شرعية ترضى الحق وتقنــع العـدالة والانصاف ، وهو فى صوغ هذا التحدى يقول :

« فى استطاعتكم أن تصبغوا وجه مصر بالدماء ، وأن تملأوا بطنهاً بالاشلاء ، ولكن ليس فى اسـتطاعتكم أن تتقوا نظرات الاحتقار والازدراء التى نلقيهـا عليكم حين نراكم ، ولا أن تطفئوا نار الحقد والموجـدة التى تنبعث من ألسنتنا وصدورنا الى وجوهكم ولا أن تنالوا منالا من تلك العقيدة الراسخه فى قلوبنا ، وهى أنكم أضعف الضعفاء وان كنتم أقوى الاقوياء ، وأن هـذه القوة التى تعتمـدون عليهـا وتدلون بهـا ليست قوة السياسة ، ولا قـوة الفكرة ، ولا قوة التدبير ، وانما هى قوة الشر والغضب .

---

(١) ص ٢٥٥ و٢٥٦ من الجزء الثالث طبعة ثالثة

اقتلونا ولكن بأيديكم لا بأيدينا ، ألغوا الوزارة ولكن من رجالكم لا من رجالنا ، املكوا علينا كل شيء الا قلوبنا وأفئدتنا احكمونا باسم الاحكام العرفية والاساليب العسكرية ، لا باسم القوانين الشرعية والاحكام السماوية والارضية ، افتخروا بأنكم قمعتم الحركة المصرية ، وأنكم أخفتم الناس وأرهبتموهم ، ولكن لا تفخروا بأنكم حللتم مشكلة مصر الى الابد .

انكم لا تحاربوننا من أجل احتلال البلاد فأنتم محتلوها ، ولا من أجل الاستيلاء على مواردها وأرزاقها فهي جميعا تحت سلطتكم وسيطرتكم ، ولا من أجل اطفاء الثورة وقمعها . فالامة التى لا سلاح لها لا ثورة فيها ، ولكنكم تحاربوننا من أجل ارغامنا على الاعتراف بمركزكم الشرعى فى مصر ، وما دمتم لم تصلوا الى هذه الغاية بعد بذلكم ما وهبكم الله من دهاء سياسى ، وحيلة عقلية فى هذا السبيل ، فنحن المنتصرون وأنتم المنخذلون » (١)

هذا هو نموذج لما سمح به المجال من أدب ثورتى سنة ١٨٨٢ وسنة ١٩١٩ وما أعقبهما من أحداث سياسية استثارت أحاسيس الشعراء والكتاب، وهو فى الوقت ذاته نموذج للرومانتيكية المصرية التى تجاوبت مع حاجات أمتها وكانت مرآة لميول عصرها [illegible]ت بيئتها على نفس النحو الذى عرف به استاندال [illegible]ه فى أوروبا .

---

(١) أنظر ص ٢٦١و٢٦٢ من الجزء الثالث من النظرات طبعة ثالثة



ر ٥٠
الإطارات الجديدة
التى صممت خصيصا
لأعمال النقل الثقيل
اطارات
«ثيات»
الوكلاء العموميون
جايس وشركاه
القاهرة : ٢٥ شارع توفيق
الإسكندرية : ٣٠ شارع طلعت حرب



من الشرق
لاحمد قاسم
جوده
ج
٥
كتب للجميع



كتب للجميع

مارد من الشرق

بقلم

احمد قاسم جوده



٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة

طبع بمطابع جريدة «المصرى»

مارد من الشرق



انه مارد الشرق الجديد ينطلق من « قمقم » الاستعمار البريطانى بعد ان ظل حبيساً فى جوفه مئات من السنين ..

لقد انطلق المارد من محبسه بعد ان طال به البحث عن مخرج ينساب منه الى عالم الحرية والنور ، واوشك حين طال به المقام فى عالم العبودية والظلام ، ان يحطم « القمقم » الذى احتواه وان يخرج هائجا هائما على وجهه لا يبقى ولا يذر .. لولا ان بعث اصحاب « القمقم » رسولا منهم هو اللورد لوى مونتباتن ، فادرك بنافذ بصيرته مدى الكارثة التى تهدد قومه اذا أصروا على استعباد الهند واستمرأوا المضى فى احتلالها ، واذلال اهلها ، ومطاردة زعمائها والزج بهم خلف جدران السجون ..

وهكذا قدر للهند المستعبدة ان تخرج الى عالم الحرية والاستقلال ، وقدر للمارد الحبيس أن ينطلق الى العالم



الذى طال حنينه اليه . وطال عذابه فى انتظاره ، وتعددت تضحياته الغاليه فى سبيله ...

ولم تكد تمضى على انطلاق المارد اشهر معدودات حتى ثبت للملا ان الحبس الطويل فى سجن الاستعمار لم يفل من عزيمته . ولم ينل من كرامته ... وته

لقد توسلت بريطانيا الى قادة الهند بكل نوع من انواع التوسل . ييدلوا صداقة بصداقة .. وان ينسوا فواجع الماضى واخطاءه وتضحياته . وان يتركوا بناء « الكومنولث » — و « رابطة الامم البريطانية » قائما على اساسه المعروف وهو الاعتراف بسيادة التاج البريطانى ممثلا فى منصب الحاكم العام ..

ولكن ذاكرة المارد لم تستطع ان تنسى كل شىء . ومعدته لم تعد تحتمل ان تهضم كل شىء ... ولهذا صمم على تحطيم رابطة السياده الرمزيه ولو ذهب « الكومنولث » الى عالم الفناء !

ووقف الزعيم الشرقى العظيم نهرو يصارح الانجليز والعالم أجمع فى مواجهة الليدى مونتبانن من فوق منبر الجمعية التاسيسيه فى دلهى ، بأن الهند ستصبح جمهورية مستقلة ، لانعترف برابطة العبودية التى تجمع بين

دول « الكومنولث » ، وهي الاعتراف بالتاج البريطاني رمزا للوحدة بين تلك الدول ...

وانحنى السجان القديم العتيد امام ارادة المارد الجبار الذى انبعث من ظلام الشرق الاقصى...

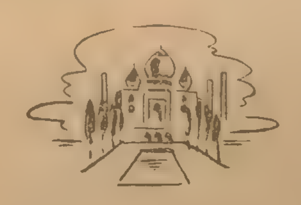
* * *

وبينما كان المارد الطليق ينفض عن ثيابه غبار الذل والعبودية على هذا النحو ، لم يفته ان يبادر فى الوقت نفسه الى اصلاح شأنه ، وترميم بنيانه ، واعداد العدة لمستقبل زاهر لايهدده شبح العبودية أوالحرمان ..

والذين أسعدهم الحظ بمتابعة النهضة الجبارة التى تنشر ظلها الوارف على انحاء الهند اليوم من أقصاها الى أقصاها ، ووقفوا على مدى قوة الدفع والاندفاع الهائلة التى تسير بها الهند الآن فى ميادين الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى والعمرانى والانسانى على هدى تعاليم غاندى وروحانيته الخالدة ، وتحت قيادة نهرو وعزيمته التى لا تعرف الملل والكسل - الذين أسعدهم الحظ مثلى بمتابعة هذا كله ، يستطيعون ان يؤمنوا كما آمنت بأن الهند جديرة بأن تكون موضع فخارنا جميعا نحن أبناء الشرق الذى طال كفاحه وحنينه الى الحرية والاستقلال

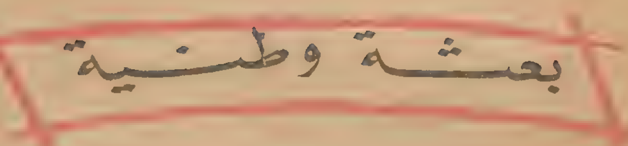
وانى لارجو ان يجد القراء فى هذه الصفحات عن رحلتى الى الهند مرتين فى عشر سنوات ، مايؤيد عقيدتى الراسخة فى مستقبل هذا البلد الشرقى الكبير الذى طالما ربطت بيننا وبينه رابطة الكفاح المشترك ، ضد الاستعمار المشترك ...

احمد قاسم جودة



قبل الاستقلال

أول جولة في ربوع الهند



فى أوائل سنة ١٩٣٩ رأى الوفد المصرى أن يوفد الى الهند أول بعثة سياسية مصرية تشترك فى مؤتمر وطنى أجنبى ، فألف لهذا الغرض هيئة من أربعة أشخاص هم : المغفور له الاستاذ محمود بسيونى بك . وقد أسندت اليه رياسة الهيئة ، والاستاذ احمد حمزة بك والاستاذ محمود أبو الفتح بك وكاتب هذه السطور بوصفه عضوا وسكرتيرا للبعثة وكانت مهمتنا تمثيل الوفد المصرى فى الدورة الثانية والخمسين التى عقدها حزب المؤتمر الوطنى الهندى فى تريبورى فى شهر مارس سنة ١٩٣٩

هذا هو الاستعمار !

القت الباخرة مرساها فى ميناء بمباى فى اليوم التاسع من شهر مارس — أى بعد تسعة أيام من مغادرة بور سعيد . ولم نكد نهبط من الباخرة حتى وجدنا فى استقبالنا جمهورا كبيرا من شباب المؤتمر وفتياته تتقدمه مسز مونشى ، زوجة وزير الداخلية فى بمباى ، وبعض كبار رجال المؤتمر وكان معظم الزعماء قد غادروا المدينة الى تريبورى لحضور الدورة السنوية التى ذهبنا لشهودها ، والتى حدد لبدئها اليوم العاشر من شهر مارس

وكأنما قدر لنا أن نستقبل مع هواء بمباى الحار فى لحظة وصولنا ريح الخلاف الطائفى الذى أفاد من ورائه الانجليز كل شىء ، وتأخر من جرائه الهنود فى تحقيق أعز ماتصبو اليه الامم وهو الحرية والاستقلال . . .



برج الوحدة حيث تلقى جثث البارسيين لتأكلها النسور
وغيرها من الجوارح

فقد خف لاستقبالنا فى المبناء عدد من كرام المسلمين الذين لاينتسبون لحزب المؤتمر ، وقدعز عليهم فيما يظهر أن يحتكر رجال المؤتمر واجب تكريمنا فى سرادق أقاموه خارج الميناء ، فلم يشأ هذا الفريق من المسلمين أن يشاركهم فيه ، ولم يخف امتعاضه لهذا المظهر الذى لم تكن لنا حيلة فيه . اذ نحن ضيوف المؤتمر الوطنى قبل كل شىء ، وان كان من واجبنا بالطبع الا نؤذى شعور احد من الهنود أياً كانت ميولهم ومللهم . فكيف بذلك الفريق من المسلمين الكرام الذين جشموا انفسهم مشقة استقبالنا رغم علمهم بقدومنا ضيوفا على الطرف الآخر . .

وكان موقفنا موقفا بالغ الدقة متناهيا فى الحرج ، ولكنه لحسن الحظ لم يلبث طويلا . وانتهى بتبادل عبارات الشكر والمجاملة الشخصية مع الفريق المناوئ للمؤتمر . . . والوعد بقبول اية دعوة توجه الينا للاجتماع بهم اثر عودتنا من جلسات المؤتمر فى تريبورى . وهو ما تحقق بعد ذلك بالفعل اذ حرص رجال المؤتمر انفسهم على تيسير اجتماعنا بخصومهم سواء فى حفلاتهم و فى حفلات دعينا اليها على انفراد

وذهبنا الى سرادق رجال المؤتمر فى الميناء ، وقد حمل كل منا فى عنقه عقودا بعضها فوق بعض من الوردوالياسمين ، وهى العقود التقليدية التى اعتادالهنودعلى اختلاف اديانهم ان يطوقوا بها أعناق ضيوفهم رمزا لصادق الترحيب والتكريم عندالاستقبال والتوديع .

وقد استمعنا فى السرادق الى خطاب حماسى من سكرتير حزب المؤتمر فى بمباى ؛ كما تليت علينابرقية تلقاها مستر مونشى (وزير الداخليــة) من (بابو) أى الوالد ـ وهو التوقيع الذى كان يذيل به المهاتما غاندى برقياته ورسائله الى (أبنائه)زعماء المؤتمر وخاصة الاقربين . وفى هذه البرقية طلب الزعيم العظيم الى مسترمونشى أن ينوب عنه فى الترحيب بنـا ، وابلاغنا تمنياته فى أن تكون هذه الزيارة فاتحة لتعاون وثيـق فى المستقبل ، لتعزيز مابيننـا من

روابط لاتنفصم . وقد انابتني البعثة فى الرد ، فالقيت كلمة موجزة بالانجليزية شكرت فيها للمستقبلين عاطفتهم ، متمنيا للهند ماتستحق من حرية واستقلال ، منوها بجهاد الزعيم الفذ غاندى ، شاكرا له ترحيبه القلبى فى برقيته الرقيقة .

ومضت بنا السيارات الى حى (ملابار هل) الارستقراطى فى المدينة ، حيث كان يقطن زعيم ممثلى المؤتمر فى المجلس التشريعى المركزى بنيودلهى مستر بولاباى ديزاى . وكان من اعظم الشخصيات السياسية واكفأ رجالات الهند وقد بدأ حياته موظفا صغيرا فى الحكومة . ثم حصل على اجازة الحقوق واعتزل حياة الوظائف بعد أن بلغ منصب المحامى العام فى بمباى ، ليشتغل بالمحاماة والسياسة ، فأعانته مواهبه الخطابية الى جانب ما أوتى من روح المثابرة والجد والطموح ، على تحصيل ثروة ضخمة ، فضلا عما كسب من مكانة سياسية رفيعة تبوأها عن جدارة ، وقد توجها حزب المؤتمر الوطنى باختياره زعيما للمعارضة - اى لممثلى حزب المؤتمر - فى المجلس المركزى بنيودلهى . وقد حضرنا جلسة من الجلسات العاصفة بهذا المجلس ، كان لبولاباى ديزاى وزملائه فيها موقف رائع ازاء وزير المالية الانجليزى اذ ذاك مستر جريج ، وكان هذا الوزير قد قاطع نائب زعيم المعارضة مقاطعة غير كريمة ، فسلقه مستر ديساى بلسانه ، ودعا المجلس الى رفض عدة مشروعات بقوانين احتجاجا على سوء سلوك الوزير . حتى اضطر الوزير الى الوقوف فى الجلسة معتذرا عما بدر منه !

وقد كان أول ما استلفت نظرى فى بمباى ضخامتها وفخامة مبانيها المشيدة على الطراز الانجليزى ، ونظامها الانجليزى فى المرور (وهو شمالى) كانجلترا وهناك أحياء فى قلب بمباى يكاد يخيل للمرء فيها - لولا اختلاف الطقس - انه فى قلب مدينة لندن ومن طريف مايذكر بهذه المناسبة أن أراضى البناء هناك تباع بما يعادل أسعارها فى لندن نفسها ! ولاغرو فقد وضع احصاء مقارن قبيل الحرب ثبت منه أن اغلى مستوى للمعيشة فى العالم هو

مستواها في مدينة «ريود جنيرو» عاصمة البرازيل ، وتليها مباشرة بمباى !

وقد استلفت نظرنا في بمباى لاول وهلة ، كما استلفت نظرنا في سائر انحاء الهند التي زرناها من بمباى الى بشاور ، ما يستلفت قبل سواه ولا شك نظر كل زائر للهند ، وهو القداسة التي تتمتع بها البقرة عند الهندوسيين الى الحد الذي يمكنها من اعتراض حركة المرور أمام السيارات أو عربات الترام أو دخول أى مكان تشاء دون أن يزعجها أحد أو تحدثه نفسه باملاء ارادته عليها وتوجيهها حيث لا تريد الا باللين والمعامنه الحسنة ! ..

وكذلك لفت نظرنا شيء آخر يوم نزولنا في بمباى هو كثرة الحدأ والغربان التي تحوم في جو المدينة . وقد أبدى المرحوم بسيوني بك هذه الملاحظة بينما كنا نتناول الشاى في ضيافة وزير الداخلية ، مستر مونشي ، بحضور رئيس الوزراء الدكتور خير (وهو هندوكي لا مسلم كما قد يتبادر الى الذهن عند ذكر اسمه) وبقية وزراء بمباى ، وهي احدى الولايات التي ظفر فيها حزب المؤتمر بأغلبية تؤهله لتولى مقاليد الحكم وقد قال بسيوني بك في بساطته الماكرة اللطيفة :

— ان لديكم من الغربان والحدأ مثل مالدينا في مصر ..

فأجابه الدكتور خير على الفور ضاحكا :

— هذا يدلكم على متانة الروابط التي تجمع بين البلدين !!

على أنه تبين أن في الامر سرالا يمت الى الضحك أو التسلية بسبب . ذلك أن بمباى تنفرد دون سائر بلاد الهند ، والعالم اجمع ، بوجود اكبر مدفن لطائفة تسمى طائفة البارسيين ، ونسميه بالمدفن ، أو المقبرة ، من باب التجوز الشديد ، لان هذه الطائفة لاتدفن موتاها كما يفعل المسلمون ، ولا تحرقهم كما يفعل الهندوكيون ، بل تلقى بهم في مكان يسمونه (برج الوحدة) ، وتتركهم للطيور الجارحة تمزق أجسادهم ، وتلتهمها اربا اربا .. وبذلك لا تدنس عناصر الطبيعة التي يقدسونها ! وهناك عند

(برج الوحدة) فى قلب بمباى شهدت أكبر مجموعة من النسور والحدأ والغربان ، بعضها يحوم فى الجو باحثا عن جثة تنهش ، ومعظمها واقف حول السور الطويل ينظر وينتظر !

والبارسيون . وهم يعبدون النار . يعتبرون أغنى وارقى الطبقات فى الهند . وعددهم لايزيد على ١٠٠ الف يعيش معظمهم فى بمباى ؛ وتتركز فى أيديهم .رغم قلتهم . اعظم صناعات الهند . وهم يملكون أكبر الفنادق ويكادون يحتكرون الربا وشئون المال حيثما كانوا . ولا يشغلون أنفسهم بالحركة الوطنية الا بقدر يسير . ومن اشهر أغنيائهم واغنياء الهند كلها مستر تاتا صاحب مصانع النسيج والصلب والطيران والصابون وغيرها فى الهند .





المؤتمر الوطني

غادرنا بمباى فى مساء يوم وصولنا بعد ان تناولنا العشاء فى دار مستر ديزاى ، وقد شاهدنا فى محطة بمباى ــ وهى على نظام محطات لندن ، تقع فى قلب المدينة ــ كما شاهدنا فى غيرها من المحطات لافتات كبيرة حرص الانجليز على ابرازها باضخم الحروف ، وقد كتب على احداها « ماء للمسلمين » وعلى اخرى بقربها « ماء للهندوكيين » !

وهكذا كان الانجليز حريصين على اشعال جذوة الخلاف بين الهندوس والمسلمين بابراز هذه الاعلانات التى كانوا يتظاهرون بانهم لا يقصدون من ورائها شيئا سوى تفادى الصدام الذى يفرضون وقوعه دائما بين الطرفين .

استقلت البعثة قطار بمباى فى طريقها الى جبلبور (اى مدينة الجبل او الصخور) . حيث قرر المؤتمر الوطنى ان يعقد دورته لذلك العام فى بلدة تريبورى . جريا على التقليد الذى جرى عليه منذ سنوات عدة ، اذ رأى أن يتغير مكان انعقاد دورة المؤتمر السنوية عاما بعد عام ، وان يختار لانعقاده قرى صغيرة فى شتى انحاء الهند حتى تتاح لاهل تلك القرى وماحولها فرصة الانتعاش الذى يصحب دورات المؤتمر اينما كانت ، اذ تقام العشش كما تؤجر الاماكن الخالية ، وتنظم المرافق الصحية وتعد المطاعم ، ويقام معرض للصناعات والمنتجات الهندية ، ونحو ذلك من مظاهر النشاط التى يقتضيها اجتماع العدد الهائل الذى يشهد دوره المؤتمر فى كل عام ، وهو يتراوح بين مائة الف وربع مليون شخص يفدون

لمشاهدة تلك الدورات من شتى انحاء البلاد ، وقد جرت العادة بسبب ضخامة هذا العدد على أن تعقد الجلسات فى الخلاء ، حيث تفرش اقمشه الخيام على الارض فيستوى عليها الحاضرون جالسين يشاهدون عن بعد زعماء المؤتمر واعضاء لجنته العاملة جالسين على الخيام منهم . فوق منصة فسيحه اعدت للخطباء ، وجهزت بآلات الميكروفون .

نشأة المؤتمر وأغراضه

السياسة الهندية ، كالسياسة فى سائر بلاد العالم . مليئة بالمفارقات والمتناقضات التى لا يكاد يفهمها أو يهضمها الا الذين يحيطون بدقائقها ودخائلها .

ومن هذه المتناقضات على سبيل المثال ان المرحوم الدكتور محمد على جنه (لاجناح كما يخطىء كثيرون) زعيم حزب الرابطة الاسلامية سابقا ينحدر من جد هندوسى ! ومع انه كان اول رئيس لدولة باكستان . الا انه لم يكن صاحب هذه الفكرة - أى انشاء الدولة الاسلامية فى الهند . بل لم يكن يعتنقها حين كان يدعو اليها الآخرون ، ويعتبر هو نفسه أكبر حجة ضد الباكستان ، كما سنبين فيما بعد . . .

ومن هذه المتناقضات ان المهاتما غاندى لم يكن رئيسا لحزب المؤتمر الهندى . ولا حتى عضوا مستمرا فيه اذ استقال منه عام ١٩٣٤ ؛ ولكنه مع ذلك كان روح المؤتمر وصاحب النفوذ الاكبر فيه دون منازع !

ومنها أخيرا . وليس آخرا ، أن المؤتمر الهندى ماكان ليوجد أو يولد فى سنة ١٨٨٥ لولا أن موظفا انجليزيا متقاعدا يدعى الان هيوم دعا الى تكوينه ليكون أداة استشارية تمد الحكومة بآرائها ونصائحها فى المسائل الادارية والاجتماعية . . .

بل ان الانجليز انفسهم هم أصحاب الفضل فى توجيه المؤتمر منذ انشائه وجهة سياسية ، اذ رأى اللورد دفرين حاكم الهند اذ ذاك ان من مصلحة الاستعمار البريطانى أن توجد الى جانب أداة

الحكم الاستعمارية فى الهند ،معارضة ودية موالية للاستعمار وان كان اللورد دفرين قد ندم بعدئذ على نصيحته ووصف المؤتمر بأنه « أقلية حقيرة » !

وقد ظهر حزب المؤتمر فى عالم الوجود فى أواخر شهر ديسمبر سنة ١٨٨٥ ، حين عقد دورته الاولى فى بمباى بحضور ٧٢ وفدا وظلت دوراته تتوالى ، واعضاؤه يتضاعفون ، مع محافظته على الولاء البريطانى حتى كانت الحرب العالمية الاولى . حين قبض غاندى على زمام المؤتمر ، وجعل منه اداة يحسب حسابها . فلم تكد الحرب الاولى تضع أوزارها حتى اثارها غاندى حملة شعواء على السياسة البريطانية والاستعمار البريطانى فى الهند ، فكانت حركة العصيان المدنى . والمقاومة السلبية فى سبيل الاستقلال الذاتى الذى ظل شعار المؤتمر الى ان كانت سنة ١٩٢٩ فأصبح شعاره الاستقلال التام ، لا مجرد الاستقلال الداخلى على نظام (الدومنيون)

والمؤتمر الوطنى هو بلا جدال أعظم احزاب الهند نفوذا ، وانخمها عددا ، وادقها نظاما ،وانصاره جميعا مقيدون فى سجلات رسمية للحزب ،ويشترط فى العضو أن يدفع اشتراكا سنويا قدره اربع انات ،اى نحو قرشين بالعملة المصرية ، يصرف من مجموعها على دورات المؤتمر السنوية ، ونفقات فروعه فى شتى انحاء الهند ، وقد زرت فرع المؤتمر فى لكناو ، فرأيت كيف يكون التنظيم الحزبى الدقيق الذى تعززه الاحصائيات والرسوم البيانية التى يستدل منها على مدى الزيادة أو النقص فى اقبال الشعب على تاييد الحزب عاما بعد عام

وليس للطائفية مكان فى مبادىء حزب المؤتمر ، وهو يؤكد هذا الاتجاه بتحريم عضويته على اى شخص يكون منتميا الى هيئة دينية، هندوكية كانت او اسلامية . . فالمؤتمر حزب وطنى للوطن كله ، لا هندوكى للهندوكيين ولا مسلم للمسلمين ، بل هندى للهند. لا فرق بين طائفة وطائفة ولا بين دين ودين . ولا بين جنس وجنس ، وليس اقطع . ولا اروع فى تصوير هذا المعنى مما قاله

غاندى فى مؤتمر المائدة المستديرة الذى عقد فى لندن بين سنة ١٩٣٠ و سنة ١٩٣٣ ، اذ قال مخاطبا رئيس احدى اللجان .

« اننى لست الا وكيلا بسيطا متواضعا ينوب عن المؤتمر الوطنى الهندى ، وقد يكون من الخير ان تذكروا معنى المؤتمر وماهيته ؛ فانكم عندئذ ستشملوننى بعطفكم . . لاننى ادرك ان العبء الملقى على كتفى جد عظيم .

« المؤتمر — اذا لم اكن مخطئا — هو اقدم هيئة سياسية فى الهند ، وقد سلخ من العمر نحو خمسين سنة ، عقد خلالها دوراته السنوية دون اى انقطاع وهو كما يدل عليه اسمه (وطنى)، لا يمثل طائفة بعينها ، ولا طبقة بعينها ، ولا مصلحة بعينها ، بل يضطلع بتمثيل جميع المصالح وجميع الطبقات الهنديه ، وانه لمن اعظم البواعث على سرورى ان اقرر ان فكرته طرات لاول مرة على ذهن رجل انجليزى ، هو الآن أوكتافيان هيوم الذى نسميه (ابا المؤتمر) ، وقد اعتنق تلك الفكرة عظيمان من طائفة البارسيين هما فيروزشاه مهتا ودادابای ناوروجی الذى اطلقت عليه الهند فى زهو وسرور لقب (شيخ المؤتمر العظيم) . وقد مثل فى المؤتمر منذ نشأته المسلمون والمسيحيون والانجليز من الهنود (اى الذين من ام انجليزيه واب هندى) . بل مثلت جميع الملل والنحل وشتى المذاهب فى المؤتمر تمثيلا وافيا الى حد كبير . وكان المرحوم بدر الدين طاب يتكلم باسم المؤتمر ، كما كان للمؤتمر رؤساء من المسلمين والبارسيين ، وفى استطاعتى الان ان اذكر على الاقل مسيحيا هنديا واحدا من اشهر انصار المؤتمر هو كالى تشاران بنحرى الذى لم ار فى حياتى هنديا اخلص منه لوطنه .

« وانكم لتعلمون ولا شك ان المرحوم مولانا محمد على الذى نفتقده بيننا اليوم فلا نجده ، كان رئيسا للمؤتمر . وتضم لجنتنا العاملة الان أربعة أعضاء مسلمين من بين اعضائها الخمسه عشر ، وقد وليت رياسه المؤتمر ايضا سيدات . كانت اولاهن

الدكتورة انى بيزانت ، وتلتها مسز ساروجينى نايدو التى هى الان ضمن لجنتنا العاملة ، وبهذا تجدوننا لا نفرق بين جنس واخر .. كما لا نفرق بين الطوائف والمذاهب ..

« وكما يعتقد المؤتمر ان وحدة المسلمين والهندوس ، اى وحدة الطوائف جميعا ، امر لابد منه لتحقيق الاستقلال ، فكذلك يرى المؤتمر ان ازالة وصمة المنبوذين شرط لابد منه لادراك الحرية الكاملة ....

« والمؤتمر يمثل فى جوهره فوق كل شىء تلك الملايين الصامتة ، الجائعة ، المبعثرة طولا وعرضا فى السبعمائة ألف قرية ، سواء منهم أولئك الذين يعيشون فيما يسمونه الهند البريطانية أو مايسمونه الهند الهندية .... فالمؤتمر اذن هيئة فلاحين فى اساسه ، وهو يزداد تمثيلا لهم باطراد . وقد يدهشكم بل قد يدهش الاعضاء الهنود انفسهم فى هذه اللجنة الفرعية ان المؤتمر قد أوجد الى اليوم ، بواسطة هيئته المسماة (باتحاد غزالى جميع الهند) عملا لنحو ٥٠٠ر٠٠٠ امرأة فى نحو ٢ر٠٠٠ قرية . نصفهن تقريبا من المسلمات . وبينهن آلاف من الطبقة التى يسمونها طبقة المنبوذين ... »

هذا هو تعريف غاندى للمؤتمر وما له من صفة تمثيلية للهند والهنود اجمعين . وقد عنى البانديت جواهر لال نهرو فى دورة كراتشى سنة ١٩٣١ ، باتخاذ قرارات صريحة واضحة لاعلان أهداف المؤتمر ومبادئه الوطنية والسياسية والاقتصادية فى سبعة عشر بندا يهمنا الآن ان نسجل البند الاول منها ، وهو بدوره مؤلف من اربع عشرة نقطة تتناول الحقوق والواجبات الاساسية ، وهذا نصها :

١ ـ لكل مواطن فى الهند حق التعبير الحر عن رأيه ، وحق الحرية فى الاختلاط والاتصال بمن يشاء وحق الاجتماع السلمى ، دون حمل السلاح ، لاغراض لاتتعارض مع القوانين والآداب

٢ ـ لكل مواطن حق التمتع بحرية الاعتقاد ، وحق اعتناق دينه وممارسته ، في حدود النظام العام والآداب

٣ ـ يجب حماية ثقافة الاقليات ولغتها وكتبها في مختلف المناطق ذات اللغات المتعددة

٤ ـ جميع المواطنين متساوون امام القانون ، بغض النظر عن طبقاتهم أو عقائدهم او اجناسهم

٥ ـ لايجوز ان تقام أية عقبة في وجه اى مواطن بسبب دينه أو طبقته الطائفية ، أو عقيدته ، وجنسه ، ذكرا كان أو انثى ، وذلك فيما يتعلق بحقه في الوظائف العامة أو المناصب الرسمية أو مراتب الشرف ، أو مزاولة اية مهنة أو حرفة

٦ ـ لجميع المواطنين حقوق وواجبات متساوية في الانتفاع بالآبار والخزانات والطرق والمدارس والمحلات العامة التي تتعهدها الدولة أو الهيئات المحلية ، أو التي يتبرع بها الاشخاص للاستعمال العام

٧ ـ لكل مواطن الحق في أن يحمل السلاح في حدود اللوائح والقيود الخاصة بذلك .

٨ ـ لايجوز حرمان احد من حريته ولا دخول مسكنه و املاكه ولا مصادرتها الا في حدود القانون

٩ ـ على الدولة أن تلتزم احيادا ازاء جميع الاديان

١٠ ـ يكون الانتخاب على أساس حق التصويت لجميع البالغين

١١ ـ تتعهد الدولة بأن يكون التعليم الابتدائي مجانيا واجباريا

١٢ ـ لايجوز للدولة الانعام بأى رتب أو نياشين .

١٣ ـ عقوبة الاعدام محظورة (وقد نقضت حكومة الهند الوطنية هذا المبدأ فأصدرت حكمها باعدام قاتلي غاندى)

١٤ ـ لكل مواطن حق التجول بأنحاء الهند ، والبقاء أو الاقامة في أى مكان منها ، وحق الملكية ومزاولة أية مهنة أو حرفة يشاء ، وأن يعامل على قدم المساواة مع الجميع في المحكمة

القضائية وفى التمتع بحماية القانون فى جميع أنحاء الهند .

ويلى ذلك سائر البنود ، وهى تتناول علاج الاعداء الثلاثة : الفقر والمرض والجهل . . وهى بعينها الاعداء التى ابتليت بها مصر ، ويظهر أنها « عوامل مشتركة » فى كل بلد نكب بالاستعمار ، ولاسيما الاستعمار البريطانى الذى تمليه وتوجهه السياسة التى دمغها غاندى فى أحد تصريحاته بنعت « الشيطانية » . واذا كان المصريون أو بعضهم قد نسوا أفاعيل هذا الاستعمار فى مصر ، حيث يطيب لدعاة الاستعمار والمدافعين عنه أن يردوا أدواءنا الثلاثة الكبرى الى عوامل أخرى تضافرت مع الانجليز على نكبتنا بهذه الادواء . فان هناك دليلا ماديا لاسبيل الى التملص منه أو المكابرة فى معناه ومغزاه . ونعنى به سجل الاستعمار الانجليزى فى السودان وهو تاريخ خمسة وستين عاما من الاستغلال والاستبداد والاستهتار بمصائر الملايين من البشر ، فكانت نتيجة هذه المؤامرة الاستعمارية ما نشهد ، ويشهد العالم ، من تردى السودان فى هوة سحيقة من الجهل والفقر والمرض ، على نحو لا يماثله سوى مستوى الحياة فى الهند .

وليس من العسير على أى متجول فى ربوع الهند الفسيحة أن يدرك لاول وهلة أن (الفقر الاسود) هو انضج ثمرة من ثمار (القرصنة) البريطانية فى الهند التى كان يسميها الانجليز « المجوهرة فى التاج البريطانى » ! وحسبنا تصويرا لهذا الفقر ان نذكر ان متوسط أجر الفلاح يعادل ثلاثة قروش فى اليوم . وان الارض موزعة توزيعا مختلا قلما يوجد له مثيل الا حيث يوجد الاحتلال البريطانى فهناك الثراء الفاحش بين الاقلية المترفة الى جانب الفقر الفاضح بين الاغلبية الساحقة أو على الاصح المسحوقة ... وحتى العدد المحدود الذى يتمتع بالملكية الصغيرة مرهق بالديون العقارية وقد قدرت هذه الديون تقديرا معتدلا قبيل الحرب بنحو ٦٥٩,٠٠٠,٠٠٠ من الجنيهات ، ويتقاضى المرابون فوائد على أموالهم بنسبة تتفاوت بين ٢٥ فى المائة و ٢٠٠ فى المائة ! !

وحيثما كان الفقر ، كان الى جانبه صنوه الاكبر وهو المرض، ويؤخذ من احصاء رسمى بريطانى ان أكثر من اربعين فى المائة من أهل الهند يعانون من نقص التغذية . وان عشرين فى المائة يتضورون جوعا بالفعل ! وتتراوح اصابات الملاريا فى العام بين خمسين ومائة مليون اصابة.. كما تبلغ اصابات السل الرئوى نحو مليونين فى كل عام ! !

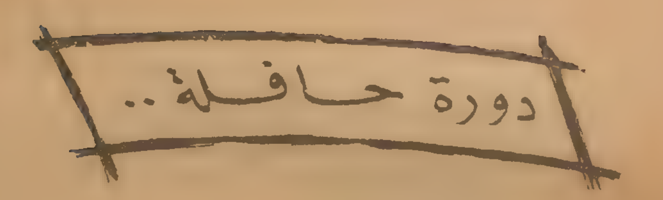
وجاء فى تقرير رسمى آخر ان نسبة كبرى بين الفلاحين فى اقليم البنغال تعيش على غذاء لاتستطيع ان تعيش عليه الفيران !

وليس عمال المصانع فى الهند بأحسن حالا من مواطنيهم الفلاحين ، فالعامل فى كلكتا (البنغال) أو بومباى يتقاضى فى الاسبوع نحو عشرين قرشا ، ويعيش فى غرفة خالية من الشمس والضوء والماء والاستعدادات الصحية . وقد يعيش كل عشرة أو عشرين فى غرفة واحدة من هذه الغرف ! !

أما ثالثة الاثافى : وهى الجهل فيكفى لتصوير مدى تغلغله تحت ظل الاستعمار البريطانى ان نذكر ان عدد الاميين بين الهنود يتجاوز ٣١٥ مليون شخص من بين مجموع السكان الذين كان عددهم قبيل الحرب يناهز ٣٨٠ مليون نسمة على وجه التقريب

***

أقف عند هذا الحد من الاستطراد الذى لم يكن منه بد لتعريف القارىء بالمؤتمر الوطنى الهندى : كيف نشأ ، وكيف نهض وكيف ناضل ، وكيف رسم أهدافه التى ترمى الى تخليص الهند من قبضة الغاصب الذى لايرحم ، وتخليص الهنود من براثن الفقر والجهل والمرض ـ مضافا اليها ذلك العدو الذى ابتليت به الهند اكثر من أى بلد آخر من بلاد العالم ، وهو الصراع الطائفى الذى طالما نفخ الاستعمار فى أتونه كلما هدأ ، فلما حان يوم الجلاء الذى لم يكن منه بد ، ضرب المستعمر الفاجر ضربته الماكرة الباترة ، فترك الهند المسكينة فى عيد حريتها تتخبط فى دماء الضحايا الابرياء من الهندوك والمسلمين والسيخ على السواء ، من جراء خدعة التقسيم ، والاسلوب الذى جرت عليه السياسة البريطانية فى تنفيذه .



وصلنا (نكبور) فى صبيحة اليوم التالى بعد رحلة بالقطار من بومباى استغرقت نحو اثنتى عشرة ساعة . وقد حجز لنا ديوان بالقطار من دواوين الدرجة الاولى خلافا لما اعتاده زعماء المؤتمر واعضاؤه بغير استثناء ، وفى مقدمتهم غاندى ونهرو ، من السفر بالدرجة التى يسمونها بالمتوسطة ، وهى أقل من الدرجة الثانية بقطاراتنا . وقد كان غاندى وسائر الزعماء يسافرون بأقل درجة فى القطار ، تمشيا مع خطتهم فى النزول الى أقل مستوى يعيش فيه الشعب ، وهى الخطة التى جعلت غاندى يضرب المثل الفذ حين نزل عن ثروته ، وآلى على نفسه عهدا ظل يحفظه الى ان مات . وهو ان يقنع من الزاد والملبس بأدنى حد يقدر عليه أفقر فقراء الهنود ...

على ان تجربة السفر فى القطار بأدنى الدرجات أخفقت بسبب تسابق المسافرين الى تقديم أماكنهم وأغطيتهم وكل ما فى استطاعتهم لتوفير أسباب الراحة لزعيمهم الراحل الذى بلغ عندهم مكان القداسة ، بل ما فوق القداسة ، حتى لقد أقام بعضهم معبدا لعبادته فى حياته ... فما كان منه الا ان غضب لذلك ، وأمر أصحاب المعبد بتحويله الى مصنع للغزل والنسيج لا لعبادة بشر مثله !

ولهذا رضى غاندى واتباعه من الزعماء وغيرهم ان يركبوا الدرجة المتوسطة فى أسفارهم تفاديا لما يسببه سفرهم بالدرجة التى تحتها من متاعب لهم ولعامة المسافرين ... !

وصلنا نكبور فوجدنا على محطة فى استقبالنا جمعا كبيرا من رجال حزب المؤتمر هندوكيين ومسلمين وسيخ . وفى مقدمتهم جواهر لال نهرو . رئيس وزارة الهند اليوم

ولم نكد ننفض غبار السفر ونترك امتعتنا فى (الاستراحة) ، الحكومية التى اختيرت لاقامتنا ـ وقد كانت وزارة الاقليم يومئذ ، كما هى اليوم احدى وزارات حزب المؤتمر الفرعية ـ حتى ركبنا السيارات الى ساحة المؤتمر فى قرية جبلبور . وهناك اخذنا نتنقل بين أكواخ زعماء المؤتمر للتعارف وتبادل التحية . فكانت فرصة نادرة للتحدث فى مكان واحد الى أكبر مجموعة من زعماء الهند الذين يشار اليهم باطراف البنان . فهذا سردار بتل رئيس المؤتمر السابق وزعيم اليمين الشديد البأس (ونائب رئيس الوزراء الآن) ، وهذا عبد الغفار خان زعيم الحدود الغربية المقاتل الذى يلقبونه (غاندى الحدود) ، ويتواضع هو فيقول لنا وهو قائم عند باب كوخه بقامته المديدة المهيبة وجلبابه البسيط ورأسه العارية « اننى لست سوى جندى بسيط فى صفوف غاندى » ! !

وهذا زعيم المؤتمر الشيخ الوقور راجندرا برازاد صاحب السلطان غير منازع فى ولاية بيهار وعضو اللجنة التنفيذية العليا للمؤتمر منذ سنة ١٩٢٢ ، وأحد أقطاب المحاماة وأعلام الاقتصاد والتاريخ فى الهند ، واحد لمجاهدين الافذاذ الذين ضحوا بالثروة والمنصب فى سبيل الحركة الوطنية ...

وهذا مولانا أبو الكلام آزاد أكبر اقطاب المؤتمر المسلمين الذين عاصروا حركة المؤتمر وناصروها وكافحوا التعصب الطائفى وعارضوا كل حركة لتمزيق وحدة الهند . وقد كان من أقطاب الجهاد الوطنى حتى قبل بروز غاندى فى معمعة الكفاح ، وقد قبض عليه فى سنة ١٩١٦ بتهمة التحريض على الثورة وقضى فى سجنه اربع سنوات ، فلم يكد يستنشق

نسيم الحرية فى سنة ١٩٢٠ حتى انضم الى حركة العصيان المدنى، وانتخب رئيسا لحزب المؤتمر سنة ١٩٢٣ (ثم أعيد انتخابه رئيسا خلال سنوات الحرب الاخيرة) . وهو الآن مستشار المؤتمر الاول فى شئون الاسلام والشرق العربى ، وقد كان تشبث غاندى بوجوده الى جانبه فى كل مباحثاته مع الرابطة الاسلامية ، سببا من ابرز أسباب الفشل فى تسوية الخلاف مع المغفور له السيد محمد على جنه زعيم الرابطة وحاكم الباكستان العام السابق ...

وهذه السيدة ساروجينى نايدو شاعرة الهند ، او (بلبل الهند) كما كان يسميها غاندى. وقد جمعت بين الشعر والوطنية ولاقت من ضروب المطاردة والاضطهاد ومصادرة الاموال والنفى والسجن مالا قبل به الا الصناديد الرجال... فاستحقت بجهادها وثقافتها ومواهبها الادبية والخطابية النادرة مكانا عليا بين زعماء الهند وانتخبت رئيسة للمؤتمر ، وعهد اليها بأشق المهام السياسية والخطابية فى كثير من دوراته . وقد كان من أسعد اللحظات فى حيتى يوم رأيتها تخطب بالانجليزية خطبة الختام فى دورة المؤتمر التى شهدناها ، فكان صوتها يجلجل مدويا فى نغمة أقرب الى خشونة الرجال ، وقد راحت ترتجل الكلام ارتجالا وهى تتدفق كالبحر العجاج وتملأ بصوتها المدوى أرجاء الفضاء ، فيسمعه اكثر من مائة الف نسمة ، رغم قلة اكتراثها بما ينبغى من توجيه الكلام فى مكبرات الصوت !

وهكذا تتابعت أمام أعيننا هذه الصور وغيرها من صور العظمة والجهاد والتضحية وانكار الذات ممثلة على اتمها فى هؤلاء الزعماء المجاهدين الذين عرفنا بعضهم ، وجهلنا أغلبهم ، وان كانت قد ضمتنا بهم منصة المؤتمر ايام انعقاده فى تلك الدورة ، ثم أتيح لنا بعد ذلك ان نتحدث الى كثيرين منهم ، والى خصومهم

أيضا فى مآدب التكريم وفى زياراتنا التى امتدت من بمباى الى حدود الافغان

وقد صادفت زيارتنا للمؤتمر فى ذلك العام – عام ١٩٣٩ – أزمة داخلية من أدق الازمات التى عرفها المؤتمر الوطنى فى تاريخه الحافل بالمتاعب والازمات . ثم هذه الازمة التى شهدناها وتتبعنا مراحلها من الخطوة الاولى لوصولنا . مثالا رائعا للحيوية الدائمة التى تنبض بها عروق المؤتمر . كما كانت صورة مشرفة للعراك السياسى الذى يقوم داخل الحزب الواحد . لا فى سبيل مقعد زائل من مقاعد الحكم او منصبه ... بل فى سبيل الخدمة الوطنية التى يعتقد كلا الفريقين المتنازعين انه أجدر بتوجيهها وأقدر على تحقيقها بوسائله وأساليبه فى النضال .

كان محور الازمة هو الترشيح لرياسة حزب المؤتمر فى الدورة الجديدة . وكان رئيس الدورة السابقة – دورة عام ١٩٣٨ – هو الزعيم الوطنى اليسارى الشاب سوبهاس شندرا بوز . الذى كان يمثل الصورة المتطرفة للنزعة الاشتراكية التى زرع بذورها وتعهدها جواهر لال نهرو على أثر فشل العصيان المدنى سنة ١٩٣٤ . وكان بوز قائد العناصر المتطرفة التى ترى ان الوقت قد حان لمواجهة الانجليز بانذار نهائى للخروج من الهند فاذا لم يخرجوا خرجت اليهم الجماهير لتقاتلهم . ولو بحد السلاح حتى يجلوا عن البلاد ....

ومن هنا استقر رأى بوز على ترشيح نفسه لرياسة المؤتمر مره اخرى ، رغم اتفاق (القيادة العليا) ممثلة فى غاندى وباتل ونهرو على ترشيح أحد رجال اليمين للرياسة ، وكانت النية قد انعقدت على ترشيح مولانا أبو الكلام ازاد ولكنه تنحى عن الترشيح ، مزكيا عضوا بارزا آخر من المؤتمر هو الزعيم الهندى سيتا رامايا ، سكرتير المؤتمر اذ ذاك على ما أذكر .

وكانت معركة حامية الوطيس بين اليسار واليمين ، بين الشدة واللين ، بين التهور والتبصر ، بين المضاء فى الجهاد ، والولاء لزعماء الجهاد الاقدمين ...

وكان أغرب مظاهر هذه المعركة ان طرفيها الحقيقيين خاضا غمارها عن بعد ! غاندى ، زعيم الامة المقدس يديرها من صومعته التى أبى ان يفارقها ليحضر دورة المؤتمر رغم الحاح الجميع عليه وفى مقدمتهم بوز .... وبوز يديرها من فراش المرض فى خيمته بأرض المؤتمر ، وقد اصر على أن ينقل الى جبلبور رغم اشتداد وطأة المرض عليه قائلا انه يؤثر أن يموت بين عشرات الالوف الذين حضروا من اطراف الهند للاجتماع فى هذه البقعة ، وانه ليس من حقه كرئيس المؤتمر فى دورته الماضية ومرشحه فى دورته القادمة ان يتخلف عن هذه الجماهير ، ولو كان مصابا بذات الرئة !!

وكان موقف نهرو من هذه المعركة بين زعيمه الجليل وزميله العليل آية من آيات النضال السياسى فى أنبل معانيه . اذ كان يقسم وقته بين الاشراف على المعركة والخطابة فى تأييد مرشح القيادة العليا للرياسة ، وبين السعى مهرولا الى خيمة منافسه سوبهاس بوز للاطمئنان على صحته ، كصديق وزميل وسجاهد كريم ...

وكان الفوز حليف المرشح اليسارى الثائر العليل سوبهاس تشاندرا بوز !

ولم تكد تعلن هذه النتيجة حتى بادر اثنا عشر عضوا من أعضاء اللجنة العاملة (اى التنفيذية) الخمسة عشر الى الاستقالة من عضوية اللجنة . وفى مقدمتهم سردار باتل ومولانا ابو الكلام والدكتور براساد . كما أصدر بانديت نهرو بيانا شديد اللهجة يعلن فيه استياءه واعتراضه على ماحدث ....
ولم يلبث الفريقان لحسن الحظ ان دخلا فى مفاوضات عاجلة لرأب الصدع الذى أصاب بنيان المؤتمر فى يوم افتتاحه ، وانتهى الامر بأن وافقت اللجنة التحضيرية بغالبية ٢١٠ ضد ١٣١ على اقتراح يتضمن الثقة التامة بغاندى . والولاء لزعامته . وعدم اعتبار ماحدث دليلا على أى انحراف عن هذا الولاء .

وقد شفى بوز بعد بضعة اسابيع ، وظل يواصل كفاحه



وجرت التقاليد ان يركب الرئيس الجديد فيلا

السياسى رئيسا وعضوا فى المؤتمر ، حتى اذا اندلع لهيب الحرب العالمية الثانية غادر الهند وألف الجيش الوطنى الهندى من بعض مواطنيه المتطوعين الذين يئسوا من كفاح الاستعمار بالخطب والبيانات والجهاد السلبى ، فحملوا السلاح مع القوات اليابانية ، لا لكى يحاربوا فى صفوف المحور ، بل ليناضلوا فى سبيل الهند ، ولو اقتضى نضالهم النبيل ان يحالفوا شيطان المحور ضد شيطان الشياطين وعدو الاحتلال !

ولقد لقى سوبهاس بوز فى حادث طائرة يابانية قبيل انتهاء الحرب ، ليضيف اسمه بأحرف خالدة فى صفحات الجهاد والتضحية والاستشهاد .

* * *

لم تكد نتيجة انتخابات الرياسة تعلن حتى ألقى أحد أعضاء المؤتمر خطبة الرئيس لتقديم الجديد سوبهاس بوز ، وعندما حيى وفد مصر قوبلت بالتصفيق الشديد ، وفيها كذلك تصوير واقعى دقيق لاهم الاحداث الداخلية والخارجية ، وهو تصوير يتناول الحالة الدولية على وجه خاص بعبارات موجزة ، ولكنها تكاد تكون منقولة عن صفحات الغيب ... ولاسيما حين تناول الزعيم الشاب اتفاقية ميونيخ ، وتسليم الديمقراطيات الغربية للنازية تسليما ذليلا ، وتضافرها على تجاهل روسيا .... وغير ذلك مما يحسن أن أنقل هنا ترجمته الحرفية . وقد استهله بالعبارة التالية مخاطبا رئيس الاجتماع وسائر الحاضرين :

« أيها الرفيق الرئيس ..

« اخوانى واخوتى اعضاء الوفود »

« اشكركم من اعماق قلبى على ما اوليتمونى من شرف باعادة انتخابى رئيسا للمؤتمر الوطنى الهندى ، كما اشكركم على الحفاوة الحارة القلبية التى استقبلتمونى بها هنا فى تريبورى . صحيح انكم بناء على طلبى اضطررتم الى الاستغناء عن بعض

مظاهر الاحتفال الفخم التى جرت بها العادة فى مثل هذه الاحوال (١) ولكنى أحس بأن هذه الخطوة الاضطرارية لم تذهب بذرة واحدة من حرارة استقبالكم ، وأرجو الا يأسف احد على اختصار المراسم فى هذه المناسبة .

أيها الاصدقاء :

قبل ان استطرد الى موضوع اخر أود ان أردد صدى مشاعركم باعلان ابتهاجنا بنجاح المهاتما غاندى فى مهمته الخاصة بولاية راجكوت (٢) وانتهاء صيامه تبعا لذلك . وان البلادَ كلها لتشعر الان بالسعادة وعظيم الارتياح .

ان هذا العام ينذر بأن يكون عاما شاذا من عدة وجوه . فانتخابات الرياسة فى هذه المرة لم تكن من الطراز التقليدى المحفوظ . وقد اعقبت الانتخاب تطورات بالغة الاهمية أدت الى استقالة اثنى عشر من الخمسة عشر عضوا فى اللجنة العاملة ، فى مقدمتهم سردار فالاباى باتل ومولانا ا.ك. ازاد والدكتور راجندرا برازاد . وهناك عضو كبير ممتاز آخر فى اللجنة العاملة هو بانديت جواهر لال نهرو ، لم يستقل رسميا ولكنه أذاع بيانا جعل الجميع يعتقدون انه استقال كذلك ، وقد حدث قبيل انعقاد مؤتمر تريبورى هذا أن اضطرت حوادث راجكوت

---

(١) اشارة الى الغاء « موكب الفيلة » الذى يقام عند انتخاب الرئيس الجديد فى كل عام . وقد جرت التقاليد على ان يركب الرئيس الجديد فيلا ، وتتبعه عشرات من الفيلة فى احتفال بالغ الفخامة .

(٢) راجكوت ولاية مستقلة تجاور بمباى . وقع فيها قبيل وصولنا خلاف شديد بين المهراجا وبين الشعب بسبب بعض الاصلاحات الدستورية التى كان المهراجا قد وعد بها . فلما نكث بوعده رغم تدخل غاندى فى الامر . قرر غاندى صياما حتى الموت ، او يبر المهراجا بوعده وهو ما كان بالفعل ، مما يشير اليه خطاب الرئيس .

ومما يذكر فى هذه المناسبة ان والد غاندى كان رئيسا لوزارة راجكوت . ولهذا كان غاندى ينظر الى مهراجا راجكوت نظرة الوالد الى ولده

مهاتما غاندى الى البدء فى الصوم حتى الموت . ثم وصل رئيس المؤتمر (يعنى نفسه) الى تريبورى مريضا . ولهذا يحق لخطاب الرياسة فى هذا العام أن يتمشى مع مقتضيات الحال فيخالف التقاليد فى اسهابه واطنابه .

وتعلمون أيها الاصدقاء أن البعثة الوفدية القادمة من مصر قد حلت بيننا فى ضيافة المؤتمر الوطنى الهندى . وانكم لتشاركوننى فى تقديم أصدق الترحيب القلبى بأعضاء البعثة جميعا . واننا لسعداء غاية السعادة أن كان فى استطاعتهم تلبية دعوتنا بالقدوم الى الهند . ولا يؤسفنا سوى أن الظروف السياسية القاهرة فى مصر لم تسمح لرئيس الوفد ، مصطفى النحاس باشا ، برياسة هذه البعثة على أن سرورى قد تضاعف اليوم اذ كان لى شرف التعرف الى رئيس البعثة واعضائها الوفديين البارزين . وانى لاعود فأقدم لهم باسم ابناء وطنى أصدق عبارات الترحيب القلبى »

وبعد هذه التحية الكريمة التى قوبلت بالتصفيق الحاد والهتافات من عشرات الالوف واستطرد الرئيس قائلا :

« لقد وقعت منذ اجتماعنا فى هاريبورا فى فبراير سنة ١٩٣٨ ، أحداث هامة متعددة فى المحيط الدولى . وأهمها ميثاق ميونيخ الذى عقد فى سبتمبر سنة ١٩٣٨ ، وهو ينطوى على تسليم ذليل لالمانيا النازية من جانب دولتى الغرب فرنسا وبريطانيا . وقد كانت نتيجة ذلك القضاء على فرنسا باعتبارها الدولة الكبرى فى أوربا وانتقال الزمام الى يد المانيا دون أن تنطلق رصاصة واحدة! ويظهر أن تدهور الحكومة الجمهورية فى أسبانيا وانهيارها التدريجى قد زاد فى قوة ايطاليا الفاشية والمانيا النازية ورفع من هيبتهما ، فتآمرت معهما دولتا الديمقراطية المزعومة فرنسا وبريطانيا ، على استبعاد روسيا السوفيتية من حساب السياسة الاوربية فى الوقت الحاضر ...
ولكن الى متى يظل ذلك فى حيز الامكان ؟! على أن الذى لاشك فيه هو أن التطورات الدولية الاخيرة فى أوربا وآسيا على السواء ،

قدنالت كثيرا من قوة الاستعمارين البريطاني والفرنسي وهيبتهما .

« أما سياستنا الداخلية ، فأن اعتلال صحتي يجعلني أجتزىء عن الافاضة فيها بالاشارة الى بضع مسائل هامة . وأبادر أولا فأعبر تعبيرا واضحا لا يقبل الشك أو التأويل عن شعور يخالجني منذ حين ، بأن الوقت قد حان لكي نثير مسألة الاستقلال (سواراج) ونتقدم بمطلبنا الوطني الى الحكومة البريطانية في صورة انذار نهائي ... لقد مضى وانقضى وقت المواقف السلبية والانتظار حتى نتجرع (المشروع الاتحادي) . ولم تعد المسألة متى نرغم على تجرع هذا المشروع ، بل ماذا ينبغي أن نصنع اذا وضع المشروع الاتحادي على الرف بضع سنوات حتى يستقر السلم في أوربا .. ان الذي لا شك فيه أنه اذا استقر السلام في أوربا ، سواء بميثاق رباعي أو بغير ذلك من الوسائل ، تذرعت بريطانيا بالقوة وانتهجت سياسة استعمارية شديدة . وليس ما يبدو الآن من علامات الرغبة في استرضاء العرب ضد اليهود في فلسطين الا نتيجة شعورها بالضعف في المحيط الدولي . ولهذا أرى من واجبنا أن نتقدم بمطلبنا الوطني الى الحكومة البريطانية في قالب انذار نهائي ، مع تحديد أجل معين للرد عليه . فاذا لم نتلق ردا خلال الاجل المضروب أو تلقينا ردا غير مرض . كان علينا أن نلجأ الى ما لدينا من وسائل لانتزاع مطلبنا الوطني ، والوسائل التي لدينا الآن هي العصيان المدني الاجماعي (ساتيا جراها) ، والحكومة البريطانية اليوم ليست في موقف يسمح بمواجهة كفاح ضخم كالعصيان المدني العام الى اجل بعيد .

« ويحز في نفسي أن أجد في المؤتمر أناسا يبلغ بهم التشاؤم حد الذهاب الى أن الوقت لم يحن بعد لمبادأة الاستعمار البريطاني بهجوم واسع النطاق ، ولكنني حين اعرض الموقف عرضا واقعيا محضا لا أجد أدنى مبرر لهذا التشاؤم . فان اضطلاع المؤتمر بأزمة الحكم في ولايات ثمان قد رفع من مكانة هيئتنا الوطنية

وشد ازرها وسار بالحركة الشعبية فى الهند البريطانية (١) شوطا بعيدا الى الامام . وأخيرا وليس اخرا ، هناك نهضة لم يسبق لها مثيل فى الولايات الهندية . فأية لحظة أنسب من هذه فى تاريخنا الوطنى للزحف النهائى نحو الاستقلال (سوراج) ولاسيما ان الموقف الدولى يلائمنا . انني اذ أتكلم كرجل واقعى هادىء أستطيع أن أقول ان كل عناصر الموقف الحاضر وحقائقه الواقعة تلائم مصلحتنا الى الحد الذى يبرر أقصى درجات التفاؤل . فاذا نحن قضينا على خلافاتنا ، ووجدنا جميع كفاياتنا ، وحشدنا للجهاد الوطنى كل قوتنا لما استطاع الاستعمار البريطانى أن يصمد لهجمتنا ! فهل يتوفر لدينا من بعد النظر السياسى ما يكفل لنا استغلال موقفنا الملائم الحالى الى أقصى حدود الاستغلال . أو نضيع هذه الفرصة النادرة فى حياة أى شعب من الشعوب ؟ »

وبعد استطراد يسير لفت الرئيس فيه أنظار المجتمعين الى واجب المؤتمر نحو شعوب الولايات فى الهند الهندية ، عاد الى دعوته للجهاد فقال :

« لقد أشرت فيما سبق الى ماينبغي علينا من القيام بزحف نهائي نحو الاستقلال . وهذا يقتضى أن نعد للجهاد عدته . . وأول ماينبغى فى هذا الصدد هو أن تتخذ الخطوات لكى نقضى فى غير رحمة على أى عنصر من عناصر الفساد أو الضعف تسرب الى صفوفنا لاسباب مرجعها فى الغالب بريق الحكم الجذاب وعلينا بعد ذلك أن نعمل فى تعاون وثيق مع جميع الهيئات التى تحارب الاستعمار فى البلاد ، ولاسيما حركة الفلاحين (كيسان)

---

(١) تمييزا لها عن « الهند الهندية » وهى التى كان يحكمها المهراجات والراجات والحكام المسلمون .

اما الهند البريطانية فهى احدى عشرة ولاية تضم اقاليم أسام والبنغال وبيهار واوريسا وبمباى والاقاليم الوسطى والاقاليم المتحدة والبنجاب والسند والحدود الشمالية الغربية ـ وهذا بالطبع قبل التقسيم وظهور الباكستان وانضمام الولايات كلها للهند .

وحركة اتحاد العمال ، فلابد لجميع العناصر الرادكالية من التعاون وتنسيق العمل فيما بينها ، ولابد من توحيد جهود المنظمات المعادية للاستعمار حتى تتضافر كلها فى توجيه الهجوم الحاسم على الاستعمار البريطاني

واختتم الرئيس المتطرف خطبته . أو على الاصح رسالته بهذه العبارة التى قوبلت بعواصف من التصفيق والاستحسان .

« ايها الاصدقاء : ان جو المؤتمر اليوم ملبد بالغيوم ، وقد بدت للعيان بوادر الانقسام والخلاف ولهذا يشعر كثير من اصدقائنا بالحزن والقنوط .

« ولكنى مؤمن بوطنية مواطنى واثق من اننا قبل ان ينقضى زمن طويل سنذلل الصعاب القائمة ، ونعيد الوحدة الى صفوفنا .
وقد طرا موقف يشبه هذا الموقف فى مؤتمر جويا سنة ١٩٢٢ ، عندما انشأ داشباندوداس وطيب الذكر بانديت موتلال نهرو حزب الاستقلال ، فلنستلهم فى أزمتنا الحاضرة روح المأسوف عليه (جورا) وأنطيب الذكر موتلالجى(١) وغيرهما من ابناء من ابناء الهند العظام ، وانى لارجو مخلصا من المهاتما غاندى — الذى ما زال معنا مرشدا وهاديا ومعينا للامة — ان يساعد المؤتمر على الخلاص من أزمته الحاضرة »

هذه خطبة الرياسة التى القيت على مسامعنا باسم الزعيم الشاب الثائر شوباس بوز ، وقد أعدها بنفسه رغم اشتداد وطأة المرض عليه ، وفيها من آيات الوطنية ، والجرأة ، وبعد النظر وسعة الافق ما يدل على مبلغ الخسارة التى اصابت الهند بفقده فى حادث طائرة يابانية فى فترة نضاله الدموى ضد الاستعمار البريطانى فى الحرب الماضية .

تحية نهرو

وقد القى الbandيت نهرو على اثر خطبة الافتتاح كلمة هذا نصها :

---

(١) تضاف « جى » على الاسم الاول فى الهند دلالة على التعظيم ، فهم يقولون عادة « غانديجى » او « مهاتماجى » او « جواهر لال جى » الخ الخ ...

سيداتى سادتى :

بين ظهرانيكم اليوم بعثة الوفد المصرى التى شرفت الهند لحضور هذا المؤتمر اجابة للدعوة التى وجهت اليها من رئيس هذا المؤتمر وقد حضرت الان تحمل اليكم رسالة اخلاص ومحبة وصداقة من الشعب المصرى الكريم وزعيمه الامين مصطفى النحاس باشا فانا ارحب بها اليوم اجمل ترحيب واحييها اعظم تحية واقدر رسالة الاخلاص هذه حق قدرها وانا ارجو من صميم قلبى ان تعود هذه البعثة وهى تحمل الى الشعب المصرى الكريم والى زعيمة الوفى الامين مصطفى النحاس باشا نفس هذه الرسالة ونفس هذا الود ، ونفس هذا الحب وهذا العطف من شقيقتها الهند

ولقد كان من دواعى الاسف الشديد فى الوقت الذى تتلهف فيه الهند بأسرها لرؤية زعيم مصر العظيم ان تحدث موانع وان تقع عوائق تمنع من تحقيق رغبة الهند برؤيته ووجوده بين ظهرانينا الان فى هذا المؤتمر وعلى راس هذه البعثه ولكن عسى ان يتحقق هذا الامل فى المستقبل وان تحظى الدورة المقبله لهذا المؤتمر بشرف حضور هذا الزعيم الجليل

خطاب وفد مصر

وعلى اثر ذلك القى المرحوم بسيونى بك باللغة العربية خطابا بأسم الوفد ، ثم تلاه الاستاذ محمود أبو الفتح بترجمة انجليزية وفيما يلى نصه :

حضرة الرئيس
حضرات الاعضاء
سيداتى ، سادتى .

اقدم لحضراتكم بالنيابة عن زملائى وبالاصالة عن نفسى أعضاء بعثة المودة والصداقة التى أنابها الوفد أصدق شكرنا على دعوتكم الكريمة وحفاوتكم البالغة ، كما نقدم لكم تحية صادرة من سويداء القلوب سداها الاخلاص ولحمتها المحبة والولاء والوفاء ، وقد كان ولايزال الاشتراك فى مؤتمركم العظيم أعز أمانى زعيم الامة

المصرية مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد وأعضائه جميعا ولم تحل ظروف طارئة دون حضور الرئيس بشخصه ، ولا يعادل سرور زملائى وسرورى بانتدابنا لهذه المهمة النبيلة الا احساسنا بالشرف العظيم اذ ننوب عن الوفد الذى يمثل الشعب المصرى بأكمله فى ابلاغ الشعب الهندى المجيد أسمى عواطف الود والاخاء وأصدق التحيات والتمنيات .

سيداتى ، سادتى :

لقد اثارت فينا هذه الرحلة المباركة شعورا عميقا تبعثه أوجه الشبه المتعددة التى بين البلدين والتى ترجع بنا الى الماضى البعيد ، يجمع الشرق بين بلدينا ، والشرق مهبط الوحى ومصدر الفلسفة والحكمة ومبعث الاديان التى تحث على التآلف وبث روح المحبة فى القلوب ، وتحكيم المثل العليا كى يعيش الناس متصافين وتتوفر أسباب الخير والسعادة لهم جميعا . ولم يقتصر مجد البلدين التالد على ما لديهم من هذه الكنوز النفيسة بل ورثا ميراثا رائعا من حضارة عمرانية ترجع الى فجر التاريخ ، ومدنية كانت زاهرة رائعة حين كان سائر العالم يتخبط فى ظلام الجهالة والتأخر

وشاءت الاقدار أن تتنكر لبلدينا فاشتركا فى مصاب واحد وذاقا كأسا واحدة فاتفقت مشاعرهما وتماثل احساسهما وكان طبيعيا أن تتماثل نهضتهما وتتشابه قيادتهما وتتقارب فيهما وسائل الدفاع والنضال .

لقد بدأت النهضة المصرية الحديثة سنة ١٩١٨ بزعامة المغفور له سعد زغلول وكذلك قامت النهضة الهندية الحديثة بزعامة المهاتما غاندى .

تحمل المهاتما وزملاؤه المخلصون ، من هندوكيين ومسلمين وغيرهم صنوفا من الاضطهاد والتنكيل فقابلوها بصدر رحب وامعان فى الجهاد وبذل فى التضحية كما تحملها قادة النهضة فى مصر وكانوا مثل اخوانهم الهنود ذوى عزيمة لا تكل وقناة لا تلين

اتفق الشعبان فى المبادىء كما اتفقا فى الوسائل فقد شيدت

نهضتهما على صرح الاتحاد بين عناصر الامة المختلفة

نادى بذلك المغفور له سعد زغلول باشا في مصر فلبى المصريون على اختلاف مللهم ونحلهم نداءه وهبوا صفا واحدا كالبنيان المرصوص والتفوا حول وفدهم وزعامتهم التى حمل رايتها سعد حتى مات فى ميدان الجهاد فحملها من بعده مصطفى النحاس وسار بها من نصر الى نصر ، ومن فوز الى فوز ، فقد كان من أثر توحيد الصفوف والالتفاف حول الوفد والثبات على مبادئه ان وصلت مصر الى عقد معاهدة استقلال وصداقة مع بريطانيا العظمى وعقد معاهدة الغاء الامتيازات مع الدول الاجنبية وتبوأت مصر كدولة مستقلة مقعدها بين الدول فى عصبة الامم

وكذلك فى الهند اسس المهاتما غاندى نهضة على التآلف بين العناصر المختلفة

سيداتى ، سادتى .

ما أحرى بلدينا بالاتصال الدائم وما أحرى ان تكون هذه البعثة فاتحة خير وبركة تتوالى بعدها البعثات بين البلدين كل عام حتى تقوى الروابط وتقرب ما بينهما من علم وثقافة ، وانه لمن دواعى سرور الوفد وزعيمه الجليل أن نرى مندوبين عن مؤتمركم الموقر يحضرون المؤتمر الوفدى الذى سيعقد فى أواخر شهر ابريل القادم

وما أحرى ان تتسع دائرة الاتصال الى ان تشمل الامم الشرقية جميعها ولعل من بواكير ذلك الاتجاه اجتماع ممثلى الشعوب العربية فى مؤتمر فلسطين تحوطهم بقية الشعوب الشرقية بعطفها وتأييدها

ان مصر أيها السادة ، التى تربطها بالدولة البريطانية معاهدة الصداقة والتحالف ، لتجد واجبا عليها ووفاء منها لهذه المحالفة الا تتردد فى الاهابة بحليفتها أن تستجيب الى نداء الوطنية الصادر من قلوب مئات الملايين من أبناء هذه البلاد لتقيم علاقاتها بها على أسس وطيدة من الصداقة الخالصة المتبادلة والتعاون الحر

سيداتى سادتى

من أشد مابهرنا هذا الحفل الرائع ، وهذه الجموع الهائلة آتية من بقاع الهند المختلفة المترامية . تمثل مئات الملايين من جميع الاديان والمذاهب . يعملون جميعا على تحقيق امنية الهند الكبرى التى يحنو عليها قلب كل هندى . بل قلب كل مصرى ، بل قلوب الشرقيين جميعا . .

قرار المؤتمر

وقد وقع خطاب الوفد المصرى فى نفوس رجال المؤتمر وقعا طيبا . وكان يقطع بالتصفيق الحاد من عشرات الالوف الحاشدة . فلما عقد المؤتمر اجتماعه العام فى مساء يوم ١١ مارس عرضت عليه لجنة الموضوعات القرار التالى فأقره بالاجماع :

« يقدم المؤتمر ترحيبه الودى الى بعثة المودة والصداقة التى أوفدها الوفد المصرى بالنيابة عن جميع ارجاء مصر ويعد هذه الزيارة رمزا للتضامن فى الحركات الخاصة بحرية مصر والهند ، ويبعث المؤتمر بتحياته القلبية الى شعب مصر ، وبأخلص تمنياته للنجاح التام فى احراز الحرية الكاملة . والمؤتمر موقن بأن تعاون شعبى مصر والهند سيزداد توثقا على الدوام ، وسيكون أكثر نفعا فى خدمة السلم والحرية فى العالم »

برقية من غاندى

وقبل ان نغادر تريبورى الى الله اباد ، مسقط رأس نهرو ، تلبية لدعوته تلقينا من المهاتما غاندى برقية يقول فيها :

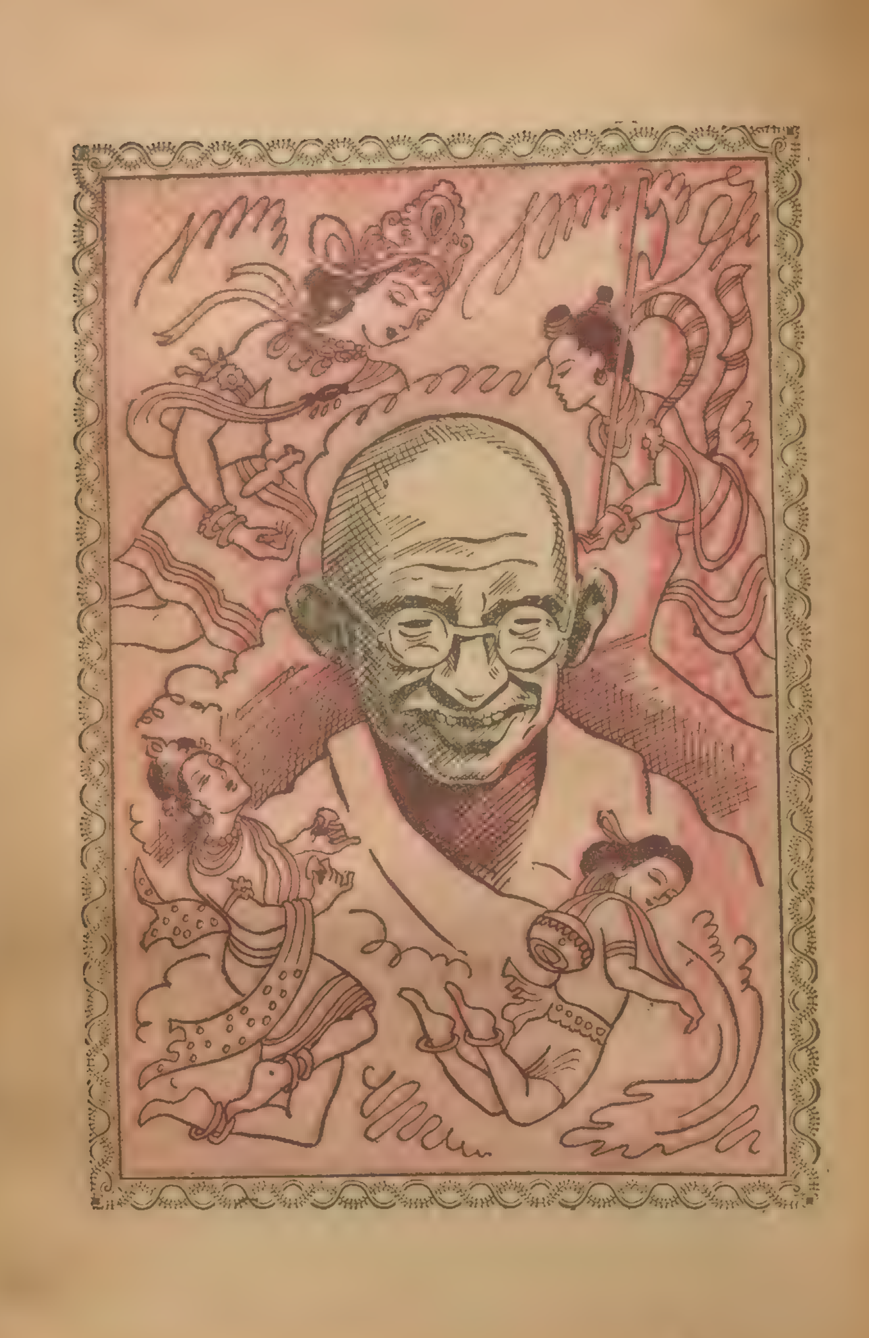
« سررت كثيرا ببرقيتكم الودية ، وأرجو ان يكون قد تحقق لكم بعض ماكنتم تتوقعونه سأصل الى دلهى فى ١٥ مارس . فأرجو ان اقابلكم هناك »   « غاندى »

فى حضرة غاندى

وفى جو الجفاوة القلبيــة التى سعدنا بها فى تريبورى غادرنا المدينة الى الله اباد حيث نزلنا ضيوفا على البانديت نهرو ، وقد رافقنا فى القطــار ومعه كريمتــه ومولانا ابو الـكلام ، فلما بلغنــا مدينة الله اباد وجــدنا من آيات الحماسة الوطنيــة ، والتنظيم الحــزبى ، كما يتمثل فى لجــان المؤتمر ، امثلة جديرة بالاعجاب والتقدير . ولاغرو فان الله اباد ليست مسقط رأس نهرو فحسب ، ولكنها أيضا مقر المركز العــام لحزب المؤتمر ، وهو يقــع فى دار شامخة وهبها والد نهرو ، الزعيم الكبير موتلال نهرو لتكون مقــرا للحزب .

وفى جانب من هذه الدار أقيم مستشفى للفقراء سمى باسم السيدة المجاهدة النبيلة (كمالا نهرو) زوجة جواهر لال نهــرو تخليــدا لذكراها . وتمجيدا لتضحياتها المأثورة وجــهودها فى ابان الحركة الوطنية ، اذ كانت تنزل الى الشـــوارع بنفسهــا لاسعاف جرحى المظاهرات الذين كان الانجليز يرفضون نقلهم الى مستشفيات الحكومة . فكانوا ينقلون الى دار نهرو حيث يظفرون بالعناية والمواساة والنجدة من يدى (كمــالا نهرو) وزميلاتهــا النبيلات . فلما توفيت قبيــل الحرب الاخيرة اكتتب الاهلون بمبالغ كبيرة وأقاموا مستشفى كبيرا لعلاج الفقراء أطلقوا عليــه اسم كمالا نهرو ، ووضع غاندى حجر الأساس فيه .

وفى الله أباد أقيم بمناسبــة حضورنا اجتمــاع عام عقــد فى حديقة واسعة الارجاء وحــضره اكثر من عشرين الف شــخص .



وقد جلسنا ، ومعنا البانديت نهرو فوق منصة عالية ، وكان ظهورنا ايذانا بعاصفة مؤثرة من الهتافات لمصر والوفد . ثم نهض البنديت نهرو فألقى خطابين بالهندستانية والانجليزية تحدث فيهما باسهاب عن الحركة الوطنية في مصر ، وقيادة سعد زغلول الذى قال ان الهند كلها كانت تعرفه وتقتفى خطاه ، وانتقال زعامة الوفد من بعده الى النحاس باشا . وأفاض نهرو فى الاشادة بوطنية النحاس باشا ، وتضحياته وخدماته لبلاده ، ثم تكلم عن قوة الوفد فى مصر وأهمية تبادل البعثات بين الوفد والمؤتمر ، وضرورة التعاون بين مصر والهند وتبادل المعلومات عن أحوال البلدين مباشرة دون وساطة الشركات الاجنبية .

وأعقب ذلك خطاب حماسى - باللغة العربية - ألقاه المرحوم بسيونى بك وكان مداره التنديد بالخلاف بين عنصرى الهند الكبيرين ، ودعوتهما الى توحيد الصفوف بعبارات مؤثرة ، كان أثرها ينعكس فى التصفيق الشديد الذى قوبلت به معظم فقرات الخطاب .

وتكلم الاستاذ أبو الفتح بالانجليزية فضرب مثلا للاتحاد بما حدث فى مصر بين المسلمين والاقباط ، واختتم خطابه بتحية ابن (الله أباد) البار الزعيم الخالد الذكر موتيلال نهرو . فتعالت الهتافات له ، ولمصر وزعماء مصر .

وفى مساء اليوم نفسه سافرنا بالقطار الى لكناو عاصمة المقاطعات المتحدة . فوصلنا فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ، واذا فى استقبالنا السيد بانديت زوج شقيقة نهرو (وقد توفى أثناء الحرب الاخيرة) وكان محاميا معروفا ، وسكرتيرا عاما للجنة المؤتمر العامة فى المقاطعات المتحدة كما وجدنا فى استقبالنا عددا كبيرا من أعضاء المؤتمر ، وبعد أن استرحنا بفندق كارلتون ذهبنا الى دار البرلمان لزيارة مجلس النواب (ويسمونه الجمعية التشريعية) وقد حضرنا جانبا من الجلسة . وكان مما لفت أنظارنا وجود سيدات بين الاعضاء ، وعددهن احدى عشرة سيدة بينهن سيدتان مسلمتان .

ومن طريف ماحدث يومئذ – وكيف أنساه ؟ – ان أحد سعاة المجلس اقترب مني أثناء جلوسنا في الشرفة وهمس في أذني بأن نائبة في المجلس تدعونني لكي تتحدث الي . فذهبت معه . واذا به يصحبني الى قاعة الاستقبال واذا سيدة تلبس الحجاب السميك الذي يسمونه (البرده) وهو يحجب الوجه كله ولا يترك سوى ثقبين تنظر السيدة من خلالهما الى محدثها . .

ولم تصافحني السيدة النائبة – وهي احدى النائبين المسلمين – ولكنها بادرتني بايماءة من رأسها قائلة :

– لقد دعوتك باعتبارك أصغر أعضاء البعثة القادمة من مصر . . فقلت :

– هذا شرف عظيم ياسيدتي . . .

فقالت – هل التعليم منتشر بين المصريات ؟

قلت – انه في تقدم كبير ياسيدتي . .

قالت – وهل تخرج المرأة المصرية الى الطرقات ؟ لقد بلغني انها تركت الحجاب وأصبحت سافرة ؟ !

ثم أضافت بلهجة ملؤها الجزع :

– هل هذا صحيح ؟ !

قلت – صحيح ياسيدتي . فنحن لانعرف الحجاب الذي تتمسكون به هنا ، ومع ذلك فارجو ان تطمئني الى ان الاسلام بخير في مصر . .

وكأنما أحست بخيبة أمل شديدة فاكتفت بأن حملتني التحية الى بقية أعضاء البعثة راجية لمصر الخير والتوفيق ، دون أن تخفي عجبها لتنازل مصر عن الحجاب ! !

وفي الساعة الثالثة زرنا دار الشعبة العامة للمؤتمر في لكناو فرسخ لدينا مبلغ حرص المؤتمر على تنظيم لجانه وشعبه في جميع أنحاء البلاد على أساس محكم دقيق .

وفي الساعة الخامسة أقامت لنا وزيرة الصحة مسز بانديت شقيقة نهرو ، **وسفيرة الهند في الولايات المتحدة الآن** ، حفلة شاي

كبيرة فى حديقة دارها الانيقة حضرها أكبر الشخصيات من مختلف الاحزاب والهيئات .

وعدنا من لكناو الى دلهى فتجددت حفلات التكريم ، ومن بينها حفلة شاى كبرى أقامها زعيم نواب المؤتمر فى الجمعية التشريعية المركزية المرحوم بولاباى ديساى جمعت بين كبار رجال المؤتمر والشخصيات البارزة من المسلمين والهندوس وكبار الموظفين الانجليز والهنود .

فى حضرة غاندى

وفى يوم ١٨ مارس ، فى حديقة قصر بيرلا (بيرلا هاوس) بنيودلهى ، حيث قتل غاندى وهو يتأهب للصلاة ، متجها الى الله بكل جوارحه ـ فى ذلك اليوم وفى ذلك المكان أسعدنى الحظ بفترة خالدة من العمر قضيتها مع غاندى ، وتحدثت اليه ، واستمعت اليه ، وملأت نفسى من فيض قدسيته وروحانيته ..

ان ذكرى هذا الاجتماع مازالت حية ماثلة بتفاصيلها فى ذهنى حتى الان ، كما لو كانت قد حدثت بالامس القريب

فها نحن اولاء ، فى صحبة البنديت نهرو ـ خليفه غاندى ـ والدكتور الانصارى ، الذى يمثل اسرة اسلامية عريقة متفانية فى الاخلاص لغاندى وزعامته .. ها نحن اولاء قد وصلنا الى قصر بيرلا قبيل الظهر بعد جولة خاطفة فى بعض معالم دلهى الجديدة

ولقد وصلنا قبل الموعد بدقائق معدودات ، ولابد ان نحظى بالمثول فى حضرة الزعيم القديس فى موعدنا ، لا نتقدم دقيقة ولا نتأخر . ان مواعيد مقابلاته تحدد تحديدا دقيقا قبل حلولها بأيام .. لا تكبرا ولا تمنعا ، ولكن تنظيما للسيل الدافق من طلبات الاجتماع بالزعيم ، وهى طلبات تتلقاها سكرتيرته من زعماء المؤتمر وكبار الاعيان ، وكبار الوافدين من الخارج ، والصحفيين الاجانب والهنود وصغار المواطنين الذين يقطعون الوقت الاميال املا

فى الحظوة بكلمة ، او نصيحه او ابتسامه ، او لمحة من غاندى يستمدون منها البركه والسعادة مدى الحياة

هذا الى جانب واجباته اليومية من اداء الصلاة ، والقاء الدروس الدينيه . ومطالعة الرسائل . وكتابه المقالات لجريدته التى كان يسميها (الهند الفتاة) ثم جعل اسمها (هاريجن) اى ابناء الله. وهو الاسم الذى اطلقه على المنبوذين . وهناك مشاوراته الدائمة مع قادة الحزب ، ومشروعاته الاجتماعية التى لا تنتهى ، لا تقف عند حد ، لتعليم الشعب وازالة الفوارق بين طبقاته ، ونشر الصناعات الضرورية كالغزل والنسيج ، لسد حاجاته الاوليه ، ورفع مستوى معيشته ، وتمكينه من الاستغناء عن واردات انجلترا وغيرها من البلاد الاجنبية

هذه بعض اعباء الزعيم السياسى ، والروحى ، والاجتماعى الذى كان يجتاز يومئذ عامه السبعين .. والذى استقبل بعثتنا المصرية يوم وصولها ببرقية الى وزير داخلية بومباى ، ينيبه عنه فى الترحيب بنا ، ويعرب عن امله الوطيد فى ان تكون زيارتنا فاتحة خير لتوثيق عرى الروابط التى لا تنفصم

بين مصر والهند

هانحن أولاء ندعى الى التشرف بلقاء الزعيم .. لقد هممنا ان نجتاز اعتاب قصر بيرلا الذى لابد ان تكون افخم قاعاته قد خصصت للمقابلات .. ولكنهم يتقدموننا الى طريق الحديقة ، فلا نكاد نمضى خطوات حتى نجد الزعيم الشيخ واقفا يتلقانا بابتسامة نحس انها كافيه وحدها للتعبير عن اكرم معانى الترحيب والغبطة والشوق الى رؤيتنا ..

ونظرت من حولى فلم اجد سوى سرير بسيط من (الجريد) وعدد محدود جدا من المقاعد الخشبية البسيطة دعينا الى الجلوس على بعضها ، واضطجع غاندى على سريره ، مشيرا الى رئيس البعثة محمود بسيونى بك - رحمة الله عليه - ان يجلس معه على جانب من السرير ... بينما جلس الباقون على الارض

يحيطون بالسرير فى بساطة لاعهد للقادة والزعماء بهـا فى القرن العشرين !

وبادر نهرو الى اخراج عدسته المصورة التى يحملها فى عنقه دائما كلما خـرج الى رحـلة او زيارة ، فما كاد يبدأ فى التقاط صورنا فى حضرة الزعيـم او « الاب » كما يسمونه ، حتى ضحك غاندى ملء شدقيه وقال بالانجليزيه مداعبا فى حنان ظاهر : لقد عاودته نوبـة التصوير من جديد !

وجلسنا اليه فبادرنا قائلا :

« اكرر لكم ماسبق ارسـاله اليكم ببرقيتى ، وهو انى آمل ان يكون تبادل الزيارات فيما بيننا سببا فى توثيق عرى الاتحاد التى لاتفصم بين مصر والهند ، واقول هذا لا كمجرد رغبة يقصد منها المجاملة ، ولكنها رغبة حقيقيـة صادرة عن شعور خالص . انكم تمثلون أمة اسلامية ونحن لدينا عشرات الملايين من المسـلمين ، وكثـيرون منهم يمثـلون أعـلى درجات الثقافة ، فالاتصال بيننا سيساعدنا على حل مشاكلنا . وليس هذا لان البلدين شرقيان فحسب ، بل لأنهمـا أيضـا فى حاجة حقيقيـة الى التعاون ، وهذا الاتصال المباشر أساسى الى أقصى حد »

واستطرد غاندى فتحدث الينا حديثا ملؤه الاعجـاب بمصر وحركتها الوطنيـة التى قال انه يتابعها باهتمام شديد من عهـد المغفور له سعد زغلول باشا . . . وقد سألنا عن رفعـة النحـاس باشا ، مبديا أسفه لعدم تمكنه من حضور دورة المؤتمر بنفسه . ثم قال :

ــ كم عمر النحاس باشا الآن ؟

فقلت : ثمانية وخمسون عاما . .

فأجاب : انه مازال شابا ! .

وفى ختام الحديث توجه الينا بنصيحة شدد فيها كثيرا ، وهى أن نزور حيدر اباد ، اكبر ولاية فى الهند على رأسها حاكم مسلم .

وخرجنا كالمأخوذين بسـحر هذا الزعيم ، النحيل ، الضئيل



فوق ـ اعضاء بعثة الوفد فى حضرة غاندى
تحت ـ البعثة الصحفية على قبر غاندى

الذى استطاع بضعفه وزهده ، واستهانته بالسجن ، والاعتداء ، والتعذيب ، وايمانه الهائل بقوة الحق التى لا تقهر ، أن يحطم كبرياء الاستعمار البريطانى الجبــار ويقوض أركانه من الاساس !

* * *

وقد لقى غاندى مصرعه برصاص هندوكى متعصب ينتمى الى حزب « هندوماهاسابها » . . فما هو هذا الحزب ؟ لقد كان البانديت نهرو يشرح لى ذات يوم مبادىء المؤتمر الوطنى فكان مما قاله : ان حزب المؤتمر لا يعترف بالنزعات الطائفية فى جهاده ، ولهذا يقضى نظامه بألا يقبل فى عضويته احدا من المنتمين الى اية جمعية طائفية اسلامية كانت او هندوكيــة . ولهذا ايضا نرفض ان نقبل فى صفوفنا اعضاء الحزب الهندوكى الذى يسمى (بالهندوماهاسابها) لا لانهم خــونة للوطن ، وأعــداء لاستقلال الهند ، بل لانهم انشأوا حزبهم على اساس طائفى محض باعتبارهم هندوكيين ، أما المؤتمر فهو هندى ينشد الحرية لجميع الهنود ، وقد كان طبيعيا أن يثور المتعصبــون فى الهنــد ، ازاء موقف غانــدى الاخــير وتهديده بالصيام حتى الموت اذا لم يوضــع حد للصراع الدموى ضد المسلمين . . . فشاء القدر الا أن يدفع غاندى حياته ثمنا لرسالة التسامح التى بشر بهــا ، وقف حياته عليها !

أليس هو القائل عن دينه :

« ان دينى يزودنى بكل ما احتاج اليــه لنضوجى الداخلى ، لانه يعلمنى الصلاة . ولــكنى أرجو أيضــا أن يستكمل كل انســان غيرى نضــوج نفسه من طريق ديانتــــه ـ فيزداد المسيحى مسيحيــــة ، ويزداد المســلم اسلاما . اننى مقتنع بأن الله يوما من الايام سيسألنا عن قيمتنا ، وعما نفعل ، لا عن الاسم الذى نطلقه على وجودنا أو فعالنا » !

بل أليس هو القائل يوم أحاط به نفر من الهنود المتهوسين عقب ميثاقه مع اللورد ايروين ، وهموا بالاعتداء عليه لاتهــامه « بخيانة وطنه ! » اذ قبل ذلك الميثاق :« انــكم تقــولون اننى خنت

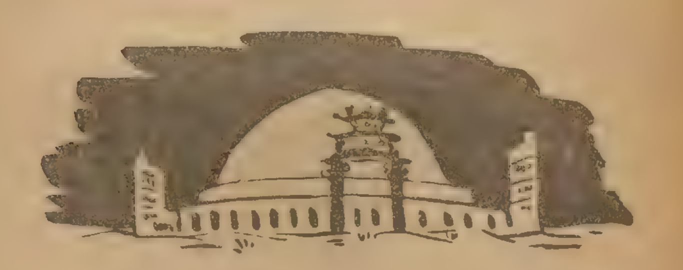
الهنـــد . وأنا لن أشـكو اذا ضربتمـــونى . وليس لى من حرس ؛ فالله وحده يرعانى . واذا كان بعض النـــاس يعتقد أننى أحمق أو مجنون لاننى احب اعدائى ؛ فليعلموا ان هـذا هو اساس عملى كله وعقيدتى طول حيـــاتى ... وهأنذا لا املك سلاحا ازاءكم سوى الحب » !

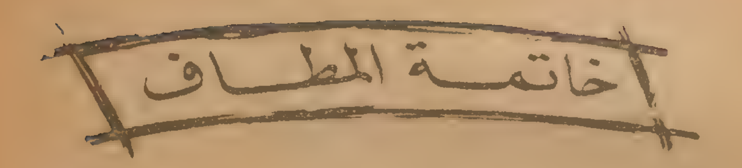
ومع ذلك ؛ فان غانـــدى لم يكن جبانا فى يوم من أيام حياته ، بل انه قال فى ابان دعوته لعدم العنف : « حينما يتعين الاختيار بين الجبن والعنف ، فانني أنصح بالعنف .. وخير لى ألف مرة أن اخاطر باتخاذ خطة العنف من ان اخاطـر بروح الرجـولة فى الشعب ؛ وخير لى ان ادعو الهند الى حمـل الســلاح دفاعا عن شرفهـا ، من ان اراها تصبح عن جبن ومذلة ، فريسة عاجزة لعارها وضياع شرفها

« ولـكنى أعتقد أن عدم العنف يفـوق وسـيلة العنف تفوقا ليس له نهاية » !

* * *

هذه لمحات وامضة عن الرجل الذى فقدته الهند ، والشرق ، والعالم اجمع . ففقدت الانسانية فيـــه مثـــلا أعلى فى الزعامة والقداسة ، والتسامح ، والزهد ، والتضحية حتى بالروح !





خاتمة المطاف

وكانت خاتمه المطاف بعد زياره دلهى رحلتنا الى لاهور ، عاصمة البنجاب ، حيث قضينا يوما حافلا بالزيارات والمآدب ، واضطررنا الى الاعتذار من عدم استطاعتنا قبول عدة دعوات واستأنفنا السفر بعد العشاء بالقطار الى بشاور عاصمة اقليم الولايات الشمالية الغربية تلبية لدعوة الزعيم المجاهد الكبير خان عبد الغفار خان، الملقب بغاندى الحدود (وهو الان مع الاسف يقضى فترة من السجن على يد حكومة الباكستان ، بعد محاكمة من اعجب المحاكمات السياسيه :

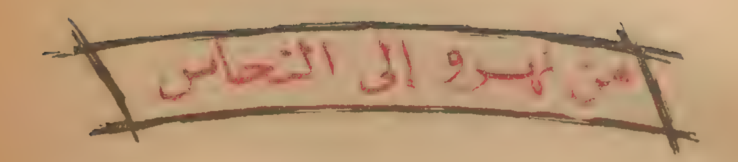
ولم أشهد ، ولا أظنني سأشهد في حياتي ، موكبا وطنيا حاشدا كموكب البعثة المصرية من محطة بشاور الى دار رئيس الوزراء الدكتور خان صاحب شقيق عبد الغفار خان (وهو ايضا من المسجونين السياسيين الان !)

ويكفى ان اقول ان البعثة طافت بعد الغداء ارجاء المدينة في موكب من السيارات . فكان يحافظ على النظام اكثر من مائة الف متطوع من الذين يسمون (خدام الله) بملابسهم الحمراء ، فضلا عن عشرات الالوف من الاهلين الذين اكتظت بهم الشوارع حتى اضطرت السيارات للتوقف عن المسير غير مرة ، ووصل الموكب بعد نحو ساعتين الى حديقة واسعة احتشد فيها نحو ثمانين الفا ، جلسوا الى الارض ، وخطب فيهم خان عبد الغفار خان باللغة الافغانية ثم ترجمت خطبته الى العربية ، والقى بعدها عدد من الخطب والقصائد ، رد عليها

المرحوم الاستاذ بسيونى بك - باللغة العربية - شاكرا للحاضرين حفاوتهم ، منوها بفضل السيد جمال الدين الافغانى الذى تخرج على يديه الشيخ محمد عبده وسعد زغلول مؤسس الوفد الذى خلفه مصطفى النحاس فكانت هذه الاسماء وحدها كافية لاطلاق عواصف داوية من التصفيق والهتاف ، ولا سيما بعد ترجمة « الخطبة الى اللغة الافغانية »

وتناولنا طعام العشاء على **مائدة رئيس الوزراء** ، **وقضينا** الليله فى ضيافته ثم زرنا الجمعية التشريعية فى اليوم التالى ، وتناولنا الشاى فى مضيق خيبر على حدود الافغان ، ثم غادرنا بشاور فى المساء عائدين الى دلهى ومنها الى بمباى ، حيث ركبنا الباخرة الى مصر ، فكان وداعنا هناك واستقبالنا هنا من **اصدق الشواهد على مدى نجاح البعثة فى مهمتها**





وقد سلمت البعثة الى رفعةالنحاس باشا رسالة خاصة من البانديت جواهر لال نهرو هذهترجمتها :

لقد كان لنا عظيم الفخر بان نرحب فى الهند بكبار اعضاء الهيئة الوفدية الذين قدموا الى هنا ليمثلوا هيئتهم الوطنية العظيمة ويمثلوا الشعب المصرى فى الوقت ذاته وقد رحبنا بهم بصفتهم ضيوفنا الكرام ولكن ترحيبنا كان ينطوى على معنى اكبر من هذا هو انهم جاءوا الينا رموزا لروح الوطنية والحرية من مصر . وقد وجدنا نحن الذين فى الهند والذين تشبعنا بهذه الروح وأوجدنا جهادنا ضد روح الاستعمار والسيطرة للوصول الى حرية شعبنا ـ اننا متناسقون اتم تناسق مع روح كهذه موجودة فى مصر ، فهناك امور كثيرة مشتركة بين شعبينا ، اذ كانت انصلات بينهما وثيقة منذ فجر التاريخ وكان بينهما ـ حتى فى العصور القديمه ـ الماضية ـ تبادل فى الآراء والثقافة والتجارة ، كما كانت بينهما فى العصور الحديثة من التاريخ صلات الجهاد المشترك فى سبيل الحرية ومقاومة الاستعمار فى كلا البلدين ، ثم ضعفت الروابط التى كانت تربط بين شعبينا فى الماضى زمنا طويلا . ولكن المصلحة والغرض المشتركين هما اللذان جمعا بيننا من جديد . وانى لصادق الامل فى ان تؤدى هذه الزياره الى توثيق هذه الروابط وتنشىء حلقه اتصال لا تنفصم بين الشعبين المصرى والهندى ان الحرية تسحق اليوم فى العالم .

وقد اخذت انوارها تخبو في اماكن كثيرة فتحل محلها الظلمات والمفاسد ولذلك اصبح من الضروري للذين يتمسكون بالمثل العليا للحرية والديموقراطية ان يتضامنوا ويجمعوا صفوفهم لصد الخطر المشترك الذي يتهددهم .

وانه لتجري في العالم الآن تغييرات ثورية عظيمة ومما لا شك فيه ان الهند ستحقق استقلالها ، وانها ستقوم بفضل ما لديها من موارد واسعة وايد عاملة موفورة بدور هام في شئون العالم ، فنحن مع ايماننا باستقلالنا الوطني نؤمن كذلك بالتعاون العالمي بين الامم ضمانا للسلم والحرية والنظام في العالم .

ان لكل من مصر والهند مشاكلها الخاصة ، واذا كان كلاهما يستطيع ان يتعلم من الآخر فمن الواجب ان ننهض كل بمشاكله على انفراد . فليس لاحدنا ان يتدخل في شئون الاخر الداخلية ، ولكننا نستطيع في المهام الكثيرة الكبيرة المشتركة بيننا ان نتعاون في سبيل مصلحة كل منا . وان نعمل لما فيه الصالح الدولي الاكبر .

واولى الخطوات في هذا الطريق هي ان يعرف كل منا الاخر . وان يقف كل منا على حركات الاخر الوطنية . وارجو ان تكون نتيجة زيارة هذه البعثة المصرية وضع الاسس لهذه المعرفة المتبادلة ، ولتبادل المعلومات فيما بين البلدين .

لقد لبثت بعثة الوفد بيننا فترة قصيرة كانت شاقة مضنية فالهند بلاد واسعة الارجاء . وقد سافر اعضاء البعثة فيها مسافات شاسعة ولم يتمتعوا الا بالقليل من الراحة ، ومع هذا فانهم لم يروا الا جزءا يسيرا من هذه البلاد . واني آسف لانهم لم يتمكنوا من زيارة جامعات عليكره والله اباد وبنارس ، ومدينة كلكتا العظيمة ، وكذلك جميع انحاء جنوب الهند وشرقها .

ولقد كان مواطنونا في اشد اللهفة الى الترحيب بهم في

جميع هذه الانحاء . ولكنهم اسفوا وخاب رجاؤهم لان ضيق الوقت قد حال دون هذه الامنية ؛ ومع قصر المدة التى قضاها أعضاء البعثة الوفدية فى الهند فانى لارجو ان يحملوا معهم عند عودتهم صورة - ولو غير كاملة - عن الهند اليوم وما فيها من حيوية ودوافع جديدة تحفزها الى الامام من كل ناحية ستكون لديهم فكرة عن حركتنا وكيف تقوم على جماهير الشعب، وكيف انها كحركة حية تعكس كالمرآة وجوه الصراع على المبادىء والمثل العليا وغيرها مما شغل عقل الهند ؛ فبعد فترة طويلة من الحياة الكامنة الراكدة أومأت تلك القوى التاريخية المحركة الى شعبنا فأخذ يسير معها خطوة فأخرى املا فى تحقيق الدور الذى قدره له التاريخ . وهو التعاون الى اقصى الحدود مع جميع الشعوب التى تتعشق الحرية . ولا سيما شعوب الشرق

انني أرجو ان يحمل أعضاء البعثة الى بلادهم أجمل الذكريات وأبقاها عن زيارتهم للهند . اما هم فانهم يتركون هنا أينما حلوا آيات خالدة للصداقة والتآخى بين الشعبين . وسنعتز طويلا بهذه الذكريات والايات . كذلك أرجو ان يكون فى استطاعتنا تبادل الزيارات فى أغلب الاحيان لكى تبقى الصلة متجددة على الدوام . وآمل بصفة خاصة ان يتمكن صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد المصرى من زيارتنا فى مستقبل الايام

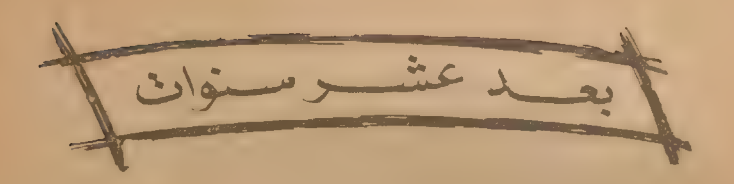
وانى لاشعر برغبة قوية فى ان يوفد المؤتمر الوطنى مندوبين عنه لحضور مؤتمر الوفد الذى سيجتمع فى ابريل ، فاذا تيسر ذلك بحال من الاحوال فلا بد ان يوفد المندوبون ؛ ولكن من العسير ان نجزم بذلك نظراً للمشاكل الدولية والوطنيه الخطيرة التى تواجهنا الان .

وارجو من أعضاء البعثة ان يحملوا الى صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا وهيئة الوفد والشعب المصرى ثقتنا التامة وايماننا بالاخاء والتضامن بين الشعبين لتحقيق المثل العليا التى جعلناها جميعا نصب اعيننا

الله أباد فى ٢٧ مارس سنة ١٩٣٩ — جواهر لال نهرو

الهند مرة أخرى

بعد الاستقلال



وتقدرون فتضحك الاقدار..

لقد ضحكت مع الاقدار حين وجدت نفسي فى اواخر فبراير من العام الماضى ١٩٤٩ – أتهيأ لرحلة اخرى الى الهند .. وفى شهر مارس نفسه ... أى بعد عشر سنوات كاملة من رحلتى الاولى اليها فى شهر مارس سنة ١٩٣٩

لقد كنت قبل بضعة اسابيع أتهبأ لرحلة قصيرة الى ايطاليا ، فاضطررت حينذاك الى تجديد جواز السفر ، ولما طلب الى ان أسجل اسماء البلاد التى قد أزورها بمقتضى هذا الجواز احصيت نحو عشرة بلاد على سبيل الاحتياط .. ولكن بلدا واحدا كان يتردد على خاطرى فاستبعده على الفور من الاحصاء المطلوب لاننى لم أكن أتصور ان أعود اليه بعد ان زرته مرة وحسبت اننى بلغت من دراسة أحواله ومشاهدة اطرافه حدا يصرفنى عن زيارته مرة اخرى ، وقضاء فترة من الوقت فيه أنا أحوج الى قضائها فى دراسة أحوال بلد سواه ...

وهكذا اغفلت الهند من قائمة البلاد التى سجلتها فى جواز سفرى المجدد ... فلم تنقض اسابيع معدودة على تجديده حتى وجدتنى مدعوا مرة اخرى لزيارة الهند فى رحلة صحفية دعت اليها حكومة الهند المستقلة ستة من الصحفيين المصريين . فاضطررت الى اجراءات جديدة استكمل بها ما تعمدت حذفه لاننى قدرت ... وشاءت الاقدار غير ما قدرت .

كانت رحلتى الاولى كمــــا أسلفت رحلة سياسية . وكانت الثانية رحلة صحفية .

كانت الاولى بدعوة من حزب المؤتمر الوطنى الهندى الذى كان يخوض معركة الاستقلال والحرية ضد الاستعمار البريطانى . أما الثانية فكانت بدعوة من المؤتمر ايضا ... ولكن بعد ان كسب معركة الحرية والاستقلال وتولى رجاله منصب الحـكم وحملوا امانته ومضوا من فورهم قدما يخوضون معركة الشق والنسنى هى معركة البناء لصالح الملايين لا لمصلحة فرد واحد أو بضعة افراد ..

وكانت رحلتنا الاولى من طريق البحر عــلى باخـرة انجليزية ، غاصت بنــــا المسافة فى تسعة ايام .. بينما اتخــــذنا الجــو سبيلنا فى الرحلة الثانيـــــه على طائرة ضخمة هندية ، قطعت بنا المسافة بين القاهرة الى بمباى رأسا واحـــدة فى تسع ساعات ونصف ساعة .

واذا كان السفر بالباخرة يبيح للمسافر متعة البحر الهادئة .. فان السفر بالطائرة يبيح للمرء ان يدرك المعجزة الهـائلة التى حققها الطيران فى العصر الحديث .. وهى معجزة سخرت بالمسافات ، وبالزمن وكادت تجعــل بساط سليمان حقيقة علمية واقعة ، لا تشبيهــــا مجازيا تجرى به الاقــلام ، وتحار فى تصــوره الافهام !..



الهند الجديدة

قال لى صديقى القديم ديجرلال ديساى وزير الهند فى سويسرا الذى شاءت المصادفة السعيدة أن ألقاه فى مطار فاروق ، وأفضى معه الرحلة الاخيرة فى الذهاب والعودة . . . قال لى وهو يذكرنى بزيارتى السابقة التى نزلت فيها ضيفا عليه وعلى والده فى بمباى :

ـ سيتاح لك هذه المرة أن تقارن وأن تلمس ماطرأ على بلادنا من تطورات بعد عشر سنوات . قلت :

ـ هذا حق . ولا شك أن التغيير سيكون ظاهرا وملموسا .

فقال ـ وانك لتلمسه بالفعل الان، اذ تسافر على ظهر طائرة هندية ، يملكها هندى كبير ، هو المليونير المشهور تاتا ، ويقودها طيارون من الهنود ويشرف على راحة ركابها مضيفات هنديات ولم يكن لهذا كله أثر عندماذهبت الى الهند فى رحلتك الاولى ـ أى منذ عشر سنوات !

وهذا حق . . فما أبعد الفرق بين الهند التى رأيتها اذ ذاك وبين الهند التى رأيتها فى المرة الاخيرة بعد عشر سنوات . .

لقد كان يخيل الى أننى أزور هذه البلاد للمرة الاولى . . . حتى المكان الذى نزلنا فيه أخيرا بنيودلهى ،ويسمونه دار الدستور لم يكن له وجود فى مارس سنة ١٩٣٩

انه الآن دار الضيافة التى ينزل فيها أعضاء الجمعية التشريعية المركزية الذين يمثلون مختلف الولايات الهندية . فترى أعضاء البرلمان الهندى رجالا ونساء مع زوجاتهم أو أزواجهن احيانا

ينزلون فى هذه الدار ويتناولون الطعام فى قاعتها الفسيحة حتى اذا انتهت أعمالهم البرلمانية عادوا الى ولاياتهم حتى تدعوهم واجباتهم مرة أخرى للعودة الى هذه الثكنات . . . التى كانت تسكنها القوات الامريكية أثناء الحرب !

وقد اختفت من الهند فى العامين الماضيين وصمتان لاشك أن الفضل الاول فى اختفائهما يرجع الى غاندى الذى وقف ماله وجهاده على محاربتهما بوسائله السلمية التى زلزلت الجبال .

الوصمة الاولى هى الاحتلال البريطانى ... والثانية هى وصمة المنبوذين !

اما الانجليز فقد اختفوا تماما من أعمال الادارة . فأصبح الوزراء جميعا من الهنود ، والوظائف الكبرى كلها بأيدى الهنود . ولم يبق فى الهند المتحدة — عدا الباكستان — سوى مائتى موظف بريطانى لا حول لهم ولا طول . ينتظرون التصفية الحاسمة بعد فترة وجيزة ...

حتى العلاقة الواهية أو الشكلية التى تربط الهنود بالانجليز الان . باعتبارهم أعضاء فى (الكومنولث) أو مجموعة الشعوب البريطانية ، أعلن البانديت نهرو انها ستنفصم بعد بضعة أشهر . وان الهند ستصبح جمهورية مستقلة لا صلة لها بانجلترا سوى الصلة العادية التى تربط بين الهند وسائر بلدان العالم وقد حضرت الليدى مونتباتن وكريمتها جلسة المجلس التشريعى التى أدلى فيها نهرو بهذا التصريح وهى قرينة اللورد مونتباتن ، ابن عم ملك الانجليز ، الذى تمت على يديه تصفية الامبراطورية ، تفاديا لكارثة اعظم كانت تهدد قوات الاحتلال فى الهند لو لم تبادر بريطانيا بنقل السلطة الى الهنود فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٧

وقد قابلنا الليدى مونتباتن فى الهند وهى محبوبة جدا لدى الزعماء ولدى الشعب على السواء ولا تكاد تنزل فى نيودلهى الا فى ضيافة البانديت نهرو رئيس الوزراء . ومع ذلك فانه لم يجد بأسا من القاء تصريحه الخطير عن قطع علاقة الهند ببريطانيا

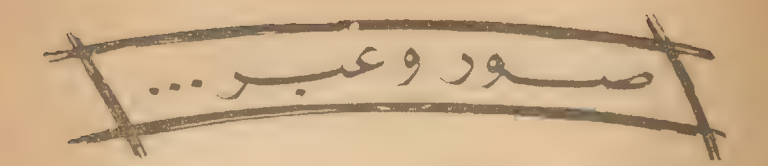
على مسمع منها : بل انه اضاف الى ذلك ان الهند **ترفض في الوقت** نفسه ان تربطها بأية دولة من الدول - بما **فيها بريطانيا - أية** محالفة من أى نوع كانت . لان هذه المحالفات تحمل في طياتها التزامات حربية وغير حربية ليس من مصلحة الهند ان تتقيد بها ! .

ولم يكد حزب المؤتمر يتولى مقاليد السلطة في انحاء الهند منذ عام ونصف عام حتى استطاع الحكم الوطنى بالغاء وصمة المنبوذين التى ظلت لقرون عارا وسبة فى جبين الهند عن وصمة الاحتلال . بل هى [illegible] لاستقلال من عمل الاجنبى الغاصب . بل هى العيب يستدعيه من الامة كالهند تعد بملايين عدد خمس سكانها كلهم من البلاد . وقد تحرر المنبوذون الان تحررا تاما من القيود والرهبة التى ظلوا يرسفون فيها قرونا طويلة تحت نير التقاليد الهندوكية الدينية . ولم يعد محرما عليهم ان يزاولوا عملا دون الكنس ونقل القمامة ودفن الموتى ... ولم يعد محرما عليهم ان يأكلوا او يشربوا مع غيرهم من طعام او اناء واحد ... ولم يعد [illegible] اذا ارادوا ان يطلبوا الماء من احدى الابار ان ينتظروا حتى يأتى احد الهندوكيين غير المنبوذين فيملأ لهم الوعاء خوفا من ان يدنسوا الابار او [illegible] ملأوا هم منها !!

لقد زال هذا كله الان . وأصبح للمنبوذين من الحقوق وعليهم من الواجبات ما للجميع وعليهم . وقد تناولنا العشاء مع وزيرة الصحة فى دلهى وهى السيدة المثقفة راجكوماري (اى الاميرة) امريت كور - وهى مسيحية قاربت الستين من عمرها - وكان بين الحاضرين عدد من كبار الهندوكيين وسيدة من طبقة المنبوذين جلسوا جميعا على مائدة واحدة بلا تمييز ولا ادنى تفريق

* * *

وهكذا فقدت الهند غاندى . . وتخلصت من الانجليز والمنبوذين . . . **أو بعبارة اخرى خسرت القائد وكسبت المعركة**



كان أمتع جزء فى برنامج رحلتنا للهند زياره كشمير التى لا نكاد نعرف عنها فى مصر الا انهابلد (الشال) الكشميرى الفاخر .. وهى اليوم مدار نزاع محتدم حول مصيرها الاخير هل تنضم الى الباكستان – واغلبيه سكانهامن المسلمين – او تؤثر الانضمام الى الهند ، تمشيا مع التيار الوطنى الذى خاض غماره المسلمون منذ سنين تحت لواء حزب المؤتمر الهندى ، وعلى راس اولئك المسلمين الشيخ عبدالله رئيس وزراء كشمير الان ؟

لندع حديث السياسة مؤقتاوسنعود اليه فى مجال المقرنة بين مشكلتى حيدر اباد ذات الاغلبيةالهندوكية والحاكم المسلم وكشمير ذات الاغلبيه المسلمةوالحاكم الهندوكى .. وكم للاستعمار البريطانى فى الهند من فنون وشئون

كان الجليد يكسو ربى الجبال فى كشمير ويغرى بالنشاط والاقبال على مزاولة رياضةالشتاءالمحبوبة – رياضه الانزلاق التى قضينا فيها يوما من اجمل الايام . ومع ذلك فقد كنا قبل ايام معدودة نعانى ويلات الحر اللافح فى كلكتا ونمسح العرق اللزج المتصبب من جباهناوايدينا فى مدراس ، ونهرب من الغرف المخصصة لنومنا فى (وردة) – معقل الحركة الوطنية وموطنها الاصيل – ونستلقى على الاسرة فى فضاء مكشوف ، بين الغرف طول الليل ... وهكذا يجمع جو الهند بين الحر القائظ ، والبرد القارس ، لتقلبه وسرعة انتقاله من حال الى حال ، بل لاتساع رقعة هذه البلاد التى تكاد مساحتها تعادل مساحة

اوربا كلها ، مع استثناء روسيا وحدها .

وكما يتفاوت جو الهند هذا التفاوت الواضح ، تتفاوت بين اهلها انواع الاديان واللغات والعادات تفاوتا لا مثيل له فى اى بلد اخر من بلاد العالم اجمع . ويدل الاحصاء الرسمى الذى اجرى سنة ١٩٤١ ، على ان تعدادها طبقا لاختلاف اديانها هو :

٢٣٩٫٤٢٤٫٤٠٠ هندوكى و٧٤١ ر ٧٣١ ر ٤٢ مسلما و ٤١٩ ر ٥٩٢ ر ٥ مسيحيا و ٧٤١ ر ١١٤ ر ٤ من السيخ و ٣٢٥ ر ١١٠ بارسيا ، من عبدة النار .

وقد زاد عدد المسلمين وغيرهم بعد ذلك التعداد زيادة كبيرة ، حتى اصبح عدد المسلمين فى الهند وحدها ، اى بدون الباكستان يقدر بنحو ٤٢ مليونا يواجهون الان مأزقا لامخرج لهم منه الا بالصبر والحكمة واستعادة الثقة التى زعزعتها حوادث التقسيم الفاجعة ومآسيه التى تعيد فى الاذهان اشنع الاهوال التى رواها التاريخ عن فاجعة الاندلس

وقد يكون مما يبعث بصيصا من الامل فى نجاة اولئك المسلمين من محنتهم ان عددا غير قليل من كبراء المسلمين يشغلون فى الهند اليوم عددا من ارفع مناصب الدولة . فهناك من الوزراء فى الحكومة المركزية بدلهى وزيران هما مولانا ابو الكلام آزاد وزير المعارف والسيد رفيع احمد قدواى وزير المواصلات ، وهناك اثنان اخران يتوليان منصب الحاكم العام فى ولايتين هنديتين وهما : السير اكبر حيدرى حاكم اسام والسيد عساف على أول سفير للهند فى أمريكا وشقيق السيد أصغر فيظى سفير الهند فى مصر الآن وهو الآن حاكم اوريسا ، ومن الوزراء المسلمين فى الولايات الهندية الآن مولانا عبد المطلب مازومدار ومولانا محمد طياب الله فى أسام ، والدكتور سيد محمود والسيد عبد القيوم انصارى فى بيهار ، ومن السفراء المسلمين للهند السيد أصغر فيظى فى مصر ، والسيد على

زهير في ايران . والسيد ضيابجي في بلجيكا . والدكتور رؤوف في بورما ومير رشيد على [illegible] الفرنسية . والسيد عبد المجيد خان جدة والسيد [illegible] . [illegible] العين في بمبي حسن [illegible] وهو السيد [illegible]

وعلى عاتق هؤلاء المسلمين [illegible] الآن [illegible] في المسئولية عن [illegible] مواطنيهم [illegible] نبينوا ان دولة الباكستان لا تستطيع ان [illegible] . وقد كانت نصيف بنيف وخمسين مليون من المسلمين .

واذا كان المسلمون في الهند متحدين في الدين و [illegible] في المذهب بين الشيعية والسنية . فان الخلاف بين طبقات الهندوكيين اكبر واضخم . وقد شرح لي احدهم طبيعة الخلاف بين الهنود فقال انهم في الحقيقة موحدون . وانهم لا يشركون بالله احدا ... ولكنهم يعبدون الله في صور متعددة ! فهناك طائفة تسميه (براهما) اي الخالق . وهناك طائفة تسميه (فشنو) اي الحافظ وهناك طائفة تسميه (شيفا) اي المهلك المدمر . وهم في تفسير هذا كله مذاهب متعددة ومعقدة .

وهناك بعد هذه الطبقات طبقة المنبوذين او الانجاس الذين وقف غاندي اعظم جانب من جهده وسعيه على انتشالهم من وهدة الاحتقار والمهانة ، فأمر بان تفتح لهم معابد الهندوكيين . وان يباح لهم مزاولة اي عمل يتساوون جنبا الى جنب مع الهندوكيين والمسلمين والمسيحيين . وقد تم النصر لغاندي في هذا السبيل ، واصبح كثيرون من طبقة المنبوذين المنفاة يشغلون مناصب الوزارة وغيرها من مناصب الدولة كبيرها وصغيرها وفي مقدمتهم الدكتور امبيدكار وزير العدل في الوزارة المركزية الان ..

وقد اتيح لنا اثناء تجولنا في الهند من دلهي الى كلكتا الى مدراس الى حيدراباد الى كشمير أن نتحدث أحاديث صريحة الى اخواننا المسلمين . فلاحظنا عليهم حالة من القلق والتخوف لا شك فيها . ولكنا وجدنا بينهم في الوقت نفسه اجماعا على أن من حسن

حظ المسلمين والهنود جميعا ان على رأس الدولة رجلين عرف كلاهما بالجهاد السافر الصريح فى سبيل القضاء على الطائفية وهما راجا جوبالاتشارى حاكم الهند العام والبنديت جواهر لال نهرو رئيس الوزارة المركزية وخليفة غاندى فى زعامة الهند غير منازع . لاسيما بعد ان خلا امامه جو المنافسة على الزعامة بمصرع الزعيم الثائر شوباس تشاندرا بوز الذى الف جيشا هنديا وطنيا حارب به الانجليز مستعينا باليابانيين ، وتوغل اكثر من مائة ميل داخل الهند ، فلما وضعت الحرب أوزارها أراد الانجليز أن يلطخوا سمعة الرجل حتى بعد مماته فقبضوا على عدد من قواده ، وقدموهم للمحاكمة العسكرية بتهمة الخيانة الوطنية فى سنة ١٩٤٦ ، وشاء حسن الطالع ان يكون أول فوج قدم للمحاكمة مؤلفا من ثلاثة من قواد الجيش الوطنى أحدهم مسلم — وقد قابلته فى دلهى وتحدثت اليه حديثا كشف فيه عن كثير من الاسرار — والاخر هندوكى ، والثالث من السيخ ، وهنا برزت عظمة زعماء الهند ورجولتهم على أتمها حين الفوا هيئة للدفاع على راسها المحامى الاشهر والسياسى الفحل بولاباى ديساى — وقد توفى منذ عام — وكان من أعضائها البانديت نهرو الذى نسى خصومته السياسية لشوباس بوز واسرع الى رداء المحاماة ينفض عنه غبار ثلاثين سنة ، ولم يكتف بذلك : بل راح يطوف انحاء الهند ويخطب فى الجماهير الحاشدة اينما ذهب منوها بوطنية بوز ، مشيدا بجهاده الدائم فى سبيل تحرير الهند ، مؤكدا انه لم يكن هو ولا قواده خونة او خارجين على الوطن ، بل كانوا يكافحون للوطن بكل سلاح يجدونه ، ولهذا حاربوا فى صفوف اليابانيين لاحبا فيهم . ولكن أملا فى الخلاص من شر الاستعمار البريطانى !

لقد بذل الانجليز كل ما أوتوا من مكر ودهاء حتى أثاروا بين الهندوكيين والمسلمين شعور العداء والكراهية ، برغم صلات الالفة والاحترام والتعاطف التى طالما جمعت بينهم ، وهى صلات لا أستطيع أن أذكر رمزا لها أنبل من ذلك المعبد الهندوكى الذى يلتصق جداره بجدار مسجد ومقام يتبرك به المسلمون



الراقص الهندى المشهور « رام جوبال » الذى طاف انحاء العالم ونال نجاحا باهرا فى عرض رقصاته ، ويرى هنا مع الراقصة المشهورة « شيفانتى » فى رقصة شعبية

والهندوكيون جميعا ولبثمعزونفى بلدة تبعد نحو مائتى ميل جنوبى مدينة مدراس ، وقد جرى الهندوكيون فى ذلك المعبد على تفادى عزف الموسيقى خلال وقت الصلاة عند اخوانهم المسلمين !

وقد عمدت [illegible] السياسة الاستعمارية فى حربها ضد وحدة الهند ، فكان حرصنا على توكيدمعنى التسامح الدينى فى كل [illegible]

[illegible]

تلك [illegible] على تصفيق الأكف ويردد الحاضرون [illegible] « رام ، رام ، رام رام »

وبعد انتهاء الصلاة [illegible] الذين حضروا الصلاة قصة

الطبلة والنشيد الذى افتتحت به الصلاة ، فقال ان راهبا يابانيا كان قد انضم الى صومعة غاندى قبل الحرب ؛ وظل يواظب على الصلاة ويشترك فيها بالطبلة والنشيد الدينى الذى سمعناه ، فلما نشبت الحرب اعتقل الانجليز الراهب اليابانى العجوز أسوة بجميع اليابانيين الذين كانوا يقيمون فى الهند اذ ذاك . فأمر غاندى بأن تعتبر صلاة الراهب اليابانى جزءا من صلاة مريديه كل يوم كما لو كان صاحبها موجودا ، وكما كان يؤديها بنفسه .. ومازال طبل الراهب ونشيده من ذلك اليوم جزءا لا يتجزأ من الصلاة أمام صومعة غاندى تنفيذا لامره وتمشيا مع حرصه على احترام جميع الاديان . وقد دخلت الصومعة فى النهار فوجدت على الحائط سورة الفاتحة مكتوبة باللغة العربية ومعلقة فى أبرز مكان .

أما كفاح غاندى – أو بعبارة اخرى كفاح الهند اليوم – فى سبيل انتشال الشعب من وهدة الفقر والجهل والمرض ، فيتمثل فى النظام التعاونى الاجتماعى الذى يسود « سيفاجرام » (سيفاجرام غاندى فى مدينة وردة) . و « سيفاجرام » كلمة مركبة تعنى « مركز الخدمة » . وقد زرنا هذا المركز الذى اختاره غاندى لاقامته هذه البلدة الصغيرة بالذات لانها تقع فى منتصف الهند وتتوسط قلبها تماما . وخلاصة النظام النموذجى الذى وضعه غاندى وما زال متبعا فى هذا المركز وفى نحو ٤٠٠ مركز غيره حتى الآن . هو أن يتعاون أهل كل قرية فيما بينهم تعاونا شاملا كاملا . على كفاية أنفسهم بأنفسهم . فيزرعون ارضهم ، ويحصدون محصولهم ، وينسجون ملابسهم ، ويحضرون ماءهم ، ويعدون خبزهم ، وينتجون كل ما يحتاجون اليه من الزيت والصابون ومنتجات اللبن . وغير ذلك بحيث لا يبقى احد فى المجتمع بلا عمل ، ولا نصيب فى ثمرة العمل . . كل هذا على شرطين أساسيين : أولهما أن يكون الاساس الذى يسود هذا المجتمع هو التعاون دون التجاء الى العنف بحال من الاحوال . والثانى أن لا يكون فى هذا التعاون نصيب للآلات عدا

البسيطة الساذجة التى يديرها العامل بيده أو قدمه ! فلا آلات كهربائية ولا طلمبات ، ولا نحوها من الآلات الميكانيكية التى تؤدى الى البطالة وان أكثرت من الانتاج !

هذه خلاصة النظرية الاقتصادية والاجتماعية التى يطبقها الآن فى ورده وفى غيرها عدد من فطاحل رجال الاقتصاد والاجتماع الهنود بملابسهم البسيطة وأقدامهم الحافية فى قرى الهند النائية ، فلا يكاد الذى يراهم لاول وهلة يصدق أنهم خريجو جامعات كمردج واكسفورد وأبناء ترف ونعيم قديم ...

والمراة الهندية تقوم الى جانب الرجل بنصيب كبير من الجهد ، وهى تتمتع بحقوقها السياسية وقد كانت احدى نساء الهند تتولى منصب الحاكمة العامة لاقليم (المديريات المتحدة) وهى الشاعرة العالمية ساروجينى نايدو ، وتتولى اليوم وزارة الصحة فى الحكومة المركزية امرأة فاضلة هى السيدة أمريت كاور وهى مسيحية كانت سكرتيرة غاندى سنوات طويلة وظلت فى خدمته حتى قتل . وهناك امرأة تشغل منصب السفيرة ، وهى السيدة لاكشمى بانديت شقيقة نهرو التى اسندت اليها سفارة الهند فى وشنطن أخيرا . وهناك عدد غير قليل من النساء يشغلن مناصب النيابة فى جميع المجالس التشريعية بالهند .

ومع ذلك فان التقاليد لاتزال تقف دون اختلاط الجنسين حتى فى التعليم الجامعى بالهند . وقد كان من اغرب المشاهد التى رأيتها عندما زرت بعض الجامعات الهندية ان للطالبات مدخلا خاصا فى قاعات المحاضرات ، يدخلن منه الى مقاعد مرتفعة عن مقاعد الطلبة ، ومحجوبة عن بقية المقاعد بستار من القماش يظهر ان يد التحرر تعمل فيه عملها كل يوم فلا يكاد يحجب شيئا على الاطلاق !

وهناك الان تشريع يجتاز مراحله النهائية يسمى « القانون الهندوكى » وهو يتضمن نصوصا تتعلق بالاحوال الشخصية للطائفة الهندوكية ، وبمقتضاه يباح الطلاق عندما تحتمه

الضرورة — وهو محظور حتى الآن في جميع الاحوال — ويبيح كذلك للمرأة حق الارث . وهي محرومة منه الآن كل الحرمان !

ويميل الهنود على وجه عام الى الاحتفاظ بتقاليدهم في الملبس والمأكل والعادات . ولهذا تحتفظ المرأة الهندية كلما ذهبت داخل بلادها او خارجها بالساري وهو اشبه بملاءة مع زخرفة تتعدد حسب تعدد الالوان والاذواق والمقدرة على الشراء . وكذلك يحرص الرجال على ابقاء الزي الوطني لبسهم ، حتى ان بعضهم ليحس بالخجل اذا اضطر الى ارتداء الملابس الافرنجية .

وكذلك حالهم فيما يتعلق بالطعام . فهم — على اختلاف طبقاتهم — يجلسون ارضا على حصير او سماط ممدود . وتوضع امام كل منهم « طبلية » مربعة من الخشب ، ثم توضع صينية من النحاس او ورقة مغسولة من اوراق الموز ، فوق « الطبلية » ، ويجلس الرجال في جانب والنساء في جانب آخر . ويطوف الخدم على الصواني بالمواعين والاواني يوزعون على الحاضرين ما يحملون من الملح والسلطة و « المطبخ » والارز واللحم — اذا لم يكونوا نباتيين — والسمك والحلوى وهم يتناولون هذا كله بايديهم في براعة فائقة . وقلما يضطرون الى استعمال الملعقة الصغيرة التي توضع امامهم الا في حالات قليلة فاذا انتهوا من طعامهم قدمت اليهم قطع صغيرة من التوابل يسمونها (بان)

وبعد . فهذه لمحة سريعة عن الهند اليوم كما شاهدتها ، ولا أحب أن أختمها دون الاشارة في أسف الى ان معلومات الغالبية الساحقة من اهل الهند عن مصر تافهة ان لم تكن معدومة ، والمثقفون منهم يتتبعون باشد الاهتمام اخبار جلالة الملك ، ويستزيدون منها ، ويعرفون سعد زغلول والوفد ومصطفى النحاس . ويجهلون الحالة الداخلية في مصر سياسيا واجتماعيا جهلا مطبقا . والجامعات الاسلامية كجامعة عليكره والجامعة العثمانية في حيدر اباد لا تكاد تدرس شيئا عن الحركة الوطنية الحديثة في مصر ، وان كانت مكتباتها تضم كتبا

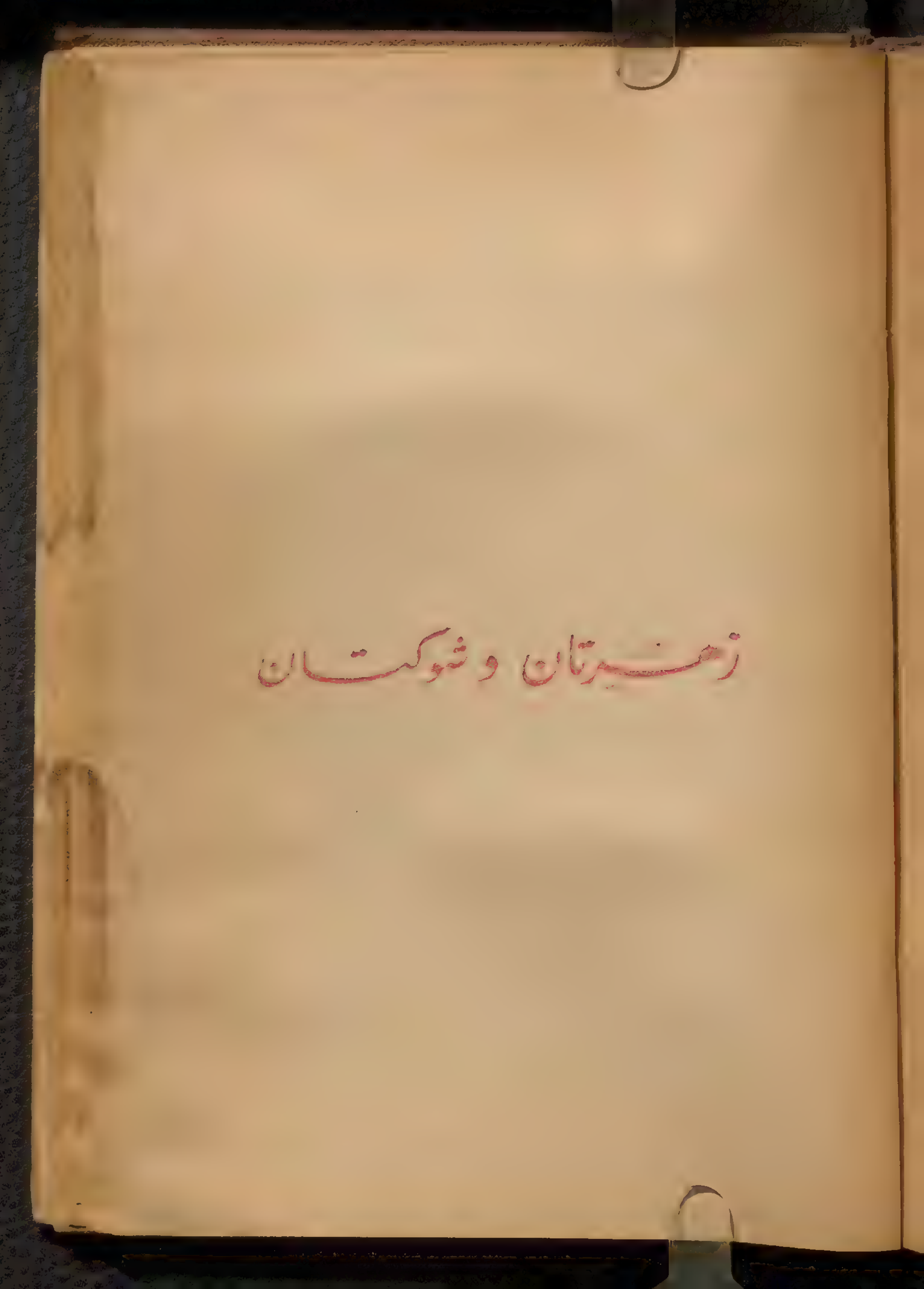
معدودة على الاصابع لطه حسين واحمد امين وحسن ابراهيم حسن واحمد حسن الزيات .

وقد كان السؤال الذى لقى على فى كل مكان اكثر من اى سؤال اخر هو : هل الفرنسية عندكم اكثر شيوعا من الانجليزية .. وقد سمعت هذا السؤال من نظام حيدر اباد وحاكم البنغال الغربية ومن الصحفيين وطلاب الجامعات وكان بعضهم يسأل عما اذا كانت صحفنا تصدر باللغة العربية أم باللغةالمصرية!

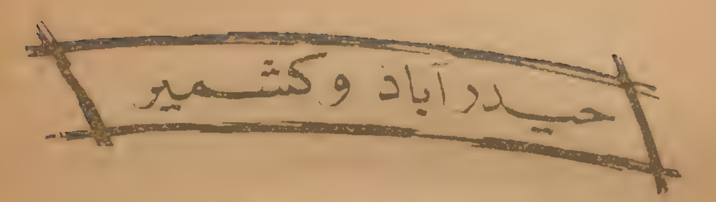
وفى متحف مدينة حيدر اباد وجدت بين المعروضات صندوقا زجاجيا به مومياء مصرية ظهرت بعض اصابع قدميها بحالة تامة ولم أجد على الصندوق كلمة واحدة تتضمن شيئا عن إصل هذه المومياء او فصلها .. ولما سألت (البروفسور) الذى كان يرافقنا قال انه لا يدرى ، ولكن يبدو ان احد الكبراء اشتراها من مصر وجلبها الى حيدر اباد قبل ان تتخذ الحكومة المصرية الاجراءات اللازمة لمنع تسرب الاثار

ومع ذلك فهناك شوق شديد لتعرف اخبار مصر واحوال مصر وتوثيق علاقة التعاون والمودة بين الهند ومصر .





زمستان و شوکستان



هما زهرتان من النضر . واعطر الازهار فى بستان الهند ..
وهما أيضا – وياسخرية القدر – شوكتان من اخطر الاشواك التى تدمى جنبى الهند !

ان أعمدة الصحف فى الهند والعالم أجمع مازالت حتى اليوم تفيض بالانباء المغرضة والبريئة . كما تفيض بالتكهنات عن مصير البلدين . وان كانت كل الدلائل تشير الى أن مصيرهما ؛ أو على الاقل مصير حيدر اباد قد تقرر بالفعل ..

لقد زرت البلدين . ونزلت فى عاصمتيهما أياما ، ونعمت – مع زملائى الصحفيين – بأمتع واجمل فترة من فترات الهدوء والراحة فى دار الضيافة الفاخرة بكلا العاصمتين .. ومع ذلك فان جوا رهيبا من القلق والانتظار كان يختلط بجو الربيع الفاتن هنا وهناك . رغم البعد الشاسع بين حيدر اباد الدكن التى يسمونها « بطن الهند » وبين وادى كشمير الجميل فى اقصى الشمال ..

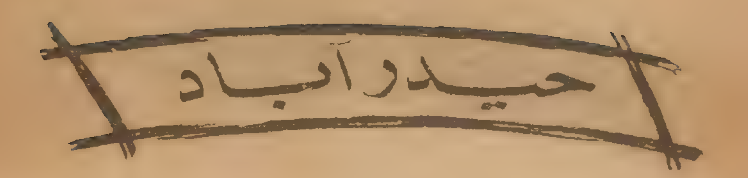
وان وجوه الشبه لتتعدد بين البلدين على نحو يثير العجب ، فكلاهما يتمتع بشهرة عالمية : كشمير باصوافها وحيدر اباد (بنظامها) ..

وكلاهما يثير مشكلة عالمية .. وكلاهما يعانى من حاكمه المستبد : ففى كشمير تعانى الاغلبية المسلمة أشد الويلات من المهراجا الهندوكى المستبد .. وفى حيدر اباد تعانى الاغلبية الهندوكية أشد الويلات من الحاكم المسلم المستبد الذى يحمل لقب (النظام) ..

ومع اختلاف دين الاغلبية فى كل من حيدر اباد وكشمير ، فان البانديت نهرو زعيم الهندورئيس حكومتها قد انتصر للاغلبية وايد زعماءها بالقوة المسلحة فى الحالتين .. فغزا حيدر اباد وارغم النظام على الاستسلام ، وارسل قواته لنجدة الشيخ محمد عبدالله وردالقبائل الغازية عن كشمير ...

وكلاهما اخيرا وليس اخرا ، يسير الان فى طريق الاصلاح الاجتماعى ومحاربة خطر الشيوعية بخطوات سريعة حاسمة .





حيدر آباد

وحيدر اباد ، الولاية التى تسمى عاصمتها بهذا الاسم ايضا ، هى الشطر الشرقى من شبه جزيرة الدكن . ومساحتها ٨٢٫٦٩٨ ميلا مربعا ، اى انها تزيد على مساحة انجلترا واسكتلنده معا . ويبلغ مجموع سكانها ، طبقا لاخر احصائية رسمية اجريت فى سنة ١٩٤١ ، ١٦٫٢٠٠٫٠٠٠ نسمة منهم ٧٢٨٫٠٠٠ يسكنون مدينة حيدراباد ، التى تعد رابعة مدن الهند من حيث ضخامتها .

وقد كان النظام الاقطاعى سائدا فى حيدر اباد الى ان وقع الصدام التاريخى فى سنة ١٩٤٨ بينها وبين حكومة الهند الوطنية فى دلهى على النحو الذى سنوجزه فيما بعد .

وامير حيدر اباد ، المشهور بالنظام ، يحمل الالقاب التالية ، منذ سنة ١٩١١ « صاحب السمو الاسمى ، رستم الوردان ، ارشد الزمان ، الامير الاى مظفر الملك والممالك ، خان مير سير عثمان على خان بهادور ، الفاتح الظافر ، الحليف الوفى للحكومة البريطانية ، نظام الدولة ، نظام الملك ، آصف شاه ، نظام حيدر اباد وبيرار » !!

وهو سابع نظام لحيدر اباد ، ويدعى ان اباه من نسل أمير المؤمنين سيدنا ابى بكر رضى الله عنه ، وان امه من نسل رسول الله سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

ورأس أسرته ومؤسسها هو قلج خان ، اول نظام للملك ، وتختلف الروايات فى شأن الاساس الذى قامت عليه هذه الدولة ، فالذين فى صف النظام يقولون بانها اسست فى سنة ١٧٢٤ ،

حين ثار مؤسسها على حكم أسرة في دلهي ، وشق طريقه الى الجنوب ، وأنزل الهزيمة بالجيوش التي أرسلها الامبراطور من دلهي لتقطع عليه الطريق ، والتقى بها في موقعة حاسمة بمقاطعة بيرار . ولما استقر الامر له خلع عليه امبراطور دلهي لقب نظام الملك واعترف به . [illegible] قلج خان سنة ١٧٤٨ في سن الرابعة بعد المائة .

[illegible] دولة حيدر اباد نزعت نزعا من [illegible] بدون هدية من [illegible] لمساعدتهم [illegible] الفرنسيين الذين [illegible] النفوذ في بعض انحاء الهند .

وقد ولد النظام الحالي في سنة ١٨٨٦ ، أي أنه الآن في الرابعة والستين من عمره . [illegible] حين قابلناه في قصره [illegible] عليه ، [illegible] ، وحين [illegible] .

وقد خلف [illegible] على خان بعد وفاته في سنة ١٩١١ ، وكان [illegible] سنة ١٩٠١ [illegible] في العشرين من عمره ، [illegible] وأنجب منها في سنة ١٩٠٧ [illegible] ([illegible]) الذي [illegible] من الاميرة درة شهوار [illegible] السلطان عبد المجيد [illegible] آل عثمان . والامير [illegible] من الاميرة نيلوفر [illegible] .

[illegible] ثروة النظام [illegible] بين ٤٠٠ و٨٠٠ مليون [illegible] . وهي اكبر ثروة [illegible] في العالم . وله قصور [illegible] في دلهي [illegible] فيها .

وهو مشهور [illegible] .

وقد كنت ــ ومازلت ــ أترددفى تصديق مايروى عن بخله،ولكن رصيد التردد عندى هبط كثيراعندما قابلت النظام فى قصره بعد عشر سنوات من سماع هذه القصة . فان ملابس الرجل كانت من اردأ انواع القماش ، وكان طربوشه رثا باليا تشمئز لمنظره النفوس . وجوربه متدليالا يمسكه شيء حول ساقيه النحيلتين ، وحذاؤه مركوبا من ارخص الانواع التى تعرض على الارصفة ويطوف بها الباعة المتجولون ، ولم يكن يزين أصابعه او صدره بأى انواع الزينة

ومع ذلك فان من مقتضيات الانصاف ان اذكر ان كثيرين من انصار الرجل ينسبون ذلك الى تقشف طبيعي فيه ، والى شدة كراهيته للتجمل والترف ، وهم يدللون على ذلك بواقعة مشهورة خلاصتها ان احد كبار العلماء المسلمين فى شمال الهند التمس مقابلة النظام وسافر الى حيدراباد خصيصا من أجل هذه المقابلة ، فى الموعد الذى حددلها،ولما وصل العالم الكبير الشهير ادخل الى قاعة الاستقبال فى انتظار دعوته للتشرف بالمقابلة ويظهر ان من عادة النظام ان يسترق النظر من خلف الاستار ليرى ملامح زائره قبل مقابلته. فلما لمح صاحبنا وجده قد حضر فى أبهى زينته وأفخر ملابسه...

وعاد الشيخ (المطمطم) دون ان يتشرف بمقابلة النظام الذى هاله ان يحفل رجل الدين بمظاهر الترف والابهة الى هذا الحد ! !

ويستيقظ النظام عادة فى الساعة السادسة من صباح كل يوم ، فيؤدى الصلاة ، ثم يطالع الصحف ، ويعكف على البت فى شئون الدولة بنفسه من الساعة العاشرة الى الرابعة بعد الظهر . وعند مغرب كل يوم يذهب الى قبر أمه ليقرأ الفاتحة على روحها . وقد خلد ذكراها بتخصيص ٢٠٠ ألف روبية فى العام لاعانة فقراء التلاميذ والتلميذات من جميع الطوائف على اتمام دراستهم

ويجب ان يسجل الباحث المنصف أن من مفاخر نظام حيدر اباد عنايته بنشر التعليم عناية بلغت ذروتها حين خرجت



صاحب السمو الاسمى ، رستم الوردان ، أرشد الزمان
الاميرالاى مظفرالملك والمماليك ، آصف‌شاه . نظام حيدرآباد وبيرار

الجامعة العثمانية فى حيدر اباد الى حيز الوجود . وقد سميت بهذا الاسم نسبة الى سموه اذ انه أصدر فرمانا , هكذا يسمى مرسومه تشبها بسلاطين تركيا .. , بانشائها فى ٢٦ ابريل سنة ١٩١٧ . وقد افتتح سموه كلية الاداب فى سنة ١٩٣٧ . ومنح سموه اسمى درجاتها الفخرية وهى درجة « سلطان العلوم » !

وقد زرت الجامعة العثمانية زيارة سريعة . وشهدت بعض المحاضرات فى كلية الاداب . وعاينت مكتبتها . فوجدتها من النظام بحيث [illegible] كلية الاداب فى جامعة فؤاد الاول . مع فارق [illegible] . وان [illegible] الاوربية [illegible] العربية . وتضم مكتبة ضخمة من [illegible] العربية

ومن الغريب [illegible] فى [illegible] المحاضرات ان جانبا من المعهد فى [illegible] . و[illegible] بقية المعهد . و[illegible] [illegible] يمنع الطالبات من [illegible] ... ولكن الطالبات [illegible] مع الزمن فى [illegible] . حتى أصبح [illegible] كل العجز !

ولاحظت كذلك ان كليات الجامعة العثمانية ليست مبعثرة فى [illegible] المدينة كما هى الحال فى جامعة فؤاد الاول مثلا ، ولكنها تقوم فى خارج المدينة وسط فضاء متسع ، يكفل وجود الكليات فى مكان واحد كما يكفل فسحة المجال للتوسع فى بنيانها [illegible] المستقبل .

[illegible] فى [illegible] والاستاذ [illegible] الهندى [illegible] الوطنى فى الهند [illegible] هذا الطراز [illegible] حيدر [illegible] سنة ١٩٤٥ رئيسا [illegible] فى جميع انحاء الهند وهو سيد زين الدين حسين [illegible] بهادور . وهو الآن وزير الاشغال [illegible] والطبية والبلدية فى

حكومة حيدر آباد المؤقتة (وهى الحكومة التى اقامتها الهند بعد فتح حيدر آباد سنة ١٩٤٨) ؛ وقد كان الوزير الوحيد الذى حضر معنا مقابلة النظام مع الجنرال تشودرى الحاكم العسكرى العام .

وقد أتيح لى أن اجتمع بهذا الوزير المهندس العظيم عدة مرات ، كما تصادف سفره معنا بالطائرة من حيدر آباد الى دلهى فجلسنا نتحدث طويلا حول مسائل سياسية واجتماعية وثقافية شتى ، فوجدته يعرف مصر ويعرف عددا من كبار مهندسيها ، وقد ابدى لى شديد اسفه لعدم اهتمام مصر بابتداع طراز هندسى حديث ، على غرار الطراز العثمانى ، يجمع بين الطرازين الفرعونى والعربى ، ويتخذ طابعا للمنشآت القومية الكبرى فى مصر ، كجامعة فؤاد الاول التى ادهشه حين زارها ان يجدها مبنية على طراز لا يمت الى الفرعونيين او العرب بسبب

ونعود الى الحديث عن نظام حيدر آباد . فنقول — انصافا له ايضا — انه لم يدخر وسعا فى توكيد روح التسامح التى ينظر بها . ويعامل بها رعاياه من مختلف الاديان والعقائد ، وثمانون فى المائة منهم او يزيدون من الهندوكيين ؛ ومن ذلك قوله فى عبارات مؤثرة تنم عن اخلاص وصدق بروح اسلامية صحيحة :

« مهما يكن دين بيتنا المالك . ومهما تكن معتقداتى الشخصية ، فاننى ، كحاكم اعتبر نفسى من اتباع دين اخر كذلك قوامه (المحبة نحو الجميع) . وذلك لان تحت حكمى اناسا من مختلف المذاهب ، والطوائف ، وقد كانت حماية دور عبادتهم من زمن طويل جزءا لا يتجزأ من دستور دولتى »

وذهب النظام الى ابعد من ذلك فقال فى بيان رسمى :

« اننى بوصفى حاكما ، اعتبر نفسى بلا دين ، لا بمعنى اننى ملحد ، ولكن بمعنى اننى كحاكم لا أتحيز لمصلحة أو ضد مصلحة دين بعينه او طائفة دينية بعينها ، وقد كانت هذه الخطة وسط من دواعى الفخر لى ولاسلافى ، وادعو الله ان ينهج خلفى مثل هذه الخطة نفسها »

ورغم كل ما قرات ، وسمعت،عمـا للنظام وما عليـه ، فاننى لا استطيع ان اشـك فى صدق ايمانه بسـلامة هـذه الخطة واستقامتها . ولهذا لم ادهش حين علمت ان تسعين في المائة من الحـراس والخـدم المعينـين فى القرى لخـدمة المساجد والمعابد معا هم من الهندوكيين .. وان هناك على الاقـل ١٢٥ مسجدا وضريحا يديرها ويعنى بخدمتها هندوكيون يتقاضـون فى سبيل ذلك مكافآت من الحكومة ، كما تنفق الحكومة مرتبات وتخصص مبالغ طائلة من التبرعات والاوقاف وغيرها لصيانة المعابد واكتشاف الآثار الهنـدوكية وصـيانتها ويوجد منها فى ولاية حيدر آباد نحو ٣٢ الف معبد للهندوكيين و ٦ الاف مسجد للمسلمين .

ومع ذلك فان سوء الادارة فى ظل الحكم الاستبدادى ، ادى الى اختـلال خطير فى التـوازن بين نسبة الهندكيين الى المسلمين فى وظائف الحكومة ، حتى اصبحت نسبة المسلمين فى وظائف الدولة نحو تسعين فى المائة ، .. مع ان نسبتهم بين مجموع السكان لا تتجاوز ١٢ او ١٥ فى المائة :

والحق ان عيوب النظام تكاد تلخص فى ناحيتين :

الاولى — ولاؤه الاعمـى للاستعمار البريطانى ، ومجاهرته بل مفاخرته بهذا الولاء ..

والثانية — اصراره على التمسك باهداب الحكم المطلق الاتوقراطى ، والاقطاعى ، فى القرن العشرين !

اما ولاؤه للاستعمار البريطانى فاشـهر من ان يـذكر . وقد استحق من اجـله ان يتلقى من الملك جـورج الخـامس خـطابا مؤرخا فى ٢٤ يناير سنة ١٩١٨ ، كتبه الملك جـورج فى قصر بكنجهام وقال فيه :

« انه لمن اكبر دواعي ارتياحى ان اعلن عن تقـديرى للخدمات العظيمـــة التى قدمتهـــا الامبراطوريتى خـلال الحرب ، وذلك بمنحك لقبا خاصـا هـو (صاحب السـمو الاسـمى) ، وتثبيت لقبكم الفخرى رسـميا وهـو لقب (الحليف الامـين

للحكومة البريطانيه ، الذى اكدتم به يا صاحب السمو الاسمى ، انتم واسلافكم . ولاءكم لاسلافى ولى » !!

وقد انعم بلقب « الحليف الامين » على احد جدود النظام الحالى تقديرا لولائه وتفانيه فى خدمه الاستعمار البريطانى فى الهند نفسها .. ويروى عن ذلك النظام انه دعا اليه ولى عهده ساعه احتضاره . وهمس اليه بوصيته الاخيرة : وكان أهم بند فيها الا ينحرف قيد شعره من ولائه للحكومه البريطانيه ! !

ويذكر تاريخ العائله الاصفيه . وهو لقب عائلة النظام . ان جيوشها حاربت على الدوام فى جانب الجيوش البريطانيه ضد كل عصيان او ثوره قامت فى الهند ضد الاستعمار البريطانى . بما فيها الثورة الهنديه المسماه الكبرى ، فى اواخر القرن الماضى . وهى الثورة التى يسميها الانجليز بالتمرد الاكبر .. وقد كادت تقضى على الحكم البريطانى فى الهند قضاء مبرما . حتى لقد ابرق حاكم بومباى البريطانى الى المقيم البريطانى لدى بلاط النظام يومئذ يقول له : « اذا ذهب النظام . ضاع كل شىء » ! !

ويذكر التاريخ القريب ان والد النظام الحالى كان أسبق أمراء الهند الى تقديم خدماته الشخصية وتسخير موارد دولته لمساعدة الجيش البريطانى على قمع المسلمين الثائرين فى منطقة الحدود الشمالية الغربية ، كما يذكر التاريخ ان ذلك النظام نفسه كان اول من أنشأ (الفرقة الامبراطورية الخاصه) للدفاع عن الامبراطورية البريطانية »

اما النظام الحالى فلم يكن اقل تحمسا للامبراطورية البريطانيه من أسلافه ، ولعله يزيد عليهم جميعا ..وهو شديد الفخر والاعتزاز بولائه للامبراطورية ، ولهذا لا يدع مناسبة دون التنويه به . وقد قال فى ذلك ذات مرة :

« لقد حدث فى اكثر من ازمة واحدة أن شهر ملوك العائلة الآصفية سيوفهم دفاعا عن شرف الامبراطورية البريطانية وسلامتها » !

ولما قامت الحرب العالمية الاولى وضع النظام جيوشه وموارده تحت

تصرف بريطانيا ، واستغل اسمه ومكانته كمسلم ينتسب الى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصدر نداء الى المسلمين فى الهند وغيرها يدعوهم لمحاربة جيوش الخليفة العثمانى ...

ولما قامت الحرب العالمية الثانية فى أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ سارع النظام الى اذاعة نداء تاريخه ٧ سبتمبر سنة ١٩٣٩ جاء فيه بالحرف الواحد :

« لقد أبلغت نائب الملك أنه كما هرع أسلافى لنجدة الحكومة البريطانية خلال الازمات الماضية وكما حاولت أن أقدم كل خدمة بكل وسيلة أستطيعها خلال الحرب السابقة فى سنة ١٩١٤ ، فاننى على استعداد لتكرار ذلك بالطريقة نفسها ، وأننى أرى ذلك واجبا على حتى يظل المعنى الحقيقى للقب « الحليف الامين » الذى منحته الحكومة البريطانية لبيتى المالك قائما أمام أعين العالم »)

واستطرد النظام فطلب من المسلمين فى أنحاء الهند كلها أن ينسوا خلافاتهم الكبيرة والصغيرة جميعا ويركزوا جهودهم فى مساعدة بريطانيا ... حتى يزول كل خطر على الامبراطورية البريطانية. ثم يقول :

« فاننى لا أتردد قط فى أن أقول ان ظل الحكومة البريطانية الوارف الظليل الذى تعيش تحته الهند منذ أمد طويل ، انما هو نعمة لهذه البلاد ليس لها مثيل، وذلك ما لا يستطيع أحد أن ينكره الخ الخ » !

وقد خطب النظام فى المأدبة الرسمية التى أقيمت تكريما لنائب الملك فى الهند فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٤٤ فذكر بالفخر مساهمته الشخصية ومساهمه بلاده فى نفقات الحرب العالمية الثانية فقال :

« ان مساهمتى الشخصية بلغت ٦٠ الف جنيه لاعداد سرب من الطائرات المقاتلة و ٧٠٠,٠٠٠ روبية تبرعا فى الاكتتاب الذى افتتحه الحاكم العام لاغراض الحرب ؛ وبلغت قيمة المصروفات والنفقات المباشرة وغير المباشرة التى قدمتها حكومتى نحو ٦٣,١١٠,٠٠٠ روبية أى نحو خمسة ملايين من الجنيهات

« وكذلك تبرعت حكومتي بنحو ٠٠٠ر٢٥٠ر٥ روبية لوزارة الطيران البريطانية والامبرالية البريطانية

«وساهمت حيدر ابادفي محاربة التضخم النقدى .... ويسرني ان أقول ان حكومتي قد استطاعت حتى الآن أن تكتتب بأكثر من ٠٠٠ر٠٠٠ر٥٠٠ روبية فى قرض الدفاع وغيره من قروض الحكومة الهندية »

ومن الغريب أن الرجل الذى يغدق هذا المال من خزائنه ومن خزائن حكومته لخدمة أغراض الاستعمار البريطاني باعتباره « الحليف الامين للحكومة البريطانية » قد بلغ به الشح والتردد حدودا مزرية حين ذهب اليه فى سنة ١٩٣٣ سماحة الحاج أمين الحسيني مفتى فلسطين ، ومعه سعادة الاستاذ محمد على علوبة باشا (سفير مصر فى الباكستان الآن) ، وعرضا على سموه حاجة فلسطين المجاهدة للمال والاصلاح فاعتذر لهما بأنه لايريد أن يقدم على تصرف يتعارض مع السياسة البريطانية ، فقالا له ان هناك مشروعا لانشاء مدرسة اسلامية كبرى بالقدس تبرع لها أهل فلسطين بعمارة ثمنها مائة الف جنيه ، ورصدوا لها ايرادا سنويا قدره عشرة الاف جنيه من الاوقاف فلا أقل من ان يساهم سموه بجانب من المال لاتمام المشروع وهو مشروع غير سياسى ، فوعدهما بالنظر فى الموضوع ثم كان كل ماتبرع به مائة الف روبية (أى أقل من سبعة آلاف جنيه) أرسلها بطريق اللورد ريدنج اليهودى الذى كان اذ ذاك نائب الملك فى الهند وطلب تسليمها الى المندوب السامى البريطانى فى فلسطين !

وقد ظل المبلغ محجوزا لدى الانجليز فى فلسطين حتى غادروها سنة ١٩٤٨ وسلموا المبلغ الى ادارة الاوقاف بالقدس ...

* * *

الى هذا الحد بلغ استسلام الرجل للانجليز ، وولاؤه الاعمى للامبراطورية البريطانية ...

أما الناحية المظلمة الاخرى فى طبيعته ، فهى تمسكه بنظام الحكم الاقطاعى الاستبدادى رغم تطور الدنيا من حوله . وانتشار النظام الديمقراطى فى بقية أنحاء الهند .

ويملك نظام حيدر أباد نحو ثمن مساحة الدولة . أى أكثر من عشرة آلاف ميل مربع من الارض الزراعية ؛ ويذهب ايرادها كله الى خزانته الخاصة . وتسمى هذه الممتلكات باسم « الصرف الخاص » ، وله مطلق التصرف فيها لحسابه الخاص . وان يديرها وزير من الوزراء يتبع النظام مباشرة . ولها بوليس خاص وخزانة خاصة ونظام خاص للمحاسبة

وقد أصدر النظام فى أوائل العام الحالى . وبعد مفاوضات بينه وبين حاكم حيدر أباد العسكرى ؛ فرمانا يقضى بوضع « الصرف الخاص » تحت رقابة الحكومة تتصرف فيها وتديرها طبقا لما تراه .

وقد بدأ الاحتكاك بين الهند والنظام يتخذ مظهر عمليا عند ما تفاقمت اعتداءات فرقة الرزاقة برياسة قاسم رزقى ضد الهندوكيين ؛ متخذين من التعصب الدينى وسيلة للنهب والسلب حتى اذ كان اليوم السابع من شهر سبتمبر سنة ١٩٤٨ ، وقف البانديت نهرو فى البرلمان الهندى ، والقى خطابا خطيرا قوبل بالتأييد والتصفيق الحاد اعلن فيه اول انذار نهائى وجه الى نظام حيدر اباد .

وفى ختام الخطاب اشار البانديت نهرو اشارة صريحة الى نوايا الحكومة الهندية . واحتمال قيامها « بحركة بوليسية » ضد حيدر اباد فقال :

« ومهما تكن الخطوات التى قد نتخذها فى صورة حركة بوليسية او غيرها ، فان تعليماتنا ستكون محددة وصريحة بأن تقمع بمنتهى الشدة اية مشاغبات طائفية من أى نوع كانت ومن أى طائفة جاءت » !

ولم يكد خطاب الباندبت نهرو يعلن حتى بادر كثيرون من أصدقاء النظام وفى مقدمتهم نواب [illegible] وهو من الامراء المسلمين . الى تقديم النصح الخالص اليه بضرورة [illegible] بعض من وزرائه . واقامة حكومة ديمقراطية ، واعلان انضمامه الى اتحاد الهند . ولكن هذه النصائح كلها ذهبت مع الاسف أدراج الرياح . ورفض

النظام رفضا باتا أن يسمح بعودة القوات الهندية أو يخطو اية خطوة للاتفاق مع حكومة الهند ؛ معتمدا فيما يبدو على نجدة الحكومة البريطانية التى يحمل عندها لقب « الحليف الامين » . . . ولعله كان يتوقع منها على الاقل أن تحول بين الهند وبين حل النزاع بالقوة المسلحة ، وهو أمل قد لايكون مفهوما أو سائغا لدى البعيدين عن مسرح الحوادث ، ولكنه كان ولا شك قائما على عقيدة راسخة لدى النظام بأن بريطانيا هى كل شىء ، وأن « حليفها الامين » يستطيع أن يعتمد عليها فى كل شىء . . .

ورغم ذلك فقد وقع ما كان يراه النظام مستحيلا ، ودقت الساعة الفاصلة فى الساعة الرابعة من صباح يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٩٤٨ ، اذ دخلت القوات الهندية حدود حيدر اباد من عدة جهات .

وكان الهجوم الرئيسى من ناحية شولابور ، تحت قيادة الجنرال تشودرى ، أصغر قواد الجيش الهندى . بينما قام سلاح الطيران الهندى فى ثمانى ساعات بتحطيم جميع مطارات النظام ، وبذلك استحال على طائرات النظام ان تؤدى أى عمل من الاعمال ، كما استحال وصول أى مدد جوى من باكستان أو غيرها من البلدان التى كان يخيل للنظام انه يستطيع ان يعتمد عليها فى ساعة المحنة التى جرها على نفسه وبلاده . .

ولم يدم القتال سوى خمسة أيام رأى خلالها السيد لايق على رئيس الوزراء ان يرفع استقالته الى النظام . فأذاع فى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم ١٧ سبتمبر بيانا بالراديو مودعا منصبه بهذه العبارات :

« ان تاريخ الايام الخمسة الماضية لايمكن ان ينسى ، وقد أدركنا اليوم ، وهو خامس أيام الصراع ، اننا قد حاربنا جهد ما استطعنا . وقرر مجلس الوزراء فى ساعة مبكرة من هذا الصباح انه لامحل لتضحية الدماء البشرية بلا جدوى

« وقد رأى المجلس بعد استعراض هذه الحقائق ان يرفع

استقالته ؛ ويضع مسئوليات الحكم بين يدى الحاكم الكريمتين (أى النظام) .

« ومع أن هذا الرجاء المتواضع وصل متأخرا فان النظام قد قبله . ووافق على أن ينهض بكامل المسئولية ويؤلف وزارة جديدة تتولى الحكم من الغد .

« وكذلك امر بوقف اطلاق النار فى الساعة السابعة عشرة بعد ظهر اليوم من جانب قوات حيدر اباد .

« وقد اخطر حاكم الهند انعام بأن قوات الجيش الهندى تستطيع أن تتقدم دون مقاومة الى سكندراباد . وان هيئة الرزاقة ستحل »

وهكذا طارت امال النظام الكاذبة فى المقاومة أو النجدة .

وفى ساعة مبكرة من صباح يوم ١٨ سبتمبر جرت مراسم تسليم الجنرال عيدروس . قائد جيش حيدر اباد ؛ للجنرال تشودرى على مقربة من سكندراباد .

اما قاسم رزقى زعيم الرزاقة الفاشستى ، الذى اشعل نار الفتنة وغرر بالنظام . واضاع كل فرصة للاتفاق مع الهند . فقد ازال لحيته وهرول الى مطار سكندراباد فوجده حطاما ، وكان فى مقدمة الاوامر التى أصدرها الجنرال تشودرى بوصفه حاكما عسكريا ، أمر بالقبض على قاسم رزقى ، فقبضت عليه قوات حيدر اباد وسلمته للسلطات الهندية .

وكان النظام قد أرسل الى مجلس الامن شكوى من غزو بلاده . أثيرت حولها مناقشات حامية ، وأيدها ممثل بريطانيا بطبيعة الحال ، ثم أجلت المناقشة أياما كانت الحوادث خلالها قد تطورت على النحو الذى أسلفناه ، فأرسل النظام فى ١٨ سبتمبر برقية الى وفد حيدر اباد يطلب منه سحب الشكوى ، فلما رفض الوفد تنفيذ أمره ، عاد فأرسل برقية أخرى الى مستر تريجفى لى بوصفه سكرتيرا عاما لهيئة الامم المتحدة يبلغه دهشته لما جاء فى الصحف من ان السيد ظافر أحمد وزير خارجية حيدر أباد صرح امام مجلس الامن بانه لم يتلق أية تعليمات بسحب الشكوى

مع انه أرسل برقية الى نواب معين نواز ذلك . واضاف النظام انه دفعا لكل شك وجه الخطاب مباشرة الى مستر تريجفى لى طالبا سحب الشكوى .

وفى ٢٣ سبتمبر أذاع النظام أمام الميكروفون — لأول مرة فى حياته — بيانا قال انه يوجهه الى الزعماء الاصدقاء فى البلاد الاسلامية » .

وفى هذا البيان استنكر النظام بشدة حكم الوزارة الاسلامية التى دامت ثمانية أشهر ؛ وقال ان الوزارة لا تقوم على ... فرضت عليه فرضا ؛ وسلبته كل سلطة . ثم قال النظام بالحرف الواحد :

« ان هذه الجماعة ؛ وعلى رأسها قاسم رزقى ؛ استولت على مقاليد الحكم بأساليب تعيد الى الذهن ذكرى المانيا النازية ؛ وبثت الذعر فى نفوس مختلف عناصر المجتمع . لا فرق بين مسلم وغير مسلم . التى رفضت ان تركع لمشيئتها ؛ كما ارتكبت جرائم السلب والنهب على أوسع نطاق . لا سيما ضد الهندوكيين ؛ وجعلتنى فى حالة عجز مطلق »

واستطرد النظام فقال : ان تلك الجماعة كانت تهدف الى انشاء دولة اسلامية لا تعترف بجنسيتها وحقوقها سوى المسلمين فى حيدر اباد ؛ ثم قال :

« ان طبيعة الاشياء فى حيدر اباد التى يبلغ سكانها ٨٦ فى المائة من الهندوس . تأبى ان تجعل من حيدر اباد دولة اسلامية » .

وكان قد ذاع ان الحكومة العسكرية الهندية تضيق الخناق على النظام فأذاع فى ٨ اكتوبر فرمانا قال فيه :

« نقل الى علمى ؛ كما اننى طالعت فى بعض الصحف الاجنبية روايات مفادها اننى أعانى ضغطا وتضييقا على حريتى فى التنقل ؛ وبعبارة أخرى اننى لست حرا فى تصرفاتى . وهذا غير صحيح على الاطلاق . فاننى على العكس أرتبط بأوثق الروابط القلبية مع الاتحاد الهندى والادارة العسكرية ؛ ولم أتعرض لاى ضغط من اى نوع كان ، بل اننى أتمتع بكل صنوف الاحترام والمجاملة التى تليق بمركزى السامى كرئيس للدولة »

وعندما زار السردار باتل ولاية حيدر اباد فى فبراير من العام الماضى (١٩٤٩) استقبله النظام والحاكم العسكرى فى المطار ، والقى خطابا على الجماهير فى ميدان الفاتح حمل فيه حملة شعواء على نظرية الشعبين (الهندوكى والمسلم) واستحالة التعاون بين الطائفتين ، ونصح للذين يعتنقون هذه النظرية أن يذهبوا الى باكستان ، واضاف الى ذلك قوله :

« ولا سبيل الى التقدم اذا لم تكن هنالك وحدة كاملة بين الهندوس والمسلمين والمسيحيين والمنبوذين . وعلى كل فرد من هذه الطوائف ان يعتبر كل فرد من الطوائف الاخرى أخا له . وعلى الاغلبية أن تخلق فى نفس الاقلية شعورا بالاطمئنان . فلا بد أن تشعر الاقلية (أى المسلمون) بانها فى أمن وسلام ، وانها ستظفر بنصيبها الحق . وعلى الاقلية من جانبها أن تكون مخلصة للدولة

« لقد ولدنا جميعا ونشأنا فى أرض واحدة ، وعلينا أن نعيش ونموت معا فى هذه الارض نفسها ، وان نؤمن ايمانا قلبيا بتعاليم المهاتما غاندى »

وقد اختفت هذه النغمة الرقيقة حينما تحدث رجل الهند الحديدى عن الشيوعية فقال :

« اننى لن اسمح لشيوعى واحد هنا ان يظل على قيد الحياة لان الشيوعية لن تنفث سمومها عندئذ فى هذه الولاية وحدها بل فى الهند كلها ... ولا اظنكم تريدون ان تصبح الهند وقودا لنار الشيوعيه ، كبورما والصين!

أما الحاكم العسكرى فى حيدر اباد الجنرال تشوردى فقد [illegible]ثت عنه فى مكان اخر من هذا الكتاب ، ويحسن ان نختتم [illegible] الفصل بكلمه اذاعها بحمس [illegible]ات فى منشورات الصقت بانحاء [illegible] فيها :

[illegible] ان الحكومه العسكريه لا تعرف المحاباة الطائفيه ، وقد ضربت وستضرب بشده على ايدى مخالفى القانون من اى [illegible]

« انشروا انجيل السلام بين الطوائف ، التى خلقها الله كلها متحدة ولكن الانسان وحده ، بجهالته ، سعى الى تمزيقها والتفريق بينها ، فعلى كل منكم ان يفكر لمسلم ، ويتكلم لمسلم ، ويعمل للمسلم ، ولن يكتب لكم النجاح والفلاح الا اذا جمعت بينكم روابط الاخوة وعشتم فيما بينكم اخوة »

هذه قصة حيدر اباد ، ونظام حيدر اباد ، على حقيقتها بلا مواربه ولا مجامله • وهى قصه كاد الذين اساءوا فهمها عن قصد او غير قصد ، يضعون مصر والشرق الاوسط فى احرج الاوضاع ، ويفقدونهما صداقة **الهند وزعمائها** ، لولا مسارعة سفير الهند فى مصر ، **المغفور له الدكتور سيد حسين**، الى مصارحه المسئولين والرأى العام فى مصر **بالحقائق الدامغة عند اشتداد** النزاع بين الهند وحيدر **اباد وخلاصه هذه الحقائق ان حيدر اباد ليست دوله اسلاميه ، وليست بلدا مستقلا ، ولا** ديمقراطيا ، **وان النزاع القائم بشأنها انما هو نزاع داخلى محض**





أما كشمير فلها قصة أخرى ، وان لم تكن بعيدة الشبه عن قصة شقيقتها المنكودة الحظ حيدرأباد

وكشمير أكبر ولاية فى الهند كلها . اذ أن مساحتها ٨٤٫٤٧١ ميلا مربعا . وتقع فى أقصى الشمال الغربى للهند ، وتمس حدودها الهند ، وباكستان ، والتبت والتركستان الصينية ، والتركستان الروسية .

ومجموع سكان كشمير لا يزيد كثيرا على أربعة ملايين نسمة أى بنسبة ٤٣ نسمة لكل ميل مربع . وبها عاصمتان هما جامو العاصمة الشتوية ، وسريناجار أو شريناجار العاصمة الصيفية وبها كذلك ٣٩ مدينة و ٨٩٠٣ قرى ، والسكان موزعون على الوجه التالى :

المسلمون — ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة
الهندوس — ١٫١٠٠٫٠٠٠ نسمة
السيخ — ٦٠٫٠٠٠ نسمة
البوذيون — ٣٨٫٨٢٤ نسمة
المسيحيون — ٢٫٣٠٠ نسمة

وتعيش هذه الطوائف كلها فى تضامن واتحاد يضرب بهما المثل

واكبر موارد البلاد هى السياحة اذ يفد عليها فى فصل الصيف من أنحاء العالم ألوف من السائحين الذين يطلبون فى هذا الوادى الجميل ، عند سفح جبال الهمالايا متعة للعين ورياضة للجسم قل أن يوجد لهما مثيل .

والزراعة هى المهنة الرئيسية للغالبية العظمى من السكان . ومع ذلك فان فى كشمير ثروة معدنية وفيرة جدا من مناجم الفحم والبترول والحديد والرصاص والذهب والكروم والنيكل والزرنيخ والرخام وغيرها .

ومن الصناعات المزدهرة التى تمتاز بها كشمير صناعة الصوف الكشميرى المشهور بجودة نوعه واشهرها الصوف المعروف بالباشمينا . ونوضع عدة ياردات منه فى حلقة خاتم صغير . ويصل ثمن القطعة الى ثمانمائة أو خمسمائة جنيه .

وقد احتضنت الحكومة صناعة الحرير ، وأنشأت مصنعا حكوميا كبيرا لاصناف الحرير الطبيعى فى سريناجار .

وهناك صناعة القطع الخشبية المشغولة بدقة تدعو الى الدهشة وصناعة الورق المضغوط المنقوش ببدع النقوش . ويصنعون منه صناديق للحلوى وأسفط للسوانيب ومصابيح واطباقا للزينة .

وهناك صناعات النحاس والحديد والفضة المشغولة وغيرها من الصناعات الدقيقة التى تشهد بالروح الفنية الدفينة فى اعماق هذا الشعب الرقيق الحال الذى يعيش فى وادى كشمير السعيد كما يسمونه .

ومع ذلك فان أهل كشمير يعدون أفقر أهل الهند على الاطلاق ... وقد قدر دخل الفرد من الفلاحين بما يعادل ثمانين قرشا مصريا فى العام ، اى نحو ستة قروش فى الشهر ! !

ويرجع تاريخ كشمير الى أقدم العصور ، ولها صفحات مجيدة سجلت فى كتاب قديم يسمى « راج ناراني » يرجع الى سنة ٣٫٠٠٠ قبل ميلاد المسيح ...

وقد وقعت كشمير فترة قصيرة تحت حكم الدولة البوذية أيام ازدهارها على عهد « أشوكا » ثم عادت سريعا الى حكم البراهمة حتى فتحها المسلمون سنة ١٣١٥ ميلادية ، وتعاقب على حكمها الباتان والمغول والافغان ، ثم غزاها السيخ على يد رانجيت سنج سنة ١٨١٩ ، ثم انتقل الحكم فى سنة ١٨٤٦ الى أيدى

اسرة دوجرا الهندوكية التى ينحدر منها المهراجا الحالى .

وهنا يذكر التاريخ للاستعمار البريطانى أحلك صفحاته كيف بيعت كشمير كلها ، بأهلها وساكنيها ، الى هذه الاسرة الهندوكية بثمن بخس تسلمه الانجليز من رأسها (غولاب سنج) فى مقابل تسليم البلاداليه ، وكان هذا الثمن هو ٧٫٥٠٠٫٠٠٠ روبية أى نحو ٦٠٠ الف جنيه ! !

وقد بدأت الحركة الوطنية الحديثة فى كشمير منذ سبعة عشر عاما لاتزيد ، وكانت فى الواقع ثمرة من ثمار حركة العصيان المدنى الجبارة التى أعلنها غاندى ، زعيم الهند ، فى سنة ١٩٣١ ، فلم يكد صدى هذه الحركة يتردد بين جنبات الوادى الاخضر حتى التهبت صدور الشبان حماسة ، فألفوا المظاهرات الوطنية ، وكان جزاؤهم العاجل ان أعلنت حالة الطوارىء وطبقت القوانين الاستثنائية وجرى من أعمال التعذيب والتنكيل ماتقشعر له الابدان .

ولكن أدوات القمع لاتكفى لخنق الحرية ، بل تزيد نارها اشتعالا . فلم يكن عجيبا ان يعلن فى العام التالى ، عام ١٩٣٢ تأليف هيئة سياسية باسم هيئة المؤتمر الاسلامى فى جامو وكشمير برياسة الشيخ محمد عبد الله الذى قال فى أول خطاب له اذ ذاك :

« لقد نصبنا أنفسنا للدفاع عن حقوق الطوائف كلها . وانه ليستحيل على بلادنا ان تتقدم اذا لم توطد العلاقات بين مختلف الطوائف . ولا سبيل الى ذلك الا اذا تعلمت كل طائفة كيف تحترم وجهة نظر الطائفة الاخرى »

ولم يلبث الشيخ عبد الله فى العام التالى ان خطا نحو هذه الغاية خطوة عملية موفقة ، اذ الف لجنة فرعية لكسب تأييد الهندوس والسيخ ودعوتهم للانضمام الى المؤتمر ، باعتباره هيئة وطنية سياسية رغم تسميته الطائفية . فلما تحققت له هذه الغاية النبيلة ، وبدا له تضامن المسلمين

والهندوكيين على أروع صورة ،دعاهم جميعا الى القيام بعصيان مدنى على منهج الزعيم غاندى، فقابلت الحكومة الاســتبدادية هذه الحركة بمثل ما قابلت به الحركة الاولى من وسائل البطش والقمع استنادا الى القوانين الاستثنائية.

وكانت الحكومة الانجليزية قد اوفدت الى كشمير لجنة تسمى «لجنة جلانسى للاصلاح الدستورى» فهالها مايسود البلاد من حكم دكتاتورى مطلق، ووضعت تقريرا طلبت فيه اجراء اصلاحات سريعة لمعالجة الموقف . واضطر المهراجا عندئذ [illegible] الى تأليف جمعية تشريعية من ٧٥ عضوا لا ينتخب منهم سوى ٣٣ [illegible] ومع ذلك فقد [illegible] على اعضاء الجمعية حق [illegible] الاسئلة و [illegible] وتقديم مشروعات القوانين . [illegible] الانجليزية على [illegible] الصحافة حريتها على النحو الذى كان مباحا للصحف الهندية تحت الحكم البريطانى .

ولما جرت انتخابات الجمعية التشريعية فاز فيها المؤتمر الاسلامى بأكبر مجموع من الاصوات نالته اية هيئة فى الجمعية . فاتيح له بذلك ان يواصل كفاحه داخل الجمعية كما كان يكافح خارجها . وكان يطالب بتعديل نظام الجمعية بحيث تكون اغلبيتها من ممثلى الشعب لا ممثلى الحكومة .

وفى سنة ١٩٣٦ أعلن المؤتمر للمرة الاولى ان هدفه هو اقيام حكومة دستورية مسئولة فى البلاد. وكان ذلك ايذانا بانضمام الوف من المسلمين وغير المسلمين الى صفوف المؤتمر فى موجة من الحماسة الغامرة .

وفى ٢٨ يونيـــه سنة ١٩٣٨ انعقدت اللجنة التنفيذية او العاملة للمؤتمر الاسلامى فى سريناجار ، ودامت مناقشاتها ٢٥ ساعة اصـــدرت على اثرها اقتراحا قدمتـــه للهيئة العامة يقضى بالسماح لجميع افراد الشعب بالانضمام الى عضـــوية المؤتمر بغض النظر عن طبقاتهم وطوائفهم ومذاهبهم

وفى الساعات الاولى من صباح يوم ١١ يونيو سنة ١٩٣٩ اختفى اسم « المؤتمر الاسلامى » وحل محله أسم جديد هو « المؤتمر الوطنى فى جامو وكشمير » وانتخب لرياسة تلك الدورة مجاهد قديم من زملاء الشيخ محمد عبد الله فى الحركة الوطنية (وفى الوزارة الآن) هو السيد غلام محمد صديق فألقى خطابا قال فيه :

« ان هذا اليوم سيكتب بأضخم الحروف فى تاريخ النهضة الوطنية فى جامو وكشمير »

ومن ذلك اليوم بدأ كفاح المؤتمر يتخذ طابعا من الحركة الدائمة . والمد والجزر . ومواجهة العواصف والاعاصير كأية هيئة تنصب نفسها للكفاح الوطنى الشاق .

فلما كانت سنة ١٩٤٤ طلع المؤتمر ببرنامجه الاشتراكى الجبار الذى حدده وفصله فى نشرة رسمية سماها « كشمير الجديدة » ويلخص هذا البرنامج فى اقامة حكومة ديمقراطية مسئولة ، تكون وسيلة لغاية مثلى هى تحرير الشعب من جميع صور الاستغلال الاقتصادى

وفى سنة ١٩٤٥ عقد المؤتمر الوطنى في كشمير دورة تاريخية فى سوبور حضرها لفيف من زعماء حزب المؤتمر الوطنى فى الهند على رأسهم البانديت نهرو ومولانا ابو الكلام آزاد وخان عبد الغفار خان (غاندى الحدود) . وكان للروح الودية التى أبداها زعماء المؤتمر الهندى نحو الحركة الوطنية فى كشمير صدى بعيد الاثر فى نفوس أهل كشمير

ونعود خطوة قصيرة الى الوراء لنذكر ان مهراجا كشمير كان قد طلب ان يضم الى هيئة الوزارة اثنان من أعضاء الجمعية التشريعية المنتخبين ، فاختار المؤتمر الوطنى السيد محمد أفضل بيج (وزير الاقتصاد الآن) . ولكن السيد بيج وجد الطريق غير ممهد لتنفيذ شىء من البرنامج الاقتصادى الذى وضعه المؤتمر لكشمير الجديدة ، كما قام بينه وبين رئيس الوزراء



خريطة الهند
مع دولة الباكستان الجديدة
باكستان
التبت
دلهی الجدیدة
كلكتا
بورما
بومبای
الهند
مدراس
خليج البنغال
سيلان
بحر العرب
المحيط الهندى

خلاف دستورى حاد ؛ فاستقال الوزير فى ١٧ مارس سنة ١٩٤٦ ولم يلبث المؤتمر الوطنى ان قدم الى اللجنة الوزارية البريطانية مذكرة جاء فيها :

« ان المطلب الوطنى لاهل كشمير اليوم لم يعد مجرد المطالبة بحكومة مسئولة ، بل حقهم فى التحرر التام من حكم بيت دوجرا الاوتوقراطى » !

وقد ذكر المؤتمر فى مذكرته الخطيرة مدى صحة معاهدة امرتسار (١٨٤٦) التى باعت الحكومة البريطانية بمقتضاها بلاد كشمير الى جد دوجرا فى مقابل سبعة ملايين روبية ونصف مليون !

وهنا ظهر الشعار المشهور ، غادر كشمير " ... الذى تحدى بمقتضاه الشيخ عبد الله ومن ورائه المؤتمر الوطنى مهراجا كشمير . وطالب كما لا يزال يطالب بنزوله عن عرشه الذى ليس له فيه حق . اذ اشتراه جده من الانجليز على النحو الذى استعرضناه ..

وفى ٢٠ مايو سنة ١٩٤٦ غادر الشيخ عبد الله سرينجار ليقابل البانديت نهرو فى دلهى ، فالقى القبض عليه فى الطريق على مسافة مائة ميل من المدينة ، واعلن الحكم العرفى فى البلاد فى اليوم التالى

وكانت النتيجة المحتومة ان سالت الدماء وانتشر الاضطراب وراح جنود المهراجا يطلقون النار على الاهلين بغير حساب ، ويأمرونهم بان يسيروا على قدم واحدة هاتفين بحياة المهراجا بهادور ، ويرغموا الشيوخ والاعيان على الزحف على بطونهم والبنادق مسددة الى رؤوسهم .. ويجمعون المحامين والاساتذة بل وموظفى الحكومة ليسخروهم فى ملء الخنادق وكنس الشوارع ...

وقد اذاع البانديت نهرو بيانا للصحف عن حوادث كشمير عقب القبض على الشيخ عبد الله قال فيه :

« ان شريناجار تكاد تكون مدينة للموتى حيث لا حركة ولا حياة ... وقد زج عدة مئات من الناس فى السجون ، واصبحت المصادمات تتكرر يوميا ، ويطلق الرصاص على النساء ... ولكن ماهو شر وأنكى هو المحاولات المقصودة لاذلال آدمية الناس على نحو يعيد الى الاذهان ايام الحكم العرفى فى البنجاب سنة ١٩١٩ »

وفى ٣ يونيه بدأت محاكمة الشيخ عبد الله ، ثم أجلت الى ١١ يونية بناء على طلبه حتى يتصل بالمحامين عنه لاعداد دفاعه ثم اجلت المحاكمة مرة أخرى ، فأرسل البانديت نهرو الى رئيس وزراء كشمير البانديت رام كاك برقية قال فيها :

« علمت من الصحف بمحاكمة الشيخ عبد الله واخرين . أريد ان اتولى اعداد الدفاع عنه . اطلب جميع التسهيلات مع الوقت الكافى لذلك »

فرد عليه رئيس الوزراء بأن زيارته « لن تحدث سوى مضاعفات للموقف » .. فأرسل نهرو يقول : « لايمكن ان يسود السلام كشمير اذا لم يفرج عن الشيخ عبد الله » ..

ولم ينتظر نهرو تصريح السلطات فى كشمير ، بل غادر دلهى الى شريناجار ليتولى الدفاع عن الشيخ عبد الله بنفسه . واذا بحكومة المهراجا تقبض على نهرو فى الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم ٢٠ يونيه سنة ١٩٤٦ ، ولكنها تخشى مغبة ابقائه فى الاعتقال فتبادر الى اعادته للهند . وكان لهذا الحادث دوى شديد داخل كشمير وخارجها . وقبض فى شريناجار وحدها على أكثر من ١٧٠٠ شخص ، وتكررت الاضطرابات والمصادمات .

وفى سبتمبر سنة ١٩٤٦ تمت المحاكمة وحكم على الشيخ عبد الله بالسجن تسع سنوات وغرامة ١٥٠٠ روبية بتهمة التحريض على الثورة .

وفى سنة ١٩٤٧ قصد المهاتما غاندى الى كشمير فى أول زيارة

لها ، وحاول رئيس الوزراء أن يحول بينه وبين الاجتماع بالمهراجا فلم يفلح . وكانت نتيجة الاجتماع أن أعفى رئيس الوزراء من منصبه .

وبعد عودة غاندى الى الهند ادلى بالتصريح التالى فى اغسطس سنة ١٩٤٧ :

« ان الاغلبية العظمى من سكان كشمير مسلمون ، وقد اشعل الشيخ صاحب (تعظيما لشيخ عبد الله) نيران الوطنية فى قلوب الكشميريين ، واهل كشمير يتكلمون لغة واحدة ولهم ثقافة واحدة وهم على ما ارى شعب واحد . وقد كان من العسير على ان افرق لاول وهلة بين الكشميرى الهندوكى والكشميرى المسلم . وقد تعذر على حين قابلت جمعا كبيرا منهم ان اعرف هل كانت أغلبية هذا الجمع من المسلمين او الهندوكيين .

« اننى لا اتردد فى الجهر بان ارادة اهل كشمير هى القانون الاعلى فى كشمير وجامو .

« أما معاهدة أمريتسار فقد كانت فى الحقيقة وثيقة بيع ... اننى — دون حاجة الى الخوض فى دقائق القانون — أحس ان الادراك السليم يحتم أن تكون مشيئة الكشميريين هى الكلمة الفاصلة فى تقرير مصير كشمير وجامو »

* * *

وجاء تقسيم الهند فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٧ ، فاشعل نيران الكراهية الطائفية فى انحاء الهند ، وكان ايذانا بوقوع المذابح المروعة التى ذهب ضحيتها مئات الالوف من المسلمين والهندوكيين والسيخ . واضطر مهراجا كشمير تحت ضغط الحوادث والراى العام الى اصدار امر بالافراج عن الشيخ محمد عبد الله فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٤٧ فكانت لهذا الانتصار الشعبى ضد حكومة كشمير المستبدة رنة فرح ونشوة طرب تجلتا فى مئات المظاهرات التى قامت ، والاجتماعات التى عقدت والقرارات التى اتخذت بالالتفاف حول الشيخ عبد الله وزملائه المجاهدين ضد العبودية والطغيان

وكان على الشيخ محمد عبد الله أن يواجه فى الحال مسألة

المسائل فى ذلك الحين . . . اذ كان على كشمير كاحدى الولايات المستقلة ان تختار بين أوضاع ثلاثة : فاما أن تنضم الى الهند ، واما أن تنضم الى الباكستان ، واما أن تبقى مستقلة بذاتها فلا تنضم الى هذا الجانب أو ذاك وقد تطلع الشعب ، بطبيعة الحال الى زعيمه يستهديه ، ويستلهمه الرأى .

ان اغلبية سكان كشمير من المسلمين ، هذا حق ، وقد يكون أقرب الى المنطق أن يختار هؤلاء السكان الانضمام الى الباكستان الملاصقة لحدودهم كالهند سواء بسواء .

ولكن الحقيقة المرة كانت تصدم هؤلاء المسلمين وعلى رأسهم الشيخ عبد الله وهى ان كشمير مدينة للهند والمؤتمر الوطنى الهندى وزعمائه غاندى ونهرو وأبو الكلام وغيرهم بالفضل فى تأييد الحركة الوطنية فى كشمير ضد المهراجا الهندوكى المستبد ، وقد وقف زعماء الهند الى جانب الشعب الكشميرى نهارا جهارا فى جهاده الشاق . وارتدى نهرو روب) المحاماة الذى كان قد خلعه سنوات طويلة . لكى يتحدى حكومة المهراجا ، ويسافر بنفسه الى كشمير ويتولى الدفاع عن الشيخ عبد الله ، فلما حاولت الحكومة منعه تحداها وسافر فعلا ، فقبض عليه واعيد بالقوة الى الهند .

فهل يستطيع شعب كشمير وزعماؤه ان ينسوا هذا كله ويتجاهلوه فى مثل غمضة العين ، ويقرروا الانفصال النهائى عن الهند ، ويقلبوا لزعمائها ظهر المجن ، ويلقوا بانفسهم فى احضان الباكستان والرابطة الاسلامية « مسلم ليج » لمجرد انهم مسلمون ؟ !

وهل يستطيع شعب كشمير وزعماؤه ان يتخذوا قرارا كهذا رغم موقف العداء الذى اتخذه زعماء الباكستان وفى مقدمتهم المرحوم محمد على جنه ضد الشيخ عبد الله وزملائه ، ورغم وقوفهم بمعزل عن الحركة الوطنية فى كشمير وتنديد المؤتمر الاسلامى فى كشمير بتلك الحركة واتهام اهدافها واصحابها بمختلف التهم ؟ !

لقــد كان الطريق فى الواقــع واضحا امام الشيخ عبد الله لو أراد الاختيار فى الحال ، ولكنه آثر التروى والاعتدال . . فلندعه يتولى بنفسه شرح الموقف :

« انه ليسرنى أن أقول أننــا طوال جهــادنا للوصول الى حق الشعب فى تقرير مصيره ، اثناء حركة «غادر كشمير» وبعدها. كنا نلاقى تأييدا حارا من زعماء المؤتمر الوطنى (الهندى) الذين كانوا يهدفون ايضــا الى تقرير هــذا الحق ؛ ولــكن زعمــــاء الرابطة الاسلامية (مسلم ليج) كانوا على العكس من ذلك راغبين عن تاييد حق شعبنا فى تقرير مصيره وكانــوا يحتجون بــان المشروع البريطانى ، فيما يتعلق بالولايات المستقلة يجعل ارادة الامراء هى الفيصــل فى الموضــوع ، وكانت سياسة الرابطة الاسلامية فى هذا الصدد مسئولة الى حد غير قليل عن استــمرار عبوديتنا ، وقــد حاولت ان استميل زعماء الرابطه الاسلاميه الى وجهة نظرنا وهى تــرك الامــــر لارادة الشعب ، فاوفدت احد زملائى الى لاهور لاقناع زعمــاء الرابطة الاسلامية بعدالة مطلبنا . وقــد قلنا لهم بصراحة انــه فيما يتعلق بقرار الانضمام ، يطلب شــعب ولاية جامو وكشمير حريته فى استخدام حقــه الديموقراطى فى تقرير مصيره . وطلبنــا اليهم ان يمنحونا مهلة لنقرر بانفسنا ما يعود علينــا من المزايا والاضرار باختيار احد الطرق الثلاثة لتى نرى اختيار احدها ، وقلنا لهم انه ليس من الانصاف مطالبتنا بالانضمام الى احــدى الدولتين بينما الــبلاد غارقة فى غمار الاضــطراب الطائفى . وقــدناشــدناهم باسم الحــرية التى تنادى الباكستان بانها تهدف اليها ، ان يؤيدوا مطلبنا فى الحرية »

وقد القى الشيخ عبد الله فى ٥ اكتوبر خطابا عاما فى شريناجــار اعلن فيه انه سيرفع عــلم الثورة ويدعو الشعب للنصر أو القبــر اذا تخطت حكومة المهراجا ارادة الشعب واتخذت قرارا بالانضمام الى الهند أو الباكستان .

ولما أخفقت المحاولة الاولى فى اقناع الباكستان ، عــاد الشيخ

عبد الله فأوفد الرسول مرة أخرى لمباحثة زعماء الباكستان ،
وبينما المباحثات مستمرة ، ومندوب الشيخ عبد الله يجادل
بالحجة والمنطق فى لاهور مع رجال الرابطة الاسلامية ، اذا بقوات من
القبائل تجتاز أرض الباكستان مسلحة أحدث تسليح ومزودة
بكل ما تحتاج اليه من ذخيرة وعتاد وتهاجم مدينتى مظفر اباد ويورى
داخل حدود كشمير ، فى ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٤٧ .

وفى هذا يقول الشيخ محمد عبد الله :

« وقد كان هذا هو رد الباكستان على الجهود التى بذلناها للوصول
الى تفاهم ودى معها »

وكان مهراجا كشمير قد استدعى قبيل هذا الغزو قاضيا
سابقا من البنجاب اسمه مستر ماهاجان ، وأسند اليه رياسة
الوزارة . فألفها على مسئوليته وحده بعد أن رفض الشيخ عبد
الله كل تعاون معه فى الحكم لانه غريب على كشمير وشعب كشمير
ولم يكد ماهاجان يتولى مقاليد الوزارة حتى صرح فى اول مؤتمر صحفى
له ، بأن كشمير لم تنضج بعد للحكم الشعبى ، وأنه لن يسمح
بقيامه قط فى كشمير ، وان مهمة اعداد أهل كشمير لهذا النوع
من الحكم تحتاج الى وقت طويل ... فلما هاجمت القبائل حدود
كشمير على النحو الذى ذكرناه ، أعلن ماهاجان أن جيوش دوجرا
(أسرة المهراجا) قادرة على رد العدو على أعقابه وسحقه فى خلال
أسبوع ! !

ولكن الذى حدث كان شيئا آخر يختلف عن هذا الكلام
الاجوف . ففى خلال أيام كان اقليم مظفر اباد قد وقع كله فى
أيدى الغزاة كما وقعت فى ايديهم مدينة جارى ثم برامولا ، وأصبح
العدو على أبواب العاصمة الصيفية شريناجار . .

وهنا تطورت الحوادث على نحو لم يسبق له مثيل . . فقد
هرب المهراجا بجلده ومعه رئيس وزرائه ، وترك العاصمة الشمالية
منحدرا الى العاصمة الثانية جامو طلبا للسلامة ، تاركين شريناجار
تواجه مصيرها المنتظر بلا حكومة ولا ادارة ولا جيش ولا نظام !

وفى هذه اللحظة ثبت الشيخ محمد عبدالله وزملاؤه ، وراحوا يلهبون حماس أهل المدينة لانقاذ كرامتهم واستقلالهم من الغزاة وعهدوا بمهمة الدفاع عن المدينة الى فرق منظمة من المتطوعين رجالا ونساء . تحت راية المؤتمر الوطنى . وتحت اشراف الشيخ **عبد الله نفسه**

واستنجد زعيم كشمير المناضل بصديقه ومواطنه زعيم **الهند ورئيس وزرائها نهرو ، فجاءت النجدة** العاجلة فى صورة طائرات حربية ضخمة تحمل الرجال والذخيرة الى الميدان على أبواب كشمير فى ٢٧ اكتوبر ، اى بعد خمسة ايام من بدء الغزو المفاجىء .. وانتشر الهرج فى غمرة هذه الحوادث الجسيمة الى ان يعهد برياسة الادارة المؤقتة فى البلاد الى الشيخ عبد الله ، وأقسم الزعيم اليمين القانونية فى ٣٠ اكتوبر . ولم يلبث أن ألقى خطابا فى المواطنين قال فيه :

« عليكم من الان فصاعدا أن تجعلوا ولاءكم للشعب لا لشخص ما .. ولكن من يخون الشعب سيكون جزاؤه الطرد .. إن جموع القبائل المغيرة لا تستطيع ارغامنا على الانضمام الى الباكستان ... فنحن نريد أن نكون أحرارا ، وسنكون أحرارا »!

ولم يلبث الغزاة أن ردوا على اعقابهم ، بفضل متطوعى المؤتمر المجاهدين ونجدة الجيش الهندى وسلاح الطيران الهندى .

وفى ١١ نوفمبر وصل البانديت نهرو الى شريناجار ، وهناك ألقى خطابا فى الجماهير الحاشدة الهاتفة بحياة (شيري كشمير) أى (أسد كشمير) الشيخ عبدالله ، وحياة الزائر الكريم ، قال فيه :

« انكم يا أهل كشمير قد ألقيتم درسا نموذجيا على شعب الهند .... فقد بين (شيري كشمير) لسائر انحاء الهند وللعالم اجمع كيف تتحقق الحرية والوحدة الطائفية »

وقد حدث على اثر فرار المهراجا من شريناجار ان ارسل هو من ناحيته والشيخ عبدالله من ناحية اخرى برقيات الى حكومة الهند

تتضمن اعلان انضمام كشمير الى الاتحاد الهندى ، ومطالبة الهند بارسال نجدات طبقا لهذا القرار .

ولكن حكومة الهند قررت ان تلبى دعى النجدة بلا تردد ولا امهال . اما قرار الانضمام فقد اعتبرته قرارا مبدئيا تقبله عن طيب خاطر . على شرط ان يقره شعب كشمير فيما بعد ، حين يرتد العدو ، وتستقر الاحوال .

وبادرت الهند فى الوقت نفسه الى تقديم شكوى ضد الباكستان متهمة اياها بتحريض القبائل ومساعدتها فى العدوان على كشمير

وسافر الشيخ محمد عبدالله الى هيئة الامم حيث القى خطابا مستفيضا امام مجلس الامن جاء فيه :

« اعتقد ان مجلس الامن يوافق على اننى ربما كنت الشخص الوحيد الذى يعنيه الخلاف الحالى اكثر من اى شخص سواه ، لاننى حضرت اليكم من البلد الذى اصبح موضع النزاع بين الدولتين الشقيقتين الهند وباكستان .

« لقد افاض كلا الطرفين فى اقتباس اقوالى وتصريحاتى ، ولهما فى ذلك كل الحق ، فقد كان من حسن حظى - ام الاخلق بى ان اقول من سوء حظى - ان اقود أبناء وطنى فى جهادهم للحرية منذ سنة ١٩٣١ . وقد عانيت فى سبيل ذلك الشىء الكثير ، والقى بى فى السجن لا مرة ولا مرتين بل سبع مرات ، كانت الاخيرة منها بمقتضى حكم يقضى بحبسى تسع سنوات »

واستطرد الشيخ عبد الله فشرح الظروف التى افرج عنه فيها ، هو وانصاره ، تحت ضغط الحوادث التى اطلقت الاقلية فى كشمير بوجه خاص ، ثم ذكر كيف رأى ضرورة حصول الشعب على حريته قبل اختيار الانضمام الى الهند او الباكستان ، وكيف قبلت الهند ذلك ورفضته الباكستان .

ثم قال :

« يقولون ان الشيخ عبد الله صديق الباندیت نهرو . نعم ، انى اقرر ذلك . وانى لاحس بالفخر لان رجلا عظيما كهذا ينشد صداقتى . ثم انه من ابناء وطنى . فهو كشميرى

المنبت . والدم كما يقولون أكثف من الماء ، فاذا كان جواهر لال يضفى على هذا الشرف فلا يسعنى أن أرفضه . انه صديقى .

« ولكن هذا لا يعنى اننى بسبب هذه الصداقة يمكن أن أخون الملايين من أبناء وطنى الذين شاطرونى الالم طوال السنوات السبع عشرة الماضية ، وان اضحى بمصالح وطنى . كلا . فلست من هذا الطراز من الرجال ... » .

ومضى الشيخ عبدالله فأوضح وجهة نظره بضرورة اجراء استفتاء للشعب بعد ان يظفر بحريته . وفند النظرية القائلة بتنحيته هو عن الحكم مادام قد ابدى هذا الرأى فقال :

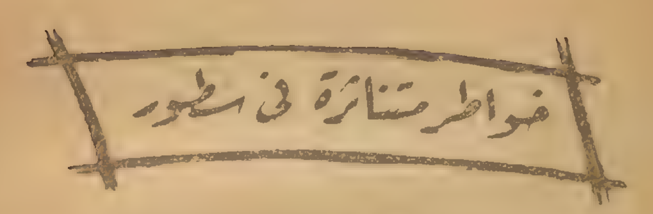
« لقد سبق أن بينت لاعضاء هذا المجلس (مجلس الامن) أن الشيخ عبدالله يتولى منصبه الحالى لان الشعب يريد ذلك . وما دامت هذه ارادة الشعب فاننى سأظل فى مكانى ، ولا توجد قوة فى الارض تستطيع أن تنحينى عنه طالما كان الشعب من ورائى . أما اذا نزع الشعب ثقته منى فلن ابقى فى منصبى »

وكان الطلب الوحيد الذى طلبته الهند هو ايفاد لجنة تحقيق دولية لترى بنفسها كيف انتهكت حدود كشمير وتقدر مسئولية الباكستان عما حدث .

وقد أصدر مجلس الامن بالفعل قرارا بتأليف هذه اللجنة وعين لرياستها الاميرال نيمتز القائد البحرى السابق للاسطول الامريكى . ثم تدخل الرئيس ترومان ومستر اتلى فى أواخر شهر اغسطس سنة ١٩٤٩ وناشد كلا من الهند والباكستان أن يعتبرا مهمة اللجنة غير قاصرة على التحقيق . بل تصبح أيضا لجنة توفيق ووساطة لحل الخلاف القائم حول مصير كشمير ولكن الهند رفضت هذا الاتجاه . .

أما الشيخ عبد الله فقد رد على ذلك بتوكيد انضمام كشمير الى الهند

وقد مر الشيخ عبد الله بمصر فى ٩ ديسمبر الماضى ، فى طريقه الى امريكا لحضور المناقشة فى قضية كشمير امام هيئة الامم



☼ استغرقت رحلتنا الاولى بالبحر الى بمباى فى سنة ١٩٣٩ ، ٩ أيام . بينما استغرقت رحلتنا الثانية من القاهرة الى بمباى راسا بالطائرة ٩ ساعات ...

☼ سافرت فى المرة الاولى على احدى بواخر شركة (بى اند او) وهى انجليزية .. وسافرت فى المرة الثانية على احدى طائرات شركة (اير انديا انترناشنال) وهى هندية .. يملكها المليونير الهندى المعروف تاتا ، وهو يملك عدة شركة الطيران المذكوره . اكبر مصانع النسيج . واكبر مصانع الصلب ، واكبر مصانع الصابون والعطور . وهو يقوم الان بمشروعات ضخمة لصنع القطارات وجميع أجزاء الطائرات فى الهند . وهو من طائفة البارسى ، عبدة النار . كما يعد من أكبر المحسنين فى الهند . وقد انشأ على حسابه الخاص معهدا للابحاث العلمية ينفق عليه بسخاء . ويستخدم فيه طائفة من اكبر علماء الهند .

☼ كانت رحلتى الاولى سياسية ؛ كعضو وسكرتير لبعثة الوفد الى المؤتمر الوطنى فى الهند ، وكان يرأس البعثة المرحوم بسيونى بك واعضاؤها هم الاساتذة محمود ابو الفتح واحمد حمزة وكاتب هذه السطور .

وكانت الرحلة الثانية صحفية ضمن بعثة مؤلفة من الاساتذة الزملاء : احمد ابو الفتح رئيس تحرير المصرى ، واحسان عبد القدوس رئيس تحرير روزاليوسف ، وصلاح عبد الجيد عن مجلة النداء ، وزكريا الشربينى عن جريدة الاهرام

وعبد الحميد الحديدى عن الاذاعة المصرية ، وكاتب هذه السطور عن اخبار اليوم واخرساعة ..

* كان يمثل مصر فى الهند سنة ١٩٣٩ قنصل فى بمباى هو الاستاذ صادق أبو خضره وهو موظف بوزارة الخارجية الآن بينما كان يمثلها فى زيارتنا الاخيرة سفير هو سعادة الاستاذ اسماعيل كامل بك يعاونه نخبة من شباب السلك السياسى اللامعين أذكر منهم الاساتذة : سميكه بك مستشار السفارة وصلاح الدين العبد الملحق التجارى وعزيز شكرى الملحق السياسى . كما يمثل مصر فى بمباى قنصل شاب هو الاستاذ مصطفى السعدنى . وقد لمسنا تقديرا صادقا ومحبة عميقة لهم فى نفوس الهنود على اختلاف طبقاتهم .

* توثقت عرى الصداقة بين السفير المصرى اسماعيل كامل بك وبين رئيس حكومة الهند وزعيمها البانديت نهرو واسرته . وقد أخبرتنى السيدة كريشناهايتسنج شقيقة نهرو أنها كانت سعيدة كل السعادة عندما كلفها سفيرنا بأن تقوم بدور (المضيفة) فى احدى حفلات السفارة المصرية التى دعى اليها أكبر الشخصيات الهندية ورجال السلك السياسى الاجنبى ، وكانت تتأبط ذراع السفير المصرى كما لو كانت السيدة الاولى فى السفارة . نظرا لان السفير وجميع رجال المفوضية عزاب ... وهى ظاهرة لفت نظرنا اليها عدد من كبار الشخصيات الهندية من قبيل المصادفات الطريفة ...

* صادف وجود البعثة الصحفية فى الهند ، وجود بعثة انجليزية من رجال الصحافة . على راسها اللورد ليتون وبين أعضائها مستر تشانسلور مدير شركة روتر ومستر كول المحرر بها . وذلك بمناسبة تحويل فرع شركة روتر فى الهند الى شركة هندية اسندت رياسة مجلس ادارتها الى مستر ديفداس غاندى ، النجل الاكبر للمهاتما غاندى وهو رئيس تحرير جريدة هندستان تيمس . وقد أصبح ديفداس من اغنى



الصحفيون المصريون فى زيارتهم لبعض مدارس الهنـــد

الصحفيين الهنود وهى مفارقة كبرى بين طبيعة الولد والوالد وقد كان لغندى ولد اصغر ادعى اعتناق الاسلام نكاية فى والده ثم ارتد . وقد قال عنه والده كلمته المشهورة : « لو كان صادقاً فى اسلامه لكنت أول المصفقين له . ولكنه منافق لا يزيد الاسلام شيئاً ولا ينقص الهندوكيين شيئاً » !! وقد مات اثناء الحرب الاخيرة .

* دعيت لترتيل القرآن فى الهند اثناء زيارتنا الصحفية مرتين مرة فى صلاة غندى كجزء من الصلاة المسائية . ومرة فى كشمير أمام الشيخ محمد عبد الله رئيس الوزراء وعدد من الوزراء وسمعت تلاوة رائعة لسورة الفاتحة وسورة التوحيد من أحد الهندوكيين فى الوردة حيث بدأ غندى حركته الاصلاحية الكبرى والخمسة والعشرون سنة التى حررها قلب الهند . اى المعركة التى انتهت باستقلالها ..

وفى دار المؤتمر بهذه القرية الهندية اتخذ المؤتمر الوطنى أخطر قراراته . وبها غندى صومعته الريفية سنين . فوفد اليه مندوبو الصحف الامريكية والاوروبية والهندية . رغم حرها اللافح وقلة وسائل الراحة فيها . وقد قضينا بهذه الدار ليلتين . وكان من نصيبى الغرفة التى اعتاد نهرو ومولانا ابو الكلام أن يناما فيها اثناء تلك الاوقات العصيبة .

* يعتبر الرقص الهندى نوعاً من العبادة والقصص التمثيلى ، ويمارسه الراقصون والراقصات حفاة الاقدام . ويعنون عناية خاصة بحركات اليدين والعنق . ومع ذلك فقد كان هذا الرقص الى عهد قريب وقفاً على طبقة الغوانى . ثم بدأت حديثاً حركة للارتفاع به عن هذا المستوى ، تتزعمها رئيسة الجمعية الثيوصوفية التى خلفت مؤسستها الانجليزية المشهورة أنى بيزانت . وقد شهدنا مشاهد راقصة فى حفلة جمعت بيننا وبين بعثة روتر فى مدراس ، كما شاهدنا بعضها على مسرح بالمدينة .

* والافلام السينمائية الهندية شديدة الشبه بالافلام المصرية ، ولا سيما من ناحيــة اعتمادها على العنصر الغنائى ، والاقتباس من الافــلام الامريكيــة ، وتحتل الفنانات المسمات مكانة ممتازة فى دنيـا السينما ، ومن اشهرهن ثرياوريحانة ، وسلطانة وجلنار ، وهى من الوجوه الجديدة ، وهناك ايضا عدد من الكواكب المسلمين ومخرجى الافلام ومؤلفى الاغانى ، تملأ اسماؤهم علانات الحوانيت والصحف فى كل مكان . مما يدل على ان الفن فى الهند قد نجا من شرور التعصب الطائفى .

* لعل رئيس وزراء كشمير شيخ (محمد عبد الله) او (شيخ صاحب) كما ينادونه هو اول رئيس وزراء فى العالم يفتتح خطبه أمام عشرات الالوف من الجماهير بتلاوة آيات من الذكر الحكيم بطريقة التجويد . وهو يختار على الدوام آيات الحماسة والقتال . وهـو حائز لدرجة بكالوريوس فى العلوم من جامعة عليكره الاسلامية ، وقد قضى نحو عشرة اعـوام من حياته فى السجن بسبب نشاطه السياسى . وحكم عليه اخر مرة بالسجن تسع سنوات لم يكد يقضى منها عاما او نحـوه حتى حدث غزو كشمير واضـطر مهراجا كشمير تحت ضغط الحـوادث وتحت ضغط الزعيم غاندى الى اطلاق سراح الشيخ عبـد الله وترك مقاليد الوزارة بين يديه .

ويدرك القارئ من هذه الوقائع كثيرا من أوجه الشبه بينـه وبين صاحب المعالى مكرم عبيد باشا . الذى خرج من السجن الى الوزارة فى عام ١٩٤٤ والذى يجيد القرآن ويستشهد به فى المناسبات كما أن كلا الرجلين خطيب شعبى من الطراز الاول . وهم يطلقون على الشيخ عبد الله (وهو لايرتدى العمامة كما قد يتبادر الى الاذهان) لقب (شيرى كشمير) اى (اسد كشمير)

* كان يجلس الى جانبى فى الطائرة عند سفرنا من جامو (عاصمة كشمير الشتوية) الى شرينا جار (العاصمة الصيفية) صبى انيق فى العاشرة من عمره بالملابس الافرنجيه . وقد سألته ما اسمك ؟ فاجاب

— شيخ فاروق محمد عبدالله ..

وهو نجل رئيس الوزراء . وله نجل اخر اسمه طارق .
وكلاهما يتمنى ان يتم تعليمه فى مصر .

* ليس من المبالغة فى شيء ان يقارن المرء بين كشمير وسويسرا
ومن عجب ما يشاهده الزائر هناك جزائر صغيرة مستطيلة
منجورة فى وسط البحيرات . يسمونها « الجزائر العائمة » ؛
وهى عائمة فعلا رغم انها مزروعة وكثيرا ما حدث ان عمد اللصوص
الى دق الاوتاد فى الجزر وسحبها الى مكان اخر اثناء الليل .. بما
عليها من محصول .

* قابلنا نظام حيدر اباد فى قصره بناء على موعد حصل عليه
الجنرال تشودرى حاكم حيدر اباد العسكرى . وهو شاب فى
الاربعين من عمره . ويعتبر أصغر جنرال فى الجيش الهندى
وقد خاض معركة العلمين . وروى لى كيف أعلن راديو لندن
قبيل المعركة ان القوات البريطانية مصطفة على اهبة الاستعداد
للهجوم . فرق له أحد ضباط جنوب أفريقيا مندهشا لان القوات
التى اصطفت للهجوم كانت من جنود نيوزيلندا واستراليا والهند
وجنوب افريقيا ، ولم يكن بينها جندى انجليزى واحد !!

* اخطأ بعض الزملاء شخصية نظام حيدر اباد حينما نزلنا من
السيارة الى درج السلاملك الداخلى مباشرة فوجدناه واقفا
على السلم يستقبلنا الى جانبه الجنرال تشودرى الذى كان على
رأس الجيش الهندى الذى هزم قوات النظام . وقد استبعد
الزملاء ان يكون الواقف هو النظام نفسه ، نظرا لقلة هندامه وقدم
طربوشه وخلو يديه وملابسه من اية زينة

* قدمت للنظام مصحفا صغيرا وقدم له زميلى الاستاذ احمد
ابو الفتح مصحفا آخر هدية منا . فتقبلهما باسما راضيا ،
ثم قال لاحد الخدم شيئا باللغة الاوردية ، فحسبناه يطلب قهوة
أو شرابا لتحيتنا ... ثم تبين انه طلب ادارة المروحة التى فى
السقف ، وانصرفنا بعد المقابلة دون ان يقدم لنا شيء على
الاطلاق !

ومما يذكر ان نظام حيدر ابادلا يستقبل أحدا من أهل البلاد دون ان يقدم الى سموه قطعة ذهبية يسمونها أشرفية ، وهى تعادل نحو عشرة جنيهات

* لمصر فى نفوس الهنود وفى مخيلتهم صورة ساحرة . وهم يتحدثون عن عظمتها وآثارها وجمالها وتاريخها بحماسة مؤثرة ويتمنون زيارتها ضمن احلام العمر . وان معلوماتهم عن مصر الحديثة ومشاكلها تافهة الى اقصى حد .

ومع ذلك فان مندوب وزارة الاستعلامات الذى عهد اليه بمرافقتنا فى بمباى كان يقارن [illegible] بين بعض انحاء المدينة وبين القاهرة . ويقول هذا الشارع يشبه شارع [illegible] بالقاهرة . وهذا [illegible] شارع فؤاد الاول ... فلما سألناه هل سبق له زيارة مصر ؟ قال انه لم يرها قط . ولكنه [illegible] من هواة جمع الصور والمعلومات عنها [illegible] شوارعها واحيائها عن ظهر قلب !!

* المجلات المصرية [illegible] تقريبا [illegible] على [illegible] العربية التى تكاد تكون معدومة الاثر فى الهند . وقد [illegible] عند [illegible] فى مطار بمباى مجلة اسمها « الهند والعرب » محشوة بصنوف الدعاية الصهيونية والتشهير بمصر وسائر البلاد العربية . وهناك جريدة يومية من أكبر صحف الهند التى تصدر بالانجليزية اسمها « ستيتسمان » تملكها يهودية غنية اسمها ليدى ساسون . كما ان الصحف الهندية على اختلافها بالانجليزية وغيرها لا تنقطع يوما واحدا عن نشر الصور والمقالات حول مختلف نواحى النشاط الاجتماعى والسياسى والرياضى فى اسرائيل !!

* لم نجد لدى السفارة المصرية فى دلهى ولا عند القنصلية المصرية فى بمباى ، شيئا يذكر او لا يذكر من النشرات والكتب والصور الخاصة بمصر [illegible] ... ودهشت من ذلك

ان الصحف المصرية نفسها لا تصل بانتظام ، ولا فى موعد مناسب ، وهى تعتبر المصدر الرئيسى لاخبار مصر عند ممثلى مصر !

* تخلصت الهند فى هذا العام من جميع المهراجات ، لضم ولاياتهم الى الاتحاد الهندى ، وتنصيب بعضهم حكاما دستوريين على مجموعات متحدة من تلك الولايات

وقد دبرت حكومة الهند بعض الاعمال فى السلك السياسى وغيره للفقراء من أولئك الحكام القدماء الذين كانوا يعتمدون فيما مضى على اعانات من الحكومة البريطانية

* يرى كثيرون من المسلمين الذين فى الهند ، وعددهم نحو ٤٢ مليونا ، ان من مصلحتهم ان ينتهى النزاع القائم حول كشمير بانضمامها الى الهند ، تخفيفا لحدة النظرة الطائفية ، ودحضا لنظرية الشعبين الهندوكى والمسلم ، وهى النظرية التى تثير كراهية الهندوكيين ضد ملايين المسلمين فى الهند !

وتأييدا لهذه الفكرة يذهب كثيرون من كبار المسلمين فى حيدر اباد الى ان من الواجب ان يلتحق اكبر عدد من المسلمين بفروع حزب المؤتمر الهندى باعتبارهم وطنيين لا طائفيين

* كان يرافقنا فى رحلتنا الاخيرة السيد محمد يونس وهو شاب وطنى متحمس من حاشية الბانديت نهرو الذين يؤثرهم بثقته ومحبته . وكان ممثلا للهند فى اندونيسيا ، وله صلات شخصية وثيقة بزعماء اندونيسيا وقد اقبل يصافحنى ويعانقنى فى شوق عند وصولنا بالطائرة الى دلهى ، فتذكرت على الفور انه كان يرافقنا فى رحلتنا الاولى الى بشاور قبل عشر سنوات . وكان يومئذ مرافقا للزعيم الكبير عبد الغفار خان الذى هو الآن سجين مع نجله الدكتور غنى فى الباكستان ! !

وقد عين السيد يونس أخيرا سكرتيرا أول وقائما بأعمال السفارة الهندية فى أنقرة . وقدم بمصر منذ بضعة أسابيع فى طريقه الى مقر منصبه .

دروس الوطنية الهندية

للأستاذ محمود أبو الفتح صاحب المصري

على أثر عودتنا من الهند بعد رحلتنا الاولى ، كتب صديقى وزميلى الكبير محمود بك أبو الفتح هذه الفصول القيمة الممتعه . . وقد استأذنته فى ضمها لهذا الكتاب . فتفضل بالموافقة مشكورا منى ، ومن جميع القراء الذين سيقدرون ما بذل فيها من جهد فى البحث الدقيق ، بأسلوبه الممتاز الرشيق .

احمد قاسم جودة



رجل ضعيف يهز امبراطورية – [illegible] رجال الهند – غرفة
نومه في دار [illegible] – وجوه الرجال تضيء – المعتقلون
[illegible] – من طائفة [illegible] – ثورته على [illegible] الهندوس –
زوجته [illegible] – بين ذراعي [illegible] – في جامعات لندن –
[illegible] – [illegible] – [illegible] أن
[illegible] – [illegible]
[illegible] – [illegible] – [illegible]
[illegible] – [illegible] – [illegible] – [illegible]
[illegible]

[illegible] الرجل [illegible] الذي [illegible] الدولة [illegible] التاريخ منذ [illegible]

[illegible] فرعـد [illegible] رحلته، [illegible] ولو كره [illegible] من سلطة [illegible] بعـد ثارة [illegible]!

هذا [illegible] حديقة [illegible] التي نزل بها في « دلهي » [illegible] نفر من الزعيم وأتباعه، ما كدنا ندخل عليه حتى [illegible] إليه جواهر لال نهرو فصافحنا وهز يدنا في حرارة، ورحب بنا في غبطة، وأخذ يتحدث إلينا يسألنا عن زعيمنا، عن بلادنا، وعن رحلتنا، ويملي علينا الرسالة القيمة التي بعثنا بها إلى « المصري » في حينها،

يتخلل كل هذا ابتسامة جذابة تضيء وجهه أو نكتة ظريفة تزيده قربا الى قلوب من يقابلونه

* * *

أقبح رجال الهند ، وأضعفهم ، وأهزلهم ، متوسط القامة ، ولكن هزاله المتناهى يجعله يبدو صغيرا ؛ تقوس ظهره ، هزيل الذراعين ، هزيل الساقين ، شاب شعر رأسه الضخم ، فوق تقاطيع نابية ، فم واسع تجرد من الاسنان ، واذنان كبيرتان ، وانف ضخم ، وعينان صغيرتان ، لكنهما براقتان قل ان ينظر اليهما انسان وينساهما ، ومنهما تبين الالام والهموم والمشاغل التى تحملها هاتان الكتفان الهزيلتان . الام الانسانية بأسرها

* * *

لقد مررنا فى طريقنا ببيته البالغ فقره الذى ينام فيها ، فلقينا فراشه ، قطعة من قماش قطنى ابيض مفروشة على الارض ، لا سرير ولا ارائك . وفى جانب من الغرفة كومة صغيرة من البرتقال الذى يتغذى بعصره .

ومع هذا فالدار التى بها غرفته منخفضة بدون [illegible] الكبير ودعا غاندى الى النزول فيه عندما [illegible] من قصر نائب الملك ، ولكن غاندى قد قدم الى " دلهى الجديدة " بدعوة من نائب الملك على اثر صيامه ، وكان لا يزال ضعيف الصحة لا يستطيع التنقل الطويل . اما عادته فقد جرت على ان ينزل فى كوخ صغير . فى حى فقير . فى دلهى القديمة

وعاريا كما ذكرت الا من قطعة من نسيج [illegible] ناب ملك بريطانيا وامبراطور الهند المرة بعد المرة . عاريا على هذا النحو استقبلته الدولة البريطانية فى عاصمتها وجلس جنبا الى جنب مع كبير وزرائها ونائبه فى [illegible] المستديرة . يباحث ممثلى حكومتها فى شئون الهند

من هو هذا الرجل ؟ ؟

ما سر سلطانه على نحو اربعمائة مليون نفس فى حين انه ارتضى الفقر ، وليس له من الحكم ما يجعله يعطى ويمنع !!

ما سر قوته التى ارهبت اقوى الدول واشدها باسا ؟؟

من هو هـذا الرجـل الذى لم تبجل الهند وتدن لرجل مثله منذ عهد بوذا حتى الان ؟

من هو هذا الرجل الذى كتب عنه الدكتـــور شروود ادى الامريكى يقول :

« ذهبت لاودع غاندى فوجدته فى سرادقه الخاص وسرنا سويا ولـكننى لم البث ان وجـــدت جموع الناس تلتف حوله وتزدحم رايت وجوه الرجال تضىء بحب لم ار مثـله من قبـــل ، رايت النساء برفعن اطفالهن حتى يروه .. رايت رجالا مثقفين يغمضون عيونهم ويصلون ، ورايت بعضهم يتبركون بلمس ثـوبه او تقبيل قدمه . رايته يسير هادئا ساكنا مثل بوذا ؛ على هذا الوجه الهرم رايت نورا لم يشرق مثـله على بحر او ارض ، رايت رجلا يعيش فى الله »

من هو غاندى ؟؟

ولد سـنة ١٨٦٩ : فى قرية « بوربانـــدر » من مقاطعـة ، جوجيرات ، وســمى موهانداس كارامشاند غاندى ، واسرته من طائفه « جاين » المعروفة بالنهى عن ايذاء كل حى ، ولعل هذا من اسباب اعتناقه مبدا عدم العنف ، الذى اصبح بفضـله عقيدة الهنود السياسية

دخل مدرسـة القرية فامتاز على اقرانه حتى انه حدث ان ثار على آلهه الهندوس واعلن ثورته اذ اكل اللحم خلافا لاوامر دينهم ولكن اللحم لم يلائم صحته فاقلع عنه .

تزوج فى الثانية عشرة من عمره من « كاستوربياى » التى اخلصت له العهـد فى سرائه وضرائه فى ثرائه وفقره فى حريته وسجنه ، حتى فى اعراضـه عن الاختلاط الجنسى ، فان غاندى مثـــل تولستوى ، الذى عرفه واحبه وراسله ، يرى قصر الاختلاط الجنسى على مجرد الانتاج ومع هذا فقد كان فى شـبابه زير نساء ، حتى ان نبأ وفاة ابيـه فاجأه وهو بين ذراعى امـرأة

ولكنه عاد الى نظرية « براهما تشرب » الهندية القائلة بالابتعاد
عن الشهوة الجنسية . واقنع زوجته بان يعيشا كأخوين وهو
يروى « انه منذ ذلك الحين امتنع كل خلاف » وقد عرفنا
[illegible]

[illegible]

[illegible]

الى مقابلة الشر بالخير وتجنب العنف حتى مع العدو اسمى معانى الانسانية .

غاندى والاسلام

وكان الاسلام من اكبر العوامل اثرا فى حياة غاندى ، وكان أول ما اتصل بالمسلمين فى جنوب افريقيا حيث قضى عشرين عاما ، وكان كثيرون من اصدقائه وزملائه وانصاره منهم فسهل له هذا دراسة القرآن الكريم وحياة نبينا محمد عليه افضل الصلاة والسلام ، وحياة خلفائه الراشدين وقادة المسلمين .
ويروى صديقه المرحوم الدكتور سيد حسين الكاتب الهندى المعروف انه قال له مرة انه شديد الاعجاب بخلق سيدنا على رضى الله عنه ، وروى صديقه اندروز انه يعجب برجولة المسلمين وشهامتهم وصدقهم .

على انه رغم دراسته للديانتين الاسلامية والمسيحية ظل هندوكيا فى عقيدته وطبيعته وفلسفته وهو فى هذا يقول . « ان دينى يعطينى كل مايلزم لتهذيب نفسى فهو يعلمنى الصلاة ، ولكنى اصلى وادعو الله لكل انسان ان يصبح المثل الاسمى فى دينه ، ان يزداد المسلم تمسكا بتعاليم الاسلام فانى واثق بان الله سيحاسبنا فى يوم من الايام عما نحن عليه وعما نعمل لا عن الاسم الذى اطلقناه على كياننا وعملنا »

ومن اقواله « ان الهنا جميعا واحد سواء وصلنا الى ادراك وجوده عن طريق الانجيل او القرآن او الجيتا او التلمود وهو اله الحب والحق .

ولكنه رغم تدينه يضحك من لقب « المهاتما » الذى يلقبه به شعبه ويقول انه يرجو ان يقنع سجنه مواطنيه بانه مجرد بشر ليست له قدرات خارقة للطبيعة . ولكن غيره ممن جاءوا فى الهند قبله واصبحوا فى عداد الهتهاكانوا يقولون مثل قوله ، ومن يدرى بعد مئات السنين ان لا تقام نصب الالوهية واصنامها لغاندى ؟؟ بل لقد رأينا فى اكواخ الفلاحين ، بل وفى الحوانيت والمعارض صورا لغاندى على شكل شرى كريشنا ، الذى يؤلهونه .



أراد غاندى أن يصير (جنتلمان) فتعلم اللغة امفرنسية والرقص

ولعل من اكبر اسباب اعتماد غاندى على الدين فى حركته الوطنية انه الاداة الوحيدة لتحريك همة قتلتها الاستعباد والظلم والذل طوال ألفى عام، كل نزعة وطنية وكل شعور بالقومية وكل كرامة أهلية او شخصية .

وقد كان دائما من انصار التفاهم بين المسلمين والهندوس، فعاون المسلمين ابان حركة الخلافة [illegible] وانضموا الى حركته [illegible] الوطنى [illegible] وقعت الخلافات بين المسلمين والهندوس [illegible] الى دار صديقه [illegible] فى الخامس حيث [illegible] اليوم السادس والعشرين [illegible] واتخذوا قرار بالاجماع [illegible] الوسائل المؤدية الى ازالة اسباب العنف .

فى جنوب أفريقيا

نعود الى تتبع حياة غاندى ففى كل مرحلة درس —

رجع غاندى من دراسته فى لندن سنة ١٨٩١ واستقر فى بومباى [illegible] بالمحاماة ولكنه كان مثال الامانة والصدق، فقد كان [illegible] يحتم التخلى عن قضيته اذا تبين له خلال الدعوى ان موكله على غير حق

كم [illegible] العالم [illegible] فى سنة ١٨٩٣ دعى لقضية فى جنوب افريقيا [illegible] حتى تجاوز ايراده السنوى اربعة آلاف جنيه [illegible] الشباب .

ولكنه وجد فى جنوب افريقيا جالية هندية كبيرة سامتها السلطات هناك اسوأ انواع الخسف والارهاق والاضطهاد، فطلبت الى غاندى ان يتولى الدفاع عن حقوقها مقابل اجر

كبير، فقبل الطلب ورفض الاجر، وترك حياة الترهة وكرس وقته وجهده عشرين عاما للمظلومين في افريقيا من قومه .

ولما وقعت حرب البوير ظن ان الاحسان يستتبع الاحسان فأنشأ وحدة للصليب الاحمر مؤلفة من الف هندى لمساعدة جرحى الجيش الانجليزى . ولكن جزاءه بعد ذلك كان نقض الوعود والسجن المرة بعد المرة ولكن الحكومة انتهت فى سنة ١٩١٣ بازالة كثير من المظالم الواقعة على بنى قومه .

تعاليم وخطط

ثلاث كلمات اذاعها غاندى بين الهنود هى اسس الحركة الوطنية فى العشرين عاما الماضية وهى :

١ ـ ساتياجراها

٢ ـ احمسا

٣ ـ خدار

والاولى معناها « البحث عن الحقيقة » ويقصد بها مقاومة الشر مقاومة سلبية . والثانية معناها : بدون عنف . والثالثة تطلق على القماش الرخيص من القطن المغزول والمنسوج فى الدور (لا فى المصانع) وبالايدى لا بالالات .

وسنشرح للقراء فى مقالنا التالى نظريات غاندى المتقدمة وما اصابها من فشل وما ادركته من نجاح واثرها فى قضية الهند الوطنية .





عودة غاندى الى الهند – الاشرم الاول – نصيحة جوخال حركة الخدار – يجب أن نعود الى بساطتنا القديمة – هياكل عظمية – موسيقى النول – صراع بين النول ولانكشير – عشرات الملايين يستخدمون الانوال – الوزراء والكبراء والاغنياء يلبسون الخدار – المومسات والمسجونون – احياء الملايين – يرد على الفقراء كرامتهم – مضاعفة أجور العمال – المقاومة السلبية – الماديات والمعنويات – ما يملكه غاندى   غاندى وزوجته يربيان روتوما – شعار العوز – ساتيا جراها المقاومة المعنوية – كيف نجحت وكيف فشلت ؟ – وقف السخرة – الضرائب الظالمة – امرأة غني.   فشله فى الحركات السياسية – فاجعة امريتسار – البرنس اوف وايلس فى الهند – الهنود يهجرون مدنهم – قتل مستقبليه واحراق دورهم – كلكتا مدينة الاموات – احراق العساكر

نجاح الحركة

كان فى الهند زعيم وطنى كبير هو جوخال . وكان غاندى عند عودته من جنوب أفريقيا يطلب نفسه بالعمل تحت رياسته ولكنه لم يلبث الا قليلا حتى فجع فيه . فقد مات فى فبراير سنة ١٩١٥ .

وكان جوخال يشعر بالهمة الروحية والعزيمة الجبارة التى يختزنها جسم غاندى الضئيل فأخذ عليه عهدا ان لا يأتى عملا سياسيا خلال عامه الاول فى الهند ، بل يقضيه فى سكون يرقب سير الامور ، ويتفهم الحوادث ، وله بعد ذلك أن يختط الخطة التى يشاؤها .

وقد حفظ غاندى العهد واعتكف مدة انشأ خلالها مدرسة على مقربة من مدينة « احمداباد » يعلم فيها تلاميذه تعاليمه ومبادئه. واسم مدرسته « اشرم » ومعناها. مكان النظام او التأديب

ومن مدرسته يتخرج مدرسون ينتشرون فى انحاء البلاد يذيعون رسالته ويقطعون على انفسهم عهداً ان يلزموا الصدق دائماً ، وان لا يؤذوا انساناً أو حيواناً أو أى شىء حى ، وان يتجنبوا الشهوة الجنسية . وان يعيشوا عيشة التقشف وان لا يستعملوا بضائع اجنبية . وان لا [illegible] يمكنهم الاستغناء عنه

ويبقى التلاميذ فى مدرسته [illegible] ويقضون عملاً لمدة عشر سنوات يتعلمون فيها الغزل والزراعة وبناء الاعمال الصغيرة [illegible] السنوات العشر يتخرجون معلمين ويقطعون على انفسهم عهد الحق [illegible] .

ومن [illegible] والاحسان [illegible]

[illegible] «[illegible]»

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] ذلك
ولا [illegible] » — [illegible]

[illegible]

ولكن [illegible] لانكاشير ، الا اذا
فرضت ضرائب [illegible] من الضرائب

ولا يمكن ان يسمحوا بتعطيل مناسج لانكاشير لتشغيل انوال الهند المنزلية ؛ ولا بانقاص ارباح اصحاب المصانع الانجليزية لاحياء ملايين بل عشرات ملايين الهنود

ولكن هذا لم يثن غاندى فاحيا حركة سواديشى - الانتاج القومى - الى جانب حركة سواراج - الحكم الذاتى - وجعل معرفة الغزل والنسج لعضوية المؤتمر الوطنى . وطلب من كل هندى مهما بلغت ثروته ان يلبس « الخدار »

ولم تلق دعوته . ككل حركة غريبة مثلها نجاحا كبيرا فى بدايتها اما الان فقد عمت الهند حتى اصبح عشرات الملايين يشتغلون على الانوال واصبحت غالبية الهنود يلبسون الخدار . . ادخل الى اى بنك اجنبى او هندى ، الى محل من محال كوك ، الى اى وزارة او مكتب فانك قل ان ترى من يلبس الملابس الاوربية . اما الباقون من وزراء تابعين للمؤتمر ومن كبراء واغنياء وسراة ووجهاء ، من رجال المؤتمر او غير رجاله يلبسون الخدار . وهو احط المنسوجات القطنية . . . .

وقد شهدنا فى « ريبورى » فى المؤتمر الوطنى العام أكثر من مائة الف نفس يلبسونه جميعا فلا تكاد تميز الغنى من الفقير او الوزير من الصغير .

الطلبة فى المدارس يلبسون الخدار والسيدات من الاسر الكبيرة يلبسن ساريات من الخدار

لقد وصلت دعوة غاندى الى قلب كل هندى حتى المومسات فى المواخير يغزلن وينسجن والمسجونين فى باطن السجون يغزلون وينسجون وفى كل مدينة - سبق هذا حريق كبير كانت طعمته الملابس الاجنبية

ان حركة الخدار من اهم الحركات التى افادت الهند ؛ نعم ان لها ناقدين يرون ان الرجوع الى النول رجوع الى نصف قرن او يزيد ؛ ولكن غاندى يرى ان الالات هى سبب فساد العالم وشقائه . وهى بغير شك سبب شقاء الهنود فقد قتلت

الفابريقات الانجليزية الصناعات المحلية وتركت الملايين وعشرات الملايين فى بؤس اسود يخرجون من مجاعة الى مجاعة . لا نعنى الالوف او مئــات الالوف بل الملايين .

اما النول فقد رد ذئب الفاقة عن اكواخ فقراء الهند ، وحفظ مئات الملايين من الروبيــات فى جيوب ابنائها بدل انصرافها الى اصحاب المصانع الاجنبية .

ولحركة لبس الخدار فائدة ادبية سامية فقد سوى الفواصل البعيدة التى كانت بين طبقــات الهنود . احيا فى الفقراء – وهم سواد الامة – كرامة غابت عنهم منذ مئات السنين فقد وجدوا كبراءهم وعظماءهم واغنياءهم يلبسون هذا القماش الرخيص مثلهم – والخدار هو ارخص المنسوجات القطنية .

وحسن غاندى اجر العامل الفقير الذى يشتغل على النول فقد كان يتقاضى اربع « انات » فحسنه ان يكون اجــره ثمانى « انات » لانها اقل ما يمكن ان يعيش به عيش الكفاف ، وبمعدل « انا » لكل ساعة يعملها .

والانا تعادل خمسة مليمات .

وقد كان من نتائج ذلك ان استنبط الاليــون نولا يدويا جديدا يساعد على مضــاعفة انتاج العامل وبهذا لا نرهــق مضاعفة الاجور اصحاب الاعمال

المقاومة السلبية

اما فكرة « ســاتياجراها » التى اذاعها غانــدى والتى هى اساس الحركة الوطنية الهندية فهى ايضا غريبة ، غريبة علينا نحن الذين عشنا عيشة مادية صرفة اقترنت بالكفاف من المعنويات ولم نعش كغاندى عيشة معنوية روحيــة صرفة تجردت من الماديات .

نعم تجرد غاندى من الماديات فهو لا يملك من حطام الدنيــا الا ثلاث قطع من قماش « الخدار » اما ثروته القديمة فقد وهبها لفقراء قومه ، بل اقنع زوجته بان تتجرد هى الاخرى عن ثروتها وتهبها لهم ايضا وتعيش مثله عيش الكفاف وما يكسيه من

نسجه ينفق عليهم وقد فرض ضريبة قدرها خمس روبيات لكل من يطلب امضاءه خصصها لمساعدة المنبوذين .

وهكذا تجرد من حطام الدنيا وادياتها وكتب على نفسه التقشف فلا يكون له من ضروريات الحياة الا فى حدود ما يصل اليه افقر مواطنيه .

ولهذا ايضا اختار « الخدار » وهو ارخص المنسوجات لانه شعار العوز والتجرد وفاقة ملايين وملايين من قومه لا يستطيعون ارتداء خير منه .

هذا التجرد [illegible] جعل غاندى [illegible] الجديدة « [illegible] كل انسان فى الهند ، تقرؤها فى الجريدة [illegible] وهى تقتضى [illegible] والشر مقاومة سلبية معنوية ، وان يكون على استعداد لدخول السجن [illegible] وعمله [illegible] لا يحمل حقدا ولا [illegible] .

و[illegible] عدة [illegible] عند [illegible] فى [illegible] وبعد [illegible] اللورد [illegible] .

و[illegible] حيث [illegible] حتى [illegible] هناك امر [illegible] عصى الامر وواجه السجن غير ان الحكومة [illegible] وخشيت سوء المغبة ودعته الى لجنة فحصت الشكاوى واقرتها والغت الضرائب .

ونجح فى نزاع بين العمال واصحاب المصانع فقد كان الاخيرون يجنون مدة الحرب ارباحا مضاعفة مرات فطالب العمال بزيادة طفيفة فى الاجور ولكن الرأسماليين أبوا ذلك واقفلوا المصانع واستمرت مقفلة حتى حل البؤس والشفاء بألوف الرجال والنساء واوشكوا أن يرضخوا لحكم السادة ولكن غاندى اعلن الصيام حتى تجاب مطالب العمال ، وقد كان ، فان زوجة أحد كبار أصحاب المصانع تمكنت من اقناعهم بالرضوخ لمطالب العمال وانقذت حياة غاندى .

ثوره سياسيه

وكانت هذه الحركات الصغيرة بمثابة تجارب لتلك الوسيلة الجديدة التى احلها غاندى محل غيرها من وسائل الجهاد فى سبيل الحكم الذاتى ، غير انه ماكاد يستخدمها بتوسع فى حركات سياسية كبيرة ، حتى فشلت ، فشلت فى سنة ١٩١٩ فى حركة مقاومة قوانين رولت ، فشلت فى سنة ١٩٢١ فى بومباى عند زيارة ولى عهد انجلترا ، وفشلت فى سنة ١٩٢٢ فى « شورى شورا » ذلك أن سواد الجماهير لم تكن قد فهم مبدأ عدم العنف تماما فانقلبت الحركات التى بدت سلمية الى حركات دمويه .

زياره ولى العهد

ومثال ذلك انه لما حدثت فظائع امريتسار التى راح ضحيتها الوف المساكين بغير ذنب ولا جرم مهما صغر او كبر واهتزت لهولها ارجاء الهند ، بل ارجاء انجلترا نفسها ظنت الحكومة البريطانية انها تخفف من استنكار الهنود بارسال ولى العهد لزيارة الهند ، ولما وصل الى بومباى فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩٢١ كانت المدينة قد اعلنت « الهرتال » — الاضراب التام وتركت وريث عرش الامبراطورية العتيدة يخترق مدينة أشبه بمدن الاموات . فقد أقفرت الشوارع من المارة . واقفلت النوافذ ، ولم يستقبله الا الانجليز وبعض التجار « البارسى » (المجوس) وما كاد الناس يسمعون بهم حتى ثاروا عليهم واضرموا النار فى دورهم وقتلوا ثلاثة وخمسين رجلا منهم .

وكان هـذا خيبـة شـديدة لغاندى الذى ارادها حركة لاعنف فيها ، ولكنه تعزى عندما عرف أن أمير الغال لما دخل كلكته وجدها مدينة أموات أخرى فقد أعلن الاضراب وكان تـاما ، فأقفلت المتاجر والدور ولم ير ولى عهد انجلترا فى الشـوارع الا الجنود الذين صفوا لتحيته والموظفين الذين جمعوا لاستقباله .

وفى « شاورى شاورا » سنة ١٩٢٢ حاول سبعة وعشرون من رجال البوليس ان يمنعوا موكبا وطنيا من السـير فهاجمتهـم الجماهير وردتهم الى معسكرهم واحرقتـه واحرقتهـم . وقد قبضت السلطات على ربع مليون نفس من اهالى المنطقة انتقاما .

ولكن الساتياجراها . المقاومة السلمية او عدم التعاون ، التى فشلت بحسب نظرية غاندى لان الجماهير لم تقابل الاذى والضرب بالجـلد والصبر بل قابلتـه بالعنف ، هـذه الساتياجراها نفسـها نجحت فيمـا بعـد ابلغ النجاح واتت بأعظم النتائج مما سنشرحـه فى مقالنـا التالى عن غاندى وتعاليمه ونظرياته .





بين العنف والجبن ـ نظرية الضعف ـ غاندى يعقد مكانسه
بين الشعب ـ القبض عليه ـ محاكمته وسجنه ـ الحكم عليه
بنفس العقوبة ـ ماذا قال القاضى الانجليزى ـ **ماذا قال الاسقف**
الانجليزى ـ ما هو عدم التعاون ـ المثل الاعلى **فى الشجاعة**
والوطنية ـ صبى طلب الموت فى سبيل الوطن ـ امرأة تفتح
صدرها لرصاص الجنود ـ نصف نهض من القبر ـ نصيحة
للانجليز ـ المخلصون لغاندى ـ حركة الشباب ـ سوبهاس
شاندرا بوز ـ القديسون لا يصلحون للسياسة ـ جواهرلال
نهرو بعد غاندى

كان تحول حركة المقاومة سلبية فى الظروف التى بسطناها
فى مقدمتنا السبق الى حركة ايجابية استخدم فيها الجمهور
العنف بسبب خيبة أمل غاندى وحزنه . فانه بخلاف كثيرين من
زعماء العالم لا يعد الغاية أهم من الواسطة . أو انها تبررها فى
بعض الحالات . بل هو يرى ان ما من غاية تستحق استعمال
العنف لادراكها . وان العنف ما هو الا مظهر من مظاهر البهيمية ، اما
المقاومة بدون كراهية أو ايذاء فانها عنوان سمو الرجال ويجب
أن نقول هنا أنه يفرق بين عدم العنف والجبن ويرى انه اذا خير
بين الجبن والعنف لاختار العنف دون تردد . أما عدم العنف الذى
يدعو اليه فهو أن يقاوم الناس الشر والعدوان بجهدهم دون عنف
يقدرون عليه . وأن يأبوا فى الوقت نفسه الخضوع والاستسلام
والخنوع حتى ولو ماتوا فى سبيل ذلك .

ومن أقواله : « انى افضل استخدام العنف ألف مرة على
تخنيث الشعب . انى أفضل أن أرى الهند تلجأ الى **السلاح**
دفاعا عن شرفها على أن تصبح أو تبقى ضحية عاجزة متجردة

من الشرف والكرامه . ولكننى اعتقد أن عدم العنف أسمى من العنف سموا لاحد له »

ان نظرية عدم العنف قد تبدو لنا ولغيرنا فى غير الهند عقيدة الضعف أوذريعتهم بل لها فى الهند نقاد واجهوا غاندى بهذا الرأى ، وكان رده : « ان البسالة فى ميدان القتال مستحيلة على الهند ولكن بسالة الروح فى مقدورنا . ان عدم التعاون ليس معناه إلا التدرب على انكار الذات

وهو يقول أيضا : « يجب ألا يكون لنا الا رد واحد على ضربنا واطلاق الرصاص والقنابل علينا . ذلك الرد هو الاستمرار على رفض التعاون بأى حال من الحالات مع التجار البريطانيين أو شراء بضائع بريطانية أو التعاون مع الحكومه البريطانيه .

وهذا الرجل الذى نادى بمذهب عدم التعاون وعدم العنف . لم يتردد فى الدعوة الى وقفهما عندما رأى تحول الحركة من السلب الى الايجاب . ومن احتمال اذى الحكومة وانصارها الى مقابلة الشر بالشر . وكان قرار وقف الحركة خطوة جريئة من غاندى دلت على شجاعته اذ كان يعرف انه يستهدف بذلك لفقد مكانته بين الشعب ولسخط الزعماء وقد كان الشعب يعتقد انه قارب النجاح .

محاكمة غاندى

فقد هبطت فعلا مكانة غاندى الى ادنى درك فانتهزت الحكومة الفرصة وقبضت عليه وقدمته للمحاكمة بتهمة التحريض على الفتنة وكانت قبل ذلك لاتجرؤ على مد يدها اليه .

وكانت محاكمة غاندى درسا آخر فى الوطنية كما دلت على مبلغ شجاعة الرجل وجرأته بل وعلى مكانته حتى عند خصومه

دخل غاندى دار المحكمة مقبوضا عليه بين جبارين من رجال البوليس وفجأة حدث أمر لامثيل له فى دور القضاء . فقد وقف كل من فى القاعة . وقفت جماهير الناس . وقف المحامون وقف رجال السلطة . وقف ممثل الاتهام . بل وقف القاضى الانجليزى احتراما لهذا الرجل



ولانظن أن قاضيا انجليزيا وقف من قبل ومن بعد احتراما لمتهم
ولكنها شخصية غاندى

ولا نظن ان قاضيا . وقد ضيا انجليزيا وقف من قبـل ومن بعد ، احتراما لمتهم يجيء أمامه مقبوضا عليه ولكنها شخصية الرجل الكبيرة .

واستمع غندى الى مرافعة الاتهام ولم يحاول تفنيد التهمة أو دفعها عن نفسه بـل قال : « لو اطلق سراحى لفعلت [illegible] ثانية . انني لا اطلب رحمة ولا اتذرع بظروف مخففة [illegible] أنا هنا اطلب الحكم على بأقسى العقوبة . [illegible] على امر يعده القانون جريمة [illegible] الاسمى نحو وطنه . ان السبيل الوحيد [illegible] هى أن تعتزل منصبك أو تنزل [illegible] .

وقد اصدر القاضى الانجليزى عليه حكما بالسجن [illegible] ولكنه أعرب عن أسفه الشديد لاضطراره لان [illegible] يسجن شخصا يعده الملايين من بنى وطنه وطنيا [illegible] وربما كبيرا . شخص يعده . حتى مخالفوه له . رجلا سامى المبادئ والافكار ، رجلا حياته حياة نبل بر وقداسة .

وعلى اثر هذا الحكم [illegible] « مدراس » الانجليزى « اعترف صراحة . ولو احزننى هـذا . بأننى أرى فى مستر غندى المعذب الصابر فى سبيل قضية الحق والرحمة . أرى فيه مثالا لمنقذ المصلوب يعنى السيد المسيح أكثر ممن اقتدوا به فى [illegible] .

وحدث ان مرض غندى فى السجن [illegible] الطبيب الانجليزى باجراء عملية ولكنه تردد [illegible] [illegible] .

[illegible] الى دفة القيادة [illegible] ونزل الى الميدان . واعلن عدة مرات عدم [illegible] اليـه فلبوا جميعا طائعين مرة بعدة مرة .

شروط عدم التعاون

وعدم التعـاون يتطلب من منفذه :

أولا ـ أن يرد جميع الألقاب والرتب والاوسـمة والوظائف الفخرية . ويستقيل من الهيئات المحلية .

ثانيا ـ رفض حضور حفلات الحكومة واجتماعاتها وغير ذلك من الحفلات الرسمية أو شبه الرسمية التى يقيمهـا موظفو الحكومة أو تقام تـكريما لهم .

ثالثا ـ سـحب التـلاميذ تدريجا من المدارس والـكليات التى تحت اشراف الحـكومة وانشاء مدارس وكليات أهليـة فى المقاطعات المختلفة .

رابعا ـ مقاطعـة المحامين والمتقاضين للمحاكم البريطانية تدريجا وانشاء هيئـات تحكيم خاصة لتسوية المشاكل الخاصة

خامسـا ـ رفض التطـوع للخدمة العسكرية أو الـكتابية أو فرق العمال .

سادسا ـ انسحاب الاعضاء والمرشـحين من الانتخـابات للمجالس والجمعيات التشريعية . وامتناع الناخبين عن الانتخابات فى حالة ما اذا خالف شـخص ذلك ورشح نفسه .

سابعا ـ مقاطعـة البضـائع الاجنبية

ثامنا ـ سحب الاموال الهندية من سندات الحكومة .

شـجاعة الوطنيين

وقـد قاد غاندى قومه فى المقاومة السلبية وكسر القوانين الجائرة مثل قانون احتكار الملح وغيره وروضـهم على احتمال الاذى فى سـبيل ذلك وعـدم المقاومة ، وقد لقى النـاس من فظائـع البوليس الاهوال ، ففى مقاطعة الحدود الشمالية أعمل فى الناس قتلا وضربا حتى قتل مئـات وجرح الوف ؛ ومع ذلك كان النـاس يتلقون الرصاص بصدورهم . وكان فخر زعمـاء الحركة انه قتـل مئات منهم بالرصـاص بدون ان يثبت أن اصابة واحـدة كانت من الظهر وفى بشاور ظهر فى اجسام بعض

القتلى اكثر من عشرين جرحا بالرصاص ، وتجلت بطولة الناس وعدم اكتراثهم بالموت . حتى أن صبيا من السيخ تقدم الى جندى وقال له اقتلنى فاننى وهبت حياتى للوطن فارداه ذلك الجندى القاسى دون تردد ، ورأت امرأة مسلمة عجوز اقاربها واصدقاءها جرحى بالرصاص فتقدمت من رجال البوليس وكشفت عن صدرها صارخة اضربوا فاطلقوا النار ، وكان رجل اخر مسن يحمل طفلا فى الرابعة من عمره أراد البوليس رده فلم يرتد قائلا لم نتعود النكوص فلما صوبوا اليه بنادقهم قال : « اقتلونى فلن تنبت شجرة الحرية فى هذا البلد الا اذا رويت بالدماء .

كل هذا والناس يابون التفرق ، ويحتملون الاذى والموت دون أن يردوا العدوان بالعدوان .

وفى « دراسانا » سارت الجموع نحو مواضع الملح لتاخذ حاجتها منه احتجاجا على قانون احتكاره فحاول الجنود بقيادة ضباط انجليز صدهم فلم يرجعوا ، وكان الجنود يحملون نبابيت فى اطرافها قطع الفولاذ نزلوا بها على صفوف المتقدمين ليمنعوهم من التقدم فلم يمتنعوا واحتملوا الضرب حتى سقطوا مغمى عليهم من الضربات وتقدم صف رجال يحمل النقالات لنقل المصابين وتقدمت صفوف من الرجال والنساء نزل بها ما نزل بالاخرين . وهكذا . وحدث مثل هذا فى بومباى وغيرها .

ومما يذكر ان رجال البوليس الهنود كانوا يمتنعون عن الضرب كلما انتسوا من الضباط الانجليز انفصالا عنهم . ولا يضربون الا اذا ظهر الضباط ثانية .

ومن الغريب ان هذه الفواجع لم تثن الهنود عن تلبية نداء غاندى كلما دعاهم الى المقاومة السلبية وعدم التعاون .

لقد تحققت المعجزة التى ارادها غاندى . واذا لم يكن لنظرية الساتياجراها من فضل لا انها انتشلت هذه الامة المنحلة المستسلمة من احط درك العبودية التى وصلت اليه واخرجتها من سباتها العميق لكفى .

هذه الامة التى رضيت الذلة ، وتجردت من الوطنية . واستمات
ضميرها الوطنى صهرها غاندى امة واحدة تتحرك وتسير وتصاب
بل وتقس وتموت دون تردد أو شكوى .

ولكن « الساتياجراها » لم تصل بالهنود الى هذه الغاية
فقط بل وصلت بهم الى نجاح [illegible] . فسلم الانجليز [illegible]
مطالبه المعتدلة او اكثرها . وخرجوا من السجن [illegible]
[illegible] الهنود فى مؤتمر المائدة المستديرة . وافرجوا عن
المسجونين السياسيين [illegible] الهند وحكومات
المقاطعات نظاما جديدا يقوم على برلمانات ووزارات [illegible] ووزارات
هندية . نعم انها [illegible] . يسيطر عليها [illegible]
[illegible] . و[illegible] . ولكن
[illegible] الحكام [illegible] الاحوال [illegible] وانهم يجب ان يحذروا
من استعمال سلطاتهم .

وما [illegible] لا بداية فالهند تسير الى حريتها [illegible]
وستصل اليها . وعلى الانجليز ان تدرك انه خير [illegible]
من الآن فى توسيع نظام الحكم الذاتى فى الهند حتى [illegible]
الهنود مصيرهم [illegible] على قواعد [illegible]
و[illegible] .

فرصة الانجليز

يجب أن [illegible]
الهند لانه [illegible]
باتباع [illegible] . و[illegible] هذا [illegible]
فلن يستطيع زعيم آخر [illegible] الجديدة عن حركات
عنيفة .

بل بين الزعماء الآن من خالفوا غاندى فى [illegible]
مقدمتهم [illegible] شاندرا بوز [illegible] . [illegible]
ومن ورائه عناصر [illegible] الفرصة [illegible]
عنيف . للضغط على انجلترا حتى ترد للهند حريتها .

المخالفون لغاندى

بل بعض الهندوس انفسهم يتهمون غاندى فى عقيدته فمنذ
سنوات وقف واحد منهم فى مؤتمر دلهى يقول : « انى اعارض



قال صبى من السيخ : « اقتلنى فقد وهبت حياتى للوطن »

خطة عدم العنف وعدم التعاون وأسالكم أهى من تعاليم الهندوسية ؟؟ كلا !! أهى من تعاليم الاسلام ؟؟ كلا !! أأقول لكم ماهى ؟ انها من تعاليم المسيحية »

ويقول له بعضهم أن الثورة الايرلندية اثبتت ان الانجليز لايحترمون الا القنابل والرصاص ويقول اخر ان القديسين لايصلحون للسياسة .

وكتب اليه ثالث يقول ان « الاحمسا » — عدم العنف — لاتوافق الهند لان الهندوس كماسلم بذلك جبناء يستخدمون هذه الفكرة للتستر وراءها . أما المسلمون فمقاتلون بطبيعتهم والموت فى سبيل الجهاد محبب اليهم »

وكتب اليه رابع — « الا تظن ان المؤامرات المسلحة ضد شىء شيطانى ذميم أجدر بأية أمة من انتشار الجبن الفلسفى ؟؟ واعنى به الجبن الذى شاع فى أنحاء الهند طولا وعرضا بسبب نظريتك — عدم العنف »

وقد كتب غاندى مرة — « قال لى صديق مسلم أحبه واحترمه . اننى لا أؤمن بنظريتك عدم العنف .. العنف هو قانون الحياة اننى لا انال الحكم الذاتى بعدم العنف .. يجب أن أكره عدوى . »

مثل هذه الرسائل مئات ومئات ترد الى غاندى فينشرها فى صحافته ويرد عليها وقد اشرنا اليها لندل على قوة الرجل الذى يستطيع ان يحمل امة بأسرها على اتباع فكرته رغم وجود كثيرين من المخالفين حتى بين كبار زعماء الحركة الوطنية ، ولندل الانجليز على ان هذا الوقت هو خير الاوقات لتعديل سياستهم فى الهند فلن يجدوا زعيما يطيعه الهنود طاعة عمياء مثل غاندى !

ثم ان جواهر لال نهرو هو اكبر الزعماء نفوذا بعد غاندى . وسيكون زعيم الهند بعده ولكننى لا احسب أن جواهر لال ممن يؤمنون فى حركات الاستقلال والحرية بالاقتصار على الخطط السلبية بل اعتقد انه ممن يقولون بضرورة تحصيل الاستقلال والحرية بعدم العنف أو العنف .



المؤتمر الوطني ينشئه انجليزي بنصيحة نائب ملك انجلترا • الوطنية والدين • سوامي دياناندا ومهاتما غاندي • ثورة على الاصنام • برهمي يؤلف تحفة الموحدين • براهما ساماج • ثورة اخرى على الاصنام – اريا ساماج • راما كرشنا • آثار الاسلام في الهند • اباطرة المغول • الاداب الاوردية • الانجليز يخذلون المسلمين • سير احمد خان • انشاء كلية عليجرة

سخرية القدر

قد يكون من سخرية القدر ان هذا المؤتمر الوطني الهندي ، الذي ينتسب اليه رسميا اربعة ملايين عضو ، ويؤيده عشرات الملايين في جميع ارجاء البلاد قد يكون من سخرية القدر ان هذا المؤتمر الذي يعمل على تحرير الهند ، من نير الانجليز ، ويجاهد في سبيل استقلالها ، انشاه منذ اربعة وخمسين عاما انجليزي كان موظفا في حكومة الهند ، وشجعه على تاليفه انجليزي كان نائبا لملك انجلترا في حكم الهند .

الوطنية والدين

تختلط الوطنية في الهند بالدين اختلاطا كبيرا ، ومرجع هذا تاخر البلاد ، فان مئات الملايين من الهندوس الذين تبادلتهم سيطرة المغيرين الاجانب ، دولة بعد دولة وعشرات الملايين من الذين اذلهم الحكم البريطاني ، ماتت فيهم العزة الوطنية ، واستكانت الروح الوطنية ، ورضوا العبودية واستناموا لها ، فقد مرت عشرات السنين ، بل مرت مئاتها بهم ، وهم في غفوة ، بل في سبات عميق ، اجتمع عليهم الظلم والجهل والفقر ، وكل منها وحده يكفي لقتل شعب ، فماتت فيهم الرجولة وانعدم منهم الادراك وقتلت الكرامة والعزة ، وصاروا اذلاء يرضون بالقليل ، وبدون القليل مما هو في حكم العدم

مثل هؤلاء لايحركهم الا الدين ؛ الدين وحده هو الذى يبعث فيهم عناصر الحياة من جديد ؛ ولهذا يخطىء الذين يردون أصل الحركة الوطنية فى الهند الى سنة ١٨٨٥ سنة تأسيس المؤتمر الوطنى ، بل لابد من ردها الى ماقبل ذلك بنيف وخمسين سنة الى حركة « براهما » و « آريا ساماج » و « راما كريشنا » وحركة علىجرة بين المسلمين . وغيرها

ومما يصح ذكره ان سوامى فيفيكاناندا ومهاتما غاندى حركا بتأثيرهما الدينى مئات الملايين من الهنود ، وايقظا فيهم حب الوطن ، ونجحا فى ذلك نجاحا لم يصل اليه قبلهما زعيم سياسى قط

بل كان لهما أثر بالغ فى حركة المؤتمر ونهضته ، ومع هذا فقد بقى سوامى فيفيكاناندا راهبا الى النهاية ولم يدخل حلبة السياسة قط . وطالما جهر مهاتما غاندى بأنه ما أصبح زعيما قوميا أو سياسيا الا لينشر ايمانه بالله فى عصر قوامه السياسة

واذكاء الشعور الوطنى عن طريق الدين ليس معناه اذكاء التعصب الدينى فقد رأى القراء فيما كتبناه عن غاندى انه يدعو كل شخص الى التمسك بدينه أيا كان فهو يريد ان يحسن اسلام المسلم وان يتمسك المسيحى أو البوذى بتعاليم المسيحية أو البوذية لانه يعتقدان فى هذا صلاح الكل

وفوق هذا فان الحركة الوطنية . أو بعبارة أدق حركة المؤتمر لاتفرق بين دين ودين فهى تشمل جميع الهنود على اختلاف أديانهم ومذاهبهم

يثور على الاصنام

وقد اجمع مؤرخو الحركة الوطنية الهندية ، وأيد ذلك التاريخ الرسمي للمؤتمر ، على ان بداية الحركة الوطنية فى الهند الحديثة ترجع الى بداية القرن التاسع عشر ، الى النهضة التى قام بها راجا رام موهان روى منشىء جماعة «براهما» ويعدونه نبى الحركة الوطنية الحديثة

ولد الراجا من عائلة برهمية قديمة وتعلم بمدينة « باتنا » بمقاطعة « بيهار » وكانت مركزا مشهورا للثقافة الاسلامية ، وروى عنه ان عاداته وميوله تأثرت أكبر الاثر طوال حياته بتعليمه الاولى ، ولما عاد الى داره من « باتنا » فى سن الخامسة عشرة من عمره وجد بينه وبين أبيه هوة سحيقة بسبب عبادة الاصنام فلم يستطع العيش مع أسرته فهاجر وطاف الهند والتبت ثم استقر فى «بنارس» واشتغل مدة فى شركة الهند التى كانت تحكم البلاد واتصل ببعض الانجليز

ولما مات أبوه عام ١٨٠٣ نزع الى « مرشد اباد » فى البنغال ووضع كتابا بالفارسية اسمه « تحفة الموحدين » حمل فيه حملة شعواء على الوثنية وتعدد الآلهة

وترك خدمة الشركة سنة ١٨١٤ واستقر فى كلكتا حيث انشأ « اتمبا صابحا » أى جمعية الاصدقاء ، واتصل ببعض المبشرين ودرس العبرية واليونانية لتفهم كتب المسيحية أيضا

ولم يقصر نشاطه على الناحية الدينية بل عاضد النهضة الثقافية والاجتماعية واشترك فى انشاء الكلية الهندوسية فى كلكتا سنة ١٨١٩ وأيد الحركة التى انتهت بابطال عادة «ساتى» حرق الأرامل مع جثث أزواجهن

وفى سنة ١٨٢٨ أنشأ « براهماساماج » (جمعية) لنشر عقيدة التوحيد ومقاومة تعدد الآلهة وعبادة الاصنام وابطال الخرافات الدينية

وكانت هذه أول حركة دينية هامة فى الهند فى القرن التاسع عشر ، وقد اقتبس اسمها « براهما » من الكلمة السنسكريتية « براهمان » ومعناها (الله) ويظهر ان غاية راجارام موهان كانت ان يصل الى تجريد دين الهنود من الخرافات التى جعلته عرضة لحملات المبشرين وجعله بحيث يوافق روح العصر العملية

واذا كانت الجمعية لم تتقدم فى نشر تعاليمها كثيرا الا انها نجحت فى اثارة اهتمام الناس سواء لتأييدها أو لمهاجمتها ،

وتولدت عن ذلك حركات عدة دينية واجتماعية طوال القرن التاسع عشر ، وكان من نتائج المناقشات الدينية ، ان الناس اخذوا يتنبهون الى كثير من الاوشاب التى علقت بالدين ، وأدى الدين الى ارتقاء فى الاخلاق والى رغبة فى تحقيق حق الفرد والامة من العدالة والحرية

ونزح راجا موهان الى انجلترا سنة ١٨٣٠ وبقى بها لحين وفاته سنة ١٨٣٣ عمل خلالها لحمل الانجليز على تحسين حال الهنود ، ويعده المؤرخون أبا الهند الحديثة وأول دعاة الوطنية فيها

وتعاقبت السنوات على السماج وتولى امرها كثيرون بينهم بعض اجداد « تاجور » شاعر الهند العظيم ، وكان لها شأن عظيم فى الحركات الاجتماعية والسياسية فى الهند ، وبعض رجالها كانوا من زعماء حركة المؤتمر الهندى

اريا ساماج

وبينما كانت حركة « براهما ساماج » تنتشر فى بلاد البنغال ، كانت حركة اخرى تماثلها قد ظهرت فى شمال الهند ، يقوم بها كاهن مبشر هندوسى اسمه دايانادس ساراسوانى ولد سنة ١٨٢٤ ، وكان منذ صباه يستنكر عبادة الاصنام ولا يرى فيها شيئا الهيا ، وقد أزعجت آراؤه أبويه فرأيا ان يزوجاه رجاء تحويله عن عقيدته الجديدة ، ولكنه هو ايضا فر من دار أسرته وضرب فى انحاء الهند ، متلقيا علوم الدين حتى ظن انه جمع منها الكفاية فأخذ ينشر الكتب والمصنفات داعيا الى آرائه ثم انشأ « اريا ساماج » فى سنة ١٨٧٥ .

وكان لايعرف الانجليزية فكان يخطب ويكتب بالهندية ولهذا كانت دعايته تصل الى جموع الشعب

وكان أساس عقيدته التى تمسك بها ودعا اليها هو انه ليس هناك الا اله واحد ، وانه لايعبد عن طريق الصور والاصنام وانما يعبد كروح

ومما رغب الهنود فى دعايته انه اقر اعتقاد الناس فى انتقال الارواح ، وفى الكارنا (ان مصير الانسان متوقف على اعماله)

وقدسية البقرة ، ولكنه استنكر زواج القصر وتحريم الزواج على الارامل .

وهكذا تمشت « أريا ساماج » نحو تعصير الديانة الهندوسية مع تجنب مصادمة ميول الجماهير فى بعض المسائل وعصرت معها الشئون الاجتماعية فى شمال لهند ، وأخذت تنبه أهل البلاد الى ضرورة التمشى مع حركة التقدم والعمران فى العالم

راما كريشنا

وفى قرية من قرى البنغال . ى سنة ١٨٣٦ ولد راما كريشنا ، ولما كبر صار راهب القرية . ولم يكن له من العلم والمقدرة ما كان لديانند ومع هذا فان الطبقة الوسطى التى تعلمت تعليما غربيا . وسواد أهل البنغال جعلوه بطلهم الوطنى

ذلك ان أولئك الناس ضاقت صدورهم بالثقافة الانجليزية وما فيها من تفوق فاتخذوا من هذا الراهب القروى العبقرى شعار ثورتهم على تلك الثقافة

وقد اوجد راما كريشنا حركة اصلاح اجتماعى كان لها نتائج سياسية أيضا .

ولما مات خلفه فى نشر تعاليمه تلميذه سوامى فيفيكاناندا الذى لعب دورا هاما فى اثارة روح الوطنية بين شباب الهند ، وكان يحثهم على الاعتماد على انفسهم فى تحقيق غاياتهم القومية ، ويقول لهم ان الهنود وحدهم هم الذين يلامون على ماوصلوا اليه من ذل واستعباد طوال الف عام وهم الذين يجب ان يعملوا للتخلص مما هم فيه واسترداد حقوقهم وحريتهم

حركة عليجرة

للاسلام فى الهند آثار عظيمة، بل أهم آثارها التى تفخر بها ، والتى تعرضها على السائحين فى كل مكان ، انما هى من مخلفات الحاكم الاسلامى ، بها تعتز الاقلية الاسلامية فى الهند ، ويشير اليها زعماؤهم فى مباحثاتهم الخاصة عن حركة الانقسام بين الهندوس والمسلمين

كان جارى على مائدة السيد حبيب الله خان فى لكناو نواب اسماعيل خان رئيس الحزب الاسلامى فى المقاطعة المتحدة فكان من ضمن ماقاله لى . « هل زرت الآثار فى مدن الهند

قلت ـ نعم

فقال ـ لاى عهد تنتسب ؟

فقلت ـ لعهد المسلمين

فقال ـ لقد كان المسلمون سادة هذا البلد

وليس بحث اليوم مجال بسط النزاع بين الاقلية والاغلبية فى الهند فان له مجالا آخر ان شاء الله . ولكنى ذكرت ماتقدم لادل على مبلغ النهضة الاسلامية فى الهند واعتزاز المسلمين بها تلك النهضة التى قضى عليها استسلام أباطرة المغول للترف والخمر فمكنوا للاجنبى منهم : وسهلوا العصبة من قرصان الانجليز ، جاءت باسم التجارة ، ان تضع يدها على الهند مقاطعة بعد الاخرى .

ولكن الثقافة الاسلامية رغم هذا بقيت اثارها ، والاداب الاوردية كان لها شأن فى دلهى بين سنة ١٨٣٥ وسنة ١٨٥٧ ، سنة الثورة المشهورة .

وقد كان يعيش فى دلهي حتى سنة ١٩٠٨ بعض من اشتغلوا بنهضة آداب اللغة الاوردية لعهد اخر اباطرة المغول .

واذا كان شعر رابندارانات تاغور قد نهض باللغة البنغالية واحياها فان اثر الشاعر الكبير المغفور له محمد اقبال فى الاداب الاوردية فى بلاد البنجاب كان عظيما .

والى اللغة الاوردية ترجمت عدة كتب من مؤلفات الغرب العلمية .

وقد استمرت هذه النهضة الى ان جاءت الثورة فقضت على هذه النهضة الثقافية بين المسلمين ذلك أن الانجليز اضطهدوا المسلمين أشد اضطهاد وانزلوا بهم افظع انواع الظلم والاستعباد فقد اتهموهم بأنهم مضرموا نار تلك الثورة ليعيدوا الى دلهى عرش المغول ويستردوا للمسلمين صولة الحكم والسلطان .

وكان من نتائج العسف والاستبداد أن تضاءلت الثقافة بين المسلمين، ونزل الخراب بكثير من الاسر الكريمة ، وساءت حالهم الى ابعد حد فى اغلب انحاء شمال الهند : وفى دلهى نفسها كان بعض سلالة الاسرة المالكة يعيشون فى ضيق وضنك وعوز لا مثيل له

وتفشى الجهل بين المسلمين حتى بداية القرن الحالى وبالرغم من الجهود التى يبذلونها لان فانهم ما زالوا دون غيرهم من الطوائف عرفانا وثقافة .

وامام هذه الحال المفجعة تحركت غيرة رجل هو سير سيد احمد خان الذى كان قد خدم الحكومة خلال الثورة خدمات جعلت له حق الكلام فى شئون المسلمين والشكوى مما وصل اليه امرهم .

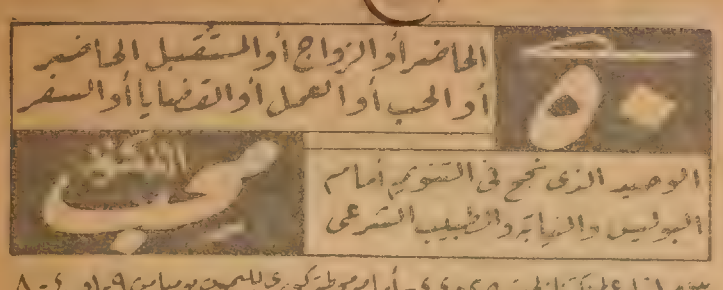
وكان لا بد من همة كهمة سيد احمد خان للتغلب على معارضة الانجليز ومقاومة الرجعيين من علماء المسلمين الذين كانوا يعدون تعلم العلوم الحديثة حراما وهو رغم ذلك نجح وبنفس جهوده اسست جامعة عليجرة وكتب عنه سير تيودور — الذى عرفه من قرب واشتغل معه فى عليجرة من بدايته فقال — « كان سير سيد اولا واخرا مصلحا دينيا . دعا قومه للعودة الى قواعد الاسلام الصحيحة ، واستنكر الخرافات والاوهام التى ادخلت عليه وانذرهم بان وسيلة النهوض الوحيدة هى التعليم والتعليم الغربى . وليس فى تعلم علوم الغرب ما يخالف الدين كما يزعم المولويون جهلا . ثم يقل النبى اطلبوا العلم ولو فى الصين . لقد استهدف السير سيد لحملات شديدة واضطهادات اجتماعية بسبب شجاعته فى الراى ، ولكن ذلك ما كان ليثنيه عن عزمه ، وقد تغلبت شخصيته فى النهاية على المعارضة والتشهير . وكان فى اخريات حياته مسيطرا على اراء المسلمين ، ولما مات ودفن فى جانب مسجد عليجرة قال لى احد اصدقائه .

« لقد صنف اخرون المؤلفات وانشئوا الكليات ، ولكن هذا الرجل اوقف تيار انحلال قومه وكانما اقام فى وجه هذا التيار حائطا منيعا ، مثل هذا العمل انما هو من اعمال الانبياء ، وهذا القول حكم صادق على شخصية سير سيد وعمله ؛ اما انا فيمكننى ان اقول اننى لم الق فى حياتى رجلا يدانيه فى عظمته »

هذه شهادة سير تيودور لسير سيد بعد وفاته .

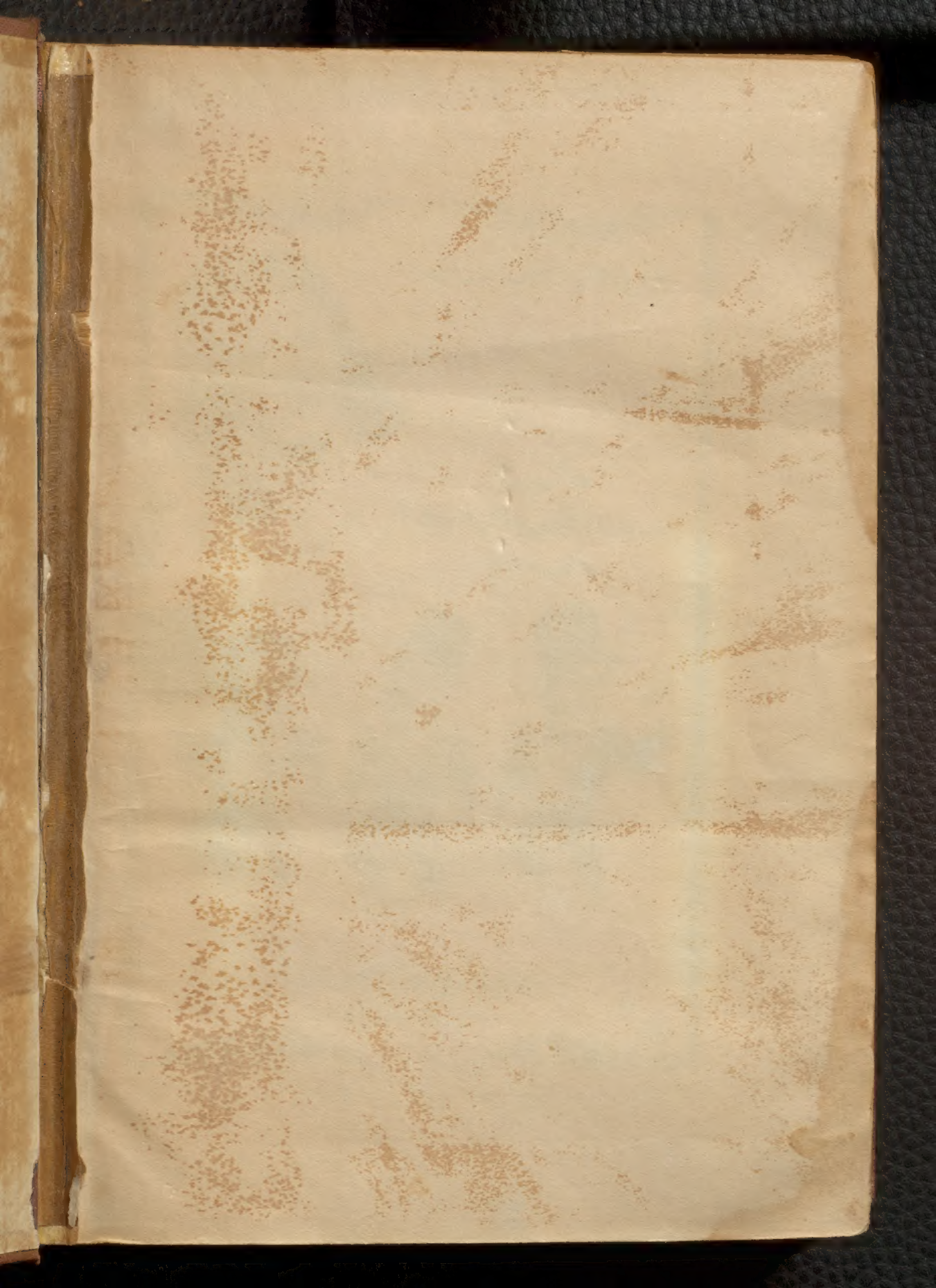
وقد كان لحركة عليجرة اثرها فان الروح الجديدة شاعت فى كل مدينة فى شمال الهند وغيرها من الاوساط الاسلامية .




الحاضر أو الزواج أو المستقبل الحاضر
أو الحب أو العمل أو القضايا أو السفر
محب
الوحيد الذى نجح فى التنويم أمام
البوليس والنيابة والطبيب الشرعى
١٥٣ شارع الملكة نازلى ت ٤٤٠٢٥ - أمام محطة كوبرى الليمون يومياً من ٩-١ و ٤-٨


الأعياد كلها مجتمعة تساوي
ليلة العيد
حاليا
بسينما الكورسال الفخمة
بالقاهرة
الفيلم الذي يجمع كل أبطال الفكاهة و الشرق
إنتاج وتوزيع شركة الأفلام المتحدة
«أنور وجدي وشركاه»






4284

